



أمريكا اللاتينية

الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية

المشروع القومي للترجمة

تأليف:
لاوريت سيجولانه
ترجمة:
صالح علماني

444

أمريكا اللاتينية

الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية

تأليف : لاوريت سيجورنه

ترجمة : صالح علماني



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٤٤
- أمريكا اللاتينية
  الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية
- لاوريت سيجورنه
- صالح علمانى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

AMERICA LATINA

Antiguas culturas precolombinas

تأليف : **Laurette Sejourne**

الصادر عن دار نشر

SIGLO XXI DE ESPAÑA EDITORES, S. A.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

---

مدخل

ربما شكلت المهمة الملقاة على عاتق مؤرخ الماضى الأمريكى خير برهان على صلة القرابة التى ألح فرويد كثيراً فى الإشارة إليها ، بين علم الآثار والتحليل النفسى ، فكلا النسقين يرميان إلى التوصل إلى إثبات حقيقة مخبأة تحت أجزاء مشوهة وبكماء ، لم يبقَ فيها أى أثر للدافع الحيوى المُوحِد .

فعلى الرغم من أن عالم الآثار والمحلل النفسى، على حد سواء، يتوصلان بعد سنوات طويلة من العمل الدءوب إلى اكتشاف أن ما هو جوهرى قد احتفظ بوجوده فعلاً، إلا أن الإهمال والتشوهات التى تخفيه تشكل سداً يبدو للوهلة الأولى أنه لا سبيل إلى اختراقه، فالبقايا الأثرية - وهى البيانات الوحيدة التى تصلنا من الواقع [الأمريكى اللاتينى] موضوع هذا البحث - لا يمكن فهمها إلا بمساعدة مترجمين، إما أن يكونوا من الفاتحين والمستوطنين الإسبان، وهؤلاء بالذات هم ألد أعداء تلك الآثار ، وهم ذوو قدرة محدودة على التفهم والموضوعية، أو من كتبة الوقائع ومؤرخى القرن الخامس عشر، ذوى النوايا الطيبة جداً أحياناً، إنما الجاهلون بجذور الحضارة التى أدركوها فى مرحلة اضمحلالها السريع.

ويمكن لنا أن نفهم بصورة أفضل صعوبة متابعة سياق تلك الثقافات القديمة إذا أخذنا بعين الاعتبار الزمن والجهد اللذين تطلبهما الوصول إلى فكرة متوسطة الصواب عن الواقع المادى للقارة وسكانها، ولولا التدمير والتعسف اللذين رافقا اكتشاف جغرافية أمريكا، لكان هذا الاكتشاف بحد ذاته قد شكل قصة مؤثرة: قصة الظهور البطىء والمتدرج لعالم رحب، ورسم الحدود بخطوط صغيرة غير واثقة ما لبثت أن راحت تمتد شيئًا فشيئًا لتكوِّن حدود قارة تزداد اتساعًا وغموضًا؛ قصة شواطئ مترامية، حيث أطياف كائنات غير واضحة الملامح تتراكب، كما فى الحلم، فى صور متناقضة؛ ورؤى فردوسية لجموع باسمة محملة بالهدايا، تتبدل فجأة لتصبح حروباً طاحنة وشواطئ متوعدة ومقفرة.

وبالفعل، فالأحكام المتناقضة التى نجدها عند كاتب واحد تدلنا إلى أى حدٍ كان الوطنيون وهميين فى نظر الفاتحين. فهؤلاء يتقلبون لدى الحديث عنهم من رأى إلى آخر دون أن ينتبهوا، مثلاً، إلى أن غاراتٍ لاختطاف الرقيق قد وقعت فى تلك الأثناء، أو أن مجازر قد اقتُرفت للحصول على قليل من الذهب أو على بعض الأغذية.

لقد كان التوغل فى عمق أراضى القارة صعباً فى كل الأنحاء، فاكتفى الفاتحون خلال عشرين سنة بحملات خاطفة انطلاقاً من الشاطئ، مخصصة أساساً لاصطياد بشر يحلّون فى جزر الأنتيل محل مواطنيها الذين أبيدوا عن بكرة أبيهم تقريباً فى السنوات العشر الأولى من الاحتلال. فكانت تلك هى مرحلة صيد البشر ومرحلة الاختصاصيين بها، وهم صيادون ذائعو الصيت كان الطلب على خدماتهم كبيراً جداً، وكان بيع الرقيق – التجارة التى لا تدانيها فى الربح إلا تجارات قليلة – مشروعاً حتى سنة ١٥١٧ على الأقل، وهو التاريخ الذى وصلت فيه زمرة من المغامرين إلى الأرض المكسيكية لأول مرة، بتفويض من حاكم كوبا لـ «القيام بغارات على أراض جديدة واصطياد العبيد» .

وأخيراً جاء هوس الذهب الذى أيقظته عينات من هذا المعدن وحكايات عجيبة عنه، فوفر الدافع اللازم لشن الحملات على القارة.

وضاعفت المناطق الداخلية من تلك الأراضى، بتضاريسها الوعرة المعقدة ومدنها التى لا يمكن تخيلها، الإحساس باللاواقعية لدى أولئك الرجال الذين كانوا يتقدمون كالمسرنمين، تحركهم قوة عمياء لا يمكن لأى اعتراف بالآخر أن يبدلها، كانوا يجتازون غابات وصحارى ومستنقعات، ويخوضون أنهارا صاخبة، ويتسلقون ثلوجاً سرمدية دون أن تكون فى أذهانهم أى فكرة أخرى سوى تجاوز العوائق التى تنتصب بينهم وبين الذهب، ودون أن يصرفهم أى شىء على الإطلاق عن البحث عن الثروة.

وعلى الرغم من ملاحظات الأوربيين حول العادات الغريبة وحول شخصية هذا الفرد أو ذاك، فإن سكان المناطق الداخلية لم يكن لهم من وجود فى نظرهم إلا بقدر ما كانوا يساعدون أو يعرقلون عملية الوصول إلى الكنز. وتاريخ مغامرات الفاتحين كله يكاد ينحصر فى هجمات شبه يومية ، وفى عمليات تنكيل لمعرفة مخابئ الذهب السرية التى يتخيلون وجودها أحياناً ؛ وفى الحيل التى يبتدعونها ليحصلوا بالطرق السلمية

على الثروات المنشودة بجشع، وفي النزاعات الضارية التي تنشب فيما بينهم عند اقتسام الغنائم. ولم يكن العالم الخرافي الذي يكتشفونه هدفًا للملاحظة ما لم ينطوِ على وعد بثروات طائلة أو يكشف لهم عن مجوهرات فاخرة. ولقد كان هاجس الذهب هذا سببًا في واحد من أغرب فصول الفتح وأكثرها طرافة: الهجوم على ساحة مكسيكو المقدسة عند اشتباههم بأن البريق المنبعث من ملاط الكلس والمرمر ومن جدران مبانيها هو بريق المعدن الثمين.

وعلى الرغم من ألمعيــة بيرنال دياث دل كاستييو Diaz del Castillo في السرد، إلا أنه لا يشذ عن هذه القاعدة. فالسعي وراء الثروة يشكل لحمة مؤلفه وسداها، وحين نشعر بأن لنا الحق في انتظار ملاحظة موحية منه، نرى بغيظ أن هذا المؤرخ يضيع مستغرقًا في حسابات حول قيمة الغنيمة المقتسمة. وحين يتحدث عن استراحة استغلها الفاتحون ليسموا بالحديد والنار جموع الأسرى على شاطئ الأطلسي - في مكان وصلت فيه الثقافة المكسيكية إلى مستوى باهر - فإنه يُغفل ذكر أدنى تعليق حول ما يجري في «البيت الكبير»، حيث يوجد رجال ونساء، كانوا متأنقين حتى العشية، يوسمون بالحديد المحمى في وجوههم، ويتوقف بالمقابل ليتحدث مطولاً عن تبرم الجند من انعدام العدالة في اقتسام الثروات المنتزعة من الوطنيين.

إن أولئك الأوربيين، باقتحامهم القرى والمدن بعد مسيرات طويلة ومضنية، وهم جياع وشبه عراة وجرحى في معظم الأحيان، يدفعوننا إلى أن نتذكر قطعان الذئاب، بل لقد أقدموا على أكل اللحم البشري فيما بينهم، حتى إن الإسبان الذين جاؤوا فيما بعد، يتحدثون بتأثر أو بازدراء عن قطعان مواطنيهم المنهوكين، ذوي الأسمال أو أشباه العراة، وهم يحملون هذا السلاح أو ذاك، أو ثوبًا انتزعوه من الوطنيين.

ولم يكن أولئك الصيادون يرون في الوطني بالطبع سوى حيوان للصيد. ومعظم النزاعات التي يحفل بها القرن السادس عشر، بين الفاتحين والمتروبول(*)، إنما سببها

(*) متروبول كلمة من أصل أغريقي ، مكونة من metron وتعني الأم ، و polis وتعني مدينة . ويشار بكلمة متروبول في هذا الكتاب إلى اسبانيا التي تعتبر «الوطن الأم» بالنسبة للمستوطنين الأوربيين في جنوب القارة الأمريكية .

محاولات انتشال الضحايا من شراسة أسيادهم، حتى بعد أن تبين بوضوح أن التبذير بالأرواح البشرية يعرض الاقتصاد الناشئ للخطر. فقبل أن يبدأ التفكير بمصير السكان الأصليين، ظهر الخوف من انقراضهم جسدياً.

ومما يبين خطورة الوضع فعلاً، أن امرأة «مسترجلة» مثل الملكة إيزابيل الكاثوليكية، التى طردت اليهود من إسبانيا ووضعت حداً لسيادة عربية دامت قروناً، تأثرت للمظهر الذى اتخذته عملية الاستيطان، ووصل بها الأمر إلى حد القلق وهى على فراش الموت، فأملت عدة إجراءات بخصوص ذلك فى وصيتها. ومما يحمل دلالة فى هذا الشأن أيضاً، أن قانون الحماية الأول الذى سنه كورتيس، بعد سنتين من استسلام عاهل المكسيك، كان يهدف إلى إجبار المستوطنين الإسبان على وضع حد للمذابح التى كانت تؤدى إلى شل الإنتاج، واعتبار الوطنى «متاعاً شخصياً» يجب الحفاظ عليه.

لقد كان العمى حيال عالم متحول إلى غنيمة هو شرط الانتصار، لكن نتائجه كانت وخيمة على عملية الاستيطان. فالسماح بكل أشكال التسلط، جعل هذا العمى يتسبب فى فتح هوة بين المنتصرين والمهزومين، وهى هوة ربما لم تنل الاهتمام الكافى فى تحليل نفسية الخلاسي المُوَلّد. فانعدام الاحترام المطلق تجاه الوطنيين الذين تحولوا إلى هدف للجشع، لم يؤدِّ إلى موت عشرات ملايين الأفراد وحسب، وإنما كذلك إلى القضاء التام على القيم الأخلاقية مما تسبب فى انهيار البنى القديمة، وترك المتبقين منهم على قيد الحياة يعيشون فى خواء داخلي واجتماعى جعل الحفاظ على أدنى مبدأ أخلاقى يكتسب طبيعة إعجازية.

وفيما بعد، أدى وجود تلك الهوة إلى ظهور شكوك جذرية حول مهمة المؤرخ: فإذا كان الوطنيون هم جماعة من المتوحشين لا يستحقون مصيراً آخر سوى الإبادة والاستعباد، فلا بد من أن تُختزل المرحلة ما قبل الكولومبية(*) كلها إلى عدد من الأحداث المشؤومة أو الطريفة، وأن يبدأ تاريخ القارة مع وصول الأوربيين إليها، وأن يصبح مشروع كتاب مثل هذا الذى بين أيدينا خالياً من أى معنى.

(*) ما قبل الكولومبية precolombino أو precolombiano تسمية تطلق على كل ماله علاقة بأمريكا قبل وصول كريستوفر كولومبس إليها ، أى المرحلة السابقة لكولومبس والفتح الإسبانى .

والحقيقة أن هذا هو ما تؤمن به الأغلبية، والسير في اتجاه معاكس لهذا الرأى هو أعسر مما يمكن التفكير فيه. فالمقاومة عنيدة، وكل إعادة نظر تبدو انتهاكا للمقدسات، سواء في نظر أولئك الذين يجهلون ثقافة الوطنيين أو الذين يتبنون استعادتها، وسواء أكان هؤلاء يقبلون برواية المدمِّرين أو يستبدلونها بأخرى غير حقيقية مثلها. وحيث إنّ على الباحث معالجة مسائل تتعدى نطاق اختصاصه، فإنه يهجر التركيب التاريخي، وتسجل الدراسات الشمولية عندئذ تراجعًا ملحوظًا بالمقارنة مع دراسات القرن السادس عشر. فالعدائية التي تثيرها أية مقاربة نزيهة للمسألة، وهي مقاربة لا بد لها من أن تحمل تقويمًا جديدًا لأيديولوجية المنتصرين، تؤثر حتى على الشخصيات الرصينة النادرة في مجال العمل الفكرى. حتى إن الأكاديمي الذى ينكب على أشد الأبحاث ميكروسكوبية وأكثرها محلية، يشيح بحركة ارتياب حين يحدثه أحد عن ضرورة فهم ماض قديم. لماذا البحث عن تفاصيل لن يكون لها أى دور في مجتمعنا؟ أليس عقيمًا ووخيمًا طرح مشاكل منسية وإيقاظ عداوات وبعث خصومات مصطنعة؟

غير أن هذه الاعتبارات تصبح غير مجدية هناك، حيث تفرض البقايا الأثرية، بقوة متزايدة، الحضور الأبكم لذلك العالم المذبوح. ويتوالى ظهور تلك الآثار بوفرة، بصمتها الذى لم يعد نهائيًا، حتى إن باطن أرض المكسيك أو أمريكا الوسطى أو البيرو أو بوليفيا يردها إلى السطح بكثرة تدانى انتظام الغلال الطبيعية.

وبفعل ظروف غريبة عن العلم بصورة دائمة تقريبًا، يشير انبعاث هذه الآثار بوضوح متزايد كل يوم، إلى البون الذى يفصل الحياة الواعية للشعوب – بشهيتها المادية التي تدفعها إلى الرغبة في التقاليد المرفوضة – عن لا وعيها الذى تنبثق منه حتمًا هذه البقايا المشوهة الموسومة بفقدان الذاكرة. وهى بقايا تتصف – في تحررها من كل قيد – بصفة الصدمة والتأثير الخاطف الذى يميز الرؤى الحلمية، وتلاقى لغتها استخفاف المؤرخ، مثلما كانت الأحلام في زمن آخر، بالنسبة للناس الرصينين. وبسبب إهمالها والحذر منها، وإبقائها بعيدة عن أى علاقة مع الواقع، فإن هذه الآثار تطفو هائمة مثل أرواح محزونة في حفريات أركيولوجية معروقة لن تتوصل مطلقًا إلى تغيير شيء في مسار البحث، اللهم إلا في نقاط تافهة لا نفع فيها سوى إضفاء المزيد من البلبلة والتشوش.

إن الصعوبة التى تواجه تثبيت السياق التاريخى لهذه الأعمال الأثرية التى يُفترض عمومًا أنها ولدت من خواء روحى، يؤكد على التشابه الفريد بين مصير المدن الأثرية ومصير ساكنيها القدماء. ويبدو أن اكتشافها اليوم عاجز عن تحويلها إلى مصدر تشريف وثروة ما لم تتجرد، مثلما حدث للوطنيين قديماً، من هويتها المناقضة لتأكيدات المستعمرين الافترائية. ولهذا فإن عالم هذه القارة الفنى، بعد تجريده من أى ملامح خاصة واختزاله إلى مرتبة «الشىء» ، يتيح - كانتقام - الوصول عقلانيًا إلى استنتاج الحالة الخارقة الغريبة المفروضة على أعمال أبدعتها شعوب غير موجودة روحيًا.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة مع ذلك. فرغم ضآلة الاهتمام الموجه إلى تلك الآثار، فإنها تفرض لغتها. وهكذا، فإن الاختصاصى الذى لا يجد أى معنى لنبش الأنصاب إن هى لم تساعده فى فهم الواقع المندثر، ينكب هو نفسه على النصوص، وسرعان ما يقتنع بأن شهادات مؤرخى القرن السادس عشر الغامضة تتوضح من خلال الفتات المادى الذى يُخرجه من باطن الأرض إلى النور. وتكون إحدى أعظم سعاداته عندئذ هى رؤية الضباب الذى يلف الكتابات القديمة ينقشع رويداً رويداً ، والتحقق من أنه تحت ركام الجهل والخوف والأكاذيب يكمن منجم ملاحظات يمكنها أن تضىء بدورها المكتشفات الأثرية.

وبعد قرابة عشرين سنة من المقارنات المتواصلة، يكتشف الباحث أخيراً ما هو جوهرى: أى النواة التى انبثقت منها الحضارة الأمريكية - الهندية amerindia ؛ ويدرك طبيعة الأنقاض التى تطمرها وتجثم فوقها، وهى أنقاض يجب إزاحتها بالطبع مثلما تزاح الأنقاض التى تحجب الأبنية الأثرية، ولكنه يدرك أيضًا أن كنسها يستدعى مهاجمة التقاليد الاستعمارية التى تتمتع بقوة وحماية أكبر بما لا يقاس من قوة الأنقاض.

بمثل هذه المادة شديدة الانفجار، يجد التاريخ نفسه مدفوعًا إلى وضع حدّ : يختزله بعض المتخصصين إلى مشاهد معزولة وغير متبلورة، عاجزة عن التوافق مع الرواية التى تقدمها البقايا الأثرية المادية، ولا يمكنه [التاريخ] تبرير وجوده إلا ضمن جملة إشكالية لا تختلف إلا قليلاً عن الإشكالية الفردية: فبرفض التاريخ لكل صيغة عن

الخواء، يؤسس مبرر وجـــوده على حق كل شعب وواجبه فـى معرفة مـاضيه. والأمر، بكل جلاء، ليس تجـديداً لمناظرات قـديمة منسـيـة، كمـا أنه ليس ترميـمًـا لقـيم لم يعد لشكلها أى صلاحية، وإنما هو إضاءة للمناطق المظلمة، وإزالة للتناقضات الداخلية التى تجعلها الأركيولوجيا أكثر وضوحاً.

وبهذه الطريقة نتـوصل إلى إدراك أن الحضـارة الأوربيـة، وهى حضـارة بلدان أمريكا الحالية، قد بدّلت من طبيعتها بتناسب تماماً مع زخم الحياة الداخلية التى كان عليـهـا أن تدمرها، بداية، فـى كل بلد من تلك البلدان. وخـارطة الخـواء المصطنع التى اختُلقت بتلك الصورة، تقدم مساحات رحبة من الفراغ المطلق، ومساحات أخرى، ليست أقل اتساعاً، من فراغ تقطعه نداءات مبهرة وعاتية.

هذه المناطق الأخيرة هى تلك التى لم يُذعن المـاضى ما قبل الكولومبى فـيهـا لجور قَدَر يسلّمه إلى الظلام والنسيان. ولكن، وقبل أن يتحول هذا الماضى - الذى يطالب به الكائن الذى حُرم منه - إلى قوة إيجابيـة، نجده يُظهر شيئًـا من التململ والضيق: فحيال ثقافة مغتالة، هناك إحساس بالاجتثاث لا يستطيع فهمه أولئك الذين استقروا براحة فوق الفراغ الكامل المزعوم؛ لأن كل استئصال يستدعى تذكر مكان منشأ وحنين إلى جـذور ضـائعـة. ولكنّ من يمتلك الشـجـاعـة الكافيـة للانتـسـاب إلى ذلك الماضى الشبحى، يجد نفسـه، دون مناص، مـقذوفًـا فـى خـضم صـراع داخلى شـبيـه بحـالة المريض النفسى الذى يُدفع لأن يستذكر طفولته، فينتهى به الأمر إلى تذكرها دون أن يتمكن مع ذلك من تعديل الصورة المـذلة التى قُدمت له عنها. وعندئذ يعقلن، ويتقبل ما لا يمكن قبوله، ويوسّع الشرخ الذى يفصم شـخصيته، مروعًا من الهوة التى تفصله، على المسـتوى الأخلاقى، عن أصـوله. ولكى يقنع نفسه بذلك ليس عليه سوى مـلاحظة التبريرات العاطفية للقرابين البشرية التى تزين الأبحاث، أو الجهود المبددة فـى اكتشاف التصوف فـى كتـــابات تدعى «بدائيـــة»، وتبعــث فـى الجمالى المعاصر «رعبًا وحشيًا».

إن البـحث عن الوحـدة بالنسبـة للهندى الأمـريكى هو أمـر مـأسـاوى فى جـوهره. فالحقيقة التى يلمحـهـا فـى نهاية المطاف تتبدى على الدوام كعقبة لا يمكن تجاوزها. ومثلما أثبت، كما يبدو، الفن التشكيلى والأدب المعاصران، فإن فردوس الطفولة الجماعية، حين يُكتشف أخيراً، يظهر كمكان تكون فـيه العزلة واستحالة التواصـــل شـــاملان.

وما يبقى فى أنحاء أخرى خارج نطاق التجريد، يفرض نفسه بصورة مباشرة فى بعض أجزاء أمريكا ، إذ إن حدود ما هو بائد لا تبدو بمثل هذا الوضوح فى أى مكان آخر، ولا يشق ما هو خفى فى أى مكان ظلام الليل الذى يكتنفه بصرخة بمثل هذه القوة والوضوح. وسرعان ما تظهر القارة أمام ذاك الذى يصغى إلى أعماقها، كأنها انعكاس لرؤيا ميتافيزيقية : واقع عجيب، غائم، متقطع، يخفى عالمًا تحت أرضى مشرقًا؛ وحدة تتبدى من خلال إشارات لا حصر لها، يتوجب على الأركيولوجى أن يتعلم فك أسرارها مهما كلف الأمر.

وبما أن الاهتمام بالحضارات القديمة، بالنسبة إلينا، مرتبط بولعنا فى فهم مشاكل أمريكا اللاتينية، فإننا نبدأ هذا الكتاب بتناول تاريخ الغزو الذى ربما كان الوسيلة الوحيدة التى تتيح لنا مقاربة الثقافات التى أبيدت، وتفسير التخلف الذى يثقل على هذه الأراضى الغنية.

فى عصرنا الذى تمت فيه تصفية الاستعمار، هذا العصر الذى نعى فيه أن الاختلاف عن النموذج الأوربى هو حق مشروع، تتضمن عملية الغزو كنزًا من الحكمة والعلم، ذلك أن النصوص تجبرنا على فهم الدرس الذى ينجم عن تواجه أيديولوجيات متناقضة: فهناك من جهة، أيديولوجية الفردية المفرطة، القائمة على المؤسسة الحرة، ومن جهة أخرى، أيديولوجية تحقيق الشخصية المستندة إلى الاحترام العميق من قبل الجماعة. الأولى أدت إلى نهب هائل لمواد أولية وحيوات بشرية، وأدت بالضرورة إلى فرض أنظمة عبودية، هى السبب المحتمل للبؤس والهوان الذى تعيش فيه اليوم أغلبية الجماعات الأصلية الأمريكية.

وقبل أن نُفَصِّل فى تأكيدنا هذا، نسجل بصورة عابرة، أنه على الرغم من الكثافة السكانية العالية للمجتمعات ما قبل الكولومبية، وافتقارها إلى آلات وحيوانات العمل، فإن أفرادها كانوا يتمتعون بصحة جسدية، واستقلالية فردية، وأمن، وأوقات فراغ، تتطلب توزيعًا للموارد واندماجًا بالجماعة يبدوان فى أيامنا ضربًا من اليوتوبيا. ومن كل ذلك يتبين لنا أنه إذا ما عزفنا عن دراسة وتحليل الغزو الإسبانى الذى حطم عالمًا متحضرًا ووضع مرتكزات نظام يشكل الجوع والإذلال والقمع الدموى الوسيلة الوحيدة لاستمراره، فسنكون مضطرين إلى اعتبار التخلف الحالى نتيجة قصور خِلْقى ودونية عرقية حتمية تبرر الإبادة والاستعباد.

بعد عشرين سنة من العمل الأركيولوجي المكثف، توصلنا إلى فهم الجذور العميقة لبعض المواقف التي تعرقل بحث الدارس، والتي اعتقدنا في البداية أننا قادرون ببساطة على تغييرها من خلال الوقائع الجلية. وبالفعل، فحيال المعارضة لكل محاولة للربط ما بين الأعمال الفنية التي تعبر عن نفسها بلغة رمزية مشتركة؛ وحيال المقاومة المعارضة لأي إعادة بناء ترمي إلى إنهاء التفتت التاريخي، أو حيال السخرية التي تثيرها أي إشارة إلى وجود ديانة وحياة داخلية تفترضها تلك الديانة، انتبهنا إلى أننا، في انسياقنا إلى حماسة أبحاثنا؛ نسينا مواجهة الصعوبة الكبرى: كيف يمكن القفز، دون المرور بمراحل انتقالية، من الهمجي آكل اللحم البشري الوارد في الأسطورة التي صاغها المستعمرون، إلى الحكيم الوقور والفنان المرهف الذي تكشف عنه البقايا الأثرية. ومن أجل معالجة ذلك النسيان، رأينا أن الحل الأكثر فعالية هو في متابعة صياغة الأسطورة نفسها، والتعرف في الوقت نفسه على مؤلفيها وأبطالها.

وفي أثناء ذلك، انتبهنا أيضًا إلى أن الاتهام المنهجي للإسبان يلعب دوراً ضاراً في هذه المأساة الفسيحة؛ لأنه يُسقط احتلال أميركا من المنظور الكوني الذي تنتمي إليه، ذلك أن الاستعمار يشكل الخطيئة القاتلة لأوربا بأسرها. فقد كان استغلال القارة الأمريكية هدفًا واسعًا إلى حد تجاوز معه كل الأطر السياسية، وهناك كمٌّ من المعطيات التي تثبت بما فيه الكفاية بأنه ما كان يمكن لأي أمة أخرى أن تفعل ذلك بطريقة أفضل. ولنفكر فقط في أن البابا، بوصفه زعيمًا للمسيحية، لم يتردد في منح الحق بامتلاك الأراضي، مقابل الوعد بتمسيح الهمجيين، بعد الغزو.

وعلى الرغم من حظر الملوك الكاثوليك مجيء الأجانب إلى أمريكا ، إلا أن المخالفات كانت عديدة بما يكفي لتقديم فكرة دقيقة عن الطاقة الاستعمارية التي كانت تمتلكها أوربا في ذلك الحين. وكريستوفر كولومبس الذي أبعده الإسبان عن القارة بحجة أنه أجنبي، كان يعامل الوطنيين مع ذلك بالطريقة نفسها التي اتبعها الفاتحون الآخرون، كما أن مواطنه الشهير أميركو فيسبوتشي ينظر إلى رجال ونساء الشواطئ التي يصفها بحماس باعتبارهم طرائد صيد من المسلي صرعهم.

من جهة أخرى، كثيراً ما يُعتبر أن سبب إخفاق عملية الاستعمار هو العجز الإسباني عن الخروج من أطر العصور الوسطى التي استمرت فيها أكثر مما استمرت

لدى الأمم الأخرى، ولكن إخفاق الفرنسيين والبرتغاليين فى البرازيل، وإخفاق الألمان فى فنزويلا وفى كولومبيا، يُثبت أن المشكلة لم تكن بتلك البساطة ، وتجربة الألمان أعمق مغزى بكثير حين لم يكتفوا بالتصرف بالقسوة المدمرة نفسها التى اتبعها جميع الأوربيين، بل اضطروا كذلك إلى التخلى عن طريدتهم بعد سنوات عديدة من الجهود غير المجدية. مع العلم أن الألمان كانوا ينتمون إلى المجتمع الأكثر تقدمًا اقتصاديًا وأن آل فيلزر، مصرفيى كارلوس الخامس، ومن تولوا تمويل نفقات الحملة، كانوا يتصدرون طليعة البنية ما قبل الرأسمالية. ونحن نرى أن تحليلاً مفصلاً سيكشف، على العكس من ذلك، أن ثقل المستعمرات هو الذى أبقى إسبانيا فى إطار اجتماعى قديم وأن تجربتها فى أمريكا وحدها هى التى جنبت البلدان الاستعمارية من الوقوع فيما بعد فى الدروب المسدودة نفسها.

وعلى العكس من ذلك، فإن إسبانيا تتفرد بملمح ذى أهمية كبرى: فهى البلد الوحيد حتى أيامنا هذه الذى ارتفعت فيه أصوات قوية ضد حرب الفتح. فإذا ما فكرنا فى الطاقة الأخلاقية التي ما زالت تتطلبها حتى يومنا هذا معارضة الاعتداءات المقترفة ضد الدول الضعيفة، وفى تخيل ما يفترضه الشعور بالمساواة حيال مخلوقات حطت آلية الممارسات غير الإنسانية من قدرها، فإننا سنرى كم هم أبطال حقيقيون أولئك الرجال الذين ناضلوا فى القرن السادس عشر ضد التيار، وسط أعمال العنف غير المسبوقة التى أطلقتها عملية الفتح. ونقول الآن: إذا كان عصر النهضة الذى أعاد فى ذلك الحين طرح الفكر الغربى على بساط البحث، يتلخص أساسًا فى فتح آفاق ثقافية جديدة، فلا بد من القبول بأن إسبانيا قد أنتجت فى هذا السياق أعظم رجال التاريخ. فجرأة الإنسانيين humanistas وحريتهم الداخلية تبدو باهتة حيال العبقرية التى أثبتها أولئك الإسبان حين عرفوا كيف ينظرون إلى القطعان التى تسوقها الأيديولوجية السائدة إلى المسلخ، ورأوا أن هذه القطعان هى كائنات بشرية؛ وحين استطاعوا أن يتكهنوا بوجود قيم أخلاقية وروحية فى الأجزاء المشوهة من عالم متحول إلى أنقاض، فأى مؤلِّف يمكن له أن يمثل اندفاع عصر النهضة، خيرًا من مرافعات الدفاع عن عالم ظهر للتو؟ وهل هناك فى العصر الحديث بعيدو نظر أعظم من أولئك الذين كرسوا حياتهم لأعمال لم تتجاوزها الأنثروبولوجيا الحديثة، بهدف فهم وتخليد واقع يتعرض للدمار والإلغاء؟

الفصل الأول

الاكتشاف

في القرن الخامس عشر، كانت المعارف الأوروبية حول آسيا وإفريقية تعتمد على الكتابات الإغريقية وقصص ماركو بولو من جهة، وعلى رحلات البرتغاليين الذين وصلوا سنة ١٤٨٨ إلى جزائر مالوكو(*)، بالدوران حول رأس الرجاء الصالح من جهة أخرى. وفي أواخر ذلك القرن حدث تحول حقيقي جارف نحو جزر الغرب: فقد راحت سفن لا حصر لها تستكشف الأطلسي بحثًا عن الصيد والسكر والتوابل، وعن طريق يوصل إلى آسيا. وهكذا استثمر ألمانيان مأجوران للدانمرك جزيرة غرينلند سنة ١٤٨٠، وفي عام ١٤٩١ كان هناك خط بحري نظامي محاذ للسواحل يربط إنجلترا بشواطئ تيرانوفا(**). وكانت رحلات الاستكشاف البحرية هذه هي الملهم الرئيسي لمشروع كريستوفر كولومبس، الذي رأى أنه لا بد للطريق المحيطي من أن يؤدي، منطقيًا، إلى تلك الصين النائية التي وصلها ماركو بولو، بتوجهه صوب الشرق فقط، مجتازًا امتداد الأرض كلها.

إن مجد ذلك الملاح العظيم يكمن، قبل كل شيء، في إيمانه بوجود أرض كان آخرون قد استنتجوا نظريًا وجودها الحقيقي. وقد جعل منه هذا الإيمان نبيًا لحقيقة خفية، ومنحه القوة على تحمل ازدراء العلماء وغطرستهم وسخريتهم، وكذلك سخرية

(*) مالوكو أو ملكاس Molucas : مجموعة جزر في أرخبيل إندونيسيا ، تقع ما بين جزيرتي سيليبس وغينيا الجديدة .

(**) تيرانوفا Terranova ، وتسميتها الإنجليزية الشائعة هي نيوفوندلاند : جزيرة في أمريكا الشمالية ، إلى الشمال من مصب نهر سان لورنزو .

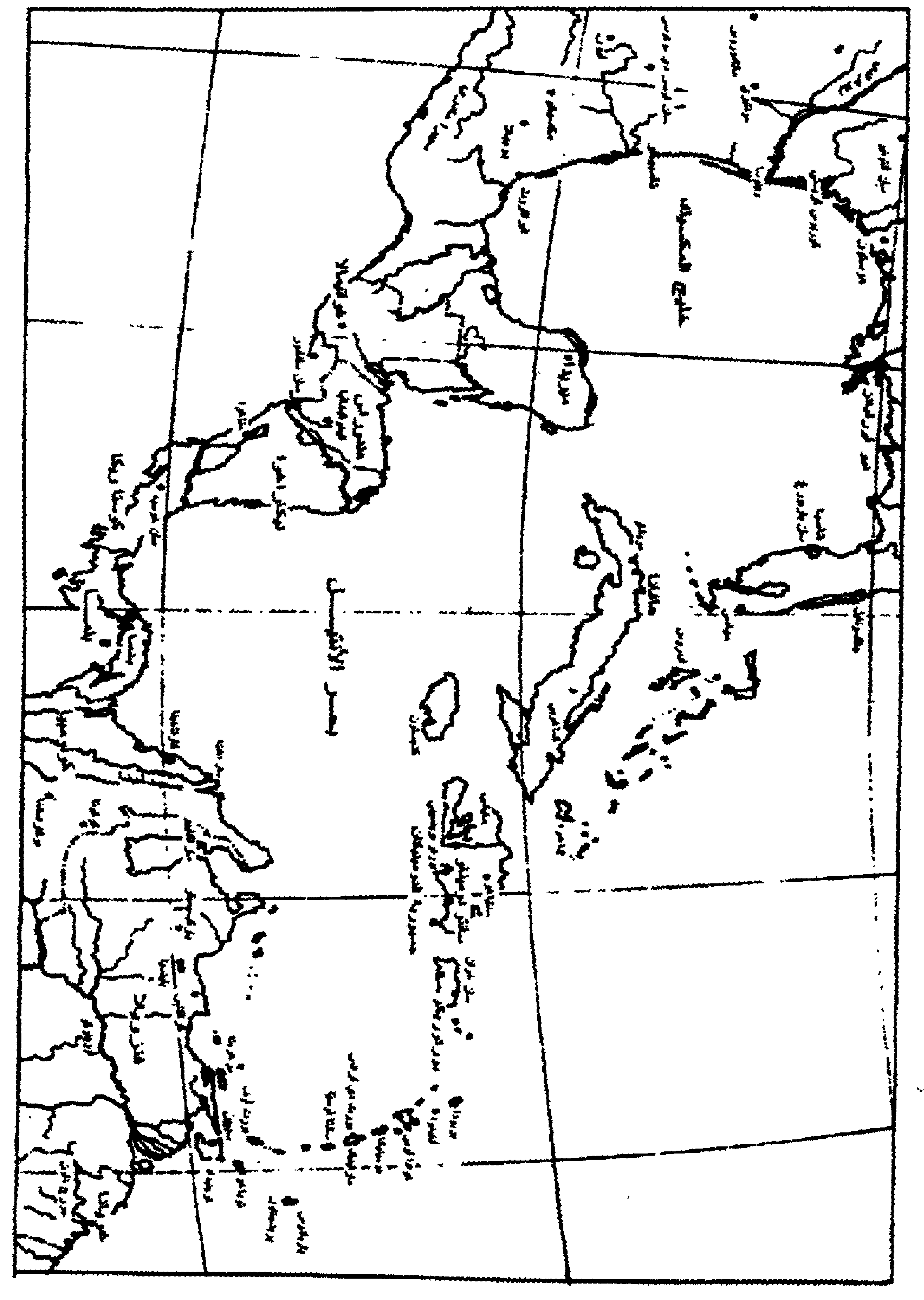
أفراد الحاشية الذين أوكل إليهم الملكان(*) دراسة الأدلة المرفقة بطلباته. إن كفاحه فى مواجهة الهزء والشكوك، الذى بدأ فى البرتغال عام ١٤٨٠، لقى الإخفاق المتكرر أمام ملوك إنجلترا وفرنسا، ثم بعد ذلك فى إسبانيا لسنوات عديدة.

والحقيقة أن التأكيد على وجود حياة بشرية إلى جنوب غرب القارة الأوروبية كان يعتبر معارضة خطيرة للمعرفة الرسمية التى لم تكن تقبل بكروية الأرض بعد، وترى فى تكهنات المعتقدين بوجود جانب آخر للأرض أمراً مضحكًا : إذ كيف يمكن القبول جديًا بوجود بلدان تشرق الشمس فيها لحظة غروبها فى بلداننا؟ وهل يمشى قاطنوها ورؤوسهم مدلاة إلى أسفل وأقدامهم تقابل أقدامنا؟ ثم إنه من المعروف أنّ ذلك الجزء الجنوبى لا يمكن له أن يحتوى إلا على الماء، ولو أن فيه شيئًا آخر، لما انتظر رجال العلم مجىء ذلك الملهم المريب ليعرفوا بالأمر. وفى نهاية المطاف، كان الإيمان بتكوين آخر للعالم يعتبر تجديفًا، بعد أن أقر اللاهوتيون بشكل نهائى الأجزاء الثلاثة القائمة بمقتضى الشريعة الإلهية.

وفى سنة ١٤٩٢ فقط، وبعد أن تبنى المغامرة أحد موظفى البلاط، تخلى ملكا إسبانيا عن رفضهما – وكان رفضًا حاسمًا فى مناسبتين سابقتين – ووقعا على الميثاق الذى يُنصبِّهما سيدين على الممالك المستقبلية التى ستُكتشف ويعيّن كريستوف كولومبس أميرالاً أعظم للبحر المحيط. لقد كان على مكتشف أميركا أن ينتظر أكثر من اثنتى عشرة سنة كى يحصل على الوسائل التى تتيح له القيام بعمله: وهى ثلاث سفن شراعية، وبضع مئات من الرجال، ومؤونة عام واحد وأكداس من المتاع المخصص للمقايضة: حبات خرز زجاجى، وقبعات وأحذية وصفت بأنها كانت حمراء اللون دومًا، ومرايا صغيرة، وقفازات وقمصان ...

كان النجاح باهراً : بلدان فسيحة مأهولة، وشعوب، ومناخات ومناظر فردوسية، وثروات طبيعية لا متناهية .. والحضور العجيب للذهب. وبالرغم من هذه النتائج، لم يذق كولومبس سوى آلام الخيبة، فالعوائق التى اعترضت سبيله كانت فى ازدياد، إلى أن طُرد من «أرضه» سنة ١٥٠٤ باعتباره أجنبيًا، ورأى بعينه كيف يغتصب

(*) الملكان : يعنى بهما فرناندو ملك أراغون وإيزابيل ملكة قشتالة .



الشكل (١) أمريكا الوسطى وبلدان الكاريبي

القادمون الجدد مكانه ويجردونه من كل حق وكل مال، حتى إن أشياءه الشخصية وكتاباته حُجبت لزمن طويل، وسرعان ما اتضح له أن عملية الاستيطان هى مسألة أخرى مختلفة عن الاكتشاف: فقد وجد كولومبس نفسه مضطراً، خلال إقامته الثانية فى العالم الجديد، إلى اصطياد البشر وإفلات سعار الكلاب الفتاكة على سكان البلاد الأصليين.

إن تقريره المفعم بالافتتان ببهاء جزر فجر العالم تلك، والشهادات الحسية حول جمالها وثرائها لم يَحلْ، بأى شكل من الأشكال، دون توالى المكائد وتفاقم المصاعب الاقتصادية. وهى مكائد ومصاعب تكالبت عليه حتى إنه عند قيامه برحلته الثانية إلى المتروبول، احتاج إلى ما يقارب السنتين كى يحصل على الضروريات اللازمة لإبحاره. فالملكان الإسبانيان وممولو السفن والرجال الذين طلب مساعدتهم، كانوا جميعهم يُبدون الريبة حول نجاح العملية: فبالإضافة إلى الأخطار - كان عدد من الإسبان قد لاقوا حتفهم بعيداً عن وطنهم حتى ذلك الحين، كما أوشك الأميرال نفسه على الغرق عدة مرات - ، كان الحديث يدور علناً عن دجل حكاية الكنوز المزعومة وسهولة الثراء، وكان كولومبس، القلق على الرجال الذين خلّفهم فى الجزيرة والمتشوق لتجديد مغامراته، يناضل ضد الوشايات والمنافسات، ولا يتوقف عن تدبيج الرسائل، ويفقد أنفاسه فى محاولة الإقناع بأن إلحاق أرض جديدة سيجلب المجد والثروة، بقليل من الانتظار فقط؛ لأن جنى الثروات التى تكثر فى تلك الأراضى - وأولها الذهب - يحتاج إلى شىء من الوقت والعمل.

لم تُجدِ بلاغته نفعًا، وكرر منذ ذلك الحين دون كلل الحديث عن الكروب التى عاناها خلال الثلاثة والعشرين شهراً المديدة التى أمضاها وهو يتوسل العون، وبسبب عجزه الجلى فى التخلى عن حلمه بمعرفة العالم الأخاذ الذى لم يفعل إلا أن لمحه لمحاً، يفتح كولومبس طريق العنف الذى سيكون هو نفسه أحد ضحاياه بعد زمن قصير. إذ تعهد، مقابل أجر السفن والبضائع اللازمة، بجلب شحنات من العبيد كان يُقدّر قيمتهم كمتخصص - فالطلب كبير عليهم فى هذه السوق أو تلك، ويمكن بيعهم سريعاً بسعر كذا للقطعة، الخ ...- ونظراً لندرة اليد العاملة، ولكى لا يُثقل على الميزانية الملكية، فقد أقرّ بأن تُدفع الأجور هنوداً يمكن لأى إسبانى أن يقتنصهم دون أن يتعرض من جراء ذلك لأى عقاب. واقترح على الملكين كذلك فتح أبواب السجون: فينال

المحكومون بالإعدام حريتهم بعد قضاء سنتين فى المنفى، والمحكومون بالسجن المؤبد يصبحون أحراراً بعد سنة.

وقبل وصول المجرمين الذين أصبحوا بهذا أحراراً، كانت الجزيرة الأولى المكتشفة، عتبة القارة العذراء المترامية، قد وقعت ضحية النزاعات وفريسة الهمجية، فالمستوطنون المتمردون على التعليمات التى تركها لهم الأميرال الغائب منذ أمد طويل، باشروا من تلقاء أنفسهم بالمهمة العسيرة فى البقاء على قيد الحياة فى وسط سعوا جهدهم لجعله معادياً لهم. إذ راحوا ينتشرون فى البلاد منفردين أو فى جماعات صغيرة، منصبّين أنفسهم سادة مطلقين على المجتمعات المسالمة الخصبة التى لم يتأخروا كثيراً فى جعلها تندثر. فاقتراف المذابح كعقاب أو لمجرد المتعة - إذ ابتدعوا عدداً من الألعاب القاتلة، جعلوا من الكائنات البشرية فيها أهدافاً -، واغتصاب النساء والفتيات القاصرات وامتلاكهن على مرأى من أزواجهن وآبائهن وأبنائهن العاجزين، ولا عقلانية فرض المغارم وتحصيلها، أدت جميعها إلى إقناع الوطنيين بأنه من الخير لهم هجر القرى والمزارع، فهربوا عندئذ إلى الجبال حيث كانوا يختبئون كالحيوانات إلى أن تكتشف أماكنهم حملات الإسبان المحكومين بالجوع، فتبيد القسم الأكبر منهم وتلقى القبض على المتبقين لبيعهم، كل هذا يبين بوضوح كيف أن الجزيرة أقفرت من ساكنيها خلال أقل من عشر سنوات فى ظل هذا النظام، مما دفع ملكى إسبانيا، حتى قبل وفاة إيزابيل الكاثوليكية سنة ١٥٠٤، إلى إباحة شن الغارات على الشواطئ المجاورة لاقتناص العبيد اللازمين للعمل فى الأرض.

١ - جزر الانتيل :

شكلت جزيرة إسبانيولا - هايتى وسانتو دومنغو اليوم - حقل التجارب لفاتحى المستقبل فى أميركا بأسرها، لكونها الأرض المحتلة والمُخضعة الوحيدة لزمن طويل. ففيها، ثم فى كوبا منذ عام ١٥٠٨ ، تعلم الأوربيون بأن عليهم، لكى لا يهلكوا، أن يحوّلوا الوطنيين إلى مرتبة الحيوانات الداجنة، وقد تمرسوا فى هاتين الجزيرتين على الصراع فيما بينهم عبر التخريب والقتل والنهب.

هذا النموذج المبتدع فى إسبانيولا سيُستخدم فى كل أرجاء القارة، ولن يطرأ أى تعديل على تاريخ الفتح بين بلد وآخر إلا تبعاً للطبيعة الجغرافية الخاصة، ولثقافة كل

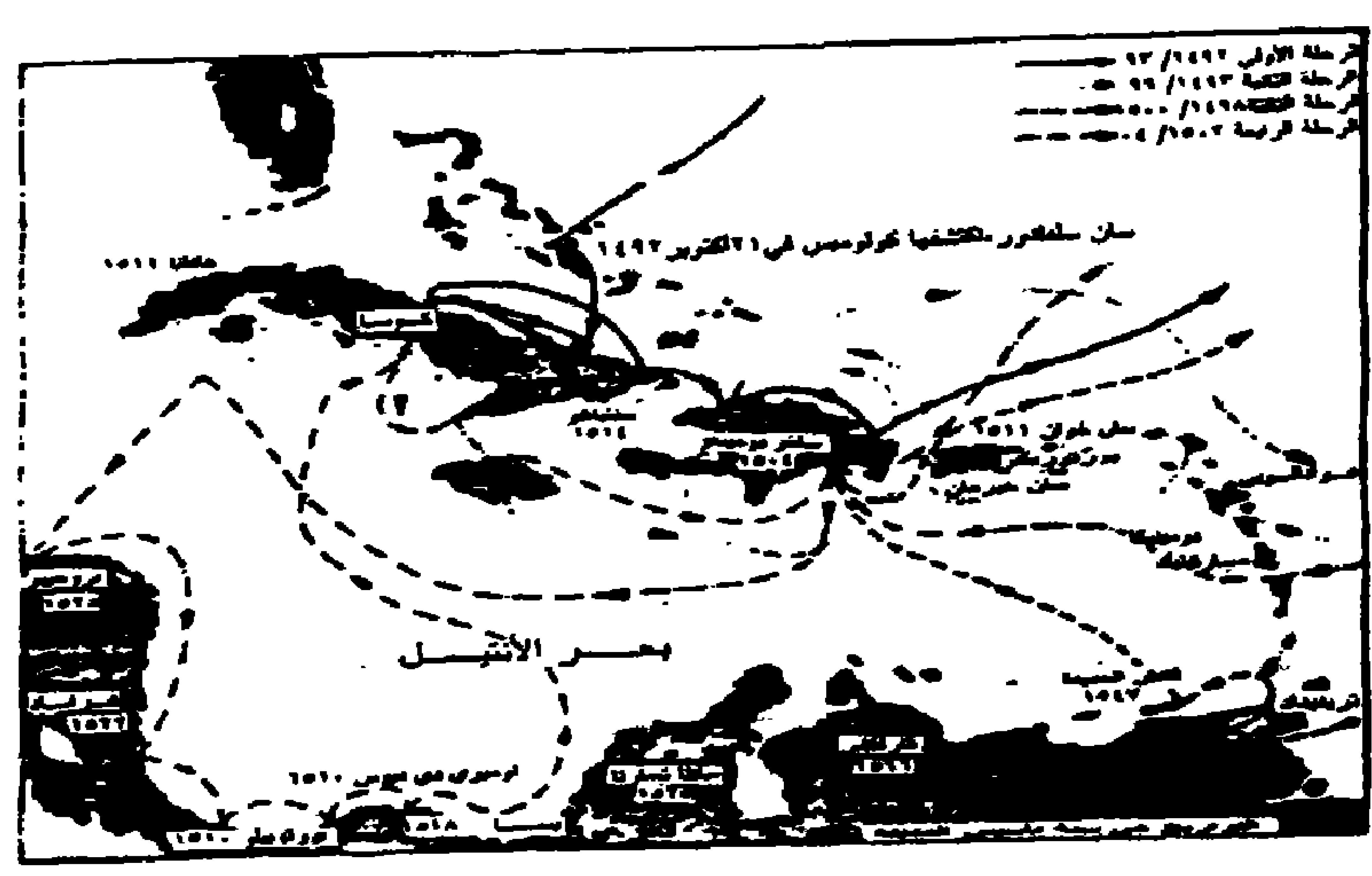
بلد من تلك البلدان وحكومته. فأول التمردات وقع فـي إسبانيولا، وكذلك أول النزاعات على الثروة والسلطة، وأول الصراعات الدامية ضد مبعوثي التاج الدخلاء، وأول أحكام الإعدام الرسمية. وعلى أرضها كذلك نُظِّم وشُرِّع بيع الكائنات البشرية، كما سُنَّ فيها نظام توزيع الأرض بمن عليها من السكان.

إن ضـعف كـولومـبس وسـقـوطه الرأسي لم يكن ناجـمـاً، برأينا، عن خـصـاله الشخصية بقدر ما هو ناجم عن كونه رائداً، فعلى الرغم من لا إنسانيته التي لا يمكن إنكارها تجاه الوطنيين، إلا أن الجشع لم يكن صفته كما هو واضح. فما كان لأحد أن يهتم بأقواله، وما كـان هو ليقـوم بمأثرته غيـر المحتملة، لو لم يحركـه شغف حقيقي وتصميم ملهم. أضف إلى ذلك ضعف حيلته فـي التغلب على المكائد والغدر، وعجزه عن استخدام الأسلحة نفسها التي استخدمها المفترون عليه، وكذلك إيمانه بالكلمة والكتابة - حبّر حتى موته رسائل لا حصر لها فـي محاولة يائسة ليوضح، بالشروح التفصيلية، الحقيقة التي حُرم من إعلانها -، هذا الموقف، الثابت فـي جميع الوثائق، هو موقف مناف لطبيعة المغامر الذي يبحر فـي رحلات بهذه الخطورة ما لم يكن هدفه الثراء.

كيف يمكن، بالفعل، الانتـقـال دون عنف من نمط الاقـتـصـاد الطبـيـعي الخـاص بالجماعات التي تجهل التراكم وتعيش على استهلاك يعتمد الحد الأدنى.. وكيف يمكن الانتقال من هذا الاقتصاد إلى إنتاج وفير تطالب به كائنات شرهة ومتلهفة للعودة إلى بيوتها بغنيمة ؟ إن تاريخ احتلال جزر الانتيل يدلل فـي كل لحظة من لحظاته على ذهول الوطنيين أمام كميـات الأطعمـة التي كان يستهلكها كل واحد من الغـربـاء يوميًا، وهي كميات قدرها بعض الشهود بأنها تعادل ما تستهلكه أسرة وطنية كبيرة العدد خلال شهر. ومن هنا جاء الاعتقاد بأن الإسبان لم يولدوا إلا ليأكلوا، وأن مجيء سفنهم الغريب إنما سببه مجاعة عظيمة فـي بلادهم، والأعيان المحليون الذين كانوا يفاخرون بأنهم يتمونون بأي محصول من محاصيل الأرض، بكميات كافية لتجاوز كل قدرة استهلاكية، وجدوا أنفسهم مضطرين فجأة إلى إعلان إفلاسهم، وإلى التحول رغم إرادتهم إلى معادين للفاتحين، وكان عليهم أن يلجؤوا إلى الجبال لينتظروا هناك فناءهم وفناء بني قومهم، ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا أنه إضافة إلى شراهة هؤلاء المستعمرين، كانت هناك بطـون السفن الهـائلة التي تتوجه بحمولاتها إلى المتروبـول أو إلى أي ساحل مجاور حيث الإسبان يموتون جوعاً .

وللسبب ذاته، جلب وجود الذهب الإبادة السريعة للأهالي: فقد كان الذهب لدى الأهالي مكرساً لأغراض الزينة وحسب، وكان يُستخرج من الترسبات الرملية ومن المناجم بمقتضى حاجات شخصية صارمة فقط. وفوجئ الغزاة بالسهولة التي كان السكان الأصليون يقدمون بها مجوهراتهم مقابل أشياء تافهة – حتى أن بقايا الأطباق التي تتكسر على متن السفينة كانت تسعدهم – فاستنتجوا من ذلك وجود كنوز عامرة، لم توصلهم عمليات التنكيل إلى اكتشاف أماكنها، وفرضوا غرامات باهظة لم يجر دفعها إلا جزئياً. واقترف الإسبان حينئذ أعمالاً تخريبية ماحقة، وكانت تذهب أدراج الرياح جهود الزعماء الوطنيين في الشرح لهم بأنهم يجهلون أساليب الاستثمار المنهجي للمناجم التي ما كانوا بحاجة إليها حتى ذلك الحين. وكدليل على حسن نواياهم كانوا يقترحون بالمقابل، إعطاء الإسبان كل ما يشاؤونه من المنتجات الزراعية.

إن فرض أعمال السخرة هو وحده الذي أتاح للجسم الغريب العملاق الاستمرار في الحياة وسط جسد اجتماعي صغير، متكيف مع أغراض مختلفة اختلافاً جذرياً، أما القسر الذي كان لابد منه للحفاظ على استمرارية هذه الأعمال المهلكة، فقد أخل بالنظام التقليدي لدرجة تقويض البنية الاقتصادية والأخلاقية بكاملها، وسرعان ما تحولت الجزر السعيدة إلى جحيم، سواء بالنسبة للأسياد أو العبيد، ومع ذلك، فإن جزيرة إسبانيولا هي التي ألهمت كولومبس تلك الصفحات الغنائية الرعوية في رسالته الشهيرة عام ١٤٩٢ وفي يومياته على متن السفينة؛ إن غنى وتنوع نباتها وحيوانها، إضافة إلى سذاجة ساكنيها المفرطة، جعلت منها نموذجاً لليوتوبيات الأوربية.



الشكل (٢) رحلات كولومبس

وما زالت الأنهار والمناخ والطيور والأشجار تقدم شاهداً على أسباب ذلك الحماس، إلا أن شمائل السكان قد اضمحلت بعد مرور بضع سنوات من المعاملة اللاإنسانية، فلدى قراءة وصف حالهم المحزنة إبان العهد الاستعماري، ينطلق الذهن بالحنين إلى ذلك الوصف للحشود العارية، السعيدة والآمنة، التي انطلقت في الزوارق أو سباحة للقاء البشر القادمين من السماء. فبدءاً من كولومبس وأميركو فيسبوشي، وحتى أكثر القراصنة ظلامية وشروراً ، بل وجميع من تعرَّف إلى رجال تلك القارة ونسائها، ظلوا مشدوهين بالظرافة الساذجة أو الوقورة التي قدم بها هؤلاء إلى القادمين كل ما يملكون، أو بمد يد العون إليهم، أو بتنظيم الاحتفالات والاستقبالات لهم.

إن تصرف الملك غواكاناغاري Guacanagari حين ارتطمت إحدى سفن الإسبان الشراعية الثلاث بكثيب رملي غير ظاهر تحت الماء، اتسم بكرم وشهامة لا نظير لهما. فهو لم يتكفل، مع جماعته، بنقل كل محتويات تلك السفينة المهجورة إلى سفينة أخرى «دون أن يختفي ولو دبوس منها» وحسب، وإنما سعى جهده كذلك ليخفف عن أولئك الغرباء سوء طالعهم بشتى الوسائل. فحمّلهم بالهدايا، والمأكولات الفاخرة، والمجوهرات الذهبية «الثقيلة»، وبث فيهم الحماس بحضوره الدائم بينهم. ويصفه لنا كولومبس في يومياته وهو على متن السفينة مع بطانته، كنديم يغدق عنايته الرقيقة، وهو يرتدي بوقار القميص والقبعة الحمراء والقفازات التي بعث بها إليه ملك قشتالة.

٢ - القارة :

في سنة ١٤٩٨، ولدى عودته من إقامته الثانية في المتروبول، لامس كريستوف كولومبس القارة عند الحافة الشرقية لفنزويلا الحالية، حيث الميناء الذي يخلد اسمه. كان قد اكتشف جزيرة ترينيداد، ولم يصل إلى هذه النقطة من الأرض القارية إلا بعد اجتيازه المضني لخليج باريا Paria ، حيث أشرف على الهلاك عند مدخل هذا الخليج وعند مخرجه (أطلق على المضيق الجنوبي اسم فم الثعبان، وعلى المضيق الشمالي اسم فم التنين)، بسبب "هيجانات مائية" سببها اندفاع نهر الاورينوكو Orinoco إلى البحر.

كان كولومبس، رغم المخاطر، واثقًا من أنه في مكان قريب من الفردوس الأرضي: فالذهب واللآلئ، وسماحة أخلاق الأهالي وجمالهم، وبهاء الشواطئ المكتظة بالأشجار، ووجود المياه العذبة غير المألوف داخل البحر، لايمكن لها أن تكون أشياء من هذا العالم، ويتحسر لعدم تمكنه من التوقف هناك، خشية فساد مؤنه التي تكلّف جهوداً مضنية في الحصول عليها، ولأنه لم يجرؤ كذلك على إطلاع الملكين على نيته في اكتشاف أراضٍ جديدة. وهكذا توجه إلى إسبانيولا بعد توقف قصير في جزيرتي كوباغوا Cubagua ومرغريتا Margarita ، اللتين ستصبيان شهرة بسبب وفرة لآلئهما.

وبفضل الخرائط التي رسمها الأميرال، اتخذ ألونسو دي أوخيدا الطريق نفسه بعد سنة من ذلك، وكان يرافقه أميركو فيسبوشي الذي وصف للمرة الأولى فينيسيا ما وراء البحار، التي ستُعرف فيما بعد باسم فنزويلا، توالت الحملات بازدياد مطرد، وراح كولومبس يشكو للملكين من أنه لا يُستشار بشأنها، مما ينتقص من مكانة لقبه المجيد كأميرال للبحر المحيط ولجزر الهند وأرضها(*).

كانوا يشنون في أول الأمر غارات للسلب يقنعون منها بالحصول على أكبر كمية ممكنة من اللآلئ والحلي الذهبية. ومن أجل نهب الوطنيين، طرحوا ابتداء من الرحلة الثالثة افتداء الأسرى بمعادن ثمينة. وبما أن الجشع كان بلا حدود، فقد كان مصير الأسرى التعساء هو الهلاك دومًا، مهما بلغت الجهود التي تبذلها جماعة الوطنيين لافتدائهم. ومصير عاهل سانتا مارتا (كولومبيا الحالية) يقدم مثالاً نموذجيًا في هذا الصدد، فقد أعلن الإسبان أنهم لن يطلقوا سراحه ما لم يروا سلة ضخمة ممتلئة بالذهب، واصطف الشعب خلال أيام طويلة، يحمل كل فرد منه حلية صغيرة من الذهب، كانت السلة تبتلعها بشراهة. وعندما تخلى عن الزعيم معشره، اقتنع الإسبان بأن كل ذهب الناحية قد نفد. ويؤكد لاس كاساس(**) أن السفينة التي حملت السلة

(*) كان كولمبس ما يزال يعتقد أنه إنما وصل إلى أرض الهند في آسيا.

(**) بارتولومي دي لاس كاساس (Bartolomé de Las Casas) مبشر إسباني ينتمي إلى الآباء الدومينيكانيين. ولد في أشبيلية (١٤٧٤ - ١٥٦٦) لُقب برسول جزر الهند أو حامي الهنود لجهوده الدؤوبة في الدفاع عن سكان العالم الجديد الأصليين. وضع كتابين رائعين حول تاريخ الفتح وفظائع الفاتحين الإسبان، الأول بعنوان: التاريخ الموجز لتدمير بلاد الهند، والثاني : التاريخ العام لبلاد الهند.

ومعها كيس لآلئ جُمعت بالطريقة نفسها قد غرقت، كما لاحظ الملاحون الذين جاؤوا فيما بعد أن هناك غياباً مُستنكراً لحسن الضيافة فى ذلك الشاطئ.

فى تلك الأثناء (عام ١٥٠٠) أرسل كريستوف كولومبس إلى قشتالة والسلاسل تكبل قدميه، لكنه تمكن مع ذلك من القيام برحلة أخرى، شريطة ألا يذهب إلى إسبانيولا. وهكذا يصل عام ١٥٠٢ إلى جزيرة تقع قبالة هندوراس ويستكشف حتى أراضى بنما الحالية، حيث يرى بذهول رجالاً يعلقون فى أعناقهم، بعفوية كاملة، خيوطاً تتدلى منها أقراص كبيرة من الذهب، يسمونها «مرايا».

ويدفع هذا الاكتشاف الأميرال إلى أن يترك أخاه على ضفاف نهرٍ كان قد أشاد بسكونه المهيب. وعلى عكس ما كان الإسبان ينتظرون، يثور الوطنيون لاحتلال أراضيهم، فيحرقون البيوت التى بناها الدخلاء لتوهم ويتمكنون من طردهم بعد مناوشات عديدة. فيلحق الأوربيون بسفينة كولومبس فى عرض البحر وتنتهى تلك المغامرة دون أن يتمكنوا من حمل عبد واحد، وذلك بفضل حيلة بارعة : إذ كان العاهل الوطنى يجتذب انتباه جلاديه فيتمكن أفراد العائلة بمناورة أخرى من الهرب من قاع السفينة، وقد شُنق من بقى منهم هناك.

وآلت مهمة الاكتشاف إلى نهاية أكثر حزناً ، فبعد الهرب من كوستاريكا، ترتطم سفن الأميرال بشواطئ جامايكا، حيث تبقى مشلولة طوال سنة كاملة وجسرها مغمور بالماء. ويصارع الأميرال المريض ضد الجوع والأوبئة، ويقاسى من إهانات رجاله وتخليهم عنه. وإذا كان قد توصل فى لحظة معينة إلى إقناع الوطنيين بمواصلة تزويده بالمؤن، "بإحداثه" خسوفاً للقمر، كان يعلم أنه سيحدث، إلا أنه وجد صعوبة أكبر فى التفاهم مع رجاله الذين منعهم من النزول إلى البر خشية أن يتوقف الوطنيون عن تقديم الطعام إليهم، وقد تمرد الأوربيون عليه مرتين وهاجموا الجزيرة، وتلت ذلك النتائج الوخيمة المتوقعة.

وبعد اثنتى عشرة سنة من ذلك فقط، سيبدأ فتح هذه الأراضى، ابتداء من نيكاراجوا.

٣ - البحار العذبة :

شهدت هذه المرحلة استتباب النظام الاستعماري في الجزر، ورافقته عمليات اقتناص البشر اللازمين للعمل، من الشواطئ المجاورة، وارتياد السواحل الأطلسية في الوقت نفسه. وقد أدى البحث عن طريق نحو المحيط الآخر إلى اكتشاف الطبيعة الجغرافية للأراضي الجديدة، وتبين لهم أنها تشكل جزءاً من قارة، فيما كان كولومبس، حتى رحلته الأخيرة، حين وجد نفسه قبالة هندوراس، يظن أنه في آسيا، وكان يبحث عن الخان الأعظم ليسلمه رسالة من الملكة إيزابيل.

ومن جهته، أعلن أميركو فيسبوشي في رسالة له سنة ١٥٠٠ أن مسيرة طويلة نحو الجنوب، أقنعته بأنه وصل إلى النهايات الشرقية لآسيا، عند حدود جزئها الغربي. ولم يتكلم عن العالم الجديد وعن القارة الرابعة إلا بعد ملاحظته أبراج النجوم المجهولة، وانقلاب الفصول في القطب الجنوبي، حيث يسود الشتاء خلال شهور الصيف الأوربي. والفضل في أن جزءاً كبيراً من العالم الذي يحمل اسمه لا يرجع إلى الاكتشاف المادي بحد ذاته بقدر ما يرجع إلى هذه الرؤية التي قطعت الصلة بالمعارف الجغرافية السائدة وبقوانين الكنيسة حول شكل العالم.

تضم الشواطئ الأطلسية للنصف الجنوبي من الكرة الأرضية، والتي أتاحت ظهور هذا المفهوم الجديد، عدداً من مصبات الأنهار المتميزة. فضخامة الأنهار واندفاعها يجعل مياه البحر تتقهقر عدة كيلومترات بعيداً عن الشاطئ، مكونة ما أطلق عليه الملاحون اسم «البحار العذبة». وقد كان كريستوف كولومبس هو أول من اكتشف هذه الظاهرة عند مدخل خليج باريا، ووصف لقاء مياه نهر أورينوكو مع البحر وصفاً دراميا: «... صراع عظيم يخوضه الماء العذب ليخرج إلى البحر، وماء البحر المالح ليدخل في الخليج، إنه صراع هائل مروع، يتعالى فيه الماء مثل جبل شاهق، فيصدر عن مياه الجانبين من الشرق إلى الغرب دوي وصخب مديد ومخيف...، وهو لا ينتهي إلا عند الفم الآخر، فم الأفعى...»[1].

وحسب رأيه، فإن هذه التيارات القوية لا يمكن لها أن تتكون إلا في أراضٍ فسيحة، وأنه لا وجود في جزيرة للمجال اللازم لتراكم كتلة مياه ضخمة بهذا القدر،

ثم يعرب عن يقينه، وهذا أقل إقناعًا اليوم، بأنه لابد للفردوس الأرضى من أن يكون فـى تلك الأراضى.

وقد فوجئ أميركو فيسبوشي، وهو الذى وصل فيما بعد مع حملة ألونسو دى أوخيدا الإسبانية، بذلك العراك المـائى وشبّه - بصورة مستقـلة وأكثر موضوعية - دلتا نهر الأورينوكو وخليج باريا بالفردوس كذلك.

وفـى عام ١٥٠٠، يقوم فيثنتى يانييث بينثون، وكان أخوه قد رافق الأميرال فـى رحلته الأولى، باكتشاف مصب الامازون. ويروى فيما بعد أن المياه النهرية كانت تجبر البحر على التقهقر فـى ذلك الموضع إلى أكثر من ثلاثين فرسخًا.

إن حملة بيدرو ألفاريز كابرال Cabral البرتغالية، التى لامست، عام ١٥٠١ لأول مرة، الأرض التى ستصبح برازيل المستقبل، لم تعرف الامازون، مع أنها وصلت إلى الطرف الجنوبى للقارة، ولكنها كانت تجهل كذلك وجود مصب نهر لابلاتا، وتتيح كتابات فيسبوشى المطولة والتفصيلية تكوين فكرة قريبة عن الطريق الذى اتبعه: فبعد خروجهم من الرأس الأخضر، فـى أفريقية، أبحروا فـى عرض البحر ما ينوف على الشهرين (محاطين بالعواصف فـى الأيام الأربعة والأربعين الأخيرة) ووصلوا إلى الشواطئ الأطلسية قريبًا من مدينة ريسيفى الحالية فـى البرازيل، وبعد إقامة قصيرة هناك، عادوا إلى البحر ثانية، ووصلوا أخيرًا إلى «قطب انتصاف النهار [الذى] كان ٥٠ درجة فوق أفقى»[٢].

يمكن القول إن تقارير الملاح الفلورنسى الغنية بالتفاصيل الجغرافية والفلكية، والنابضة بالقلق والحماس أمام السماوات المجهولة، لم تُضفْ أية أخبار أثنولوجية ذات نفع. وهو يبدو فـى الحقيقة كما لو أنه يستنسخ الملاحظات المدونة خلال رحلته الأولى إلى خليج باريا ودلتا الاورينوكو: فهو يذكر وجود لآلئ وأشجار استوائية، وينسى بالمقابل الحديث عن «البوليادورا»(*) الشهيرة، سلاح تلك المناطق الذى أوقع دون شك كثيرًا من الإصابات فـى صفوف الأوربيين.

(*) البوليادورا Boleadora : سلاح للقذف مؤلف من كرتين أو ثلاث كرات حجرية متصلة فيما بينها بحبل.

بعد تجريد الأراضى الجنوبية مما كان يشكل عنصر جاذبية البلدان المكتشفة حتى ذلك الحين، كانت تلك الأراضى هى آخر ما تم فتحه، ولكنها عرفت ارتيادات بحرية حقيقية. ففى عام ١٥١٦ ، وأثناء بحثه عن ممر يؤدى إلى المحيط الهادئ، وصل المستكشف الإسبانى خوان دياث سوليس solis إلى ما أسماه نهر لابلاتا، وظنه خطأً، ذراعًا بحريًا عظيمًا يقطع القارة من جهة إلى أخرى.

٤ - الاتصال المحيطى :

أُرسل سوليس للبحث عن طريق اتصال بين المحيطين فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية بعد أن كان فاسكو نونييث دى بالبوا Nunez de Balboa قد اكتشف سنة ١٥١٣ وجود بحر آخر ، وبما أن هذا الاكتشاف جرى دون استكشاف أثناء فتح بنما، وبمساعدة أدلاء محليين، فإننا لن نذكره هنا إلا لاستذكار السعادة الجنونية التى سيطرت على نونييث دى بالبوا لدى رؤيته ما أطلق عليه اسم بحر الجنوب. ويروى لنا فيرناندث دى أوفييدو Oviedo ، الذى تحادث معه بعد تلك الواقعة بوقت قصير، أنه قبل أن يتخذ موقفًا، انتظر ساعات طويلة حتى ارتفع المد، وحينئذ خاض فى المياه المندفعة متقلدًا السيف والترس والراية، وهتف بأعلى صوته بالأسماء الحقيقية لسادة الأقيانوس العظيم الجدد.

إن كشف الممر الجنوبى الذى قام به ماجلان يمثل أعظم مأثرة فى عملية اكتشاف أميركا بأسرها. إنها ملحمة حقيقية، وهى الحملة الوحيدة التى حققت الرحلة الحلم بالوصول إلى آسيا عن طريق الغرب، صحيح أنه فى سنة ١٥١٧، وهو التاريخ الذى هجر فيه ماجلان بلاط البرتغال كى يقدم خدماته إلى ملك إسبانيا كارلوس الخامس، كان قد انقشع ضباب كثير من حول السراب القديم: إذ صار مُعترفًا بالطبيعة القارية للأراضى الجديدة، كما أن معرفة أوسع بالهند وأرخبيل الملايو، الذى ارتاده ماجلان سنة ١٥٠٥، أثبتت استقلال كل واحدة من الأرضين عن الأخرى. ويبدأ ماجلان على أسس راسخة إذن، مواصلة مشروع كريستوف كولومبس للوصول عبر البحر إلى جزر التوابل، وكان قد أكد كذلك معرفته لخريطة سرية فيها إشارات إلى الطريق. وبدلاً من معاناة الرفض والصد اللذين استنفدا جهود الأميرال الأعظم [كولومبس] ،

كان ماجلان هدفًا لدسائس دبلوماسية، وتهديدات وإغراءات من جانب ملك البرتغال الذي حاول، دون جدوى، استمالة مواطنه من جديد.

فـي شهر كانون الثاني (يناير) ١٥٢٠، دخل ماجلان فـي مصب نهر لابلاتا، ومخر النهـر خـلال شـهور طويلة. وحين لم يجـد هناك الممـر المطلوب، واصل إبحـاره صـوب الجنوب، مستكشفاً مصبات جميع الأنهار، والأجوان والخلجان، إلى أن جازف بولوج المتاهة التي تحمل اليوم اسمه(*). إنَّ شق طريق وسط تلك الصدوع الصخرية التي لا حصر لها، والتقدم نحو المخرج المجهول بين تلك الجزر الميكروسكوبية الغامضة يتطلب كفاءات من الصعب تصورها، وفـي مشهد أقصى أطراف العالم تلك يصبح مفهوماً كيف تحول تذمر البحارة إلى صيحات متوعدة، وكذلك تمرد إحدى السفن وهربها. وقبيل الدخول فـي المضيق، يجد ماجلان نفسه مضطراً، كي يفرض إرادته فـي مواصلة البـحث، إلى الحكم بالإعدام على قـبطانين وهـجـر ثالث، برفـقـة قـسـيس، على أحـد الشواطئ الموحشة حيث كانوا يبحرون(**).

استغرق الإبحار فـي ذلك العالم المكفهر والجليدي حوالي عشرين يومًا من الوحدة الشـاملة، وكانت بعض النيران الليلية هي الإشارة الوحيدة إلى وجود نوع من الحياة على الشواطئ التي عرفـت، لهذا السبب، باسـم "أرض النار" Tierra del Fuego . لقد عُرفت أخبار ماجلان بفضل الوصف الذي عرضها فيه أنطونيو بيغافيتا فيسنتينو Vicentino، وهو إيطالي اشترك فـي الرحلة، ونأخذ وصفاً للمشاهد من كتابات كاهن يدعى خـوان دي اريبيثـاغا Areyzaga ، شارك فـي الحملة وعـاد بعد سنوات من موت ماجلان إلى اجتياز المضيق : «... تتحدر من هذا الشاطئ أو ذاك جبال شاهقة لتنتهي

(*) مـضيق مـاجلان، وهو المضيق الواصل بين المحيطين الأطلسي والهادي في أقصى جنوب القارة الأمريكية. أطلق عليه ماجلان عندما اكتشفه سنة ١٥٢٠ اسم "مضيق جميع القديسين". ولكن المضيق عرف فيما بعد باسم مكتشفه.

(**) الحقيقة أن ماجلان لم ينفذ حكم الإعدام إلا بقبطان واحد هو غاسبار دي كيسادا. أما القبطان الثاني، لويس دي ميندوثا، فقد سقط صريعًا في اشتباك بعد تمرده على ماجلان. والكابتن الذي تركه ماجلان على اليابسة في جزيرة مهجورة بصحبة رجل دين مجهول الاسم فهو خوان دي كارتاخينا الذي ضاعت أخباره منذ ذلك الحين.

إلى المضيق المذكور، شامخة حتى لتبدو وكأنها تصل عنان السماء، والبرد هناك زمهرير، ولا تكاد الشمس تصل إلى هناك على مدار السنة، والليل يمتد أكثر من عشرين ساعة، والثلج يهطل بانتظام، ثلج شديد الزرقة كأنه فيروز نقى أو نسيج صافى الزرقة... وتلتف كل دفقة من مد هذا البحر أو ذاك وتدخل حتى خمسين متراً أو يزيد، فيلتقى البحران فى وسط المضيق كله، وفى التقائهما يحدثان صخبًا ودويًا عظيماً يثير العجب»[٣].

وبعد دخوله أخيراً إلى المحيط الذى يدعوه هادئًا بسبب مياهه الساكنة، يصل ماجلان إلى الفليبين بعد رحلة استغرقت أربعة أشهر. وهناك قوبل باحتفاء حافل من جانب الوطنيين، حيث تدخل فى سياستهم ولقى مصرعه فى معركة بين زعماء محليين متنافسين. وبعد أحداث وصروف كثيرة، يتمكن من بقى حياً من رجاله من الرجوع إلى إسبانيا، بعد انقضاء ثلاث سنوات كاملة على خروجهم منها.

٥ - الفتوح فى القارة :

ابتداء من كولومبس لم تتوقف شواطئ النصف الجنوبى، كما هو الحال فى أمريكا الوسطى، عن اجتذاب الجشع، ولكن المجموعة الأولى من الفاتحين لم تستطع الاستقرار فيها إلا بعد عشر سنوات، وبعد إخفاقات عديدة.

هذا التأجيل، وهو الوحيد فى تاريخ الفتح، إنما يرجع إلى استخدام سهام مسمومة لا ترحم فى تلك الأنحاء، بينما يمكن القول إن النبال العادية لم تكن تترك أثراً على أجساد الرجال الذين يرتدون الملابس، وإذا ما رُبط الصمود الطويل لمنطقة تعرضت للهجمات أكثر من سواها بالتفسيرات القائلة إنه كان من المستحيل على الوطنيين أن يدافعوا عن أنفسهم فى مواجهة الأسلحة الأوربية، فإن أسباب الانتصارات الإسبانية اللاحقة تصبح واضحة لنا تمام الوضوح، وفى الوقت الذى تمحو فيه هذه المقاومة كل سر حول سلوك الوطنيين، فإنها تُبرز شهادات شهود عيان لم تُبرزها النصوص التاريخية الوفيرة ، كما هى شهادة الكوزموغرافى العظيم أميركو فيسبوشى، إضافة إلى آخرين غيره، حيث تفاجئه فى دور الغازى غير المُنتظر :

«... وبما أنهم عراة دائمًا فقد كنا نُلحق بهم مجازر هائلة، فيحدث فى أحيان كثيرة أن يقاتل عشرة أو ستة منا ضد ألفين منهم فيشتتون شملهم فى آخر الآمر ويقتلون كثيرين منهم...»(٤).

ويتحول خذلان السكان الأصليين وقوى الوطنيين الذين أُخضعوا بالحديد والجياد والكلاب، إلى هاجس لدى لاس كاساس : «... كانت حروبهم تشبه الألعاب حين يجعلون من بطونهم دروعًا لتلقى سهام القاذفات الإسبانية أو خردق البنادق، وبما أنهم كانوا يقاتلون وهم عراة تمامًا، وبدون أية أسلحة سوى أقواسهم ونبالهم الخالية من الرؤوس أو المزودة برؤوس حجرية، فقد كان صمودهم ضئيلاً أمام الإسبان الذين كانت أسلحتهم من حديد، وسيوفهم تشق الهندى إلى نصفين... أما عن الفرسان فلا حاجة بى إلى الكلام، ففى ساعة من الزمن يطعن واحدهم برمحه ألفين منهم»(٥).

والجدير بالملاحظة أن هذا الاختلال الكبير فى موازين القوى لم يمنع الوطنيين أبداً من خوض الحرب حتى الموت قبل الخضوع، حين يعلمون أن ما ينتظرهم هو العبودية. ولدى التفكير بأنه لا سبيل أمامهم فى النهاية سوى الخضوع، فإن شراسة الصراعات التى خاضوا غمارها، ليتحرروا من جلاديهم والانتصارات العديدة التى أحرزوها قبل أن يتم إخضاعهم تبعث على الدهشة، إن بطولتهم التى نوه بها مؤرخون لا يمكن الشك فى أنهم يتعاطفون مع أهل البلاد، كانت تتأجج بصورة خاصة أثناء المطاردات التى تنظمها قبيلة كاملة منهم لتخليص نسائها وبناتها من عصابات اللصوص.

كان الحديث عن طبيعة المتوحشين الجامحة هو الموضوع المفضل لدى المستعمرين، وكان رد المتروبول هو إضفاء الشرعية على أسر من يرفضون اتفاقاً سلمياً مع الإسبان ثم بيعهم. ومنذ عهد ايزابيل الكاثوليكية، ستكون شواطئ فنزويلا وكولومبيا، وكذلك الجزر المجاورة، «المعلنة رقيقًا» ، هى الموردة للمواشى البشرية(٦).

لقد كانت بعض محاولات الاستيطان التى رافقت الفتح شديدة المأساوية: فبصلابته الجسدية وبغريزة النهب الخاصة بالضوارى، هام ألونسو دى أوخيدا **Ojeda** على وجهه مع شخص يدعى نيكويسا **Nicuesa** لسنوات فى تلك الأنحاء، وأوشكا على

الموت فى مناسبات عديدة، ورأيا الهلاك السريع لقسم كبير من رجالهما. وبالرغم من عداء السكان الأصليين، فقد انتهيا سنة ١٥١٠ إلى بناء حصن صغير إلى الجنوب من بنما ، لكن الجوع والسهام المسمومة، وافتقاد الذخيرة، جعلت أوخيدا يقرر الذهاب إلى إسبانيولا طلبا للمساعدة، مخلفا موقعه فى القيادة لفرانسيسكو بثارو Pizarro ، فاتح البيرو فيما بعد. وحين رأى بيثارو أن أوخيدا لم يرجع فى الموعد المحدد، غادر الحصن وفيه عدد لا حصر له من الموتى.

وبقية المغامرة جديرة بأن تُحفظ لما تلقيه من ضوء على الحقيقة البشرية فى تلك اللحظة التاريخية، فالسفينة العتيقة التى أبحر فيها أوخيدا مع بعض الرجال جنحت عند شواطئ كوبا ولم يجرؤ ركابها الأوربيون، العراة والعزل مثل الوطنيين، على التوغل فى الجزيرة. فساروا بمحاذاة الشاطئ وخاضوا فى مستنقع خرجوا منه محتضرين بعد ثلاثين يوماً، وأول القرويين الذين وجدوهم، وكانوا ما يزالون يجهلون شرور البيض - كانت معرفة تلك الشرور مرصودة لهم فى تلك السنة بالذات - رقوا لحالهم، وعاملوهم كأخوة، وحين استعادوا عافيتهم حملوهم فى زورق إلى وجهتهم، وسيموت أوخيدا بعد زمن طويل من ذلك فى فراشه، فى إسبانيولا « ... دون أن يخلف قرشاً واحدا لدفنه... من كل الدر والذهب الذى نهبه وسرقه من الهنود...» وفقاً لما يقوله لاس كاساس الذى عرفه معرفة جيدة[٧].

٦ - فيراغوا (كوستاريكا) :

بعد انسحاب أوخيدا، تحولت هذه الشواطئ إلى مسرح لمجازر ضد السكان المحليين ولمكائد بين الغزاة، غدت يومية فى تلك المرحلة. وعلى خلفية من التنكيل والتمردات المقموعة والموت والجوع، يرسم لاس كاساس لوحة لإسبان ينبحون جوعا، ويمشون على أربع لعجزهم عن الوقوف (الجزء الثانى، ص ١٢٤)، ولقسوة لم يُسمع بمثلها فيما بين الإسبان أنفسهم، كتلك القسوة التى كان يجبر بها نيكويسا رجاله على العمل فى بناء الحصن صارخاً بهم : "هيا، هيا إلى المسلخ" (الجزء الثانى، ص ٤٢٥)، ولتأجيج النزاعات والغدر والاغتيالات من أجل الثروة. ولا شىء يوضح طبيعة الجائحة التى أبادت الوطنيين خير من خُلُق أولئك الرجال الذين تولوا إخضاعهم ومن سلوكهم، وحيال استحالة التوسع فى تاريخ هؤلاء الغزاة نكتفى باستحضار الجو الذى كان

يخيم على حياتهم – حيث لم تكن الانتصارات أقل كآبة من الكوارث –، من خلال إيراد مقطع موجز من كتاب فيرناندث دى أوفييدو، المؤرخ الرسمى لجلالة الإمبراطور كارلوس الخامس : «... وفى سورة غضب من أحد هنوده، استل سيفه وقتله... و ... واصل تقدمه وراء الحاكم. ومن بين المسيحيين السائرين فى أثرهما، وصل اثنان إلى حيث جثة الهندى المقتول ... وبدا لهما أنه سيكون عشاء مناسبًا، فاتفقا على المجىء إلى هناك تلك الليلة ليحتفلا بنعم ذلك الهندى وليدفناه فى بطنيهما ... وفى يوم آخر تال، وصل هذان الرجلان نفساهما مع تابعين آخرين ليسوا أقل نحولاً وجوعاً إلى مجموعة أكواخ، حيث لم يكن يوجد ما يؤكل وكانوا يتضورون جوعًا، فبادر الرجلان اللذان كانا قد أكلا الهندى فى عشائهما إلى قتل مسيحى يدعى هرنان ديانيس، أصله من اشبيلية، كان مريضاً بصحبتهما، وأكل هذان الرجلان الخبيثان منه، وشاركهما فى ذلك نبيل كتلانى يدعى خوان مايمون... وفى اليوم التالى واصلوا سيرهم، وذهبوا لقضاء الليل فى كوخين آخرين كانا على بعد فرسخ ونصف أو فرسخين عن المعسكر أو عن قرية كونثيبثيون، حيث يقيم الحاكم، وفى تلك الليلة، قتلَ الرجلان نفساهما... مع آخر على شاكلتهما، إسبانيا كان مريضًا و ... أكلوه أيضًا»[8].

فالإسبان الذين كانوا يهلكون من الجوع والمرض، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى أن يهيموا على وجوههم ردحًا طويلاً فى أراضى كوستاريكا، قبل أن يتمكنوا من الاستقرار فيها. وكانت النتيجة مفجعة جداً، حيث يؤكد أوفييدو : «وهكذا فإن فيراغوا، حتى الوقت الراهن (١٥٤٦) هى مقبرة للمسيحيين»[8].

٧ – كاستيا دل أورو(*) (بنما) :

وصل فاسكو نونييث دى بالبوا إلى منطقة بنما هاربًا من إسبانيولا، حيث لوحق بسبب الديون. وسرعان ما تخلص من الموظف الملكى الذى اختبأ فى سفينته حين هرب، وكذلك من نيكويسا بأن بعث به ليتوه فى عرض البحر. ومن أجل أن يفر من الجوع الذى أحدثه تدمير السكان الأصليين، توغل إلى داخل البلاد، مفتتحًا بذلك المرحلة الحاسمة من الاستكشاف والاستيطان.

(*) كاستيًا دل أورو (Castilla del Oro) أى قشتالة الذهب.

وفـى جشعه غير المحدود وعماه المطلق عن معاناة الضحايا، انتصر بالبوا على كل مقاومة بفضل الأسلحة النارية والكلاب التى احتاط بحمل عدد كبير منها - يروى أوفييدو أن أحد تلك الكلاب بلغ من المهارة فى تعقب الهنود حداً استحق معه أن يُمنح رتبة كابتن -. وفى أقل من عشر سنوات تحول نونييث دى بالبوا إلى سيد مطلق على أرض أصبح ثراؤها خرافياً، وكانت وفرة الذهب كبيرة لدرجة أن المهاجمين تفرغوا طوال سنوات للنهب وإبادة البشر واصطياد العبيد دون التفكير فى المجاعات التى يهيئون لها بمحوهم التام لكل أشكال الحياة.

وأثناء اقتسامهم إحدى الغنائم، اكتشفوا وجود المحيط الهادى، فقد فوجئ زعيم محلى شاب بجشع الغرباء تجاه الذهب، وحاول التخفيف من حدة نزاعاتهم قائلاً لهم إنهم سيجدون أكثر مما يستطيعون حمله من الذهب إلى الجنوب من «البحر الآخر». وعند وصوله إلى شاطئ المحيط الجديد، سمع فاسكو نونييث دى بالبوا للمرة الثانية كلاماً عن مملكة الذهب الخرافية، عن تلك البيرو التى سيتوجهون إليها، والتى ستكون منذ ذلك الحين مشروع جميع المغامرين وحلمهم، وفى تلك اللحظة المهيبة، عرف الإسبان كذلك أن المياه المحيطة بالجزر الصغيرة فى خليج بنما تحتوى على احتياطى لا ينضب من اللؤلؤ.

كان لهذه الأخبار الخرافية وقع عظيم فى المتروبول، وبينما الدسائس لعزل نونييث دى بالبوا تتزايد، كانت حشود من الصناع والنبلاء تلح بصورة جماعية على السماح لها بالعبور إلى العالم الجديد، وتم اختيار ألفى رجل من صفوة المتقدمين، وانطلقت قافلة مؤلفة من عشرين سفينة ومركبين شراعيين سريعين، متشرفة بوجود أسقف أميركا الأول بين ركابها. وقد كان بين تلك الجموع المتأنقة والمتباينة بيرنال دياث دل كاستيو Diaz del Castillo ، الذى سيصبح مؤرخ حروب المكسيك فيما بعد، والذى لم يرد اسمه فى أية قائمة من قوائم رجال الحملة المرموقين، وكان هناك أيضاً فيرنانديث دى أوفييدو الذى كان يشغل منصب كاتب بالعدل حينذاك، وسيصبح الناظر الأول لعمليات صهر الذهب فيما بعد.

تمكن نونييث دى بالبوا من البقاء على قيد الحياة لبعض الوقت بفضل معرفته بموارد المنطقة، وقد أمنت له ثروته الطائلة حماية الأسقف له من الحاكم بيدراریاس دافيلا Davila، وكان حاذقاً فى مناوراته حتى أن هذا الأخير وافق على تزويجه ابنته

كى يضمن ولاءه، ولكن ذلك لم يمنع الحاكم من التخلص من الخصم المرهوب بالحكم عليه بالإعدام حين سنحت له الفرصة الأولى. وجاءت نهاية نونييث دى بالبوا حين كان يستعد للهرب إلى البيرو فى أربع سفن بنيت بكاملها على شواطئ المحيط الهادي، بمساعدة فريق صغير من رجاله المقربين، وبجهود شخصية جبارة وموت عدة مئات من السكان الأصليين. واتخذ الحاكم بيدراریاس من هذه «الخيانة للملكين» ذريعة لتصفيته: «وهكذا جرى إعلان الحكم فى مناداة عامة، وقُطع رأس المتقدم(*)...، فى ساحة آكلا Acla، وبُرئت ساحة القائد اندريس غارابيتو Garabito لأنه كشف أمر الخيانة. ثم غرس عمود فى الأرض، وبقيت رأس المتقدم مثبتة عليه لعدة أيام. ومن داخل بيت يقع على بعد عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة من المكان الذى كانوا يذبحونهم فيه (مثل الخراف، واحدا بعد الآخر) كان بيدراریاس يراقبهم من خلال قصب جدار البيت أو الكوخ»[٩].

بينما كانت الصراعات الداخلية بين الإسبان أنفسهم، والحملات التى لا حصر لها ضد الوطنيين تتصاعد، كانت المدينة تهلك جوعاً. فالقادمون حديثًا، ضحايا الوهم بأن الكنوز ستكون فى متناول اليد، لا يلبثون أن يصابوا بخيبة الأمل، ويموتون مثل الذباب، فبدلاً من الأنهار المزعومة التى تحمل الذهب الوفير – يقول لاس كاساس إنهم جميعا كانوا يسألون لدى نزولهم من السفن عن مكان وجود الذهب الذى يصطادونه بالشباك –، وبدلاً من المناخ الفردوسى ومن الوطنى الهمجى النبيل والوقور، لم يكتشفوا وجود المعدن النفيس إلا على شكل حلى تُغتصب بقسوة، أما المناخ السائد فكان وخيمًا على الصحة، وكان الوطنيون أذلاء يباعون كسلعة، ويسجل أوفييدو أنه عندما نضبت المؤونة المجلوبة من قشتالة، كان يموت فى دارين Darien أكثر من عشرين إسبانيا فى اليوم الواحد، ويشير لاس كاساس إلى مقايضة الحرير والملابس المترفة بكسرة خبز، ويستحضر بقوة أكبر ذكرى أولئك القوم القانطين: «يبدو أن شيئًا كهذا لم يُشاهد من قبل، أناس يرتدون الملابس الحريرية الفاخرة، بل إن بعضها من الإستبرق، وتساوى مالاً كثيراً، يخرون صرعى الجوع عند كل خطوة، ويخرج آخرون إلى الحقول فيقضمون الحشائش ويأكلون من الجذور أطراها وكأنهم الأنعام...»[١٠].

(*) المتقدم (El Adelantado): لقب كان يطلق على الولاة الإسبان فى المستعمرات الأمريكية.

ومع ذلك، فقد كان النهب يؤتى ثماراً وفيرة: فخُمس الذهب واللؤلؤ والكائنات البشرية التى كان القانون يخص بها التاج وحده، كانت تشكل صفقة قيمة جداً. «... دفع الخُمس للملك، سلّم للخازن من كل خمسة هنود واحداً... ثم بيع هؤلاء فيما بعد بالمزاد ووسموا بالحديد المحمى، وأُخرج معظمهم من الأرض القارية إلى البحر، وتم نقلهم إلى مناطق أخرى»[١١].

يمكن لنا أن نتخيل ما سيشعر به أى شخص يتمتع بشىء من الحياد حيال سلوك ضار إلى هذا الحد بالمصالح الأكثر آنية للفتح، وقد كانت هذه هى حال فيرنانديث دى أوفييدو، فبالرغم من اشتراكه فى عدة معارك كقائد، إلا أنه كان يجد مشقة على ما يبدو فى أداء دوره بجدية كممثل للعدالة، ويسعى لمعالجة الوضع بذهابه إلى إسبانيا، حيث يتمكن من عزل بيدرارياس دافيلا. ولا يبحر عائداً إلى بنما إلا بعد توجه الحاكم الجديد إليها، ولكن سوء الطالع حاق بهذا الحاكم الجديد فمات وهو فى الطريق، وهكذا وجد أوفييدو نفسه مجبراً، وهو بصحبة زوجته وأولاده هذه المرة، على خوض مواجهة جديدة مع بيدرارياس، المطلع على مساعيه ضده. وعلى الرغم من العداوة المريرة والمكابدات المتواصلة التى عاناها – موت زوجته وأحد أولاده، ومحاولة اغتياله شخصياً– ، فقد واصل مزاولة مهامه إلى أن جاء أمر التاج بتعيينه مؤرخاً لبلاد الهند.

وعلى الرغم من تدخله الفعال فى عملية الاستيطان، فإنه لم يتخلَ عن مبادئه مطلقاً، وعمل خلال حياته كلها فى جمع البيانات التى ستؤلف كتابه الضخم الفريد، ليس هناك ما يمكنه أن يقدم لنا رؤية لأجواء فتح أميركا ووقائعه خيراً من شهادة هذا الموظف؛ ولذا سنغادر هذه المنطقة بإيراد المقاطع المطولة التى يستهل بها أوفييدو، ويختتم تأريخه لمختلف الحملات التى «نشرت الأمن فيها»: «مُتعِب، وليس بالتعب القليل، أن أكتب أنا هذا ويقرأه آخرون، ولن يكفى الورق ولا الزمن للتعبير عن كل ما فعله القادة لإبادة الهنود وسلبهم ولتخريب الأرض، إذا كان كل شىء سيقال بالدقة التى حدث بها، ولكننى قلت أعلاه، إنه فى حاكمية كاستيا دل اورو هذه، كان يعيش مليونا هندى، أو أنهم كانوا لا يعدون ولا يحصون، وأنه من الضرورى أن يقال كيف قضى على كل هؤلاء الناس فى زمن قصير كهذا».

«... هذه الحصص التى كان يضمها الحاكم والموظفون إلى مداخيلهم، كانت تُضخم تلك المداخيل كثيرا، وكان الخازن ألونسو دى لابوينتى La Puente ينظم الضبوط التى يجيء بها كل ضابط، وأحد أول الشروط التى كان يضعها هو أن يقدموا للحاكم حصتين من الذهب والهنود الذين استولوا عليهم، وأن يُقدم مثل ذلك للحاسب والخازن والقيّم، ولكن ليس من الذهب، وإنما من الهنود فقط، وهكذا كان يتم القيد والإنجاز. والحقيقة أنه لم تكن للموظفين حصة من الذهب، وإنما من الهنود كما قلت، لكن كل واحد منهم كان يسعى لأن يكون القائد الصاعد من أصدقائه لكى يصطحب له غلمانه معه فيكسبوا بذلك الحصص، وهكذا كان يثرى ضباط كثيرون، وحين يرجعون فيما بعد، حتى ولو كانوا قد اقترفوا ألفا من الخطايا أو من الفظائع، سيجدون من يدافع عنهم بين الموظفين أنفسهم، كرد للجميل».

«... لقد وصل فرانثيسكو بيثيرا Becerra إلى رتبة كابتن بفضل مساعدة الخازن، لأنه كان ابن قريته أو قريبه، وكان هذا واحداً من الجنود القدماء أو الأوائل فى هذه الأرض وهذه الجزر، وكان يعرف جيداً سذاجة الهنود، وقد اقترف من الفظائع أكثر مما اقترفه أى رجل آخر... ولم يلمه أحد لأنه أحضر ستة آلاف أو سبعة آلاف بيزو ذهباً وأكثر من ثلاثمائة هندى وهندية مكبلين، حيث نال الحاكم والأسقف والموظفون حصصاً مناسبة منهم، وكان هذا كافياً للصفح عن جرائمه، بل وللثناء عليه وعدم تأنيبه أو معاقبته ...».

«هذه الحادثة التى رويتها فى سطور قليلة، هى من فعل هؤلاء الموظفين، وأستميحهم العذر لما قد يبدو لهم فى روايتى أنه إهانة، وليذكروا أننى أكتب فى زمن شهود العيان، وأنه بحضوري، كما أمام نُظّارٍ آخرين، صُهرت جميع هذه الكنوز باسم الأمين لوبى كونتشيّوس Conchillos ، وكانت تصل إلى يديّ محاضر أعماله وأملاكه، وكنت أرى وأقرأ، وأطلعت على بقية حساباته. وأنا أرجو منهم أن يشكرونى لما حذفته وسكت عنه... وإذا ما كان لديهم مع ذلك تقدير واحترام لريشتى، فسيرون أننى عاملتهم كأصدقاء، وبدون أية أهواء، لا أشعر بها حقيقة فى هذه المسألة، لقد وددت التحدث فى البدء باحثًا عما يستحق الثناء من أعمالهم، لتكون القراءة أمتع، وليكون إنجاز هذه المواد بالنسبة إليّ، جردة أخف وطأة، ولكن، كما قلت فى موقع آخر، عليّ أن أقدم أسبابًا لتحول هذه الأراضى إلى ما يشبه القفر، بلا هنود...»(١٢).

٨ - إسبانيا الجديدة :

يندرج اكتشاف المكسيك، الذى تم بعد خمس وعشرين سنة من وصول كريستوف كولومبس، فى سياق نظام استعمارى ذى معايير وصلت إلى درجة لا بأس بها من الاستقرار. وأكثر هذه المعايير جوهرية هو الدفاع عن السلطة ولو على حساب التضحية بقيم أخلاقية كبيرة من جهة، واستخدام تقنية استغلال متماسكة تستند إلى الاعتراف الرسمى بالطبيعة البهيمية للوطنيين، وعلى مسلمة خلوهم من الروح من جهة أخرى.

وتشكل جزيرة كوبا، حيث تربى فاتحو المكسيك، مدرسة حقيقية فى هذا الاتجاه. فبعد خيانته لدييغو كولومبس، ابن كريستوف، وتنصيب نفسه حاكماً تحت أوامر الملكين مباشرة، أدار دييغو فيلاثكيث Velazquez بمهارة شديدة، ليس شؤون مواطنيه وحسب، وإنما عبيده كذلك، مما أتاح له الحكم لفترة طويلة. كانت مناجم الذهب عديدة، وكانت الثروات تتراكم بشكل مرض، بالرغم من عدم تعاون الوطنيين ، فلولا العائق الذى كان يضعه السكان المنحطون، لحوَّل الأوربيون الجزيرة عمليًا إلى وطن الرخاء بسرعة، ولكن بدلاً من أن يعمل هؤلاء الوطنيون بتعقل، يبيحون لأنفسهم ليس الهرب وترك الإسبان بلا خبز وحسب، بل وصل بهم الأمر كذلك إلى حد الانتحار حين يُلقى عليهم القبض ثانية. إذ كانوا يختارون الانتحار هربا من حياة يرون أنها لا تطاق. وينقل لاس كاساس أخبار عائلات كبيرة شنق جميع أفرادها أنفسهم معًا، أو قرى كانت تدعو قرى أخرى للتضامن معها فى الموت الجماعى(١٢). ولا يقرب فيرناندث دى أوفييدو هذا الموضوع الشائك إلا حين يحاول تفسير انقراض سكان كوبا : «... حين اكتشف الأميرال هذه الجزر، وجد فيها مليون هندى وهندية أو يزيد من جميع الأعمار، ما بين صغار وبالغين، ومن جميع هؤلاء، وممن ولدوا فيما بعد، لا يُعتقد أنه يوجد حاليًا، فى عام ثمانية وأربعين وخمسمئة وألف هذا، أكثر من خمسمئة شخص، بين صغار وبالغين، من الوطنيين أو من نسل أولئك الأوائل وذريتهم، لأن معظم الموجودين الآن هم من الذين جاء بهم المسيحيون من جزر أخرى، أو من الأرض اليابسة (القارة) ليستخدموهم. ولأن المناجم كانت غنية جداً، وجشع الرجال لا يرتوى، فقد أجبر بعضهم الهنود على العمل حد الإنهاك. ولم يقدم لهم آخرون ما يكفى من الطعام، فضلاً عن أن

هؤلاء الناس كانوا كسالى وفاسدين وكارهين للعمل، وكئيبين وأنذالاً ودنيئين وشريرى الميول، كاذبين أو ضعيفى الذاكرة وبلا جَلَد. وقد انتحر كثيرون منهم كى لا يشتغلوا، وشنق آخرون أنفسهم بأيديهم...»(١٤).

ولنا أن نفهم سخط المسيحيين من سلوك الوطنيين هذا المتمادى على المقدسات، خصوصاً وأنهم يغدقون عليهم شفقة لا يمكن نكرانها. ويكفى، على سبيل المثال، أن نتذكر ما كان يفعله أحدهم كى ينقذ عماله من الجوع : «... بحضورى وحضور آخرين روى لنا أحدهم، وكأنه يشير إلى مفخرة أو إلى مأثرة طيبة، أنه جنى من عمل الهنود الذين حصل عليهم من هذا التوزيع أكثر من ألف مثل، بجعلهم يعملون فى الفلاحة التى يُصنع منها خبز الكاثابا، إذ كان يرسلهم فى اليوم الثالث، أى مرة كل يومين إلى الجبال ليأكلوا ما يجدونه من ثمر الأرض، ثم يجعلهم، بما أودعوه فى بطونهم، يشتغلون فى الفلاحة المذكورة، دون أن يأكلوا منها ولو لقمة واحدة...»(١٥).

ونظراً لغنى الأرض بالقوت والذهب، فإن العائق الوحيد الذى كان يعترض إمكانية جمع الثروة المنشودة هو هرب العبيد وعدم قدرتهم على الاستمرار فى الحياة. ومع ذلك، فحول هذه الكائنات المحتقرة والمرذولة نشبت الخصومات، وحُبكت الدسائس، وتمكنت الأحقاد، إن الجوع الذى يؤدى إليه هجر الزراعة، وكذلك استحالة إفراغ المناجم بأسرع وقت ممكن بسبب نقص اليد العاملة، جعلا من الوطنى هدفًا للجشع، وصار هو النقد الوحيد ذا القيمة المستقرة. وكان التهالك على الثراء السريع عامًا، فكل مالك يعرف أنه تحت رحمة الحاكم ومشيئته، وكانت سلطة هذا الأخير بدوره خاضعة لتهديد أى مواطن يملك أدنى حد من النفوذ السياسى.

وما أن أُقرت شرعة توزيع السكان الأصليين "قطعة مقابل قطعة" حتى تحولوا إلى مصدر سلطة متنازع عليها بشراسة. ولا شىء يوضح القيمة الاقتصادية للأهالى الوطنيين أكثر من رسالة كورتيس **Cortes** الأولى الموجهة إلى كارلوس الخامس، فإثر وصوله إلى المكسيك، بعد خيانته لدييغو فيلاثكيث الذى مول حملته، حاول فاتح مكسيك المستقبل تبرير تمرده ضد ممثلى التاج بتذمرات تتعلق باقتسام المواشى البشرية. وسنورد تبريراته لما تلقيه من ضوء على الآلية التى كانت تحرك ذلك المجتمع: "ولأنه حاكم ومسؤول عن توزيع الحصص، فإنهم يحسبون له حساباً ويخشون أن

يدمرهم، ولا يجرؤون على أى عمل إلا ما يشاؤه هو، وليس لدى جلالتكم علم بهذا، كما أنه لم يخبركم بأى شىء من ذلك قط، لأن الموفدين إلى بلاطكم ممن ذهبوا إلى الجزيرة المذكورة، صاغهم بيده وهم خدم له، وهو يرضيهم على أحسن وجه بمنحهم هنوداً على هواه، وكذلك النواب الذين يأتون إليه من الأمصار ليفاوضوه بشأن نصيب جماعاتهم، ينفذون كل ما يشاؤه، لأنه يمنحهم هنوداً لاسترضائهم، وحين يعود أولئك النواب إلى أمصارهم ويُطلب منهم تقديم حساب عما فعلوه، يجيبون مطالبين بالا يبعثوا أشخاصاً فقراء، لأنهم مقابل زعيم وطنى يمنحهم إياه دييغو فيلاثكيث يفعلون كل ما يريده، ولأن الولاة والعمـد الذين لا ينتزع منهم دييغو فيلاثكيث المذكـور ما يملكونه من الهنـود، لا يجرؤون على الكلام أو على تقريع النواب الذين فعلوا ما يجب ألا يفعلوه..."[١٦].

قبل سنوات من ذلك، كان كورتيس قد قاد مؤامرة ضد دييغو فيلاثكيث نفسه، ولأسباب مماثلة، وحُكم عليه بالإعدام ، لكن طموحه ومكره وعبقريته فى حبك الدسائس كانت ثمينة جداً فى ذلك الوسط، بحيث لم تمكنه من الإفلات من الشنق وحسب، وإنما عاد إلى الدخول كذلك فى كنف الحاكم ورقىّ إلى وظيفة عمدة بلدة سنتياغو.

إن اعتماد المستعمرة الناشئة على كائنات لم تتوقف هى نفسها عن إبادتهم، دفع إلى القيام بحملات صيد البشر المربحة والكشوف الجغرافية اللازمة لذلك. وهذا ما يفسر أيضاً النزاعات التى نشبت هناك، حيث يمكن الحصول على الذهب دون استخراجه من المناجم، ودون أية مشقة أخرى سوى انتزاعه من أصحابه الشرعيين. ويكفى هنا التذكير بالجرائم المتتالية حول كنوز بنما، وبفاسكو نونييث دى بالبواحين صفّى قادة وموظفين ممن لهم نصيب فى القسمة، ثم قُتل هو نفسه فيما بعد للأسباب نفسها، والتذكير كذلك بجماعة المكسيك، حيث ذبح كورتيس أول الأمر الموالين لدييغو فيلاثكيث، ثم من حاولوا منازعته فريسته، وأخيراً ما جرى بين مكتشفى البيرو، حيث تحول اقتتال الإخوة الشائع إلى حروب أهلية لا مثيل لفظاعتها، وإلى تمردات ضد التاج.

لقد حسم فتح بنما، التى كان الذهب وفيراً فى حوزة أهلها، إجراءين تبلورت حولهما الآلية العملية والأيديولوجية للفتح: أولهما الاعتراف الرسمى، المُتَضَمَّن بصورة ضمنية فى إرسال ناظر لوظيفة الذهب، مما يعنى أن غاية الغـزو كانت اقتصادية، وأن عالم السكان الأصليين بالتالى، ببشره وإنجازاته، قد يكون مرفوضاً قبل الاقتراب

منه أو التعرف عليه، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، هناك الخطبة التى كانت تُلقى قبل القتال لتبين للوطنيين عظمة ملكى إسبانيا، والبابا، والإيمان وما يترتب عليهم تبعاً لذلك من مدّ يد العون إلى الغزاة، وأخيراً إعلان الحرب عليهم إذا هم رفضوا الانصياع، وتأكيد الحق بسبيهم. وكان من الواجب نظرياً، تلاوة هذه الوثيقة قبل بدء القتال، ولكن البند الوحيد الذى كان إبلاغه للوطنيين ممكناً، إن لم يكن بالقراءة فبالتطبيق على الأقل، هو بند العقوبات الانتقامية. ويلاحظ فى كتب الوقائع التأريخية التحوير الذى كان يجرى على هذا "البلاغ"(*)، مما يحوله إلى مصادقة حقيقية على النهب: فبينما احتفظ فيرنانديث دى أوفييدو، الذى كان عليه أن يقرأه بوصفه حاسباً، عام ١٥١٤، ببعض الموضوعية حياله، استخدمه كورتيس بجدية جديرة بأفضل كوميديا سوداء. وسنعرض هذين الموقفين من خلال إيراد نصوص ما زالت تكشف لنا روح الفتح مفعمة بحرارة الحياة.

بعد أن يصف أوفييدو معركة أثبتت فيها الكلاب أنها لا تقل فعالية عن الأسلحة النارية، يمازح بيدرارياس دافيلا قبل أن يقول: "... بحضور الجميع قلت له: سيدى، يبدو لى أن هؤلاء الهنود لا يريدون سماع لاهوت هذا البلاغ، كما أنه ليس لديكم أنتم من يُفهمهم إياه، فمر سيادتك بحفظه إلى أن نحصل على هندى من هؤلاء فى قفص، ليَفهمه على مهل، أو ليتولى السيد الأسقف إفهامه إياه...".

"وفيما بعد، سنة ست عشرة وخمسمئة وألف، سألتُ الدكتور بالاثيوس روبيوس، لأنه هو الذى صاغ ذلك البلاغ، إن كان ضمير المسيحيين يرضى بهذا...، فقال لى نعم، إذا ما تصرفوا مثلما يقول البلاغ. ولكنه كان يضحك كثيراً حين أروى له ما فعله بعض القادة فى هذه الحملة أو تلك. وكان لى أن أضحك أكثر بكثير منه ومن آدابه... إذا كان يظن أن الهنود سيفهمون ما جاء فى ذلك البلاغ قبل مضى السنين والزمن... وفيما بعد سيرد تحديد للوقت الذى كان القواد يمنحونه للهنود المقيدين، بعد سلبهم ليقرؤوا عليهم أثناء ذلك هذا البلاغ كله..."[١٧].

(*) البلاغ Requerimiento نوع من الخطبة كان على قادة الفتح الإسبان أن يتلوها على الوطنيين، عارضين عليهم فيها اعتناق الكاثوليكية والخضوع لملك إسبانيا، وإلا فإنهم سيُقتلون ويساقون عبيداً، ولم يكن الهنود يفهمون بالطبع كلمة واحدة من هذه الخطبة التى تلقى عليهم بالإسبانية.

كان القادة المعنيون هم قادة بنما وكوستاريكا، لكن كورتيس سيكرر نموذجهم ويوصله إلى الكمال. فرسالته إلى الإمبراطور الإسبانى عام ١٥١٩ تثبت بوضوح أن التدابير الأولى الواردة فى البلاغ كانت مضمرة فى عملياته، إذ إن التدبير الأخير كان يُنفذ عمليًا قبل أن ينتبه الوطنيون إلى وجود المعتدين. والحقيقة أن هذا البلاغ الذى تحيط بعض الكتابات شعوذته بغموض مضطرب، كان يشكل البنية الأخلاقية التى أضفاها الملوك اللاهوتيون والدنيويون على الغزو: إنه عقيدة الفتح الروحية.

"عدت فى يوم آخر إلى الخروج صوب ناحية أخرى قبل أن يطلع النهار، من غير أن ينتبه الهنود إلىّ وكان معى الخيالة ومئة راجل وأصدقائى من الهنود، فأحرقت لهم أكثر من عشر قرى، بعضها يضم أكثر من ثلاثة آلاف بيت، وقد قاتل من كان منهم فى القرية ضدى، ولا ريب أن رجالاً آخرين كانوا غائبين عن القرية ، وبما أننا كنا نرفع راية الصليب، ونحارب فى سبيل ديننا، وخدمة لجلالتكم القدسية، ومن أجل رفعة مقامكم الملكى، فقد منحنا الربُ نصراً مؤزراً وقتلنا منهم خلقًا كثيرين، دون أن يصاب أحد منا بأذى. وبعد انتصاف النهار بقليل، اجتمعت قواتنا من كل الأنحاء، وعدنا إلى معسكرنا والنصر حليفنا".

"وفى يوم آخر تال جاء بعض الرسل، من زعمائهم، قائلين إنهم يريدون أن يكونوا أتباعًا لجلالتكم وأصدقاء لى، ويرجوننى أن أغفر لهم الخطأ السابق. وأجبتهم بأنهم قد أتوا أمراً منكراً، ولكننى سعيد بأن أكون صديقًا لهم وأصفح عما اقترفوه... وقبل أن يبزغ الفجر، هاجمتُ قراهم، وقتلت منهم خلقاً كثيرين، ولم أشأ إحراق بيوتهم حتى لا تنبه النار قرى أخرى. وبينما الفجر يطلع هاجمتُ قرية أخرى كبيرة جداً، كان فيها... أكثر من عشرين ألف بيت. وبما أننى أخذتهم على حين غرة، فقد خرجوا عزلاً من السلاح، وخرجت النساء والأطفال عراة إلى الطريق، فعملت فيهم تقتيلاً، وحين رأيت أنهم لا يقاومون، جاء بعض أمراء تلك القرية يتوسلون إلىّ ألا أُلحق بهم مزيداً من الدمار لأنهم يريدون أن يكونوا أتباعًا لجلالتكم وأصدقاء لى وأنهم يرون بأنهم قد أخطؤوا حين لم يقبلوا أن يخدمونى..."[١٨].

إن أساليب كورتيس الحربية هى نسخة طبق الأصل عن الأساليب التى استخدمها فاتحون آخرون، مما يجعل قراءتها أمراً رتيبًا، فنحن نرى دائماً الغارات

المباغتة نفسها قبيل الفجر، والحرائق نفسها، والحشود المذعورة والعزلاء التى تنتهى إلى الاعتراف بأنها كانت على خطأ؛ وعلى أى حال، فإن كورتيس الذى يملك مكراً استثنائياً، شحذه ما يزيد على عشر سنوات من التجربة البيروقراطية الاستعمارية، كان الوحيد الذى قدم تجريداً متقناً للبلاغ، فقد أتاح له ذكاؤه المصاغ فى دهاليز المكيدة، التيقن من أن الشيء الوحيد المهم فى مثل هذا النوع من المشاريع هو الثروة، وأن أشد المخالفات جلاء ستُغفر للمنتصر. وربما كان هذا ما يفسر عدم التماسك فى كلامه الجرىء، وازدراءه للمنطق عند توجهه إلى الملك. فهو يبرر المذبحة المقترفة فى تشولولا Cholula مثلاً، زاعماً أن المدينة كانت متأهبة للحرب، فى الوقت الذى يؤكد فيه أن انتصاره إنما يرجع إلى عدم تعبئة زعماء "الأعداء" الذين جاؤوا لزيارته مسالمين، وإلى انقضاضه المباغت على السكان: "... استدعيت زعماء المدينة قائلاً إننى أود التحدث إليهم... وبعد أن جمعت السادة فى تلك القاعة، تركتهم مقيدين، وركبت إليهم وصببت عليهم النار وأعملنا فيهم اليد، حتى قضى منهم فى ساعات قلائل أكثر من ثلاثة آلاف رجل. ولترى جلالتك كم كانوا مستعدين، قبل أن أخرج من موقعنا، فإنهم كانوا مسيطرين على كل الشوارع، وكانوا جميعهم متأهبين، ولكننا حين أخذناهم على حين غرة تشتت شملهم تماماً، خاصة وأنهم افتقدوا الزعماء الذين كانوا أسرى لدى"(١٩).

رغم البراعة التى وصل إليها كورتس فى هذا النوع من المناورات، فإننا نكتشف، دون أن نفاجأ بذلك، أنه يستخدم الأساليب نفسها ضد أحد ضباطه الذين يحملون إليه التعليمات الملكية: فهو يرفض مقابلة مواطنيه بحجة وجود مؤامرة، ثم يفاجئهم وهم فى عميق نومهم، وحينما يلتجئ هؤلاء إلى قمة مبنى، يُخليهم من هناك بالأسلحة النارية، ويتوصل بسهولة إلى قتل عدد كبير منهم ثم إلى أسر خصمه الأساسى. ويعترف الذين خرجوا سالمين، مثلهم مثل الوطنيين تماماً، بدهائه ويطلبون منه العفو بمهانة.

وتنجو هذه الحادثة من نمطية الحوادث الأخرى بفضل الصدى الذى نجده فى دهشة إمبراطور المكسيك حين يعرف أن كورتيس يستعد لخوض معركة ضد إخوانه، أتباع الرب والملك نفسيهما اللذين يشن باسميهما حربه الصليبية المقدسة، ويأتى بيرنال دياث دل كاستيو على ذكر محاولة كورتيس لأن يوضح للزعيم المحلى أسباب

اقتتال الإسبان الذى يجد هذا صعوبة فى فهمه: إن نطاق أملاك ملك الملوك شديدة الاتساع، والشعوب التى تقطنها تمثل أجناسًا شديدة التفاوت. فكما يوجد هناك القشتاليون، الذين هم أناس أخيار مثلهم، يوجد آخرون من الأشرار، من أمثال هؤلاء الأعداء المنحدرين من إقليم فى إسبانيا يدعى فيثكايا، وهم يتكلمون الباسكية، وهى لغة منحطة، مثل لغة الاوتومي عند الازتيك. ونحن نجهل إن كان عاهل الازتيك، الملك موكتيزوما قادراً على استيعاب هذا التبرير ، ولكننا نعرف أن كورتيس قد طُرد ومن معه من تينوتشتيتلان بعد عودته من حملة الاقتتال الأخوى.

لقد كان تميز المكسيك عظيمًا لدرجة أن كولومبس نفسه كان قد هجس به لدى رؤيته فى بحار هندوراس إحدى السفن المحملة ببضائع فاخرة، وفيها أناس متزينون بترف وثراء. وعندما تم اكتشاف شواطئ يوكاتان **Yucatan** بعد خمس عشرة سنة من ذلك، بمصادفة قادت إليها عاصفة، وحدث ذلك على يد صاحب سفينة كان ذاهبًا لاصطياد العبيد، تركت تلك الشواطئ تأثيراً عميقًا فى نفوس رجال الطاقم. فالقبطان فرانثيسكو هيرنانديث دى كوردوبا، والمرشد انطون دى ألامينوس لم يريا أبداً من قبل، رغم كونهما ذئبى بحر عجوزين، مدنًا ذات أبنية حجرية عظيمة كتلك، فيها جموع من الناس، ترتدى الملابس وتتزين بحلى ذهبية بديعة، وحيث يوجد عسل، سحرهم مذاقه وصفاء بياضه، وبعد مذبحة كان لا بد منها فى أحد موانئ الخليج، مات فيها عشرون إسبانيا كذلك، رجعوا إلى كوبا. وموّل دييغو فيلاثكيث، الذى تحمس لهذا الاكتشاف، أسطولاً بعث به إلى الممالك الجديدة تحت قيادة خوان دى غريخالبا مما أغضب هيرنانديث دى كوردوبا بسبب غدر الحاكم به. لأنه كان يبحر لحسابه الشخصى، وبالتالى فإن له حقًا بحصة من الأراضى الجديدة، فذهب إلى إسبانيا ليشكو الحاكم للملك، ومات هناك.

وعلى الرغم من وقوع مناوشة قُتل فيها إسبانى واحد، فقد استكشف غريخالبا بسلام شواطئ ما سيعرف باسم إسبانيا الجديدة. وأطلق اسمه على نهر تاباسكو العظيم وحُمِّل بالهدايا فى كل المناطق التى مر بها ، وينقل صديقه فراى بارتولومى دى لاس كاساس صورة حية ومفعمة بالألوان للاستقبال الأخوى الذى قدمه زعيم "همجى" لهذا القائد: "... وافق زعيم تلك الأرض وسيدها على مقابلة المسيحيين، وجاء فى زورق

يغص بأناس دون أسلحة، ودخل سفينة القائد غريخالبا واثقًا وكأنه يدخل سفينة أخيه. وكان غريخالبا شابًا مهذبًا، لا يتجاوز الثامنة والعشرين من العمر...، وبدأ السيد بإخراج قطع من الذهب... وكأنه صنعها خصيصًا لغريخالبا وعلى مقاسه، وراح الزعيم يثبتها بيديه من القدمين وحتى الرأس، نازعًا ما هو غير مناسب منها، وواضعًا بدلاً منها ما يتناسب مع القطع الأخرى، إلى أن غطاه تمامًا بحلى من الذهب الصافى وكأنه يدرعه بدرع سابغ من الفولاذ المصنوع فى ميلانو... شكره غريخالبا قدر ما استطاع، وجازاه بالطريقة التالية: أخرج قميصًا بديعًا وألبسه إياه، ثم نزع عن بدنه الجلباب القرمزى وخلعه عليه، وألبسه قبعة جديدة من القطيفة وأحذاه نعلاً جديداً من الجلد..."[20].

لقد أوقعته هذه الثروات فى محنة لدى عودته إلى كوبا. إذ وبخه دييغو فيلاثكيث لضآلة قيمة غنيمته واستبعده من مشاريعه عند تشكيل أسطول جديد مؤلف من عشر سفن وثلاثة مراكب من نوات الساريتين، وعين كورتيس قائداً لها. ومع ذلك، فقد أحيط الحاكم علماً بأن كورتيس ينوى مخالفة تعليماته (وكان قد حظر على كورتيس الاستقرار فى تلك الأرض الموعودة حتى لا تفلت من بين يديه، وخوله صلاحية مقايضة البضائع فقط)، ولكنه حين أراد إيقافه، كان الأسطول قد صار فى عرض البحر، لأن كورتيس ما أن علم بالوشاية به حتى غادر الميناء على عجل، وسرق المؤن التى لم يشأ انتظار وصولها من مستودع مدينة فى إسبانيولا، وهاجم سفينتين فى عرض البحر، وسيعترف ضاحكًا فيما بعد بأنه تصرف كـ "قرصان مهذب".

وفى يوكاتان يعلم كورتيس بوجود سبعة إسبانيين ناجين من سفينة قديمة غارقة، وتقديراً منه للفائدة التى سيجنيها من هؤلاء المترجمين الذين بعثتهم العناية الإلهية، يعلن أن الواجب يفرض عليه تحريرهم من الكفرة ويرسل حملة فى طلبهم. فيرجع مع مبعوثيه واحدٌ منهم فقط، هو أغيلار. أما الستة الآخرون - وباستهجان مريع من جانب فيرناندث دى أوفييدو عند روايته الحادثة - فيفضلون البقاء إلى جانب زوجاتهم المحليات. وقد دشنت الفتاة التى أهدوها إلى كورتس فى خليج المكسيك، والتى تتكلم لغة الناهواتل، طريق التفاهم بالكلمة أمام الفاتح: إذ كان يتوجه بالحديث إلى أغيلار، فيترجم هذا للفتاة مارينا بلغة المايا، ثم تترجم هى بدورها إلى المكسيكية،

وبهذه الطريقة البطيئة والمضنية تواصل الفاتحون مع ضحاياهم فى المكسيك لسنوات طويلة.

كانت فيراكروث (القريبة من الميناء الحالى الذى يحمل الاسم نفسه) هى المستوطنة الإسبانية الأولى فى المكسيك ، وهناك وطد كورتيس سياسته تجاه رجاله قبل أن ينطلق إلى فتح البلاد. فشنق أنصار فيلاثكيث كى لا يتمكن شهود قسوته من الذهاب لإنذار الحاكم – جرت محاولة للفرار إلى كوبا نُقلت إليه أخبارها قبل وقوعها –، وأغرق سفنه. وعمل بكل الوسائل حتى يهجر فرانثيسكو دى غاراى الشواطئ التى كان يعتبرها أرضه، ثم نصّب نفسه حاكماً تحت إمرة المتروبول مباشرة.

سارع كورتيس فى الحال إلى تدبيج روايته الشخصية للأحداث، آخذا بحسبانه القوة التى مازال يتمتع بها دييغو فيلاثكيث، والأذى الذى قد يلحقه به؛ فأظهر كورتيس كثيراً من السخط ضده فى الرسائل التى بعث بها إلى الإمبراطور. (الحقيقة أن فيلاثكيث كان قد فقد قوته اثر خيانة كورتيس له وخسارته الأسطول الذى كان يأمل باستخدامه لبسط سيطرته على المكسيك.) محاولاً إقناعه بالتلميح والوعد والوعيد والافتراءات، ومستخدماً فى ذلك رطانة غامضة تشكل نوعًا من الأسلوب الاستعمارى فى التعبير، من تلك اللغة المبهمة التى اكتملت عبر ادعاءات ظالمة لا نهاية لها، والمؤلفة من سيل كلمات خاوية من المعنى – أو أن حقيقتها معاكسة لمغزاها الظاهر – والتى تسمى اليوم ""الكانتينفلاسية""(*) تيمناً باسم ممثل كوميدى مكسيكى: "... وهم يتوسلون إلى جلالتكم ألا تهبوا أو تمنحوا عطفكم فى هذه الأنحاء لدييغو فيلاثكيث... كمتقدم أو كحاكم دائم، أو بأى شكل آخر، أو فى مسؤوليات القضاء ، وإذا كان يتولى أحدها فمروا بخلعه، لأنه من غير اللائق لخدمة تاجكم الملكى أن يكون المذكور دييغو فيلاثكيث ولا أحد سواه مالكاً للسيادة أو لأى فضل دائم آخر منكم، أو لأى شىء آخر، إلا إذا كانت هذه هى مشيئة جلالتكم فى أرض مقامكم الملكى هذه، لأنها كما تحققنا حتى الآن وكما يُنتظر، أرض غنية جداً، كما أنه لا يليق بخدمة جلالتكم أن يتقلد دييغو

(*) الكانتينفلاسية : نسبة إلى كانتنفلاس ، وهى الشخصية الشعبية التى اشتهر بها الممثل الكوميدى المكسيكى ماريو مورينو .

فيلاثكيث المذكور أى منصب، فإذا ما حدث ذلك فإننا نحن أتباع سموكم الملكى الذين بدأنا سكنى هذه الأرض والعيش فيها ننتظر أن نلقى معاملة شديدة السوء على يده، ونحن نظن أن ما تحقق الآن فى خدمة جلالتكم، من إرسال هذه الكمية من الذهب والفضة والجواهر التى نبعثها إليكم، والتى استطعنا العثور عليها فى هذه الأراضى، لم تكن مشيئته أن نفعل ذلك..."(٢١).

ليس لهذه الكلمات أى وزن، لكن كورتيس يضع فى اعتباره دون شك، أن الذهب سيعبّر عن الغرض من رسالته، ويبدو أن كارلوس الخامس رفض الفهم فى أول الأمر، ذلك أن الأرمادا(*) التى بعث بها دييغو بيلاثكيث ضد المغتصب كانت تحت رعاية سلطة إمبراطورية. وقد رأينا أن كورتيس، رغم إعلانه الولاء، لا يتورع عن مهاجمة مواطنيه. ومن ظل منهم حيًا، انضم إلى جماعته وخرج القائد نارفايث من المعمعة وقد فقد إحدى عينيه وانتهى إلى السجن.

ومهما بدت هذه الصراعات الداخلية مختلفة فى تفاصيلها إلا أنها كانت ملازمة لتاريخ الفتح، مثلها مثل أسلوب الغارات المباغتة قبل الفجر، وأسلوب استغلال الخصومات المحلية، إضافة إلى أساليب أخرى إذا ما نُظر إليها معزولة بدت وكأنها خاصة بشخصية كورتيس، إن مذبحة تشولولا Cholula لا تختلف عن غارات "التأديب وتقديم الأمثولة" فى جزر الأنتيل وبنما إلا بعدد ضحاياها ونوعية ثقافتهم. وكثيراً ما يروى فيرنانديث دى أوفييدو عن انقضاض الأوربيين على حشود مبتهجة اجتمعت حول مأدبة أقيمت على شرفهم، ويصل الأمر إلى ذبح جماعة كاملة فى احتفال ، وقد كانت هذه العادة شائعة، حتى أن مذبحة معبد تينوتشتيتلان وقعت أثناء غياب كورتيس وبمبادرة من أحد قواده.

أما عن الخداع، وعن تأجيج نار النزاعات المحلية، فعلينا الاعتراف بأنه إذا أمكن لجميع الفاتحين أن يكونوا أساتذة فيهما، إلا أن أكثرهم براعة كان فاسكو نونييث دى بالبوا، الوحيد الذى عرف لزمن طويل كيف يحصل على الأسرار، وعلى الصداقات وعلى مخابئ الكنوز، عن طريق مزيج من اللمسات الدبلوماسية والسم الذى كان يوزعه بدراية وبجرعات محسوبة على الزعماء المحليين المتنازعين.

(*) الأرمادا : الأسطول الإسبانى.

إن الاختلاف الجوهرى بين فتح المكسيك - ثم البيرو فيما بعد - وفتح البلدان الأخرى إنما يرتكز أساساً على التنظيم السياسى وتمركز السلطة اللذين اتصف بهما هذان البلدان عاليا التطور، فما أن تتم السيطرة على المركز حتى يتداعى البناء كله بسرعة أكبر من تداعى تلك المجتمعات المجزأة إلى جماعات صغيرة، وما إصرار كورتيس على الوصول إلى عاصمة الأزتيك، وكذلك محاولات موكتيزوما لمنعه، إلا دليلاً على أن الاثنين كانا يعرفان أين هى العقدة الحيوية.

ومع ذلك، فقد قُبل الإسبان فيها بكرم جعلهم قادرين خلال وقت قصير على أسر ملك الازتيك فى قصره بالذات.

لقد اندلعت الثورة ضد تعسفهم نتيجة لقتل مئات الأعيان أثناء احتفال دينى، كان المحتلون قد صرحوا سلفًا بإقامته، وأمكن طرد هؤلاء المحتلين بعد أكثر من شهر من القتال، ولدى خروجهم من المدينة غرق كثير من الجند تحت ثقل الذهب الذى لم يقبلوا التخلى عنه. كان الانسحاب طويلاً وشاقًا، ولم يتوقف الجوع ولا الغارات الفدائية عن مطاردتهم حتى وصولهم إلى أرض حلفائهم التلاكسكالتيكين، وبلغت الخسائر فى الجانب الإسبانى وحده ٨٦٠ رجلاً.

وليقينه من أنه لن يتمكن من السيطرة على البلاد ما لم يستول على العاصمة، فكر كورتيس فى الحال بشن هجوم جديد، وقرر بناء بعض السفن. وقد استغرق بناء ثلاث عشرة سفينة من أجل حصار تينوتشيتيتلان، عشرة شهور؛ واستدعى جهود جميع الإسبان وأعداداً لا حصر لها من الوطنيين، إضافة إلى استخراج الحدائد والمسامير من السفن التى كانوا قد أغرقوها طوعًا فى وقت سابق، كما زودتهم تلك السفن بالقدور اللازمة للتزفيت.

كانت الاستعدادات دقيقة إلى أقصى الحدود: خزنت مؤونة كبيرة من النبال والملابس والأغذية، وحددت العمليات العسكرية حتى فى أدق تفاصيلها، ومع الأخذ بالحسبان تحالف مدن أخرى معادية للازتيك، خرج الأسطول من تيكسكوكو Texcoco بعد بضعة أيام من خروج الجيش البرى، فى ١٣ أيار (مايو) ١٥٢١ .

كانت العاصمة مكسيكو-تينوتشتيتلان متألقة وجميلة بصورة باهرة مثلما بدت لعيون الغرباء أول مرة، وكانت تنتظر المعتدين متأهبة للحرب. فقد نظم الملك الشاب كواوهتيموك Cuauhtemoc المقاومة منذ شهور، مخففًا من وطأة حكمه على حلفائه من القبائل المعادية، وصانعًا كميات كبيرة من الأسلحة – بينها رماح من النوع الأوربى لاستخدامها ضد الخيول –، ومالئًا المدينة بالمحاربين، محولاً شوارعها إلى ميدان معركة وبيوتها إلى استحكامات، وقد وجد الإسبان أنفسهم عدة مرات على شفير الكارثة رغم تفوقهم الصارخ فى المعدات، ومساندة عشرات ألوف المقاتلين المحليين من القبائل المعادية للأزتيك، ولم يحرزوا النصر إلا بفضل تعزيزات البارود والمدفعية التى وصلتهم من إسبانيا أثناء حصار المدينة.

إن الفصول الخمسة التى يكرسها ، دياث دل كاستيو لهذه المأساة الفسيحة، فى الوقت الذى يرسم فيه لنا لوحة هائلة لحركة الجيوش، والابتكارات الاستراتيجية، والخدع والشراك، ينقل إلينا التوتر الذى كان يخيم على المعسكرين بحرارة نابضة : "... بقينا حول هذه المدينة القوية الكبيرة ثلاثة وتسعين يوما ، ونحن نحارب ونقاتل فى كل نهار وفى كل ليل...".

لقد حرر كتابه بعد حوالى أربعين سنة من وقوع الأحداث، ولكن لا شك فى أن الكآبة كانت تسيطر عليه مجدداً عند استذكارها؛ فهو يتذكر بدقة كبيرة بعض الروائح، والأمطار اليومية، والنيران الليلية، ونداءات المحاربين وصرخاتهم، وكذلك الصمت العظيم المطبق، والموسيقى فى أبهاء المعابد، حيث: "... كانوا يقرعون طبلاً له صوت من أكثر الأصوات أسى، وهو أخيراً مثل آلة من آلات الأبالسة الموسيقية، يدوى بقوة تُسمع [عن بعد] فرسخين...".

ويعترف بوضوح كذلك بالخوف الذى كان يعتريه عند بدء العمليات: "... أصبحت منذ ذلك الحين فى خوف دائم من الموت لم أشعر بمثله قط من قبل، وأقول هذا لأن قشعريرة وكآبة كانتا تعتريان قلبى قبل الدخول فى المعارك، وكنت أبول مرة ومرتين، وأسلم نفسى للرب ولأمه المباركة وأدخل المعركة، عندئذ ينزاح عنى ذلك الرعب..."(٢٢).

كان المكسيكيون جيدى التنظيم، حتى أن اللقاء الأول كان فشلاً ذريعًا للغزاة الذين خسروا ثمانية قتلى وحوالى مئة جريح، ولم تكن الخيول والمدافع تناور إلا بصعوبة وسط حشود دائمة التجدد، تنغلق خطوطها فوراً ودون توقف لتسد الثغرات، تحت وابل من سهام وحجارة تُقذف من البيوت والمراكب المزودة بمتاريس. حماس لا يُصدق، وشجاعة مشهودة وذكاء متيقظ دومًا للرد على المستجدات التكتيكية، كل ذلك أتاح للمحاصَرين الاستيلاء على سفينة، وأسر ستين رجلاً من رفاق كورتيس دفعة واحدة ومواصلة الحصول حتى النهاية على حد أدنى من المؤن ومياه الشرب من خارج المدينة المحاصرة.

وبما أن البحيرة كانت تشكل تحصينًا دفاعيًا متينًا للمدينة، فقد كانت استراتيجية الإسبان منذ البدء ترمى إلى ردمها بأنقاض المبانى التى كانوا يقوضونها لهذا الغرض. ويشكو بيرنال دياث من صعوبة هذا العمل: كان من الصعب إحراق البيوت المحاطة بالمياه من بعيد، وكان يصعب اقتحامها، فكان لا بد لهدمها من الاقتراب إلى حد الخطر من المدافعين عنها، وقد استخدمت الأبنية المدمرة لزمن طويل كبؤر لمقاومة شرسة، وكان المكسيكيون يسعون خلال الليل لإعادة فتح قنوات الماء التى ردمتها الأنقاض خلال النهار، وكانت تلك الأنقاض عالية الفعالية، لدرجة أن مقاومة الأهالى لم تتوقف إلا بعد أن ابتلعت البحيرة مبانى العاصمة المهدمة. وكان ذلك فى يوم ١٣ آب (أغسطس) ١٥٢١ .

لدى الدخول إلى ما كان يشكل آخر معاقل الدفاع، وجد الإسبان أمامهم أكواماً من الجثث، وكائنات بأسمال بالية يضنيها الوباء والجوع.

فى اليوم الذى ستتلاشى فيه الأيديولوجية الاستعمارية نهائيًا، سيعاد الاعتبار إلى تلك المقاومة وستُعتبر واحدة من أنبل المآثر التى عرفتها الإنسانية. واستناداً إلى بيرنال دياث، فقد أعلن العاهل كواوهتيموك أمام كورتيس : "... لقد فعلتُ ما يتوجب على عمله دفاعًا عن مدينتى ورعيتى، ولم أعد قادراً على المزيد، فجئت مجبراً وأسيراً أمام شخصك وسلطتك، فخذ هذا الخنجر الذى تعلقه فى حزامك واقتلنى به"[٢٣]. وهو محق كل الحق بالإيمان بصدق هذه الكلمات، لأن كواوهتيموك مات مقتولاً على يد كورتيس بتهمة التآمر. وتجدر الملاحظة أنه فى واحدة من هذه المفارقات السعيدة، التى يُظهر التاريخ بخلاً بها، تُكرّم المكسيك اليوم ذكرى بطلها الوطنى العظيم فى شخص ذلك الملك الشاب المنكوب الذى عُذّب وعلّق آخر الأمر على شجرة فى غابة مدارية نائية.

٩ - غواتيمالا، هندوراس، نيكاراجوا :

يتميز غزو الأراضى الممتدة ما بين المكسيك وبنما بعدد الفاتحين الضخم الذين تنازعوا السيطرة عليها، فقد أوصل إخضاع طرفى أميركا الوسطى إلى الكسل كثيراً من الجنود والقادة الذين ما كانوا يحلمون إلا بحملة تقودهم أخيراً إلى الثراء، وقد تنازعت عدة جماعات هذه الفريسة طوال سنوات، وكان كورتيس يمول بعضها وبيدرارياس دافيلا يمول بعضها الآخر.

كان رجل يدعى خيل غونثالث Gil Gonzalez قد اكتشف لدى طوافه بشواطئ المحيط الهادى، ما أسماه "البحر العذب" فى نيكاراغوا. لكن أعداد المدن والبشر الذين كانوا يقطنون تلك السواحل فى ذلك الحين، اضطرت غونثالث إلى طلب تعزيزات، ثم العودة سنة ١٥٢٤ مسلحاً مثلما يجب، وعبر بحر الانتيل هذه المرة. وفى أثناء بحثه عن بحيرة المياه العذبة التى طالما أدهشته، اصطدم بهندوراس، حيث باشر للتو عمليات عسكرية ناجحة، وربما كانت الرابطة الثقافية التى تجمع المكسيك وبلدان أميركا الوسطى حتى نيكاراجوا، هى التى جعلت كورتيس يعتبر هذه المناطق إقطاعيته الخاصة، وتحت هذا الشعار بالذات كان رجاله يغزون يوكاتان وغواتيمالا ، ولتقديره على هذا الأساس أن دخول خيل غونثالث إلى هندوراس هو عمل غير شرعى ، فقد أرسل حملة للدفاع عن مصالحه، على رأسها كريستوبال دى أوليد De Olid ، أحد أفضل رفاقه المقربين.

فى هذه الأثناء كان خيل غونثالث يشن حملة نشطة ضد عدة طوابير بعث بها حاكم بنما ليحبط مخططاته فى الاستقلال الذاتى، وحين انتصر عليهم، وقع أسيراً بيد كريستوبال دى أوليد الذى كان ملاحقًا بدوره من قبل أسطول أرسله كورتيس ضده بعد أن عرف بأنه يريد العمل لحسابه الشخصى أيضاً. ولكن قائد الأسطول ما لبث أن وقع أسيراً فى يد المتمرد دى أوليد، وقد ابتهج كريستوبال دى أوليد بصحبة أسيريه النبيلين المشهورين، فجعل منهما نديميه اليوميين، وأدى ذلك أثناء مأدبة مرحة إلى قيام غونثالث وفرانثيسكو دى لاس كاساس بذبح مضيفهما، وهكذا: "... تقاسما الحكم فيما بينهما بصورة وديّة". لكن ذلك لم يستمر إلا لوقت قصير، فـ "بما أن معظم هؤلاء كانوا

من مدرسة كورتيس، وكان فرانثيسكو دى لاس كاساس متزوجًا من شقيقة كورتيس أيضًا، فقد وافق على اعتقال خيل غونثالث، ونفذ ذلك فعلاً، وبعث به مكبلاً بالأصفاد إلى إسبانيا الجديدة"[٢٤]. وهى مأثرة لم يُكافأ عليها، لأن كورتيس لم يكن موجودًا فى المكسيك عند وصولهما إليها.

لقد كان كورتيس قد ذهب فعلاً إلى هندوراس، لقناعته بأن صهره قد غدر به كذلك، ملقيًا بنفسه فى خضم مغامرة لا يمكن لخاتمتها إلا أن تكون مشؤومة، وما زال مسارها لغزًا. وقد دام غيابه عن تينوتشتيتلان سنتين وثلاثة شهور، مرّ خلالها بظروف رهيبة - حروب متواصلة، مستنقعات مدارية كان عليه اجتيازها، مجاعات فظيعة، وخلافات داخلية - أدت إلى سقوط أعداد كبيرة من الضحايا. وفشل فى استيطان تلك الأراضى التى عاثت فيها جماعات الناهبين خرابًا، بينما أضاع إلى الأبد حكومة إسبانيا الجديدة من يديه. ولدى قراءة الفصول التى كتبها بيرنال دياث، الذى رافقه، واستحضر بتلوين عظيم مراحل مسيرة كانت تؤدى بانتظام من آلام جديدة إلى نكبات جديدة، يحاول المرء عبثًا أن يفهم الأسباب التى دفعت سيد مملكة ثرية إلى هجر العاصمة وتركها فى يد الرعاع، ثم القبول فيما بعد بخلعه من منصبه. إن الحماس الذى جدد به فى هندوراس عقوباته للوطنيين - والذى لا يمكن له أن يوصله إلى أى شىء، ولم يكن أكثر من صورة طبق الأصل لحماسه فى أزمنة أخرى - يدفع إلى التفكير فى أن كورتيس لم يكن إلا مجرد جندى مولع بالحرب للحرب وبقدرته التدميرية، ويمكننا العثور على برهان لهذه الفرضية فى مشاركته، المتأخرة جدًا، فى الحملة الوخيمة على مدينة الجزائر، رغم سعة ثرائه، وعظمة عائلته، وبلوغه الثانية والستين من العمر، وحصوله على لقب مركيز الذى أتاح له اقتحام المجتمع القشتالى الراقى. وقد مات إثر عودته من تلك الحملة، بعد أن نجا بأعجوبة من عاصفة دمرت الأسطول الملكى وأغرقت السفينة التى كان فيها مع ابنيه.

ولكن لنرجع إلى الأزمنة البطولية، فقبل عودته إلى المكسيك - مرغمًا بضغوط رجاله، وليس دون مماطلات كثيرة - استمال كورتيس عددًا من زعماء العصابات القادمة من بنما بالهدايا والوعود، وبعد انصرافه، وُجهت تهمة الخيانة إلى هؤلاء، وذُبحوا على يد بيدرارياس دافيلا الذى نصّب نفسه حاكمًا على نيكاراجوا. وعلى الرغم

من استتباب الأنظمة الشرعية، فقد عانت هذه المنطقة لزمن طويل من الصراع بين مختلف الفئات، وتاريخ النزاعات الناشبة حول اقتسام السلطة والسكان الأصليين هو تاريخ شديد التعقيد، إلى درجة يصبح من المستحيل معها فهم التحالفات أو الخصومات أو مصرع أبطالها، دون رسم لوحة تأريخية مسبقة، فالتمردات لا تنتهى أبداً، وقراءة أخبارها تبدو مضجرة إذا ما تجاهلنا أنه ما بين هذا الاستيلاء على السلطة وذاك الثأر، وما بين هذا التمرد وذاك العقاب، وهذه المؤامرة واكتشافها، تجرى المقامرة بمصير آلاف الرجال والنساء ولأطفال الوطنيين الذين كانوا ينتقلون، مع الأرض، من سيد إلى آخر يليه، أو كانوا يُحرقون أو يداسون مع بقية ممتلكات المهزوم... حشود من الكائنات البشرية كان يعتمد وجودها غير المضمون فى الحياة على الصدفة المحضة.

ومما هو جدير بالذكر أنه فى خضم العنف المنفلت من عقاله، والذى ضرج المعسكر الإسبانى بالدم وأفنى الوطنيين، كان ثمة رجل لم يستطع الغزاة إخضاعه أبداً، إنه الملك اوراكا Urraca الذى صد خلال تسع سنوات اعتداءات المدافع والخيول المتواصلة، مستخدماً أفضل استراتيجية فى حرب العصابات، وحين انهارت كل القرى المحيطة، بعد أن أنهكتها حرب الابادة، وخضعت لأحط أشكال العبودية، استطاع هذا المقاوم النبيل الاحتفاظ بحريته حتى نهاية حياته، إذ "... لم يتمكنوا من إخضاعه، لأن خضوعه فى الحقيقة -حسب رأيه – ليس إلا معاناة الأسر والذل والجور الذى سينتهى إليه قومه... وكرجل حكيم وباسل، كان يشعر بالرضا عن الحرب العادلة التى يشنها ضد من ألحقوا ويلحقون به الضر والأذى بكل هذا البغي، وبدون سبب أو ذنب أو قضية، بعد أن كان آمناً فى أرضه، ولم يكن ليرضى بالرضوخ"[٢٥].

وفى خطاب ألقاه بعد أحداث مؤلمة قال: "لن يكون هذا الحدث مبرراً لتمكين هؤلاء المسيحيين من الراحة، لأنهم بعد أن يسلبونا أرضنا وسيادتنا ونساءنا وأبناءنا وذهبنا وكل ما نملك، ويحولوننا إلى عبيد، لا يحفظون عهداً يقطعونه، ولا كلمة، ولا سلاماً؛ ولهذا سنقاتلهم وسنعمل، إن استطعنا، على قتلهم لنزيح عن كاهلنا هذا الحمل الثقيل ما دامت لدينا القوة ، فخير لنا أن نموت فى الحرب مقاتلين، من أن نعيش حياة ملؤها الشقاء والضنك والمرارة والقلق"[٢٦].

ويستحضر لاس كاساس بتوقير صورته البهية كمتمرد يائس: "الملك اوراكا وحده، ومن معه من الناس المتبقين بعد موت كثيرين منهم، لم يقبل المجيء أبداً، وإنما احتفظ دائمًا بحقده الراسخ على الإسبان، وكان دائم البكاء لأنه لم يستطع القضاء عليهم. وقد تركوه رغم كل شيء في أرضه دون أن يسعوا إلى البحث عنه لعلمهم بأنهم لم يشنوا عليه الحرب يومًا إلا وخرج قسم كبير منهم قتلى ومهزومين، وهكذا مات في بيته ومعه جماعته..."(٢٦).

١٠ - مملكة قشتالة الجديدة (البيرو) :

مذ شاعت أول الأخبار عن وجودها عام ١٥١٣ ، شكلت البيرو محط اهتمام جميع المغامرين، فهي الأرض الموعودة التي حلموا جميعهم بغزوها، ومحركة الحملات التي أخضعت أميركا الجنوبية كلها خلال ثلاثين سنة.

فبعد أن قطع رأس نونييث دي بالبوا، واصل حاكم كاستيا دل أورو (بنما) مشروع خصمه، دون أن يصيب نجاحاً في البدء: فالقائد الذي بعث به لاستكشاف المحيط الهادي اكتفى بنهب الشواطئ دون أن يجرؤ على المجازفة بالتوغل إلى المناطق الداخلية.

وبعد بضع سنوات من ذلك واصل المحاولة شخص مثير للفضول، يكشف تاريخ هذه المرحلة الثانية من الاستيطان عن فشله الذريع. فقد خلّف لنا المؤرخ الطيب باسكوال دي انداغويا Andagoya رواية محنته الأولى: بعد وصوله إلى "نهر البيرو الكبير" حيث أوشك على الموت غرقًا، رجع مهزوماً إلى بنما.

وفي عام ١٥٢٢، قرر مستوطنان متواضعان أن يضما ما معهما من أموال ليمولا حملة جديدة ويقتسما مكاسبها في حصص متساوية مع حاكم كاستيا دل أورو، مقابل إضفائه الشرعية على عمليات السلب ومنحهما رتبة قائد التي لا بد منها للفاتح. وهكذا انطلق فرانثيسكو بيثارو Pizarro ودييغو دي ألماغرو Almagro ، الجنديان المغموران اللذان لا يتقنان القراءة ولا الكتابة، نحو مملكة الذهب النائية التي سيدمرانها. وقد ساعدهما في هذه المهمة أبطال "نشر السلام" في المكسيك العاطلين عن العمل.

وبالدم والنار (جرى إحراق الزعماء الوطنيين وهم أحياء بصورة منهجية، وتم اقتسام الأهالى بعد تعذيبهم ووسمهم بالحديد المحمى) وصلا إلى المنطقة التى تشكل اليوم جنوب الإكوادور. ولم تحل انتصاراتهما الباهرة دون قنوطهما: فقد كانا بحاجة إلى مساندة مادية ومعنوية. ورغم فقدانه إحدى عينيه وعدة أصابع من يده اليسرى، فإن ألماغرو هو الذى حثَّ بيثارو على عدم التخلى عن المشروع، وقد ذهب هذا الأخير مرتين إلى بنما طالبًا الخيول والأسلحة وحصل عليها. وعرف كذلك كيف يحتال على الحاكم بيدرارياس دافيلا، فتمكن من إقصائه عن الصفقة، واسترضائه بألف بيزو دفعها له كتعويض. ثم توجه بيثارو بعد ذلك إلى إسبانيا، حيث حصل على لقب حاكم، وعلى مسوح سنتياغو التى منحه إياها إمبراطور المسيحية، ورجع محتميًا بأخوته الثلاثة الذين سيكونون الأبطال المظلمين للمأساة القاتمة التى شكلها غزو هذه المناطق، وفكر ألماغرو باجتناب نتائج هذه الصحبة المريبة بالإبحار نحو جنوب القارة، حيث كان واثقًا من أنه سيجد ثروات أخرى، تاركًا بهذا للاخوة بيثارو مجد الوصول إلى قلب المملكة المتنفذة، وبدأ فى سنة ١٥٣٢ تسلقه الشاق لجبال الانديز متبعًا "طريق الإنكا"، بعد أن أسس مدينة سان ميغيل، المدينة الإسبانية الأولى فى أرض الأنديز.

ولانعدام المدونات التاريخية انعدامًا شبه تام، وجد فيرناندث أوفييدو نفسه مضطراً فيما بعد إلى ترميم خيط الأحداث مستعينًا بكتابات موجزة وبأعداد كبيرة من شهادات شهود العيان. وبهذه المادة الفريدة، المتعلقة بخطوب لم يعشها، يبدأ أوفييدو دوره كمؤرخ رسمى، مثبتًا رواية متوافقة مع الأيديولوجية الصليبية المقدسة أكثر من توافقها مع الفاتحين أنفسهم. ويفقد بهذا مزاجه الطيب واللوذعية التى يتحلى بها عندما يصف بحرارة أحداثا شارك فيها، فيعمد إلى تركيب مجموعة وقائع يثير عدم انسجامها الإحساس اللاواقعى نفسه الذى تثيره رسائل كورتيس، ومثل هذا القائد الشهير، يصف أوفييدو مآثر الغزاة على خلفية جاهزة مسبقًا، كل عنصر فيها مضاد بالبداهة، وباستخدامه هذه اللغة المخصية، المصاغة للتستر على الجرائم، يخلق أوفييدو مناخاً كابوسيًا، كذاك المناخ الذى يميز روايات كورتيس، إلى حد إيقاظ حاسة النقد للرصانة التى يحاول المؤرخ أن يُسكت بها صخب المجزرة التى قوضت ثقافةً مازال ازدهارها يفرض نفسه من خلال الحطام الذاوى المتبقى منها.

ويتضح حينئذ أن المؤرخ يعدّ، هو نفسه، الحجج التى تشى بغموض مسعاه: فالمسيحيون الطيبون الكرماء يعرضون حياتهم للخطر من أجل خير البرابرة الروحى، الذين تصل بهم الهمجية أحيانًا إلى العصيان، مما يضطر المبشرين الرحماء إلى اللجوء إلى القوة. وعلى ضوء ما اطلعنا عليه من الاستنكارات التى أثارتها شراسة الاخوة بيثارو الثلاثة خلال عشرين سنة، فى وسط لا يمتاز برقة المشاعر، فإن نبرته فى الحديث عنهم تثير السخط، فهو يورد مثلاً أسباب شن الحرب التى عرضها فرانثيسكو بيثارو على قواته قبل بدء الزحف العظيم: "... احملوهم إلى معرفة إيماننا الكاثوليكى المقدس وأدعوهم إليه بالسلم، وليطيعوا كنيسة روما الرسولية، ويقدموا ولاءهم، دنيوياً، لجلالته...".

وكذلك حين يعرب عن يقينه بجدارته بالمساندة الإلهية: "... حتى لو كنا أقل عدداً، وكان الجيش المعادى أكثر منا، فإن مساندة الرب أكبر بكثير، وهو عند الشدائد الكبرى ينجد معشره ويكرمهم، ويشتت شمل الكفرة ويهزمهم ويقودهم إلى معرفة إيماننا الكاثوليكى المقدس، ومثل هذه المعجزة وأكبر منها حققها ربنا فى مناسبات كثيرة. فثقوا إذن [أيها الجنود] أن الرب سيفعل الشىء نفسه بهم، لأن مشيئته وإرادته شاءت جذب أولئك الكفرة البرابرة للالتحام بالجمهورية المسيحية، دون إلحاق الأذى أو الضر بهم، إلا من أراد منهم المخالفة وحمل السلاح"(٢٧).

ولابد أن العون الإلهى كان فعالاً جداً، فكان الزحف مظفراً: لقد أُخضعت جماعات الأهالى للسلب والنهب – إذ لا بد للجنود من أن يأكلوا –، وجرى تفريق شمل العائلات وإبعاد الأحبة بعضهم عن بعض – فقد قام هؤلاء الرسل خصوصًا بانتقاء النساء اللواتى أُجبرن على اتباعهم –، كل ذلك باسم دعوة لم يستطع الوطنيون، لضيق الوقت وانعدام المترجمين أن يدركوها إلا من خلال الأفعال، والبقعة القاتمة الوحيدة التى يرسمها أوفييدو فى اللوحة هى عدوانية العاهل الوطنى التى لا تفسير لها، والتى أفصح عنها أحد الزعماء تحت التعذيب. وكرد على ذلك، أوفد إليه بيثارو مبعوثا ليبلغه بأن "... الحاكم والمسيحيين لا يسيئون إلى الزعماء ولا إلى هنودهم، إذا كان هؤلاء لا يريدون الحرب معهم، لأنه يعامل بالحسنى كل من يودون أن يكونوا أصدقاء له وكل الأخيار، وأما الذين يريدون الحرب فسيدمرهم..."(٢٨).

يبدو أن الخلاف بين الكلام والواقع هو أمر ملازم لعملية الاستيطان، حتى أن فيرناندث دى أوفييدو المعروف بشدة التدقيق والتمحيص، لا يعير اهتماماً لعدم تماسك كتاباته، ولكى يخفى جور المرتزقة البالغ، فإنه يلح على "خيانات" الوطنيين – مطلقاً هذه التسمية المثيرة للفضول على كل إجراء شرعى للدفاع عن النفس – دون أن يتجشم عناء التدليل على صحة أقواله. ومن المؤكد أن تلك المؤامرات الخيانية كانت دومًا اختلاقات تنشأ أثناء التعذيب أو بسبب الخوف الطبيعى الذى يشعر به الدخلاء وهم وسط الجموع التى يهاجمونها كالضوارى. وبعد وصفه لخبث هذه الخديعة أو تلك، يتابع أوفييدو روايته مباشرة، متجاهلاً العودة إلى الحديث عنها أو مناقضًا أقواله الأولى: فهو يبدى ذهوله مثلاً، من أن الوطنيين تركوا ممراً مفتوحاً أمام الفاتحين، بينما يبرر فى الوقت نفسه نهب مدينة من أجل الدفاع المزعوم عن ذلك الموقع الاستراتيجى: "لقد سمعت دومًا من يقول إن احتقار بعض الأشياء هو قلة عقل، وهذا ما حدث فيما بعد لأتاباليبا(*) ATABALIBA ، لأنه ما كان عليه أن يثق بالوقت، ولا أن يسمح للإسبان باجتياز سلسلة الجبال، حيث كان بإمكانه أن يحول بسهولة دون صعودهم، فلا يستطيعون متابعة التقدم دون أن يُهزموا، مستفيدا من الظروف الطبيعية للممرات الكثيرة الصعبة والوعرة فى ذلك الطريق"(٢٩).

ويروى عن هذه الحادثة بالغموض نفسه فيرناندو، أكثر الاخوة بيثارو دموية، ويقتصر أوفييدو على تدوين روايته: "وبما أن رسول أتاباليبا لم يرجع، فقد سعى للحصول على معلومات من الهنود الذين قدموا من كاخامالكا(**)، فعُذبوا وقالوا إنهم سمعوا أن أتاباليبا ينتظر الحاكم فى سلسلة الجبال ليحاربه. وقد كان الطريق وعراً بحيث لو أنهم كانوا ينتظروننا هناك حقاً، أو فى أى ممر آخر يؤدى إلى كاخامالكا، لكانوا أجهزوا علينا بمنتهى السهولة، لأننا لم نستطع حتى فى أحسن الأحوال قيادة الخيول فى تلك الدروب، كما أننا لم نستطع دفع الخيول أو الراجلين خارج الدرب"(٣٠).

(*) اتاباليبا : تحريف شاع فى كتابات المؤرخين الإسبان القدماء لاسم ملك الإنكا ابان الغزو الإسبانى اتاهواليا.

(**) كاخامالكا : تحريف آخر لاسم مدينة الإنكا "كاخاماركا".

ونفاجأ أشد المفاجأة، مثل الفاتحين أنفسهم (ألم نر كيف يلوم أوفييدو تهاون اتاهواليا؟) من وفاء الوطنيين الفريد، فطوال تاريخ الفتح المؤلم لا تُسجل حالة واحدة لموت إسبان بعد استضافتهم، رغم أن القضاء عليهم كان سينقذ آلاف الأرواح. وهناك بالمقابل حالات كثيرة وجد الأوربيون فيها أنفسهم، أفرادا أو مجموعات، يتعرضون لخطر الموت، فاستُقبلوا بمحبة وسط جماعة من الأهالي.

إن كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن الوطنيين ما كانوا يقبلون بشن أى هجوم دون إعلان مسبق للحرب، كما أن طريقتهم فى تبديد جميع الفرص السانحة لتدمير المعتدين عليهم تضطرنا إلى التفكير فى أن الغدر كان سلاحًا أشد فتكًا فيهم من البندقية أو من المدفع. وليس هناك من سبيل إلى إنكار أن الوطنيين لم يروا فى الإسبان أعداء لهم فى أول الأمر: كان لا بد لسلوك الغزاة، وحنثهم المنهجى بعهودهم الذى فاق اعتداءاتهم، من أن يُفصح لهم بوضوح عن حقيقتهم. ومما له دلالة فى هذا المقام أن خطيئة الحنث بالكلمة، حتى فى وطيس المعركة، كانت تثير أشد السخط فى صفوف المكسيكيين ، فعندما طلب كورتيس من موكتيزوما مثلاً، أن يُهدئ الجموع الثائرة، بعد مذبحة الأعيان الأزتيك، رفض الإمبراطور التدخل قائلاً: "... ما عدت أريد رؤيته ولا سماع كلماته المعسولة ووعوده وأكاذيبه"(٣١). وعلى مقترحاته للسلام التى تلت ذلك، جاءه الرد: "... لقد اختاروا لهم ملكا صالحا، ولن يكون ضعيف القلب فتخدعه بكلمات زائفة مثلما فعلت بملكهم الطيب موكتيزوما..."(٣٢)، وقد استُخدمت هذه الحجج نفسها أيضاً خلال حصار تينوتشتيتلان لتحذير الملك الشاب كواوهتيموك من زحف كورتيس : "... لاتثق بمالينتشيه(*) ولا بكلماتها المتملقة، فهى كلها أكاذيب وآثام..."(٣٣).

ولا شيء يوضح غياب أى وازع من ضمير خيراً من إعادة بناء المراحل التى أدت إلى أسر ملك البيرو ، فمن خلال تعاقب أحداث مشابهة لتلك التى أشرنا إليها، وصل الإسبان إلى كاخاماركا، حيث يقيم العاهل، دون أن يواجهوا أية مقاومة، ولكنهم كانوا يتهامسون دون توقف عن نوايا الوطنيين الإجرامية المزعومة ، واستقروا بأمان فى

(*) مالينتشيه Malinche : امرأة أزتيكية مكسيكية تدعى كذلك مارينا، كانت عشيقة كورتيس ومترجمته.

البيت الفسيح الذى خصص لهم، ولكنهم ما لبثوا أن ثاروا فى الحال لأن أتاهوالبا سيتأخر فى استقبالهم، وفى اليوم التالى لوصولهم فقط، زارهم الإنكا، وكان لا بد من هذا الوقت بالتأكيد لتنظيم الموكب المؤلف من عدة آلاف من الشخصيات التى سترافقه للقاء سفارة بهذه المكانة.

وكان أول من دخل الساحة "كتيبة" فرشت الأرض بأنسجة فاخرة، وتلتها ثلاث "كتائب" تقدمت وهى تغنى وترقص، ثم حشد من ذوى المراتب بينهم أتاهوالبا "... فى محفة مبطنة من الداخل والخارج بريش ببغاوات متعدد الألوان، وكانت زينتها الريشية بديعة، حتى أنها بدت، بين أناسها، كقلعة من ذهب شديدة الإبهار، ووراء هذه المحفة أناس كثيرون، جميعهم يتقدمون منتظمين وحسب كتائبهم، وعلى رؤوسهم تيجان الذهب والفضة"[٣٤].

لم يتحرك بيثارو من مكانه. بل أرسل راهبًا يحمل صليبًا وكتابًا مقدسًا إلى الإمبراطور. ونظراً لعصبية الإسبان وعدم امتلاكهم إلا لترجمان واحد سيئ، فقد كانت المفاوضات قصيرة، وحسب أقوال أوفييدو، فقد رفض الملك الاستماع إلى الإنجيل المقدس ورفض الكتاب الذى سلّم إليه ، فثارت حفيظة بيثارو لهذا التطاول على المقدسات، وأعطى إشارة البدء بالهجوم.

وفى لحظة واحدة تحولت تلك الحشود المتأنقة والوقورة إلى قطيع شارد، محصور وسط مصيدة رهيبة من الخيول والمدافع، وكانت مداخل الساحة قليلة لا تتيح الهرب، فانهار الجدار الذى يحيط بها أمام التدافع الهلع حين حاول أولئك التعساء النجاة. كثيرون منهم بقوا تحت الأنقاض، وتعثر آخرون فوقهم وديسوا واخترقتهم الرماح، السادة المتسربلون بالذهب قُتلوا كذلك، وبعد أن رأى أتاهوالبا مصرع جميع أقرانه الذين كانوا يذودون عنه بأجسادهم حتى الموت، انتُزع من المحفة وعُرى على يد أولئك الذين فى تلهفهم للاستيلاء على طريدة فريدة مثله، نزعوا عنه ملابسه الملكية ، ويؤكد أفييدو أن كل ذلك قد جرى فى نصف ساعة، حين يقول: "... كانت الشمس قد غابت عند البدء، ولولا أن الليل بظلامه لم يقف حائلاً، لمات القسم الأكبر ممن جاؤوا وكان عددهم يفوق الثلاثين ألفًا... وقد بقى فى الأرض منهم أكثر من ألفى رجل، دون ذكر كثيرين آخرين فروا وهم جرحى"[٣٤].

انتشر الإسبان فى المدينة لمطاردة من استطاع الهرب من الساحة، ورجعوا إلى معسكرهم فى الليل محملين بحصيلة نهبهم الغنية، وفى الصباح عادوا لتكرار شرورهم : "... ورجعوا قبل انتصاف النهار إلى معسكر الإسبان بغنائم وفيرة، فجلبوا أعداداً كبيرة من الأسرى، رجالاً ونساء وأولاداً وأغناماً، والكثير من الملابس والذهب والفضة، فكان الذهب الذى جمعوه فى اليوم السابق والذى جمعوه وجلبوه فى هذا اليوم التالى يقدر بأربعين ألف بيزو، وكله من الذهب الصافى، وسبعة آلاف مسكوكة فضية من ذوات الأربع عشرة زمردة... والهنود والنساء وجميع الذين أخذوهم فى الليلة السابقة، جمعوهم فى الساحة فكانوا ثمانية آلاف نفس أو يزيد. وأمر الحاكم بأن يأخذ كل إسبانى القطع التى يشاؤها من هؤلاء لخدمته أو لحاجة له بها..."(٣٥).

من الواضح تماماً أنه ما كان لشىء كهذا أن يحدث لشعب يقف على أهبة الحرب، وعلى الرغم من بعض التلميحات الباهتة، إلا أن الجميع يتفقون مع فيرناندو بيثارو فى الاعتراف بأنه "خلال كل ذلك لم يرفع هندى واحد سلاحاً ضد إسبانى"(٣٥). ولم يمنع هذا كله المؤرخ الرسمى من إيراد موعظة فرانثيسكو بيثارو لأسيره الملك: "ولأنكم تدركون جيداً وترون الضلال الذى عشتم فيه حتى الآن، فستعرفون الفضل الذى لقيتموه بقدومنا إلى هذه الأرض بأمر جلالته، وعليكم أن تحمدوا بصفاء طوية أنكم لم تقعوا أسرى أو ضحية أناس قساة، على شاكلتكم، فأنتم لا تتركون أحداً حياً فى حروبكم. إننا نفضل التعامل بالحسنى مع من هم فى حوزتنا، حتى ولو كانوا أعداءنا وكانوا قد أساؤوا إلينا. ولا تظن أننى قد أعلنت الحرب وإنما أنت الذى أعلنتها علىّ، ورغم قدرتى على تدميركم فإننى لا أفعل ذلك، وأفضل العفو عنكم..."(٣٦).

وعلى الرغم من طيب نوايا فيرناندث دى أوفييدو، فى توضيحه السريع للأسباب التى أدت إلى المذبحة، إلا أن أحداً لم يصدق فيما بعد قصة إهانة العاهل للمقدسات(*). وبالقوة التى توفرها الموهبة ومعرفة الوقائع الفريدة، يؤكد الانديو غارثيلاسو دى لا فيغا أنه سمع من شهود ذوى شأن، رواية مختلفة تمام الاختلاف:

(*) الرواية التى حاول بعض رجال الحملة التستر وراءها لتبرير مذبحة كاخاماركا تزعم أن الملك أتاهوالبا أهان الاسقف الذى دعاه لاعتناق المسيحية وأنه قذف بالكتاب المقدس إلى الأرض بعد أن تصفحه باستهتار.

فاتاهوالبا الذى أخذ على محمل الجد البلاغ حول إمبراطور المسيحيين والبابا والذين الذى دُعى إلى اعتناقه، بدأ خطاباً ألقاه فى عبارات قصيرة بسبب تدنى نوعية الترجمان، فأثار هياج الجند الذين كانوا يراقبون ما يجرى: "... وخرج الإسبان - الذين لم يستطيعوا تحمل الإسهاب فى التعليل - من مواقعهم وهاجموا الهنود ليقاتلوهم وينتزعوا منهم حلى الذهب والفضة والأحجار الكريمة الكثيرة، إذ كان هؤلاء الوطنيون القادمون للاستماع إلى سفارة ملك الكون قد تزينوا بتلك النفائس احتفاء بالحدث. وصعد إسبان آخرون إلى برج صغير لتجريد وثن هناك من صفائح الذهب والفضة ومن الأحجار الكريمة التى تزينه، فأثار هذا العمل هياج الهنود وراحوا يطلقون صرخات مدوية، وحين رأى الإنكا ما يحدث، أمر جماعته صارخاً ألا يقتلوا الإسبان أو يسيئوا إليهم حتى ولو ضيعوا الملك نفسه أو قتلوه"[٢٧].

إن ما حدث، استناداً إلى رواية غارثيلاسو، هو نوبة إجرام مباغتة من تلك التى يرد ذكرها بكثرة فى حوليات الفتح، والتى يحاول كتبة الوقائع التاريخية فهم أسبابها دون جدوى. وإذا حكمنا بمقتضى الشهادات المعاصرة، فإن هذه النوبات تلازم جميع الحروب العدوانية: إنها ما أسماه العسكريون الأمريكيون فى فيتنام بـ "لحظة الجنون"، تلك اللحظة التى يُفرغون فيها نيران أسلحتهم بصورة هوجاء على السكان المدنيين[٣٨]. وتصبح هذه الفرضية أكثر إقناعاً بسبب الجاذبية الطاغية التى أثارتها دون شك ساحة كاخاماركا بأبهتها فى نفوس أولئك المغامرين المتأهبين دوما للانقضاض.

تعهد أتاهوالبا، مصدقًا الوعد بافتدائه، بأن يملأ إحدى قاعات قصره بحلى من الذهب. وتوالى مجيء الكنوز من جميع أرجاء الإمبراطورية الشاسعة خلال ثلاثة شهور، وعمل عدد كبير من الصائغين الوطنيين لأسابيع فى صهر أكوام الأعمال الفنية التى تراكمت هناك فى أكوار جديدة.

ورغم دفعه فديته الخرافية، بقى الإنكا أسيراً، وسرعان ما تحول إلى مصدر قلق لسجانيه، فتقرر إعدامه بتهمة إعداده لمؤامرة لم يقتنع أحد بصحتها سوى فرناندو بيثارو، الذى يكرر تأنيب أخيه للمذنب: "أية خيانة هذه التى حكتها، وأنا الذى عاملتك على أنك أخ وسيد كبير، مثلما أنت، ووثقت بكلماتك؟".

حُكم على أتاهوالبا بإحراقه حيًا، وقريبًا من المحرقة ضعف ووافق على اعتناق المسيحية لينعم بامتياز الموت خنقا. والحقيقة أنه نال بهذا جلال المأتم الوقور الذى شارك فيه الحاكم فرانثيسكو بيثارو وهو بملابس الحداد، وبهذه الملابس نفسها وجده الجنود لدى عودتهم من تفتيش مواقع التمرد المزعوم، حيث لم يتحققوا إلا من وجود النوايا السلمية: "وحين رأوا أنها إنما كانت خدعة وكذبة جلية وزيف واضح، رجعوا إلى كاخاماركا، حيث كان الحاكم قد قتل أتاهوالبا... وعند وصولهم إلى الحاكم، وجدوه يبدى لوعة شديدة، معتمرا قبعة كبيرة من اللبد، علامة الحداد، وقد غاصت فى رأسه حتى عينيه..."(٣٩).

ربما لاستيائه من اغتيال دييغو ألماغرو فى السجن على يد فرناندو بيثارو بالذات، وكذلك من فضيحة الحروب الأهلية التى سيُفلت الأخوة الثلاثة عقالها بعد زمن قصير، ينسى المؤرخ فيرناندث دى أوفييدو دوره كموظف، ويدافع عن الملك الوطنى المنكوب باندفاع يعوض به عن تبريراته المشؤومة السابقة: "وتعويضًا لتقدمته، وُضع عند قدميه قش مشتعل، إذ قيل عنه أنه أعدّ خيانة ضد المسيحيين، وابتدعوا ولفقوا ضده الأكاذيب وأعلموه أنهم سيقتلونه... دون أن يتذكروا أنه ملأ لهم البيوت بالذهب والفضة، وأنهم استولوا على نسائه واقتسموهن فيما بينهم، وبحضوره وعلى مرأى منه نالوا منهن الزنا وما يشتهى أولئك الذين أخذوهن. ولما بدا للمذنبين أن مثل هذه الإهانات لا تُنسى، وأنهم يستحقون من أتاباليبا الجزاء على ما اقترفوه من أعمال تستقر فى النفس ضغينة وعداوة موغلة، ولكى يخرجوا من ذلك الحذر والريبة، أمروا بقتله لذنب لم يقترفه ولم يفكر فيه"(٤٠).

إن الحروب الأهلية التى عاثت فى البيرو دمارًا خلال عشرين سنة، تشكل صورة واضحة لفهم تاريخ تلك المرحلة، إذ أنها تتيح رؤية مواقف وممارسات لا تكاد تبدو للعيان فى روايات أخرى. وأول ما يلفت الانتباه هو ظهور ما يمكن تسميته انقلاب الأيديولوجية الرسمية: ففورة أهواءٍ منحطة ستلف بالسخرية أدنى إشارة إلى قدسية الأهداف المتوخاة ، وإذا كان كورتيس قد لاقى صعوبة فى أن يوضح لملك "همجى" العلاقة القائمة بين روح الصليبية وعدوانيته تجاه بعض مواطنيه، فإن أحدًا لن يتمكن من بث القناعة بوجود ذرة واحدة من الغيرة الإنجيلية وسط جمهرة الجرائم التى

اقترفها المسيحيون من أجل غنائم إمبراطورية البيرو. وليس هذا بسبب كثرة الجرائم وتنوعها بقدر ما هو فى انكشاف أمر هذه الجرائم دومًا على يد هذا الفريق الإسبانى أو ذاك. فكل واحد من كتبة الوقائع التاريخية لم يفعل فى الحقيقة إلا توضيح أجزاء معينة من الواقع، حسب ميوله، لكن هذه الكتابات مجتمعة تقدم مشهداً بانوراميًا شبه كامل، وهو مشهد مشؤوم بإجماعهم كلهم، حتى أننا نشعر بالسعادة لأننا غير مضطرين إلى دراسته هنا.

إن الخصومات الناشبة بين بيثارو وألماغرو، بعد سلب كنوز الإنكا مباشرة، امتدت لتشمل الغزاة الآخرين وأقامت مجتمعًا كانت القاعدة فيه هى الحنث بالعهود، والقتل غدراً، والمذابح الجماعية، والعقوبات الصارمة، والسطو المسلح، وحين أضعف موت الممثلين الأساسيين من حدة هذه التناحرات الشخصية، كان الفساد قد استشرى وتوطد، حتى أن بعض الإجراءات النازعة إلى حماية الوطنيين كانت كافية لإشعال الحرب من جديد، وضد السلطة الإسبانية نفسها هذه المرة، وقد جرى اغتيال نائبين للملك قبل أن يتمكن الثالث من فرض النظام عن طريق الترويع الدموى.

من السهل تصور حال الوطنيين حيال أسياد يسيطر عليهم جنون الغرائز البدائية، وسط مجتمع لا احترام فيه للكية أو لحياة المستعمرين أنفسهم ، فإلى جانب سوء المعاملة التى أدت خلال وقت قصير إلى تناقص مريع فى عدد السكان فى جميع أنحاء أميركا، لا بد من إضافة المعارك التى استُخدم فيها هؤلاء السكان كلحم للمدافع.

كانت مدينة كوسكو Cuzco ، بمبانيها المرصعة بالذهب، هدفًا لمعارك لانهائية، وحصارات قاسية، وانتصارات وهزائم فيما بين الإسبان أنفسهم، ولكن الوطنيين هم الذين كانوا يشكلون بالطبع الطوابير الصدامية للمهاجمين، وهم الذين لا بد لهم من السقوط أولاً تحت ضربات المحاصرين، كما أنهم يؤلفون فى الوقت نفسه غالبية سكان المدينة الذين سيسعى الفاتحون الجدد لإبادتهم قبل أن يطاردوا أبناء بلدتهم من الإسبان، وعلى واجهة كاتدرائية كوسكو توجد اليوم لوحة تذكارية إحياء لإخفاق واحدة من تلك الهجمات، وهى مهداة إلى الظهور الطيب للقديس سنتياغو الذى هزم "البرابرة" حين أرادوا الاستيلاء على المدينة. إن أولئك "البرابرة" الذين يُشاهد أحفادهم اليوم

أمام الكاتدرائية وهم يتكلمون بلغــة، ويلبسون بطريقــة، نجتا بأعجوبة من الكارثـة، ما كانوا قادرين إلا أن يكونوا عبيداً يُقذف بهم إلى الموت بانتظام. صحـيح أن الملك الذى عينه الإسبـان، بعد إعدام أتاهوالبا، قد امـتشق السلاح فـى إحدى اللحظات مفكراً فـى الاستفادة من نزاع الدخلاء لمصلحة الشعب، ولكنه لم يستطع تشديد الخناق عليهم داخل المدينة إلا لوقت قصير. وحين تأكد من أن الزمرتين تـخدعانه، وأوشك على الوقوع فـى الأسر، اختفى مانكو كاباك Manco Capac فـى الجبال الشـاهقة القريبة، حيث عاش تسع سنوات.

وسط نيران تلك الحروب الأهلية كانت مـآسى الاستـغلال والإبادة من أجل الثـأر تحتل مكانة ثانوية، لكن أوفـييدو يعكس لنا بعضًا منـها : فـهذا بنلكاثار Benalcazar "ينشر السلام" فـى منطقة كيتو بوحشية أثارت حفيظة الأوساط الاستعمارية نفسها، أو أنه يسلب الأراضى تاركًا عشرات آلاف الكائنات البشرية - الرقم الذى يذكره أوفييدو هو سبعون ألفًا - تموت جوعًا بعد مروره، والمركيز فرانثيسكو بيثارو - توجت مـآثره بهذا اللقب - الذى استشرس ضد أملاك أملاغرو القريبة من ليما، يُتلف الأرض، ويبيد الوطنيين، ويغتصب كل ممتلكات الزعماء، ويسلب مدافن قرية ناسكا، الخ، الخ...

١١ - البرازيل وفنزويلا :

لقد حوّل نهب البيرو من مسار تاريخ الفتح كله. فبعد معرفة طبيعة الغرباء، الذين فقدوا سرهم نهائياً بعد معرفة ما الذى يسعون، إليه سواء فـى نواياهم أو فـى حقيقة كلامـهم، أبدى الوطنيـون مقـاومـة عظيمـة فـى جمـيع الأنحـاء، ونظموا حروبًا توصلت أحيانًا إلى إحباط محـاولات الاحـتلال لأمد طويل، وحيث إن سكان تلك المناطق كانوا جماعات متعددة من الوطنيين، بلا حكومة مركزية، فإن الاستيلاء على الثروات كان يتم عموماً من خلال حملات نهب لم تستطع أن تبدل شيئًا من البنى القائمة.

كانت فنزويلا والبرازيل البلدين الوحيدين اللذين لم يمتلكهما الإسبان منذ البداية: فقد منح كارلوس الخامس البلد الأول منهما إلى مؤسسة آل فيلزر Welser التجارية الألمانية؛ بينما استثمر البرتغاليون البلد الثانى بعـد سـنوات طويلة من اكتشافه،

ومع ذلك فإن البرازيل هي البلاد الوحيدة التي تتكلم لغة مختلفة عن بقية بلدان أميركا اللاتينية، لأن الإسبان هم الذين استوطنوا فنزويلا، بالرغم من أن الحكومة والقادة فيها كانوا من الألمان.

لم يول ملوك البرتغال المبهورون بفتوحهم الحديثة في آسيا وأفريقية اهتماما كبيرا بالاستكشاف الذي حققه باسمهم ألفاريز كابرال سنة ١٥٠١ على الساحل الأمريكي، ولم يذهب أحد لاحتلال الشواطئ التي وصفها فيسبوشي، مما حوّلها إلى حقل نموذجي للقراصنة الدوليين، وإلى وكر مغامرات لا نهاية لها. فمنذ الحملة الأولى، كشفت ضفاف ذلك الاقيانوس النباتي الكتيم عن وجود "البرازيل"، وهو جنس أشجار تشكل أخشابه الحمراء مادة صباغة ممتازة كانت تُجلب من الهند منذ زمن قصير.

كانت هذه الأراضي تمثل حالة نموذجية من الفوضى حين قررت البرتغال استيطانها. إذ إنها أُخضعت خلال ما يقرب من ثلاثين سنة لاستغلال كان على السكان الأصليين الرضوخ له، تحت وطأة أشد القوى همجية. فبيوتات أجنبية كثيرة، وخاصة فرنسية، اعتبرتهم أملاكًا خاصة، كما اضطهدهم إلى حد الهوس قادة أوروبيون متسلطون من تلك الشخصيات الطريفة والتقليدية التي ظهرت في البرازيل. لقد كانوا أناساً محررين من قيود الأشغال الشاقة تُركوا لمصيرهم في تلك الأماكن بأمر من ملك البرتغال نظراً لقلة المستوطنين، وكان بعضهم يقيم فيها منذ عشرين سنة. وإذا كان عدد من أولئك البرتغاليين المتأمركين قد تعاون مع أسيادهم الجدد، فإن هؤلاء الأسياد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى خوض صراعات طويلة ضد السكان الأصليين، وكذلك ضد الفرنسيين. وعلى الرغم من التخطيط الجيد - إقامة مزارع واسعة لقصب السكر الذي نُقل من آسيا مع معامل لتكريره -، فقد كان الاستيطان شاقاً وبطيئًا، والمدينة البرتغالية الأولى، بيرنامبوكو، التي أنشأها المحكومون، دُمرت سنة ١٥٣٠ على يد قرصان فرنسي أباد ساكنيها وأحرق معامل تكرير السكر فيها، ولعلاج نقص اليد العاملة الذي سببته المذابح والهرب إلى مناطق البلاد الداخلية، طُلب من المتروبول إرسال تعزيزات من الأفارقة، ووصلت أول دفعة من العبيد الزنوج إلى سان فيسنته سنة ١٥٥٢، من أنغولا وغينيا.

لقد اقتصر استثمار الشجر الأحمر ومزارع قصب السكر على المناطق الساحلية. ولزمن طويل، كانت الحملة الوحيدة التى اجتازت مناطق البلاد الداخلية انطلاقًا من جبال الانديز وصولاً إلى الأطلسى هى حملة فرانثيسكو دى اوريلانا De Orellana . ولكن النزول مع مجرى أكبر نهر فى العالم ابتداء من كيتو، تلبية لظروف الفتح، وبدون خطة استكشاف محددة، شكل مغامرة استثنائية، مجردة من أية نتائج عملية، ذلك أن اكتشاف حوض الامازون الفسيح لم يبدل شيئاً فى التنقل ما بين البحرين، وعلى الرغم من وجود مؤرخ بين رجال السفينتين اللتين حققتا تلك المأثرة، فإن الأخبار المتوفرة لدينا عن الأماكن التى مروا بها قليلة جداً، إن رواية فراى غاسبار دى كارفاخال Carvajal ، ورغم جدارتها بالتقدير، إلا أنها تخذلنا، فقصة الشهور الثمانية التى أمضوها فى أماكن ما تزال تحتفظ بسرها حتى وقتنا الراهن، تكاد تقتصر على البحث عن الطعام وحسب. فلا وجود للمدن إلا بقدر ما توفره من إمكانية للسطو عليها – فهم يمرون عرضاً قبالة المدن الكبيرة، ويبتهجون حين يتمكنون من مهاجمة مدن صغيرة سيئة التحصين –، كما أن الحيوانات، والنباتات، والمناظر الطبيعية لا تُرصد إلا باعتبارها موارد غذائية؛ وتقتصر الحياة فوق متن السفينة على معاناة الجوع الذى اضطرهم إلى عمليات النهب، وحتى الامازونيات، اللواتى يمكن أن يكنَّ الشىء الوحيد المرئى، يجرى الحديث عنهن باهتمام أقل من الحديث عن مستودع أطعمة، ومصب النهر، ذلك "البحر العذب" الذى سبب ذهولاً شديدا للمكتشفين الأوائل، لا يرد ذكره إلا بشكل عابر، وتصل القناعة بالمؤرخ إلى حد السكوت عن السهم الذى سمل له إحدى عينيه.

إن تاريخ الحملات العسكرية، المتماثلة فى كل الأنحاء، والتى كانت تنطلق بحثًا عن الكنوز وتنتهى إلى كارثة، تكتسب فى فنزويلا صبغة درامية خاصة، حيث حافظت هذه المنطقة على حريتها بفضل السهام المسمومة: إذ كان الكاريبيون قد تعلموا الدفاع عن أنفسهم، ومن هنا جاء المدلول التشهيرى لكلمة canibales(*) الذى يلصقه البعض باسم هذه الشعوب على الرغم من أن أوفييدو، الذى تعامل مع هؤلاء الوطنيين قبل أى

(*) هناك اعتقاد بأن كلمة canibales وتعنى أكلة لحوم البشر، مشتقة من caribes وهى التسمية التى تطلق على سكان فنزويلا وبعض جزر الانتيل الاصليين.

مؤرخ آخر وبعمق أكثر منهم جميعاً، يقول إن هذه الصفة مشتقة من لفظة **Caribana** وهي بقعة أرض قاتمة عند مدخل خليج اورابا **Uraba**، ومعناها: الباسل، الجسور، المقدام(٤١).

لقد كان الكاريبيون يعلمون أن الكذب هو أخطر أسلحة الغرباء، وأنه عليهم بالتالي أن يهربوا قبل وصول هؤلاء، وألا يبدؤوا معهم، تحت أي ذريعة، محادثة قد تقودهم إلى الكارثة. وانطلاقًا من ذلك، اتخذوا إجراءات فعالة أمام اقتراب الغزاة؛ فكانوا يحرقون بيوتهم ويخبئون مؤنًا ورجالاً بطريقة لا تسمح بالعثور عليهم فى أحيان كثيرة. وأصبح تكتيك حرب الغوار لديهم أكثر اكتمالاً: فصاروا يحرقون معسكرات الأعداء ويفرون هربا من الانتقام؛ ويمارسون الانسحاب الاستراتيجى بمهارة، مستغلين الظروف الطبيعية إلى أقصى الحدود، بنقلهم المعارك نحو مناطق المستنقعات التى تعيق حركة الخيول، أو نحو الأنهار المستحيلة على الغزاة، وحيث يستطيعون هم الحركة كالأسماك؛ أو نحو الأحراش الكثيفة التى تشكل قبورا مؤكدة للأوربيين.

وقد حملت هذه المقاومة الغزاة إلى نسيان أنفسهم تماماً؛ فكانوا يفتقدون كل ما هو ضرورى : الأغذية، المترجمين، الأدلاء، الحمالين، الخ. ومن هنا فإن روايات السنوات العشر الأولى اقتصرت على مجموعة من النكبات المتتالية: جيوش إسبانية تائهة تتبع فى هذه المناطق حاكمًا أو قائدًا أجنبى الاسم من أمثال فيدرمان، ألفينجر، هوتين، نورمبرغ؛ بينما تعانى من هجمات الأهالى المدربين، وهجمات العوامل الطبيعية التى لم تكن أقل خطرًا فى أرض استوائية مغمورة بالمياه دومًا. وقد أضعف انعدام الأغذية الرجال، فاضطرهم إلى التهام الخيول، ووصل بهم الأمر إلى أكل لحوم البشر:
"... جاء الفتى وقال إن أباه... والرجلين الآخرين قد قتلوا هندية كانوا يقتادونها معهم وأكلوها، وحملوا بعضًا منها زاداً للطريق؛ وعرض الفتى قطعة منها... والمدعو كريستوبال مارتين، ذو البندقية، شق بطن شاب هندى أليف من الذين معهم ممن أخذوهم من وادى البوكابوييس، وقد قتله ليأكله... وأخذوا الهندى المقيد، ووصلوا إلى جدول يصب فى النهر ذاته، فقتلوه وتقاسموه فيما بينهم جميعًا، وأضرموا النار وأكلوه. وباتوا ليلتهم تلك هناك، وشووا من ذلك اللحم ما بقى معهم ليأكلوه فى الطريق"(٤٢).

هؤلاء الوطنيون الذين يؤكلون هم من أهل الجنوب الذين لم يكونوا قد توصلوا إلى استخدام السهام المسمومة بعد، وكانوا يجهلون تماماً طبيعة الأوربيين، ولقد تمكن أولئك الأوربيون من الاستيلاء فى أحيان كثيرة على كميات كبيرة من الذهب، ثم اضطروا إلى التخلص منها بشتى الطرق، إذ تحول المعدن اللماع، بسبب افتقارهم إلى عبيد يحملونه، إلى حمل لا يطاق، ثم إلى لعنة فى آخر الأمر، ويصف أوفييدو الذى لا يكل تفاصيل واحدة من المنازعات الفريدة ما بين الجشع وغريزة البقاء: "اقتسم المسيحيون الذهب وحملوه فى حقائب على ظهورهم؛ عشر ليبرات أو اثنتا عشرة ليبرة لكل واحد منهم، وذلك لافتقارهم إلى حمالين من الهنود. وواصلوا رحيلهم، منحدرين مع تيار ذلك النهر، لأنهم لم يجدوا طريقًا أفضل؛ كما أنهم لم يجدوا ما يأكلونه سوى بعض النخيل المر... وبينما هم سائرون فى النهر، وجدوا أنه يصبح أكثر عمقًا أمامهم، وحيث إنه لم يكن أمامهم طريق آخر، لأن كل ماعدا النهر كان أدغالاً كثيفة مغلقة، وحيث إن المسيحيين كانوا ضعفاء يمشون كالعرجان، وكان معظمهم حفاة ومحملين بذلك الذهب، فقد وجدوا أنفسهم فى لحظة نحس، فاتفقوا على صنع طوفين، وانطلقوا عليهما مع ذهبهم نزولاً مع النهر، وتقدموا قرابة فرسخ... واصطدموا ببعض المنحدرات... ومع قوة اندفاع الماء، تفكك الطوفان... وأضاعوا حمولة من الذهب، كان يحملها رجل يدعى خوان مونتانييس دى مانييرو... وفى صباح يوم تال انطلقوا من هناك نازلين مع ضفة النهر، وساروا حتى انتصاف النهار، وحيث أنهم كانوا مرهقين جداً، ومنهوكين وجائعين... فقد توقفوا حيث بدا لهم، ووضعوا حمولتهم من الذهب فيما بينهم جميعًا وطلبوا من القائد فاسكونيا Vascuna دفن ذلك الذهب، لأنهم ما عادوا قادرين على حمله، ولأنه ينهكهم، فضلاً عن إرهاقهم؛ ولأنهم ما كانوا يجرؤون على الابتعاد لقطع لب نخل كى يأكلوه، حبًا بالذهب... ورد فاسكونيا على رفاقه طالبًا منهم أن يحملوا من الذهب قدر ما يستطيعون... وأن يأملوا من الله العون فيجدوا أناسًا مسالمين يخرجونهم من تلك المحنة... وهكذا تناوبوا حمل الذهب لمواصلة المسير، واستمر ذلك ثمانية أيام أخرى، وفى كل يوم كانوا يطلبون من القائد أن يدفنوا الذهب. وحين رأوا أنهم لا يستطيعون عمل شىء آخر، دفنوه عند أصل شجرة... وبعد دفنه، ناموا ليلتهم هناك إلى جوار الذهب، وهم يأكلون لب النخيل"[٢٤].

وثمة مظهر آخر من مظاهر هذا الوجود غير الإنسانى، يتمثل فى هجر المرضى من قبل رفاقهم. ومن بين عاثرى الحظ هؤلاء، ينقل التاريخ خبر شخص يدعى فرانثيسكو مارتين، وقد هُجر لمصيره بسبب دُمَّلين فى باطن قدميه. وحين صار وحيداً، زحف حتى ضفة النهر، حيث تمكن من العيش لستة أيام، وبعد ذلك "... وإذ رأى نفسه ضائعًا وغير قادر بأى حال على الذهاب لقطع لب النخيل، أسلم نفسه إلى سيدتنا العذراء بكثير من الدموع، وأخذ جذعًا وانطلق فوقه نازلاً مع النهر، ووصل عند مغيب شمس ذلك اليوم إلى مجموعة أكواخ قديمة لهنود، حيث رأى دخاناً، فمضى نحو الدخان على ركبتيه، زاحفًا بمشقة كبيرة، عبر طريق هناك. وبينما هو على تلك الحال رآه الهنود، فهرعوا إليه، وحملوه على أذرعهم ونقلوه إلى حيث يوجد كوخان آخران جديدان كانت نساؤهم وأبناؤهم فيهما، ووضعوه فى أرجوحة نوم، وقدموا إليه طعاماً مما لديهم. وبقى هناك ثلاثة شهور، وفى أثناء ذلك شفى داء قدميه"(٤٤).

ولاستحالة لقائه مع جماعته، بقى ذلك الفاتح بيَن المتوحشين، ونزولاً عند توسلاتهم، وبتكيفه مع عاداتهم، أصبح طبيباً، وبعد مصادفات غريبة، التقى ثانية مع مواطنيه، وكانوا على وشك أن يقتلوه لأنهم رأوه عارياً، ووجهه وجسده ملونين بالأصبغة، ولحيته منتوفة، ويحمل قوسًا وسهامًا، فظنوه هنديًا، ثم أصبح مترجمًا وسفيراً عظيماً، إذ إن الهنود الذين كانوا يحترمون المعاهدات المصاغة بلغتهم، وقعوا مجدداً فى أحابيل الكلمات الزائفة.

١٢ - مملكة غرناطة الجديدة (كولومبيا) :

لقد اختلط فتح شمالى كولومبيا الحالية لزمن طويل بفتح الساحل الانتيلى كله: *ذلك أن المقاومة العنيدة جعلت من هذه الشواطئ مكانًا "مخصصًا لاصطياد العبيد"، حيث أباح جلالة ملك إسبانيا"... شحن السفن بهم [العبيد] وإرسالهم أو جلبهم للبيع فى جزيرة إسبانيولا..."*(٤٥). إنها أوديسة الإسبان فى سبيل الثروة والبقاء على قيد الحياة، ولن يصبح لهذه المناطق ملامح خاصة بها إلا بعد مرور عشرين سنة، حين انتشر الكلام عن وجود كنوز الإنكا، وليس بسبب الأهمية التى تتمتع بها هذه المناطق فقط، وإنما لكونها طريقًا يؤدى إلى *البيرو*، شهدت فيض هجرة واسعة جعلت الأزمة

الاقتصادية التى تلحق بكل مستعمرة أكثر حدة، وفرضت البحث عن مخرج أتاح، فى آخر الأمر، اكتشاف مملكة لا شُبْهة فيها.

هذا المكان المغروس بين أنديز سانتا مارتا الشاهق الضخم ومصب أحد أكبر أنهار أميركا، والذى كان موقعًا ممتازًا فى زمن آخر نظرًا لخصوبة وديانه ووفرة الذهب فيه، تحول إلى سجن: حيث كان العيش صعباً كصعوبة الفرار. فقد حاول الإسبان، مثل استراتيجيي الحرب المحدثين، تحطيم مقاومة السكان بإحراق القرى حتى آخر كوخ فيها، وتخريب الحقول. (إن الكلمات المتحدية لأحد زعماء الوطنيين تثبت لنا أن هذا الأسلوب، ومنذ ذلك الزمن، لم يكن فعالاً على الدوام. فهو يقول: "... إنه لا يريد أى سلام معهم، فليحرقوا أكواخ قراه، لأنه يشعر بالبرد، ويريد أن يتدفأ عليها")[٤٦]. ولافتقار صانعى ذلك الدمار إلى قوات الطيران والبحرية التى يمتلكها الغزاة الحاليون، فقد عانوا من نتائج أعمالهم، وكان أملهم الوحيد للخلاص من الجوع والموت هو فى الفرار عبر نهر مجدلينا، الممر النهرى الذى يُفترض أنه يصل إلى بلاد الإنكا، لكن المستنقعات التى تغمر منطقة المصب، واضطراب مياه النهر فى ذلك المكان حالا دون تحقيق المشروع، وحين رأى مستعمرو سانتا مارتا أنفسهم مضطرين إلى بذل جهود جديدة، استطاعوا تجاوز وضعهم المأساوى والتغلب أخيراً على كل العوائق، فقد كان أحد فروع النهر صالحًا للملاحة شريطة أن تكون السفن قليلة الحمولة، وأتيح لهم تجاوز المنطقة الضحلة فى المسار السفلى بفضل نهر محدد الضفاف يتصل بنهر مجدلينا على بعد حوالى خمسمئة كيلومتر.

وبعد عدة محاولات فاشلة، تمكنت حملة يقودها خيمينث دى كيسادا **Quesada** سنة ١٥٣٦، من اجتياز عتبة الأرض الجديدة. وقد اضطروا، لتجاوز التيار القوى، إلى تحميل السفن بالأغذية فقط، ووجد الرجال أنفسهم مجبرين على السير على الأقدام حتى ملتقى النهرين، على ضفة النهر الذى أفادهم كسبيل. كان الرجال الستمئة يحملون اللوازم الضرورية على كواهلهم، لأنهم ما كانوا قادرين على الاعتماد على مساعدة الوطنيين الذين كانوا مطلعين على نواياهم، ونتيجة لمشقات الطريق العظيمة ولتأخر السفن الطويل عن الوصول فى موعدها – غرقت السفن الأولى، وكان لا بد من تجهيز سفن أخرى –، مات ثلثا الرجال، ومن السهل تصور سلوك أولئك المنهارين

الذين يتقدمون ومعظمهم حفاة، مستندين على عصى، نحو البلدان المزدهرة التى لم يتمكنوا من العثور عليها إلا بعد شهور من التيه: "وسار الجيش شهوراً فى مستنقعات وغابات من أشجار المانغلى، تحت وابل الشتاء المدارى الغزير، مجتازاً أنهاراً ومضائق جارفة، تحت رحمة التماسيح وأسماك الشِّفنين وسمك الهزاز، فى أرض مقفرة تماماً..." هذا ما يقوله أحد الفاتحين فى ""سجل خدمته""، ويضيف: "وفى ذلك الطريق، وأثناء تلك الاكتشافات، وأشد من كل المشقات والأخطار المذكورة، كابد الجميع جوعاً عظيماً دفعهم إلى أكل الجياد التى جلبوها معهم وأشياء أخرى غير مألوفة لم يعرفوها من قبل، مثل الجذور والأعشاب والعظاءات والأفاعى والخفافيش والفئران، وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل..."(٤٧).

وعلى متن السفينة استعادوا عافيتهم. ولكن، لما كان مجرى نهر مجدلينا يصبح أكثر خطورة، تخلى خيمينيث دى كيسادا عن البيرو ليستكشف البلاد التى تشير كل الدلائل إلى أنها كانت مزدهرة ومتحضرة. فبعث رجاله لتسلق الجبال بحثًا عن "بحيرة الملح"، باتباع طريق الوطنيين الذين كانوا يقايضون ملحهم بمنتجات أهالى الساحل. وعلى الجانب الآخر من المرتفعات المذهلة، انكشف لهم بلد عجيب، ذو سهول غنية وأناس متسربلين بالذهب والزمرد. ووجد الغزاة صداً شديداً فى كل مكان، ولكن ذلك لم يمنعهم من جمع الغنائم. وحسب سجل الحملة، الذى نُقل بحرص إلى السلطات الملكية، فإن "القرية الأولى وراء سلسلة الجبال التى أتاحت للقادة إمكانية القيام بغارات وجمع الذهب. وفى يوم واحد فقط، هو التاسع من آذار (مارس)، جمع الإسبان ١١٣٧ بيزو من الذهب الخالص ٣٧ بيزو من الذهب الأدنى، بينما كان ما اجتمع فى صندوقهم قبل ذلك اليوم، خلال الأحد عشر شهراً التى دامتها الرحلة، ٢٧ و ٤ تومينات من الذهب الأدنى والصافى"(٤٨).

حتى الدخول إلى مملكة تشيبتشا Chibcha ، كانت القيمة المتزايدة للغنائم هى المؤشر على المراحل. فالإسبان الذين كانوا يحلمون بالاستيلاء السريع على كنز الملك بوغوتا Bogota الشهير، أصيبوا بقنوط شديد حين واجههم هذا العاهل، ليلاً نهاراً، بحرب دامت عدة أسابيع، إلى أن مات بطريقة غامضة فى إحدى المعارك. والتعذيب الذى نجا منه بموته وقع على ابنه الذى ما لبث أن مات على يد جلاديه،

لرفضه الكلام، فقاد المقاومة فى الجبال أحد أبناء أخيه، الذى اختير "بوغوتا" من قبل وجهاء النظام. وعندما وقع هذا الأخير فى الأسر، تعهد بتقديم سلة مليئة بالذهب كفدية؛ ولكنه قضى نحبه تحت التعذيب أيضاً لتأخر وصولها.

ورغم حركات المقاومة العامة، ورغم بقاء الكنز الملكى طى الكتمان، فإن "سجل الحملة" يسجل دخول ثروات متزايدة الأهمية، ويقدم أوفييدو شهادة تعبر عن استقلالية فى الرأى جديرة بالاحترام عند اعتراضه على نعت "المتمرد" الذى يطلقه الغزاة على من يدافع عن وطنه: "... دون إذن منه، وضد إرادته دخلوا إلى أرضه التى كان ينعم فيها آمناً بسيادته وحريته: ومن العدل أن يدافع عن نفسه، وأن يقتل ويطرد الأعداء من بيته وأرضه..."(٤٩).

سرعان ما سيطر المعتدون على البلاد وقادهم جشعهم إلى اقتراف أقصى الفظاعات: فقد وصل بهم الأمر إلى انتزاع الذهب والزمرد الذى تقضى الطقوس بدفنه فى بطون الموتى، وعلموا أن الهنود فى منطقة نييڤا Neiva يستخرجون ذهباً شديد النقاء من الأرض، كما بلغهم "النبأ المثير" بوجود منجم زمرد مبهر، فتفاقمت صراعات حكام الإسبان وقادتهم للسيطرة على أرض الرخاء تلك ، وتمثلت فى واقعة فريدة: فوادى التشبتشيين السرى، وهو المملكة المحمية بعقدة لا يمكن عبورها من جبال الأنديز، وبمئات الكيلومترات من المستنقعات والأنهار والأدغال، أصبح فجأة، مثل الشارع الرئيسى فى عاصمتهم، مكان التقاء ثلاثة condottieri(*). وفعلاً، بعد أن تمكن خيمينيث دى كيسادا من حماية المكان من مواطنيه خلال ثلاث سنوات، يصل بغتة إلى هناك الألمانى فيدرمان قادماً من فنزويلا، وبنلكاثار، زميل بيثارو، قادماً من كيتو.

ولكى يتحقق هذا اللقاء كان على الأول أن يجتاز أولاً امتدادات المستنقعات الفنزويلية المترامية، والتى كانت شديدة الشؤم على فاتحى تلك المناطق، ثم جبال الأنديز الشمالية، حيث استغرق تسلقها اثنين وعشرين يوماً من المعاناة، مات خلالها

(*) (condottieri) الكلمة ايطالية، وتعنى قائد جيش من المرتزقة.

كثيرون بفعل البرد؛ وكان على الثانى أن يجتاز المناطق الجبلية الهائلة التى وصفها بالعمود الفقرى للقارة، حين اكتشف اتصال الانديز من أميركا الجنوبية وحتى بحر الكاريبيين. لقد سار كلاهما بحثًا عن المغامرة، دون أدلاء، تدفعهم إشارة الوطنيين فقط بأنهم بعيداً، وبعيداً جداً، سيجدون ثروات طائلة.

إن أسطورة الدورادو El Dorado التى شاعت بعد اكتشاف البيرو، اكتسبت تماسكاً فى هذه المرحلة: فمدينة الذهب العجيبة كانت هوسًا متسلطًا على الأذهان كالسراب من أحد طرفى نصف الكرة الأرضية الجنوبى إلى طرفها الآخر. لقد جرى تحديد مكانها فى مواقع كثيرة واكتشفت أراض فسيحة فى أثناء البحث عنها. كما هيأت خرافة أخرى هى مملكة الامازونيات لاكتشافات جغرافية كثيرة، فالبحث عن الكنز الذى يزعم أن هاتيك النساء المتكبرات يخبئنه، دفع أوربيين كثيرين، مثلما دفعتهم الدورادو، إلى أقصى الأماكن.

إن النزاعات على ملكية الثروات التى اكتشفتها بعثات مختلفة فى وقت واحد كانت طويلة وشائكة جداً، مما حدا بالقادة الثلاثة إلى الذهاب معًا إلى قشتالة لحسم الخلاف، وبالرغم من جهود آل ديلسير الألمان لإقناع كارلوس الخامس بأن وادى التشيبتشيين يقع ضمن قضاء فنزويلا، فقد انتهى الأمر بإقصاء فيدرمان عن المنطقة: فكونه أجنبيًا لا يؤهله للقيام بمهمة على هذا المستوى من السمو.

١٣ - الأرجنتين وتشيلى :

مع مرور الزمن ترسخت مقاومة الوطنيين للغزاة، وفتح الأرجنتين وتشيلى، وهما آخر بلدين أُخضعا، يوضح تلك المقاومة: فتاريخ فتح هذين الإقليمين هو سلسلة من المآسى، لم يعد فيها الوطنيون وحدهم هم الذين يموتون، وإنما كابد الأوربيون خسائر جعلت عملية الاستيطان تعانى لوقت طويل - ولقرون فى تشيلى - من الإخفاق.

إن أراضى الأرجنتين الحالية، التى ارتادها سيباستيان كابوتو Caboto ما بين ١٥٢٦ و ١٥٣٠ حتى أعالى بنما، اعتبرت فى البدء مجرد مدخل للبيرو. ومن أجل ضمها إلى الإمبراطورية الإنكية، نُظمت فى العام ١٥٣٥ حملة بيدرو دى مينــدوثا.

كما بدأ اكتشاف تشيلي كذلك، باعتبارها جزءاً من تلك المملكة الخرافية على يد دييغو دي ألماغرو الذي لم يخامره الشك في أنه لا بد لجنوبي القارة من أن يحتوي كنوزاً كثيرة مثل كنوز شواطئ البيرو، ومثل بيدرو دي ميندوثا، هجر ألماغرو تلك الأماكن بعد آلام لا قبل له بمثلها، وفناء جميع رجاله تقريباً، الذين ماتوا تحت ضربات المقاومة، أو هلكوا بفعل الجوع الذي كان السكان المحليون يتسببون به طوعاً بإحراق مؤنهم قبل اقتراب الفاتحين. والوقائع التي سجلها الألماني اولريك شميدل، الجندي في فريق الاستكشاف المرافق لبيدرو دي ميندوثا، تبين أثر ذلك : "... لم يكن لديهم ما يأكلون، وكانوا يموتون جوعا ويعانون ندرة بالغة... ولقد وصلت ضراوة الجوع وكارثته حداً لم تعد تكفي معه الجرذان ولا الفئران، ولا الأفاعي أو الدويبات الأخرى، وكذلك الأحذية والجلود... فكل شيء صار قابلاً للأكل. وحدث أن سرق ثلاثة من الإسبان حصاناً وأكلوه خفية؛ وعُرف الأمر، فقُبض عليهم وعُذبوا ليعترفوا بهذه الفعلة؛ وهكذا صدر الحكم بأن ... يتم تعليقهم على مشنقة... وحدث في تلك الليلة أن قام إسبان آخرون بقطع فخذي مشنوق وبعض أجزاء اللحم من جسده وحملوه إلى مسكنهم وأكلوه. كما حدث في تلك الأثناء أيضاً أن أكل إسباني من لحم شقيقه الميت..."(٥٠). واستناداً إلى أفييدو فإنه لم يبقِ على قيد الحياة سوى مئة وخمسين رجلاً من الألف وخمسمئة رجل الذين كانوا يشكلون الجيش.

وبالرغم من أن الثلج كان عاملاً مساعداً في بعض الحالات، إلا أنه شكّل عذاباً حقيقياً في تشيلي : صحيح أنه أتاح حفظ جثث الخيول وإبقاءها في حالة جيدة، فكان الجنود الجائعون يستخرجونها ثانية بعد خمسة شهور من موتها، إلا أن تجمد الأقدام كان منتشراً بينهم بكثرة في المقابل. والشهادات التي حصل عليها أوفييدو مباشرة من الناجين تذكر، إضافة إلى أشياء أخرى، أن سداً من الجثث نُصب في مواجهة هبات الرياح الجليدية.

لقد أرعبت الأوربيين حرائق المستوطنات والسفن التي بدأت على ضفاف نهر "ريو دي لابلاتا"، وكثيراً ما دفعتهم إلى الهرب وهجر المنطقة. وهكذا اختفت من الوجود العواصم الأولى للأمصار: مثل اختفاء بوينس آيرس التي بناها بيدرو دي ميندوثا، ومدينة سنتياغو دي تشيلي عام ١٥٤١، وهي سنة تأسيسها، ولن تتعرض بوينس

آيرس الجديدة التي أنشئت سنة ١٥٨٠ لأي اعتداء، أما المدن التشيلية فستبقى عرضة للتهديد، وللتدمير أحياناً حتى القرن التاسع عشر. والفاتح بالديبيا **Valdivia** الذي جاء إلي تلك البلاد مدفوعاً على ما يبدو بإخفاق سلفه الشهير، تمكن من إقامة مراكز عمرانية هامة في المنطقة الجنوبية، الغنية بالذهب؛ ولكنه مات سنة ١٥٥٢ – بعد عشر سنوات من ظهوره المتعجرف على المسرح – ، وقبل وقت قصير من تدمير المدينة التى تحمل اسمه. وفى أوائل القرن السابع عشر جرى تدمير سبعة مراكز عمرانية أخرى فى المنطقة نفسها.

إن المقاومة التى قادها فى البدء الهنود الاراوكانيون، الذين استقر الإسبان بين ظهرانيهم بهدف استثمار المناجم، عرّضت عملية الاستيطان برمتها للخطر، فإضافة إلى استنزافه المتواصل لقوى الفاتحين، أدى النضال طويل الأمد الذى خاض غماره شعبٌ بكامله من أجل البقاء على قيد الحياة، إلى خلق المشاكل بين المستوطنين وفى المتروبول على حد سواء. وفعلاً، فإن معارضة الاستغلال الفاضح التى كانت تقتصر حتى ذلك الحين على بعض ذوى الأرواح السامية، أخذت تكسب أنصاراً على جميع المستويات، وأعربت عن نفسها بأشكال متعددة: الحكم بعذاب النار الأبدية على من يشارك فى حرب ظالمة كتلك؛ وأُقرت إصلاحات نسبية فى معاملة الوطنيين، وتحول الرهبان الفارون من محاكم التفتيش إلى قادة للمقاومة؛ ولوحظ أن اجتماعات رجال اللاهوت والحكماء أخذت تتزايد أكثر فأكثر؛ وصار الأسرى الأوربيون يقاتلون ضد مواطنيهم، كما أن السبايا الإسبانيات اللواتى انضوين إلى عشيرة المحرومين، كن يرفضن العودة مع منقذيهن من الإسبان، ويستنكرن عمى بصيرتهم.

أما مبادرات المصالحة التى جُربت بأساليب متنوعة وكثيرة، فكانت تصطدم دوماً بإرادة الاراوكانيين التى لا تلين، وإصرارهم على مواصلة النضال حتى النهاية. وأصبحت هذه المقاومة جبارة لا يمكن قهرها حين أجج أوارها وطنى كان يعرف الأوربيين ونواياهم وأحابيلهم، وعلى الرغم من أن المقاومة كانت منظمة قبله، إلا أن الحرب دخلت مرحلة مجيدة حين انتقل إلى معسكر الأراوكانيين شاب تعلم على يد الإسبان، فكان يعرف أن وضع حد لحالة الحرب لن يحمل إليهم، رغم الوعود، سوى الموت أو الاستعباد المحتم، واستناداً إلى هذه القناعة، صعّد سائس الخيل لاوتارو **Lautaro**

أفضل الحروب تنظيماً، وأكثرها حذقًا وفعالية فـى القارة؛ فكانت حربًا حامية الوطيس، تحركها مخيلة تتقن استخدام الرجال وتحريكهم بحنكة وحكمة، وتكتشف على الدوام استراتيجيات جديدة، وتشيد حصونًا، وتُظهر فـى كل لحظة احتياطيًا لا ينضب من الحنكة والحمية الوطنية. لقد قُتل القائد الإسبانى بالديبيا فى أول هجوم قاده لاوتارو، وأضحت آلية جيشه منيعة حتى وصل به الأمر، بعد انتصاره فـى الجنوب، إلى مهاجمة العاصمة. ومات لاوتارو إثر خيانة أتاحت مفاجأته وهو نائم، لكن المقاومة استمرت متأججة مثلما كانت، إذ إن "لاوتارو لم يكن زعيمًا عارضًا، بل انعكاسا ملهما بالعبقرية لروح شعب"[٥١]. ولقد عبّر كاويوليكان Caupolican ، بطل هذه المقاومة القديم، عن الفكرة نفسها قبل موته أيضًا :

فحتى لو قضيتُ هنا، على يديك، نحبى

فلا تظنن أن الدولة ستبقى دون رأس،

لأن ألف كاوبوليكان آخر سيخرجون بعدى[٥٢] ...

١٤ - عبودية دنيا :

وتكاثر الكاوبوليكانات فعلاً، ولكن لم تستطع البطولة ولا التضحية أن تحول دون خضوع الأراضى الأمريكية النهائى، عند التأمل فـى هذه الكارثة التى تبهت حيالها أرهب كوارث التاريخ، نصل إلى نتيجة مؤداها أنه لا يمكن تحديد النظام الذى ساد بعد الاستسلامات، فالاستبداد والدكتاتورية، بل والعبودية كذلك، تقتضى شيئًا من العناصر ذات البنية القانونية ونوعا من التوازنات فـى القوى وتكافؤًا فـى الاتفاقيات التى تجهل نصوصها تلك الجموع المُخضعة دون قيد أو شرط لجلادين متحررين من أية رقابة، تلك الجموع المحرومة من شخصيتها الأخلاقية ومن أدنى حماية مادية، إذ أنها حُرمت حتى من الأغذية الأساسية. فالتنظيم الاقتصادى لم يكن يرى من الإنتاج، الذى يعانى عجزًا كبيرًا، سوى ذاك المخصص للإسبان؛ وهكذا وجد السكان الأصليون أنفسهم، فـى حرمانهم الشامل، مضطرين إلى التغذى بالديدان والأعشاب والجذور. إن نقص اليد العاملة المرعب الذى نتج عن ذلك الإهمال، يتضح بجلاء من خلال

المراسيم التى كانت تصدر تباعًا آمرة المستثمرين أن يمنحوا الوطنيين الوقت اللازم لزراعة قوتهم من الذرة.

وفى هذا السياق وحده يمكن إدراك الأهمية التى يضفيها بالديبيا، فى رسائله إلى الإمبراطور، على كون رفاقه، وكونه هو شخصيًا، يهتمون بتغذية عمال المناجم فى جنوب تشيلي. فقد كان الإسبان هناك، وبسبب مقاومة الاروكانيين، محرومين من الاحتياطى البشرى الذى كان تحت تصرفهم فى أماكن أخرى، ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى حماية ضحاياهم، ليس من أجل الحصول على قليل من الذهب من الجبال وحسب، وإنما ليتمكنوا (أى الإسبان) من البقاء على قيد الحياة أيضًا. "... بعثتُ إلى المناجم فى الصيف الهنود الذين كانوا يخدموننا، وحملنا إليهم الطعام على خيولنا، حتى لا ننهك الوطنيين..."(٥٣).

هذه التعليقات القصيرة تثبت لنا أن أحد أسباب الوفيات المفرطة فى كثرتها، الناجمة عن العمل فى المناجم، هو ظروف نظام الاستغلال وانعدام التموين: فحين تنفد المؤن القليلة، كان الناس يموتون. ومن الجلي أنه لم يكن ممكنًا الحفاظ على مثل ذلك النظام إلا بالعنف، وهكذا فإن أول تحذيرات كورتيس، عند اقتسام السكان الأصليين - وهذا منهج قانونى يُفترض بأنه أُقر لحماية السكان من التعسف والاستعباد، فكلمة "الوصى encomendero"، التى تعنى السيد المالك، تقتضى الحماية -،كان إجبار مواطنيه على التمون بالأسلحة: "أنا هيرنان كورتيس ... آمر بأنه على كل مستوطن نال نصيبًا من اقتسام الهنود... أن يكون بحوزته رمح وسيف وخنجر وخوذة، وقاذفة سهام أو بندقية أو أسلحة دفاعية من أسلحة إسبانيا؛ وأن يكون كل ذلك جاهزًا ؛ ... وعلى المستوطنين الذين حصلوا على خمسمئة هندى وما فوق، حتى ألف هندي، عليهم أن يملكوا الأسلحة المنصوص عليها فى البند السابق؛ إضافة إلى حصان أو فرس مجهز السرج بكل المعدات الضرورية، ويجب اقتناء هذا الحصان أو الفرس خلال سنة من المناداة بهذه التعليمات، ومن لا يقتنيه كما هو مبين يُغرَّم بخمسين بيزو ذهبًا فى المرة الأولى، ثم تُضاعف الغرامة فى المرة الثانية، وفى المرة الثالثة يفقد حقه فى الهنود الذين يملكهم... والمستوطنون الذين حصلوا من الاقتسام على ألفى هندى وما فوق، عليهم حيازة الأسلحة المذكورة فى الأمر والحصان، كما أنهم مجبرون على حيازة حراب، وستة رماح، وأربع قاذفات سهام أو بنادق..."(٥٤).

أما المهزومون فلم ينتفعوا حتى من اللوائح والقوانين التى حولتهم إلى متاع واعتبرتهم ملكية خاصة، ذلك أن اللوائح التى أُقرت للتخفيف من المذابح لم تُحترم أبداً، على الرغم من القوانين التى سنها كورتيس ضد من يرفضون اعتبار الوطنيين "متاعاً شخصياً" ويدمرونهم بدلاً من أن يحموهم. ولا يمكن لشيء أن يوضح ذلك الهياج المدمر خيراً من الرؤيا التى توصل إليها بعض كهنة اسبانيولا حول الفاتحين، قبل سنوات طويلة من قدومهم. ففى تلك الجزيرة سادت عقيدة تقول بأنهم قد توسلوا فى زمن سابق إلى الإله، بعد خمسة أيام من الصوم والطقوس، كى يكشف لهم المستقبل، ورد الإله بأنه لشدة ورع الشعب، سيلغى القاعدة القاضية بوجوب جهل البشر بما سيأتى، وقدم إليهم النبوءة : "... قبل أن تمر سنوات طويلة، سيأتى إلى الجزيرة رجال ملتحون، يرتدون ملابس تغطى كامل الجسد، يشطرون الرجل إلى نصفين بضربة واحدة من السيوف البراقة التى يتزنرون بها، وسيلتقى هؤلاء بآلهة الأرض القدماء، فيسفهون طقوسهم المعهودة، ويهدرون دم أبنائهم أو يأخذونهم أسرى..."(٥٥). ويضيف الراوى بأنهم نظموا لتخليد تلك النبوءة الرهيبة، نشيداً يغنونه فى احتفالاتهم الكئيبة والحزينة، إن هذا التحديد القديم للواقع فى صورة مكثفة وصادقة، موجود فى التاريخ الأول لجزر الهند الذى ظهر سنة ١٥٥١، وقد خطّته ريشة أحد رجال الحاشية الذى كان يرمى أساساً إلى الإشادة بالفتح.

إن طبيعة النظام الاستعمارى والعلاقات التى كانت ظروفه تتيح إقرارها تتضح بصورة دقيقة عند معرفة الدور الذى لعبته الكلاب فى صراعات الغزو: فجريمة استخدام الكلاب لتمزيق الأجساد ترد فى جميع القضايا التى حاول خصوم الغزاة رفعها ضدهم، وقد كان هذا النوع من التعذيب يطبق بصورة قانونية ضد من لا يدفعون الأتاوات، ومما لا شك فيه أن انتشار تلك العادة يفسر لنا شراسة زعماء الهنود التالين، إذ إن هؤلاء، وبحكم مسؤوليتهم عن الجماعة كلها، كانوا هم أول الضحايا عند وقوع أدنى خطأ، ويذكر فيرنانديث دى أوفييدو أن شخصا اتهم من قبل زملائه بأنه حمل صفوفاً من الوطنيين لإطعام الكلاب. ومما له دلالته أن هذا المؤرخ لا يتوقف عند حد الحديث عن "مزايا تلك الكلاب" وحسب، بل إنه يقارن مآثرها، ويفضلها على بطولات القادة، قبل أن يستخلص من ذلك مغزى ذا علاقة بالشرف العسكرى.

فبعد أن يصف "البطل" وصفًا كاملاً - لون عينيه وفروته، ارتفاعه وطباعه وذكاءه - يعلن لنا : "... وما كان يفعله ذلك الكلب جعل المسيحيين يفكرون بأن الله قد أرسله لغوثهم... إذ إنه فعل أشياء مشهودة وعجيبة. فلو أن أسيراً فرّ في منتصف الليل، وكان على مسافة فرسخ من هناك، يكفي القول له: "اذهب وراء الهندى" أو "ابحث عنه"، حتى ينطلق فى أثره ويجده ويأتى به... وكان المسيحيون يرون أن عددهم يتضاعف وهم برفقته وأنهم يمضون بثقة أكبر. وهم فى ذلك محقون، لأن الهنود كانوا يخافون الكلاب أكثر من خوفهم من المسيحيين بكثير. وقد بقيت منه ذرية كلاب ممتازة فى الجزيرة [بويرتو ريكو]وكان بعضها يقلده ويشبهه كثيراً ..."(٥٦). ويعرض أوفييدو كذلك أولئك الملائكة الحافظين وهم يمارسون مهامهم فى إعدام "سبعة عشر أو ثمانية عشر" سيداً وطنياً، كان شاهداً عليه: "... فى يوم الثلاثاء، السابع عشر من حزيران (يونيو) من ذلك العام [١٥٢٨] ، وفى ساحة ليون [نيكاراجوا]، أعدموهم بهذه الطريقة: كانوا يقدمون للهندى عصا يحملها فى يده، ويقولون له باللسان المباشر أو بالترجمان بأنه عليه أن يدافع عن نفسه من الكلاب وأن يقتلها بالعصا. ثم يوجهون إلى كل هندى خمسة أو ستة جراء (ليدربها أصحابها على هذا العمل) ولأنها كلاب جديدة، فقد كانت تدور حول الهندى، نابحة عليه، فكان الهندى يضرب رأس واحد منها بالعصا. وحين يخيل إليه أنه قد انتصر عليها، يفلتون عليه كلبًا أو كلبين سلوقيين و دِرواسين بارعين، سرعان ما تطرح الهندى أرضًا، وتهجم الكلاب الأخرى عندئذ فتنهشه وتنزع أحشاءه وتأكل منه ما تشاء... وبعد أن شبعت الكلاب، بقى الهنود فى الميدان، إذ أُعلن أن من يرفع جثثهم من هناك سيلقى الميتة نفسها... ولأن الأرض كانت ساخنة، فقد تفسخت الجثث فى اليوم التالى، وبقيت هناك فى اليومين الثالث والرابع لترويع الهنود ولتكون عبرة لهم، وبما أنه كان علىّ أن أمر من هناك بالضرورة للذهاب إلى بيت الحاكم، فقد طلبتُ منه أن يتعطف ويسمح بنقلهم من هناك إلى الحقول أو إلى حيث يشاء، لأن تلك النتانة صارت لا تطاق، وبعد أن توسلت إليه، أنا وآخرون، ولأنه كان يتلقى نصيبًا من ذلك لوجود بيته فى الميدان نفسه، أمر الحاكم بالمناداة لنقل أولئك الهنود من هناك"(٥٧).

إن أشد مراحل الاستيطان وحشية تبدو إيجابية بالمقارنة مع وحشية العقود الأولى من الفتح: فقد بقى الهنود، بعد إخضاعهم، ضحايا الغضب المدمر الذى حمل الراهب لاس كاساس على التأكيد بأن أقل أساليب الإسبان فظاعة للحصول على العبيد كان أسلوب "الحرب الظالمة". وبعد سنوات طويلة من "فرض السلام" على المكسيك، وجد كورتيس نفسه مضطراً إلى اتخاذ إجراءات تهدف إلى وضع حد لعمليات التعذيب التى كانت ما تزال تُستخدم لسلب الذهب، موضحًا أن مواصلتها ستؤدى إلى إلحاق الأذى بالإسبان أنفسهم، وأنه لم يعد لدى السكان الأصليين أى شيء ثمين[٥٨]. وإذا ما تقصينا وحللنا الاتهامات التى أُبعد كورتيس بسببها عن الحكم فيما بعد، فإن المرء يقتنع بأن جريمته كانت فى نظر الفاتحين الآخرين هى أنه أراد تجنب تدمير العنصر البشرى الذى لا غنى عنه. ونتيجة للشكاوى والدسائس، وجه كارلوس الخامس توبيخاً إلى القائد العظيم "سابقًا" بسبب الحظر الذى فرضه على دخول مواطنيه إلى قرى الوطنيين، ويُلقى رد كورتيس ضوءاً مبهراً على نظام معاملة السكان الأصليين: "أما عن فحوى هذا الفصل من النظام، فأقول لكم يا مولاى إن مقاولة الإسبان وتجارتهم بأهالى هذه الأنحاء سيكون ضاراً ضرراً منقطع النظير؛ لأن السماح لهم بممارستها بحرية يلحق بالأهالى ضرراً معروفًا جيداً، ويعرضهم إلى كثير من السلب والقسوة وغير ذلك من المضايقات؛ لأنه على الرغم من الحظر المفروض والعقاب الصارم كى لا يخرجَ أى إسبانى من القرى التى سُكنت باسم جلالتكم، ويذهب إلى قرى الهنود أو إلى أى مكان دون تصريح خاص أو أمر تكليف، فإن آثامًا كثيرة تُقترف، ولولا أننا، أنا وسلطات العدالة التى لدى، نتولى الاهتمام بها، لما أمكن وضع حد لها... لأن الجشع إلى النهب يدفع الإسبان إلى الانتشار فى أنحاء كثيرة، فيلحق بهم الأهالى الأضرار المذكورة، وينفردون بهم واحداً واحداً، ودون خطر منهم يقتلونهم واحداً واحداً، وحتى دون أن يُعرف ذلك، مثلما حدث وفعلوه بكثيرين..."[٥٩].

هذا السلوك مؤكد فى التعامل مع النساء، وهو تصرف لا يختلف عن تصرف الجند بعد الانتصار. وقد كان اختطاف النساء والفتيات القاصرات، وأعمال الاغتصاب والقتل هى التى أثارت التذمر الوحيد القادر على اختراق جدار الصمت الذى أحاط بتلك المأساة الكبيرة؛ وهى الجرائم الوحيدة التى أدت إلى ثورات وأعمال مقاومة

مشهورة ومعارضة، سواء من جانب الفلاحين أو الزعماء المحليين. ويشير المؤرخ البيروى هوامان بوما دى ايالا Poma de Ayala إلى هذه الجائحة، وهى أشد الجوائح إيلامًا، وكان قد عانى بنفسه من آثارها المدمرة: "وبعد أن غزوا وسلبوا، بدؤوا ينتزعون النساء والبنات ويفتضونهن بالإكراه، فإذا ما رفضن قتلوهن مثل الكلاب أو عذبوهن دون خوف من الله أو من العدالة، لأنه لم يكن للعدالة من وجود"(٦٠).

لقد بلغ استهلاك المهاجمين للنساء حدًا جعل أعدادهن تتدنى بالنسبة إلى أعداد الرجال، بالرغم من الحروب وعمليات التقتيل التى كانت تحصد الذكور، حتى أن الشبان المحليين ما كانوا يجدون من يتزوجونها، وكان أحد "الأبطال" الفاتحين يتباهى باكتشاف يتيح له بيع عبداته الشابات بسعر أعلى: وذلك بأن يحبلّهن مسبقا. ويُروى أن سبعين خادمة قد وضعن مواليد فى أسبوع واحد فى معسكر إسبانى فى تشيلى(٦١).

لقد كان بإمكان أى شخص يتمتع بشيء من النفوذ أن يملك حريمًا حقيقيًا من أولئك الخادمات – الخليلات، وسرعان ما أصبح عدد الأطفال الذين يولدون من تلك العلاقات كبيراً لا يمكن حصره. وما يسجله المؤرخ فرانثيسكو إنثينا Encina عن عاصمة تشيلي، يمكن تعميمه على أميركا كلها: "فى حوالى سنة ١٥٥٠ كانت تهيم فى شوارع سنتياغو حشود من الصبية المولدين مختلطة مع الخنازير والماعز والكلاب"(٦٢). فإما أنهم كانوا يندمجون فى أسر المهزومين، أو يغرقون فى جمهرة المنبوذين الذين هم بلا عمل، والمستعدين لخدمة أخبث قضية، وكان أبناء زنا القرن الأول من الفتح أولئك موسومين بوسم كارثة يمكن أن يكون منشؤها أصلهم العرقى أو ظروفهم الاجتماعية على حد سواء. فعلى الرغم من أن مرسوماً صادراً سنة ١٥٠١ أباح الزواج المختلط، إلا أنه كان هناك تمييز عرقى على الدوام، كثيراً ما كان يتبلور فى قوانين. ويخبرنا عالم الاجتماع سيرجيو باغو Bagu، مستنداً إلى دراسة صارمة للوثائق بأنه: "جرى العمل فى جميع المستعمرات الإسبانية بعدد من الأوامر الملكية... التى تستبعد الهنود والزنوج والمتحدرين من اختلاط الأجناس من الوظائف العامة، ومن خدمة السلاح ومن مراكز الدراسة. لأنهم "أناس حقيرون" ترتجف لحضورهم الأرستقراطية النبيلة، وكان إخضاعهم بالقوة يُمرر بالتوسل إلى الملك، بينما كان ممثلو التاج يزعمون أنهم يحمونهم"(٦٣).

وخلافًا لسياسات بعض البلدان الأخرى - مثل تلك التى كانت تحاول "فَرْنَسة المتوحشين" مثلاً، والتى أدت إلى نشوء مناطق استقرار سكانى راسخة فـى الغرب الكندى -، فإن سياسة الإسبان وقفت دومًا موقف المعارض من الخلاسية: فإثبات نقاء الدم كان شرطًا قانونيًا لا بد منه للتقدم بأى طلب قبل القرن التاسع عشر. وإنه لأمر ذو مغزى كاشف أن كورتيس، حين أراد أن يحل قضية الخلافات الحادة، أعلن أنه يود أن "يُشرِّف هذه الأنحاء" عن طريق الزواج الشرعى، لم يفكر فـى الوطنيات، وإنما أمر الرجال المتزوجين بأن يأتوا بزوجاتهم من إسبانيا تحت طائلـة معاقبة من لا يفعل ذلك بـ "فقدان الهنود الذين يملكهم وكل مـا حصل عليه من عملهم"؛ وأمر العازبين بأن يتزوجوا "فليأتوا بزوجات لهم إلى هذه الأرضي، خـلال سنة ونصف سنة من تاريخ إصدار هذا الأمر"(٦٤). وفـى واحدة من الرسائل الكثيرة التى بعث بها بعد زمن طويل، وفـى معرض الدفاع الذاتى، يكرر قناعته بضرورة زواج الإسبان: "... يجب إصدار أمر كى يتزوج كثيرون حتى تتكاثر أمتنا، وتعمر الأرض بمسيحيين قدماء ووطنيين من هذه الممالك، ويمكن لجلالتكم أن تحققوا ذلك بأن تسبغوا الفضل والألقاب الطيبة على النساء اللواتى يرغبن فـى المجىء إلى هنا"(٦٥).

ونرى بالفعل كيف أن أميرات وطنيات باهرات الجمال ورائعات الخلق قد هجرهن فجأة عسكرى عادى بعد زواجه من إسبانية مستوردة؛ فوالدة الكاتب العظيم غارثيلاسو دى لا فيغا - وهى امرأة فاضلة من نواح كثيرة - عانت هذا المصير نفسه بعد سنوات من الحياة مع والد ابنها، والاستثناءات النادرة عن هذه القاعدة تتعلق بنساء يمثلن قوة سياسية لا يمكن استرضاءهن بأسلوب آخر إلا بصعوبة، وهذه هى حال شقيقة الملك أتاهوالبا التى حوّل جمالها بيثارو نفسه إلى شاعر غنائى، فجعل منها محظية له، ثم "منحها" بعد ذلك كزوجة لجندى مغمور من جنوده. وهى الحالة نفسها التى انتهت إليها مارينا، عشيقة كورتيس، التى أتاحت له فتح المكسيك بفضل موهبتها فـى معرفة اللغات وعادات ونفسية الوطنيين، وقد زوجها كورتيس فيما بعد إلى أحد مرتزقته ، وهذه هى أيضًا حال إحدى بنات موكتيزوما التى يكشف زوجها لفيرنانديث دى أفييدو فرادة اختياره لها، مشيداً بفضائل السيدة وبالفوائد الاجتماعية التى جناها الإسبان من هذا الزواج : "... أنا تزوجت من ابنـة شرعية لموكتيزوما،

تدعى دونيا ايزابيل. ولو أن هذه المرأة ترعرعت فى إسبانيا، لما كانت أكثر تعلمًا وحكمة وكاثوليكية، ولما كانت أفضل حديثًا ولباقة، فأسلوبها وظرفها يفرحانكم. وهى ليست قليلة النفع والفائدة فى تهدئة وتسكين وطنيي هذه الديار، فلأنها سيدة فى جميع شؤونها، وصديقة للمسيحيين، فإنها تبعث بوقارها ومثالها مزيداً من الطمأنينة والهدوء فى نفوس المكسيكيين..."[٦٦] وإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه السيدة ايزابيل لم تكن إلا أرملة الكاهن كواوهتيموك، فإن الأسباب السياسية لهذا الزواج تصبح واضحة ولا تقبل الشك.

والواقع أنه لا يوجد ما هو أكثر تواتراً من أخبار ذلك التمييز تجاه أفراد مجتمع دُمر برضاه، وقد تصرف الأوربيون معه كـ "جلادى أو محضرى أو مأمورى الشيطان، مستخدمين سيوفًا وأسلحة أشد فتكًا من أنياب واندفاع النمور والذئاب، ومقترفين أصنافاً من الميتات المتنوعة والفظيعة التى لا تعد ولا تحصى كائنها النجوم..."[٦٧].

والموتى يعدون بالملايين فعلاً؛ وأرقام شهود العيان التى كانت تعتبر مغالية فيما مضى، اتضح أنها كانت متواضعة على ضوء الأبحاث الحالية التى تسعى جاهدة لإعادة بناء الأطر الديموغرافية للقارة عند وصول الإسبان إليها. وكثيراً ما تكشف النتائج عن فروقات كبيرة بينها، كما أن المناظرات التى تثيرها تكون عنيفة أحياناً. لقد كان عدد سكان جزيرة اسبانيولا عند بدء الفتح، على سبيل المثال، يتراوح ما بين مئة ألف[٦٨] ومليون ومئة ألف نسمة، وهو رقم وارد فى الوثائق القديمة - كتابات كولومبس وأخرى غيرها -، وهى تقديرات تستند إلى الإحصاءات التى أجريت فى ذلك الحين لإقرار نظام الأتاوات ويؤكدها المؤرخون المعاصرون، وتصل الخلافات فى تقدير عدد السكان إلى حدود لا يمكن المصالحة فيما بينها حين يتعلق الأمر بالمكسيك: فالسوسيولوجى المكسيكى اللامع ميغيل اوثون دى مينديثابال Mendizabal ، يوافق على أنه كان هناك ما مجموعه تسعة ملايين نسمة؛ ويرى آنخل روسينبلات Rosenblat أن العدد هو أربعة ملايين وخمسمئة ألف نسمة، بينما يقدم فريق باحثى جامعة بيركلى الرقم ستة عشر مليونًا وثمانمئة ألف نسمة لمنطقة وسط المكسيك وحدها.

وعلى الرغم من الفروقات بين هذه الأرقام، ومهما تكن المناهج المتبعة وصرامة الباحثين والمنطقة موضع البحث، فإن النتائج المتعلقة بتناقص السكان تأتى متماثلة

عـلى الـدوام بصـورة حسـاسة؛ ونسبة الانخفـاض فى عـدد السكان تـتراوح ما بين ٧٥ و ٩٥ بالمئة، وذلك حسب أهمية المناطق اقتصادياً واجتماعياً ومدى قربها أو بعدها عن العواصم، فبوراه Borah وكوك Cook يؤكدان أن الستة عشر مليوناً وثمانمئة ألف هندى الذين كانوا موجودين عام ١٥٣٢، تقلصوا إلى مليون وستمئة وخمسة عشر ألفاً عام ١٦٠٥ ؛ ويؤكد الاختصاصى تشارلز جيبسون أن ساكنى الهضبة المكسيكية – مليون ونصف المليون – لم يعد عددهم يتجاوز السبعين ألفًا عند نهاية القرن. ويصل المؤرخ خوان فريدى Freide ، فى دراساته النموذجية حول ماضى كولومبيا، إلى أرقام قريبة جداً من هذه الأرقام عندما يتحدث عن المتبقين على قيد الحياة.

إن الأرقام التى توصل إليها بعض الأكاديميين المحايدين تكشف لنا واقعًا فظيعًا مماثلاً لذلك الواقع الذى يصفه أوفييدو، وما إعادة بناء تطور دوامة تدمير الكائنات البشرية تلك إلا معادلاً لرواية التاريخ المشين لقرن من الاحتلال، واستذكار آلاف التفاصيل المعروفة بشكل أولى من خلال الاتهامات التى كان أحد المشاركين فى الجريمة ينتهى عادة إلى الإفضاء بها للسلطات، ضد الفاتحين: وهى تفاصيل بالغة الفظاعة لا تحتاج لشدة وضوحها إلى كثير من التوقف والتمعن.

ولأن الإحصاءات تُظهر ارتفاعًا فى معدل الوفيات كلما استقر نظام الاستيطان، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتقاد، مثل لاس كاساس، بأن نظام "الوصاية" المتعلق بتوزيع السكان، كان أكثر دموية من المعارك. إن دراسة متأنية للضرائب والأتاوات أتاحت لأوثون دى مينديثال أن يؤكد أن ٦٨ بالمئة من الخسائر البشرية التى تعرضت لها يوكاتان، كان نتيجة اقتسام الأرض؛ وأن ٣٢ بالمئة من السكان الذين نجوا بعد انتهاء مرحلة الفتوح، استمروا فى الحياة ثلاثين سنة بعد فرض "نظام الوصاية"، من عام ١٥٤٩ وحتى عام ١٥٧٩[٦٩]. ومع ذلك فإن كورتيس، الذى كان فى وضع يؤهله لمعرفة الحقيقة أكثر من سواه، يتساءل إذا ما كان تناقص السكان الذى يلحظه سواء فى الجزر أو فى المكسيك، هو بسبب الحروب أم بسبب الحكام[٧٠]؛ ولكنه فى رسالة موجهة إلى الإمبراطور سنة ١٥٣٠ – بعد أقل من عشر سنوات على سقوط تينوتشتيتلان – يبدد شكوكاً كثيرة : "... وأؤكد لجلالتكم أنه إذا ما استمرت هذه

الحال، فإنهم سيوصلونها فى زمن قصير إلى ما وصلت إليه اسبانيولا والجزر الأخرى. لأن السكان المحليين قد تناقصوا إلى النصف بسبب التنكيل وسوء المعاملة التى يلقونها..."(٧١).

١٥ - أصداء الإبادة :

يظن الكثيرون أن تلك الإبادة التى لم يُعرف لها مثيل قد مرت، فى ذلك العهد، دون أن تثير سوى عدم المبالاة أو الإجماع العام عليها. ولكن الأمور لم تكن كذلك: فالإجراءات القانونية الكثيرة المتخذة لمعالجة الكارثة؛ واحتدام الخلافات، واتخاذ المواقف المدافعة والمهاجمة؛ واجتماعات الجمعيات الصاخبة، ونشاط رجال الإفتاء واللاهوت، تثبت جميعها أن إسبانيا قد اهتزت بتيار رأى قوى، حتى أن موظفًا كبيراً تولى رسمياً، سنة ١٥٥٠، مهمة تبرير حق التاج بأميركا؛ وهو الحق الذى تبين، بفضل هذا التبرير، أنه أقل طبيعية مما كان يقال عنه.

لقد أنيطت تلك المهمة بالمؤرخ الإمبراطورى خوان خينيس دى سيبولبيدا Sepulveda، الذى عرض المسألة الملتهبة على شكل حوار، بلهجة رصينة وعالية، ولكنه قدم محاوره على أنه "ألمانى مصاب بلوثة الخطايا اللوثرية "(٧٢)؛ وعلى أنه، منذ البداية، مواطن غير جدير بالاعتبار، وضحية مفترضة لمحاكم التفتيش المقدسة، والنهاية التى يرمى إليها كانت واضحة منذ الديباجة، حيث يعترف اللاهوتى اللامع بأنه يكتب "لكى يقنع الهراطقة الذين يدينون أى حرب ويعتبرونها محرمة فى القانون الإلهى"(٧٣)؛ وجميع أسئلة محاوره الألمانى تنبعث منها رائحة الهرطقة، ويستمر هذا الاتهام بالكفر على امتداد الحوار الذى يحاول أن يكون سقراطيا. ومحامى الهرطقة الأول الذى يتمسك برفض حق الاعتداء، هو لاس كاساس، بأفعاله "المؤيدة للهنود" وحماسه الذى لا يكل فى هذا المجال، وبتدخلاته وتحريماته، وبالرغم من عدم ذكره باسمه الصريح مطلقا، فإن بيان القدح ذاك موجه ضده، فضلاً عن أن سيبولبيدا كان قد اتهم لاس كاساس علناً فى أكثر من مناسبة، بأنه "كرس اهتمامًا وجهداً كبيرين لإغلاق أبواب التبرير وتفنيد جميع المستندات التى تستند إليها عدالة الإمبراطور، مانحًا بذلك فرصة ليست بالصغيرة للرجال الليبراليين... كى يفكروا ويقولوا إن كل نيتهم هى إفهام العالم بأسره

أن ملوك قشتالة يهيمنون على إمبراطورية بلاد الهند بالطغيان وبصورة مناقضة لأى شكل من أشكال العدالة..."[٧٤].

ولأن الأمر يتعلق بجدال ما زال قائمًا، وبحجج مازالت تُستخدم لتبرير الاستغلال المتعسف لأميركا اللاتينية، فإننا سنرى كيف يقارع سيبولبيدا خصمه لاس كاساس فى الكتاب الذى يفترض به أن يضع حدا للمعارضة، مبينا فى طروحاته "الأسباب العادلة للحرب ضد الهنود". وبالرغم من أن وضع الأجنبى الذى نُسب إلى الخصم المفترض [بجعله ألمانيًا] جاء ليقول كما يبدو، إنه لا يمكن لإسبانى أن يروج مثل تلك *الشكوك الخبيثة*، إلا أن كلام سيبولبيدا يترك انطباعًا بأنه يواصل جدالاً مسموعًا ومكرراً مرات ومرات. فتمرسه فى هذا النوع من المجادلات التى يعترف بها هو نفسه، وكذلك الحماس الذى يوليه للتعامل مع محاوره المشبوه المدعو ليوبولدو، هو دليل على أن هذا النص يعكس بأمانة جدالاً عاشه بزخم. فبعد تأنيب خفيف: "ها أنتذا ترجع إلى هُرائك يا ليوبولدو..."(ص٥٥)، ينطلق اللاهوتى فى إجراء تحليل للحق الطبيعى والإلهى يبعث على الحيرة، ذلك أن الاستشهادات التى يلتقطها من حكماء الكنيسة للدفاع عن الحرب الصليبية، تزخر، بدلاً من ذلك، بآراء فى مصلحة الأهالى المُهَاجَمين، فالاستشهادات الوحيدة التى يمكن لها أن تنسب فعلاً إلى البابا اينوسينسيو هى تأكيده أن السبب الأكثر أهمية وطبيعية لشن حرب عادلة هو ردع القوة بالقوة (ص٧٥)؛ ورأى القديس إيسيدرو San Isidro ، الذى لا يمكن بمقتضاه لأى حرب أن تكون عادلة حقاً ما لم يتم الإعلان عنها مسبقًا (ص ٦٩) أو القديس أغوسطين San Agustin فى تصريحه بأن حربًا تُشن بهدف الحصول على مغانم هى عمل آثم (ص٧١). ويحدث الشىء نفسه فى *النقطة الثانية* – تبرير *الحرب*: لاسترداد ما انتُزع ظلمًا – ، وكذلك النقطة الثالثة: الثأر لانتهاك حرمة أحد أعضاء الجماعة أو موته(ص ٧٧ – ٧٩). ويمكن لنا الإحساس بطعم شذوذ هذه الذرائع الواهية بصورة أفضل إذا علمنا أنه كانت لدى الحكيم سيبولبيدا معلومات دقيقة عن "بطولات مواطنيه" إلى الحد الذى يجعله يكثر من تذكر شططها وغلوها، ويؤكد الرضا الإلهى عن العمل الذى لا يتردد فى وصفه باسمه الحقيقى : "*إبادة أولئك البرابرة*"(ص ١١٥).

وتمنعه صرامته من أن يأتى على ذكر المِيتات والأساليب التى أبيد بها المهزومون، ولكن سيبولبيدا يلجأ عندئذ إلى سلطة أرسطوطاليس ليجد، أخيراً، مبرراً لحرب عادلة: من الحق استخدام قوة السلاح لإخضاع أولئك المحكومين بطبيعتهم بالإذعان (ص٨١)؛ فالكامل يجب أن يسود على الناقص، والمتفوق على نقيضه (ص٨٣): والبشر والحيوانات على السواء محكومون بهذا العرف؛ ومن هنا كانت سيطرة الإنسان على الضوارى وهيمنة الرجل على المرأة (ص٨٥). ولا يمكن إلا للجاهل وحده، الذى لم يتجاوز عتبة المعرفة الفلسفية، أن يشكك بهذه الحقائق العميقة (ص٨١).

لقد كانت الأوراق مطروحة، وعلى هذه الأرض الصلبة، جاءت البرهنة على مسألة المتفوق ونقيضه لتتيح للاهوتى سيبولبيدا أن يورد فقرات بلاغية جميلة، فتقريظ الإسبان يمتد على عدة صفحات، ولا يترك شيئًا مما تميل إليه أشد هذيانات التمجيد العنصرى فى كل الأزمان: الفرق الأساسى بين هذه الكائنات النبيلة، الذكية، الفاضلة، الإنسانية، الخ... والبرابرة هو الفرق نفسه الذى يميز البشر عن القرود (ص ١٠١)، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى استخدام فنون الصيد، ليس ضد الحيوانات وحدها، وإنما كذلك ضد أولئك البشر الذين ولدوا ليكونوا خاضعين، ولكنهم مع ذلك يأبون العبودية (ص ٨٧).

إن هذه الطروحات القروسطية التى كانت فعالة خلال قرون طويلة لإخضاع أى نوع من أنواع الكفر، لم تطرح للنقد بهذه الطريقة إلا لأنها أصبحت موضع شك. والدليل على ذلك موجود فى أنها قوبلت باللوم من جانب السلطات نفسها التى طلبت المساعدة من اللاهوتى سيبولبيدا، وفى أن نشر مخطوطته قد قوبل بالرفض على التوالى من قبل مجلس بلاد الهند Consejo de Indias والمجلس الملكى، بعد أن رفضتها جامعتا سلمنكا وألكالا، وكانتا قد استُشيرتا بشأنها، وأعلنتا أنها عمل غير مرغوب فيه، "بسبب مذهبه الوخيم"(٧٥). وتمكن سيبولبيدا الغاضب، من طباعة الكتاب فى روما، إلا أن الإمبراطور الإسبانى أمر بسحب النسخ التى تسربت إلى البلاد من التداول.

ولا يمكن لأى شىء أن يكون أكثر بلاغة من هذه الصرامة الرسمية حيال نديم قوى النفوذ، كان يؤمل منه أن يأتى بالخلاص الأخلاقى لحركة وعى واسعة النطاق

راحت تثير القلق الروحى، وهى الحركة التى أكد على وجودها سيبولبيدا نفسه حين عرض على محاوره المفاهيم التى سنقدم نماذج منها :

"ليوبولدو : ... منذ بضعة أيام، وبينما أنا أتمشى مع أصدقاء آخرين فى قصر الأمير فيليبه، تصادف مرور هيرنان كورتيس، مركيز دل باييه، وعندما رأيناه بدأنا حديثاً مطولاً عن المآثر التى حققها هو وسواه من قادة القيصر فى الميدان الغربى والجنوبى الذى كان مجهولاً تماماً بالنسبة لسكان عالمنا القدماء. وكانت هذه الأمور بالنسبة لى موضع تقدير كبير لأنها عظيمة وجديدة وغير متوقعة؛ ولكننى حين أمعنت التفكير فيها فيما بعد، خامرنى شك يتمثل فى معرفة إذا ما كانت الحرب التى شنها الإسبان على أولئك البشر الأبرياء الذين لم يُلحقوا بهم أى أذى، تتفق مع العدالة والرحمة المسيحيتين ..."(ص . ص٥٧ - ٥٩).

"... لكى تكون الحرب عادلة يا ديمقراطيس، فإنها تحتاج، حسب رأيك أنت، إلى غاية خيِّرة واستقامة فى العمل، ولكن هذه الحرب على البرابرة لا تُشن، كما بلغنى، بنوايا خيرة، لأنه لا غاية لمن شنوها إلا غنم أكبر قدر من الذهب والفضة طوعاً أو كُرهاً"(ص ٩٥).

"نصل إذن، إن كان هذا يرضيك، إلى مسألة أخرى، ليس تنوع آراء الرجال الصالحين الأتقياء حولها بأقل، أإذا كان أولئك البشر برابرة وعبيداً بالفطرة، حتى ولو أضيف إلى ذلك وقوعهم فى الخطيئة الفاحشة والوثنية، أيكون من العدل أن يقوم الرجال الأذكياء العادلون والصالحون بتجريدهم من حقولهم ومدنهم ومن ثرواتهم وحريتهم المدنية، وهو ما أقدم عليه، كما علمتُ، كثيرون بجشع وقسوة كبيرين؟ وهل لأن أولئك التعساء ولدوا ليكونوا مأمورين لا آمرين، يجب أن يحرموا من الحرية المدنية؟ وهل لأنهم فاجرون لا يدينون بالمسيحية، يصبحون غير جديرين بأن يكونوا سادة بيوتهم وعقاراتهم؟ "(ص ١٥٧).

ويمكن أن نميز هنا بوضوح أصداء كلمات لاس كاساس. فالتأثير الذى كان يحدثه فى إسبانيا ذلك الصوت العظيم الذى لا يلين، يؤكده هذا الفيض من التضلع الفارغ فى المعرفة، ومن تقديم البراهين حتى على ما هو غير معقول - ألا يؤكد

سيبولبيدا على أن جشع الفاتحين هو نعمة للضحايا(ص ١٦٣)، وأن المهزوم هو المذنب الوحيد فـي أعمال السلب والنهب؟ (ص ١٦٩)، ويحاول ممثل الفاتحين بتلك التأكيدات أن يقلص حجم الفضيحة وأن يبدد السخط. وعلى عكس كل ما يمكن توقعه، فقد ثبت أن الحظر الذى عاقب به كارلوس الخامس كتاب سيبولبيدا، قد استمر لعدة قرون؛ ذلك أن الطبعة الأولى فـي إسبانيا تحمل تاريخ العام ١٨٩٢، أما أشد كتابات لاس كاساس قسوة، فإنها بالمقابل لم تنتشر وتوزع بكثرة وحسب، بل كان صاحبها الراهب الدومينكانى المندفع نفسه يلقى دائماً الآذان الصاغية والاحترام سواء من قبل الملك أو من قبل أصحاب المناصب السامية فـي الدولة والمجلس والكنيسة. ومما يريح النفس، مثلاً، رؤية راهب – هو متلقى اعترافات الإمبراطور – مكلف بتلخيص بيانات الخصمين عندما تقابلا بحضور أبرز علماء المملكة، يتحزب إلى لاس كاساس، ويصل به الأمر إلى حد السخرية من طروحات سيبولبيدا[٧٦].

ويقدم لاس كاساس نفسه تفسيراً لهذا الدعم الرسمى الذى يثير الحيرة للوهلة الأولى، وذلك عندما انهمك فـي إثبات إخفاق الفتح منذ عام ١٥٥٠ . فهو يعرض أسباب المصاعب الاقتصادية لإمبراطورية تلقت كميات من الذهب والفضة أكبر مما يمكن رؤيته فـي أى منطقة أخرى من العالم. فالنقاط الأربع فـي عريضته التى حاول أن يقنع بها كارلوس الخامس بوجوب تدخله فـي سياسة ما وراء البحار – لأنه مع انتهاء الفتح كان لا بد من إنقاذ حياة البشر – تستند إلى حجج ذات أهمية اقتصادية وليست إنسانية: إذ لا يمكن مواجهة الكارثة التى تقترب ما لم يُوضع حد فورى للمذابح، ولو فكرنا فـي أن النصف الثانى من القرن السادس عشر، لم يكن بالنسبة إلى إسبانيا إلا مسيرة نحو إفلاس مالى سيودى بسمعتها لمئات السنين، فإنه لا يمكننا إلا أن نقدر الألمعية السياسية لهذا المُدافع عن أكبر قضية إنسانية خاسرة، فالانهيار الاقتصادى لأمة غارقة فـي المعادن الثمينة، والجوع الذى يدمر البلاد التى تملك إمبراطورية "لا تغيب عنها الشمس"؛ والخراب الشامل الذى سببه ارتفاع مريع فـي الأسعار؛ جميع هذه الظواهر المعقدة الناشئة فـي فجر الرأسمالية كانت مفهومة تماماً من قبل لاس كاساس الذى جعل منها ركيزة لمداخلاته المؤثرة، وأوجزها جوهريا فـي كل صفحة من كتاباته: "لأن جلالتكم وتاجكم الملكى تخسرون كنوزاً وثروات كبيرة يمكن الحفاظ عليها بالتمام،

سـواء من خـلال الأقنان الهنود أو السكان الإسـبـان، ويمكن لهـذه الثـروات أن تصـبح كبيرة جداً وهـائلة إذا مـا تُرك الهنود أحياء، ولن تصير كذلك إذا أفنى الهنود..."[٧٧].
وفعلاً، لو أن الفـاتحين – بدلاً من أن يستوردوا كل شىء من المتروبول – بذلوا جهودهم لتـأمين الاكتـفاء الذاتي باسـتخدام الأيدى العاملة المحلية التى لا شك فـى براعتهـا فـى الزراعة والفنون والمهن، لربما كان بالإمكان تجنب ذلك التضخم المشؤوم الذى تسبب به ذهب أميركا. وقد كان ذلك الخطر جليًا إلى حـــد أن "مجلس الكورتيـــس [البرلمان] لعام ١٥٤٨ أبدى فزعه أمام الطلبات الواردة من أميركا، ووصل به الأمر إلى الاقتراح على الإمبـراطور أن يشجـع تطوير الصناعات فـى المستعمـرات لوقف التصـدير، الذى صـار يعتبر كارثياً، من شبه الجزيرة [الإيبيريه] إلى العالم الجديد"[٧٨]. وكان العمل بذلك الاقتـراح يستدعى انتزاع الوطنيين من أيدى جلاديهم. ولكن مثال لاس كاسـاس يثبت أن المهمة التى كرس من أجلها خمسين سنة من النشاط منقطع النظير كانت أكبر من كل الجـــهـــود والقــوى. ونحن نرى أن الدعم الذى لاقـاه هـذا المدافـع العنيـد عن المستضعفين كان يستند إلى تلك الازدواجية فـى المصلحة. فالمصالح الآنية للفـاتحين، ممثلين بسيبولبيدا، تتنـاقض مع السيـاسـة الاسـتعمـارية طويلة الأمـد، وهـى السيـاسـة الوحيدة التى كان يمكن لها أن تُثرى إسبانيا بدلاً من أن تغرقها فـى البؤس.

صـحيح أن فـيرنانديث دى أوفـييدو كان قد أشـــار إلى الخـــلل نفسه علنًا منذ عام ١٥٢٦، ولكن بُعد نظره ذاك قوبل بالتسامح بسبب مشاركته النشطة فـى الفتوح وموقـفه الغـامض من الممارسـات التى كـان يستنكرهـا، ولكنه كان يسـتـفـيد منهـا فـى الوقت نفسـه. ولذا فـقد هاجمـه لاس كاسـاس بالرغم من أنه قـرأ الفقـرة التـاليـة من الموجز: "... وفـى حال عدم إهتداء هؤلاء فإنهم يموتون، ويمكن لهم إذا ما بقوا أحياء، أن يكونوا ذوى فـائدة لخدمـة جـلالتكم ولمنفعـة وفـائدة المسـيـحـيين، ولكى لا تخلو من السكان أى بقعة من الأرض، لأن ذلك أفقرها من الناس..."[٧٩].

ومع انعتاق أميركا واستقلالها النهائى، انقلب مصير هذين الاتجاهين : فطروحات سيبولبيدا راحت تطفى شيئًا فشيئًا على طروحات خصمـه؛ وتعرضت معـركة لاس كاسـاس النبيلة للافتراء والتشويه، وحوِّلت إلى حملة للطعن بإسبانيا، وأُثيب المُدافع عن المنتصرين بخلود الذكر: فهمجية الوطنيين والرذائل المتسلطة عليهم تحولت إلى عقائد

راسخة، كما ترسخت بالمقابل قداسة الحرب ضدهم ونبل روح الفاتحين. ولأن ذلك التناحر قد ازداد رسوخًا بدلاً من أن يختفي، فإننا سنلقي نظرة إلى أسباب مناظرة مازالت، كما نرى، بعيدة عن أن يدفعها تقادم العهد إلى النسيان.

إن إعادة نبش كتاب سيبولبيدا، وأخلاقياته المفصلة على مقاس الفاتحين والأوصياء على الأهالي فى المستعمرات، وتبريراته باسم الدونية العرقية، تبدو مفاجئة لأنها تأتى بعد حروب استقلال الأمم الأمريكية، وفى لحظة مصالحة ظاهرية مع الماضي الوطنى المدمَّر، ولأن مناقشة هذه المواضيع تكتسب اليوم أيضًا قوة نضالية. فبالرغم من أن أكاديميى القرن السابع عشر الذين أعادوا جمع وتحقيق كتابات سيبولبيدا رأوا أنه من الحكمة إغفال مُؤلَّفه المحزن "حول الأسباب العادلة للحرب ضد الهنود"، وبالرغم من أن العَلاَّمة مينينديث أى بيلايو يعترف فى عام ١٨٩٢، على الرغم من تقديره، بالمغالطات التاريخية فى الكتاب ("... لم يكن ممكناً لهذا الكتيب فى القرن الماضي، مثلما لا يمكن له الآن أن يتمتع إلا بقدر ضئيل من الأهمية التاريخية")[٨٠]، فإننا نجد اليوم بعض المؤرخين الذين لا يكتفون بتأكيد تفوق سيبولبيدا على لاس كاساس، بل يعلنون دون مواربة بأنه "رائد تيارات ثقافية جديدة"[٨١]. وحيث إن هذه التصريحات قد ظهرت فى واحد من أهم أعمال لاس كاساس نفسه، وهو مؤلَّف نشره معهد التاريخ فى جامعة مكسيكو الوطنية عام ١٩٦٧، بمناسبة مرور أربعمئة عام على وفاة المؤلف، فإننا نرى أنه من المفيد التوقف عند هذه الظاهرة.

من المألوف سماع تأكيدات تقول إن مصدر الإهمال الذى عاناه لاس كاساس هو "الأسطورة السوداء" التى صيغت ضد بلاده. وحتى لو تقبلنا الحيلة التى تحوّل الشاهد إلى مجرم، فإننا نرى أن تلك التأكيدات تُبين لنا أنه لا يمكن لأى اتهام أن يكون أكثر فظاظة من الأحداث ذاتها، فعندما يكون فيرنانديث دى أوفييدو، على سبيل المثال، صريحا، فإنه يلقى على الحرب الصليبية الإسبانية فى أميركا ضوءاً أكثر قسوة وكشفاً مما يفعله لاس كاساس، ذلك أنه يقتصر على إيراد الوقائع ولا يكاد تأثره يرتفع مطلقاً إلى ما هو أبعد من الشكاوى والتذمرات الشخصية ، أما لاس كاساس الذى كان يتعذب لمعاناة الضحايا والكارثة الوطنية التى تجلبها تلك المذبحة، فإنه يقدم تقييمات، ويرفع تقارير، ويعرض إصلاحات، ويضع تعليلات ومفاهيم تستفيد فيها الجرائم من

عملية تجريد، تُفقدها التأثير الذى نجده عند أوفييدو. إن ما يزعج هو، بالضبط، هذا الدمج للجريمة مع قرائن تعزلها، وتجعلها موضوعية. وبدون ذلك لا يمكننا أن نفهم لماذا لا تثير رواية مآثر شخص مثل كورتيس أو بالديبيا إلا التقدير عندما يرويها هو نفسه، بينما تثور الحفائظ على لاس كاساس عندما لا يفعل شيئاً أكثر من تكرار تلك الأعمال التى يتبجحون بها ، ذلك أن أوفييدو أو أى فاتح آخر لم يكن يحلم، ليس بمجرد الكلام، بل وبالتفكير أيضا ، بأن الهنود قد يُقَيِّمون يوماً كالأوربيين، وأن يأتى من يرى أن الوثنية الحقيقية هى وثنية الإسبان حيال الذهب. فلاس كاساس، بوصفه أسقف تشياباس، يقول إن "متلقى الاعتراف لا يستطيعون أن يغفروا للغاصبين، كما هو حال جميع فاتحى بلاد الهند"[٨٢] و"حتى لو كان للمتوفى منهم مئة ابن شرعى، فإنه يجب عدم إعطائهم أو تخصيصهم بمرابطى(*) واحد... لأنه لا حق لأى من هؤلاء الفاتحين بمرابطى واحد مما يملكه... لأنه ليس من المشروع العيش بترف ورفعة من أملاك أناس آخرين لا يدينون له بشىء"[٨٣]. إنه مقتنع تماما بمساواة الوطنيين أخلاقياً إلى حد التأكيد بأنه "لا يمكن للحبر الأعظم، ولا أى حبر آخر على الأرض... أن يجرد أو يحرم المؤمنين ولا الكافرين، دون سبب مشروع، من أراضيهم أو مكانتهم الملكية أو القانونية، أو ممتلكاتهم العامة أو الخاصة"[٨٤]؛ بل إنه يجيز إحدى مذابح الرهبان - أرادوا أن ينصبوا له فخا بها ويوقعوه فى تناقض -، عندما أكد أنه لو وصل الأمر بالوطنيين حتى إلى قتل جميع الرهبان لما فقدوا حقهم فى الاستقلال الذاتى، لأن ما عانوه من آلام يمنحهم الحق فى خوض قتال عادل ضد الإسبان حتى يوم القيامة[٨٥]. فحرب هؤلاء الإسبان أخبث من حرب الأتراك، لأنهم بدل أن يكونوا كالنعجة بين الذئاب، مثلما يقول الإنجيل، كانوا ذئاباً عدوانية ولصوصاً بين نعاج شديدة الوداعة والبساطة. ويقر من جهة أخرى بمهابة، بحق العاهل الوطنى فى أى منطقة مغزوة بقتل كل من يستطيع قتلهم من الغزاة؛ ويدين الملك الطيب غواكاناغارى لأنه ساعد كولومبس عندما فقد هذا الأخير إحدى سفنه الشراعية، ولوفائه لغرباء حوّلوا شعبه إلى عدو لهم[٨٦]؛ ويثور ضد تسمية "القطعة" التى كان يطلقها الإسبان على الوطنى.

(*) المرابطى (maravedi) : وحدة النقد فى إسبانيا فى ذلك العصر .

إن الشراسة التى دافع بها لاس كاساس عن القيم الروحية للمهزومين، مستخفا بأبسط معانى التحفظ والحذر؛ ومعارضته العنيدة لأى حرب من حروب الغزو؛ وإدراكه للتنوع الذى أتاح له الالتصاق بواقع يقلب المقولات القائمة؛ وجهوده فى الضغط على نفسه (فهو لم يتخل عن "عبيده" إلا بعد عدة سنوات) وعلى الآخرين لدمج هذا العالم الجديد فى نظام يتجاوز ثنائية العصور الوسطى المغلقة، كل ذلك جعل من لاس كاساس الضمير الأكثر تبصرا للنتائج التى أحدثها اختفاء جماعة بشرية لم يكن يفهم أصالتها ويحترمها أحدٌ سواه.

ويجدر بنا نقل الصورة التى رسمها بريسكوت Prescott لهذه الشخصية الاستثنائية فى القرن الماضى : "يمكن استخلاص شخصية لاس كاساس من مسيرته المهنية. فقد كان ينتمى بامتياز إلى أولئك الذين يكتشفون الحقائق الأخلاقية المجيدة التى تبقى، مثل نور السماء، ثابتة إلى الأبد؛ ومع أن تلك الحقائق صارت مألوفة لدينا الآن، إلا أنها كانت مختفية فى الظلمة فى زمانه، ولم يكن يدركها أحد باستثناء بعض الأرواح النفاذة... لقد كان ملهمًا بفكرة عظيمة ومجيدة هى جوهر كل أفكاره، وكل كتاباته وخطاباته، وكل أفعاله فى حياته الطويلة. وكانت تلك الفكرة هى التى أجبرته على رفع الصوت والثورة بين الأحبار؛ وتحمل نفور أصدقائه وعداء أعدائه؛ والصبر على الذّم والسَبّ والاضطهاد"(٨٧).

والحقيقة أننا ما زلنا، فى أيامنا هذه، بعيدين عن القبول كليًا برفضه العنيد لأى حرب من حروب الغزو، وعن إدانته لكل أولئك الذين يتغنون بشجاعة المهاجمين الذين يدمرون الحياة والثقافة العريقة لقارة. فما زال هناك أناس كثيرون يلغون، دون أن يرتقوا إلى موضوعية مجردة، أى معيار أخلاقى، ويخلطون دون تمييز ما بين القتلة والضحايا ممجدين بذلك شريعة الغاب، بازدرائهم القيم الإنسانية.

فى فجر السيطرة الغربية، قام فرد ذو امتيازات من الجماعة التى حققت أكبر عملية استعمارية فى كل العصور – والوحيدة التى محت من الوجود تمامًا العالم الذى سيطرت عليه –، وقبل قرون طويلة من النضالات المناهضة للاستعمار، ليشهّر بطبيعة النظام الاستعمارى ويفضح أساليبه المتنوعة فى الإذلال، بذلك الذكاء الحاد الذى يميز أحدث دعاة تحرر الشعوب المضطهَدة. ففى وسط الغزاة الرهيبين وأمام وطنيين مذلين

ومهانين، لم يرهب الإعلان دون مواربة بأن "جميع أمم العالم هم بشر"(٨٨). وكان هذا ما حرك الانثربولوجي جون كوللير ليقول إن لاس كاساس وضع، أكثر من أى شخص آخر، مسألة الوطنيين فى إطار مرجعي يصلح للجنس البشرى برمته(٨٩).

لقد استخلص لاس كاساس من اكتشاف أميركا نتائج لا تقل ثورية عن تلك النتائج التى أغنت الرؤية الكونية: فموضوعيته الغيورة، وحميته العلمية للربط بين ظواهر تعتبر مختلفة فى جوهرها، لا تقل أهمية بالنسبة للعلم الإنسانى عن فكرة أن الأرض ليست مركز الكون أو نظرية تعدّد العوالم. ومع أن أحدا لم يعد يستنكر اليوم هرطقة كوبرنيك أو جيوردانو برونو، فإن معاصرهما لاس كاساس مازال "يُحرق حيًا" فى كل جيل(٩٠).

المحرقة الأخيرة نصبت فى إسبانيا سنة ١٩٦٣، على يد السيد مينيندث بيدال. وتمشياً مع ذوق عصرنا، تتواصل المحاكمة، بأمانة المعايير المستجدة، لتنال رضى محكمة تفتيش لا تهمنا الآن ماهيتها: فذلك الخصم اللوثرى الألمانى الذى ابتدعه سيبولبيدا يتحول اليوم إلى نصير للماركسية، وداعية إلى الاستقلال والصراع الطبقي؛ وصار الدفاع عن الحرب ضد شعوب القارة الأمريكية يستند إلى العلوم الحديثة، وحل كل من غوبينياو Gobineau وشبنجلر Spengler محل ارسطو؛ أما الجرائم التى يُحاكَم من أجلها المتهم، عبر العصور – القذف، والانتهازية، والتجنى، والاضطراب العقلى –، فتفتتنى اليوم بمصطلحات علمية جديدة: فتهمة عمى البصيرة الشهيرة التى وجهت إلى لاس كاساس، وعجزه عن الفهم، وعن الرؤية، وعن التعبير، يصبح اسمها الجديد "هذيان البارانويا"(٩١).

١ – هرطقة: "لدى الأب لاس كاساس مس شيطانى عجيب فى هوسه بمفهوم حديث بصورة خطرة للمساواة بين البشر، وهو مفهوم لا يتطابق مع معارف مؤرخنا أفييدو الإمبراطورية فى العصر الوسيط..."(٩٢).

٢ – تفاوت الأجناس: "... ولاس كاساس لا يناقش حتى مضمون الأطروحة المناقضة القائل بأنه يمكن للطبيعة البشرية أن تتبدى، وهى تتبدى فعلاً، فى درجات متفاوتة؛ وأنها تتحقق بالتالى لدى بعض الأفراد أو الشعوب كاملة، ولا تكون كذلك لدى

آخرين، ولهذا فإن هناك بشراً كاملين مهيئين للحرية وممارسة القيادة وبشراً قاصرين أو ناقصين أو "أشباه بشر" homunculos كما كان يقول سيبولبيدا، يميلون بطبيعتهم إلى الرق ولديهم استعداد – من أجل خيرهم – للخضوع إلى النظام الذى يفرضه عليهم أولئك"(٩٣).

٣ – اضطراب لاس كاساس العقلى : "التشوش" و "الاضطراب الذهنى"(٩٤) اللذان كان ينسبهما السيد أوغورمان إلى لاس كاساس سنة ١٩٤٦، ازدادا اتساعاً اليوم. فالمؤرخ المكسيكى يجهد نفسه ليدعم بالوقائع مدى ثبات تهمة "هذيان البارانويا" التى يطلقها السيد مينيندث بيدال – وتبدو سعادته واضحة بالعثور على هذه التهمة –. وفعلاً، فلاس كاساس كتب مؤلفه تاريخ دفاعى من ألف وثلاثمئة وتسع وخمسين صفحة دون أن يفهم شيئاً من تعليل سيبولبيدا الثاقب حول تفاوت الأجناس: "... المنطق المفترض للادعاء الذى يتضمنه التاريخ الدفاعى يصر على تجاهل المضمون الأساسى للطروحات التى يقارعها، ويصر بالتالى على رفضه، حتى دون مناقشة، لفكرة أنه يمكن للجنس البشرى أن يتبدى فى درجات متعددة من الكمال"(٩٥).

كما أنه عاش مولياً ظهره لعصره، ومتجاهلاً الأيديولوجيات الجديدة تجاهلاً تاما: "... الأسلوب القديم المهجور لمجادلاته [التاريخ الدفاعى] يحكم عليه بالضرورة بالإخفاق فى ميدان الممارسة العملية... إن الاختلاف الكبير بين لاس كاساس وسيبولبيدا، ما هو إلا تعبير عن الصراع الأصم بين ضوء تاريخى آخذ بالتلاشى وآخر يتطلع إلى إضاءة مستقبل العالم؛ إنه الصراع، ولنتذكر ذلك، بين المثل الأعلى القديم القائل بأخوة البشر القائمة على اشتراكهم فى مصير خارق للطبيعة، والمثل الأعلى الحديث القائل بأبوة paternidad البشر..."(٩٦).

ويجدر بالملاحظة أن المثل العليا الحديثه والنور الذى يضىء مستقبل العالم ليسا مُثل ونور لاس كاساس الذى يعتبر حالياً "قديماً" ومهجوراً عفى عليه الزمن، وإنما هى مُثل ونور سيبولبيدا؛ فالسيد أوغورمان يصنف لاس كاساس على ضوء الأحكام السابقة، على أنه رائد أو متخلف، حسب ضرورات القضية، مثلما يفعل بدوره زميله الإسبانى.

وبما أنه لا يمكن لنا التوقف عند المبررات التى تساق لتمجيد سيبولبيدا والوصول به إلى مرتبة المجدد، فإننا نقتصر على الاعتراف بأنه إذا دبج أحدهم مؤلفًا أساسيا - حتى "دون أن يدرك [لاس كاساس] بوضوح... غرض الأطروحة التى يناهضها"(٩٧) - وناضل طوال حياته ضد واقع غير موجود - ذلك أنه قد تم تجاوزه بواقع آخر لا يراه هو -؛ وإذا ما تصدى للدفاع عن حقوق آخذة بالتلاشى أمام نور حقيقة تاريخية مجهولة، فإن أقل ما يمكن أن يقال عنه بالفعل، هو أنه ضحية هذيان بارنوياوى حقيقى.

وبما أنه من المستحيل محاكمة سلامة لاس كاساس العقلية دون أن نكون قد ناقشنا قبل ذلك كتبه، وكتب المؤرخين والفاتحين، وكتب خصومه، سواء من الأمريكيين أو الإسبان؛ ودون القيام بتحليل مدقق لعملية الفتح، وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية على أوربا؛ ولطبيعة المستعمرة والحضارات ما قبل الإسبانية، فمن العقلانية ترك هذه المسألة مفتوحة للحوار. ولكن الواضح فعلاً منذ الآن، بالمقابل، هو مشاعر الإعجاب والنفور المشتركة التى توحد المنددين بلاس كاساس: فجميعهم يتفقون فى معارضة الأفكار "الحديثة الخطرة"، سواء أكانت أفكار لوثر، أو بوليفار أو ماركس، وجميعهم يعانون من ضعف تجاه فكرة عدم المساواة بين الأعراق والإمبراطوريات (مينيندث بيدال يتهم لاس كاساس بالفظاظة لتوصله إلى "مقت الفتوح الرومانية"، وجميعهم يتقبلون الإدانة الجلية نفسها للشعوب الأمريكية: إدانة الإسبانى حين يؤكد بأن الثقافات الأصلية... كانت راكدة فى تخلف قديم بالمقارنة مع أوربا، ولم تكن تملك إمكانيات التقدم عندما وضعت على اتصال مع الأوربيين؛ وغرقت فى مدّ الثقافة الإسبانية..."(٩٨)؛ ويتبنى المكسيكى أطروحة سيبولبيدا التى يورد منها، ضمن أشياء كثيرة، جملة من المقطع الذى نستنسخه هنا :

"ليبولدو: هذا يعنى أنك ترى بأنه تدبير إنسانى وليبرالى أن يتمتع أولئك البرابرة الذين تلقوا الديانة المسيحية، ولا ينكرون سيادة ملك إسبانيا، بحقوق مساوية لحقوق المسيحيين الآخرين والإسبان الخاضعين لإمبراطورية الملك.

"ديمقراطيس: على العكس، يبدو لى ذلك أمراً شديد السخف، إذ ليس هناك ما هو أشد مناقضة للعدالة التوزيعية من إعطاء حقوق متساوية لأشياء غير متساوية، ومساواة من هم أعلى فى المرتبة فى الفضيلة والمزايا، مع من هم أدنى..."(٩٩).

من غير المتوقع فى مطبوعة مكسيكية، إيراد اعتراف سيبولبيدا مشفوعًا بتكريم من لاس كاساس، ومن أحد أعماله المهمة، يوضح بجلاء معاصرة مشكلة، بقيت متأججة على الدوام، مثلما كانت بالنسبة إلى الراهب الدومينيكانى؛ فالإدانة دون استئناف للشعوب ما قبل الكولومبية مرتبطة بصورة معقدة ليس بمسألة الفتح القديمة، وإنما بمشكلة حاضر الأمم الأمريكية، بعد أكثر من قرن ونصف قرن من الاستقلال. ذلك أن رفض الجذور الأصلية يدين السكان الأصليين الحاليين مثلما يدين الأعمال التى أعاد علم الآثار تأهيلها وعملية التهجين التى حدثت على السواء. فإذا كانت المجادلات المتعلقة بالثقافات القديمة تتخذ مظهراً أكاديمياً، فإننا لا نجد الشيء نفسه يحدث عندما يتعلق الأمر بالسكان الأصليين الحاليين. وبالفعل، فمع أنهم يعيشون فى كل الأنحاء تقريباً فى ظروف دون الإنسانية، فإنهم مازالوا فى أحيان كثيرة ضحية عقوبات لا تلغى إدانة عنصرية ذلك السيبولبيدا، وهنا تكمن أسباب المأساة التى أدمت البرازيل طوال أكثر من عشر سنوات، والتى أتاح وجود المبشرين والاثنولوجيين الكشف عنها. وليقيننا بأن الثقافات المغتالة لا يمكن لها أن تندمج فى الحضارة الحالية ما لم تتم الإدانة الواضحة للازدراء الذى يثقل عليها، فإننا نستنسخ مقاطع من أحداث معاصرة تقدمها مطبوعة غير مشبوهة(١٠٠).

"قائمة الجرائم لا تنضب. فالتحقيق القضائى الذى يتضمن نتائج تحريات أمر بإجرائها وزير الداخلية الجنرال ألبوركيركي ليما، يزن فى شكله الأصلى أكثر من مئة كيلوغرام، والنسخة "الملخصة" منه تتألف الآن من ٢١ مجلداً و ٥ × ١١٥ صفحة. وتظهر فيها جرائم ضد الهنود وممتلكاتهم، تبدأ من القتل والدعارة والعبودية، حتى قضايا متعلقة ببيع الأراضى والمنتجات الحرفية، واختلاسات وهدر الأرصدة، وعمليات احتيال وتزوير وكل ما يمكن تصوره.

"وترجمة هذا إلى الواقع تعنى، على سبيل المثال، وكما يشير الناطق باسم حكومة جادير فيغيريدو، إبادة قبيلتين من هنود باتاكسو فى ولاية باهيا بنقل عدوى فيروس الجدرى إليهم، من خلال توزيع حلويات وضع فيها مسبقا فيروس هذا الداء الرهيب؛ وكذلك ما حدث فى ماتو غروسو لقبائل ثينتاس لارغاس، وهم هنود أقوياء البنية، جرى قصفهم بصورة منهجية بشحنات من الديناميت، تُلقى عليهم من طائرات تحلق على

ارتفاع منخفض، وحصدهم بالرشاشات - حصد من بقي منهم على قيد الحيـاة - على يد حراس الغابات. وقد جرى كذلك مزج الزرنيخ وفيروس التيفوس بطعام الهنود.

"أما فيما يتعلق بأعمال التعذيب وعروض السادية، فيكفي أن نورد نموذجاً منها في اعترافات أتايدى بيريرا دوس سانتوس: "أنا قتلت الزعيم بطلقة في الصدر؛ أما من حصد هنود ثينتاس لارغاس بالرصاص و"قطع" المرأة الهندية فهو تشيكو لويز. وقبل ذلك كان تشيكو لويز قد قتل طفلاً بطلقة في جبهته ببندقية من عيار ٤٥ وأمر بإحراق الأكواخ القريبة من نهر أريبونتا. وقد استمرت الحملة ستين يوماً وقام بتنظيمها جامع المطاط انطونيو ماسكاريناس جوانكييرا، الذى ما يزال مديناً لي بخمسة عشر دولاراً من العمل الذى قمت به من أجله. وقد أمر تشيكو لويز [وكان قائد الحملة [بأن يعلقوا امرأة من قدميها إلى شجرة، في وسط القرية؛ وبعد أن شد الحبل، وصار الجسد مدلى، قطع الهندية إلى نصفين بضربة ماتشيتي. كانت القرية تبدو وكأنها مذبح بأرضها المغطاة بالدم في كل الأنحاء. ألقينا الجثث في النهر وانصرفنا".

"هكذا تكلم أتايدى بيريرا دوس سانتوس في كويابا، بماتو غروسو، أمام رئيس لجنة المعاينة الهندية السادسة لجمعية حماية الهنود، السيد راموس بوكاير (أحد الذين يؤكدون اليوم أن هذه الجرائم مازالت تحدث)، وأضاف بيريرا بأن الهدف من تلك الحملات كان الاستيلاء على أراضي الهنود التي تضم في باطنها، كما هو معروف، ثروات معدنية لا تحصى، وبيريرا دوس سانتوس ما يزال اليوم طليقًا وهو يبيع المثلجات في البلدة نفسها التي أدلى فيها باعترافه.

"وقد شجعت الشكاوى التي كانت في ازدياد وإلحاح مطرد وزير الزراعة، ففتح حوالى ١٥٠ تحقيقًا، ولكن المثير للفضول أن أيًا منها لم يؤد إلى فصل أحد من عمله. وعندما أرادت لجنة تحقيق برلمانية، في عام ١٩٦٧ ، تفحص الوثائق المتعلقة بتلك التحقيقات، تبين أن ذلك مستحيل: فالوثائق الأصلية قد احترقت في برازيليا، في الوزارة نفسها، وهي مبنى حديث مشيد من زجاج وإسمنت مسلح، مضاد للحريق والرطوبة... وبين الشهادات التي نُشرت مؤخراً في الصحافة، هناك شهادة القس المعمداني الأمريكي الشمالي ويزلي بليفنس، الذى عاش طوال ثلاثة وعشرين شهراً في كامبو غراندي، بماتو غروس، ويؤكد أن أساليب القتل التي تحدث عنها الناطق باسم

حكومة جادير فيغيريدو ما زالت تستخدم حالياً لإبادة هنود بييسو دى باو. ويقول القس بليفنس إن هذه الجرائم قد اقترفت بأمر موظف فى SUDAM (وهى منظمة حكومية لتطوير منطقة الأمازون) بمشاركة إقطاعيين وباحثين عن المطاط.

"إن الوضع الحالى للهنود بلغة الأرقام يوضح أكثر من أى شىء آخر حجم الإبادة التى اقتُرفت دون عقاب... فخلال العشرين سنة الأخيرة: لم يبق من مئات آلاف سكان المنطقة اليوم سوى رقم لا يُصدق، ولا يتعدى التسعين ألفًا. فمن أصل ١٩٠٠٠ من هنود مندوكورو لم يبق سوى ١٢٠٠ ؛ أما هنود نامبيكوارا الذين كان عددهم ١٠٠٠٠ تحولوا إلى أقل من مئة؛ ومن أصل ٤٠٠٠ من قبيلة كاراجا لم يكد يبقى على قيد الحياة اليوم سوى ٦٠٠ ، أما هنود ثينتاس لارغاس، الفرسان البارعون، وإحدى أهم القبائل الهندية بفضائلها وثقافتها، فقد تقلصوا بفضل قانون الديناميت والسم، من ١٠٠٠٠ إلى ٤٠٠ فرد مرضى، مطاردين، مستعبدين وعلى وشك الفناء التام.

"هذه الإبادة جلبت لمقترفيها، حسب التقديرات الأولية لوزارة الداخلية، ما يزيد على ٦٢ مليون دولار كأراض ومواش ومزارع ومصنوعات تقليدية خشبية."

مهما كانت لا إنسانية المصالح الاقتصادية لطبقة ما، فإنه مما لا ريب فيه أنه ما كان يمكن أن تمر إبادة سكان دون عقاب، لو لم يُعتبروا أناسا من صنف أدنى، ينتمون إلى ذلك العرق من أشباه البشر، حسب تعبير سيبولبيدا. إن الجدال الذى بدأ فى القرن السادس عشر لم يعد يدور اليوم إذن على مستوى أكاديمى، ومع أن الأحداث المذكورة تأتى لتشكل انتصاراً متأخراً لمتدح الغزاة، إلا أنها تُثبت فى الوقت نفسه أن المشكلة التى هاجمها لاس كاساس لم تكن وهمية بأى حال، ومن أجل وضع نقطة انتهاء لمناظرة لن نعود إلى الإشارة إليها، نقول إن استمرار هذه المسألة مع كل تفرعاتها وبراعمها المعاصرة، تطمئننا نهائيًا حول السلامة العقلية لذلك المناضل الفريد.

الفصل الثانى

أمريكا المكتشفين

١ - فراغ قارى :

مع الإبادة الجماعية للوطنيين ، اختُزل العالم الجديد شيئًا فشيئًا إلى كيانه الطبيعى البسيط ، متحولاً بذلك إلى وعاء عجائبى، لكنه خالٍ من المعنى الإنسانى: خواء أخلاقى وتاريخى، راح يتسع باطراد مع اتساع النهب المادى والمعارف الجغرافية. وفى حوالى منتصف القرن السادس عشر، كانت شخصية الأمريكى غير العاقل، التى أستند إليها مشرعو القرون الوسطى ومفكروها لتبرير إخضاع الكفرة، وتجريدهم من كل ثروة وكل حق، قد تحولت إلى واقع لا سبيل إلى دحضه.

وفى الوقت الذى حُوِّلت فيه جموع السكان الأصليين إلى قطعان جائعة، مجردة من الأرض والبيوت ومحرومة من أدنى قدر من الاهتمام - وهو حرمان يوضح تواتر الأوبئة وآثارها الرهيبة - ؛ وحين رأى الباقون منهم على قيد الحياة اختفاء بنيانهم الاجتماعى والثقافى حتى آخر خلية منه - بما فى ذلك الوحدة الأسرية وأسلوب العلاج اللذين تفسخا فى تلك الهجمة اللاإنسانية -؛ وحين تم التوصل إلى الغاية المنشودة، بدأ الإحساس بضرورة ملء الفراغ الذى استتب جذرياً . إن اندفاع التيار المُدمِر لم يعجز عن كبح الوعى - الذى كان صوته مطارداً ومشتتاً ومقموعاً دون هوادة - ومنعه من أن يكون مسموعًا وحسب، وإنما كان ذلك الوعى قادراً كذلك على التصدى للبحث الجرىء عن المنابع، والقيام بتلك الإعادة الشاقة لصياغة القارة، وهو عمل ما يزال بعيداً عن الوصول إلى نهايته: فإعادة البناء التاريخى، وهى مهمة ذات أبعاد لا يمكن تصورها، يجب أن تتجاوز بالطبع أى جهد فردى وأن تقع إلى الأبد على كاهل الأجيال التالية.

لقد كانت هذه المسيرة المعاكسة للتيار، ومازالت، تمضى ببطء شديد، مستندة فقط إلى القناعة بكرامة كائنات بشرية حُكم عليها وأدينت سلفًا، وإلى رفض الإقرار بوقوع ظلم ذى نسب كونية: فمازال إيقاعها هو إيقاع الحصول على المعارف الضرورية من أجل إعادة قارة إلى حضن الإنسانية ؛ إيقاع تركيب أدلة شديدة الحساسية لإثبات أن المبررات التى تدعم دونية الشعوب الأمريكية الخِلْقية هى افتراء. وعلى أدنى خطوة فى هذا الاتجاه أن تأخذ الخطوات السابقة فى اعتبار مُدقِّق، ولا يمكن لنظرية أو اكتشاف أن يكونا صالحين ما لم يندرجا فى الجهد الذى انطلق منذ مئات السنين بهدف ملء ذلك الفراغ بالمضمون نفسه الذى انتُزع منه فى زمن آخر.

بالإمكان الحصول على فكرة عن العوائق التى ستصطدم بها عملية إعادة بناء الواقع القديم إذا ما فكرنا فى أن أيًا من أبحاث القرن السادس عشر المهمة لم تر النور قبل أواخر القرن الماضى؛ وأن بعضها لم يُنشر إلا مؤخرا وبعضها الآخر، وهو الأساس، ما زال ينتظر فى ظلمة المحفوظات. فخلال أكثر من ثلاثمئة سنة، اقتصرت المعلومات فى البدء على قصص المكتشفين، ثم تلتها روايات مؤرخى البلاط الذين لم يغادروا إسبانيا فى معظم الأحيان. إن عدد الكتب المستوحاة من أميركا مذهل، ولكن على الرغم، أو بسبب النجاح العالمى العظيم والفورى الذى أحرزته الكتب التى نُشرت، فإن المؤلفات الأساسية بقيت مجهولة عمليًا حتى أيامنا، حيث توافق ظهورها مع الخطوات الأولى لعلم الآثار. فإذا ما ألغينا الكتابات المستندة إلى معايشة السكان الأصليين لفترات طويلة – أعمال الإنكا غارثيلاسو دى لا بيغا هى الوحيدة التى ظهرت عام ١٦٠٩ –، فإننا لن نجد لأمريكا سوى صورة إنسانية غير متماسكة وصبيانية. وفعلاً، ما الذى كنا سنعرفه عن العالم الجديد لو أننا حذفنا شهادات فيرنانديث دى أوفييدو الحارة وبحثه المتعطش للمعرفة، أو مرافعات لاس كاساس الدفاعية المدوية، أو التقصى المثير عن العالم المفقود الذى كرس له بيرناردينو دى ساهاغون حياته؟ سنجد الشيء الكثير جداً حول الطبيعة، وما يكفى حول ملابس الأهالى البدائيين وعاداتهم، والكثير حول الدين. إن خليط عدم الفهم والافتراء الذى نُقل حينئذ، وجرى تحويله بهذا القدر أو ذاك من سوء النية إلى عقيدة مجسدة، يشكل عقبة خطيرة أمام المعرفة، لأنه أثر، أكثر من أى عامل آخر، فى محو أدنى أثر روحى فى ذلك العالم

الذى اختزل إلى مجرد جزء من الطبيعة، وجُرد إلى الأبد (لأن شرف المتحضرين ومصلحتهم تقتضى ذلك) من أى قيمة أخلاقية.

إن سيرورة ذلك السلب واضحة للعيان فى طبيعة ومصير الكتابات عبر مختلف المراحل. فبعد الوصف الذى قدمه كريستوف كولمبس، والذى انبثقت منه صور المتوحش الطيب والعالم الفردوسى التى غذت اليتوبيات والنظريات الاجتماعية حتى عصر الأنوار، ساد صمت دام ثلاثين سنة. ثم سجل كورتيس، فى رسائله إلى كارلوس الخامس التى ظهرت سنة ١٥٢٢، تبدلاً مفاجئًا فى صورة العالم الجديد: فقد استبدل فاتح المكسيك جنة كولمبس وفيسبوشى (وأعمال هذا الأخير لم تنشر حتى سنة ١٧٤٥) والحشود السمحة والساذجة، بعالم مدينى، ذى عادات صارمة، منظم حول القرابين البشرية. وبعد بضع سنوات من ذلك، فى العام ١٥٢٦، حين أضحت شواطئ الانتيل مقفرة من السكان وحاق الخطر بسلطة كورتس. أنهى فيرناندث دى أفييدو مؤلفه الأول المستند إلى الملاحظة المنهجية. وأنجز موجز التاريخ الطبيعى لبلاد الهند، الذى أغفل فيه أى إشارة إلى مواطنى تلك البلاد، وأولى اهتمامه إلى خصائص الأراضى التى يعرفها، ولكنه لا يكاد يتحدث عن ساكنيها. ثم يسود صمت جديد حتى العام ١٥٥٠، وهو العام الذى ظهر فيه أكثر أعمال الأب لاس كاساس إثارة للجدل، ونعنى كتاب القصة الموجزة لتدمير بلاد الهند، الذى نضج على امتداد نصف قرن من الحياة مع الفاتحين. لقد رفع هذا الكتاب المتفجر، وإلى الأبد، الستار المسدل على العاصفة التى كانت تعيث خرابًا بأميركا، وبعد المواجهة بين الاتجاهات المتعارضة التى عرفناها، عادت القضية للسقوط فى سكون رسمى عنيد متواصل منذ ذلك الحين. وهكذا فإن أعمالاً كأعمال لاس كاساس، وفيرناندث دى أوفييدو وأعمال ساهاغان الفريدة، والتى تستند إليها الأبحاث المعاصرة استناداً كاملاً، أُسلمت إلى النسيان، بينما المؤلفات المتفقة مع المعايير المتروبولية، والمكتوبة استناداً إلى تلك المخطوطات، عرفت الشهرة بين جمهور أوربى متعطش للأخبار. ومع ذلك، فإن الحقيقة حول الفتح - وهى حقيقة كان موظفو التاج يعرفونها عن ظهر قلب، وكان الشعب يخمنها من الحكايات الشفوية، وقد بلورها لاس كاساس فى سجله الرهيب - أحدثت صدمة عنيفة إلى درجة أن الرقابة التى بدأت بالتدخل منذ ذلك الحين، حَفظت القضية بين يديها طوال قرون.

وابتداء من النصف الثانى من القرن السادس عشر رؤى فجأة، ودون سبب ظاهر، فرض الحظر على كتب رجال البلاط والمؤرخين غير المؤذيـــين، وحتى على الفاتحين، كما حدث لرسائل كورتس.

إن ما يلفت الانتباه فى تاريخ الفتح هو أن رفض استقلالية الوطنيين كان يبدو أمراً طبيعياً منذ اللحظة الأولى، كما لو أن استحالة وجود سكان فى الجهة المقابلة من الأرض، وهى الفكرة التى سخر منها سان أغوسطين نفسه، واستحالة وجود أرض يابسة ما لبثت أن تحولت على الفور إلى الفردوس الأرضى، قد احتجزت سكان العالم الجديد منذ ما قبل اكتشافه ضمن الحدود الضيقة وسهلة الخرق القائلة بأنهم حالة شاذة لا يمكن تكيفها، وليس هناك ما يوضح ذلك الموقف على خير وجه مثل الواقعة التالية: منذ عودة كريستوف كولمبس، وعلى أساس مجرد الخبر بوجود تلك الأرض، قام البابا ألكسندر السادس "...بوهب ملكى قشتالة وليون كل الجزر والأراضى التى تُكتشف فى المحيط، على أن يبعثوا إليها عند فتحها مبشرين لهداية الهنود الوثنيين"(١).

ليس مستغربا إذن أن يستولى كولمبس وفيسبوشى على السواء على السكان الأصليين ببهجةٍ لاواعية، تشبه بهجة صياد الفراشات؛ وأن يتصرفا وكأنهما سادة أمام عبيدهم، فوسط وصف شاعرى، لا يتردد كولمبس فى القول للملك إن "... هؤلاء الناس ساذجون فى أمور الأسلحة، وكما سترون جلالتكم فى سبعة منهم أخذتهم لحملهم معنا وتعليمهم كلامنا وإعادتهم. إلا إذا أمرتم جلالتكم فيمكن إرسالهم إلى قشتالة، أو الإبقاء عليهم أسرى فى الجزيرة نفسها، لأنه يمكن إخضاعهم جميعاً بخمسين رجلاً، وجعلهم يعملون ما ترغبون..."(٢) ويجمع فيسبوشى كذلك نماذج بشرية، ولا يتعطل حماسه كباحث فى التاريخ الطبيعى إلا مرة واحدة بسبب الخوف الذى تثيره فيه غنيمته، التى تكون لطيفة من جهة أخرى : "... وجدنا قرية مؤلفة من اثنى عشر بيتاً، ولم نجد فيها سوى سبع نساء لهن قامات طويلة جداً، ولم تكن بينهن واحدة إلا ويزيد طول قامتها شبراً ونصف شبر عن طول قامتى... الرئيسة فيهن، وهى للحقيقة امرأة رصينة، قادتنا بالإيماءات إلى أحد البيوت وقدمت لنا شراباً مُرطِّباً، وحين رأينا نساء بمثل تلك القامة الكبيرة، قررنا اختطاف اثنتين منهن، وكانتا شابتين فى الخامسة

عشرة من العمر، لتقديمهما هدية إلى الملكين... وبينما كنا نبحث الأمر، جاء ستة وثلاثون رجلاً ودخلوا البيت الذى كنا نشرب فيه، وكانوا طويلى القامة كذلك حتى أن الواحد منهم كان وهو جاث أطول منى وأنا واقف. وباختصار كانوا عمالقة... وحين دخل بعضهم أحسوا بخوف شديد جعلهم لا يشعرون بالأمان حتى اليوم، كانوا يحملون أقواساً وسهاماً، وعصياً ضخمة لها شكل السيوف، ولأنهم لاحظوا ضآلة قامتنا، بدؤوا يتكلمون معنا ليعرفوا من نحن ومن أين أتينا، واحتفظنا نحن بالهدوء وأظهرنا السلام، وأجبناهم بالإيماءات بأننا أناس مسالمون نود معرفة العالم؛ وباختصار، قررنا الابتعاد عنهم دون خصام، ورجعنا من الطريق الذى جئنا منها، وقد رافقونا حتى البحر، وصعدنا إلى السفن..."[٣] وفى مكان آخر، فى مدينة بيوتها مبنية فى الماء "مثل مدينة البندقية"، ترددوا فى استقبالهم ولم يُسمح لهم بدخول البيوت إلا بعد أن أثبتوا فعالية سيوفهم الأوربية فى لحم مضيفيهم.

وكان كولمبس فى رحلته الثالثة على وشك أن يشن معركة بسبب خطأ أدى إلى سوء تفاهم: فلاعتقاده بأنه صار يعرف عقلية السكان الأصليين، حاول إقناع جماعة منهم بالصعود إلى السفينة فى الوقت الذى كان ينظم فيه حفلة راقصة على إيقاع طبلة. ولم يكن هذا المشهد فى عُرف السكان الأصليين إلا إعلانا للحرب؛ فاستعدوا لإطلاق سهامهم: توقف الرقص فى الحال، وعندئذ تحول اللقاء إلى اجتماع بهيج ووديع كالعادة، وإذا نظرنا إلى الماضى تفاجئنا براءة أولئك الناس المندهشين أمام مجىء الغرباء الذى لا يُصدَّق من البحر: ونلاحظ الغياب الكامل لأية ريبة لديهم تجاه الغرباء. وهذه لوحةٌ لاسبانيولا المستقبل، تلك الجزيرة السعيدة التى اتخذ منها كولمبس مقر قيادة له : "... جميعهم أتوا إلى الشاطئ ليناودوننا وليحمدوا الله. بعضهم حمل إلينا الماء، وحمل آخرون أشياء للأكل، وآخرون، حين رأوا أننى لا أنزل إلى البر، ألقوا بأنفسهم إلى البحر وسبحوا وجاؤوا إلينا وفهمنا أنهم يسألوننا إذا ما كنا قادمين من السماء. وجاء شيخ مسن فى قارب صغير، وكان آخرون ينادون جميع الرجال والنساء صارخين : "تعالوا لرؤية القادمين من السماء ؛ أحضروا لهم الطعام والشراب" جاء كثيرون، ونساء كثيرات، وكل منهم يحمل شيئاً، وهم يحمدون الله، ويرتمون على الأرض ويرفعون أيديهم إلى السماء، ثم ينادوننا صارخين كى نذهب إلى البر..."[٤].

ويذكر فيسبوشي استقبالات مماثلة أقامها السكان الأصليون لشواطئ الأطلسي التي ستصبح فنزويلا فيما بعد: "... حملونا إلى إحدى قراهم، وهي تبعد نحو فرسخين عن البحر، وقدموا لنا الغداء، وكانوا يمنحوننا على الفور كل ما نطلبه منهم... وبعد أن أمضينا معهم يومًا كاملاً، رجعنا إلى السفن وقد أصبحنا أصدقاء لهم... رأينا قرية أخرى كبيرة على شاطئ البحر؛ فذهبنا إلى البر في قارب ووجدنا أنهم ينتظروننا هناك، وهم محملون جميعهم بالأطعمة. وقدموا لنا طعامًا جيدًا... رأينا بلدة [أخرى] عظيمة تقوم بالقرب من البحر، حيث يوجد أناس كثيرون يثيرون الدهشة، وجميعهم كانوا دون أسلحة، وذهبنا إلى اليابسة في القوارب مسالمين، فاستقبلونا بحب عظيم، وقادونا إلى بيوتهم، حيث كانوا قد أعدوا المآكل جيدًا، وقدموا لنا هناك ثلاثة أنواع من النبيذ، وهو ليس من العنب، وإنما من الفواكه ويشبه الجعة، وكان طيبًا جداً؛ وأكلنا كثيرًا من الميرابولانو الطازجة، وهي فاكهة فاخرة، وقدموا لنا فواكه أخرى كثيرة، جميعها مختلفة عن ثمارنا ولذيذة الطعم، وكلها ذات نكهة ورائحة شذية. وقدموا لنا بعض اللآلئ الصغيرة وإحدى عشرة لؤلؤة كبيرة، وأعلمونا بالإيماءات بأننا إذا ما انتظرنا بضعة أيام، فسيذهبون لاصطياد اللؤلؤ وإحضار الكثير منه لنا؛ ولم نهتم كذلك بحمل كثير من الببغاوات ذات الألوان المتنوعة وافترقنا عنهم بمودة."(٥).

خلال ثمان السنوات التي تفصل بين رحلتي الملاحين، جرت بعض التغيرات: فقد صدرت بعض المراسيم الملكية التي تحرم اصطياد السكان الأصليين إلا في بعض الحالات المحددة (أكل لحوم البشر أو العصيان)، وهي الحالات التي سرعان ما صار اتخاذها ذريعة هو القاعدة. فبينما كان كولمبس يقتني البضائع بالمقايضة ولا يأتي على ذكر أكلة لحوم البشر إلا بصورة عابرة، كان يبدو لفيسبوشي ورفاقه عاديا أن يأخذوا ما يشتهون دون مقابل، وأن يؤكدوا بأنهم لم يعيشوا بين أكلة لحوم بشر وحسب، وإنما سمعوهم كذلك يعترفون بأذواقهم المقيتة. ومع ذلك، فإن أكلة لحوم البشر أولئك، الذين يجهل الغرباء لغتهم تمامًا، كانوا يُظهرون كرمًا ولطفًا رائعين، فهم أنفسهم من يصفهم الملاح الفلورنسي بأنهم كانوا يشكلون حشوداً عزلاء ترحب بهم وتقدم لهم كنوزها وترافقهم دون قلق حتى السفن.

قبل مغادرة الشواطئ تكون تسمية الأهالي بالبرابرة، المعلنين رسميا على أنهم عبيد، قد تحولت إلى مرادف لأكل لحم البشر ، ومما يجدر ذكره أنه في عام ١٥٢٤، أي بعد عشرين سنة من كفاح الوطنيين ضد أشد الفاتحين دموية، تمكن فيرناندث دي أوفييدو من أن يأخذ منهم عدة أحمال من الذهب مقابل فؤوس مصنوعة من صفيح أطواق البراميل الفارغة، وقد مرّ من الطريق نفسها بعد عدة شهور، وهو يعلم علم اليقين أن صلاحية تلك الأدوات لن تدوم طويلاً، فتلقى ثروات جديدة بأن شحذ خفية الفؤوس نفسها التي لم تعد صالحة. وفي الوقت الذي يتقبل فيه بسلبية الأطروحة الرسمية حول الوحشية المزعومة للناس الذين خدعهم، فإنه يشدد على طيب طويتهم المتأصلة: "... سأروي هنا سخرية فعلتها بهم؛ تُظهر السذاجة التي كانوا عليها حينئذ، والاختلاف الذي صاروا إليه الآن بسبب المسيحيين المزعجين والمتهورين الذين تعلموا فيما بعد عمليات طلب الفدية تلك:... وكان أن دخل بفعل صنعتي إلى مدينة دارين **Darien**، في سفني وسفن أخرى سعت للحصول على فديات، أكثر من خمسين ألف بيزو ذهبا. فأثار ذلك حسد كثيرين ممن هم في جزيرة اسبانيولا وتلك الجزر الأخرى وفي جزر أقرب منها؛ ووجدوا سبيلاً للتمادي كثيرا في طلب فديات، وفي أخذ الهنود بأي طريقة يستطيعونها، فنشروا الاضطراب في الشاطئ وهاج الهنود وقتلوا مسيحيين، وقتل المسيحيون هنودا وتحول الشاطئ إلى ساحة حرب..."[٦].

ويكتشف كولمبس وجود اللؤلؤ في سوار عضد، ويرى بتأثر أولى المجوهرات الذهبية: زينات للأنوف والأذرع والسيقان، فيأمل في أنه سيكتشف بكل تأكيد، وبمساعدة الرب، المكان الأصلي للمعدن الثمين... ويتحدث فيسبوشي عن حبيبات التبر، ويشير إلى أن "الرجال معتادون هناك على ثقب شفاههم وخدودهم، ليضعوا في تلك الثقوب بعد ذلك عظاماً وأحجاراً، ولا تحسبوا أنها صغيرة، ومعظمهم يُحدثون ثلاثة ثقوب على الأقل، وبعضهم سبعة ثقوب، وبعضهم تسعة، يضعون فيها أحجارا كريمة خضراء وبيضاء..."[٧].

ويصف كولمبس استخدامهم لأصبغة الجسد والوجه (فالبعض يصبغون وجوههم والبعض يصبغون أجسادهم، وآخرون يصبغون عيونهم، وغيرهم أنوفهم فقط).

ويكتشفان كلاهما [كولومبس وفيسبوتشي] في جميع الأنحاء عادة النوم في شباك مصنوعة من القطن معلقة في الهواء، تدعى "هاماكا"، وكذلك وجود بيوت مستديرة، وقد تكون ذات أضلاع في حالات نادرة، مبنية أحيانًا فوق الماء ويمكنها في الغالب استيعاب عدة أسر (يؤكد فيسبوشي أنه رأى بيتًا يتسع لـ "٥٠٠ أو ٦٠٠ نفس")؛ كما أن الكراسي والمقاعد كانت شائعة الاستخدام. وتلفت انتباههما فعالية الزوارق وجمالها : فهي مصنوعة من قطعة واحدة، من جذع شجرة مفرغ ومنحوت، وفيها مقصورات لاتقاء الشمس والمطر، وهم يصطادون السمك بشباك مصنوعة من القطن أو من ألياف النخيل وبصنارات من العظم.

ويؤكد كولبس بأن الهنود، الذين لا ينتمون إلى أى مذهب ديني، سيتحولون سريعًا إلى المسيحية، ويقول فيسبوشي إنهم يعيشون دون أي عقيدة ، وأولهما فقط هو الذي يشير إلى وجود أعمال فنية: تماثيل يقول عنها إنها بديعة، في كوبا؛ وقناع وتاج من الذهب مرصع بأحجار كريمة قدمها إليه أعيان اسبانيولا، إن ثراء هذه الأراضي أكثر جاذبية حين يكون السكان الأصليون عراة وتكون أسلحتهم تافهة وغير مجدية: سهام (قد تكون للأسف مسمومة أحيانًا)، وعصي، ورماح مزودة بأسنان أسماك أو بشوكة من خشب مصلبة على النار.

٢ - بشر وطبيعة

قبل أن نباشر مهمة إعادة تركيب التاريخ، نتوقف لنتأمل اللوحة التي ما تزال نابضة للإهليلج الذي يحيط ببحر الكاريبيين ابتداء من كوبا وحتى يوكاتان. ونحن ندين بذلك أساسًا إلى لاس كاساس وأوفييدو اللذين أمضيا هناك القسم الأعظم من حياتهما المضطربة. فشهادتاهما لا تثمنان كوسيلة لمعرفة منطقة أقفرت تمامًا من ساكنيها، لكونها المنطقة الوحيدة التي تحملت صدمة السنوات الخمس والعشرين الأولى من الغزو. ومازال مؤثرًا حتى أيامنا هذه، ذلك الغياب الملحوظ للناجين من السكان الأصليين : في حين يوجد فلكلور وأساطير يقتصر منشؤها على الرقيق الزنوج الذين استمر تدفقهم على هذه المناطق حتى القرن الماضي.

وتمثل الكائنات التى فاجأها الأوروبيون على حين غرة الملامح العرقية نفسها فى جميع الأنحاء تقريبا: فهم ذوو بشرة برونزية، وقامة معتدلة، سيقانهم منتصبة باستواء (باستثناء يوكاتان) ولا بطن لهم، شعورهم ناعمة، سواء أكانت طويلة أم قصيرة، وسيان فى ذلك الرجال أو النساء، وغالبا ما يكون مقصوصا ومسدلاً على الجبهة؛ ولهم عيون باهرة الجمال. ويشار فى أحيان كثيرة إلى انعدام اللحى وشعر البدن، كما يشار إلى عذوبة نطقهم.

وكان العرى، الكامل أو الجزئى، يُظهر الأجساد؛ ونظراً لتناسقها، ومهابتها، ورقتها وكمالها العضلى، فإن النتيجة التى استخلصها لاس كاساس فى نهاية وصفه الدقيق فى كتابه التاريخ الدفاعى، "يبدو أنهم ليسوا إلا أبناء أمراء"، وأنهم "رجال ونساء لهم مظهر ملائكى"[٨].

وعلى امتداد كتاب أوفييدو الضخم نرى بجلاء اعتزاز أولئك الرجال بكرامتهم التى تترسخ برفضهم الإفضاء بسر، حتى وهم تحت أقسى أصناف التعذيب؛ وفى مظهرهم الرصين أو المرح، وفى سلوك زعمائهم الوقور والمحترم.

أما المرأة المتكبرة والجريئة، فكثيراً ما تضاهى بجمالها أجمل جميلات الأسبان، ولدى إعادته رواية قصص سمعها فى البلاط، يؤكد لوبيث دى غومارا بأنهن، على الرغم من عدم انتعالهن الأحذية، مما يجعلهن يبدون أقصر، فإن قاماتهن تساوى قامات الأسبانيات. ولذهول الجميع من بياض بشرة بعض سيدات الوطنيين الرفيعات، يستنتجون بأن لون الأخريات البرنزى هو نتيجة لتعرضهن الدائم للشمس. والمرأة رشيقة على اليابسة كرشاقتها فى الماء - وهذا هو العنصر الطبيعى الثانى لدى تلك الشعوب البحرية -، والمرأة المعتادة على ممارسة كل الأعمال، بما فى ذلك الصيد أو الحرب بالقوس، كانت تتمتع حتى زواجها بالحرية الجنسية نفسها التى يتمتع بها زملاؤها من الرجال وتشكل نموذجًا معاصراً يحتذى بالقوة والأنوثة بصورة مثيرة للفضول. ويتناسى أوفييدو أحكامه المتحاملة ليعرب فى مرات كثيرة عن إعجابه بأولئك النسوة اللواتى هن أكثر خفراً، وأنبل خُلقًا فى عريهن من مسيحيات كثيرات متأنقات الملبس[٩].

وعلى شواطئ فنزويلا وكولومبيا، وبعد أن يسخر من خيط يُربط فوق البطن ويعتبر حافظا للعذرية، يعترف بأن "... خيوط الهنديات تلك هى ضمانة حامية أكثر وفاء من التحصينات والحجب التى تضعها نساء محترمات جداً فى أوربا..."، إذ إن "... هؤلاء اللواتى هنا يمضين فى الحقول وإرادتهن هى الحافظة لهن، فيكفيهن هذا الخيط الذى ذكرناه، لتحصين عفتهن وسمعتهن، ولا يمكن أن تتجاسر على وضعه امرأة تكون فاسدة"[١٠]. ثم أن انتحار العذراوات المغتصبات، وكذلك قتل الأسبان للعنيدات المتمنعات منهن، فى هذه البلدان حيث لا تتمتع العذرية بأى قيمة اجتماعية، هو دليل على احترام القرار الشخصى الحر الذى كان الهنود، بأنفسهم، يعرفون كيف يؤكدون عليه[١١].

إن المشهد الطبيعى الذى كانت تتحرك فيه تلك الجموع المنسجمة والمطمئنة يوقظ حماس الجميع: فالماء من جميع الجهات - بحار وبحيرات تغص بالأسماك، وأنهار تحمل الذهب، وجبال بديعة، ومناخ لاشك فى رقته، وكنوز تفوق أكثر الآمال جموحاً - . فالأرض عجيبة ومنتجاتها التى يجهلها الأوروبيون لا تعد ولا تحصى.

إن من عرّفَ أوروبا على العالم الذى اكتُشف لتوه هو نديم إيطالى لملوك أسبانيا يعيش قريبا منهم، إنه بيدرو مارتير دى انغليريا، المبهور بالوصف الذى يقدمه كولمبس وشهود عيان آخرون، فيقوم باستحضار تلك الأراضى النائية، ملطفًا من جفاف التقارير الرسمية بطرائف ونوادر من مخيلته يزين بها كتاباته. وقد أطلقت نصوصه الأولى، التى ظهرت عام ١٥٠٤، العنان للخيال، ومثلها رسائله الكاملة التى كتبها لإطلاع أصدقائه البارزين ونُشرت عام ١٥٣٠ . وإذا كان قد بدأ كفضولى بسيط، فإن اهتمامه تعمق مع مرور الزمن وصارت أخباره أكثر دقة، وحين أصبح عضواً فى مجلس بلاد الهند(*) Consjo de Indias ، تحمس للخصومات بين رجال الفتح والمشاكل المتعلقة بحق الأوروبيين الشهير فى إخضاع الشعوب الأمريكية، ونقتطف رؤيته العدنية لأحد لقاءات كولمبس الأولى مع الوطنيين: "ولدى اقترابه خرجت للقائه أول الأمر

(*) مجلس بلاد الهند هو هيئة حكومية أسبانية مقرها اشبيلية، كانت تتولى الإشراف على إدارة المستعمرات الأسبانية فى العالم الجديد.

ثلاثون امرأة... يحملن سعف النخيل بأيديهن ويرقصن ويغنين، وعزفن بأمر من الملك وهن عاريات تمامًا، باستثناء مواضع الحياء فكن يغطينها بما يشبه التنانير القطنيـة، أما العذراوات منهن فكن يسدلن شعورهن فوق أكتافهن ويضعن شريطة أو عصابة حول جباههن، ولكنهن لا يغطين أى جزء من أجسادهن. ويقول جماعتنا إن وجوههن وصدورهن ونهودهن وأيديهن وسائر أعضائهن باهرة الجمال وذات لون ناصع البياض، وقد بدا لهم أنهم يرون أولئك الغيد الفاتنات أو الحوريات يخرجن من الينابيع التي تحكي الأساطير القديمة عنها." ويقول في موضع آخر إن ميناء كارتاخينا (كولومبيا) مشهور "بالجمال الذى يضفيه الزواج على نسائه وبالحصانة الروحية لدى الجنسين"(١٢).

والمواد التى يُصنع منها الخبز تلفت الانتباه بشدة : وهى نوع من الحبوب يدعى الذرة، ودرنات يدعونها اليُكَّة يصنعون منها نوعًا من البسكويت – يسمونه الكاثابه **cazabe**، ويمكن الاحتفاظ به لأكثر من سنتين، دون أن يناله العطب –، كثيراً ما أصبحت تلك المواد أثمن من الجواهر الفاخرة، وبينما تطحن الذرة مثل كل الحبوب تقريبًا (الحجر المستخدم في طحنها مازال شائعًا في جميع الأنحاء)، فإن يُكَّة الجزر بالمقابل تحتوى على عصارة سامة ذات مواصفات فريدة: إنها شديدة السميّة لدرجة أن "رشفة واحدة منها تكون كافية للإماتة الفورية" ؛ فإذا ما طُبخت وقُطِّرت، تحولت إلى شراب سكرى يعادل الشهد. وإذا ما غُليت ثانية وصفِّيت، فإن هذه العصارة تصبح حامضة وتستخدم كالخل ، وتنتشر اليكة في جميع مناطق الانتيل، أما في القارة فإنها تؤكل مطبوخة ويُصنع الخبز من الذرة وحسب.

ومن بين جميع الثمار التى يكتشفها أوفييدو يشعر بميل خاص نحو جوز الهند والأناناس، التى تملأه غبطة بشكلها وأريجها ولذة طعمها، فيحاول وصفها، وهو خائف ألا يتمكن من ذلك، على امتداد صفحات عديدة. وكعارف جيد، يؤكد أن أناناس القارة أفضل بما لا يقارن من أناناس الجزر، ويروى انغليريا أن الملك سمح بإحضار "نخل الأناناس" ويأسف لأنه لم يستطع تذوقها، إذ لم تصل منها إلى أسبانيا ثمرةً واحدة سليمة، وهناك درنيات أخرى "تليق بمائدة الإمبراطور"، واعتُبر الفلفل الأخضر بديلاً جيداً لتوابل أخرى.

وبعد أن يتمعن الأب لاس كاساس ببهاء جزيرة أسبانيولا، يعمم نتائجه على القارة بأسرها ، ويهتز أسلوبه تأثراً وحبًا بهذه الأراضى المعذبة: "جميع تلك المناطق هى فى الغالب أراض قارية، مكشوفة، عالية، مستوية، زاهية، لطيفة، مستقرة تماماً. الروابى، والوديان، والجبال والسفوح نظيفة جداً وخالية من المستنقعات النتنة، ومغطاة بأعشاب زكية الرائحة وطبية لا حصر لها، وأعشاب أخرى عادية شديدة البهاء، مغطاة بها ومزينة، وتضحك جميع الحقول... وكل جبالها وغاباتها... شاهقة الارتفاع... ومن أشجارها الصنوبر، ومنه توجد فى كل خطوة أعداد لا حصر لها؛ وتوجد أشجار البلوط، وقليل من أشجار الفلين، ويوجد السنديان، والغار، أو ما يشبهه على الأقل، وأشجار أرز ضخمة وعطرة، وأشجار الغواياكان التى تُشفى بها البثور وأمراض أخرى تسببها الرطوبة. وتوجد أنواع كثيرة من الأشجار العطرة، أَصْطُرَك وليكيدامبار البلسم(*) الطبيعى... ومَنْ ذا الذى يمكنه أن يحصى الأشجار المثمرة، وطراوة ثمارها وصحيتها وتنوع أعدادها، سواء المدجنة منها أو البرية؟... وما بين الجبال والغابات، وفى السهول كذلك... توجد جذور... أظنها أفضل وأكثر فائدة... من الموجودة فى أماكن كثيرة من العالم... الهواء المحلى نقى، وعليل، ورؤوف... وقلما تظهر الشمس... والمياه التى تسقى كل تلك الأرض القارية وتعيل أهلها الكثيرين... صافية، شديدة العذوبة، جارية، سريعة التدفق ونقية... وبما أن الأنهار لا عدّ لها، وكذلك الجداول والمسايل، وحيث إن الأرض التى تنبع منها وتجتازها كبيرة جداً، لذلك توجد فى هذه الأرض القارية أكبر الأنهار وأقواها فى استدارة العالم كله... وهكذا فإننا نقول الحق بأن أراضى الهند تلك هى الأكثر اعتدالاً، والأكثر صحية، والأكثر خصوبة، والأكثر سعادة ومرحًا ولطفًا، والأكثر ملاءمة فى سكناها لطبيعتنا البشرية من سواها فى العالم..."(١٣).

وصيد البحر والبر وافر ومتنوع – وكثيراً ما جرت ممارسة هذا الصيد بالشباك –، وتقدم منه أصناف شديدة التنوع من الأطعمة اللذيذة، لكن ما يشكل قاعدة تغذية هذه الشعوب البرمائية فعلاً هو السمك. وثمة جنس من الكلاب الداجنة، كان يُحتفظ بها فى

(*) ليكيدامبار Liquidambar : شجرة أمريكية تفرز سائلاً بلسمياً عطراً يستعمل فى الأغراض الطبية.

منطقة الانتيل لتقديمها فى المآدب الاحتفالية، سيتحول إلى الطعام المفضل للغزاة الذين أبادوه تماماً فى اسبانيولا. إن هذه الكلاب التى بقى منها حتى الآن بعض النماذج فى المكسيك، تمتاز بخاصتين نوعيتين: فهى خرساء ولا وبر لها. ويروى أوفييدو أنها لو ضُربت حتى بعصا أو بسكين فإنها لا تشكو إلا بإصدار همهمة خافتة لا تكاد تُسمع.

ويشار إلى وجود نحل أسود صغير كأنه الذباب، كان الهنود يربونه فى جوف القرع، ابتداء من شواطئ فنزويلا وحتى يوكاتان. وعسل هذه الحشرات التى لا تلدغ أميل إلى الحموضة وشمعه شديد الكثافة.

وتحتل الببغاء التى فتنت الأوروبيين مكانة هامة بسبب ريشها، وكذلك السلاحف ذات الحجم الكبير لدرجة أنها تعطى كمية من اللحم مماثلة لتلك التى يوفرها خروف، وثمة "سمك" غريب له شكل الزق وهو "من تلك الأسماك التى لم يتحدث عنها بلينيو Plinio ولا ألبيرت الكبير Alberto Magno ... ولم أسمع يوماً رجلاً من رجال البحر أو البر يقول إنه رآها أو سمع بها، إلا فى هذه الجزر وفى هذه الأرض القارية من بلاد الهند الأسبانية"(١٤). لقد كان الأطوم هو منحة العناية الإلهية للأسبان، بفضل لحمه "الأفضل من لحم البقر"، وشحمه الرائع وجلده المتين الذى أفاد فى صنع نعال جيدة للأحذية.

ومن الحيوانات الوحشية التى يعددها فيرناندث دى أوفييدو، هناك عدة أنواع من الأفاعى، ومن القرود، والنمور والتماسيح :"هذه الحرازين الضخمة التى يسميها الهنود كيمانات".

النبيذ الذى يُصنع فى الجزر من الفواكه، يسمى فى القارة التشيتشا chicha ، وهو شراب الذرة المختمرة المتشابه فى جميع أنحاء النصف الجنوبى من الكرة الأرضية، وقد شرح أوفييدو طريقة صنعه بدقة تتيح صنعه فى البيت. أما فى نيكاراجوا ويوكاتان فكان يغلب تناول مشروب العسل الممزوج بالماء.

والكاكاو، المجهول فى الجزر، هو المحصول الأساسى ابتداء من نيكاراجوا حيث يستخدم، كما فى يوكاتان، كوحدة نقد، وينقل إلينا الأب خوسيه دى كوستا، وهو أقل تآلفًا من أوفييدو مع القارة، ملاحظاته التى ما تزال طازجة، حول فرادة هذه الثمرة

الغريبة: "الفائدة الأولى لهذا الكاكاو هى عجينة يصنعونها منه ويسمونها شوكولاته، وهم يحبونها فى تلك الأرض إلى حد الجنون، وبعض من هم غير معتادين عليها يشعرون بالقرف؛ لأن لها رغوة تغطيها وفوران كالبران، وهى أخيراً شراب مفضل لديهم يقدمونه للسادة الذين يأتون أو يمرون فى أرضهم، وسواء الهنود أو الأسبان، وخصوصاً الأسبانيات اللواتى اعتدن على هذه الأرض، يموتون من أجل الشوكولاتة السوداء. ويقال إنهم يصنعون هذه الشوكولاتة بأشكال وحرارة متنوعة: ساخنة، وباردة، وفاترة. وهم معتادون على إضافة التوابل والفلفل الأحمر الحار إليها؛ كما أنهم يصنعونها كعجينة ويقولون إنها مفيدة للصدر وللمعدة؛ وضد الرشح. ومهما يكن ما يقولونه، فالحقيقة أن من لم يؤمنوا بهذا الرأى لا يحبونها"[١٥]. كما يذكر دييفو دى لاندا أيضاً دخول الفلفل الأحمر الحار فى صنع الشوكولاتة فى يوكاتان. ومن خلال الوصف المسهب الذى يقدمه فيرناندث دى أوفييدو للشجرة، وزراعتها، وثمرها، وجنيها، وطريقة طحن لوزاتها ومختلف الوصفات لطهوها، يكشف عن خصائص أخرى للكاكاو: فعجينته التى يغطى بها الرجال والنساء وجوههم تشكل مكياجاً أنيقاً ذهبياً يتغنون منه شيئاً فشيئاً بمساعدة إصبعهم : "... وهو يقيم أودهم طويلاً، ويروى ظمأهم وجوعهم، ويقى بشرة وجوههم من الشمس ومن الهواء. ويقول الهنود إن من يشرب الكاكاو على الريق، لا يتعرض للموت... حتى لو لدغته أفعى أو حية سامة"[١٦]. وفى يوكاتان، يدخل الكاكاو فى طقوس التعميد، بمزجه مع أزهار فى المياه البكر المستخرجة من شقوق الأشجار أو الصخور.

ونبات آخر عجيب "هو عندهم أغلى من الذهب" وهو يهدئ ويُشبع ويمنح القوة، وكانوا يدعونه *هادو* **hado** فى فنزويلا، ويات **yaat** فى *نيكاراجوا* وكوكا **coca** فى البيرو. ويشير لاس كاساس إلى وجوده فى كوبا، فبعد تجفيف هذه النبتة وطحنها إلى مسحوق ومزجها مع كلس الصدف المستخرج من القواقع البحرية، يجرى تناولها عند القيام بالأعمال التى تتطلب مجهوداً كبيراً، وكان السكان الأصليون يحملون هذه النبتة فى جوف قرعات صغيرة يعلقونها بأعناقهم أو على ظهورهم، "... وهم لا يمضغونها ولا يبتلعونها، ويخرجونها من أفواههم عند تناول الطعام أو الشراب...

فتبدو عندئذ وكأنها السبانخ المطبوخة". ولا يخفي لاس كاساس قرفه من تلك الكرات اللزجة المعلوكة باستمرار، ويؤكد فيرناندث دي أوفييدو أن أسنان من يستخدمونها - حتى الفتيان منهم - تكون سوداء دوماً.

وبالرغم من أن جذوع أشجار الصبّاغة الحمراء كانت أقل مما هي عليه في البرازيل، إلا أنها كانت منتشرة في جميع أراضي الكاريبي. كما كانت هناك أيضًا أشجار تُنتج صمغًا يشبه *البخور*، وأشجار أخرى تنتج بدلاً من الثمار "أقراصًا من الصابون" لها حجم ثمرة الجوز، وهي مغطاة مثلها كذلك بقشرة صلبة تخرج منها، في الماء، رغوة وافرة وتُنظف جيداً، وهناك وصف واسع للأعشاب والجذور الطبية، ولمفعولها العلاجي وأساليب استخدامها.

إن توزع منابع "القار" التي يذكرها أوفييدو تتفق من حيث الجوهر مع مواقع بلدان القارة المنتجة للبترول حاليًا، بما في ذلك كوبا. حيث كانت تتشكل طبقات زيتية ذات رائحة نفاذة تغطي البحر لمسافة فرسخين أو ثلاثة فراسخ من الشاطئ. ويبدو أن هذا السائل، الذي اشتد طلب الأطباء في إسبانيا عليه، كان فعالاً ضد النقرس وضد بعض *الأمراض التي يسببها البرد*.

وكان الملح، في جميع الأنحاء، وسيلة مقايضة تجارية، والحصول عليه يثير أوسع الإطراء من جانب المؤرخ. وإلى جانب *الملح الذي* كان يتم الحصول عليه عن طريق تبخير مياه *البحر*، كانت هناك في مناطق عديدة (هايتي، كولومبيا) "... جبال ملح شبه بلوري أو براق... تستخرج صفائح وصخور منه كما من مقلع. ولقد رأيت حجراً من *هذا الملح*... يزن أكثر من قنطار (أو أربع أرُبات(*))... وقد قال لي من جاؤوا بهذا الحجر وسواه، إنه يمكن استخراج صخور أخرى أكبر حجما منه... بحيث يمكنهم هناك بناء بيوت من مقلع الملح ذاك"(١٧).

وفي شمالي كولومبيا ووسطها يكثر الملح، وهو أبيض كالثلج وأفضل من ملح أسبانيا، ويوجد على شكل حبيبات أو رقائق، ويعتبر سكان بنما بارعين في استخراج

(*) أرُبا (arroba) : وحدة لقياس السوائل يتبدل مقدارها حسب نوع السائل، ولكنها في الوزن تساوي أحد عشر كيلو غراماً ونصف من الحبوب.

الملح، وتكتشف ممالح جيدة فى نيكاراجوا وبويرتوريكو. ويضيف لاس كاساس آلية حاذقة لالتقاط الماء المالح الذى ينبع من أعماق بعض الأنهار فى فنزويلا وكولومبيا: إذ تستخدم أنابيب من قصب البامبو الثخين كثخانة رجل، ويُستخرج الماء المالح بهذه الأنابيب قبل أن يختلط بالماء العذب ويُرفع إلى السطح "بالطريقة التى يستخرج بها الماء ويُنضح بمضخات السفن"(١٨).

أما الذهب واللؤلؤ والزمرد، فقد كانت أرض هذه القارة وأنهارها وبحارها تحتوى على كميات هائلة منه. كان الذهب يُستخرج من عروق تحت الأرض، وقد كلف استثماره، الذى كان يتولاه أول من يكتشفه، الكثير من الحيوات البشرية؛ كما كان يوجد بكثرة فى مجارى الأنهار وفى البحيرات، حيث لم يكن استخراجه أسهل بكثير: ولاستغلاله بصورة أفضل، كان الأسبان يحولون مجارى الأنهار، أو يجففون البحيرات ثم يمررون تراب القاع والضفاف من غربال. وقصص قطع الذهب التى يصل وزنها إلى عدة كيلوغرامات وتثير الإعجاب والحسد فى أوروبا، تغذى جميع كتب التاريخ. (وأكثر منها، قصص حبيبات التبر الصغيرة جداً والتى تكشف عن غنى الموقع الذى وُجدت فيه).

ويجمع فيرناندث دى أوفييدو قدراً كبيراً من المعلومات المتعلقة بالمعدن النفيس الذى يؤكد أن بريقه يتضاءل بعد الصهر، ويعلمنا أن كل الذهب تقريباً يولد من أعماق الجبال، وأنه لا يصل إلى الوديان إلا مجروفاً مع الأمطار من مكان المنشأ، وأنه يكتسب مزيداً من النقاء كلما ابتعد عنه، بحيث إن قيمته تتضاعف بعد ابتعاده نصف فرسخ. والفرق الذى يلحظه بين نوعية الذهب الذى يستخرج من باطن الأرض والذهب الملتقط من مجارى الأنهار الدنيا يحمل المؤرخ إلى الاستنتاج بأن سنوات طويلة تفصل دون شك بين هاتين المرحلتين من تطور التبر، ويروى كذلك أن السكان الأصليين يعرفون أسلوب "تذهيب" النحاس ومَنحه مظهر الذهب النقى، وأنه بالرغم من سعيه الدؤوب للبحث عن سر هذه الخيمياء التى ستُسعد، على حد قوله، صاغة أوروبا، إلا أنه لم يستطع سوى رؤية العشبة المستخدمة فى العملية دون أن يتمكن من معرفة ما هو أكثر من ذلك. ويشير بيدرو مارتين من جهته أيضاً : "ومعشرنا متأكدون من أن عرق الذهب الحى هو أشبه بالشجرة، لجذوره مسارات متشعبة، وهو يرسل من خلال الشقوق اللينة

والمفتوحة أغصانه وفروعه نحو القمم العليا للجبال، دون أن تتوقف حتى تبلغ هواء السماء. وما إن ترى بريق السماء، حتى تتشكل منها غدد ودرنات كأنها الثمار... وهذا ما تجرفه الفيضانات عبر الجزيرة كلها نحو المنخفضات، وفقا لقانون الجاذبية... ويقولون إن جذر شجرة الذهب يمتد إلى مركز الأرض وينمو هناك، لأنه كلما تعمق أكثر، تكون الجذور التي يجدونها أثخن..."[٢٠].

أما الذهب المشغول - وهو الوحيد المرئي وسهل المنال -، النادر في الجزر، فيتخذ أهمية خاصة على امتداد الساحل الفنزويلي والكولومبي؛ وتزداد وفرته من بنما إلى يوكاتان لتصل إلى نسب استثنائية في المكسيك أولاً، ثم في البيرو بعد ذلك، في "جحيم البيرو، الذي أدت قناطير ذهبه إلى إفقار إسبانيا ودمارها"[٢١]. فمع اكتشاف كنوز الإنكا أصبح كل شيء قابلاً للتصديق وتبلورت الأساطير؛ وتحولت بلدان خرافية إلى هدف لعمليات البحث الجزعة عن الذهب، وجرى تقديم وصف دقيق ومفصل لكنوز سرابية. وهو ما أشيع عن إلدورادو El Dorado ، العاهل الشهير الذي كان يغطي جسمه بعد الاستحمام بمسحوق الذهب. ولم يكن ينقص الوصف أي تفصيل: فميل هذا الأمير إلى التزين لا يخفي شيئًا من جماله الطبيعي، وهو، بازدرائه للأشياء التي يود أي سيد آخر أن يتحلى بها، كان يلمع من قدميه إلى رأسه بالمسحوق الثمين الذي يثبته بواسطة صمغ نباتي زكي الرائحة .

لقد وقع كولومبس على أغنى موقع للؤلؤ في أميركا بأسرها، وهي جزيرة صغيرة جافة ومقفرة إلى الشمال من فنزويلا، مسحورة بسلاحف عملاقة. ويبدو أن الأميرال حين رأى كمية اللآلئ التي حصل عليها بحارته مقابل أجزاء من أطباق مكسرة، قد هتف بانفعال: "أقول لكم إنكم في أروع أرض في العالم، ولنحمد الله كثيراً على هذا." وبالرغم من رغبته في الاحتفاظ بسر هذه اللقية، إلا أن الخبر وصل إلى أسبانيا، وبعد سنة من مرور كولومبس تمكن سَفَّان من العثور على جزيرة كوباغوا الصغيرة. فتوالت الحملات وكان صيد اللؤلؤ مكثفًا لدرجة أن القواقع اختفت وانقرض الغواصون بعد حوالي خمس عشرة سنة من ذلك.

وقد أدى لؤلؤ كوباغوا كذلك إلى نشوء أسطورة، وإن كانت من نوع يختلف عن أسطورة إلدورادو : إنها أسطورة أكل لحوم البشر والعصيان التي حولت الوطنيين من

خليج باريا وحتى بنما إلى طرائد صيد، إن تشييد حصن ودير فى كوباغوا، والنزاعات الدامية والتمردات التى شقت صفوف الفاتحين؛ واختيار الأب لاس كاساس جزيرة كوباغوا مقراً لمحاولته التبشيرية السلمية، تشير إلى أن جزيرة اللؤلؤ كانت موقعاً بالغ الأهمية، وتفسر انتفاضات بعض الوطنيين الذين اعتبروا قبل ذلك "ذوى طبيعة عذبة، بسيطة، بريئة ومضيافة"(٢٢).

وفيما بعد، اكتشف فاسكو نونييث دى بالبوا مكامن أصداف لؤلؤية فسيحة فى المحيط الهادى، حول جزيرة أطلق عليها كذلك اسم "جزيرة اللؤلؤ"، حيث بقى مشدوهاً أمام فخامة بعض المجاديف المرصعة باللؤلؤ. وبيدرو مارتير، الذى كان على اتصال دائم بالمراسلة مع هذا الفاتح، يزودنا بتفاصيل تقدم لنا، بغض النظر عن كونها حقيقية أو مزيفة، فكرة عن اهتمام المتروبول بالعالم الجديد: "كلما كانت القواقع أكبر، فإنها تستقر فى المواقع الأعمق؛ وأما القواقع الصغيرة، كبُنيّات، فتوجد أكثر قرباً من سطح الماء، والصغيرة جداً، كالحفيدات، تعيش عند سطح الماء تقريباً. وللوصول إلى القواقع الأكثر عمقًا لابد من النزول حوالى ثلاث قامات أو أربع قامات فى بعض الأحيان؛ أما البنيّات والحفيدات فيمكن الوصول إليها بالدخول فى الماء حتى مستوى الفخذ أو أقل من ذلك فى بعض الأحيان، وكثير منها يمكن العثور عليها فوق الرمال وقد اقتلعتها الأمواج وألقت بها إلى الشاطئ، وذلك حين يهدأ البحر بعد عاصفة هائجة"(٢٣). وبعد سنوات من ذلك يضفى انغليريا لهجة أكثر أكاديمية على تقاريره، ويرفض أن يدعم بسلطته العلمية الاعتقاد بأن اللآلئ تكتسب بياضها من الندى الصباحي، وأنها تزهو أو تتصلب حسب حالة السماء، إذ إن هذه "أمور تحتاج إلى بحث معمق"(٢٤).

ويشير أفييدو إلى وجود اللؤلؤ ابتداء من خليج باريا وحتى نيكاراجوا، حيث يؤكد أنه وجد بعضه فى القواقع التى كان الهنود يأتونه بها ليأكلها. وباهتمامه الدائم بالجزئيات، يقدم لنا معلومات مسهبة عن كل ما يتعلق بها: فالقواقع تتكاثر بشكل دوري، والمكامن المستنفدة تعود للاغتناء بعد زمن معين؛ واللآلئ التى تكون لينة فى الماء، تتصلب عندما تخرج إلى الهواء؛ وبعض الأصداف – التى تحتوى لآلئ ذات لون قاتم أو مائل إلى الاحمرار – يمكن استخدامها كأدوات للمطبخ أو كأدوات عمل فى

بعض الأعمال الزراعية؛ والغواصون يضعون القواقع التى يجدونها فى شباك صغيرة يعلقونها بأعناقهم أو بخصورهم[٢٥].

ويؤكد لاس كاساس فى كتابه القصة الموجزة لتدمير جزر الهند، أنه : " لا توجد حياة جهنمية ويائسة فى هذا القرن يمكن مقارنتها بتلك الحياة... فعيش الرجال تحت الماء، دون نفس، مستحيل لوقت طويل، مع الإشارة إلى أن برودة الماء تنخرهم، وهكذا فإنهم جميعاً يموتون عادة وهم يتقيؤون الدم من أفواههم... وتتحول شعورهم، السوداء فى حالتها الطبيعية، لتصبح محترقة مثل وبر الذئاب البحرية، ويخرج لهم فى ظهورهم حدبات، فلا يبدون إلا أنهم مسوخ..."[٢٦].

ويلاحظ الأب أكوستا بأسى أنه نظراً لكثرة اللؤلؤ المفرطة، وبعد أن كان فيما مضى حكراً على الملوك، أصبحت تحمله الآن حتى النساء الزنجيات.

وفى كاستيا دل اورو، وفى كولومبيا وفى البيرو يوجد زمرد، والحجارة الكريمة الكولومبية موجودة تحت الأرض واستخراجها يتم برى عرق الحجر بالماء إلى أن ينفصل عن التراب الذى يحيط به. أما زمرد البيرو، وهو الأجمل حسب جميع الشهادات، فكان يوجد داخل حجارة مرمرية شديدة البياض. وقد تمكن الأسبان من رؤية مناجم هذه الأحجار فى كولومبيا وحدها؛ أما فى بنما والبيرو فلم يتوصلوا مطلقاً إلى اكتشاف سر منشئها.

ليس هناك من يتكلم عن المنافع السحرية أو العلاجية للزمرد، وحين نرى أن الشىء ذاته يحدث بالنسبة للذهب واللؤلؤ، فإننا نتساءل عما إذا لم يكن ذلك نتيجة تجريد الوطنيين من هذه المعادن الثمينة إلى حد لم يُتح معه للمؤرخين الحصول على معلومات عنها كتلك التى توصلوا إليها، مثلاً، عن الكاكاو والتبغ، والمسألة أن فيرناندث دى أوفييدو يلجأ إلى بلينيو ليكتشف الخصائص السحرية لتلك الأحجار الثمينة، ويكتفى بإبداء الإعجاب بمظهرها.

ويفاجأ الأب أكوستا، الذى كتب فى أواخر ذلك القرن، بانخفاض قيمة بعض المواد التى كانت تعتبر ثمينة فى زمن آخر. ويروى أنه فى عام ١٥٨٧، رأى فى السفينة التى كان عائداً بها إلى إسبانيا صندوقين كبيرين ممتلئين بالزمرد،

ويروى قصة جوهرى إيطالى كان قد عرض مبلغًا طائلاً مقابل حجر كريم واحد، ثم رفض الشراء حين اكتشف وجود حقيبة مملوءة بمثل تلك الجواهر.

٣ - رذائل ووثنية :

استنادًا إلى أحكام الفقهاء، فإنه لا يمكن للوثنية أن تكون مبررًا للإبادة أو الاستعباد ما لم يرافقها عصيان وعادات فظيعة مُستنكَرة. وعلى هذا الأساس كذلك كان قبول العلامة الأب فيتوريا Vitoria ، الذى تجرأ على إنكار حق أسبانيا المطلق فى الغزو، وسلطة البابا فى منح الأراضى الأمريكية، بالحرب ضد آكلة لحوم البشر العصاة[٢٧]. وهكذا أيضًا، ولنثبت ما كان واقعًا، أعلن الدكتور سيبولبيدا أنه: "حين لا يكون الوثنيون سوى وثنيين وحسب ولا يمكن اتهامهم إلا بأنهم غير مسيحيين، وهو ما نطلق عليه اسم الكفر، فليس هناك من سبب عادل لمعاقبتهم أو مهاجمتهم بالسلاح..."[٢٨].

وللحال رأى الغزاة، كرجال عمليين، من أين ينفذون ليتغلبوا على هذا العائق، فتمسكوا فورًا بالاقتراح الثانى لمرشدهم الروحى: "وما الذى قد يحدث لأولئك الهمجيين خير من بقائهم خاضعين لملكة من يمكن لحكمتهم وصلاحهم ودينهم أن تحولهم من همجيين، ومن كائنات لا تكاد تستحق اسم الكائنات البشرية، إلى بشر متحضرين ضمن الحدود التى يستطيعونها؛ من فاسقين وماجنين، إلى أتقياء وصالحين؛ من زنادقة وخدم للشياطين، إلى مسيحيين وعبدة للرب الحقيقى...؟"[٢٩].

ويكشف لهم سيبولبيدا "الرائد"، مدفوعًا بتعاطفه مع الصليبيين البطوليين، عن المشيئة الإلهية: "... علينا أن ننظر بمقتضى الشريعة الإلهية والطبيعية، لكى يمتنع [الأمريكيون] عن جرائمهم، وخصوصًا تلك التى تُغضب الطبيعة والرب صانعها، حيث إن الخطيئة الكبرى الشائعة بينهم هى الوثنية... وبالتالى، إذا ما أرجأنا معاقبة هذه الجرائم التى يغضب الرب منها شديد الغضب، فإننا نستفز صبر الذات الإلهية، لأنه لا يوجد ما يغضب الرب أكثر من عبادة الأوثان..."[٣٠]. فلنتابع الغزاة إذن فى أكثر صيد مثمر عرفه العالم.

ومن بين الرذائل المشينة، كان الشذوذ الجنسي هو الجريمة العظمى، والذى كان يُخرج الغزاة عن طورهم ، فما إن جرى اكتشاف هذه "الخطيئة المنافية للطبيعة" حتى صارت مرئية فى كل مكان، ويبدو أن الجزر كانت بريئة من هذه التهمة، وحول هذه النقطة يفند لاس كاساس، بكل ثِقل معارفه، اتهامات فيرناندث دى أوفييدو، فهو أمر لا تؤكده تقارير هذا الأخير إلا ابتداء من فنزويلا، ويلاحظ دييغو دى لاندا غيابه فى يوكاتان[٢١]. إن حماسة أوفييدو تنم عن سخط حقيقى : فهو يسعى جاهداً لتقديم ذلك الشذوذ من خلال وصف يطال ملابس، وتصرفات، وأساليب أولئك المسوخ، وكذلك وضعهم الاجتماعى. ويتحدث مراراً وتكراراً عن الصدمة التى أثارتها فيه، فى سانتا مارتا، رؤية حلية تمثل التحام رجلين، أما فاسكو نونييث دى بالبوا، الذى كان قليل الإطلاع على العالم الإغريقى المحترم جداً، مثله فى ذلك مثل المؤرخ الشهير، فقد أحرق من جهته، فى زمنه، ودفع إلى براثن الكلاب عشرات المراهقين المسالمين بتهمة الشذوذ، والأب لاس كاساس وحده هو الذى يلوم فاتح كاستيا دل أورو وينكر عليه حق التصرف كقاض.

خطيئة أخرى تدفع إدانتها الفظة إلى الحيرة اليوم هى استخدام التبغ: "ويستخدم هنود هذه الجزيرة، من بين رذائلهم، رذيلة شديدة الخبث، وهى تعاطى نوع من الدخانيات، يدعونه تاباكو، ليفقدوا حواسهم. ويفعلون ذلك بدخان نوع من الأعشاب، لها حسبما تناهى إلى علمى خصائص البنج؛ ولكنها ليست على شكله أو صورته، فى المظهر المرئى، لأن هذه العشبة هى نبتة يصل ارتفاعها إلى أربعة أو خمسة أشبار، أو أقل من ذلك، ولها أوراق عريضة وثخينة، بيضاء وذات زغب... وهم يتعاطونها على هذا النحو: يملك الزعماء وعلية القوم نوعا من العيدان الجوفاء، طولها شبر أو أقل، وهى بثخانة إصبع اليد الصغرى... وكلها من قطعة واحدة. ويوضع طرفها فى فتحة الأنف، والطرف الآخر فى الدخان أو فى العشب المشتعل أو المحترق؛ وهى معدة جيداً ومشغولة بإتقان. ويحرقون أوراق تلك الأعشاب المطوية أو الملفوفة... ويستنشقون النَفَس أو الدخان، مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أكثر، بقدر ما يستطيعون الاستمرار، إلى أن يفقدوا الوعى لفترة طويلة، وينطرحون أرضاً ثملين أو مخدرين فى نوم ثقيل وعميق، والهنود الذين لا يملكون مثل تلك العيدان الجوفاء، يتعاطون ذلك الدخان

بأنابيب أو مواسير من نبات السُعْد (السُعاوى)، ويطلق الهنود على تلك الأداة التى يتناولون بها الدخان، أو على الأنابيب المذكورة اسم تاباكو، وهم لا يطلقون هذه التسمية على العشبة أو على الخدر الذى يتولاهم (كما خيل للبعض)، وهذه العشبة موضع فخر لدى الهنود، وهم يزرعونها فى بساتينهم وحقولهم من أجل هذا الاستخدام المذكور: مقتنعين أنفسهم بأن تعاطى تلك العشبة، ليس أمراً صحيحاً وحسب، وإنما مقدس كذلك... وأنا لا أستطيع تصور المتعة التى ينالونها من عمل كهذا، اللهم إلا نهمهم إلى الشراب قبل تعاطيهم الدخان أو التبغ (تاباكو). وأنا أعرف أن هناك من المسيحيين من بدؤوا يتعاطونه وخصوصا بعض المصابين بقروح خبيثة، وهم يقولون *إنهم فى الوقت الذى يكونون فيه غائبين عن الوعى لا يشعرون بآلام دائهم...* وفى الوقت الحالى ثمة زنوج كثيرون ممن فى المدينة وفى الجزيرة بأسرها قد أدمنوا هذه العادة، وهم يزرعون هذه العشبة فى مزارع أسيادهم وأملاكهم، ويتناولون ذلك الدخان والتبغ؛ لأنهم يقولون إن تناولهم التبغ بعد انتهائهم من العمل يخلصهم من التعب والإرهاق"[٣٢].

كان تعاطى التبغ على شكل سجائر أقل شيوعًا فى القارة. ففى فنزويلا كان يستخدمه المنجمون، حيث يرون فى طريقة تلوى الأوراق عند احتراقها، ردود "الشيطان" (إذ كان أحدهم يستشيره قبل البدء بمسيرة، أو قبل الذهاب إلى الصيد البحرى، أو ليعرف إن كانت حملة الصيد ستكون مجدية أو ليعرف إن كان محبوبًا من امرأته.) أما فى نيكاراجوا فكان يُقدم للمدعوين إلى الولائم، ومع أن هذه المآدب كانت ذات صبغة احتفالية دومًا، فإن الوصف الذى يقدمه لنا أوفييدو للمشهد، وكان قد حضر إحداها، يجعلها تبدو لنا كنموذج سالف لاجتماع معاصر: "وما إن بدؤوا بتناول الشراب، حتى أحضر الزعيم نفسه حزمة من التاباكو طول كل منها حوالى شبر ورفيعة مثل إصبع ومصنوعة من ورقة معينة ملفوفة ومربوطة فى موضعين أو ثلاثة مواضع بخيوط رفيعة تُستخرج من نبات السيزال؛ وتلك الأوراق ونبتاتها تزرع بعناية شديدة من أجل صنع هذا السيجار، ويشعلون أحد طرفيه قليلاً، ثم يواصل احتراقه... إلى أن ينتهى الاحتراق، وهذا يدوم طويلاً. وهم يدخلونه بين حين وآخر فى الفم من الجانب المعاكس للطرف المشتعل، ويمصون قليلاً من ذلك الدخان، ثم ينزعونه ويُبقون

أفواههم مطبقة، ويوقفون أنفاسهم قليلاً، ثم يتنفسون فيخرج ذلك الدخان من الفم والأنف. وكل واحد من الهنود الذين ذكرتهم، كان معه واحدة من هذه الأوراق الملفوفة..."[٢٣].

إن إحدى خصائص التبغ غير المتوقعة هي فائدته كملين معوى[٣٤]. ومع ذلك، فإنه يدخل في يوكاتان في طقوس العماد: حيث يقوم الكاهن بنفث الدخان تسع مرات في وجه الطفل قبل أن يجعله يشم عطر باقة زهر يحملها في يده[٣٥].

ويبدو مستحيلاً وضع قائمة بجميع الخطايا الكبرى، لأن جميع الوطنيين كانوا بطبيعتهم مرشحين للجحيم في عيون أعدائهم ، لدرجة أن لاس كاساس حث مواطنيه في عدة مناسبات على ألا يكونوا أكثر تشدداً من الرب نفسه، لأن الرب يقبل، كما هو واضح، بوجود مخلوقات يرون هم بوجوب تدميرها باسمه. ولم يبق مؤرخ، سواء من مؤرخي البلاط أو ممن شاركوا في الفتح، إلا وأدرج في كتاباته، وكما لو كان ذلك واجبًا، سلسلة طويلة من الشتائم، حتى ولو وصل بهم الأمر إلى التناقض مع تأكيدات هامة: "... إنهم لوطيون كبار. كسولون، كاذبون، جاحدون، متقلبون ودنيئون"[٣٦]، وكانت جميع هذه الرذائل مرتبطة في نظرهم ارتباطًا وثيقًا بالبنية الاجتماعية، مما دفع لاس كاساس لأن يكتب لتفنيدها آلاف الأوراق التي شكلت كتابه تاريخ دفاعي، وهو أنبل كتاب أبدعه البشر على الإطلاق. وقبل أن نلقي نظرة على تلك العادات "المستنكرة"، سنرى إلى أي شيء تستند تهمة الوثنية التي مازالت تستند إليها الإدانة المطلقة للشعوب الأمريكية.

(أ) وثنية

إذا كان جميع الشهود قد أثبتوا غياب الإيمان والديانة في الجزر وفي معظم أرجاء القارة، فإن أيًا منهم لا يأتي على ذكر معتقد أو سلوك إلا ويبدى رعبه حول السلطة التي يتمتع بها الشياطين على البرابرة. ويوجز غومارا معارف الفاتحين في قوله: "الرب الأساسي لهذه الجزر هو الشيطان"[٣٧]، ويؤكد فيرناندث دى أفييدو هذا المعنى بعبارة عجرفة مشؤومة : "لقد أُقصي الشيطان عن هذه الجزيرة؛ وانتهى كل شيء مع إنهاء حياة معظم الهنود والقضاء عليهم، لأن الذين بقوا منهم هم قلة قليلة

يعملون فـي خدمة المسيحيين"[٣٣]. وحتى لاس كاساس لم يفـلت من هذه القنـاعة؛ فـهو يعتـقد بأن الشـيطان هو مثـير الظواهر الغريبـة الخارقة للطبيعة التى يعترف بصحتها، مثل آخرين كثيرين من مواطنيه.

وتوجد أوصاف تفصيلية ومختلفة تمامًا لظهور الشيطان :"... ولم أجد بين هذه السلالة شيئًا ... يحظى بأولوية التوقير والطاعة مثلما هى صورة الشيطان البغيضة والمنبوذة، والتى توجد مرسومة بأشكال كثيرة متعددة، أو منحوتة، أو على هيئة شبح ذى رؤوس وذيول متعددة، وبأشكال مشوهة ومرعبة، وبنواجذ وأسنان وحشية، وبأنياب كبيرة وآذان هائلة، وبعيون متوقدة كعيون التنـانين والحيـات الفتـاكة..."[٣٣]. ويؤكد بيدرو مارتير من ناحيته، أن أوثان الجزيرة تشبه آلهة الجحيم، وأن أحد التماثيل الموقرة فى نيكاراجوا "هى أشبه بالآلهة الجهنميين يرسمونها على الجدران لإخافة البشر"[٣٤].

ومن المثـير للفـضول رؤية كيف يتوارى هذا الشبح الوهمى حين يجرى تناول القضية بصورة محددة: فالاستحضارات الرهيبة تتحول حينئذ، وبدون استثناء، إلى مجرد صور. ويقتصر لاس كاساس على إثبات قبح المنحوتات الخشبية، وبيدرو مارتير على إثبات المظهر الشبحى للأشكال المصنوعة من القطن. ويبدو أنها لم تكن تستخدم فـى الحقيقة لأى غرض آخر سوى تمثيل رجال أو حيوانات أو نباتات، ولم تكن أشكال الأشباح سوى صور آدمية مصنوعة من القطن المنسوج والمحشو، وربما بسبب بياضها الناصع كانت "تشبه الأشباح التى يرسمها فنانونا على الجدران"[٣٤].

بإقصاء الشيطان إذن من الجزيرة مع الأجساد التى كان قد سحرها، فإن المعلومات الوحيدة المحفوظة حول الأوثان وعبادتها هى التى جُمعت عام ١٤٩٤ بناء على طلب كريستوف كولبس، على يد رامون بانيه Ramon Pane ، الذى ستصبح كتاباته مصدر معلومات لجميع المؤرخين. فإضافة إلى الأشكال الآدمية المصنوعة من القطن، يذكر بيدرو مارتير، محاكيًا بانيه، السيمى "cemis" ذات الشكل والمظهر الإنسانى – واحد منها فقط، مصنوع من المرمر، ويمثل امرأة –؛ و "ذوات الأربع" التى قد تكون كلابًا أو نمورًا، أو أشياء أخرى هى عبارة عن أحجار أو أجزاء عظام كان السحرة يستخرجونها من المرضى. وبعد أن ينسب بعض الأوثان الغريبة إلى قاطنى

الشواطئ الفنزولية، يروى لاس كاساس أن "... جميعهم كانوا يدّعون لأنفسهم إلهًا مشتركًا بينهم جميعًا، وكان هذا الإله هو الشمس..."[٣٥]، ويقول إنه عرف من بعض الآباء الجيزويت بأن الأوثان والآلهة على السواء ليست معروفة فى البرازيل، ولكن الرعد بالمقابل، معبود هناك كشيء إلهى وخارق. ويؤكد كذلك غياب الأوثان فى سائر منطقة الكاريبى حتى نيكاراجوا ويشير إلى وجود إله "حقيقى" هو بدء سائر الأشياء، وموجود فى السماء[٣٥]. وفى منطقة كوباغوا، التى كان يعرفها جيداً، يكتشف لاس كاساس الوجود الغريب للصلبان (صليب سان اندريس والصليب اليونانى)(*)، وقد وصف غوامارا كيفية عبادتها: "بين الأوثان والرسوم الكثيرة التى هى عندهم بمثابة الآلهة، يوجد شكل متقاطع يشبه صليب سان اندريس، وعلامة مربعة، ومغلقة ويخترقها صليب من زاوية إلى أخرى، وقد قال كثير من الرهبان ومن الإسبان إنه صليب، وإنهم يتقون به أشباح الليل، ويضعونه للأطفال عند ولادتهم"[٣٦]. وأوفييدو، الذى أقام زمنًا طويلاً فى بنما، لا يذكر إلا عبادة الشمس والقمر، ولكنه بالمقابل، يسهب فى الحديث حين يتناول معتقدات نيكاراجوا، حيث أجرى أحد الرهبان استقصاء منهجيًا، وبالاستناد إلى ملاحظاته الخاصة وكذلك إلى المعلومات التى أعدها الأب فرانثيسكو دى بوباديللا Bobadilla ، ومنها يستنسخ تقاريره، يشير أوفييدو إلى وجود أوثان من الخشب ومن الطين المشوى، إضافة إلى رؤوس غزلان منحوتة، ورسوم للإله المتمثل بهذا الحيوان، ومن قراءة التقارير يُستنتج أن المعتقدات الدينية فى نيكاراجوا تكاد تكون مطابقة للديانة المكسيكية، وذلك فى ثنائية الإلهين الخالقين، وفى حساب الزمن، وفى أسطورة الطوفان المشابهة جداً.

يتحدث لاس كاساس عن أعداد من المنحوتات الخشبية التى لها حجم الإنسان، وجوهها من الشمع، تبدو وكأنها صور للأسلاف، وجدت فى كولومبيا[٣٧]. ويؤكد دييغو دى لاندا هذا الافتراض حين يصف منحوتات يوكاتان التى تضم رفات الموتى البارزين الذين أعيد صُنع قوالب لرؤوسهم الأصلية بواسطة الراتينج. ويحدثنا أوفييدو بأنه كان هناك فى كولومبيا شفعاء للبشر يتوسطون لهم أمام الشمس والقمر، ويصف بعض

(*) صليب سان اندريس يتألف من خطين متساويين أحدهما عمودى والآخر أفقى، يتقاطعان فى منتصفهما تمامًا. أما الصليب اليونانى فهو يشبه إشارة (X) .

المنحوتات الكبيرة، التى بحجم الساعد، والتى كان الوطنيـــون يحملونها دومًا معهم، فـى سلة، وهذه الأشكال الموقرة إلى أبعد الحدود من جانب السكان الأصليين، ساعدت مع ذلك الفاتحين؛ أولاً وقبل كل شىء لأنها كانت تعيق حركة المحاربين الوطنيين، وثانيًا لأنها استثارت جشع الإسبان الذين حاولوا الاستيلاء عليها، إذ سرعان ما انتبهوا إلى أن هذه التماثيل الجوالة التى يعلقها خصومهم بأذرعهم كانت : "... من الخشب، مجوفة، وكبيرة حتى لتبلغ طول الذراع من المرفق إلى الكتف، وفـى جوفها، يوجد تمثال آخر من الذهب المُصْمَت، وعند بطنه، الذهبى من الخارج، يوجد عدد من حجارة الزمرد"[٣٩]، ويؤكد أوفييدو أن السكان الأصليين كانوا يرون فـى إقبال مواطنيه على اقتناء هذه الصور المقدسة دليلاً على الورع الدينى.

ولننتهى من تجميع هذه المعلومات الغامضة والمشكوك فيها، نورد مقطعًا يشير إلى الروح، ويوضح أكثر من أى سواه الآلية التى كانت تحوّل أكثر الظواهر إلفة إلى ظواهر غريبة يصعب التعرف إليها : "إنهم أناس بسطاء جداً، لا يعرفون إطلاق أى تسمية على الروح ويجهلون فضيلتها، ولشدة ذهولهم من ذلك الشىء غير المرئى وغير المفهوم الذى يحرك الأعضاء البشرية وأعضاء البهائم، فإنهم يؤكدون أنه سر لا بد له من أن يستمر بعد الحياة الجسدية؛ وهم يؤمنون بأن ذلك الشىء غير المعروف، إذا ما عاش دون أن يتلطخ ونأى بالجسد عن إلحاق الضرر بأحد، فسيذهب ليتمتع بنوع من السعادة الأبدية؛ أما إذا تسببوا بالمقابل بتلـوثه بشىء من وحل الفجور، أو الســرقة أو الغضب الهائج، فهم مقتنعون بأن ألف عذاب ينتظرهم فـى أماكن كئيبة تحت مركز الأرض"[٤٠].

اللاذع فـى القـضـيـة هو أن الجـانب الأسـاسى فـى هذه الرواية يتطابق مع الكاثوليكية، فإذا كان صحيحًا أن "*هذا الشىء الداخلى غير المعروف*" يحتل موقعًا أساسيًا فـى حياة الوطنيين – ألم نر أن الإسبان يتبجحون باصطيادهم لأعداد كبيرة من العبيد لمجرد الوعد بحملهم إلى الجنة ؟ –، فإن صحة الجحيم الذى وصفه رجل البلاط الإيطالى بالمقابل غير محتملة. وكل هذا يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن فكرة العالم تحت الأرضى (السفلى)، فـى أميركا، لا تحتمل وجود أية أشباح مشوّهة من عصورنا الوسطى، ولكى لا نشير إلا إلى المنطقة الأنتيلية، فإنه لذو مغزى أنه إجابة

على السؤال حول ما الذى يحدث للفرد بعد موته، رد مخبرو بوباديللا بأن الأخيار يذهبون إلى السماء – هناك حيث تولد الشمس – وأن الأشرار يذهبون بالفعل إلى تحت الأرض، ولكن ليختفوا هناك، متحولين إلى هيكل عظمى؛ فالأشرار يدفنون ولا شىء سوى ذلك : "... وإذا ما عاش خبيثًا فإنه يموت ويفنى مع الجسد ولا يبقى منه أى ذكرى"(٤١). بهذا المفهوم، فإن اختفاء الجسد هو القاعدة، أما القلب وحده، أو ذلك الشىء الغامض الذى بفضله يحيا البشر، فيصل إلى الشمس. وقد كان الانتحار أحد أساليب الوصول إلى الخلود فى يوكاتان، وهو شكل من الموت يقع تحت حماية الربة إختاب.

(ب) كهنة الشيطان

إن الغموض الذى يحيط بمفهوم الألوهية وتجلياته يختفى عند تدقيق المعلومات المتعلقة بمن يقومون بالخدمة الدينية، حيث إن رفعة مقامهم وامتيازاتهم تتيح تخمين سبب ضآلة الاهتمام بالآلهة. وفعلاً، فهم فى منتصف الطريق بين السحر والكهانة، ليسوا وسطاء فقط، وإنما هم كذلك إناء تنطق من داخله آلهة الجماعة؛ إنهم منحوتات حية، فعالة أكثر من سواها وموقرة "مثلما يوقر المسيحيون فى العادة كردينالاً وأكثر، لأن الهنود يرون أن هؤلاء [الكهنة] هم قديسون وأشخاص مُؤَلَّهون لا يخطئون..."(٤٢).

إن التأكيد بأنهم "يعبدون الشيطان ويتحدثون إليه..."(٤٣) هو من أكثر التأكيدات تواتراً، ومطابقة الكهنة مع الإله تبدو ثابتة بسبب عادتهم فى الرد على الاستفسارات بالدخول أحيانًا إلى جوف الآلهة المجوفة، أو للدور الذى يقومون به فى صنع المنحوتات، إذ لم يكن ممكنًا تحويل أى مادة خام إلى صورة مقدسة دون إقرار الكهنة المسبق بنوعيتها الخارقة، ويتحدث رامون بانيه، أول إثنولوجى فى أميركا، عن الفحص الذى كانت تخضع له الشجرة قبل الموافقة على استخدام خشبها. وروايته هذه جديرة بأن نوردها لكونها الوحيدة المتوفرة: "حين يكون أحدهم ماشياً فى الدرب ويبدو له أنه يرى شجرة تهتز حتى جذورها، فإن ذلك الرجل يتوقف مذعوراً، ويسألها من تكون؛ فيأتى الرد من الشجرة : "أحضر بوهيتيهو buhitihu إلى هنا وسيخبرك هو من أكون" فيذهب ذلك الهندى إلى الطبيب، ويخبره بما رأى. فيمضى المشعوذ أو الساحر عندئذ

إلى الشجرة التى حدثه عنها الآخر، ويجلس إلى جوارها ويأخذ الكوهويا cohoba ... وبعد أخذه الكوهويا ينهض ويخبرها بجميع ألقابه، وكأنها ألقاب سيد عظيم، ثم يقول لها: "أخبرينى من أنت، وما الذى تفعلينه هنا، وماذا تريدين منى ولماذا استدعيتنى؛ أخبرينى إن كنت تريدين أن أقطعك، أو إن كنت تريدين المجيء معى، وكيف تريديننى أن أحملك؛ سأشيد لك بيتًا مع فناء" حينئذ تجيبه الشجرة أو السيمى cemi ، المتحولة معبوداً أو شيطاناً، وتخبره عن الطريقة التى تريده أن يفعل ذلك بها. فيقطعها الساحر ويفعل ذلك بالأسلوب الذى أمرته به، ثم يبنى لها بيتًا مع باحة، ويقدم لها الكوهويا عدة مرات فى السنة، ويكون هذا الكوهويا لتكريمها، ولاسترضائها، كى يطّلع من السيمى على بعض الأمور الخبيثة أو الطيبة، وليطلب منها الثراء أيضًا، فحين يريدون أن يعرفوا إن كانوا سينتصرون على أعدائهم، فإنهم يدخلون بيتًا لا يدخله أحد سوى الرجال العارفين؛ وسيدهم هو الذى يبدأ بتعاطى الكوهويا ويعزف على آلة موسيقية. وبينما هو يتعاطى الكوهويا لا ينطق أى واحد من مرافقيه بكلمة إلى أن ينتهى. وبعد أن ينهى خطابه، يبقى خافضاً رأسه لبعض الوقت وذراعاه على ركبتيه؛ ثم يرفع رأسه بعد ذلك ناظراً إلى السماء ويتكلم. فيرد عليه الجميع عندئذ معًا بصوت عالٍ، وبعد أن يتكلموا جميعهم ليشكروه، يروى لهم الرؤيا التى أبصرها وهو ثمل بالكوهويا التى تناولها عبر أنفه وصعدت إلى رأسه..."(٤٤).

ولا يفعل لاس كاساس سوى استنساخ ملاحظات الراهب الكتلانى بانيه، ووصفه للكوهويا مطابق تماماً للوصف الذى يقدمه فيرناندث دى أوفييدو لتعاطى التبغ: فهى عشبة تُحرق، ويُستنشق دخانها بواسطة أنبوب ينتهى بشعبتين تدخلان فى فتحتى الأنف. ولا أحد يعرف إن كانوا يتناولون التبغ وحده أم أنه كان يمزج بعناصر أخرى لبلوغ النشوة، ولكن الجميع يذكرون ارتشاف الكحول قبل "التدخينات".

إن ملخص الوظائف الاجتماعية للأطباء السحرة فى فنزويلا ينسحب على منطقة الكاريبى بأسرها: "هؤلاء البوراتيو boratios هم رهبانهم، ولدى كل شعب كبير يوجد بوراتيو، يلجأ إليه الجميع ليسألوه عن الأمور التى ستحدث، ويسألوه إن كانت ستمطر أم أن العام سيكون ممحلاً أو وفيراً، أو إن كان عليهم خوض الحرب ضد أعدائهم أو عدم الإقدام على ذلك، وإذا كان المسيحيون أخياراً أم أنهم سيقتلونهم... ويقول لهم

البوراتيو إنه يجيبهم بمقتضى مشورته مع الشيطان. ومن أجل هذا الحديث والمشاورة يعتكفون فى كوخ وحيدين؛ وهناك يتعاطون دخانا يسمونه تاباكو، وهى الأعشاب التى تجعلهم يفقدون الحواس؛ ويبقى البوراتيو يومًا ويومين وثلاثة أيام، أو أكثر فى بعض الأحيان... وحين يخرج، يقول: لقد قال لى الشيطان كذا، مجيبًا بذلك على الأسئلة التى سألوه إياها... ويعطون للبوراتيو مقابل هذا العمل حلية ذهبية وأشياء أخرى"(٤٥).

إن هؤلاء الوسطاء الإلهيين والعرافين والأنبياء، هم دون شك أطباء يعرفون الخصائص العلاجية لمواد العالم المحيط بهم. وبموهبته الاستثنائية فى التركيب يكوّن غومارا لوحة وصفية جيدة لممارساتهم: "عندما يتوجب التنجيم والإجابة على ما يوجه إليهم من أسئلة، يأكلون نوعًا من الأعشاب يسمونه كوهويا، تكون مطحونة أو يطحنونها بأنفسهم، أو أنهم يتناولون دخانها عبر أنوفهم، فيفقدون بذلك وعيهم وتبدو لهم ألف رؤيا، وحين ينتهى مفعول العشبة، ويعودون إلى رشدهم، يروون ما رأوه وما سمعوه فى مجلس الآلهة... ولعلاج داء ما، يأخذون كذلك من عشبة الكوهويا تلك التى لا وجود لها فى أوربا؛ ويحبسون أنفسهم مع المريض، فيدورون حوله ثلاث أو أربع مرات، ويطلقون الزبد من أفواههم، ويقومون بألف حركة من رؤوسهم ثم ينحنون على المريض فيمصونه من قذاله، قائلين إنهم يسحبون منه فى ذلك الموضع كل الداء، ثم يمرون بعد ذلك بأيديهم على سائر أجزاء جسده حتى أصابع قدميه، ثم يخرج المداوى ليلقى بالألم خارج البيت، ويكون فى بعض الأحيان حجرًا أو قطعة عظم أو لحم يحملها فى فمه، ويقول إن المريض سيشفى هكذا، لأنه سحب منه ما كان سبب العلة؛ وتحتفظ النساء بتلك الأحجار للتفاؤل بها، كأنها آثار مقدسة... وهنالك عجائز كثيرات طبيبات، وهن يقذفن الدواء فى الفم بواسطة بعض الأنابيب..."(٤٦).

إن هذه العمليات ما تزال شائعة الاستخدام فى معظم أرجاء أميركا، وما زالوا يمارسون بدقة مثيرة للذهول الأسلوب الذى كان مستخدمًا فى القديم. ولهذا فإن أهمية الفقرة السابقة مزدوجة، إذ إن هذه العادات تظهر فيه مبتورة من سياقها ومغزاها الخاص، كما هو حال ما بقى من التقاليد ما قبل الكولومبية فى أيامنا: فهى مقطوعة من جهة عن سياقها الأخلاقى والاجتماعى، ومن جهة أخرى، عن المفعول العلاجى للأعشاب الطبية، لأن هذه الأساليب لم تكن سوى خرافات تافهة وخطرة سواء

فـى نظر المؤرخين القـدمـاء أو فـى نظر السـحـرة المعـاصـرين. ونظراً لندرة مـثل هذه الوثائق التى لا تثمن بالنسبة للأنثروبولوجيين، فإننا نستنسـخ رواية أخرى يضيف فيها غومارا بعض الاختـلافات الطفيفـة : "إنهم يعالجون بالجـذور النيئـة أو المطبوخة أو المطحونة، وبشحم الطيور والأسماك والحيوانات، وبالعيدان، وبأشياء أخرى لا يعرفها العامة، وباستخدام كلمات شديدة التعقيد حتى أن الطبيب نفسه لا يفقهها، وهى من أعراف السحرة. وهم يلحسون موضع الألم ويمصونه، ليسحبوا الـداء الذى يسببه ؛ ولا يبصقون ما يستخرجونه حيث يوجد المريض، وإنما خارج البيت. فإذا ما ازداد الألم أو ازدادت حرارة المريض وعلته، فإن البياتشيين piaches يقولون إن فيه روحًا ويمسحون بيـدهم على سـائر الجسـد. وينطقـون بكلمـات سـحـرية، ويلحسـون بعض المفـاصل، ويمصون بقوة وبكثرة، موحين بأنهم يلحسون ويستخرجون الروح. ثم يأخذون عوداً من شجرة معينة، لا أحد يعرف فائدته سوى البياتشي، ويدعكون به الفم والحلقوم، إلى أن يتقـيأ المريض كل مـا فـى مـعدته، ويتقـيأ فـى أغلب الأحـيـان دمًا، وذلك لكثرة مـا يستخدمون من قوة أو لخصائص موجودة فـى العود. ويئن، ويزعق، ويختلج، ويضرب بقدميه، بينما يقوم البياتشى بألف عمل يبعث على الغثيان؛ ويتعرق لساعتين خيوطاً وخيوطاً من صدره، وأخيراً، يقذف من فمه شيئاً كالبلغم الكثيف فـى وسطه كرة قاسية وسوداء، يحملها أهل بيت المريض إلى البرية ويرمونها..."[٤٧].

ولا يراود غومارا الشك فـى أن هؤلاء الأطباء يقيمون علاقات حميمة مع أمير الظلمـات. وفـعـلاً، فـإنه يروى أن راهبًـا يدعى بيـدرو أورتيـز وآخـرين من الآباء الفرنسيسكان والدومينكانيين قد أدلوا بأقـوال أمام مجلس بلاد الهـند وأكدوا أن "... الشيطان يدخل أحيانا فـى البشر، ويقدم إجابات صحيحة فـى العادة"[٤٧]، كما يتحدث عن نبوءة كانت محصلتها صحيحة.

ويؤكد بيدرو مارتير على الجهد الذى تتطلبه تلك الممارسات، ويتذكر ذهول الآباء الدومينكانيين لدى رؤيتهـم أن "البياتشى" لا يقضى نحبه نتيجـة ذلك الهيـاج الذى لا يُصدَّق. وقـد سـأل أحدهم السـاحر عن السبب الذى يجعله يُخضع نفسه لذلك التعذيب. وأجابه الأخصّائى إنه "من الواجب عمل ذلك لإخراج الشيطان من أحشاء المريض، باستمالته إليه بأناشيد متسلطة وباللمس والملاطفة.

ويحدد أوفييدو بأن الطبيب فى فنزويلا يُخضع المريض مسبقًا لاستجواب حول مرضه، ورغبته بالشفاء وإيمانه بقدراته. وفى حالة الرد السلبى، ينصرف. ولتحرى المستقبل يقوم السحرة بخلوات فى معابد مظلمة أو فى الغابات، حيث ينادون "الشيطان" بالصراخ[٤٩]. ويتسبب اللقاء بإلحاق آلام رهيبة بالبياتشى.

أما التشيلان chilan فى يوكاتان، وهو ساحر على اتصال بالشيطان أيضًا وطبيب فى الوقت نفسه، فيستخدم فى العلاج فصد الدم[٥٠].

يستمر إعداد المرشح ليكون ساحرًا مدة سنتين، وكثيرًا ما يتعرض المراهقون المختارون لهذا العمل لاختبار قاس سواء لمقاومتهم الجسدية أو العصبية. ويتألف هذا الاختبار من خلوات طويلة على انفراد فى غابة، وصوم، وأساليب أخرى للتطهر وزيارات، ليلية فقط، إلى حكماء مسنين يكشفون للشبان المبتدئين أسرار المهنة[٥١].

وكان كهنة الجزر، العراة مثل بنى جنسهم، يحملون على أجسادهم عدة رسوم، إحداها معصوبة الجبهة. وكانت هذه الرسوم، فى القارة، موشومة على الجسد بصباغ أسود لا يمحى؛ أما الأردية الطويلة البيضاء، المشابهة لتلك المستخدمة فى يوكاتان، فلا تظهر إلا فى نيكاراجوا.

وإذا كان للامتناع الجنسى أهمية عظيمة، فقد كان بإمكان الكهنة أن يتزوجوا. وهذا ما يستخلص من نص لبيدرو مارتير دى انغليريا حول بنما: "أثناء الوقت المكرس للصوم والصلاة، تكون وجوههم مغسولة تمامًا، بالرغم من كون بقية أجزاء الجسد مليئة بالرسوم دومًا؛ ويرفعون أعينهم إلى السماء ولا يمتنعون عن المحظيات أو عن أى ممارسة تناسلية وحسب، وإنما عن زوجاتهم كذلك"[٥٢]. إن الممارسة الرسمية لفض بكارة الشابات الصغيرات، والتى هى فى فنزويلا من اختصاص الكهنة، تثبت على الأقل وجود نذر العفة. ومن جهة أخرى، فإن كون السيد المهيمن على إقليم فى نيكاراجوا ويوكاتان هو الذى يقوم بمهام الكاهن، يفسر المعايير الروحية التى تنظم وصولهم إلى السلطة، وتفسر فى الوقت نفسه وجود أبناء للكهنة، كثيرا ما يرد ذكرهم.

ويروى غومارا أنه فى نيكاراجوا: "جميع الكهنة يتزوجون، باستثناء أولئك الذين يستمعون إلى خطايا الآخرين، ويفرض هؤلاء كفارة تناسب الخطيئة،

ولا يكشفون سر الاعتراف"[٥٣]. ويُلاحظ فى قائمة الأسئلة التى وضعها فرانثيسكو دى بوياديللا أن متلقى الاعتراف هؤلاء ليسوا كهنة، وإنما شيوخ عُزَّاب يستقبلون المؤمنين فى بيوتهم. ويُختارون من بين أكثر أفراد الجماعة وقاراً، ويجرى تمييزهم من خلال قرعة معلقة بأعناقهم، ربما تحتوى الماء الذى يستخدمونه عادة فى الرش الطقوسى. وقد كان الاعتراف سرياً، والكفارة تتمثل فى أعمال مادية فى المعابد[٥٤]. أما فى يوكاتان فقد كان الاعتراف، على العكس من ذلك، علنيًا ويجرى بغياب الكاهن، أمام أعضاء الأسرة.

وحسب البيانات التى حصل عليها لاس كاساس من الآباء الجزويت البرتغاليين، فقد كان فى البرازيل نوع آخر من الاعتراف المرتبط بالكهنة: "ما بين بضع سنوات وأخرى، يأتى بعض المشعوذين من أراض بعيدة، مدعين جلب القداسة معهم، وفى زمن مجيئهم، يبعثون لتنظيف الدروب أمامهم ولاستقبالهم بالرقص والحفلات، كما هى عادتهم؛ وقبل وصولهم إلى المكان، تمضى النساء مثنى مثنى إلى البيوت، ليروين علنًا الخطايا التى اقترفنها بحق أزواجهن، ويطلب بعضهن المغفرة عن هذه الخطايا من الأخريات"[٥٦].

كل ما يتجاوز مدارك الإسبان كان بالنسبة إليهم وثنية أو من عمل الشيطان. فالأطباء أو الحكماء ، الكهنة أو العاملون فى السحر الأسود جميعهم على السواء، وبدون تمييز، يسمون السحرة؛ ومن هنا جاء منهجهم فى إدراج ظواهر مختلفة تحت هذا العنوان، لا تكون هناك علاقة فيما بينها إلا فى بعض النقاط المشتركة الواهية، وبهذه الطريقة، وكما يفعل بعض مؤرخى الأديان المعاصرين، فقد وضعت فى المرتبة نفسها أكثر النشاطات روحية وأشد الخرافات انحطاطا؛ مثل "قتل " رجل بامتصاص سرته، بمشيئته، إلى أن يجف تمامًا، أو الاستشارات التى كان من عادة سكان كولومبيا أن يتقدموا بها إلى الشمس عن طريق استخدام أعشاب ممضوغة وقراءة جواب النجم عليهم من خلال حركة المفاصل؛ أو القدرة أخيراً، على التحول إلى حيوان.

(ج) بيوت الأوثان :

ليس هناك من يشير إلى وجود معابد فى الجزر أو فى القارة حتى الوصول إلى كولومبيا. ويلاحظ الأب لاس كاساس عدة مرات عدم وجودها فى اسبانيولا، وفى كوبا، وعلى شواطئ فنزويلا. ومع ذلك، فإنه يقول أحياناً إن بعض البيوت المنعزلة، والمشابهة لسواها هى مصليات، وأن الطقوس تقام فى بعض الغرف ببيوت الزعماء كذلك(٥٧)، ويتحدث بيدرو مارتير دى انغليريا عن مغارة فى إسبانيولا مزينة تزييناً فخماً بالرسوم، وهم يعتقدون بأن خروج الشمس والقمر كان منها: "وهم يحجون إلى هذا الكهف كما نحج نحن إلى روما والفاتيكان، حيث رأس ديانتنا..."(٥٨). وقد اكتشف الأوربيون فى كولومبيا خلال بحثهم عن الذهب أن التوقير الذى يكنه الهنود لبعض الجبال يحملهم على أن يدفنوا فيها: "الكثير من الذهب والأحجار الكريمة... التى لا يمسها أى هندى بهدف السرقة... وإذا ما أُجبر بالقوة على السرقة؛ فإنه يفضل الموت على أن يفعل ذلك"(٥٩).

وينقل أوفييدو خبر وجود تسعة وأربعين معهداً من الخشب فى إقليم كارتاخينا، دون أى تحديد آخر، وإن كان يشير فى موضع آخر إلى وجود الأوثان فى البيوت الخاصة، وفى المناطق الداخلية من كولومبيا، يرد ذكر المعابد بالنظر إلى مهامها الاجتماعية: حيث تعلق فيها أكمام أو شعور مقصوصة كعقاب للنبلاء المجرمين؛ وفيها تجرى خلوات طويلة قبل تولى السلطة؛ وهناك يتم دفن بعض أفراد الجماعة.

والديانة فى نيكاراجوا أكثر تنظيماً والأوثان هناك تقيم فى المعابد أو فى مصليات الأحياء والحوارى. ورغم أهمية أماكن العبادة هذه وكثرة عددها إلا أننا لا نعرف عنها إلا معلومات ضئيلة، إضافة إلى أن الأب بوباديللا "...حطم أعداداً كبيرة من الأوثان، وأحرق جوامع ومصليات ومعابد للهنود..." ورداً على حملة التبشير هذه، يقول أحد السكان الأصليين موضحاً : "... إننا نرى فى معابدنا ما يراه المسيحيون بكنائسهم، لأنها معابد آلهتنا، وفيها نقدم لهم البخور، ونطلب من آلهتنا أن تمنحنا الصحة حين نعتل، وأن تمنحنا الماء حين ينحبس المطر... وأكبر الشيوخ هو الذى يقدم الصلوات والأدعية عن الجميع فى المعبد، أما بقية الهنود والهنديات فلا يدخلون هناك..."(٥٩).

وبهذا فإنه لم يكن مسموحاً باجتياز عتبة المبانى الدينية، وهى هياكل حقيقية، إلا لبعض المطلعين: فكان الزعيم الشيخ، مثلاً، يحبس نفسه فيها بخلوة تستمر لمدة سنة، مما يوصله إلى مقام "أبى المعبد".

ومن جهة أخرى، كان دييغو دى لاندا مقتنعًا بأنه : "إذا كان ليوكاتان أن تنال اسمًا وشهرة بكثرة مبانيها وعظمتها وفخامتها، كتلك الشهرة التى أحرزتها مناطق أخرى من بلاد الهند بالذهب والفضة والثروات، فإن هذه الشهرة ستتسع لتصبح كشهرة البيرو وإسبانيا الجديدة (المكسيك)، فهى بضخامة مبانيها وكثرتها أشهر منطقة بين كل ما اكتشف من بلاد الهند حتى اليوم، لأن المبانى تنتشر هناك فى أماكن كثيرة وكثيرة جداً، وهى مشيدة جيداً من الحجر، وعلى طرازهم المعمارى الذى يبعث الرهبة فى النفس..."(٦٠).

(د) ممارسات جهنمية :

الطقوس التى تترجم، بزخم لا تدانيه أى وسيلة تعبير أخرى، الأواصر التى كانت تربط الوطنى بوسطه المحيط - ابتداء من الآلهة وحتى الأشياء الجامدة، مروراً بالجماعة التى كان يعتمد عليها اعتماداً وثيقًا - وصلتنا بحالة مفتتة يستحيل التغلب عليها بالاعتماد على مساعدة الأخبار التاريخية وحدها.

وفعلاً، بما أن التقصى عن تلك الطقوس لم يكن يبدأ عادة إلا بعد قهر للإنسان يجرد جميع معتقداته من أية قيمة، فإن معاصرى الأحداث أنفسهم يشكون من اختفاء المعارف التقليدية. ويمكننا أن نرى كيف يتحسر أوفييدو من الإهمال الذى يلحظه فى منطقة على درجة عالية من الثقافة مثل نيكاراجوا، وكيف يبحث فى أسباب ذلك الإهمال : "... إن حرب المسيحيين ومعاشرتهم، فضلاً عن مرور الزمن قد أجهزت على لسنين من الهنود وأنهت حياتهم، مثلما قضت على الشباب أيضًا، وفعل مثل ذلك شع القادة والحكام وغيرهم ممن سارعوا إلى إخراج الهنود كعبيد خارج تلك الأرض بيعهم فى كاستيبا دل أورو وفى مناطق أخرى... فانظروا إذن كيف أدى اختفاء حشود كثيرة من هؤلاء الناس إلى نسيان الطقوس وكل ما شابهها، بسبب الإجهاز على حياتهم"(٦١).

لقد كان الصيام والترهب والخلوات تشكل قاعدة ليس للسلوك الدينى وحسب، وإنما للسلوك الاجتماعى كذلك. ويؤكد لاس كاساس أن الصيام، إضافة إلى الكوهويا والقرابين الباكورية، كان يشكل أساس الشعائر فى كوبا. "لقد كان صيام البعض فى تلك الجزيرة غريبًا ومرعبًا، وكان الصائمون، بصورة أساسية، هم البيهيكيون أو الكهنة أو المشعوذون. فهم يصومون حتى أربعة أشهر متواصلة أو أكثر، دون أن يأكلوا شيئًا، اللهم إلا عصارة عشبة أو أعشاب، تكفى فقط للقيام بأودهم كى لا يموتوا؛ ويستنتج من ذلك أن تلك العشبة أو الأعشاب هى ذات منافع عظيمة... وهذا الأمر ذاته هو الذى ينال التقدير فى إقليم البيرو، وفقًا لما يبدو من شهادة متدينين وهنود جاؤوا من البيرو، ورأوها وعرفوها فى جزيرة كوبا المذكورة، بوفرة. إنهم يميتون أنفسهم إذًا، ويعذبونها بذلك الصوم القاسى والفظ والطويل، فيوشكون على الموت، ويقولون إنهم أصبحوا حينئذ مستعدين وجديرين بأن يظهر لهم وجه "سيمى" ويرونه، وهذا لا يمكن له أن يكون شيئًا آخر سوى الشيطان. وهناك يجيبهم ويخبرهم عما يسألون عنه، وما يضيفه هو ليخدعهم، ثم يقوم هؤلاء البيهيكيون فيما بعد بنقل كل ذلك إلى الناس الآخرين وإقناعهم به، وهذا هو الأثر الوحيد للوثنية الذى وجدناه فى جزيرة كوبا، ولا شىء سواه، لأننا لم نجد أوثانًا، ولا أصنامًا، ولا أى شىء آخر تشتم منه رائحة الوثنية"(٦٢).

وكانت هذه العادة نفسها تسود فى إسبانيولا، وقد لاحظ فيرناندث دى أوبييدو وجودها فى فنزويلا أيضًا : "... قبل أيام من خروجهم إلى الحرب، أو حين يريدون أن يضحوا أو أن يفعلوا أمرًا يرون أنه ذو أهمية، فإنهم يصومون لعدد معين من الأيام المتتالية، صومًا صارمًا، إذ يبقون طوال اليوم كله دون أن يأكلوا أو يشربوا شيئًا؛ وحين يتناولون أكلة خفيفة، فإن ما يتناولونه يكون شيئًا ضئيلاً... وعندما تنتهى تلك الأيام، ينحلون ويشحبون... وهذا الصوم الذى يقوم به الهندى، تشاركه فيه زوجاته وأولاده وجميع من فى البيت، ما لم يكونوا صغيرى السن وغير قادرين على أدائه لكونهم أطفالاً"(٦٢). وفى كولومبيا، يمارس الهنود صومًا يدوم شهرين "معتقدين بأنهم يحيون خلاله حياة أكثر تدينًا... ولكى لا يثيروا غضب الشمس، لا يأكلون الملح فى أوقات محددة من السنة، وفى الوقت الذى لا يأكلونه، لا يعاشرون زوجاتهم كذلك"(٦٣). وفى نيكاراجوا يعيشون منفصلين تمامًا عن زوجاتهم (دون أن يأكلوا الملح أو يشربوا النبيذ)

منذ وقت البذار وحتى جنى المحصول[٦٣]. ويلاحظ دييغو دى لاندا أنهم يمارسون فى يوكاتان صياماً وامتناعات – خصوصاً جنسية – يرفقونها فى الغالب بطقوس مأتمية، أو طقوس التكفير، أو الشعائر الاحتفالية : "... ويتلقون بالصيام... المناصب المختارة؛ وكان بعض الصيام طويلاً جداً بحيث يدوم ثلاث سنوات وكان وقفه خطيئة كبرى"[٦٤]. والصيام قبل الخروج للبحث عن الذهب كان عادة عامة.

ويجد غومارا وبيدرو دى انغليريا فى الجزر عادة الإقياء التطهيرى. ويشير الثانى منهما، باستنكار، إلى أنهم يعذبون العضو الذكرى للشبان أثناء بعض الاحتفالات فى بنما ونيكاراجوا ويوكاتان.

لقد كان الصيام يحيّر الإسبان – فجميعهم يندفعون بالهتاف، مشددين على قدرة الشيطان على محاكاة الرب –، ولكن أكثر ما يخدم أهدافهم هو الكحول. ومع ذلك، ومهما كانت الصعوبة التى نجدها فى النظر إلى نشوة السكر تحت مظهر آخر، سوى باعتبارها النقيصة التى تمثلها فى الغرب، فالحقيقة أن الكحول كان يعتبر الوسيلة التى تتيح الاقتراب من الألوهية، مثله فى ذلك مثل التبغ أو أوراق الكوكا، أو الفطر الذى يسبب الهلوسة أو نبتة البيوتى. وحين يؤنب أوفييدو أحد الزعماء على سكره خلال إحدى الاحتفالات، يتلقى الجواب بأن هذا ما أمر به الأسلاف، وأنه إذا ما تخلى عن التقاليد فلن يتوانى أتباعه عن التخلى عنه[٦٥].

وكان الاعتكاف فى عزلة واسع الانتشار مثل الصيام الذى كان يرافقه فى الغالب؛ فكل شخص ذو منصب سام، سواء أكان رجلاً أو امرأة، عليه أن يمضى بعض سنوات شبابه معتكفاً فى مكان مقدس دون أن يرى الشمس، وكلما كان المنصب أعلى، كانت سنوات الاعتكاف أطول، وعند خروجه ينال حق ثقب أذنيه وتعليق الحلى الذهبية فيهما.

بعد هذه التطهرات، يتم التواصل مع الآلهة بأساليب مختلفة : الأسلوب الأكثر تواتراً هو إحراق البخور. وكان التبخير براتينج عطرى فى مباخر صغيرة متنقلة، أو فى مجامر كبيرة، يمارس كذلك أثناء بعض الاحتفالات العامة. ففى كولومبيا، "... كانت قرابينهم أنواعاً من البخور يملكونها. يلقون بها إلى نار يوقدونها فى المعابد،

كما يلقون فى تلك النار قطعًا من الذهب والزمرد. ويقولون إنهم يستخدمون ذلك التبخير لكى تغفر لهم الشمس خطاياهم وذنوبهم. وحين دخل الإسبان إلى تلك الأراضى أول مرة، ولدى وصولهم إلى كل قرية، كان الهنود يخرجون لاستقبالهم عند مدخل المكان، ويشعلون ناراً يلقون إليها بذلك البخور، لأنهم كانوا يعتبرون المسيحيين أبناء الشمس"(٦٦). ويشير لاس كاساس إلى أنهم فى البرازيل يغذون النار طول الليل وينامون قريباً من الموقد. وفى يوكاتان يجرى إشعال البخور فى الطقوس و"... حتى أن السائرين يحملون فى دروبهم بخوراً وصحناً يحرقون البخور فيه"(٦٧).

فى كولومبيا "يقدمون الماء قرباناً، بسكبه فى المعابد بمرافقة إيماءات كثيرة وممارسة الطقوس به"(٦٨). وقد كان للتراب دوره أيضًا : فإنهم يلتقطونه بأيديهم باحتفالية ليدخلوه تحت المعابد من خلال قنوات محفورة فى الأرض، "... حيث يلقون قرابينهم من الذهب والزمرد"(٦٨). ويأتى لاندا على ذكر مرشة الماء المقدس فى جميع الطقوس، وفى كولومبيا يضحون أيضًا بطيور كثيرة، ويُبقون رؤوسها فى المعابد كقرابين، وتشير ملاحظات فيرناندث دى أوفييدو إلى الاعتدال فى تقديم القرابين البشرية؛ ويسجل بعض الحالات فقط: فهو يذكر حالة صبى أسير، وحالة مراهق متأله، يجيئون به وهو فى الخامسة أو السادسة من العمر، من بلاد نائية "حيث يكلمون الشمس"، ويعاملون الطفل بتوقير كبير. ويتوجب التضحية به قبل أن يصل سن البلوغ، ولكنه إذا ما قارب امرأة رغم المراقبة المفروضة عليه، فإن دمه يصبح فاسداً. ويجرى إعتاقه عندئذ. وبعد التضحية بأحد هؤلاء الفتيان يجيء آخر ليحل محله، وتشير كتب التأريخ إلى انتشار أكبر للقرابين البشرية فى نيكاراجوا؛ بل ويُذكر هناك أيضا سلخ الجلد واستخراج القلب(٦٩).

وبين الألعاب الشعائرية، كانت "لعبة الخشبة الطائرة" وهو طقس مكرس للاحتفال بجنى الكاكاو : فمن أعلى عمود مغروس فى وسط ميدان يلقون ببعض الرجال – الطيور، وهم مقيدون بالحبال، فيهوون ببطء، راسمين دوائر، ورؤوسهم متجهة إلى أسفل وأذرعهم مفتوحة، إلى أن يلامسوا الأرض، ومازال يُحتفل بهذا العيد فى المكسيك إلى اليوم.

ومن المفاجئ أنه في بلد مثل نيكاراجوا، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمكسيك، كانت لعبة الطابة مجهولة، وهي أهم الألعاب المقدسة على الإطلاق، وكان يمارسها جميع سكان الجزر وامتدت حتى أميركا الجنوبية. ويوضح لنا أوفييدو أنه كان هناك في اسبانيولا مكان مخصص للعبة الطابة في الساحات وعند مخرج كل قرية. والوصف الذي يقدمه لهذه الرياضة، سلف كرة القدم وألعاب كرة أخرى، هو من أكثر الأوصاف حيوية واكتمالاً، وسنورد منه بعض الفقرات، فبعد أن يذكر المقاعد الحجرية المخصصة لعامة الشعب، والمقاعد الصغيرة - دوهو - المخصصة للسادة، وهي من الأخشاب الثمينة، المزخرفة بفنية، وبعد ذكره كذلك لمواقع اللاعبين في جانبي الملعب، يصر أوفييدو بصورة خاصة على وصف طبيعة الكرات الفريدة المصنوعة "... من جذور بعض الأشجار ومن أعشاب وعصارات وخليط من الأشياء، تبدو معها وهي ممزوجة كلها معاً وكأنها القار الأسود... وتتشكل لهذا المزيج قشرة سوداء، لا تلتصق بالأيدي؛ وبعد أن تجف، تصبح لدنة بعض الشيء... وتتقافز هذه الكرات أكثر مما تقفز الكرات المملوءة هواء، ولا سبيل إلى المقارنة بينهما، لأنه بمجرد إفلات هذه الكرات من اليد إلى الأرض، ترتفع إلى أعلى أكثر بكثير، وتثب مرة ، وأخرى ، وأخـــرى ، ومرات كثيرة ... وبما أنها ممتلئة، فإنها ثقيلة نوعًا ما؛ وإذا ما ضُربت باليد المفتوحة أو بالقبضة المطبقة، فإنها تشق اليد بعد ضربات قليلة أو تؤذيها. ولهذا السبب فهم يضربونها بالكتف وبالمنكب وبالرأس، وأكثر الضربات تكون بالورك أو الركبة؛ ويفعلون ذلك بخفة وانطلاق، هي من رشاقتهم الشديدة، وحتى لو وصلت الطابة إلى مستوى الأرض تقريبًا، فإنهم يلقون بأنفسهم عن بعد ثلاث أو أربع خطوات، وكأنهم يطيرون في الهواء ويضربونها بردفهم ليصدوها... وتكـــون المنافسة بأن يجعلها من هـــم في هذا الجانب تنتقل إلى الطرف الآخر، مقابل الخصوم، أو ينقلها أولئك إلى حدود مواقع هـؤلاء"(٧٠).

وتحت اسم باتيي batey يرد ذكر لعبة الطابة في بويرتوريكو بمناسبة أن إسبانيًا، بعد تمرد قام به الإسبان، أجرى رهانًا على مباراة، ويرى مؤرخ من رجال البعثات التبشيرية إلى باراجواي أن هنود الغواراني هم "مبتدعو كرة القدم"(٧١).

٤ - الجماعة السكانية :

(أ) العمارة :

يبدو السلوك الاجتماعي متجانسًا بشكل ظاهر في منطقة الأنتيل بأسرها، وباستثناء تفاصيل جزئية ضئيلة في اللباس، فإن عناصر الاختلاف المهمة الوحيدة هي القائمة على ما يبدو في العمارة وفي التصميم المديني اللذين يمكننا القول إنهما غير موجودين في الجزر، ولكنهما في القارة يفرضان أشكالهما ونظامهما اعتباراً من خليج باريا، ومن المثير للفضول في البرازيل مثلاً، أنه في حين لا يرى فيسبوشي سوى قرى وأكواخ كبيرة، فإن غاسبار كارفاخال، مؤرخ الرحلة الأولى عبر نهر الأمازون، يصف مدنًا حقيقية في المناطق الداخلية من البلاد: وتتأكد شهادته، بعد مئة سنة من ذلك، على يد اللاهوتي كريستوبال دي أكونيا، في الحملة الثانية. وحتى لو لم نهتم إلا بما يشير في كتاباته إلى المجرى الأوسط للنهر العظيم، اعتباراً من نقطة التقائه مع النهر الأسود - وبالتالي بعيداً جداً عن الأراضي الإنكية -، فإننا نرى أن المؤلفين كليهما يشيران إلى أن الضفاف كانت مشغولة حتى المصب بمجتمعات متينة ومتماسكة. وإذا كانت المستوطنات التي رأياها قد بدت لهما على الدوام تقريباً مجرد توابع لمدن داخلية - مواقع صيد، مراكز تجارية، "بيوت ريفية"- فإن ذلك لم يحل دون ظهور الحياة المدينية فيها: كثافة سكانية، ترتيبات دفاعية منعت الإسبان في أحيان كثيرة من الاقتراب منها؛ دروب فسيحة ومتعددة؛ تحصينات؛ ميادين رحبة، أبنية عامة، حيث "... توجد أثواب كثيرة من الريش مختلف الألوان، يلبسها الهنود للاحتفال بأعيادهم..."[٧١] والقرى تتوالى بكثرة تجعل الأمازون يبدو لنا كنهر مديني : "كنا نمر دوماً أمام القرى، وفي صباح أحد الأيام، في الساعة الثامنة، رأينا بلدة بديعة فوق مرتفع، هي على ما يبدو مركز إقطاعية كبيرة...، وعند انحناءة للنهر، رأينا مقابل الشاطئ قرى كبيرة وكثيرة كانوا يبيضونها،... ولا تبعد القرية عن الأخرى إلا نصف فرسخ أو أقل... وأكثر من ذلك أقول إن الأراضي الداخلية، على بعد فرسخين تقريبًا، تبدو مدنا كبيرة كانوا يبيضونها." وتفاجئنا معرفة أنه في هذا القسم السفلي من الشريان المائي المداري العملاق "... الأرض طيبة وشديدة الخصوبة، على طبيعتها،

كما هى أرض وطننا إسبانيا... إنها أرض معتدلة يُجنى منها قمح كثير وتنمو فيها جميع الثمار.." وفى تصريح أخير، لدى وصفه الوصول إلى البحر، يوجز غاسبار دى كارفاخال اللوحة الثقافية للبلدان التى أبحر قريبًا منها طوال شهور : "أريدكم أن تعلموا أن جميع الناس الذين مررنا بهم فى هذا النهر... هم أناس راجحو العقول وشديدو الفطنة والذكاء؛ وهذا يبدو فى كل الأعمال التى يعملونها، سواء فى الرسم أو التلوين بكل الألوان، فهى جميلة ومبهجة للنظر"(٣٧).

ويعرب فيسبوشى عن تقديره لـ "فينيسيا" التى اكتشفها فى فنزويلا(*)، ببيوتها القائمة وسط البحيرات؛ ويقدم الأب لاس كاساس فى تاريخه الدفاعى قائمة طويلة من المدن التى تجمّل الشواطئ حتى بنما، بأسوارها المؤلفة من أشجار شوكية عظيمة والمحاطة بالخنادق(٧٣)، ويستذكر أوفييدو جمال ماناغوا، عاصمة نيكاراجوا، التى سيجدها مقفرة ومهدمة بعد ثلاث سنوات من زيارته الأولى لها(٧٤). وفى هذا البلد فقط وُجدت العادة المكسيكية بإحاطة جوانب الساحات وحمايتها بأروقة، فإذا ما صح هذا التفصيل – الذى يورده بصورة عابرة أحد مخبرى بوباديلا – فإنه كان سيبقى مجهولاً لولا ذلك الخبر عنه، إذ إن الغزاة لا يذكرون المدن إلا بإشارات عابرة: "وصل إلى البلدة، فوجدها بلا أناس وفى موقع بديع، ومحاطة بدغل مغروس باليد؛ طولها من جهة مدخل السور مئة وعشر خطوات، ولها من العرض أربعون، وداخل هذا السور كانت توجد خمسة أكواخ buhios كبيرة جداً أحرقها الاسبان، وكان يوجد أكثر من أربعمئة كوخ خارج السور وفى محيطه، على امتداد نصف فرسخ فيما حوله، وقد أحرقوا القسم الأعظم منها"(٧٥).

ورغم اقتضاب المعلومات المتعلقة بالعمارة والمدن، فإن أوفييدو يضيف معلومة ثمينة تتيح الكتب التاريخية والتنقيبات الأثرية العثور عليها فى المكسيك: نظام بناء يضم وحدات مكرسة تحديداً لوظائف مختلفة، تشغل كل منها حيزاً مماثلاً من الأرض،

(*) تسمية فنزويلا هى صيغة تصغير بالإسبانية لفينيسيا. وقد أطلق عليها فيسبوتشى هذه التسمية بسبب تفرعات نهر أورنوكو عند مصبه إلى جداول تخترق المنطقة المأهولة فتجعلها شبيهة بمدينة فينيسيا.

وهى متصلة فيما بينها بتناسق، مما يحول دون الازدحام الفوضوى والمبالغة المشوشة في المباني، كما هو الحال فـى القلاع مثلاً ؛ "لا يوجد ضمن تلك الأسوار سوى سبعة بيوت للسيد، وهى كأن نقول القصر أو المأوى الملكى، والبيت الأول والرئيسي منها هو المخصص لشخصه [الملك]، والبيت الثانى تقيم فيه نساؤه؛ والثالث حيث النساء اللواتى يخدمنه ويخدمنهن، والبيت الرابع للسلاح، وفيه توجد أقواس وسهام كثيرة وذخائر أخرى للحرب؛ والخامس هو الذى يوجد فيه أولاده، وفيه يربون الصغار منهم؛ والبيت السادس للمؤونة والطعام، ومنه يتزودون بكل ما يلزم للأكل؛ أما السابع والأخير فهو المطبخ، حيث يُطهى طعام السيد وجميع من هم داخل هذا السور"(٧٦). ويبدو أن هذا النظام نفسه كان سائداً فـى كولومبيا: "المبانى الرئيسية هى شىء جدير بالمشاهدة: فهى مبنية من الخشب على شكل حصن أو قصر، ومحاطة بأسوار عديدة من الخارج والداخل، وهى من الفن حتى لتبدو شبيهة بتلك الرسوم التى يطلق عليها العامة عادة تسمية المتاهة.." أما فـى فنزويلا فيعيش العاهل فـى بيت "... مستدير وذى ترتيب وموقع يمنحه قوة كبيرة، وفـى ذلك البيت وأجنحته وأروقته المحيطة يمكن أن يقيم ثلاثمئة رجل وأكثر"(٧٦).

إن الفراغات المغلقة أو التى على شكل متاهة لم يرد لها ذكر فـى نيكاراجوا، ولكن البيوت الملكية تتبع نظام مجموعات الوحدات الوظيفية ذاته. ولقد تعرف أوفييدو، لحسن الحظ، على أحد هذه المجمعات، وترك لنا وصفاً ومخططاً يوضحان جوانب متعددة من الفن المعمارى والحياة اليومية فـى تلك البلاد: العدد الإجمالى للأبنية هو ثمانية، متوضعة حول ساحة مربعة كبيرة بحيث تغلقها، وتخرج ثلاثة من تلك الأبنية من الصفّ، وهى غير مذكورة فـى البلاد الفنزويلية: اثنان منها هما ضريحان يضمان رفات أطفال؛ ورواق ويوان يمارس فيهما العاهل ووزراؤه واجباتهم العديدة كرجال دولة"(٧٧).

ويؤكد غومارا(٧٨) وبيدرو مارتير بأنه فـى الساحات الملكية، التى تطل عليها بيوت الأشراف، ينتصب مبنى صانعى الذهب. ومعلوماتنا ضئيلة عن فن العمارة ونظام المدن فـى يوكاتان. فبيدرو مارتير يذكر فقط قصوراً مكللة بشرفات ومنحوتات "من المرمر"(٧٩).

(ب) الأثاث والزينة :

فـي البيت الذى يصفه بتفصيل شديد، يلاحظ فيرناندث دى أوفييدو وجود أبواب مخصصة لمنع اقتحام البعوض؛ لكن لاس كاساس يؤكد أن السكان الأصليين ما كانوا يغلقون بيوتهم أبداً. وفعلاً، لا بد أن الأبواب التى رآها أوفييدو هـى استثنائية، ذلك أنه حتى فـى المبانى المكسيكية والإنكية الكبيرة لم تكن الأقسام الداخلية محمية إلا بستائر معلقة إلى قوائم الأبواب بحبال تُمرر عبر ثقوب مازال بالإمكان رؤيتها فـى مواقع التنقيب الأثرية، وكانت تلك الستائر عموماً من القطن، مع أنه لا يستبعد أن تكون مصنوعة كذلك من القش، حيث إن الحصائر متعددة الألوان كانت تفيد فـى جميع الاستخدامات. ويقدر أوفييدو فـى كولومبيا تلوين المبانى وتلميعها، ويضيف غومارا بالنسبة إلى منطقة كوياغوا: "ويحبون أن تكون بيوتهم مزينة بحصائر الخونكو (القصب) والسعف، المصبوغة أو الملونة؛ وبأغطية الزينة المصنوعة من القطن، وبالذهب واللؤلؤ الذى كان يستثير إعجاب اسبانيينا؛ وهم يعلقون على أطراف الأسرّة سلاسل من القواقع البحرية التى ترن..."(٨٠).

الدوهو duho ، وهو كرسى بلا مسند من الخشب المنحوت، "له أربع قوائم ومقعر بعض الشيء"، يستخدم كوسادة أو كمقعد على حد سواء، وهو القطعة الأكثر ذكراً بين أثاث الجزر والأرض القارية. وقد كان السادة يحملونه إلى الألعاب وعند قيامهم بالزيارات، والزعيم الذى تعرّف عليه أفييدو، وكان ما يزال يمارس صلاحياته، كان يستقبل الناس مسنداً رأسه إلى هذا الشيء، وعندما يخرج لتناول الطعام يحمله معه ليجلس عليه.

وفـى القارة، لم تحل أرجوحة النوم المعلقة hamaca، التى كانت شائعة الاستخدام مثل الدوهو، دون وجود المُتَّكأ – السرير الذى يبلغ ارتفاعه ثلاثة أشبار، والمصنوع من جذوع بامبو ثخينة ومغطى بحصيرة سميكة، توضع فوقها ثلاثة حصائر أخرى رقيقة ومشغولة بشكل بديع. أما فـى يوكاتان فكان استخدام السرير شائعًا كاستخدام أرجوحة النوم. وإلى جانب مُتكأ الزعيم فـى نيكاراجوا كان هناك نصبة ورف، يوضع عليهما قوس مع سهامه وقرعة صغيرة مملوءة بالعسل.

أما الخزف - الذى كان جماله موضع إطراء أحيانًا، كما هو فى نيكاراجوا مثلاً، "إنه لامع وأسود مثل الكهرمان" - فيشكل جزءًا من الأثاث، ولا بد أنه كان يشغل مكانة مهمة فى البيوت، مثله مثل المباخر والمجامر والصور المقدسة التى تكشف عنها الحفريات الاركيولوجية.

(ج) الملابس وزينة الجسد :

المرأة : حتى الوصول إلى نيكاراجوا، كان العرى هو القاعدة العامة. ويصف كريستوف كولمبس : "... جميعهم عراة، رجالاً ونساء، كما ولدتهم أمهاتهم؛ صحيح أن النساء يضعن شيئًا مصنوعًا من القطن فقط، حجمه يكفى لتغطية عوراتهن وحسب"[٨١]. أما النصف العلوى فيبقى عاريًا تمامًا وهذا "الشيء الذى من القطن" يضعنه مثبتًا أو مفلتًا على حد سواء، وطوله حوالى عشرين سنتمترًا، يعلق بحبل ملتف حول الخصر، "... مفلت أمام عوراتهن أو أعضاء الحياء، لمشيئة الريح... وتلك السراويل القطنية المفلتة لا تخفى شيئًا... مهما كانت الريح خفيفة... "[٨٢]، هذه السراويل التى شوهدت إلى الشمال من كولومبيا، ليست مماثلة على ما يبدو لتلك التى فى الجزر، حيث لم يرد ذكر الريح الطائشة على الإطلاق. فهى هنا نوع من الوزرة، التى تدعى فى المكسيك ماكستلاتل Maxtlatl ، وهى أكبر حجمًا من المذكورة سابقًا، ويستخدمها الرجال. ويلاحظ أوفييدو أن النساء يستخدمنها فى فنزويلا ونيكاراجوا : "النساء يلبسن نوعًا من السراويل، هو عبارة عن منديل أو خرقة من القطن، عرضها حوالى شبرين... معلقة بحبل يتزنرن به؛ وتنسدل تلك الخرقة على الإليتين، ويدخلنها بين الساقين، ثم يرفعنها ليثبتنها بالحزام نفسه. وهكذا يغطين عوراتهن وبطونهن، وكل ما عدا ذلك من الجسد يبقى عاريًا"[٨٢]، ولا يختلف الماكستلاتل المستخدم فى نيكاراجوا إلا بجمال تطريزه.

وفى الجزر، تمضى العذراوات عاريات. وفى نيكاراجوا تترافق هذه العادة مع معالجة لتجميل الساقين : "يضعن أربطة مشدودة جداً فوق ركبهن وتحتها كى يتضخم الفخذان وربلتا الساق كثيراً، وهو ما يعتبرونه جميلاً..."[٨٣]. وفى أراضى فنزويلا تلبس الماكستاتل العذراوات والمتزوجات على السواء، ولكنهن يميزن وضعهن بخيط

يقطع الصدر. أى أن المرأة، وبعد العلاقة الجنسية الأولى، تضع وزرة، أو تنورة لا تصل عمومًا حتى الركبتين: والنساء ذوات الشأن وحدهن من يغطين ربلتى الساقين وقد يصل الغطاء أحيانًا حتى الكاحلين.

وسواء أكانت تلك التنورة قصيرة أو طويلة فإنها مؤلفة دومًا من قطعة قماش مصنوعة من القطن، لها من الحجم تقريبًا ما يكفى للإحاطة بالورك والتثبيت بحزام، مما جعل الإسبان يسمونها فى أغلب الأحيان "مريلة"، مهما كان عرضها(٨٣). وقبل أن تصبح اللباس الوحيد للمرأة، كما فى يوكاتان، كانت قطعة القماش الملفوفة تلك تظهر بالتلازم مع الوَزَرة، ابتداء من فنزويلا وحتى نيكاراجوا، مرورًا بكولومبيا وبنما.

وتبدأ بالظهور فى كولومبيا عباءة capa صغيرة تغطى الصدر(٨٤) وفى نيكاراجوا تنضم هذه العباءة إلى اللباس الأنثوى الملون بطرق مختلفة، وبنما لا تستخدمها، ولكنها بالمقابل، تنفرد بحمّالة صدر اعتبرها الإسبان أعجوبة: فهى صفيحة من الذهب المشغول بفنية ("يصل وزنها إلى مئتى كاستيانو")، وبها ثقوب يمر منها خيط ويربط إلى العنق: "ابتكار صفائح الذهب هذا لرفع الأثداء، هو عادة وعُرف لدى النساء النبيلات فى منطقة خليج اورابا ..Uraba(٨٤) وفى يوكاتان، كانت نساء خليج المكسيك وحدهن اللواتى يعرفن عادة تغطية صدورهن(٨٥).

وكن يولين شعرهن اهتمامًا كبيرًا ويبقين رؤوسهن مكشوفة فى الغالب، وخصوصًا فى كارتاخينا، حيث يعزو غومارا إلى تاج يستخدمنه جزءًا من الجمال المهيب لسيدات المكان؛ وفى بقية أنحاء كولومبيا يضعن أكاليل ملونة، فيها زهرة فوق الجبهة: "... للذكور والإناث شعور جميلة، سبطة وسوداء، وهم يزهـــون بها..."(٨٦). وقد لاحظ أوفييدو فى نيكاراجوا وجود أمشاط من عظم الغزال، بيضاء كالعاج، أو من خشب أسود شديد الصلابة يثبتون أسنانها بواسطة معجون مصنوع من فضلات الخفاش:"وقد حصلتُ على بعض تلك الأمشاط، وجئت من تلك البلاد بستة أو سبعة منها إلى مدينة سانتو دومينغو هذه، وبتعريض ذلك المعجون للنار، يصبح لينًا كالشمع، ويشتعل بسرعة؛ وحين يبرد، تصبح أسنان تلك الأمشاط صلبة ومضغوطة"(٨٦).

وتُلاحظ بشكل عام طريقتان للتسريح؛ تسريحة الشعر الطويل المسترسل فى منطقة الكاريبى، وبضفائر مجتمعة فوق الرأس "فى أربعة قرون أو قرنين..."[٨٧]. ويؤكد ثييثا دى ليون أن النساء فى كارتاخينا كن يحلقن رؤوسهن علامة الحداد[٨٨].

أما الحلى فتتألف من عقود، وخواتم، وأساور لتزيين الأذرع أو السيقان على السواء. وحيث لا وجود للؤلؤ الطبيعى، كن يصنعن خرزاً من القواقع البيضاء، والسوداء والبنفسجية، وكانت المرأة تستخدم إضافة إلى الأقراط، فى نيكاراجوا ويوكاتان على الأقل، بعض الحلى التى تدخل فى ثقوب كبيرة فى شحمة الأذن[٨٩]، وبندرة أقل، كن يستخدمن الحلى الأنفية. ويشير لنا غومارا إلى شيوع استخدام هذه الأخيرة بين سيدات كارتاخينا[٩٠] بينما يشير لاندا إلى شيوعها بين سيدات يوكاتان[٩١].

نادراً ما يرد ذكر الرسم على الجسد عند النساء. فى كولومبيا، "... يطلين وجوههن بنوع من الأصبغة أو الطلاء متعدد الألوان ويلون أجسادهن. وهكذا فإن النساء يستخدمن الأصبغة، وكلما كن أعلى مرتبة زدن من استخدامهن للأصبغة"[٩٢]. ويشير لاندا إلى اعتياد النساء على "نقش" أجسادهن من الخصر فما فوق – "باستثناء الثديين للرضاعة"– ويحدد بأن الرسوم أكثر نعومة وأكثر جمالاً منها لدى الرجال[٩٣].

يبدو أن التشويه الجمجمى كان شائعًا بين الجنسين. وإذا كان أحد مخبرى بوباديلا يعتبره من مزايا الجمال فى المرأة[٩٤]، فإن لاندا يسجل بوضوح نتائجه على المرأة. وهناك تشويهان آخران يميزان سكان هذه المنطقة الأصليين : الأرجل المقوسة بسبب طريقة النساء فى حمل الأطفال بفرشحة على الورك، وحَوَلٌ إرادى يتم التوصل إليه بتعليق كرة صغيرة مقابل عينى الطفل حديث الولادة لحرف عينيه بالنظر إليها. ورغم هذه الشذوذات، فإن مؤلفًا مجهولاً يعلن أن نساء يوكاتان "جميلات جمالاً عجيبًا"، ويرى لاندا أنهن أجمل من الإسبانيات : "... أضخم وأحسن تكوينًا ... ولسن بيضاوات، وإنما هن سمراوات، وذلك بفعل الشمس والاستحمام الدائم الذى هو من طبعهن"[٩٥]. ويتحمس أوفييدو من جهته لنساء نيكاراجوا، اللواتى يبدون له أجمل نساء "بلاد الهند".

الرجل : كانت الوزرة مجهولة خارج مناطق كولومبيا الداخلية، ونيكاراجوا وشواطئ يوكاتان، حيث كانت تُصنع من قطعة قماش قطنى ضيقة مفتولة، ومطوية من الصدر وحتى الورك، يدخل أحد طرفيها بين الساقين ويعقد فوق البطن. وفى أجزاء أخرى، كان اللباس الوحيد للرجال هو قراب من البامبو أو من الذهب أو مقطع من قرعة مجوفة. والوصف التالى الخاص بفنزويلا ينطبق على المنطقة بأسرها: "يمضون عراة تمامًا، ويضع الهنود عنق قرعة، بالحجم الذى يناسب كل واحد منهم، وفيه يولجون العضو الذكرى وحسب، وكل ما عدا ذلك يبقى مكشوفًا، وتُثبّت قطعة القرع تلك بحبل يمرر من ثقبين فيها، ويُزنر الجسم به"[٩٦].

وإلى جانب "الأغطية" المصنوعة على ما يبدو من النسيج والمستخدمة كعباءات، يصف أوفييدو، وهو يشير إلى نيكاراجوا، "درعًا خفيفة" بلا أكمام، من القطن متعدد الألوان، كما يصفها غومارا، حين يلاحظ وجودها فى سانتا مارتا، على أنها "قمصان ضيقة، قصيرة الأكمام أو متوسطتها"[٩٧]. وتظهر أولى القبعات فى كولومبيا: قلانس من القطن وشباك صغيرة (يضعها أشراف نيكاراجوا وأسيادها) وهناك تظهر كذلك الأحذية الأولى: "نعلان من جلد الغزال ليس لهما غطاء لظاهر القدم، وإنما يثبتان بأربطة من القطن أو بأحزمة ابتداء من الأصابع وحتى عنق القدم أو الرسغين، وكأنهما الصنادل"[٩٨].

حلىّ الرجال (بما فى ذلك القلائد) مماثلة لحلىّ نسائهم، ما عدا حلى الأنف – فهى أقل شيوعًا بين النساء – وحلى تزيين الشفة السفلى التى لم تستخدمها النساء على ما يبدو فى أى مكان. وقد تكون الزينة الأولى حلقة أو سيخًا من الذهب أو من الحجر (يذكر لاندرا الكهرمان فى يوكاتان)، أو كما فى نيكاراغوا: "إجاصات صغيرة من الذهب لها حجم حبة الحمص ومن هناك تتدلى أقراطهم"[٩٨] التى تزين الأنف. والحلية الثانية، وكانت تستخدم فى نيكاراجوا فقط، تتألف من عظمة بيضاء ومستديرة تسند إلى الذقن "مثلما يفعل هنود إسبانيا الجديدة". ويمكن لهذه الأداة أن تكون من الذهب؛ وتوضع فى الفم لترفع الشفة السفلى، وتُنزع عمومًا عند تناول الطعام.

والرسم على الجسم كان عادة مشتركة. ففى فنزويلا "كانت وجوه معظم هؤلاء الناس سوداء مصبوغة بصباغ ثابت، لا يمكن نزعه أبدًا، لأن الصباغ يتم باستخراج

الدم، بعد تجريح البشرة بأنواع من الحجارة أو الأشواك، فتوخز، ثم يوضع عليها مسحوق معين أو فحم مطحون، بحيث يدوم ما داموا أحياء وإلى أن يبلى الصباغ مع الجسد"[٩٨]، ولم يكن للشبان الحق بوشم أنفسهم في يوكاتان إلا بعد زواجهم.

لقد أشرنا إلى التشويه الجمجمي في يوكاتان وفي نيكاراجوا، حيث يلحظ غومارا خاصية أخرى تهمنا بسبب بعض التماثلات الأركيولوجية المكسيكية: "... والرؤوس مقسومة، بفجوة في الوسط للتجميل ولتكون مسنداً لحمل الأحمال"[٩٩].

وقد كان لمختلف التسريحات قيمة رمزية لم يجر توضيحها إلا نادراً. فعلى الرغم من الإتيان على ذكر الرؤوس الحليقة بكثرة، مثلاً، إلا أنها لا تكتسب مغزى إلا بفضل نص لاس كاساس : إذ يقول لنا إن حلق الشعر هو علامة مخصصة للشبان المتزوجين، وكذلك للمذنب في خطايا جنسية؛ كما أنه تعبير عن الحداد أيضاً[١٠٠].

وكانت هناك في كولومبيا تقليعة "التيجان" التي يتم التوصل إليها بجز قمة الشعر، وبحلاقة الرأس مع الاحتفاظ بخصلة فوق الرقبة. وفي نيكاراجوا كانوا يعقدون الشعر بشريطة جاعلين منه ضفيرة تتسدل على الرقبة أو أنهم يحلقون القسم الأمامي من الرأس محتفظين بالشعر ابتداء من الأذنين. كما هو الأمر في المكسيك، حيث يتم تمييز المحارب الظافر بخصلة طويلة ومتصلبة من الشعر فوق الرأس. وقد كان الحلاق يعمل مستخدماً أمواساً من أحجار السليكا. "... وهي تقطع مثل مقصات حادة"[١٠١].

وكان شعر البدن يعتبر مؤشراً على البهيمية والهمجية، فكان الوطنيون ينزعونه بواسطة ملاقط، أو بأعشاب أو بمسحوق يُصنع من النمل[١٠٢]. ويروى لاندا أن الأمهات في يوكاتان يحرقن شعور أبنائهن، منذ الطفولة، بواسطة خرق ساخنة جداً. ويؤكد بيدرو مارتير: "... وهم يزدرون معشرنا... ويعتبرونهم وحوشاً ضارية لأنهم يطلقون لحاهم وشعورهم"[١٠٢].

وتشير الأسنان المسودة إلى سن البلوغ: "منذ بلوغهم العاشرة أو الثانية عشرة، حين يبدؤون بالإحساس بوخز الشهوة الجسدية، فإنهم يحملون طوال النهار في جانبي فمهم أوراق شجر، بحجم ثمرة الجوز، دون أن ينزعوها إلا عندما يأكلون أو يشربون. وبهذا الدواء تأخذ أسنانهم بالاسوداد إلى أن تصبح بلون الفحم المطفأ. وهم يزدرون جماعتنا ويقولون إنهم نساء وأطفال؛ لأنهم يحبون أن تكون أسنانهم بيضاء..."[١٠٣].

٥ - المجتمع :

(أ) الزوجان :

يصر فرناندث دى أوفييدو، ابتداء من موجزه لتاريخ بلاد الهند فى العام ١٥٢٦، على تحريمهم زنا المحارم الذى لاحظه فى الجزر أولاً، ثم تأكد منه بعد ذلك فى بقية الأنحاء: "لديهم زوجات، ولا يتخذ أى منهم ابنته أو أخته زوجة له، كما أنهم لا يزنون مع أمهاتهم..."[١٠٤]. ويكرر هذا الموضوع إلى ما لانهاية، موافقًا على أن الإسبان أنفسهم هم المذنبون فى هذه الجريمة : "ولهذا السبب بالذات أصبحتُ أكثر إعجابًا بهؤلاء الهنود المتوحشين، الذين رغم انغماسهم فى الرذائل، إلا أنهم لم يخطئوا فى أمر النساء هذا، فلم ينكحوا الأمهات أو البنات أو الأخوات... وليس علينا أن نفكر بأنهم لم يفعلوا ذلك بدافع الورع الدينى، وإنما لأنهم يعتقدون... بأن من يزنى بأمه أو ابنته أو بأخته يموت ميتة خبيثة"[١٠٥]. ولا يملّ من التشديد على هذا الأمر فى كتابه الضخم كله: "وفى زواجهم ثمة أمور تستدعى الملاحظة، فلا أحد منهم يتزوج من أمه ولا من ابنته ولا من أخته، ولا يجامع جسديًا من هن فى هذه الدرجة من القرابة..."[١٠٥].

ويبدو أن هذه العادة كانت متأصلة، لدرجة أن فرانثيسكو دى بوباديللا حين سأل عن العقوبة المخصصة لأولئك الذين يتزوجون من أمهاتهم أو بناتهم أو أخواتهم، أُجيب بأنه لا توجد أية عقوبة لأن "... أحداً لن يفعل ذلك مطلقًا"[١٠٦].

ويلاحظ لاندا فى يوكاتان الحظر الذى كان مفروضًا على الزيجات بين أشخاص يحملون الكنية نفسها (مجموعات أبوية)، بينما كان زواج أبناء الخؤولة مسموحًا به[١٠٧]. ورغم الخراب الذى وقع، فإن تابو الزنا بالمحارم مازال يتمتع بقوة كبيرة إلى اليوم فى القرى، ويشير الاثنولوجيون إلى حالات معزولة فى المدن فقط. ويطال التحريم فى كينتانا رو Quintana Roo أبناء الخؤولة أيضًا[١٠٨].

ولا يمنع هذا بيدرو مارتير من التأكيد على وجود زنا المحارم، بعد بقائه الطويل فى مجلس الهند: "ولا تحول أية درجة من المصاهرة أو القرابة، كما فى مناطق أخرى، من إقامة العلاقات الجسدية، فيجتمع بذلك آباء مع بناتهم، وإخوان مع أخواتهم..."[١٠٩].

لكن مارتير لا يجهل الحقيقة، ولا يمكن تفسير تصريحه الزائف إلا من خلال المناظرات اللاهبة التى كانت تستهدف تبرير الغزو، وهى مناظرات يعترف مراراً وتكراراً بأنه شارك فيها، ثم إن هذا النص مؤرخ فى ١٥٥٢، أى قبل اثنتى عشرة سنة من اكتشاف البيرو، وهى البلاد التى كان زنا المحارم شائعًا فيها.

ومع أن الانفصال بالاتفاق المشترك لم يكن محرمًا ما لم يكن هناك أولاد، فإن قدسية الزواج تبدو على أى حال محل احترام، إلى درجة أن الفتيات النبيلات كن يتهيأن للزواج بقضاء سنتين من الخلوة. أما تعدد الزوجات غير المعروف فى يوكاتان، فكان مسموحًا به للزعماء فى مناطق أخرى؛ ومع ذلك، فالمرأة الأولى وحدها هى التى تعتبر شرعية. وأما المرأة الزانية، فيمكن طلاقها، ويصبح ممنوعًا عليها فى هذه الحالة أن تتزوج بينما لزوجها المخدوع الحق بزواج شرعى آخر، ويبقى أبناء الزوجين مع أحد الوالدين، حسب قرارهم.

ونحن نعرف طقوس الزواج بفضل مخبر بوباديللا: فالعاهل – الذى يؤدى فى نيكاراجوا ويوكاتان، أكثر من أى مكان آخر، دور الكاهن – يقود العروسين، ممسكًا بهما من الإصبع الخنصر لليد اليسرى، وبعد أن يلقى عليهما وعظة يتركهما وحيدين أمام نار مشتعلة قليلاً. فيتأمل الشابان الحطب كيف يحترق، وعندما تنطفئ النار "... يكونان متزوجين ويمارسان عمليًا ما تبقى"(١١١).

والدور الذى تلعبه العذرية لا يمكن فهمه مباشرة، إذ إنها تبدو شرطًا ومصدر مضايقة فى الوقت ذاته. فمن الممكن طلاق شابة غير عذراء بعد ليلة الزفاف، بينما يبدو فى معظم الأحوال، أن الشبان يفضلون فتاة مجربة، ونرى أن سبب هذا الالتباس هو بعض عبارات المخبر نفسه: "يُسأل أب العروس أو أمها... إذا ما كانت عذراء؛ فإذا أجابا بنعم ولم يجدها الزوج كذلك، فإنه يعيدها، ويكون الزوج حرًا وتُعرف هى بأنها امرأة خبيثة؛ ولكن إذا لم تكن عذراء، وكانوا راضين، فإن الزفاف يتم، حين يُعلمون قبل حدوث النكاح أنها ليست عذراء؛ لأن هناك كثيرين يفضلون الثَّيِّبات وليس العذراوات"(١١٢). يستنتج من هذا أن سبب الطلاق هو عدم النزاهة؛ لأن سوء الأخلاق ليس فى فقدان العذرية، وإنما فى الكذب.

وهناك عدة مؤشرات تؤكد هذه الفرضية؛ أولها موقف التقديس والمسؤولية الذى يتبدى فى *السلوك المألوف والشائع*. فالعذراوات *لم* يكنّ مرغوبات لكونهن كذلك، ذلك أن العذرية، بعيداً عن كونها شرطاً للزواج، لم تكن تشكل إلا عاملاً جسدياً مثل أى عامل آخر يمكن له أن يؤدى إلى الاستمالة أو النفور، والنظرة إلى العذرية تفترض امتلاك المرأة حرية أكثر حقيقية، فى الوقت الذى تُمنح فيه للفتاة صلاحية البغاء قبل الزفاف دون أن يكون ذلك سبباً للاستنكار، وكان هناك من ينذرن أنفسهن للعذرية بعيداً عن أية مقتضيات دينية، وما يرويه المؤرخان (غومارا ومارتير) من حالات عديدة عن نساء اغتصبن، انتقاماً، على يد جماعات كاملة من المسيحيين، يؤكد أن حالة العذرية كانت تلقى الاعتراف والاحترام نفسه الذى تلقاه حالات اجتماعية أخرى. ثم إن الاغتصاب كان يُعاقب عليه فى نيكاراجوا بتخفيض مكانة المذنب إلى العبودية، لصالح أبوى الضحية، والقليل الذى نعرفه عن يوكاتان يتيح الاستنتاج بوجود عادات مماثلة إلى حد بعيد، فإذا كان لاندا لم يتكلم إلا عن السهولة التى يجدها الزوجان للانفصال والزواج ثانية – الزواج الأول وحده هو الذى كان يكرسه الكاهن –، فإن الانثربولوجى العظيم مورلى Morley ينقل إلينا ملاحظة ذات مغزى : "... المرأة العزباء التى لديها ابن غير شرعى أو أكثر لا يكون حصولها على زوج أكثر صعوبة من حصول شقيقاتها الفاضلات عليه"(١١٣). هذا الإنقاص من قيمة العذرية يظهر بوضوح فى وجود عادة خاصة جداً : ففى كويا، على سبيل المثال، تضاجع المتزوجة حديثاً جميع زملاء زوجها– القادة، الاداريين، المهنيين – قبل مضاجعتها الزوج ": وبعد أن يجربها كثيرون، تخرج وهى تهز ذراعها، رافعة قبضتها عالياً، لتقول بصوت عالٍ: "مانياكاتو، مانياكاتو "أى أنها مجدة وقوية..."(١١٤). وكان الكهنة فى فنزويلا هم الذين يقومون بهذه المهمة: "عندما تتزوج شابة عذراء، يجب أن ينام معها أولاً ويضاجعها البياتش أو كاهنها، لتحظى بالسعادة فى زواجها، وتُسلَّم فى اليوم التالى لزوجها"(١١٤). ويضيف غومارا أن المحظيات الملكيات ما كن يحظين بهذه المعاملة، ويشرح وضع هؤلاء: هناك "رجال مقدسون ومتدينون... تُقدم إليهم العرائس ليقوموا بفض بكارتهن، وهى عندهم عادة نبيلة. ويؤدى أولئك الآباء الموقرون هذا العمل لكى لا يفقدوا مقامهم وورعهم، وينزع الشبان العُرُس الشكوك والشكاوى والأحزان"(١١٥). وفى نيكاراجوا كان فض البكارة يسند *إلى السادة العظماء* وينقل فيرناندث دى أوفييدو *التفسير* الذى يقدمه إليه أحدهم

حول هذه الممارسة. فالمؤرخ يؤنبه: "... وأن ينام معظم لياليه مع صبايا عذراوات، هو خطيئة كبرى وأمر بغيض على الله، فيجب ألا تكون لديه سوى امرأة واحدة وهو لديه كثيرات، فضلاً عن أولئك اللواتي يفتضهن. فرد عليَّ بأنه لا يريد سوى واحدة، لو كان ذلك متاحًا له، وإن واحدة تسعده خيرًا من كثيرات ؛ ولكن آباءهن يجيئون بهن إليه ويرجونه أن يأخذهن، فيأخذهن، ويفعل ذلك ليكثر الأولاد؛ ويفعله للفتيات العذراوات كي يشرفهن ويشرف أسرهن، فيتزوج منهن الهنود الآخرون بعد ذلك برغبة أفضل..."(١١٦).

ويصل هذا القلب للقيم ليصبح كاملاً عندما يتعلق الأمر بالدعارة: فهي في نيكاراجوا مهنة محترمة مثل أي مهنة أخرى؛ فقد كان أمرًا عاديًا أن تتكسب فتاة من عشاق عابرين لتجمع بذلك مهرها. ولم يكن الآباء يوافقون على ذلك وحسب، بل كانوا يتفهمونه تفهمًا تامًا : فهي تواصل العيش معهم - تؤدي عملها في مكان خاص من السوق -، وتقوم بالإنفاق عليهم عند الضرورة، وحين تريد الزواج يتنازل لها أبوها عن قطعة من أرضه. والقبول الاجتماعي بهذه العلاقات يثبته موقف الشبان ممن تبيع جسدها (كانت التعرفة الرسمية هي عشر حبات كاكاو). فقد كان شبان الحي يحيطون بها، كما لو كانت عاملة أو موظفة، ويحبونها، ويرافقونها إلى عملها أو يذهبون لمرافقتها في الإياب. ويصر أوفييدو مرارًا وتكرارًا على أن أولئك الرجال، الذين لا يجد لهم تسمية أخرى سوى "قوادينا"، لا يتلقون مالاً ولا خدمات خاصة منها. وحين تعلن المرأة عن رغبتها في الزواج، دون الكشف عن اسم الشاب المختار، فإنها تطلب من عاشقيها أن يشيدوا لها منزلاً: "فيبدأ العمل فيه ويُنجز، دون أن ينقصه أدنى شيء؛ ويفعلون ذلك بسرعة مضاعفة، إذ إن أولئك العشاق يتلقون العون والمساعدة من جانب أقربائهم وأصدقائهم، ويرون شرفًا كبيرًا لهم في البقاء مع المرأة التي ينالونها بهذه الطريقة، وكل منهم يود أن يكون المختار وأن يكون منافسوه منبوذين"(١١٧). ولا تشير هي إلى محط حبها إلا بعد الانتهاء من مأدبة العرس؛ وبعد أن تعتذر لأنها لا تستطيع أن تضاعف نفسها أضعافًا لتبقى معهم جميعًا؛ وهي كلمات ليست مجرد مجاملة اصطلاحية، إذ كانت تقع على الدوام حالات انتحار بين المرفوضين. ويبقى أقرباء وأصدقاء الفائز وحدهم ليحتفلوا بالنهاية السعيدة حتى الفجر. "وتصبح امرأة فاضلة منذ ذلك الوقت، ولا تقابل أيًا من معارفها أو أي رجل آخر وتقيم في بيتها"(١١٧).

ويصل جميع كتبة الوقائع، بطريقة أو بأخرى، إلى النتيجة نفسها، ونجد العبارة التي يلخص بها غومارا تجربة مواطنيه تتردد باستمرار: "... لا تهمهم العذرية في شيء... [لكن] المتزوجة منهن تعيش حياة شريفة". إن المساواة الاجتماعية للمرأة، والحرية التامة للجسد بأن يتمتع، أضف إلى ذلك القبول المضبوط بحاجاته، تبدو واضحة في بعض التجاوزات التي تبيحها الجماعة للزوجين كذلك، إذ على الرغم من التأكد من الإخلاص التام، فإن مخالفة القاعدة كانت مباحة بتسامح. ولا حاجة إلى القول إن هذه العادات كانت تُخرج أوفييدو عن طوره : "... لم أسمع أبدًا بما هو أغرب أو أرذل وأسفل مما يفعله هؤلاء الهنود؛ إذ إنهم في عيد معين معروف يشارك فيه أناس كثيرون.. جرت عادتهم أن تُمنح النساء الحرية خلال العيد – وهو يجري في الليل –، فيضاجعن من يدفع لهن أو من يروقهن، مهما كن عاليات الشأن هن وأزواجهن. وبانقضاء تلك الليلة، لا تبقى هناك شكوك ولا شيء من ذلك، كما أنها لا تحدث إلا مرة واحدة في السنة... ولا يتبع ذلك قصاص أو غيرة أو أي عقاب آخر"[١١٨]. وفي فنزويلا، يقدم السيد أجمل نسائه إلى ضيفه: "وإذا شاءت مرافقة الضيف الغريب عند رحيله، فلها ذلك حسب رغبتها، دون أن يمنعها زوجها؛ وإذا شاءت البقاء، كما كانت من قبل، فإنها لن تتلقى معاملة أسوأ ولن يُنظر إليها بشر، بل ستبدو وكأنها قدمت خدمة جليلة لزوجها، وعليه أن يحبها أكثر، لأنها قامت بالواجب تجاه الصديق الضيف، ولأنها لم تنكره بعد تعرفها على الآخر الجديد"[١١٨]. واستنادًا إلى أوفييدو، فإن سخاء نساء ينما النبيلات في تقديم خدماتهن لا حدود له: "... وهن أنفسهن يقلن إن على النساء النبيلات والسيدات ألا يرفضن تقديم أي شيء يُطلب منهن؛ لأن من يفعلن ذلك هن الساقطات"[١١٩].

وكان الإجهاض أمرًا عاديًا؛ فالشابات المتزوجات يؤكدن أنه: "على المسنات أن يلدن، أما هن فلا يردن شغل أنفسهن عن متعهن، ولا أن يحبلن؛ لأن الولادة تؤدي إلى تهدل أثدائهن التي يعتززن بها كثيرًا، ويحتفظن بها في حالة جيدة..."[١١٩].

ومع ذلك، وبين هذه الكائنات المتهتكة ظاهريًا، يلمح أوفييدو في كاستيبا دل أورو أبرز حالة حب من هندية لزوجها وتوجهها بالتضرع الذي تداريه بالدموع "إلى كاتب هذه *الروايات*" كي يعفو عنه، ولكنه أمر بشنقه رغم ذلك. وبعد قتل الزوج، أعلنت المرأة

أنها المسؤولة عن التمرد ضد الإسبان، وطالبت بضراوة بالمصير نفسه لها ولأولادها. وبعد نجاتها لبراعتها، كانت لديها الشجاعة – وهى شجاعة بطولية حقًا فى تلك الظروف – لتأتى إلى أوفيبدو مستغيثة وتذكره بكلماته. وها هى ذى روايته للحادثة :
"... وبالنظر إلى أننى كنت قد أمرت بتوزيع هنود تلك الغنيمة بين الإسبان... فكانت الهندية وابنتها من نصيب أحد الزملاء، والصبيان أولادها، من نصيب آخرين، حينئذ جاءت الأم إلىّ وهى تطلق الصرخات وقالت لى هذه الكلمات : أنت يا سيدى، ألم تقل لى إننى وأولادى غير مذنبين؟ فإذا كان الأمر كذلك، لماذا تنتزع منى أولادى وتعطيهم لآخرين، وتبعدهم عنى؟ عندئذ وجدتُ طريقة لإبقائها وأولادها وابنتها مع سيد واحد..."(١٢٠). كما أنه معروف بشكل عام أن المتزوجين ما عادوا ينامون معًا بسبب الغزو "... كى لا ينجبوا عبيدا للإسبان"(١٢١).

ورغم أننا قد نفكر للوهلة الأولى بأن هذه الكرامة ليست مفهومة فى مجتمع يبدو أن المرأة فيه كانت تعتبر كائنًا أدنى، فالحقيقة أننا لا نملك إلا عناصر قليلة توضح وضعها الاجتماعى، لقد رأينا أنه كان بإمكانها أن تكون طبيبة، ولكن يبدو أن المناصب الدينية كانت محظورة عليها؛ وتتيح بعض الإشارات معرفة أنها لم تكن بعيدة عن الشؤون العسكرية، ولا شؤون الحكم، ولا إدارة الممتلكات، وحول هذه النقطة الأخيرة، يتحدث أوفييدو عن سيدات عظيمات كن ينظمن ويدرن أعداداً كبيرة من العمال(١٢٢).

وفى سواحل فنزويلا كانت المرأة تزرع الحقول، وتتولى شؤون المنزل، بينما يتفرغ الرجل للصيد، وفى نيكاراجوا كان الرجال هم الذين يتولون شؤون الزراعة وصيد الأسماك وأمور المنزل؛ بينما تختص النساء بالتجارة.

وكانت المرأة فى يوكاتان، كما يقدمها دييغو دى لاندا على الأقل، تنسجم مع الفكرة الغربية السائدة فى ذلك العهد : محدودة الذكاء، عاجزة عن التفرغ للتجارة، ولا تجلس مطلقًا إلى مائدة الرجال، وتدير ظهرها حياء حين تقدم لهم الشراب، وتبتعد عن سبيلهم بمذلة(١٢٣). وهى تتمتع فى شبابها بالوراثة كاملة، أما بعد زواجها فقد كانت حقوقها محدودة حتى إن أولادها يُنتزعون منها بعد وفاة الزوج وتنتقل التركة كلها إلى إخوة الميت.

وعلى الرغم من تقدير الأسقف نفسه لأمور على هذه الدرجة من الحكمة، فإنه يضع حداً للكمال عندما يضيف بعد قليل، إن بعض النساء، فى الواقع، كن يبعن نتاج عملهن فى الأسواق ويتولين فى الوقت نفسه شؤون أولادهن وأمور الاقتصاد البيتى، إذ إن مسؤولية دفع الضرائب تقع على عاتقهن؛ وإنهن كن ينظمن حفلات رقص خاصة بهن وحدهن، محرمة على الرجال؛ وأنهن كن يسكرن فى مآدب يقمنها فيما بينهن، وكانت الأمور تصل بهن إلى ضرب الزوج الخائن. وهكذا يبدو إذن أنه على الرغم من النظام الابوى، وبالرغم من عدم مساواة المرأة فى المناصب العامة، فإن المرأة فى بوياتان لم تفقد تماماً الاستقلالية الرائعة التى كانت تتمتع بها فى منطقة الكاريبى.

(ب) الحكومة

كانت المنطقة التى تهمنا مقسمة إلى أقاليم (ولايات) صغيرة نسبياً، يحكمها ملوك مستقلون ذاتياً، لديهم موظفون يقومون مقام الوزراء والحكام. وقد كان عدد هؤلاء الأسياد خمسة فى اسبانيولا. ويثبت ملوكهم – الذين تستحق قصتهم المأساوية أن تروى منفصلة – أنهم حكماء وذوو نوعية أخلاقية عالية. وقصة هاتوى Hatuey ، العاهل الذى لجأ إلى كوبا، هى مثال على ذلك. فحين علم أن الغرباء سيغزون الجزيرة، جمع أبناء قومه، وبعد تحليل للوضع، أوضح لهم أن سبب سلوك البيض هو التوقير الذى يكنونه لملك عظيم يعرفه جيداً. وفيما هو يقول ذلك كشف عن سلة مملوءة بالذهب: "ههنا ترون سيدهم، الذى يخدمونه ويحبونه ويسعون إليه؛ ومن أجل هذا السيد يذيقوننا الويل؛ من أجله يطاردوننا؛ ومن أجله قتلوا آباءنا وإخوتنا وكل أهلنا وجيراننا، وحرمونا من كل أملاكنا، ومن أجله يطاردوننا ويمتهنوننا ؛ ولأنهم كما علمتم يريدون المجىء إلى هنا، ولا يرغبون بشىء آخر سوى البحث عن هذا السيد، وللعثور عليه واستخراجه سيعملون على مطاردتنا وإنهاكنا، مثلما فعلوا فى وطننا من قبل، ولذا فلنقم حفلاً هنا لهذا السيد ولنرقص له، فلعله يقول لهم حين يجيئون أو لعله يبعث إليهم أن لا يؤذونا"[١٢٤]. ولارتيابه رغم كل ذلك بهذا الشفيع، قرر هاتوى، بعد رقصات أقاموها على شرف الذهب، التخلص منه، لأنه "... حتى لو أخفيناه فى بطوننا، فسيستخرجونه منها؛ لهذا سنلقى به إلى النهر، تحت الماء، ولن يعرفوا مكانه"[١٢٤].

وفعلاً، لم يهتز ذلك الإله لتوسلاتهم: فقد جرى اغتيال جميع المقاومين وأحرق هاتوى حيًا ، وحين أعلمه أحد الآباء الفرنسيسكان، وهو مقيد إلى عمـود، المحرقة، بأن التعميد يتيح له كسب فردوس السماء، سأله هاتوى عن مصير المسيحيين بعد موتهم، وحين علم أن الأخيار يذهبون إلى الفردوس، رفض التعميد قائلاً إنه يفضل الجحيم على صحبة أناس بهذه القسوة.

كانت السيادة تنتقل بالوراثة إلى الزوجة الشرعية. وعند موتها يخلفها ابنها الأكبر أو ابن أخت العاهل، وليس ابن الأخ على الإطلاق. وقد حكمت عدة نساء تحت الاحتلال الإسبانى بشجاعة وحكمة بعد اختفاء أزواجهن، وبقين فى الحكم حتى اغتيالهن الذى لا مناص منه، وجميع المؤرخين تغنوا مطرين على أناكاونا الجميلة Anacaona ، ملكة أكبر أقاليم اسبانيولا، التى أُحرقت وهى حية بعد أن تمكنت لبعض الوقت من فرض نوع من توازن القوى مع المحتلين.

ويشير ثييثا دى ليون كذلك إلى وصول المرأة إلى السلطة فى كولومبيا عن طريق حق الخلافة، وكذلك رد الألقاب والأملاك إلى ابن أخت الميت. وحسب أوفييدو، فإن الممالك الوراثية فى نيكاراجوا قد استُبدلت بمجتمعات تحكمها مجالس أو جمعيات للشيوخ أو للرجال الموقرين، المختارين عن طريق الاقتراع، والذين يجتمعون فى مبنى خاص لمناقشة شؤون الجماعة حتى يصل الاتفاق أو عدم الاتفاق إلى الإجماع. وقد أزعجت الإسبان هذه الديمقراطية، التى تتطلب أخذ عدة آراء بعين الاعتبار، واستُبدلت بنظام الزعماء، وهو الأكثر فعالية للسيطرة على السكان الأصليين. وحيث إن أوفييدو يشير فى النص نفسه إلى وجود ممالك وراثية، فلا بد أن أصالة نيكاراجوا كانت تعتمد على وجود نوع من مجلس الدولة إلى جانب العاهل يأخذ رأيه فى الاعتبار حقًا فى حكمه. ومن المحتمل أن الشىء ذاته كان يحدث فى يوكاتان، حيث علمنا أن عدة موظفين كانوا يملكون الكلمة الفصل فى أى شأن يخص الجماعة، موظفين "قارنهم الكتاب الإسبان فى القرن السادس عشر بنواب المجالس البلدية فى إسبانيا"[١٢٥]. ويصبح هذا التشابه أكثر احتمالاً عندما تتطابق بعض الملامح الأخرى التى جمعها مورلى مع التقارير التى نقلها أوفييدو : "واجبات الـ آه هولبوبوب ah horlpopob ، وهى كلمة بلغة المايا تعنى "الذين على رأس الحصيرة"، ليست واضحة. يقال إنهم

كانوا يساعدون الملوك فى حكم شعوبهم، وعن طريقهم يقترب أبناء الشعب من الملوك. وكانوا مستشارى الأسياد فى مادة السياسة الخارجية، أو فيما يخص سفارات دول أخرى. ويقال إنهم كانوا زعماء الببولنا popolna ، وهو المقر الذى كان يجتمع فيه الرجال ليتداولوا فى الأمور العامة..."[١٢٦] ولدى حديثه عن عاهل نيكاراجوا يصر أوفييدو على أن اتصال هذا الزعيم مع ممثلى الشعب أو مع السفراء لم يكن مباشراً أبداً. ويروى أن أعداداً من الوجهاء والقادة كانوا على مقربة منه باستمرار ليكونوا حلقة اتصال بينه وبين العالم الخارجى ليتلقوا الأخبار وينقلوها، أو لكى ينقلوا توجيهاته أو أوامره[١٢٧]. ومما هو جدير بالملاحظة، حسب اللوحة التى يرسمها لنا أوفييدو، أن هؤلاء الأشخاص كانوا يقضون النهار مضطجعين، الندماء منهم على حصائر موضوعة على أرضية رواق؛ والعاهل على متكأ، رأسه إلى الشرق وقدماه باتجاه الوزراء، وربما كان هذا يفسر عبارة المايا "الذين عند رأس الحصيرة". وقريباً من العاهل كان يوجد دوماً قوس طقسي. ويلاحظ مورلى أن شعار الزعيم، فى نصب يوكاتان، كان سلاحاً كذلك. وفى نيكاراجوا كان رسل مزودون بصولجان من الريش هم الذين يذيعون قرارات المجلس، وكانوا يستخدمون للمطالبات الرسمية عصياً – صنجية يسلمها المـلك بالذات إلى المنادى العام.

وقد كان التفنن الاحتفالى الذى يرافق الولائم يفاجئ الإسبان دوماً، خصوصاً وأن الأسياد واصلوا مشاركة رجال بلاطهم فى طقوس تناول الأطعمة فى زمن العبودية الغربية. وبعد العشاء كانوا يستدعون النوم بواسطة تبخير الأعشاب والراتينج العطر. ويبدى لاندا استغرابه لعادتهم فى غسل الفم بدقة قبل الطعام وبعده.

وكان الحكام المزودون بالسلطة، سواء فى الجانب الاجتماعى أو فى الجانب الدينى، يقضون فترة محددة فى معبد قبل توليهم السلطة. وقد رأينا كيف أنهم فى نيكاراجوا يتحولون إلى "آباء المعبد" بعد سنة، وأن الأمير الوارث فى كولومبيا يبقى معتكفاً من خمس سنوات إلى سبع سنوات، حسب أهمية الإرث. وأثناء ذلك الاعتكاف لا يمكنهم رؤية الشمس تحت طائلة فقدان المنصب، ويبدو أن ثنائية السلطة هذه كانت موجودة، بشكل أقل جلاء، فى يوكاتان كذلك، حيث كانت المرتبة الاكليروسية العليا وراثية أيضاً[١٢٨]. فأعضاء السلالة التى فى الحكم كانوا سادة الشؤون الدينية

والشؤون الدنيوية على حد سواء، ويجد مورلى فى هذا الاندماج تفسيراً لانعدام آثار أى صراع ما بين السلطتين، ومازال النوهوش تاتا Nohoch Tata ، حتى أيامنا هذه، يشكل السلطة العليا للجماعة ويتمتع بالسلطة الدنيوية والدينية على حد سواء(١٢٩). وفى كينتانا رو Quintana Roo ، المنطقة التى يبدى المتبقون فيها على قيد الحياة تماسكًا خاصًا، لاحظ الاثنولوجى المكسيكى ألفونسو فييا روخاس، فى أيامنا هذه أن "أسلوبهم فى الحكم يرتكز على نظام سياسى - دينى يحتل المركز الأعلى فيه حبر أعظم يقوم فى الوقت نفسه بدور المستشار فى جميع قضايا الإدارة العامة... والموقف الدينى يطغى على كل شىء، ولا يتصدى لأى قضية جدية دون أن يتوسل قبل ذلك الفضل من الصليب المقدس، ومن المسيح ومن عدد من القديسين عن طريق الصلوات أو طقوس أخرى"(١٣٠).

(ج) النبلاء

كان لأعضاء أية إمارة، بمن فى ذلك الخدم والشغيلة، الشعار أو الرمز ذاته، يحملونه موشومًا على أجسادهم. ولا وجود لكلام خاص حول تلك الرموز إلا رسم النمر، وإذا كان للوارث، مبدئيًا، حق اختيار شعاره، فثمة تأكيد بأن من يرفض شعار أسرته يتحول إلى هدف للنفى. ومع ذلك، هناك إشارات إلى حالات تردد قبل تبنى هذا الشعار الذى لا ينمحى ، وهناك ممارسة لاحظها الاتنولوجى روبيرت ريدفيلد فى كينتانا رو تبدو وكأنها تؤكد فكرة أن بعض الرسوم تفيد كسمة للجماعة: "كل فرد يعرف بالتحديد، ومنذ طفولته، رموز السلطة المقدسة الخاصة به وتسلسل أهميتها... ويتبنى جميع المنتمين إلى القبيلة الرموز الإلهية ذاتها... ولكل أسرة رموزها الدينية، وهذه تحاكى رموز القرية والقبيلة"(١٣١).

ويمكن إحراز النُّبل العسكرى فقط فى ميدان المعركة. وفى هذه الحالة، لا تغطى شعارات الصباغ الأسود الجسد إلا بشكل متدرج: ففى المرحلة الأولى يجرى تزيين الذراع الأيمن؛ وفى مرحلة تالية يُزين الصدر بالنقش نفسه الذى على الذراع؛ وفى المرحلة الثالثة والأخيرة، فى فنزويلا، يُرسم على الوجه خط يمضى من إحدى

الأذنين إلى الأخرى: "والهندى الذى صُبغ وجهه، أو جبهته، أو الذى يحمل جلد النمر... يعتبر قائداً شجاعًا مثل فيرياتو Viriato ... أو السيد روى دياث Cid Ruy Diaz" . وحسب الألقاب، يمنح الملك الأرض والنساء والفلاحين والامتيازات، ويخصص أبناء أولئك الأبطال للحياة العسكرية، والرسوم الموشومة - وهى تعذيب حقيقى، حسب دييجو دى لاندا - كان يقوم بها مختصون "شديدو المهارة يعيشون من هذه المهنة"(١٣٢).

(د) العبودية

يطلق الأوربيون تسمية عبيد على جميع الخدم، ولكن ليس هناك ما يُثبت وجود العبودية كنظام، فلاس كاساس يؤكد أنه "... لم يُعرف فى مناطق الهند هذه أبداً أنهم يقيمون اختلافاً، ولو ضئلاً جداً، بين الأحرار أو حتى بين أبناء العبيد، فيما يتعلق بالمعاملة، فى جميع الأنحاء تقريباً، اللهم إلا فى إسبانيا الجديدة وفى أقاليم أخرى، حيث جرت العادة على تقديم القرابين البشرية للآلهة، وتكون قرابينهم عادة ممن يأسرونهم كعبيد فى الحرب..."(١٣٣). وربما أوضحت هذه المساواة قانون نيكاراغوا، الذى بمقتضاه: "من ينام مع ابنة مالكه أو سيده، فإن جميع من فى البيت حيث وقع ذلك، وأقرباءهم، يأخذون الجانيين الزانيين ويدفنونهما أحياء..."(١٣٤). هذا الخبر المقدم إلى بوباديللا يبدو أنه يؤكد حالة التبنى التى يتمتع بها الخادم، خصوصاً وأن الخبر كما هو واضح جاء جواباً على سؤال متعلق بزنا المحارم، أضف إلى ذلك أن هذه الحالة هى الوحيدة التى تستحق حكم الإعدام فى تلك البلاد.

ومهما يكن من أمر، فإن المرء يصبح عبداً بعد وقوعه أسيراً فى أرض المعركة أو كعقاب على بعض الجرائم. كما يشار إلى بيع الرقيق فى نيكاراجوا ويوكاتان. وقد كان وشم الوجه فى معظم أنحاء الكاريبى رمزاً للعبودية، ويحدد أوفييدو أن الوشم بين الأسياد لا يتجاوز مطلقًا مستوى الوجه أو الاذنين؛ والعبيد وحدهم هم الذين يتوسعون فى الوشم ليطال الجزء العلوى من الوجه.

(هـ) العدالة

ومما يثير الفضول أنهم فى نيكاراجوا ويوكاتان ما كانوا يعتبرون أية جريمة أخرى، باستثناء زنا المحارم، تستحق عقوبة الإعدام؛ حتى أن جريمة القتل لم يكن يُعاقب عليها إلا بغرامة مادية. والسرقة، التى كان يُعاقب عليها بقسوة فى جميع الأنحاء، كانت النظرة إليها متساهلة إلى حد ما: فعند اكتشاف الجانى، يتوجب على السارق أن يعمل فى خدمة الشخص المتضرر، وإذا كان غير قادر على إعادة ما سرقه، فإنه يصبح عبداً، وكعلامة على ذنبه يقومون فى نيكاراجوا بقص شعره، ولكنهم يمنحونه الحرية عندما ينمو الشعر ثانية، أما فى يوكاتان فكانوا يوشمونه فى وجهه(١٣٥). أما مرتكب الخيانة الزوجية فكانت محاكمته تتم فى هذه المنطقة على يد الزوج المخدوع، الذى بإمكانه أن يعفو عنه أو أن يقتله رجمًا، وحتى فى أيامنا هذه يُحكم فى كينتانا رو على الزانى بمتزوجة بأن يُجلد(١٣٦). وتصل عقوبته فى نيكاراجوا إلى بعض الجلدات كحد أقصى.

ويتبدل هذا المشهد فى أنحاء أخرى. فهم فى كولومبيا "صارمون فى معاقبة الجرائم، وخصوصاً العامة منها : أى القتل والسرقة والخطيئة المستنكرة ضد العورة... والجرائم الأخرى التى ليست بهذا السوء يعاقبون عليها كذلك عقوبات جسدية، ولكنها لا تصل إلى حد عقوبة الموت، مثل بتر الأيدى وجذع الأنوف وصلم الآذان، أو الجلد بالسياط"(١٣٧).

(و) الملكية :

مثلما هو الحال بين جماعات السكان الأصليين الحاليين، كانت الأرض مشتركة. يتلقى المتزوجون حديثًا جزءًا يعاد إلى كنف العشيرة فى حالة الطلاق أو الموت. ويكتب جومارا، مشيراً إلى شواطئ فنزويلا: "وهم يسيجون البساتين والممتلكات بخيط من القطن فقط، أو بالخونكو (نوع من الخيزران) كما يدعونه، بارتفاع لا يتجاوز علو الخصر، والدخول من فوق ذلك السياج أو من تحته يعتبر خطيئة عظمى، وهم يعتقدون بأن من يكسره يموت سريعاً"(١٣٨).

ويلخص بيدرو مارتير حق الملكية بهذه الطريقة: "وإنه لأمر معلوم أن أولئك السكان الأصليين يملكون الأرض بشكل جماعي، مثل ضوء الشمس ومثل الماء، وهم يجهلون كلمتي ""لك"" و"لي"" اللتين هما منشأ كل الشرور. ويرضون بالقليل لدرجة أنه في الأقليم الذي كانوا يقطنونه هناك فائض من الحقول دون أن ينقص شيء على أحد. إنهم يعيشون في أوج العصر الذهبي، ولا يحيطون أملاكهم بخنادق ولا بأسيجة. ويسكنون بساتين مفتوحة، دون قوانين، ولا كتب، وبلا قضاة، وينظرون ما هو عدل بالفطرة الطبيعية، ويعتبرون خبيثًا ومجرمًا من يرضى بإغضاب الآخرين"(١٣٩).

(ز) التجارة

يؤكد أوفييدو أنه "... حين لا يكون الهنود في حالة حرب، فكل نشاطهم ينكب على الاتجار، ومقايضة ما يملكه أحدهم بما يملكه الآخرون..."(١٤٠). وقد كان نقل البضائع من طرف أحد البلدان إلى طرفه الآخر يفسح المجال لتشكيل قوافل متواصلة. وكانت التجارة تتم بالمقايضة، اللهم إلا في نيكاراجوا ويوكاتان، حيث كان الكاكاو يستخدم كنقد.

وقد أثارت الأسواق في كل مكان إعجاب الإسبان، سواء لغناها بالبضائع أو للجموع الكبيرة التي تتجول فيها بانسجام تام. وكان يجرى اختيار مراقبي الأسواق في نيكاراجوا كل أربعة أشهر قمرية من قبل مجلس المسنين Consejo de Ancianos . وكانت مهمتهم تتمثل في "حفظ الأمن، ومنع الغش والمكاييل الزائفة؛ والحيلولة دون إعطاء ما هو دون المتفق عليه؛ وإنزال العقاب الصارم بمن يتحايلون على القانون وعلى الأعراف؛ واستقبال الغرباء بلطف لكي يرجعوا مرة أخرى"(١٤٠). وفي فنزويلا كانوا يستخدمون "نوعًا من الموازين الرومانية الدقيقة، يزنون فيها، وهي مصنوعة من العظم الأبيض الذي يبدو كأنه العاج؛ كما كان يوجد منه نوع أسود، كالأبنوس"(١٤٠)؛ ويلاحظ ثييثا دي ليون في بنما، استخدام "... موازين رومانية صغيرة لوزن الذهب"(١٤١).

وفي نيكاراجوا، كان السوق تحت سيطرة المرأة، التي لا تقبل فيه الرجل إلا إذا كان غريبًا، ولا يمكن لرجال المكان أن يمروا منه، حتى ولا من باب الفضول، دون أن يثير ذلك الاستنكار، وتوجه إليهم الشتائم، بل والضرب أيضًا.

(ح) التقاليد

انتقال المعرفة فى منطقة الكاريبى كان شفويًا، عن طريق قصص تأتى على ذكر شخصيات شهيرة، وأساطير، وأحداث ذائعة. وكانت هذه القصص، المغناة فى كورال، تستخدم فى حفلات الزفاف، أو فى المآتم أو فى الحصاد وتشكل الجزء المركزى من حفلات غناء الأريتو الشهيرة. "هذه الطريقة فى الغناء... هى صورة عن التاريخ أو رؤية للأمور، سواء أكانت حربيًا أم سلمًا، فباستمرار هذه الأغانى لا ينسون المآثر والأحداث التى مضت. وتبقى هذه الأغنيات فى ذاكرتهم، بمقام الكتب..."[١٤٢]. وكانت هذه الاحتفالات المصحوبة بنشوة طقوسية، تستمر لعدة أيام، ويتم فيها توقيع الاتفاقات والقرارات الحكومية التى كان الشعب يطلع عليها بهذه الطريقة، ويوافق عليها بالغناء. الأمر إذن هو طريقة عميقة فى التعبير الاجتماعى، ونشاط يربط أفراد الجماعة بمتانة إلى بعضهم بعضًا، بروابط جلية القداسة. ومما له مغزى أن الوجهاء السامين ah holpopoh ("الذين على رأس الحصيرة"، وقد رأينا مكانتهم المسيطرة من قبل) كانوا يتولون إدارة البيت الذى يجتمع فيه الرجال لمناقشة الشؤون العامة وتعلُّم الرقصات لحفلات القرية، ذلك أن الإله هولبوبوه "كان المغنى الرئيسى والمرتل الذى يتولى، فى كل قرية، أمر الرقص والأدوات الموسيقية"[١٤٣]. ومن جهة أخرى، فإن نابوش تاتا Naboch Tata، الوجيه الدينى الذى يمارس على المؤمنين سلطة أكبر من سلطة صاحب أى مرتبة كاثوليكية فى يوكاتان، كان فى الوقت نفسه رئيس المعلمين المرتلين[١٤٤]. وهناك واقعة جرت عند غزو جزيرة اسبانيولا توضح بطريقة لا تضاهى تأكيد دييغو دى لاندا حول قوة روابط الصداقة التى كانت تقوم بين المشاركين فى تلك الاحتفالات[١٤٥] : إنها قصة موقف الملك مايوبونيكس الذى ضحى بنفسه وبمملكته لإنقاذ صديقه غواريونيكس الذى استجار به، وعندما أصبحت العقوبات الانتقامية لا تطاق، وطلب الشعب من ملكه تسليم الهارب إلى المعتدين، رفض مايوبونيكس متعللاً، بين مبررات أخرى، بأنه هو وزوجته الملكة كانا قد افتتحا حفلة غناء الأريتو فى بلاد ذلك الملك. وقد توفى مايوبونيكس تحت التعذيب بعد أن شهد اغتصاب زوجته، وبعد أن رأى الكلاب وهى تمزق بقية أفراد أسرته، بينما عاش الملك غواريونيكس عدة أسابيع بعده متخفيًا فى الجبال.

وكانت تصحب غناء الأريتو أحياناً موسيقى وألعاب معينة. وإذا لم يكن الطبل هو الآلة الموسيقية الوحيدة، فإنه كان بالتأكيد، أكثر الآلات المستخدمة أهمية، وكان شكله التقديرى فى جزيرة اسبانيولا هو الشكل نفسه فى جميع الأماكن: "... مصنوع من جذع أسطوانى مجوف له ثخانة الرجل... ودويه أصم كدوى الطبول التى يصنعها الزنوج؛ ولكنهم لا يضعون له جلداً، وإنما بعض الثقوب والخيوط التى تمتد فوق فتحته، ولكنه يدوى بأصوات قبيحة. وبتلك الآلة السيئة أو بدونها، كانوا يوردون فى أغنياتهم... ذكرياتهم وقصصهم الماضية، ويروون بهذه الأغانى كذلك الطريقة التى مات بها زعماؤهم السابقون، وكيف كانوا ومن هم، وأشياء أخرى لا يريدون أن يطويها النسيان..."(١٤٦).

. ينقل أوفييدو أنه كان هناك فى بنما طبول مغطاة بجلود غزلان أو حيوانات أخرى، وصحيح أنهم كانوا يستخدمون طبولاً كبيرة يتطلب نقلها خمسة أو ستة رجال، ولكن كانت هناك كذلك طبول صغيرة تعلق على الجدران فى البيوت. وفى فنزويلا يلفت انتباهه عازفو مزامير فى أثناء حفلة مختلفة عن الأريتو.

وفيما يتعلق ببيوكاتان، يذكر كذلك نوعين من الطبول : أحدهما صغير يُقرع بيد واحدة، وآخر مصنوع من جذع مجوف يطلق صوتاً وقوراً وكئيباً، وهو يُقرع بعصا طويلة جداً، أحد طرفيها ملفوف بكرة من الراتينج. ويشار كذلك إلى وجود أبواق طويلة ونحيلة، من خشب مجوف، تنتهى بقرعة ملتوية؛ ودروع سلاحف تُقرع بالكف وتُصدر صوتاً كئيباً؛ وصفارات من عظم الغزال، وقواقع، ومزامير من قصب(١٤٧) تنهى، أخيراً، قائمة الأدوات الموسيقية.

أما الكتب فتظهر لأول مرة فى نيكاراجوا، ووصفها يمكن أن يُقارن بوصف المخطوطات المكسيكية: "وكان لديهم كتب من الرَقّ الذى يصنعونه من جلود الغزلان، وهو بعرض كف اليد أو أكبر، وطويلة جداً حتى تصل إلى عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة... وهى تُجمع وتطوى وتختصر إلى حجم اليد وكبرها... وفيها توجد رسوم حروفهم، أو أشكال بحبر أحمر أو أسود، بحيث يمكن، مع أنها ليست كتابة ولا قراءة، أن تعنى لهم شيئاً ويفهمون فيها بوضوح كل ما يشاؤونه..."(١٤٨).

ويهمل دييغو دى لاندا، بصورة مثيرة للفضول، وصف الكتب التى كانت مدونة فيها حسب قوله، بحروف حقيقية، التقارير التى يشير إليها القس بدقة بالغة تتيح حل رموزها فيما بعد، وواقع كونه أسقف يوكاتان جعله أحد أكبر مدمرى المخطوطات، مما يوضح دون شك تجاهله وإهماله ذاك، أما بيدرو مارتير بالمقابل، فيشرح بدقة الوجود المذهل لكتب فى يوكاتان، وهى مصنوعة من لحاء شجر رقيق مطلية بالكلس، ومكتوب عليها "بدهان لزج"؛ والأوراق متصلة فيما بينها بصمغ مقاوم ومرن، بحيث يمكن بسطها على شكل صفائح متطاولة مكتوب على وجهيها. "وهم يصنعون كذلك بفن كبير أغلفة من الخشب. فتبدو كتبهم وهى مغلقة مثل كتبنا، وهى تتضمن، كما يُعتقد، قوانينهم، ونظام قرابينهم وطقوسهم، وحساباتهم، ومدونات فلكية وطرق الزراعة وأزمنتها"(١٤٩).

(ط) الحرب

يبدو أنه لم يوجد فى أى مكان من منطقة الأنتيل جيوش منظمة. يؤكد ذلك لاس كاساس(١٥٠) ويعزز أفييدو التأكيد حين يقول إن الهنود حين لا يقومون بالحرب ينهمكون بالتجارة. فى يوكاتان كان هناك فى كل مدينة رجال يحملون السلاح، عند الضرورة؛ ويبدو أن قائدين فقط كانا يمثلان المنظمة العسكرية الدائمة: أحد هذين المنصبين كان وراثيًا؛ والآخر يعين صاحبه لمدة ثلاث سنوات، وخلال هذه الفترة، يتوجب على المحارب المختار للمنصب أن يكرس نفسه للعفة والصيام(١٥١).

وهناك عادة كانت شائعة فى فنزويلا تُظهر لنا أن الحرب كانت نشاطًا آنيًا عابرًا بالنسبة إلى الجماعة كلها : "... عندما يريدون القيام بالحرب، فإن من سيشنها، ويريد مساعدة من الجماعات الأخرى التى يرغب فى التحالف معها، يبعث هندياً موثوقاً ومعروفًا، ومعه سهم من قوسه بالذات إلى الزعماء والسادة الآخرين؛ ومن يأخذ منهم السهم ويرسل له سهماً آخر، يكون ذلك إشارة وعلامة مؤكدة على أنه سيساعده، أما إذا لم يأخذ السهم، فلن يساعده. وقد يرغب الهندى فى أن يكون محايداً بين من يريدون المشاركة فى الحرب ، أو يرد بالقول إنه قد تلقى أولاً سهمًا آخر من عدو سيد الرسول، وإنه قد تعهد بمساعدة الآخر، وبهذه الطريقة يُعرف من هم الذين سيكونون مع هذا الجانب أو مع الجانب الآخر"(١٥٢).

لقد كان استخدام القوس والسهم شائعًا فـي كل منطقة الكاريبي، وقد رأينا أنه جرى الدفاع عن كل السواحل، حتى بنما، بفضل السهام المسمومة: "... وبمعجزة فقط يمكن أن ينجو رجل يجرحونه، فالمصابون يموتون متألمين ألمًا فظيعًا وهم يعضون التراب"(١٥٣). وها هي ذى تركيبة المزيج الذى أنقذ من يملكونه من العبودية النهائية خلال أكثر من عشرين سنة : "... مانثانيتو... وعقارب، وأفاع، ونمل كبير الحجم وحيوانات أخرى سامة..." يصنعون منها كلها مزيجًا "مثل قار شديد السواد". وقد تمكن المؤرخ فيما بعد من تحديد طبيعة بعض العناصر الأخرى : "... نوع من العناكب وعصارة بعض الأعشاب والجذور التى يخلطونها، ونوع معين من الزنابير... ويضعون كذلك... نوعًا من الحويصلة أو الفقاعة البنفسجية التى تنساب فوق ماء البحر..."(١٥٤). ويضيف بيدرو مارتير أن هذا السم كانت تصنعه نساء مسنات، يعرفن السر، ويمتن بفعل الأبخرة خلال اليومين اللذين يتواصل فيهما طهو الخليط(١٥٥) ؛ أما الأقاليم التى كانت تجهل كيفية إعداد تلك السموم، مثل بنما ونيكاراغوا، فكانت تزود سهامها برؤوس من أحجار السيلكا أو بحسك الأسماك.

وكان الرمح والماكانا (macana) –وهى عصا مسطحة ذات حدين، تشبه السيف– هما السلاحان الأوسع استخدامًا بعد القوس والسهم، حتى الوصول إلى نيكاراجوا، وفى هذه البلاد كان حدا السيف مزودين بشفرتين من السيلكا "تقطعان مثل السكين"(١٥٦). أما المقلاع فلا يرد ذكره إلا فى ساحل فنزويلا وكولومبيا، بينما كانت القاذفات lanzadados، المعهودة فى كل المحيط الأنتيلى(١٥٧)، معروفة كذلك فى بنما (١٥٨) وفى كولومبيا. وهـذه الأداة التى وصفها الجندى ثيثا دى ليـون Cieza de Leon بالخبيثة(١٥٩)، وكانت شائعة فى المكسيك، تبدو غائبة فى نيكاراجوا، مما يمكن أن يشير، فى هذا المجال، إلى أن هذا البلد كان مغلقا على التأثيرات من الجنوب والشمال، ومن المعروف أيضاً أن دييغو دى لاند Diego de Landa لا يذكرها كذلك فى يوكاتان، حيث أثبت علم الآثار وجودها مع ذلك.

وإذا أضفنا إلى ذلك ضعف الأسلحة الدفاعية، فإن المرء يقتنع مع لاس كاساس بأن تلك الأسلحة تكاد تكون مكرسة "لشن الحرب على الأسماك"(١٦٠). والتروس

المصنوعة بصورة أساسية من لحاء الشجر والخيزران والجلود والشَّعر، لا توفر أى حماية فى مواجهة الحديد، وهى ليست أفضل من دروع الأقمشة القطنية التى كانت تُحشى أحياناً بحبيبات ملح خشنة، مثلما هو الحال فى يوكاتان(١٦١)، والتى لا تظهر إلا ابتداء من نيكاراجوا. ومع ذلك، فإن بيدرو مارتير يهتف : "يا للغرابة! فأولئك الناس العراة والعزل هزموا دومًا معشرنا اللابسين والمسلحين، ودمروهم دون أن يفلت واحد منهم فى بعض الأحيان وأصابوهم جميعهم بجراح"(١٦٢).

لقد كانت الحرب بطقوسها وأجهزتها هى أكثر الاحتفالات أهمية. ولكى يبرروا إعلانها كانوا يترنمون بأغنيات للشمس طوال دورة قمرية كاملة لكى يوضحوا لها دوافعهم. وعند عودتهم من الحملة كانوا يجددون غناءهم لكى يقدموا إلى الكوكب شكرهم على النصر،أو ليطلبوا منه الصفح (بالغناء والبكاء والاعتراف) عن تهورهم الجنونى (١٦٣).

وكان الموسيقيون يتقدمون الجيش على الدوام وهم ينفخون أبواقًا من القواقع الحلزونية ويقرعون الطبول ليعلنوا عن وجودهم فى ميدان المعركة. وكان الزعماء يتزينون بمجوهرات ذهبية ضخمة وقنزعات ريش فخمة، لأنهم يرغبون فى إظهار جمالهم وأناقة ملبسهم فى الحرب أكثر من أى موقع آخر، وكانوا يطلون أجسادهم كلها باللون الأحمر إشارة إلى الشجاعة.

وكان الزعماء فى كولومبيا يغطون أجسادهم بدروع من الذهب تُنسى المسيحيين تعبهم وإرهاقهم: فقد كانوا يستردون قواهم فى محاولة فك تلك الدروع. وكان هذا المظهر الاستعراضى يتعاظم بحضور السيدات اللواتى يرافقن أزواجهن متزينات بالمجوهرات الذهبية وقنازع الريش الضخمة، وكن يجلسن فى محفات يحملها عدة رجال، ويتحدث غومارا عن نساء كارتاخينا اللواتى يذهبن إلى الحرب بالمغزل والقُرناس(١٦٤) ويشير أفييدو إلى أن "... من عادة النساء اللواتى لا يردن الزواج أن يحملن قوسًا وسهامًا مثل الرجال الهنود، ويذهبن إلى الحرب معهم، ويحافظن على عفتهن، ويمكن لهن أن يَقتلن دون أسف أى هندى يطلب جسدهن أو عذريتهن"(١٦٥). وليس الرجال هم الذين يطلبون السلام على الإطلاق، حتى عندما يكونون ضمن السفارة، بل النساء هن اللواتى يتقدمن دواما بالمقترحات، ويناقشن ويستسلمن، حسب

الحال. وهذا ما حدث مع الإسبان. ومن بين الأسباب التى يقدمونها لذلك هو أنه "... من الأفضل أن يكذبن هن وليس الرجال..."(١٦٥).

وكانوا يحملون معهم إلى الحرب عظام أسلافهم الأبطال، لكى تكون مآثرهم حافزا لهم. ويروى أوفييدو واحدة من عاداتهم الثابتة: لم يكن أى أسير منهم يعترف مطلقا إلا بما أمروه أن يقوله، حتى ولو عُذب حتى الموت، أو جرت محاولة رشوته(١٦٦).

(ى) الطقوس الجنائزية

فى الجزر، كانت أجساد الموتى تدفن عموماً، وكانت أشباحهم تتمتع على العموم بواقعية خبيثة، مثلما هو الحال لدى معظم جماعات الوطنيين الحاليين. ويفسر لاس كاساس عادة هجر الموتى فى الجبال، بل والمحتضرين أحياناً، بسبب الخوف الشديد الذى توحى به بالأشباح: "... عندما يظهر لهم شبح حقيقى فى الليل، أو يتوهمونه فى خيالهم، يقولون إنه la hupia ، وهذا يعنى أن روح أحد تأتى إليهم"(١٦٧).

ويبدو أن مفهوم بقاء الجسد على قيد الحياة يمضى جنباً إلى جنب مع التضحية بأجمل نساء أكابر السادة، إذ كن يُدفنَّ وهن على قيد الحياة مع جثة الزوج(١٦٨). والتبرير الذى كان يُعطى لهذه الممارسة فى بنما يفترض شيئًا من الروحانية: فالضحايا، الذين من بينهم خدم وفلاحون، يقدمون قرابين للاستفادة من فرصة وجود روح سيقعون من دونها فى العدم ويختفون مثل الحيوانات. وفى هذه المعتقدات يُفسر مفهوم *الروح*، فهو *النواة* غير القابلة للتدمير، المخلوقة من قبل الرجل والمستقرة عموماً فى القلب، وبعض ذوى الامتيازات وحدهم يتوصلون إلى هذا الخلق؛ أما الآخرون فهم محكومون إما بالعدم، أو بالتحول إلى أشباح، هذا التمييز يشير إلى وجود طبقات اجتماعية واضحة تُطبق عليها أشكال شديدة الاختلاف من المعالجات والطقوس الجنائزية.

ويبدو أن أحد تلك الطقوس كان مشتركًا لدى الجميع : إنه فترة خمسة عشر يوماً أو عشرين يومًا مكرسة للأناشيد التى تذكر فيها أعمال ومآثر النبيل المتوفى، لكى يحفظها أبناؤه وأتباعه إلى الأبد فى ذاكرتهم. وفى جزيرة اسبانيولا، يتلقى السادة الذين يأتون لتكريم المتوفى ممتلكاته المنقولة كميراث.

وعندما تلحق النساء بأزواجهن عند الموت، يجرى دفن الزوج فى حفرة مغطاة بسقف، تشكل ضريحًا فى فناء البيت أو فى الحديقة. وفى هذه الحالة توضع الجثة جالسة فى وسط المدفن: ففى إسبانيولا توضع فوق دوهو duho ، بعد أن يكون الجثمان قد لُف بلفافة من القطن؛ وفى كاستيا ديل أورو (بنما)، يوضع على شرشف مطرز بعناية، ومزين بعدة أشياء ذهبية، وقبل أن تُدفن النساء - مزينات بأجمل ملابسهن - يرقصن بدورهن ويغنين لوقت طويل، مع الآخرين، ذاكرين مآثر الميت.

يقول لنا أوفييدو إن بضع عشرات من العبيد، فى بنما، كانوا ينتحرون عندما يموت سيدهم، بشرب سمّ يستخرجونه من قدر بملعقة من الصدف أو بقرعة مجوفة ؛ ثم يجرى دفنهم بعد ذلك جانبًا[١٦٨]. وبنما هى المكان الوحيد فى الأرض القارية التى كان يجرى فيها تقديم القرابين، مثلما فى الجزر، وكانت تمارس فيها أيضًا عادة تجفيف الجثث، وهى عادة شائعة على نطاق واسع فى فنزويلا، مع فارق أن الجسد لم يكن يحوّل إلى مسحوق : فبعد أن يتم تجفيفه ببطء على النار يوضع إما فى المدفن العائلى أو فى أرجوحة نوم. وعندما تتحلل أرجوحة النوم بعد سنوات طويلة، يدعو ابن المتوفى أقرباءه وأصدقاءه ليشربوا عظام أبيه النبيل. والصفحات الوصفية المسهبة التى يخصصها أوفييدو لهذه المتع "التى يعتبرونها أبرز شرف وتوقير"، ترد موجزة باقتضاب لدى غومارا : "يبكون ليلاً السيد الميت؛ ويتمثل البكاء عليه فى غناء مآثره ؛ ثم يحمصونه، ويطحنونه، ويلقونه فى نبيذ، ويشربونه..."[١٦٩].

وعندما لا يكون المتوفى ممن ينتمون إلى تلك الطبقة الاجتماعية، فإنه يُدفن فى قبر و "بعد بعض الوقت" تجرى له بعض الطقوس المأتمية، ليس من السهل فهم المنطق الذى يتخذه انتشار الطقوس، فإذا كانت الأطراف، من وجهة نظر الموقع الجغرافى، تستجيب لاختلاف المعتقدات - فمن جهة، هناك الجزر بأشباحها وعبادتها للجسد؛ وهناك من جهة أخرى، نيكاراجوا، حيث يجرى ترميد جثث السادة، وحيث يُكتفى بتحطيم منحوتات للميت مصنوعة من الصلصال المشوى على الأضرحة "لتكون لنا ذكرى هناك إلى ما بعد عشرين أو ثلاثين يومًا ؛ وبعد ذلك يضيع كل ذلك"[١٧٠] -، فإن بنما فى المقابل تقطع ما يمكن أن يشكل ظاهرياً خط تطور. وفى يوكاتان، كان

يجرى ترميد جثث السادة؛ بينما يدفن بقية أفراد الجماعة فى بيوتهم التى تهجر فور ذلك(١٧١). وفى كولومبيا، كان الجسد يوضع فى تابوت مع قرابين غالباً ما تكون باذخة؛ وبعد ذلك يُدفن كل شيء فى البيت أو فى قبر خارجه(١٧٢). وكان يُلقى بتابوت الملك المصنوع من الذهب إلى مياه بحيرة. وكانت هناك أيضاً عادة الاحتفاظ بأجساد الزعماء فى معابد خاصة، حيث توضع على أراجيح نوم أو على أسرة. وبعد تحلل الجسد، يطلى رفاته باللون الأحمر ويحفظ، مع كثير من الذهب، فى قدر تدفن على الفور. وفى بعض الحالات المعينة، تُفرغ البطون من الأحشاء وتُملأ بالذهب والأحجار الكريمة، ويلف الجسد بعدة أكفان من أقمشة بديعة. ويؤكد فيرناندث دى أوفييدو: "... لديهم ما لا حصر له من الموتى فى تلك المعابد المخصصة لذلك؛ وبهمة جنودنا وبأيديهم، جرى فيما بعد تنظيف تلك المَعِدات والبطون المملوءة، حيث كانت توجد كميات كبيرة من الذهب والزمرد..."(١٧٣).

٦ - نتائج

هكذا إذن تكشف هذه الحلقة النحيلة من أراضى الأنتيل، عن التجانس الاستثنائى للثقافة الأمريكية من جهة، وتكشف من جهة أخرى، أن الاختلافات التى تُلمح هى تلك المتعلقة بالمكسيك أحياناً وبالبيرو فى أحيان أخرى، وهى تربط فى بعض الأحيان بعض الملامح التى يستقطبها هذان الطرفان.

وبالفعل، إذا ما استبعدنا العناصر التى يحددها الوسط الطبيعى، نجد أن البرزخ والجزر تتبع أنماطًا تنتشر فى القارة كلها وتستند إلى أسس أخلاقية وطقوسية مشتركة؛ ومع ذلك، فإنها تقدم اختلافات وتطابقات بفعل النفوذ الثقافى المزدوج الذى يمارس على نقطة الالتقاء تلك. ولا يمكننا لسوء الحظ أن نفعل أى شىء هنا سوى إلقاء نظرة على أكثر النقاط جلاء فى هذا التفسير.

(أ) اختلافات :

الأمومة وزنا المحارم :

الاختلاف الأكثر جلاء بين الشمال والجنوب [أى بين المكسيك والبيرو] هو الخلاف فى نظم القرابة: فبينما وضع المرأة فى يوكاتان لا يحرمها من إمكانية الحكم وحسب، وإنما يقر كذلك عدم أهليتها القانونية لتربية أبنائها بعد موت الزوج، وتسود البطريركية فى امبراطورية الأزتيك، نجد أن النصف الجنوبى من القاره يحتفظ بالبنية الأمومية، مثلما هى الحال فى منطقة الأنتيل، والمعلومات المتعلقة بهذه المسألة قليلة ومبعثرة، ولكن تشابهها يجعلها أكثر صحة، ذلك أنها لم تستطع فرض نفسها إلا بقوة وضوحها، على بعض كتبة الوقائع الذين كانوا يجهلون معناها الحقيقى.

وأفضل معلومات فى هذا الشأن هى التى يقدمها إلينا الجندى بيدرو ثييثا دى ليون، الذى يُكثر من الاستشهاد به الانكا غارثيلاسو دى لا بيغا نفسه. فثييثا الذى وصل إلى بنما قادمًا من إسبانيا، واصل طريقه على مراحل متقطعة وقصيرة إلى كوسكو، حيث شارك فى الحروب الأهلية التى انتهت إلى القضاء على سلطة الأخوين بيثارو. ومن خلال كتابات هذا (المؤرخ) نرى أن النظام الأمومى كان ما يزال شائعًا فى السواحل الباسفيكية، ذلك أنه يلاحظ مرتين فى جزر اللؤلؤ، قبالة بنما، أن ورثة الرجل المتوفى هم زوجته فى المقام الأول، ويليها ابن شقيقه(١٧٣). وفى الإكوادور "ابن الأخت هو الوارث"، وأبناء الأخوة الذين يتكلم عنهم غومارا مشيراً إلى البيرو لا يمكن أن يكونوا، كما سنرى لاحقًا، إلا أبناء الأخوات(١٧٤).

وابتداء من كولومبيا يتخذ رُجحان الوراثة الأمومية فجأة مظهراً غير متوقع؛ فهناك إشارة متعلقة بوادى كالى Cali تتكرر بكثرة : "... إنهم يتزوجون من بنات *اخوتهم ومن أخواتهم...*"(١٧٥). وفى جزيرة بونا (الاكوادور) "...ينامون مع أخواتهم..." وفى منطقة كوسكو "...يتزوجون من بنات اخوتهم أو من أخواتهم" ويؤكد غومارا بأنهم يتزوجون بالفعل "من أخواتهم؛ ولكن هؤلاء هم الجنود..."(١٧٦).

إذا ما جرى التفكير فى التحريم الذى كان يُثقل على علاقات الزنا بالمحارم بين الكاريبيين – وهو تحريم كان المجتمع المكسيكى يحترمه بصرامة –، يقتنع أحدنا بأن

إلغاء ذلك القانون الأكثر تماسكًا فـي سلوك الوطنيين كان يستجيب دون ريب لضرورة حيوية. وقد يكون أمراً ذا مغزى أن زنا المحارم، الذى أقره الإنكا الأول، كان يُعتبر بصورة واضحة جوهر الحكمة العليا للإنكا مانكو كاباك الأسطورى[١٧٧]. بحيث إن عاهلاً آخر، بعد عدة قرون، سيدعو بلداً إلى الاندماج بالامبراطورية دون أى شرط آخر سوى"... أن يتزوج أبناؤه من بناته..." ويؤكد غارثيلاسو أنهم "يتزوجون فيما بينهم حتى لا تختلط سلالتهم"[١٧٨].

وبما أنه كان على الملك الإنكا أن يختار وريثه من بين أبناء أخته، مهما كان عدد زوجاته وبدون الأخذ فى الاعتبار أحقية الابن البكر، فإنه يمكن لزنا المحارم أن يكون الشكل الإمبراطورى للبنية الأمومية. ولدى الخيار ما بين قانونين، لا تقل قدسية أحدهما عن الآخر، ألغى الإنكيون واحدا منهما، مثلما فعل المكسيكيون عندما نبذوا زنا المحارم وأقروا النظام البطريركى (الأبوى)، وكأنه من المستحيل الموافقة بين الأمرين من أجل ترسيخ بنية اجتماعية واسعة ، وهناك بند ملازم لأنظمة الزيجات القائمة على زنا المحارم يُثبت سيطرة الإرث الأمومى ويبدو أنه يدعم هذه الفرضية. ويؤكد ثييثا دى ليون، على الرغم من أنه لا يمكن للملك المستقبلى أن يتزوج إلا من الابنة الشرعية لأبويه بالذات، إلا أنه كانت هناك بعض الاستقلالية للزوجين، فقد كان يُشترط، فى حال وجود ابن للأخت من رجل آخر، أن يكون هذا الابن هو وريث العرش وليس الأبناء الذين يمكن أن يكون العاهل قد أنجبهم من علاقات أخرى[١٧٩].

العذرية ونظام القرابة :

لقد رأينا أن القيمة الاجتماعية للعذرية كانت ملغاة فى مناطق السيادة الأنثوية. ولكن الوضع فى المكسيك من جهة أخرى، حيث كان المجتمع بطريركيا بصورة بارزة، يبين إن الشابة المثالية يمكن أن تبدو وكأنها خارجة من دير أوربى، مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه القيمة ترتبط بنظام القرابة. وتتيح لنا فضلاً عن ذلك التفكير بأنه فى النصف الجنوبى، حيث النسل الأمومى كان سائداً بإلحاح، لم تكن العذرية مرغوبة أكثر مما هى عليه فى جزر الأنتيل. وعلى الرغم من وجود الزيجات الحرة فى المكسيك ووجود الطلاق[١٨٠]، إلا أن الخفر والعفة كانا على رأس قائمة مواصفات العروس

الكاملة؛ حتى أن تأكيد بيدرو مارتير بأنه لم يكن هناك فى إحدى المناطق من يعرف الحب الجسدى قبل الزواج(١٨١) لا يمكن أن يعنى سوى تلك البلاد.

أما ما يرويه ثييثا دى ليون بالمقابل حول هذا الأمر، من جزر اللؤلؤ حتى كوسكو، فيشكل بالضبط الوجه الآخر للميدالية. ففى الجزر يتزوجن بعد أن يكن قد فقدن العذرية(١٨٢) وقلة هم الأزواج الذين يجدون زوجاتهم عذراوات، وفى مقاطعة كوسكو "نادراً ما تكون المرأة عذراء"، وما يحدث فى منطقة هوانكابيلكا هو أعمق مغزى، فهم: "... يفتضون من ستتزوج لمنحها مزيداً من الشرف"، وفى الإكوادور تكون الأم نفسها، لنقص فى الخبراء، هى من تهيئ الشابة لليلة زفافها بفض بكارتها بيدها بالذات.

مصير الجسد :

ونفاجأ حين نلاحظ أنه فى وسط الجماعة نفسها التى تتمتع المرأة فيها بأكبر قدر من الحقوق تحديداً، يجرى دفنها حية مع جثة زوجها: والعادة الكاريبية بملء القبور بزوجات جميلات تمتد حتى البيرو.

كانت الجثة تعامل بما يتوافق مع الاعتقاد بانبعاث الجسد: فتلف بعدة أقمشة مطرزة بفخامة ويوضع الميت جالساً على دوهو duho مثلما فى جزيرة إسبانيولا، ليدفن مع أملاكه ومع كل ما يمكن أن يكون نافعاً له، ابتداء من الأشياء البيتية وحتى الأطعمة والمشروبات. ومن خلال قصبة بامبو موضوعة بالقرب من الميت ويمتد طرفها الآخر إلى الخارج، يتمكنون من تزويده بالخمر المصنوعة من الذرة. وكان الاعتقاد بانبعاث الجسد هو الذى دفع الوطنيين للتوسل إلى الاسبان بعدم تحريك العظام من مكانها عند سلبهم المدافن(١٨٣).

وفى المكسيك، حيث لم يكن للجسد بذاته أى اعتبار، إلا كأداة للتحرر، كان يُرمّد عموماً، وكانوا يعتقدون بأنه لا يمكن إلا لكلب صغير أن يساعده فى الوصول إلى المكان "حيث ينتهى الموت". وقد رأينا أنهم فى نيكاراجوا أيضاً يرمدون الموتى، وهو ما يكشف لنا أن هذا الاقليم كان مكان التقاء الطقوس الدينية والعادات التى تتعايش

بكل زخمها؛ بينما تكون فى أماكن أخرى متناقضة؛ وهكذا فإنها [نيكاراجوا] تتبنى الديانة المكسيكية فى الوقت نفسه الذى تحمى فيه الأنظمة الأساسية للمجتمع الانتيلى : تحريم زنا المحارم وسيادة النظام الأمومى.

التجارة :

لا يعرف إلا القليل عن الأسواق الإنكية، ولكن كل شىء يحمل على الاعتقاد بأن ذهاب الرجال إليها لم يكن محظوراً مثلما هو الحال فى نيكاراجوا. وما كان لثييثا دى ليون أن يغفل ملاحظة هذا الملمح المثير للفضول عندما يأتى على ذكر ثراء أسواق كوسكو وبوتوسى. كما أن ميغيل دى استيتى **Miguel de Estete** لا يذكر ذلك فى وصفه القصير لسوق خاوخا(١٨٤)، وبما أننا لا نعرف من جهة أخرى شيئًا عن أسواق الأنتيل، فإن ظاهرة نيكاراجوا تبقى معزولة.

ومع ذلك، فإن هناك بقايا حساسة ربما تكون قادرة على جلاء الأمر، منها على سبيل المثال الحظر الرسمى أو الضمنى لدخول الرجال إلى السوق الذى ما يزال قائماً إلى الآن فى برزخ تيهوانتيبك **Tehuantepec** ، فالفنان المكسيكى ميغيل كوباروبياس يشدد بكثرة على هذا التفرد فى مدينة تيهوانتيبك : "... سيكون استثنائيًا وجود رجل من أهالى المكان فى السوق، اللهم إلا لشراء علبة سجائر أو لتناول فنجان من الشوكولاتة... ومن الجلى أن النساء وحدهن يتولين البيع فى الأسواق؛ والرجال القليلون والنادرون الذين يمكن رؤيتهم هناك هم من القادمين من الخارج ..."وإذا ما تجرأ تيهوانى على إقامة موقع له فى السوق، فإن ألسنة النساء الخبيثة تلقيه خارجاً على الفور، ذلك أن "... التهوانيات لا يمسكن ألسنتهن، وستكون تجربة قاسية لرجل خجول أن يغامر بالدخول إلى السوق، حيث سيجد نفسه محاطا بسخرية النساء أو استيائهن"(١٨٥).

وعلى بُعد حوالى عشرين كيلومتراً إلى الأسفل، فى قرية رمال وبحيرات تدعى سان ماتيو دل مار، لا يدخل الرجال مطلقاً إلى السوق، وينتظرون بصبر خارج السور المحيط به إلى أن تحمل لهم امرأة ما يحتاجونه.

هذه الحالات المتبقية إلى الآن، إضافة إلى نظام القرابة، تكشف عن أنه مازال يسود في شواطئ المحيط الهادى النمط الثقافي للجزر والأراضي الكاريبية، وتبدو هذه الفرضية معززة بفرضيات أخرى تميز البرزخ المكسيكي الذي يستجيب كما يبدو للنمط نفسه: فسيطرة المرأة على السوق تمتد إلى مختلف المجالات الأخرى. ويلاحظ كوباروبياس، بسخرية، الحرية التي تتمتع بها النساء في تيهوانتيبك، والرد الذي واجهته به امرأة شابة، عندما حدثها عن الخطر الذي قد تتعرض له ليلاً في طريق منعزل، هو ردّ جدير بعذراوات الكاريبي اللواتي أُعجب بهن اوفييدو: "هناك أحجار كثيرة على الطريق لأحمي نفسي ممن يتجرأ." إن صراحة النساء الثابوتيكيات، وطلاقة ألسنتهن واستقلالهن الاقتصادي والاجتماعي يحولهن إلى أنداد للرجال، ويوفر لهن ضمانة فريدة في المكسيك: "... فشرعية الزواج لا تعني شيئًا ... والأبناء الطبيعيون يُسجلون رسميا باسم أمهاتهم"(١٨٦). وربما كانت سمعة النساء التيهوانيات بأنهن الأجمل في المكسيك نابعة من وضعهن الاجتماعي. "جاذبية تيهوانتيبك الأولى هي في نسائها. فملابسهن، وجمالهن، وتأنقهن أسطوري بين المكسيكيين..." وإذا تذكرنا أن أجمل نساء بلاد الهند في نظر أوفييدوهن نساء نيكاراجوا، فإننا نقول إنه لا بد أن مهابتهن كمترفعات، مثلما هو حال التيهوانيات، هي التي تجعلهن يتفوقن على الأخريات.

في هذه المجتمعات الأمومية اللامعة، لا يخجل الرجل من القيام بمهمات تُعتبر في أنحاء أخرى مهينة للجنس القوي. ويروي ثيثا دي ليون أنه في الإكوادور وفي محيط كوسكو "... النساء هن اللواتي يفلحن الحقول ويستفدن من الأراضي والمحاصيل، بينما الرجال يغزلون وينسجون ويتولون صنع الملابس"(١٨٧). هذا التقليد الذي اختفى في المدن، مازال قائما حتى يومنا في المناطق الريفية، فرجل الأسرة التي لا أنساها، والتي استضافتني في سان ماتيو دل مار، يغسل أرجوحة النوم التي خُصصت لي، ويعنى بالنار في المنزل ويخيط بسعادة قميصاً نسائيا دون أكمام على الماكينة(١٨٨).

بما أن المتبقي من المجمل الثقافي المتركز في هذا الشأن الأنثوي لا يُلاحظ إلا في البلدان المشاطئة للمحيط الهادى، فإنه يمكن التفكير بأن موطنها الأصلي هو منطقة البيرو الحالية، ويمكن لنا الآن تفسير قوة نظام القرابة الذي كان على الإنكا

أن يتبنوه لكي يقيموا سلطتهم من خلال سيطرة هذا النظام فى الثقافات العليا التى سبقتهم.

من الصعب معرفة المزيد حول هذه القضية، اللهم إلا من خلال علم الآثار، وفى هذا الشأن يمكن الإشارة بصورة عابرة إلى أنه على الرغم من التأثير الممارس على الهضبة المكسيكية، فإن الثابوتيكيين، أسلاف التيهوانيين الحاليين، كانوا يدفنون موتاهم فى قبور، مثل أولئك الذين يؤمنون بانبعاث الجسد، فإذا تقبلنا هذا التشابه فى المعتقد، فإن الهياكل العظمية العديدة التى نجدها دومًا مجتمعة فى مدافن مونتى ألبان يمكن لها أن تكون للنساء والخدم الذين يرافقون المتوفى[١٨٩].

(ب) تجانس :

على الرغم من الاختلافات، توجد هناك فى كل أنحاء القارة قاعدة ثقافية مشتركة شديدة الاتساع تدفع إلى التفكير بوجود منشأ وحيد؛ فأيًا كانت درجة التحضر، هناك قدر كبير من الملامح مشتركة بين جزء كبير من السكان الأصليين. فهناك على سبيل المثال، من وجهة النظر الجسدية، تشويه الجمجمة الذى يبدو أن الأراوكانيين هم الوحيدون الذين لم يمارسوه؛ والرسم على الوجه والجسد (أما الوشم فكان سائدًا فى الانتيل، ولا يرد ذكره فى أى مكان آخر) ؛ ونزع الشعر؛ وترصيع الأذنين وأنحاء مختلفة من الوجه؛ واستخدام قنازع الريش وعادة الاستحمام اليومى، وتمتد هذه العادة الأخيرة حتى المناطق الباردة فى الشمال والجنوب، وقد بدت مستهجنة للإسبان الذين سرعان ما اعتبروها أحد الأسباب الرئيسية للوفيات بين المهزومين.

ومن جهة أخرى، كانت المشروبات المخمرة، وتربية النحل، والكلاب الداجنة التى تؤكل، مرتبطة بالحياة اليومية مثلما هى المخدرات واستخدام البخور فى الطقوس الدينية. وكان هناك فى كل الأنحاء كذلك التواصل الشفوى من خلال الأغانى ؛ وأسطورة عن حقبة تنتهى بالطوفان ؛ والإيمان بالفعالية الروحية للصوم، والعفة، والعزلة ؛ ورمزية الشمس والقلب، للدلالة على القوى الخارقة؛ وإحساس حاد بالتضامن ليس مع أفراد الجماعة وحسب، وإنما كذلك مع كل البشر بصورة عامة ومع الخليقة بأسرها.

وهنا نورد كيف يصف مورلى Morley المايا المعاصرين بعد أن أقام بينهم بضع عشرات من السنين: "إنهم أناس مرحون، ساخرون، ومحبون للهو، وطبعهم الحالم والودود يثير إعجاب كل الغرباء الذين يتصلون بهم. وروح المنافسة... ليست نامية بقوة بينهم... وهم يكنون احتراماً كبيراً للقانون ولديهم إحساس حى بالعدالة"(١٩٠).

هذه الصفات مضافًا إليها روح منفتحة تدفعهم إلى التقرب من الغرباء، بهدف التعرف عليهم وفهمهم، تحولت إلى نقطة الضعف الكبرى لدى الوطنيين فى مواجهة أوربيين منغلقين فى أطرهم، غير قادرين على تعديل الأحكام المسبقة القائمة على اليقين بتفوقهم العرقى الذى كان حسهم السليم يمنعهم من إخضاعه للاختبار مطلقًا، ومثلما يقول جون كولير John Collier ، فقد أُخضع الوطنيون للغزو لأنهم لم يستطيعوا تصور نمط البشر الذى ينتمى إليه الغزاة(١٩١). والمعلومات القادرة على إثبات هذا التأكيد تتيح تقديم صورة سيكولوجية كاشفة بصورة عالية لنمط الإنسان الهندى الأمريكى؛ وأشد تلك الملامح تأثيراً دون شك، هو تقبلهم للاختلاف العرقى والثقافى الذى دفعهم، دون تمييز، إلى تقصى طبيعة القادمين الجدد قبل أن يبدؤوا العمل ضدهم. وبما أننا لا نستطيع التوسع حول هذه النقطة، فإننا نتذكر فقط، أنه على الرغم من الأربعمئة سنة تقريباً، من النظام الاستعمارى حيث "كانت السرقة جزءاً من الحياة اليومية"(١٩٢) والكذب هو السلاح الرسمى الأول (يتكلم سيرخيو باجو Sergio Bagu عن قوانين تصدر، والهدف الوحيد منها هو ضمها إلى النصوص التشريعية ثم يُطلب من الموظفين الاستعماريين عدم تطبيقها)، يبقى الوطنيون، عندما يكونون معزولين، مشابهين لأنفسهم بصورة استثنائية: نزيهين، وقورين، مضيافين. ويؤكد مورلى أنه على الرغم من عدم وجود الأقفال، فإن السرقة غير معروفة بين هنود يوكاتان(١٩٣) وما يقوله هذا الأنثربولوجى حول رفضهم قبول أى شىء ما لم يقدموا بدورهم هدية بالمقابل (عندما عرفوا مثلاً أن الخدمات الطبية تُقدم مجاناً صاروا جميعهم يحملون معهم هدية ما)، يبدو أنه أمر من الكتابات القديمة. ويبين كريستوف كولومبس كذلك أن شعوب السواحل كانت تعيد بانتظام الأشياء التى تُقدم لها، بتركها على الشاطئ، لأن الإسبان لم يكونوا يتقبلون شيئًا مقابلها. هذا الوقار يوضح دون شك رد أحد مخبرى بوباديلا عندما سأله هذا الأخير : "وحبًا بمن يطلبون الصدقات" جاء الرد : ".. إنهم لا يطلبون شيئًا حبًا بالرب، ولا يقولون إلا أعطنى هذا، فأنا بحاجة إليه"(١٩٤).

الضيافة مازالت حتى أيامنا هذه الواجب المقدس الذى كانت عليه فى أزمنة الغزو. فحسب قول ثيثا، كان سكان البيرو يؤوون المسيحيين الذين يمضون على الدروب عبر مقاطعاتهم، ويقدمون لهم الطعام بوفرة "... دون أن يغضبوا أو يستاؤوا، حتى ولو كان العابر شخصًا وحيدًا"(١٩٥). ويؤكد دييغو دى لاندا Diego de landa من جهته أن أهالى يوكاتان يقدمون دومًا شيئًا من الطعام للزائر أو الرحالة العابر "... بالرغم من أن ما يبقى لديهم، بسبب ذلك، أقل بكثير"(١٩٦).

الأراضى المشتركة والتعاون المتبادل هى الملامح السائدة فى المجتمعات ما قبل الكولومبية. وما يقوله لاندا عن يوكاتان ينطبق على القارة كلها : "ويملك الهنود العادة الحميدة بمساعدة بعضهم بعضًا فى كل أعمالهم"(١٩٦). وما زال ميجيل كوباروبياس يفاجأ فى أيامنا هذه من روح القرابة التى توحد سكان القرى الثابوتيكية فيما بينهم؛ ومن التضامن المتبادل الذى يسود فيما بين أفراد أحد الشعوب بالرغم من الاختلاط الكبير الذى طرأ على دمائهم، ومن أنهم يعيشون فى مجتمعات عمرانية كبيرة. وهذا التضامن عام بصورة تسمح للأنثربولوجيين بالتساؤل عما إذا كان لا يمكن للبنى الاجتماعية الحالية للسكان الأصليين أن تكون أساسًا لتعاون معاصر، ويثبت الاثنولوجى المكسيكى خوليو دى لا فوينتى Julio de la Fuente بالفعل، بأن دراسة أكثر عمقًا للمعطيات المتوفرة تتيح فهماً أفضل لهذا المظهر الأساسى فى العقلية القديمة.

أحد مظاهر التكافل الاجتماعى، والتخلى عما هو شخصى اللذين يميزان الوطنى نراه فى الجمهورية التى تمكن الآباء الجيزويت من الإبقاء عليها طوال مئة وخمسين سنة فى الباراجواى، فى وسط كان يجرى اصطياد الوطنى فيه بشراسة تفوق شراسة اصطياد الحيوانات المتوحشة. ومهما تكن موهبة الآباء الجيزويت التنظيمية، فإنه لا يمكن التوصل إلى تفسير سليم آخر لواقع أن تلك "الجمهورية الوحيدة فى العالم"، وذلك المجتمع الذى أُعلن أنه "الصورة الكاملة للكنيسة البدائية" لم يكن تحقيقه ممكناً إلا بين هنود الغوارانى الذين اضطرهم البقاء على قيد الحياة إلى الوقوع فى حالة من البداوة؛ أولئك الناس الذين كان البرتغاليون والإسبان يسرقونهم من مزارع البعثات التبشيرية نفسها وكأنهم مواشٍ، والذين ما يزال مؤرخو تلك المغامرة الاستثنائية يعتبرونهم مع ذلك "أكثر الهمجيين نفوراً وتوحداً".

فبفضل ديمقراطية من النمط نفسه الذى كان موجوداً فى نيكاراجوا (مجالس بلدية مؤلفة من "عمد" ومستشارين ومساعدين آخرين مختارين من الشعب)، برز هنود الغواراني الخبيرين بكل الفنون، بما فيها فن الكلمة؛ والمتمتعين بمهارات يدوية أذهلت حماتهم (هناك هندية قلدت دون أى مساعدة تطريزاً أوربيًا راقيًا)، والذين كانوا "ما يزالون حتى الأمس مقاتلين متوحشين وكستولين، استطاعوا أن يشيدوا الدولة المصنعة الوحيدة فى أميركا الجنوبية، وهو العمل الذى اعتبره مونتيسكيو عظيماً، وقدره فولتير على أنه "انتصار للبشرية"[١٩٧]، وحتى دون الاستناد إلى معارف علم الأجناس المعاصرة، يبدو واضحاً أن تلك المنجزات التى ينسبها كولفيس لوجون Colvis Lugón إلى التربية الكاثوليكية هى، على العكس من ذلك، وطنية فى الأساس. وحتى مع سوء فهم المنظور الوطنى، فإن المؤلف يقدم لنا مع ذلك المعطيات التى تُذكِّر بالعقود الأولى لـ بيدرو مارتير : "حتى أن فكرة امتلاك الأراضى كانت تبدو غريبة على عقليتهم. وقد كان الضمان والاحتياط الجماعى متكاملين، إلى حد أن هناك أُسر عُرض عليها الاحتفاظ بمساحات من أغنى الأراضى، ولكنها ارتضت بتهذب، بقطعة صغيرة جداً .."[١٩٧].

تلك التجربة الغوارانية من النمط "الشيوعى"، التى تحققت بفضل حماية الآباء الجيزويت، تبين ما الذى كان يمكن لأميركا أن تكون عليه فى أيدى مستوطنين يستثمرونها بذكاء ويعرفون كيفية الاستفادة من الميول الطبيعية للسكان الأصليين، فالانكباب على عمل لدى بضع آلاف من المستفيدين من تلك الهدنة الإعجازية يفوق كل تصور، والشهادات حول تلك اللحظة المدلاة خارج التاريخ ثمينة من أجل فهم الرؤية التى كانت لدى الوطنى عن العالم.

ذلك أن تلك الرؤية تشكل فى نهاية المطاف الفرق الجوهرى الوحيد ما بين الثقافة الغربية وثقافة الشعوب الأمريكية القديمة. والأدلة على ذلك كثيرة. فعدم تكيّف الوطنى مع أشكال حضارة تُفرض عليه، والتصاقه الغامض بقيم لم يعد معمولاً بها، وحاجته الكاملة إلى التواصل والاحترام الكونيين، ونفوره من الاحتكار الذى يعزله عن مجتمعنا المركنتيلى، تجعله يبدو مثل حشرة أحفورية عالقة فى مادة فاخرة متحجرة.

إن طبيعة المحاولات الأزتيكية والإنكية لحل مشاكل الانتاج والتوزيع فى بلدان عالية الكثافة السكانية، وتفتقر إلى الآلية، يشكل دليلاً آخر، إذ على الرغم من تجاوزات وانحرافات البداية - والتى سيمتصها الزمن -، فإن تلك المؤسسات السياسية الفسيحة (كل واحدة منها تحققت على مساحة أكبر من أوربا بكاملها) لم تكن ممكنة إلا بفضل استنادها إلى مؤسسة كانت بداياتها ما تزال فى طور التكوين فى أوربا للوصول إلى حل للمجتمعات الأوربية التى وجدت نفسها فى طريق مسدود.

إن سيرخيو باجو Sergio Bagú هو، على حد علمنا، السوسيولوجى الوحيد الذى تحرر من الصيغ الميكانيكية، ليضع النجاحات ما قبل الكولومبية فى سياقها واطارها البشرى الحقيقي. فالعلاقة الاجتماعية الثابتة فى أحشاء تلك الامبراطوريات، فى رأى هذا المتخصص، كانت مدرسة فى العمل، فى حب الأرض، فى الجهد والكرامة الشخصيين، وفى القناعة والبساطة العفوية. وحيث إن الرغبة فى الملكية الخاصة "لم تسمم مطلقاً الجماعة الاجتماعية"، فلم يكن هناك مبرر لوجود الغش، ولم تكن العبودية، وهى عامل الفساد الاجتماعى فى كل الأزمنة، مؤسسة اقتصادية قط(١٩٨)، وبعد أن يتفحص بإيجاز الطبقة الحاكمة التى لم تكن بحاجة إلى الظلم من أجل فرض سلطتها، يؤكد باجو أن "الاستغلال الشامل للطاقة والموهبة البشرية هو الذى يسمح بوجود مثل تلك الثقافة. ولكن ذلك الاستغلال لم يكن يحدث بقوة السوط، وإنما لأن الجميع - من يضعون الخطة ويوجهونها، وكذلك من ينفذونها ؛ من يأمرون ومن يطيعون - كانوا مترابطين بنوع من التكامل والوحدة يوافق بصرامة ما هو طبيعى مع ما هو جمالى، وما هو اقتصادى مع ما هو سياسى ودينى"(١٩٨).

فلنرجع إلى المصادر

١ - المؤرخون :

آخذين فى الاعتبار تجانس القارة ، وواقع أن الاختلافات تنشأ فى المكسيك وفى البيرو على السواء ، فإن دراستنا ستقتصر من الآن فصاعداً على هاتين المنطقتين، وهما من جهة أخرى الوحيدتان اللتان تتوفر لدينا معلومات كافية عنهما تمكننا من التوصل إلى فهم شامل.

فى زمن الفتح الإسبانى، كانت حضارة الناهوا nahua فى الهضبة المكسيكية تمتد حتى نيكاراجوا ؛ بينما كان التكلم بلغة الكيشوا يشمل مناطق تمتد من الاكوادور حتى الأرجنتين وتشيلى، ومع أن هاتين الإمبراطوريتين كانتا تستندان إلى أسس سيكولوجية واجتماعية متشابهة، فإنهما تقدمان اختلافًا أساسيًا : ففى حين كانت إمبراطورية الإنكا تشكل المحاولة الأولى للتوحيد، وانتهى بها الأمر إلى فرض لغة الكيتشوا على قاطنيها، فإن امبراطورية الأزتيك بالمقابل، جاءت على أثر وحدة قائمة مسبقا، وبسطت سلطتها على شعوب كانت تتكلم اللغة نفسها منذ زمن بعيد.

والنتيجة الجوهرية لهذا الاختلاف جعلت التقاليد التاريخية الخاصة بكل منهما لا تصل إلى الدرجة نفسها من القوة : ففى حين وفرت البنية المكسيكية المتينة سيلاً جارفًا من الوثائق المتعلقة بماضيها، وأيقظت حماسًا حقيقيًا بين الدارسين خلال القرن الأول من الاحتلال، إلا أن ما هو عظيم بقى مغلقًا على ذاته حتى مجىء الاركيولوجيا، وقد رأينا أن مقولة الفراغ التاريخى كانت شرطًا لا بد منه للإقرار والموافقة على أيديولوجية لا يمكنها تثبيت جذورها إلا بتجريد الثقافة البائدة من عمقها فى الزمان، وذلك بتحويلها إلى شاشة محايدة وملساء، مكرسة لعكس ما يُعرض عليها فقط،

وليس هناك من طريقة أخرى لتفسير اقتياد "الحكماء" الوطنيين المسالمين إلى الموت، وكذلك تدمير المخطوطات والملاحقة التى تعرّض لها من يخبئونها؛ ولن يكون مفهومًا الحظر الذى استمر حتى انتهاء النظام الاستعمارى، والذى أثر فى جميع الدراسات المكرسة لإعادة تركيب البنية المدمرة، حتى ولو كانت إعادة التركيب تلك جزئية.

إن الفوائد التى وفرتها القرابين البشرية بحد ذاتها لقضية الغزو، تفسر كيف كان يتوجب محق أدنى محاولة قادرة على التقليل من مسؤوليتها الأخلاقية. ومن الواضح أن تقدير تلك الجرائم يتفاوت وفق النظر إليها باعتبارها متأصلة فى عقلية شعب ما، أو بكونها حلاً مؤقتًا لمشكلة اقتصادية خطيرة تثقل كاهل ذلك الشعب. فبينما هى تجرد فى الحالة الأولى الفكر الذى يتبناها من أى قيمة روحية، تتحول [القرابين البشرية] فى الحالة الثانية إلى محاولة مستبدة وغير إنسانية لحل أزمة، وهى محاولة من ذلك النوع الذى تلجأ إليه الحضارة الغربية اليوم بصورة متزايدة أكثر فأكثر.

مما له مغزى أن تكون البيرو قد قدمت، وهى جاهزة لذلك منذ البدء، هذا الفصل التاريخى الذى لا مناص منه. فعلى الرغم من أن ثييثا دى ليون **Cieza de Leon** قد لفت الانتباه مرارًا وتكرارًا إلى وجود معابد ضخمة وطقوس يحترمها شعب الإنكا، إلا أنه لا يتوانى عن الإعلان بأن السكان الأصليين السابقين للإمبراطورية لا يكادون يكونون بشرا: "... فهم يقولون عنهم إنهم متوحشون جداً، وإن كثيرين منهم يأكلون اللحم البشرى ..."[١].

وشهادة غارثيلاسو دى لا بيغا هى أكثر حسمًا من ذلك : فكما الإسبان، حيث يقلد فى هذه المسألة نبرتهم وحججهم، يبدأ كتابة تاريخ وطنه بتحول السكان الأصليين إلى بشر، بفضل الإنكا[٢]، وهو أمر يبدو غير متوقع من مؤلف ولد فى كوسكو بعد الغزو بزمن قصير، من أم وطنية نبيلة، وكرس حياته للكشف عن تاريخ مملكة الإنكا المندثرة. فمؤلفه المعجون بذكريات شخصية ملتاعة، لكنه عميق ومتماسك، هو عمل لا مثيل له فى البيرو، ولهذا تبعث على المفاجأة رؤيته يردد أقوال الغزاة، وينسب إلى أجداده عبادة الآلهة الدمويين والعادات المستنكرة التى كانت فزاعتها منصوبة منذ سنوات أمام مجلس بلاد الهند والرأى العام الأوربى : حيوانات غير عاقلة، تعبد وتؤله رذائل ودناءات وتقدم لها القرابين من رجال ونساء من جميع الأعمار؛ ولشراهتهم إلى

اللحم البشرى، يشربون دماء الضحايا قبل أن تموت، ولديهم دكاكين جزارة يباع فيها ذلك اللحم، إن الدسيسة واضحة للعيان فى هذه الاتهامات لدرجة أن غارثيلاسو ينتهى إلى إيراد النص الحرفى لفقرة متعلقة بالفظائع المكسيكية، لتساعد فى فهم ما كان يحدث فى تلك "الحقبة الأولى" حسب قوله.

وهكذا لم يكن على الرقباء المطمئنين فى هذا الجانب إذن، إلا أن يحولوا دون ظهور الحقيقة. والعمل الذى قاموا به فى هذا الاتجاه ظاهر بصورة خاصة فى الاختفاء المتتالي لمخطوطات بيرناردينو دى ساهاغون، الراهب المكلف بتصنيف المعلومات المتعلقة بعادات السكان الأصليين. فلدى إعلانه أن نتائج عمله تناقض مقاصد الكنيسة، اختفت بطريقة غريبة ثلاث مخطوطات مرسلة إلى المتروبول، وفاجأ الموت ساهاجون بينما هو يعيد كتابة ملخص لأبحاثه للمرة الرابعة، وكان عمره آنذاك تسعين سنة.

لقد وصل قادمًا من اسبانيا عام ١٥٢٩، قبل انتهاء هدم ما بقى من مدينة تينوتشتيلان – إذ كان يجرى بناء المدينة الاستعمارية حينئذ بالأحجار المنتزعة من المعابد –، وقد تأثر ساهاغون قبل كل شيء لرؤية حجارة الأنقاض غير المتوقعة، وللحكمة التى اكتشفها، شيئًا فشيئًا، فيما بعد، لدى شعب تعلم لغته باتقان. وقد قادته تلك الاكتشافات إلى مغامرة مشابهة لمغامرة لاس كاساس: إذ طرأ تحول على حياته بعد إدراكه لطبيعة الهمجي الذى أتى ليهديه، واحترامه للقيم الروحية التى كان الواجب يفرض عليه أن يمحوها ويخفيها.

إن شخصية ونشاط هذين الرجلين لا يمكنهما مع ذلك أن تقدما تبايناً أكثر تضاداً : فتوصل لاس كاساس السريع والاستعراضى إلى وعى الحقيقة، وجرأته المتألقة والحادة فى مواجهة الفاتحين والملوك، يقابلها لدى الفرانسيسكانى ساهاغون حياة بائسة مكرسة للتعليم، ومسار داخلى بطيء ورؤية سرية تسعى إلى التمعن والكشف من خلال عمل مغمور وغير محدد المعالم، إن كتاب تاريخ أشياء إسبانيا الجديدة الموضوع من خلال علاقة حميمة بالمهزومين، وبصرامة فى المنهج، وذكاء مذهل قادر على إبراز الخط الجوهرى، مع اتساع فى النظرة لا يكاد علم الاثنولوجيا المعاصر أن يتجاوزها، يشكل مع كتاب لاس كاساس، أنبل نصب أقامته أوربا على

الإطلاق لضحاياها، وقد أصبحت الاركيولوجيا اليوم فى وضع يمكنها من إثبات أن تلك الخلاصة العظيمة تعكس بأمانة مطلقة جميع مظاهر الحياة ما قبل الكولومبية، وأنه يمكن بفضلها التغلب على إبهام النصوص والتوصل إلى إعادة تركيب الأمور من جديد.

وإنه لذو مغزى أن يكون محور كتابات ساهاغون مؤلفاً من تاريخ الحضارة التى لم يكن الأزتيك إلا سليليها البعيدين، ومن رواية المراحل التى تلقت هذه الأراضى من خلالها بذرة المعرفة الإنسانية كلها، إن الأهمية التى يعطيها على امتداد الكتاب للتولتيكيين، هذه الجماعة الابتدائية فى الهضبة المكسيكية، تشير بحد ذاتها إلى أن محاولة إعادة بناء تاريخى أكثر تماسكاً من محاولة ساهاغون لن تجد لها متسعًا معقولاً إلا إذا كانت ستُخضع الثقافة التى يدور حولها تاريخ أشياء إسبانيا الجديدة للاختبار مع المواد التى كان المؤلف يجهلها. وبكلمات أخرى : لا يمكن فى أيامنا إلا متابعة السير وفق مخطط ساهوغان، وتوضيحه بالاضافات التى توصلت إليها الأعمال المعاصرة.

ومع ذلك، فقد وجدت هذه الأعمال المعاصرة فى كتابات الراهب خطأ إن لم تكن له نتائج خطيرة فى مؤلف يفتقر إلى قواعد محددة كما هو عمله، فإنه خطأ كارثى حين يطبق على التاريخ المستند إلى الاثار المادية، ويتلخص هذا الخطأ فى الخلط ما بين مدينة الأسلاف ناشرى الحضارة ومدينة الأزتيك. فبما أن الأولى كانت أطلالاً مهدمة منذ قرون، فى الوقت الذى أجرى فيه ساهاغون تحقيقاته، فقد كان الخلط بين المدينتين، وتناول إحداهما بدل الأخرى أمراً سهلاً، ذلك أن المدينتين كانتا تحملان الاسم نفسه. وفعلاً، فالتسمية تولا Tula "موقع القصب"، كانت مستخدمة للإشارة إلى أى مركز عمرانى، وأُطلقت بهذا المعنى على عدة مدن، إن الجهل بالآثار الاركيولوجية فى القرن السادس عشر، اجتمع إلى كون المدينة القديمة، موطن الجماعة السالفة، قد كانت كذلك منشأ "النجم" الذى افتتح الحقبة المعروفة باسم حركة movimiento ، والتى ينتمى إليها بناة تولا الأولى. هذه المدينة، وهى النموذج الأصلى، إضافة إلى تسميتها بتولا (عاصمة التولتيكيين – بلغة الناهواتل، الصناع العظماء – وملكهم كيتزالكواتيل)، كانت تدعى كذلك تيوتيهواكان Teotihuacan . "المكان الذى يتحول فيه الإنسان إلى إله".

وبهذه التسمية المزدوجة، تولا - تيوتيهواكان، تظهر فى بعض الخرائط المعاصرة للفتح، وقد حملت مدن تولا التالية هذه التسمية المزدوجة.

إن الاسمين كليهما يستحضران أحداثًا تشكل لباب ميثولوجيا الناهواتيل (تولا مرتبطة بالسيد الاسطورى كيتزالكواتل؛ وتيوتيهواكان هى مكان المحرقة الذى انبثقت منه الشمس الخامسة)، ولذا كان هناك ميل للفصل بينهما على امتداد الروايات، وقد ثبتت تولا فى دورها كعاصمة للفنون والعلوم؛ وتحولت تيوتيهواكان، مكان تحوّل الإنسان إلى نجم، إلى عاصمة مقدسة يحج إليها أهالى القارة. وفيما كانت الأولى تتطابق أكثر فأكثر بشكل عام مع مركز عمرانى متأخر يحمل اسمها. فإن الثانية، قد خرجت شيئًا فشيئًا، ومع انحسار نفوذها الدينى، من الزمان وهوت فى مجاهل الأسطورة. إن الخطأ الذى يبتر الثقافة ما قبل الإسبانية عن سنواتها الألف المبدعة، يشوش المشهد الذى قدمه باحثو القرن السادس عشر، وأعمال أولئك الرواد، التى نُشرت فى القرن الماضى، تتيح الآن فقط رؤية الخطأ الذى ينخر أساسها.

٢ - الأزتيك :

دون إنكار ضعة أصولهم - وصلوا إلى الهضبة المكسيكية فى حالة بداوة، جاهلين أدنى القواعد المدينية - ورغم أنهم كانوا يحتفلون بعظمة الصناع العظماء بناة تولا، التى كانوا يعتبرونها بداية الكون، فقد اختزل الأزتيك الماضى مع ذلك إلى قرنين أو ثلاثة قرون، وهو الزمن الذى كان يحتاج إليه هذا "الشعب المختار" ليفسر صعوده السريع إلى السلطة.

فالازتيك الذين ظهروا فى تلك الأنحاء حوالى القرن الثالث عشر، وتم إبقاؤهم على الهامش لوقت طويل، واستخدموا كمرتزقة لدى مختلف الشعوب المستقرة، وضعوا مخططًا تاريخيًا يتمثل فى ثلاث نقاط أساسية :

١- وجود مدينة تدعى تولا، يقطنها التولتيكيون هى مبدعة جميع المعارف الإنسانية.

٢ - انتقال الإرث التولتيكى، فى حوالى القرن الثالث عشر، ليس من خلال تولا وإنما من خلال كولهواكان Culhuacan ، المدينة القائمة إلى الجنوب من بحيرة الهضبة، والتى تشكل الوطن الثقافى لشعب الناهوا.

٣ - بداوة، هى الصفة المميزة ليس للأسلاف الأسطوريين فقط، وإنما للتشيتشيميكين كذلك، وهو مصطلح استخدم للإشارة إلى كل جماعة تعيش فى حالة الهمجية، على النقيض من توليتكا، المتحضرة المثالية.

إن الدروب التى اتبعها التشيتشيميكيون، تختلط مع تلك التى قُطعت فى أنحاء أخرى مختلفة تماماً، قبل وقت طويل من وجود كولهواكان، وهى متاهة يضيع فيها كل المؤلفين إلى أن يقعوا على اسم تولا المألوف. وبضربة شعوذة من الصعب تفسيرها، تتحول تولا المتأخرة إلى المدينة المقدسة، ويتحول البداة الهمجيون إلى الصناع العظماء. ويغرق حتى ساهاغون المحص الفريد فى الرمال المتحركة لأسماء الأماكن التى تُلفظ دون دقة ولا يتحرر من ذلك الوضع إلا بمطابقته، دون انتباه، بين آكلى اللحم النيئ والتولتكيين، ومن هناك تأتى هشاشة إعادة بنائه التاريخى : فسكان تولا القرن الثالث عشر الذين يرفعهم على النقيض من كل احتمال إلى مرتبة الأسلاف المتحضرين، أدخلوا سادة المكسيك المستقبليين فى الحضارة، واختفت كولهواكان من كتابات الراهب.

الوثائق ما قبل الإسبانية تقدم الأزتيك كأوصياء على كولهواكان؛ ومع ذلك، فإن التولتيكيين الذين يدعى الأولون بأنهم تحضروا معهم، لا يمكن لهم أن يكونوا سكان تولا القديمة، وهو ما لم يُنسب إليها قط. كما أن تلك النصوص تقدم معلومات وافرة حول الدور الناقل والموصل الذى تولته كولهواكان، والروابط التى تربط المكسيكيين بهذه المدينة كانت قوية إلى حد أنهم فى لحظة الغزو الإسبانى كانوا يسمون أنفسهم كولهواس culhuas ، أى سكان كولهواكان.

هناك استنساخات جزئية كثيرة من المخطوطات القديمة، ولكن المحاولات المنهجية لوضع مخطط للتسلسل التاريخى المتعاقب بالاستناد إلى تلك الجزئيات وإلى التقاليد الشفوية التى ما زالت حية تنحصر فى خمس أو ست منها فقط. أولها من حيث

الزمن، وأغناها فى الوقت نفسه بالمعلومات حول الأزتيك، هى كتابات دييجو دوران Diego Duran ، الراهب الذى يُعتقد بأنه ولد فى مكسيكو، بسبب إتقانه التام للغة ناهواتل ولمعرفته بالوثائق التى بقيت سرية. كما أن تحزبه للأزتيك الذين يشعر تجاههم بتقدير غير محدود، يحول عمله إلى مرجع ثمين. إذ لا بد أن عاطفة حقيقية كانت تحركه لكى ينشدَّ إلى مهمة يقدر مشقاتها كعارف جيد: "لست جاهلاً الجهد المفرط الذى ستتطلبه رواية وقائع وتواريخ بهذا القِدم، وخصوصًا محاولة جمعها فى وقت متأخر كثيراً، لأنه فضلاً عن أن رجال الدين القدماء قد أحرقوا الكتب والكتابات، وعلاوة على أنها قد ضاعت جميعها، فقد غاب المسنون والشيوخ القدماء الذين يمكن لهم أن يكونوا مؤلفى تلك الكتابات، ويمكنهم أن يتحدثوا عن تأسيس ومرتكزات هذه البلاد، والذين كان على أن آخذ عنهم معارفهم القديمة"[٢].

الماضى الثقافى الذى يود هذا الرائد الرجوع إليه برهبة يعادل حوالى ثلاثمئة سنة، ذلك أن روايته تبدأ مع بناة تينوتشتيتلان المستقبليين. والواقع أن ظهور الأزتيك على المسرح السياسى كان غامضًا جداً إلى حد يصعب معه التمييز بينهم وبين البدو الآخرين الذين غزوا البلاد فى القرن العاشر: فلدى وصولهم كانت تلك البلاد تفور بإقطاعيات صغيرة متمردة، وبالتشيتشيمكيين الذين فى بحثهم عن ملجأ، وصلوا إلى أماكن النزاع آملين بالحصول على بعض الأراضى.

فى تلك الفترة من الاضطراب وعدم الاستقرار الاجتماعي، بدأ الأزتيك بلفت الأنظار بسبب قسوتهم فى المعارك. وبعد عدة مغامرات تم إخضاعهم من قبل كولهواكان، وعلى الرغم من الانتقادات التى تعرضت لها وحشيتهم، يبدو أنه تم اعتبارهم فجأة مهمين جداً إلى حد أن أحد الملوك الكولهوا وافق على أن يقدم لهم ابنة عزيزة جداً عليه، وأن يحضر بنفسه أحد احتفالاتهم الدينية. وعندئذ دبر الأزتيك مؤامرة، أدت إلى طردهم من المملكة. ويضفى دوران Duran تفخيماً كبيراً على رواية ذلك الحدث المنفر يدفعنا إلى استنساخ روايته. وسواء أكانت حقيقية أم مختلقة، فإنها توضح لحظة التحول التاريخى تلك التى كانت كولهواكان تشكل المفصل فيها، وابتداء منها يميل العالم ما قبل الكولومبى نحو جهة العنف : "... فى تلك الليلة تكلم فيتزيلوبوتشتلى Vitzilopochtli إلى مؤدِّبيه وكهنته، وقال لهم "لقد أخبرتكم بأن هذه

المرأة ستكون امرأة الشقاق والعداء بينكم وبين كولهواكان، ولكي يتم ما قلته، اقتلوا هذه المرأة وضحوا بها على اسمي، وسأتخذها منذ اليوم أمًا لي؛ وبعد موتها اسلخوها بالكامل، وألبسوا جلدها إلى أحد الشبان النبلاء، وليلبس فوقه ألبسة المرأة الأخرى، وادعوا الملك اتشيتوميتل Achitometl كي يأتي لعبادة الربة، ابنته، ويقدم لها قرباناً"... وافق الملك على الدعوة... وخرج من كولهواكان مع كل أعيانه وأتباعه، وجاء إلى موقع تيزابان Tizapan ... وخرج المكسيكيون لاستقبالهم والترحيب بقدومهم، وأحسنوا مقامهم على خير وجه: وبعد أن جلسوا واستراحوا أدخل المكسيكيون الهندي الذي يلبس جلد ابنة الملك إلى المعبد إلى جانب الإله المعبود، وقالوا للملك : "أيها السيد، يمكنك أن تتفضل وتدخل لترى إلهنا وإلهتنا ابنتك، وتُظهر لهما الاحترام والخشوع وتقدم قرابينك" فنهض الملك الذي أخذ الأمر بحسن نية، ومضى إلى المعبد الذي بناه لهم، وحين دخل إلى الغرفة التي يوجد فيها الإله، بدأ بأداء طقوس مهيبة وقطع رؤوس السمان والطيور الأخرى... ولأن الحجرة كانت مظلمة بعض الشيء، فإنه لم يرَ لمن، ولا أمام من يقدم تلك القرابين. ثم تناول مجمرة فيها نار بيده... وألقى فيها بخورا، فأضيئت الحجرة باللهب، ورأى عندئذ من كان يجلس إلى جانب الإله، لابساً جلد ابنته، فسيطر عليه رعب وفزع عظيمين من شدة هول وفظاعة ما رأى، فأفلت المبخرة التي في يده، وخرج مطلقًا أصواتًا مروعة، وقائلاً : "إليَّ، إليّ يا أتباعي من كولهواكان، هلموا لإغاثتي من شر عظيم اقترفه هؤلاء المكسيكيون؛ اعلموا أنهم قتلوا ابنتي وسلخوها وألبسوا جلدها لغلام منهم وجعلوني أعبده: فليمت وليُدمر هؤلاء الناس الأشرار بنزعاتهم وعاداتهم الخبيثة، فلا يبقى لهم أثر ولا ذكر : فلننقض عليهم يا أتباعي ولنجهز عليهم". وحين رأى المكسيكيون صخب وصراخ أتشيتوميتل، وأن أتباعه الصاخبين مدوا أيديهم إلى أسلحتهم، تراجعوا مع نسائهم وأبنائهم نحو الماء، متخذين البحيرة نفسها ملاذاً لهم..."[4] ووسط المطاردة التي كانوا هدفًا لها، أوحى لهم آلهتهم بموقع عاصمتهم المستقبلية: وسط البحيرة المغطاة بالقصب.

بعد خمسين سنة من الصراع من أجل البقاء في وسط طبيعي واجتماعي معادٍ، يعود المكسيكيون (الأزتيك) إلى الظهور، وقد أصبحوا أقوياء بما يكفي لإقامة مملكتهم، ومن كوالهوكان بالذات تلقوا أول عاهل لهم ، ويتحدث دوران بإعجاب عن سعادة ملك كولهواكان بذلك الاتحاد ، وقد كانت الكتابات التالية مجرد أصداء لروايته تلك.

ثمة حادثة متأخرة تدل على التوقير الذى أحس به الأزتيك على الدوام تجاه كولهواكان. فبعد انتصار جعل منهم أسياد الهضبة المكسيكية نهائياً، أعرب ملكهم عن رغبته فى معرفة مكان منشأ الشعب المختار، فأجـابه المؤرخ الذى استُشير : "... أيها السيد القدير: ما أعرفه، أنا عبدك الذليل، عما تسألنى عنه، هو أن آباءنا أقاموا فى ذلك المكان السعيد المسمى أزتلان Aztlan ، والذى يعنى البياض: وفى ذلك المكان جبل كبير وسط الماء، يدعونه كولهواكان، لأن قمته مائلة بعض الشىء إلى أسفل، ولهذا السبب يسمى كولهواكان، أى "الجبل المائل". وفى ذلك الجبل بعض الأفواه أو المغاور أقام فيها آباؤنا وأجدادنا لسنوات طويلة..."(٥).

أحد المتحدرين من ملك تيكسكوكو Texcoco ، فيرناندو دى ألفا اكستليلكسوتشيتل، أضاف قرنين إلى الأفق التاريخى حين ضم إليه غزو التشيتشميكيين chichimecas الأوائل. وعلى كل حال، فإن المؤرخ الراهب خوان دى توركيمادا أعاد المنطقية، فى أواخر القرن السادس عشر، إلى "إمبراطورية التشيتشميكا" هذه التى تشكلت فى الهضبة من خلال تنازع السلطة مع كولهواكان التى كانت تتمتع، فى ذلك الوقت، بكل ازدهارها، ويبدو توركيمادا واعياً تماماً مثل دوران للمصاعب التى عليه التغلب عليها، خصوصاً وأنه يطمح إلى التوغل فى الزمن إلى ما قبل عصر الأزتيك: "لقد قلت فى مواضع كثيرة من هذه الكتب، كيف أن من كتبوا عن أصل أولئك الناس، لم يهتموا بأكثر من تقديم أخبار عن كيف جاء هؤلاء المكسيكيون المتأخرون؛ ولأن بعض المؤلفين يأخذون عن آخرين، فإنهم جميعهم يقولون الشىء نفسه، ولا يأتون على ذكر أناس آخرين كانوا هنا قبلهم [قبل المكسيكيين الأزتيك]؛ ولكن الحقيقة هى أنهم عندما أتوا كان هناك أناس، وكان كل شىء مأهولاً (ولهذا كان عليهم أن يلجؤوا إلى القوة لامتلاك المكان الذى يستطيعونه) وقد كان أولئـك الناس، الذين وُجدوا هنا، هم السابقون؛ وبما أن الأمر كذلك، يتوجب معرفة تاريخهم، وهو ما أفعله أنا، ذلك أننى بحثت عن أصلهم فى كتب يخبئها الوطنيون، ويخفونها بسبب الخوف الكبير الذى أحسوا به من المبشرين فى بداية تحولهم إلى المسيحية؛ فلأنها كتب رسوم (وهى سيئة الرسم) فقد ظنوا أنها رسوم آلهة تُعبد، وأحرقوها جميعها، وقد أخفوا بعضها ولم يُظهروها من أجل إنقاذها، وفيها رأيتُ ما قيل فى الماضى، وما زال يقال فى هذا الزمن..."(٦).

وقد توصل توركيمادا بالفعل إلى بناء رواية متماسكة للأحداث السابقة للأزتيك، ولم تكن عقبة لديه انقطاع قرون سيطرة الكولهوا. فإذا كان إدراج امبراطورية التشيتشميكا فى تاريخ دوران جعله يرجع القهقرى ثلاثمئة سنة، فإن جهل توركيمادا بما يتعلق بكولهواكان قاده إلى اقتراف أخطاء مشابهة لتلك التى يستنكرها: فمع نهاية الرؤية الجديدة يخلّف فجوة صرنا نعرف اليوم أنها زائفة مثلما هى رؤية من سبقوه. وهذه الفجوة، لدى باحث من قامته، تُثبت الصعوبة التى كان يصطدم بها آنذاك أيضاً لكى يُخرج مخطوطات الوطنيين من مخابئها.

المرحلة المعاد اكتشافها تبدأ فى حوالى القرن العاشر مع أول زعيم تشيتشيميكا تُعرف سيرته: إنه المدعو شولوتل مؤسس إمبراطورية. ويعلن إكستليلكسوتشيتل عن وصوله إلى "أرض تولتيكا" فى ٩٦٢ ؛ وحيال الهجران الذى وجد فيه البلاد، يوزع الأرض بين أتباعه، وبالرغم من التأكيد المتكرر بأن الهضبة لم تكن تمثل فى ذلك الحين إلا امتدادات شاسعة مقفرة، تغطيها أعشاب ضارة، حيث اكتشف الغزاة بصعوبة وجود شخصين ناجيين فقط من التولتيكيين، فقد كان الواقع مختلفا: إذ رأينا أن "العاهل الأكبر للأمم التشيتشميكية" وجد نفسه مضطراً إلى خوض مواجهة مع شعب الكولهوا : "... التولتيكيون الذين هربوا من دمارهم ونكبتهم، وكان رأسهم الأساسى ناوهيوتزين Nauhyotzin الذى كان يقيم فى كولهواكان... واتفق التشيتشيميكا العظيم شولوتل على الطلب منهم بأن يقدموا إليه جزية ما، والاعتراف به على أنه السيد الأعلى والكونى فى أراضى أناهواك تلك. فرد عليه ناوهيوتزين باسم كل أبناء أمته الآخرين "... الأرض كان يمتلكها كبارهم الذين كانت تنتمى إليهم؛ وهم لم يعترفوا مطلقا بأى سيد غريب، ولم يدفعوا قط جزية لأى سيد غريب، ولهذا، ومع انهم قلة ويشرفون على الاندثار، فإنهم ينوون الحفاظ على حريتهم وألا يعترفوا بأحد.. "وحين رأى شولوتل تصميمه، وأنه لن يذعن ويمتثل بالسلام، فقد أحاله إلى السلاح؛ وهكذا أرسل ابنه الأمير نوبالتزين Nopaltzin على رأس جيش مناسب، ولم تكن هناك ضرورة إلا لعدد قليل، لأن خصومه، حتى ولو حشدوا كل ما يقدرون على جمعه، فإنهم لم يكونوا متفوقين فى القتال مثلما كان عليه التشيتشيميكيون. ودارت المعركة فى بحيرة كولهواكان وبين أعشابها؛ ومع أن الكولهوائيين كانوا يتفوقون فى القتال فى القوارب،

إلا أنهم هُزموا بعد منــاوشات قليلة على يد الأمير نويالتزين... وقد حدث ذلك فى العام ٩٨٤ لتجسُّد سيدنا المسيح..."[٧] . إن تعاطف كاتب هذه الوقائع مع شولوتل يؤكد على العجرفة التى أبداها بعض الفاتحين غير المثقفين ضد أمة لم تُبد نحوهم إلا التسامح؛ وعلى كل حال، فإن شولوتل لم يكن بتلك القوة الكبيرة، كما لم تكن كولهواكان بذلك الضعف، بدليل أن حفيداً "للإمبراطور" العظيم سيكون من يبتدئ بثقافة ناهواتل من خلال سيدة من كولهوا؛ ذلك أن الأزتيك سيتلقون من هذه المدينة ملكهم الأول بعد ثلاثة قرون من ذلك، وسيحمل سادة إمبراطوية الأزتيك، أخيراً، وحتى مجيء الاسبان لقب كولهوا – تيكوهتلى Culhua-Tecuhtli، أى : سيد كولهوا. ومع ذلك، خلال الفترة الممتدة منذ مجيء شولوتل وحتى تنصيب أمراء الكولهوا فى تينوتشتيتلان Tenochtitlan، (عاصمة الأزتيك) لم تعرف كولهواكــان سوى النكبات ولم تفعل شيئًا سوى المعاناة من مجاورتها لتلك القبائل البدائية.

ولولا مشيئة القدر بأن يهتم نبيل، متحدر من سادة المنطقة الجنوبية للبحيرة، اهتماماً كافياً ببلاده ليكرس نفسه – فى أواخر القرن السادس عشر – لعرض توالى أسلافه، لما تجاوز تاريخ المكسيك الحدود التى بلغها إكستليلكسوتشيتل وتوركيمادا، ولبقيت كولهواكان مجرد طيف تاريخى إلى الأبد. فمن أجل رواية الأحداث التى حوّلت الهضبة المكسيكية إلى المجموع السياسى الذى عرفه الاسبان، آمن النبيل فرانسيسكو دى سان أنطون مونيون تشيمالباين بواجــب بدء روايته لتأسيس كولهواكـــان فى العام ٦٧٠ ، موضحاً بهذه الطريقة ثلاثة قرون أخرى، هذه الاستعادة التى تتيح للحوليات أن تتوالى متسلسلة فى تيوتيهواكان، تقر سلسلة كرونولجية من ألفى سنة وترد إلى الماضى أبعادة الإنسانية العملاقة، ذلك أنه بكشف سيرورة التحول الثقافي، الذى يبدو طابعه غير المتقطع جلياً بسبب التشابه بين الأعمال التيوتيهواكانية والأزتيكية، توفر كولهواكان مصداقية للكتابات التى ترجع إلى ما قبل الفتح الأوربى بثمانية قرون.

إن أول وأهم مشكلة يوضحها هذا الامتداد هى المتعلقة بأصول الأزتيك. فمدينة أزتلان الغامضة، ذلك المكان "نو البياض" الذى يحدد كتبة الوقائع التاريخية الصغار موقعه بعيداً، إلى الشمال، بينما يقول الحكيم العجوز الذى يأتى على ذكره دوران إن الموقع قريب من كولهواكان، يتحدد الآن على أنه هذه المدينة نفسها : "... عندما خرجوا

[الميكسيكان] وانطلقوا من موطنهم المدعو ""مدينة أزتلان الكبرى""، من كولهواكان القديمة"[8]. وهذا التطابق كامل إلى حد أنه نادراً ما تُذكر أزتلان: "... لقد جاؤوا [المكسيكيون] من قرية تدعى تيوكولهواكان[9] يسميها الإسبان كولياكان Culiacan ... وبعد هؤلاء جاء هنود آخرون من أراض بعيدة سُميت كولهوا، وهؤلاء جلبوا الذرة وبنوراً أخرى وطيوراً داجنة؛ وبدؤوا تعمير الأرض وزراعتها..."[10].

إن ظهور مكان منشأ ثالث، هو تشيكوموستوك Chicomostoc (الكهوف السبعة)، لا يؤدى إلا إلى تعقيد المسألة، وهى المشوشة بما يكفى لأن المؤرخين كانوا يناضلون ضد غموض النصوص دون مساعدة علم الآثار، فإذا ما كانت أزتلان – كولهواكان هى موطن الأزتيك، فإن تشيكوموستوك ستظهر على أنها موطن التشيتشيميكيين، بمن فيهم المكسيكيون. وهناك عدة ملامح تطابق أيضاً ما بين مكان المنشأ *"الكهوف السبعة"* وكولهواكان. وهذا الاسم يعنى بلغة الناهواتيل "الجبل المائل" ويشير فى بعض الحوليات، منها تاريخ تولتيكا – تشيتشيميكا، إلى كهوف فى الجبل الملتوى.

ويصر تشيمالباين على الوصف المادى (الطبيعي) والنشاطات المحددة لمدينة تشيكوموستوك، كما لو أنه يريد انتزاعها من الضباب الذى كان يغللها منذ ذلك الحين: إنها كهوف مفتوحة فى جبل محاط بالماء، وإليها كان يذهب التشيتشيميكيون فى مراكب لكى يقدموا أغصان صنوبر مشتعلة إلى إلههم[11]. وتقدم إحدى المخطوطات رسم *"الجبل المائل"* وإله الأزتيك فى داخله، ويحدد تشيمالباين أنه "... من هناك، من تشيكوموستوك، خرج أولاً شعب الكولهوا، فضلاً عن التولتيكيين، ثم خرج أخيرا كل أناس عالمنا، نحن من نسمى الرعايا: نحن أهل إسبانيا الجديدة (المكسيك)..."[11]. وحتى دون الأخذ فى الاعتبار أن أعمال التنقيب الأثرية تُثبت الدقة الباهرة لهذه الأقوال، فإنه يمكن التوصل من خلال الوصف ومن الرموز الهيروغليفية إلى أن أزتلان – كولهواكان – تشيكوموستوك كانت بالنسبة إلى البداة وطناً روحياً، وليس مادياً؛ وأنها المكان الذين يعلنون أنهم ولدوا فيه للحضارة. ومجرد أن الأزتيك يحددون أن أول تجل لإلههم كان فى كولهواكان، يشير إلى طبيعة الرابطة التى تربطهم بهذه المدينة؛ فضلاً عن أن كل المراكز العمرانية ما بعد الكلاسيكية فى الهضبة المكسيكية تؤكد على أنها تلقت منها أول عناصر ثقافة الناهواتيل[12].

بما أننا لا نستطيع التوسع فى هذا الموضوع، فسنكتفى بالإشارة إلى أن الجبل الذى تقوم على سفحه كولهواكان الحالية مازال يبدى قمته المائلة وكهوفًا ضخمة تتخلل كتلته البازلتية، وأنه يمكن كذلك لتسمية "مكان البياض" أن تكون مستمدة من الأملاح التى تغطى ضفاف البحيرة المحيطة به. أضف إلى ذلك، أن مركز تجارة ملح تينوتشيتيتلان عند الغزو الاسبانى كان فى إكسترابالابا lxtrapalapa ، وهى تجمع كبير كان يقوم على الجانب الشرقى للبحيرة.

ولابد لنا من الأخذ بالاعتبار كذلك أن ساهاغون وتوركيمادا، اللذين كانا يجهلان الوثائق التى تمكن تشيمالباين من الوصول إليها، قد توصلا مع ذلك إلى اكتشاف الطابع الثقافى لتشيكوموستوك الأسطورية تلك التى مازال بعض الأركيولوجيين يبحثون عنها بعيداً عن الهضبة: "... كل أسرة... كانت تقدم عند المغادرة قرابينها فى تلك الكهوف السبعة، ولهذا فإن أبناء كل أمم تلك الأرض، اعتادوا تمجيد أنفسهم بالقول إنهم قد ترعرعوا فى تلك الكهوف، ومنها خرج أسلافهم، وهو أمر زائف، لأنهم لم يخرجوا من هناك، وإنما كانوا يذهبون إلى هناك لتقديم قرابينهم..."(١٣) فتوركيمادا الذى كتب بعد عشرات السنين، تمكن من إدانة خطأ الأسلاف مثل الأب أكوستا، وأنطونيو هيريرا، وجومارا، الذين كانت تنقصهم الرؤية التاريخية وحولوا تشيكوموستوك إلى وطن جغرافى(١٤).

لقد أتاحت الاركيولوجيا اكتشاف أن التسميات التى ترافق كولهواكان، كما فى حالة تولا – تيوتيهواكان، تشير على التوالى إلى المراكز العمرانية والدينية التى تشكل كلاً واحداً. وقد وفرت أعمال التنقيب التى أنجزت فى الدير القائم عند سفح "الجبل المائل" مادة تيوتيهواكانية حصراً (تنتمى إلى المرحلة الأخيرة، مع تبدلات طفيفة فى الأسلوب، مثلما يُلاحظ فى واحد من أعمال الزخرفة الهندسية).

فالمركز العمرانى الواقع على بعد خمسمئة متر من "الجبل المائل"، يتميز بخزف برتقالى بقى شائعا حتى الغزو الإسبانى. وأسلوب نقوشه السوداء هو وحده الذى يدل على المراحل التاريخية للقرون الثمانية التى وُجد خلالها ذلك الخزف، ولهذا جُمع كله تحت التسمية المشتركة "خزف أزتيكى". وجرى تحديده أولاً وقبل كل شىء على أساس أسلوبه، وتبين أن خزف أزتيك هو الخاص بكولهواكان؛ وقد ظهرت منه بقايا لا حصر

لها فى أساسات المدينة، فى طبقة تزيد سماكتها على المتر(١٥). كما أن هيمنة هذا الخزف، من جهة أخرى، على المستويات التالية، أى المستويات التى ظهر فيها أزتيك II، وتناقصه البطىء لصلحة هذا الأخير، ثم ظهور أزتيك III مع بقاء كبير للنوعين السابقين، أثبت أنه لا يمكن لهذا الخزف إلا أن يكون من منشأ محلى وأن أنواعه المختلفة قد ولدت كذلك فى كولهواكان. وتزداد أهمية هذه النتيجة لأن النقوش التى تزين خزف أزتيك I وتملأ المستويات الدنيا من أرض كولهواكان هى تيوتيهواكانية بوضوح. وعندما نتفحص رموز ناهواتيل نرى إلى أى حد تتكامل كولهواكان – حيث يوجد "الشىء المائل"، والنار الدورية التى تتأجج على قمة الجبل، والمثلثات والعين الشمسية التى تزين الخزف – مع السياق الدينى الذى كانت فيه مدينة الآلهة التعبير الأكثر أصالة والأكثر عظمة؛ وهو توصيف تحفظه الحوليات من جهة أخرى بدقة : "... وكان من بين الأماكن التى سكنوها كولهواكان، وكانت فى الصدارة بعد مملكة التولتيكيين الذين هربوا... بعد أن اختفى أعداؤهم وملكهم توبيلتزين... واجتمعوا فى كولهواكان... "(١٦).

إن توبيلتزين هذا، الذى يظهر كآخر ملوك تولا، هو مؤسس كولهواكان: "... توبيلتزين الذى دُمِّر فى زمنه التولتيكيين. وكان لهذا الملك ابنان ذكران... [من] أحدهما انحدر فيما بعد ملوك كولهواكان..."(١٧) "ويروى تيتسكوكو إنه فى تلك السنة مات كيتزالكواتل توبيلتزين الذى من تولان فى كولهواكان... وحين تشتت شمل التولتيكيون، كان اسمهم ""كولهوائيين"" وحسب"(١٨).

بعد أن تتضح العلاقة ما بين كولهواكان وتولا الأولى، يُعثر على الخيط الهادى الذى يوضح الانتقال من المرحلة الكلاسيكية إلى العصور الحربية. فكولهواكان التى تأسست عندما كانت العاصمة المقدسة القديمة ما تزال موجودة، وفى وقت كانت فيه عوامل عديدة (ظهور مراكز دينية أخرى، وتوسع عمرانى كبير وتدفق البداوة على الهضبة المكسيكية الغنية) قد كسرت التوازن الاقتصادى الألفي، وكانت بعد عدة قرون من تأسيسها المصدر الوحيد الذى أمكن للتشيتشيميكيين الحصول منه على المعارف التى تماثلهم بالتولتيكيين. ومن هناك جاء تحديد كولهواكان – فى شريط الهجرات –، باعتبارها موطنهم، كنقطة انطلاق الشيوخ الذين سيقودون التشيتشيميكيين "المتشبهين بالتولتيكيين"

لإقامة مواضع استقرار فى كل محيط البحيرة. إن تلك "الهجرات" التى كانت محكومة على ما يبدو بإرادة التوحيد نفسها التى قادت سكان مدينة الآلهة إلى أميركا الوسطى، انتهت فى القرن الثالث عشر إلى كواتيبك Coatepec ، وهو جبل إلى شمال البحيرة، حيث أُسست مدينة تولا-هيدالغو. وبعد إقامة استمرت حوالى خمسين سنة فى هذا المركز الجديد، عاد التولتيكيون - التشيتشيميكيون للظهور فى الهضبة، حيث يبدأ تاريخهم الخاص : ارتباطهم بكولهواكان؛ وتضحيتهم بابنة ملك هذه المدينة؛ وانسحابهم إلى مياه البحيرة، وهى موقع عاصمتهم المستقبلية. هذا الطريق الذى تذكره كل المخطوطات (كولهواكان - تولا - كولهواكان) يتوضح بفضل البقايا الاركيولوجية : فكل الخزف الذى يشير إلى ذلك الطريق هو خزف كولهواكان فى مختلف مراحله، منذ أزتيك احتى أزتيك II ، وهو نفسه الذى يظهر فى تولا المتأخرة مع بدايات تينوتشتيتلان.

ولكن، على الرغم من كل البيانات الجلية، تبقى الأخطاء القديمة قائمة بإلحاح. ويكفى ملمح واحد لإثبات عدم الاهتمام، الذى لا تفسير له، بالتاريخ ما قبل الكولومبي: فكتابات تشيمالباين لم تُنشر بالإسبانية إلا فى سنة ١٩٦٥، وقد حُذفت من هذه الطبعة الرواية المتعلقة بكولهواكان قبل غزو التشيتشيميكيين. ولكى نطلّع على هذه الوثيقة الوحيدة وجدنا أنفسنا مضطرين إلى اللجوء إلى الترجمة التى قام بها المتأمرك والتر ليهمان Walter Lehmann فى القرن الماضى من لغة الناهواتيل إلى الألمانية، إن تلك الفجوة التى تسهّل بلبلة السياق الكرونولوجى لكولهواكان والهجران خارج عالم تيوتيهواكان مازالت لها نتائج أشد شؤمًا مما كان عليه الأمر حين كان يتعلق بكتبة الوقائع، ذلك أنه فى أيامنا هذه، وبفضل أعمال التنقيب، تشكل مدينة الآلهة دليلاً لا يمكن تجاهله، دون أن يؤدى ذلك إلى تشوش كامل للماضى . وبهدف معالجة هذا الوضع، سنحاول تقديم ملخص لمختلف المحاولات التى تعرضت لهذه المسألة المفصلية.

فى القرن الثامن عشر، كانت طريقة رواية التقاليد المنقولة عن الأزتيك ما تزال على حالها: ففى مؤلف يعود إلى العام ١٧٨٠ - وهو، من جهة أخرى، مؤلف بعيد النظر- يكتفى كالفيخيرو Calvijero بترديد الكليشيهات نفسها: "رحلوا [التولتيكيون] ... تحت أوامر بعض القادة والسادة الذين كانوا سبعة فى زمن وصولهم إلى تولانتزينكو

Tollantzinco... وما كادت تمضى عشرون سنة، حتى تراجعوا أربعين ميلاً نحو الغرب، وأسسوا على ضفة نهرٍ مدينة توللان Tollan أو تولا Tola من اسم موطنهم. هذه المدينة، وهى الأقدم كما يبدو، فى أرض اناهواك وإحدى أهم المدن فى تاريخ المكسيك، كانت عاصمة الأمة التولتيكية وبلاط ملوكها. وكانت بداية ملكهم فى السنة الثامنة آكاتيل، أى سنة ٦٦٧ من التقويم العادى، واستمرت ٣٨٤ سنة"(١٩).

وهذا التاريخ نفسه هو الذى ينسبه كاتب الوقائع تشيمالباين، وكذلك بقية الاركيولوجيين، إلى بدايات كولهواكان. وبما أنه يشار إلى هذه المدينة على أنها تولتيكية فى كل مكان، فإن كالفيخيرو الذى لا يتمكن من مقارنة المعلومات التى بحوزته مع الأنساق الأخرى، يخلط مابين تواريخ عدة نصوص، ويضع تولا الهجرات التشيتشيميكية فى أوج المرحلة الكلاسيكية.

وأوروثكو أى بيرا Orozco y Berra ، الذى يفتقر كذلك إلى أى منهج دراسى جديد، يتبع الطريق نفسه، مقدماً بعض الشكوك. وتفسيراته التى تأخذ لأول مرة الواقع الاركيولوجى بالاعتبار، تحدد بدء مرحلة جديدة: "تيوتيهواكان، ومثلما يشير اسمها، كانت مكرسة للآلهة القدماء؛ ووجدت مع أهراماتها منذ أقدم الأزمنة : وقد كانت هيكلاً مقدساً تُعبد فيه الحيوانات، وهى إحدى أدنى طبقات الديانات التى ابتدعها البشر"(٢٠). هذه الفرضية، التى أثبتت المعارف الحالية خطأها، تتمتع مع ذلك بمزية تقديمها، لأول مرة، مقارنة للنصوص، مع شهادات الآثار، وبوقوفه أمام المشكلة التى لا تُدحض حول ميلاد الشمس الخامسة وعصر كيتزالكواتل فى مكان كان فيه مؤسس الفكر الناهواتيلى مجهولاً، يحاول المؤرخ المشهور أن يحل المشكلة بإقحام بناة تولا المتأخرة: "كان التولتيكيون الزنادقة يتقبلون عبادة كواكب النهار والليل... وإذا كانت [الأهرامات] لم تستخدم كمدافن، فمن الثابت أنها كانت معابد مكرسة فى القديم لآلهة مجهولة أُسقطت عن مذابحها من أجل الشمس والقمر منذ الزمن الذى أقام فيه التولتيكيون ملكهم على توللان"(٢٠). وهذا يعنى بمقتضى هذا الرأى أن التولتيكيين قد قضوا على عبادة الحيوانات البدائية التى كان التيوتيهواكانيين يمارسونها قبل أن يتوجهوا إلى شمالى البحيرة حيث أسسوا عاصمتهم. فإذا ما فكرنا بأن هذا الخطأ فى التسلسل التاريخى، مازال حتى أيامنا هذه، يمر فى أحيان كثيرة دون أن يلحظه المتخصصون،

فإننا لا نستطيع إلا أن نقدّر التماسك الذي يركّب به أوروثكو آي بيرا العناصر المتوفرة بين يديه.

في عام ١٨٨٧ يحافظ ألفريدو تشافيرو على الطروحات السابقة لزميله اللامع حول التحول الذي أحدثه التولتيكيون باستبدالهم عبادة الحيوانات بعبادة الكواكب ويواصل المخطط المعهود لدى الحديث عن تأسيس تولا : "نتوغل في القسم الذي يمكن لنا أن نسميه تاريخاً بالكامل... وصل التولتيكيون (سنة ٧٠٠) وكان لا بد لوصول هؤلاء من أن يبدل تماماً قدر تلك المنطقة. ولنهتم بهجرات هذه القبيلة العجيبة... فبعد أن صدهم الكواكستكيون los cuaxtecas أو لأنهم لم يعتادوا على حياة الجبال، انسحبوا إلى تولانتزينكو Tollantzinco وبعد ست عشرة سنة أسسوا عاصمتهم تولان في سنة سي كالي ce calli، أي ٧١٣"(٢١).

وفي الفترة نفسها قام الفرنسي ديزيريه شارنيه Desire Charnay بحفريات تنقيب في تولا وتيوتيهواكان، ومع أنه بقي أسير القناعات القديمة، إلا أن عمله الميداني أتاح له رسم لوحة ثقافية أكثر تماسكًا : "لم أشأ أن أعطي القارئ أكثر من فكرة سريعة عن هذا الشعب الأزتيكي بهدف تهيئته لكي يتابعني في أبحاثي حول الحضارة التولتيكية، وهي أقدم بكثير، التي ورثها الأزتيك مثلما ورثوا شعوب أناهواك وأميركا الوسطى. لم يكن هناك إذن، سوى حضارة واحدة ووحيدة نجدها في كل مكان، وهذه الحضارة هي التي نحاول جاهدين إعادة بناء تاريخها مستندين ليس فقط إلى ما خلّفه كتبة الوقائع والمؤرخون، وإنما كذلك، وفي المكان الأول، إلى الأوابد الأثرية التي لا يمكن لها أن تخدعنا، فمن أجل دراسة الحضارة التولتيكية لابد لنا من الذهاب إلى تولا التي استقر فيها التولتيكيون نهائيًا، بعد هجرات طويلة... من تولانتزينكو حيث عاشوا، مثلما يخبرنا ساهاجون، عددا من السنوات، واستقروا في تولا..."(٢٢).

هذا الميل لرؤية الملامح الثقافية نفسها في تقسيمات الحوليات المصطنعة يتعزز كلما التصق المرء بالتحليلات المحددة. وهكذا كان - بعد دراسة للأوابد المكتشفة حديثًا في تيوتيهواكان - أن أعلن أنطونيو بينيافيل Antonio Peñafiel بشجاعة، عن عدم اتفاقه مع أسلافه: "برأي مؤرخنا الكبير، السيد دون مانويل أوروثكو آي بيرا، لم يكن التولتيكيون هم بناة أهرامات تيوتيهواكان وتشلولا، وإنما بنتها أمم أخرى بدائية وعثر

عليها فيما بعد التولتيكيون. وقد كان هذا أيضًا هو رأيى، وكان اعتقادى يصل إلى حد الإنكار التام لقيام شعب الناهواتلاكا ببناء الأهرامات، ومع ذلك، فإن ما هو موجود هناك ينتمى إليهم..." (٢٣).

الاهتمام الذى كانت تثيره طبيعـــة الآثـــار التيوتيهواكانيـــة، واصله إدوارد سيلير Eduard Seler . ففى مقال بارع عام ١٩١٠ ، يقارن فيه الواد المكتشفة حديثًا مع كتابات الوقائع من جهة، ومع الرموز والألوهيات من جهة أخرى، لم يثبت هذا العالم أن تيوتيهواكان تشكل جزءًا من الثقافة نفسها التى تشكلها تولا – هيدالغو وتينوتشتيتلان وحسب، وإنما أثبت كذلك أن آلهة وأساطير وفنون العالم الأزتيكى ولدت من أحشائها.

وفى أثناء ذلك، استفاد الباحثون من بعد نظر مانويل غاميو الثقافى. فلقناعته بأن تاريخ تيوتيهواكان وقع ضحية ظلم فادح، ألقى بنفسه إلى الرمل ليقوم الأخطاء الظالمة، وبعد سنوات من التعاون مع الانثروبولوجى اللامع فرانز بواس Franz Boas ، حقق عملاً فى تيوتيهواكان ما يزال فريداً فى تاريخ الاركيولوجيا المكسيكية. وذلك بمهاجمة الفوضى التى ما تزال سائدة: "السيد جويس Joyce (فى بحثه "دراسة فن المايا" A study of Mayan Art – كامبردج ١٩١٣)، وباستناده إلى حوليات كواهتيتلان، يشير إلى أن الحضارة التولتيكية (أو التيوتيهواكانيه) تبدأ فى أوائل القرن الثامن من التقويم المسيحى؛ ولكن يخطر لنا أن نتساءل : هل يجب أن نثق بهذه الحوليات وكتبة الوقائع الاستعماريين الذين يعبرون بطريقة مشابهة، أكثر مما تعبر عنه بصمت، إنما ببلاغة، الأوابد الأثرية؟ إننا نعرف منطقة تولا فى ولاية هيدالغو لأننا نقبنا فيها، وإن لم يكن تنقيبنا دقيقًا جداً، وهو ما نفكر بعمله فى المستقبل. ومع ذلك، بسبب طبيعة الأرض وطبوغرافيتها يمكننا أن نستنتج أنه لم توجد هناك مدينة كبرى مثلما يجب أن تكون عليه تولا الشهيرة التى يذكرها كتبة الوقائع، فمن خلال نوعية البقايا الأثرية، والصناعية، الخ... التى توفرها، يمكن تصورها كمدينة ما قبل إسبانية ذات أهمية ضئيلة..."(٢٤).

لقد استعان غاميو بالعمل التنقيبى قبل كل شيء، ليكشف الخطأ الذى يزيف تاريخ المكسيك القديم: ولثقته من أن أحداً لن يستطيع مقاومة الوقائع الجلية،

انطلق فـى أعمال تنقيب واسعة النطاق فـى تيوتيهواكان أدت فـى النتيجة إلى اكتشاف معبد كيتزالكواتل، مع المجمع الأركيولوجى الضخم الذى يضمه.

والأبحاث، التى توضحت بهذه الشهادات القوية، دخلت عندئذ فـى نسق منطقى أتاح إدراك الأخطاء فـى وثائق القرن السادس عشر، التى تحدد عاصمة التولتيكيين بأنها تولا – هيدالغو، ولكنها تذكر فـى الوقت نفسه مدينة تدعى توللان – تيوتيهواكان. هذه الاشارات التى مرت دون أن تلفت انتباه المؤرخين السابقين لظهور علم الآثار، بدأت تؤخذ بعين الاعتبار، فالمتأمرك والتر ليهمان مثلاً، فـى لحظة معينة، يلخص الوضع: "لقد كانت تيوتيهواكان بالفعل هى المركز المقدس للتوليتكيين القدماء. ففى رسم تيزكوكانىّ (هيروغليفية تيوتيهواكان هى هيروغليفية توللان)، وفـى مواعظ الاثنى عشر كاهناً هناك ترادف لتسميتى توللان... وتيوتيهواكان، وفـى مخطوطة مجموعة مقتنيات بوتورينى، التى يذكرها تشافيرو، يقال إن تيوتيهواكان هى التى سُميت قديماً تولتيكا. وهناك إشارة مماثلة وجدتها فـى النسخ التى صورها خ.ف.راميريث والموجودة فـى مكتبة مكسيكو الوطنية"[٢٥].

إن وابل الأدلة الاركيولوجية، والتاريخية، واللغوية، والدينية، التى تمكن من جمعها حفنة من العلماء اللامعين خلال أقل من ثلاثين سنة، مهدت الطريق لما لم يكن مجرد توقعه ممكناً طوال قرون. فكل الانثروبولوجيين تقبلوا التوجه الجديد للأبحاث، وانطلق أكثرهم إدراكاً للأهمية التى يتمتع بها، فـى نظر المكسيكيين اليوم، التقييم الدقيق لماضيهم، فـى عملية إعادة تركيب حماسية. ومن هؤلاء، هناك العالم الحساس إنريكى خوان بالاثيوس Enrique Juan Palacios ، وميغيل أوتون دى مينديثابال Miguel Othon de Mendizabal ، اللذان لا تقتصر أعمالهما على كونها منجم معارف وإيحاءات، وإنما هى كذلك، وقبل كل شىء، وثيقة مشجعة بعمق، تستلهم الإيمان بالقيم الإنسانية. ففى تصميمه على وضع حد للروايات التى شوهت حتى ذلك الحين تاريخ بلاده، يزعزع مينديثابال الحقيقة الأكاديمية الكسولة : "توللان الثانية هذه... شاع الاعتقاد بأنها البلدة التى مازالت أطلالها موجودة فـى تولا فـى هيدالجو، ولكن ذلك خطأ آخر من الأخطاء الكثيرة عن بدايات تاريخنا الوطنى، وهو خطأ ما زال شائعًا بسبب الروح الروتينية وتقاعس الباحثين؛ فأطلال تولا فـى ولاية هيدالجو، هى آثار

مدينة أسسها المهاجرون الأزتيك فى جبل كواتيبك وما حوله، وأطلقوا عليها اسم تلولان... وهو ما يشير إليه بتفاصيل مسهبة المؤلف المجهول لمخطوط راميريث وتيزوزوموك وبوران، والذين حافظوا، كما هو معروف، بكل نقاء على التقاليد الأزتيكية ومعطياتها، للاشارة إلى عصور قريبة نسبيًا من الزمن الذى رويت فيه، وهى جديرة بثقة أكبر من التلميحات الغامضة لكتبة الوقائع الذين جعلوها تبدو كعاصمة للتولتيكيين. فمن الغريب حقًا أن تجرى دراسة وبحث تلك الأطلال ضئيلة الأهمية بكل ذلك الاهتمام الكبير، خصوصاً وأن هيروغليفية تيوتيهواكان التصويرية-الصوتية التى تظهر فى خريطة كيناتزين تقول بوضوح إنها تولان - تيوتيهواكان"[٢٦].

إن ثقل قرون طويلة من التفسيرات الخاطئة كان، مع ذلك، قويًا إلى حد أن الطريق المفتوح حديثًا لم يُهجر مرارًا وتكرارًا وكانت الاركيولوجيا هى التى أسهمت عندئذ فى تصعيب التوغل فيه.

لقد كشفت حفريات التنقيب التى بدأت فى تولا - هيدالغو عام ١٩٤٠ عن منحوتات شبيهة بتلك التى نُسبت فى تشيتشين إتزا Chichen Itza إلى التأثير الذى مارسته الهضبة المكسيكية حوالى القرن الحادى عشر على شمالى يوكاتان. وبما أن تولا-هيدالغو كانت الوحيدة التى تمتلك آنذاك العناصر البينة التى تميز المرحلة المكسيكية فى تشيتشين، فقد سارعوا إلى إقرار تفصيل من التاريخ، مستندين إلى ما اعتُقد أنه قاعدة مادية راسخة. وهكذا، خلال اجتماع عُقد فى عام ١٩٤١، وضم علماء آثار أساسًا، عادت عاصمة التولتيكيين لتسقط رسميًا فى العصور الهمجية، التى خرجت منها لوقت قصير. وكان إنريكى خوان بالاثيوس هو الوحيد آنذاك الذى امتلك رؤية للبلبلة التى سيحدثها القرار الجديد، ولكن حججه بدت ضربًا من الحدس، ولم يكن لها أى وزن فى مواجهة ما كان يبدو آنذاك حقيقة أركيولوجية واضحة. وبعد أن أشهروا جميعهم، بعاطفة حماسية، النصوص نفسها للدفاع عن طروحات متناقضة، انتهى الأمر بحصول التشابه بين آثار المنطقتين على التأييد.

ولكن، إذا كان جهل الواقع السابق للأزتيك قد سهّل فى القرن الخامس عشر إخفاء الواقع التاريخى لمدينة مغرقة فى القدم، فإنه لا يمكن حدوث الأمر نفسه بعد الانجازات الكبيرة التى حققهـا باتريس Batres ومانويل جاميو فى تيوتيهـواكان.

وقد سبب هذا السقوط فى الأطر القديمة بلبلة عميقة بين الاركيولوجيين الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى إغماض عيونهم أكثر فأكثر حتى لا يدخلوا فى خلافات مزعجة: فهناك عدم تماسك لدى المؤرخين (كيف يمكن الموافقة اليوم على إغفال تيوتيهواكان وكولهواكان بالسذاجة نفسها التى فعل بها ذلك كتبة الوقائع؟)، وهناك تكرار بعضهم فى جانب وبعضهم فى جانب آخر لتراتيل بأسماء الجماعات الاثنية، وكأنهم يأملون بهذه الطريقة التعزيم على التناقضات، وتجزئة الثقافة واخفاء معناها.

وبالرغم من هذه العوائق، فإن محصلة سبع وعشرين سنة من الاركيولوجيا التى انقضت منذ قرار ذلك الاجتماع هى محصلة إيجابية. فعشر مواسم تنقيب فى تولا - هيدالغو كشفت بصورة نهائية وحاسمة عن الموقع الدقيق الذى احتلته هذه المدينة فى التسلسل التاريخى؛ فجذورها فى الحياة الدينية والاجتماعية والفنية لتيوتيهوالكان، تبين أن أعمالها تمثل المرحلة الانتقالية المسماة تحديداً تولتيكا - تشيتشيميكا. وكالعادة، فإن الخزف هو الذى يشير إلى عصر انشغال المكان، ذلك أن البقايا التى تضمها الأبنية تنتمى كلها إلى طراز تينتشوتيتلان الازتيكي. وإذا كان قد ساد فى البدء الاعتقاد برؤية مميزات الخزف التولتيكى فى بعض الأوانى السميكة، المطلية بالأحمر، فإنه سرعان ما توجب الاعتراف بأنها تنتمى إلى مرحلة سابقة للمدينة، ذلك أنها لا تظهر إلا تحت أرضيات ملاط الأبنية. وهذا الجمع للأوابد والبقايا الأثرية الأزتيكية يجعل من تولا-هيدالغو العاصمة الأولى لبناة تينوتشتيتلان، مثلما يُفهم دوماً من كتابات الوقائع التاريخية، ومثلما أشار إلى ذلك ماتويل غاميو وأوتون دى ميندياابال. وبعد أن تخلصت تولا - هيدالغو من دور الخالقة لثقافة وُجدت قبلها بألف سنة، اكتسبت قيمة لا تقدر فى فهم المرحلة ما بعد الكلاسيكية، والتى مازالت غامضة على الرغم من الكتابات التى تتناولها.

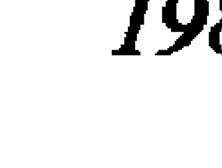
أما بالنسبة إلى تيوتيهواكان، فإنها تُكشف كتعبير أشد نقاء لذلك الفكر الناهوا الذى ظن الأوربيون بأنه قد محى إلى الأبد. فهى مقولبة بالكامل، مثلما هو حال سليلتها تينوتشيتيتلان، حسب رسالة كيتزالكواتل، الذى تشيد به وتمجده بلغة وأشكال وألوان متطابقة، فالقرابة شديدة الوضوح إلى حد أن مدينة الآلهة بعد الحفريات التى كرسها لها المعهد الوطنى المكسيكى للانثروبولوجيا، ظهرت كانعكاس حى لعاصمة الأزتيك البطولية تينوتشتيتلان التى لم تستسلم للإسبان إلا بعد دمارها الكامل.

٣ - أسطورة وتاريخ :

العامل الأساسى فى التشوش الذى سمح بإقرار أكثر الأخطاء شؤمًا ووبالاً هو تداخل الأسطورة فى الروايات التى تتحدث عن شخصيات اجتماعية، من دونها يفتقر عالم ناهواتيل إلى قاعدة الواقعية. وقصة ملك تولا هى المثال الأكثر وضوحًا. فحياة الصناع العظماء، الذين تقول كل جماعات الهضبة المكسيكية إنها تنحدر منهم، تنتظم بالفعل حول بطل ثقافى ذى طبيعة غامضة.

إنه بادئ ذى بدء ملك ذو نقاء مطلق، يدفعه مستشارون سيئون إلى السكر حتى الثمالة؛ فيهجر مملكته وينتهى به الأمر إلى التضحية بنفسه فى محرقة. فيصعد قلبه، المتحرر بفضل اللهب، إلى السماء ويتحول إلى كوكب الزهرة. وتشكل مغامرات كيتزالكواتل أضخم جزء فى الكتب المرسومة وفى الحوليات ما قبل الكولومبية. وهى تحتل كل ذلك الأفق بلغة شديدة الكثافة الشعرية، ونشيدها الذى يبدو كما لو أنه رجع القمم العالية، يتدحرج من قرن إلى قرن حتى يتثبت فى الكتابات الاستعمارية التى تشكل صدى لجلاله الأسطورى. هذه الروايات تُبرز ألق الأعمال التى أضاءت ملكه وحكمة أتباعه التولتيكانيين؛ ومراحل هجرةٍ قادتهم إلى بلاد الشمس؛ وموته الطوعى فى النار وصعود قلبه بحراسة نظرات طيور متعددة الألوان.

إن عدم محاولة انتزاع خيط من الحقيقة من هذه الملحمة هو رفض للتعرف على مؤسسى المكسيك القديمة، الذين كان كيتزالكواتل بينهم هو الملك على الدوام. ولهذا يسعى بعض المتخصصين جاهدين للتوصل إلى تكوين لوحة متماسكة بالاقتصار على أكثر الملامح واقعية، ذلك أن دقة التفاصيل المتعلقة بملك تولا تمنح هذه المملكة مظهرًا واقعيا لا يمكن إنكاره: فهناك وصف دقيق للمدينة وساكنيها، وعرض مفصل للاصلاحات والتجديدات التى أدخلها العاهل. ولدى اهتمام الباحثين بتلك المعطيات، وخصوصا عندما تشكل الأرضية الراسخة الوحيدة للكتابات القديمة، لا يعودون يهتمون إلا بتعزيز تماسكها، ويكتسب كيتزالكواتل، فى هذا التلهف إلى اليقين، شخصيتين مختلفتين من دون علاقة ديناميكية فيما بينهما. فهو، من جهة، ملك قوى يخوض صراعًا مع عواطفه وأهوائه، ويطرده خصم له فى نهاية المطاف؛ وهو، من جهة



أخرى، إله خالق، وبطل أحداث أسطورية لا يحكمها أى منطق. وبعد تخلص الباحثين من الشخصية الثانية، وحصرها فى لاواقعية أسطورية، كرسوا الملك، باعتباره الوحيد الجدير بالبحث العلمي.

يبدو أن التوصل إلى إقراره فى المكان والزمان هو، قبل كل شيء، هدف الدراسات ما قبل الهيسبانية. ولكن سرعان ما ينتبه أحدنا إلى أن هذا الطريق السهل لا يؤدى إلى أى فهم لشخصية كيتزالكواتيل؛ فنزوله إلى عوالم الجحيم وتحوّله هى أمور كاشفة لشخصيته، على الأقل، كما لنشاطه الاجتماعى. ولا يمكن النظر إلى كل واحدة من الشخصيتين على حدة، دون حرمانهما من معناهما، ذلك أن المظهر الأسطورى لكيتزالكواتل يتكشف مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالوجود الانسانى لملك تولا، مثلما يرتبط هذا بشخصيته الألوهية الخالقة.

وإذا ما بُتر أحد مظهرى الشخصية، فلن يُصلح ذلك شيئًا أيضًا، فالملك الذى يهجر رعيته لأنه أُغرم كثيراً بالشراب لا يمكن تصوره على أنه الإنسان - الكوكب. والمحاولات التى جرت لإقراره فى الزمان والمكان كانت على الدوام غير فعالة : فكيتزالكواتل يقفز فى الحوليات من عصر إلى آخر، ومن مدينة إلى مدينة، بطلاقة كاملة ، وتهيمن صورته العملاقة على المشهد عمليًا طوال مئات السنين دون انقطاع؛ ويسمح الكتّاب لأنفسهم بالإشارة إلى حضوره فى تواريخ شديدة التباعد فيما بينها. فيضعه بيرناردينو دى ساهاغون وأنطون مونيون دى تشيمالباين فى بداية أزمنتنا [أى بداية التقويم الميلادى] ؛ ويصل الأمر بكتبة وقائع آخرين إلى إظهاره فى سياق القرون الحربية بعد سقوط المرحلة الكلاسيكية، التى يرتبط بها مع ذلك بصورة لا تنفصم.

ولكى تتمسك به حضارةٌ على الدوام كخالق لها، لا بد أن تكون هناك أسباب أكثر قوة من تلك التى تنشأ عن مجرد مُلك شخصى، فإذا ما أُرجعت إلى كيتزالكواتل عظمته الأسطورية، تقدم النصوص حلّ الأحجية فوراً؛ ولكن هذه الإضاءة تسبب البلبلة فى البدء، ذلك أن الصناع العظماء يتميزون دومًا بتوقيرهم لإله وحيد يدعى كيتزالكواتل ، وحيث إن الملك لم يتحول إلى جرم سماوى إلا بعد هجره ملكه واختفائه جسديًا ، فإن عبادته، باعتباره سيد الفجر، لا يمكن أن تكون معاصرة لنشاطه الدنيوى

فـي العالم. ثم إذا كان من غير الممكن إدراك حضوره إلا من خـلال سمـاته الإلهية، فـإن أى مـحـاولة لمعرفـة مـوطن خـالق ثقافـة ناهـواتل مـحكومـة بـالفشـل، ذلك أن المدن المذكورة فـى رسـالته لا يمكن لها إلا أن تكون تالية لوجوده كإنسان من لحم وعظم. ومحاولة اكتشاف مناطق سيادته من خـلال رموز عبادةٍ لم يكن ممكنًا لها أن تظهر إلا بعد موته يعادل اقتفاء أثر خطوات يسـوع، الواعظ، من خـلال النصب التـى أقيمت له بعد الصلب، ولهذا فإن الغياب المؤكد لهذه العبادة هو وحده الذى يمكنه أن يدل على المكان المحتمل لعاصمة ملك التولتيكيين. ولكن، كيف يمكننا أن نحدد المكان إذن، دون أن نقترف تاويلاً خاطئًا، خصوصًا وأن القرون التالية تذكر الصناع العظماء من خلال ارتباطهم المتحمس بالرجل الذى تحول إلى نور؟

تشدد الحوليات على أن الملك الذى تُنسب إليه أمجاد الخلق التولتيكية، والذى ذهب إلى بلاد الشمس، كان كاهناً للإله كيتزالكواتل. هذا يعنى، مهما أشير إلى بُعد مملكته، أن العاهل يتداخل دومًا، فـى الحوليات، مع سلف إلهى، ذلك أن تجليه بأصل بشرى هو الملمح المميز لهذا الإله. ويُستنتج من ذلك أنه بتحليل العناصر المكونة لنشوء الكون فقط سيكون بالإمكان توضيح طبيعة ما هو دنيوى وما هو دينى، المختلطتين فـى الوثائق.

٤ - نشوء الكون

يتميز نشوء الكون لدى الناهواتيل، قبل كل شيء، فـي أنه بدل أن يروى قصة خلق وحيدة، يتضمن عدة قصص للخلق؛ وبأن قصص الخلق المتتالية هذه لا تشير كذلك إلى ترتيب عوالم مادية، وإنما إلى مراحل زمنية تدعى "عصورًا" أو "شموسًا" وتسمى كل واحدة منها باسم عنصر تهزم سلطتَه فجأة سلطةٌ أخرى تحتل مكانه. وهكذا، فقد تلا الشمس الرابعة نمر (والنمر يرمز إلى الأرض) الشمس الرابعة ريح، وبعدها الشمس الرابعة مطر النار، التى استبدلت بدورها بـ الشمس الرابعة ماء.

إنه إذن نظام لتفسير الطبيعة يستند إلى التعايش الديناميكى لعناصر مختلفة، ولكن هذا التفسير، وبدلاً من أن يشكل غاية القصة، يقوم بدور ستارة خلفية لأحداث

أخرى تالية. وهو عمليًا، الدراما التى تمثلها الأسطورة الخاصة بصيرورة الإنسان: فالكوارث الطبيعية المختلفة تؤدى دومًا إلى تبدل فى طبيعته.

فمع أن البشرية قد دُمرت مع عصر الشمس الرابعة نمر، إلا أنها تعود للظهور فى العصر التالى لتعانى كارثة جديدة: ففى نهاية عصر الرابعة نمر تحول البشر إلى قرود، وعرف عصر الشمس الرابعة مطر النار مجدداً إنسانية سليمة وكاملة، تميزت نهايتها بتحول البشر إلى طيور. وأخيراً، عند دمار عصر الرابعة ماء، كان العالم مسكونًا بالأسماك، يبدو أن الإنسان المرتبط بالطبيعة فى كل عصر، محكوم بالعنصر الذى يتحكم به. ومع ذلك، فواقع أن الشموس (العصور) التى ينتمى إليها ليست قابلة للحياة، يبدو أنه يشير إلى إدانة للأشكال التى يتحول إليها البشر وميل تجريبى للأسطورة. فكل واحدة من المراحل تنتهى بإخفاق العنصر الذى يكون بمثابة قاعدة لها، ويُستنتج من ذلك أن الأرض، والريح، والنار، والماء تعتبر غير قادرة على إحداث تجسيد الشكل البشرى المُرضى دون مساعدة عنصر خامس. وبما أنه جرى استبعاد كل المكونات الطبيعية على التوالى، فإن العنصر الوحيد الذى يفرض نفسه كعامل خلاق هو الزمن؛ فحركة الزمن هى الوحيدة القادرة على انتزاع المادة من عطالتها ودمجها فى حياة الأشكال المجسدة. وبالفعل، فإن ما تشير إليه المثولوجيا كما يبدو، هو توليد مراحل زمنية، دراما تشكّل الإنسان بجهوده ليرتقى بنفسه متجاوزاً التفتت مثل الأشياء الحساسة والهشة. وسنرى إذا ما كان توالى التاريخ يؤكد هذه الفرضية أم لا.

فى أوخر الشمس الرابعة ماء كان الوضع يائسًا : فالسماء والأرض كانتا محكومتين بالشلل؛ وكانت البشرية قد اختفت تمامًا، ولم يكن يثير قلق الآلهة فى تلك اللحظة المؤثرة سوى غياب الإنسان: "تشاور الآلهة وقالوا: "من سيسكن الأرض، فقد ركدت السماء، وتوقف سيد الأرض، من سيعمر الأرض أيها الرب"[٢٧].

هذا الاعتراف بعجز الآلهة عن اقرار النظام الكونى يفرض عليهم خلق بشرية، ويتوجب عليهم أن يحاولوا انتزاعها من ملكوت الموت. وكيتزالكوتل هو المختار من الآلهة لإنجاز المهمة الخطيرة فى عالم الغيب، وبعد معركة عاتية مع سيد الموت، يسرق كيتزالكواتل بعض العظام، ويحييها بدمه بالذات.

ويشعر الآلهة بأن عليهم الاختيار من بين المخلوقات حديثة الظهور، واصطفاء من سيحرر الخلق من التهـــديد الأبدى بالفنـــاء : "فاستدعوا ناناهـــواتل وقالوا له : "أنت ستحرس الآن السماء والأرض""(٢٨).

وعلى عكس كل ما يمكن توقعه، لم يرق هذا الامتياز لناناهواتل : "لقد حزن كثيراً وقال:"ما هذا الذى يقوله الآلهة؟ أنا لستُ إلا مريضاً بائساً"." ولكن الآلهة كانوا على صواب. فبعد تدريب مؤلم، تحول الكائن المشوه والصديدى الذى كانه ناناهواتل بالفعل، إلى شمس خامسة مشرقة: "اسم هذه الشمس هو ناولين naollin (الحركة الرابعة). وهذه هى شمسنا، شمس من نعيش اليوم. وهذه هى علامتها، التى هى هنا، لأن الشمس سقطت فى النار، فى موقد تيوتيهواكان المقدس"(٢٨).

تلك الطاقة المضيئة التى يمكن لإنسان أن يُخرجها من داخله لا يمكن لها أن تشير إلا إلى الكشف المباغت عن الروح كلى القدرة. وتُصبح الفرضية مقبولة أكثر عندما نرى ناناهواتل، قبل توصله إلى ذلك، منهمكاً فى مراكمة تلك القوة فى داخله وذلك بتحطيمه فرديته من خلال تمارين قاسية، وتشدد الأسطورة على الشجاعة التى تتطلبها هذه العملية، بمواجهة قوى نانا هواتل مع قوى مرشح آخر، شديد السطحية، لا يتمكن من التحول إلا إلى قمر : فهذا الأخير متعلق جداً بالمظاهر الخادعة، ويبدل نفسه إلى أشياء نفيسة، ويبقى على حافة الموقد ليتجنب توهج النار الأخيرة.

من الواضح أن الشموس السابقة البائدة توضح لحظات المسيرة؛ وينتهى تواليها إلى توليد ذلك البريق المُستبعد، ولكن ما هى القوى المتواجدة وما هى قيمة التوليفات التى تؤشر إلى التقدم المستمر دون كلل؟

بما أن الانتصار الأخير يُدخل الكون فى عصر الحركة، فإنه لا يمكن للعنصر الذى دمر العصور السابقة إلا أن يكون العطالة. وحرية العمل التى يمتلكها ناناهواتل، نظراً لواقعه الخفى، تبدو وكأنها صورة للطبيعة التى تحركت أخيراً، وبالتالى لا تنتمى إلا إلى الروح. وهكذا فإن مختلف حالات الخلق الكونية تكون الظهور البطىء للمادة بالرغم من عطالتها الأصلية: نجاتها من العدم.

وتكشف معالجة هذا الموضوع عن غنى أكبر. فليست المادة وحدها هى المهدَدة، وإنما جوهرها نفسه كذلك. لقد رأينا أن السماء فى نهاية العصر الرابع تعانى من الجمود نفسه الذى أصاب الأرض. وهذه الظاهرة، بعيداً عن ان تكون معزولة، تتكرر عندما تظهر الشمس الخامسة، وذلك فى تبعية الآلهة للإنسان. "وبعد أن ألقى كلاهما بنفسه إلى النار، وبعد أن احترقا، جلس الآلهة ينتظرون من أى جهة سيخرج ناناواتزين. وبعد انتظار طويل، بدأت السماء تتلون وظهر فى كل الأنحاء ضوء الفجر. ويقال إن الآلهة جثوا راكعين عندئذ لينظروا من أين سيخرج ناناواتزين متحولاً إليشمس: نظروا إلى كل الجهات متلفتين وهم يدورون، ولكنهم لم يصيبوا فى التفكير أو القول من أى جهة سيخرج؛ ولم يحسموا أمرهم فى شىء؛ بعضهم فكر بأنه سيخرج من جهة الشمال ووقفوا ينظرون إلى تلك الجهة؛ وآخرون نظروا نحو كبد السماء؛ لقد تشككوا بخروجه من كل الجهات، لأن بريق الفجر كان منتشراً فى كل الجهات؛ وآخرون نظروا إلى الشرق، وقالوا من هنا، من هذه الجهة ستخرج الشمس... وعندما خرجت الشمس بدت شديدة التلون، وبدأت تختال متهادية من جهة إلى أخرى؛ ولم يستطع أحد النظر إليها، لأنها تخطف بصر العيون؛ كانت تومض وترسل أشعة عظيمة؛ وكانت أشعتها تنسكب فى كل الأنحاء..."[٢٩].

سلبية الآلهة الغريبة، وتبعيتها لقرار الإنسان، تتحقق من جديد عندما توقفت الشمس الخامسة فجأة فى وسط السماء؛ ولو لم يتم اقناعها بأن تتحرك من جديد، لضاع كل العمل وذهب أدراج الرياح. وكما فى الحالات السابقة، بدأ الآلهة يتحسرون: "كيف سنتمكن من العيش؟ ألن تتحرك الشمس ؟ هل سنعيش بين الوضعاء؟..." ثم يطلبون الحل من الإنسان المتحول. ويكون رد النجم الجديد رهيباً : لكى يتمكن من التحرك لا بد للآلهة من أن يموتوا. "... وعلى الفور تم فناء الآلهة، آه،آه، فناء الآلهة فى تيوتيهواكان"[٣٠].

ليست تيوتيهواكان هى المكان الذى يتحول فيه البشر إلى آلهة وحسب، وإنما هى كذلك المكان الذى يتحول فيه الآلهة إلى فانين. إنها مهد واقع يتطلب ميلاده دماراً مزدوجاً، فإذا كان فناء ناناهواتزين الإرادى مفهوماً وقابلاً للتفسير، فإن الأمر نقيض ذلك فى موت الآلهة. ذلك أنه إذا كان من السهل فهم أن المحدوديات الفردية تحول دون

تحرر النور الداخلي وانطلاقه، فإنه لا يمكن فهم ما يجعل من الصعب على الآلهة القيام بعملية يتوجب أن يكونوا هم أنفسهم عواملها الحاسمة. وبرأينا، هذه الرؤية الفريدة للألوهية تمنح الفلسفة والثقافة الناهواتيتين أصلهما، ولهذا سنحاول التعمق في مغزاها.

٥ - مفهوم الألوهية :

الإنسان الذى ينقذ السماء والأرض من السكون يتميز بخاصتين أساسيتين : إنه كائن ناج من مملكة الموت ويمتلك القدرة على التحول إلى جرم سماوى. ويتبدى قدره فى صعود غير منقطع من أعماق أصله المظلمة حتى الذرى المضيئة التى يتطلع إليها. والجدير بالذكر أن هذا النزوع إلى عالم الغيب، بعيداً عن كونه محدوداً بالتشكل الفردى، يعتبر الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الخليقة كلها، بما فيها الألوهية. ما الذى يمكن أن تعنيه القيود المفروضة على سلطة الآلهة فى آليه الافتداء الكونى هذه؟ ولماذا يتقبل هؤلاء عن طيب خاطر تفوق الإنسان عليهم؟ وأين يكمن ضعف حالتهم التى يتوجب، فى التعريف، أن تسود على الآخرين؟ ربما أمكن لتحليل أعمق للشمس الخامسة أن يلقى بعض الضوء على هذا الخروج عن القياس.

التفرد الأساسى فى الكوكب الجديد يكمن فى الواقع فى أنه ولد من مخلوق بشرى اجترأ على المغامرة فى التوغل حتى المهاوى الأرضية : وبالفعل، ناناهواتزين - تشولوتل ليس إلا بديل كيتزالكواتل فى اللحظة الدرامية "لهبوطه إلى ممالك الجحيم". وهكذا نرى أن القدرة على خرق المادة هى قدرة من خصائص الشمس الخامسة؛ وحين تقوده هذه القدرة إلى أصل الظواهر، يكتشف أن تضاعف العالم ليس إلا الوجه الآخر لوحدة غير مرئية.

وبالنظر من جهة أخرى إلى الحافز الذى يحوله إلى طاقة ديناميكية فى مواجهة مع الموت، تبدو الاسطورة إشارة إلى انتصار على حاجة أشد حتمية.

رأينا الجزء الفعال الذى قام به الآلهة فى التنبؤ بعصر الحركة، باعتبار أنهم هم الذين أجبروا الإنسان على تسنم قدر الفادى الشاق، وبما أن أولئك الآلهة يختفون بعد

ذلك التشكل، يُستنتج أنه فى الوقت الذى يكتشف فيه الإنسان أبعاد كونه الحقيقى، تحركه إرادة اجتياز المسافة التى تفصله عن النور، ليكون بالتالى، الوسيط بين قوتين متناحرتين ستبقيان من دونه متضادتين إلى الأبد. ولأنه مضطر إلى ملء ذلك المكان فى زمان وجوده، فإن وظيفته تتلخص فى إدخال حركة اللحظة التى هى حياته، ليس فى عطالة المادة وحدها، وإنما فى سكون تجريدى. وسيكون القدر الإنسانى مُدْرَكًا إذن كعامل توازن ما بين قوتين إذا ما تُركتا لحالهما ستكونان مشلولتين أيضاً : قوة المادة الخام من جهة؛ وقوة إدراك بالغة النقاء من جهة أخرى، أما اندماجهما بالمقابل، فسيُنتج مادة مفكرِة، وهى الطريقة الوحيدة التى يمكن للحياة من خلالها أن تكون ممكنة. وهذا يعنى أن الصراع المتبدى فى توالى الشموس المنطفئة ليس صراعاً فى اتجاه وحيد- اتجاه الروح لإنقاذ المادة - وإنما هو الجهد المركب من قوتين تجنحان إلى الهدف نفسه، وتختفيان عندما يتم التوصل إلى هذا الهدف، فتجاوز الموت من جهة، والألوهية من جهة أخرى، هما تأكيد لانتصار كل حالة منهما بتحقق تجسدهما كليهما فى صورة جديدة.

بهذه الطريقة لا يعود امتثال الآلهة مبهمًا : فهم يتقبلون الموت - وفى بعض الروايات يقترحون هم أنفسهم التضحية بأنفسهم - لأن عملهم قد أُنجز. والواقع أنّ الأسطورة تروى موتهم بعد حدوثه، لأن مشيئة الشمس الخامسة تفترض انصهار الآلهة فى واقع جديد منبثق من فنائهم، وتسلط قصة السيد كيتزالكواتل ضوءاً كثيفًا على الدور الذى يؤديه ممثلو هذه الدراما. تبدأ بكاهن، عاهل مملكة عجيبة، معتكف إلى الأبد فى عزلة ورعة : "عندما كان يعيش، لم يكن يظهر علنًا : كان فى حجرة مظلمة جداً ومحروسة؛ يحرسه غلمانه فى أماكن كثيرة، يغلقونها؛ وكانت حجرته هى الأخيرة..."[٣١] وفى أحد الأيام ظهر مبعوثون غرباء، وقد تمكن هؤلاء، بعد عدة محاولات، من الدخول إلى حيث الملك، بنية إقناعه بأن يهجر شعبه. والخدعة التى استخدموها ذات مغزى : فهم سيعرضون عليه جسده، ولهذا توغلوا فى الظلام حيث يختبئ، متمترسين وراء مرآة. "الأول كان تيزكاتليبوكا؛ وقد أخذ مرآة مزدوجة ولفها؛ وعندما وصل إلى حيث كيتزالكواتل، قال لغلمانه الذين يحرسونه: "اذهبوا وقولوا للكاهن: لقد جاء فتى ليريك نفسك أيها السيد، وليريك جسدك." دخل الغلمان ليخبروا

كيتزالكواتل الذى قال لهم: "ما هذا أيها الجد والخادم؟ ما الذى يعنيه بجسدي؟ انظر ما الذى يحمله معه وليدخل بعد ذلك." ولكنه لم يسمح لهم برؤية ما يحمله وقال لهم: "اذهبوا وقولوا للسيد إننى سأريه إياه بنفسى." فذهبوا ليقولوا له: "لم يوافق؛ إنه يصرّ على أن يريك إياه بنفسه أيها السيد." فقال كيتزالكواتل: "فليأت أيها الجد." ذهبوا لاستدعاء تيزكاتليبوكا؛ فدخل، ثم حياه وقال له: "بني، أيها الكاهن سى آكاتل **Ce Acatl** كيتزالكواتل، إننى أحيك وقد جئتُ أيها السيد لأريك جسدك." وقال كيتزالكواتل: "أهلاً بك أيها الجد. من أين جئت؟ وما هذا الذى تقوله عن جسدى؟ أخبرنى." فرد ذاك: "بنى الكاهن، أنا خـادمك؛ جئتُ من سفح نونوهـوالكاتيبتل ؛ انظر جسـدك أيها السيد." ثم أعطاه المرآة وقال: "انظر إليّ وتعرف على نفسك يا بني؛ فسوف تظهر فى المرآة." وفى الحال رأى كيتزالكواتل نفسه؛ فارتعب كثيراً وقال: "إذا ما رآنى أتباعى، فربما هربوا راكضين". كان مشوهًا بتورمات جفونه الكثيرة، ومحجرى عينيه الغائرين وكل شىء متورم فى وجهه. وبعد أن رأى المرآة، قال: "لن أرى مطلقا رعيتى بعد الآن، لأننى هنا سأكون""(٣٢).

الهلع الذى أوحى به الظهور المفاجئ للوجه المجهول لا يمكن أن يعنى شيئًا آخر سوى ملامسة الروح للمادة، إنها لحظة انتقاله إلى حالة التباس لا تُطاق. والمفاجئ فى الطريقة التى عُولج بها هذا الموضوع القديم هو أن اللقاء، بغض النظر عما ترتب عليه من سقوط أو انحطاط، هو الشرط البيّن للخلاص: منه ينبثق المخلوق الذى سيحرر الكون من الظلمات، ومما له مغزى أن ذلك الكاهن الجامد والساكن كان تائهاً تماماً فى الظلام مثلما هو سيد الموت.

يبدو أن تصور هذا الاتحاد الخلاق قد حدث مع انتهاء الحركة المزدوجة للشهوات المتلاقية: كرد من الجوهر (الروح) على نداء الشىء (المادة)؛ وكرد من الواحد على المتعدِّد، ويظهر الكاهن فى رواية ساهاغون للأسطورة منتظراً: "وهكذا ذهبوا ليخبروا المدعو كيتزالكواتل كيف أن عجوزاً قد جاء ليكلمه قائلين : "أيها السيد، لقد جاء شيخ ويريد أن يكلمكم ويراكم، وقد طردناه خارجًا ليذهب فلم يرض، وقال إنه يجب أن يراكم بالقوة." وقال المدعو كيتزالكواتل: "فليدخل هنا وليأت فأنا أنتظره منذ أيام طويلة."" (٣٣).

وتعـزز الرمـوز الأسطورة حين تُظهـر توق المادة إلى الانطلاق من خـلال حـيوان زاحف يرتفع عـاليـا بقـواه وقـوى الروح بواسطة الطائر السـمـاوى الذى يرتمى نحـو الأرض بجـرأة، ذلك أن طائر الكيـتـزال، الذى يمثله، مكوّن بطريقـة تجـعل مـثل ذلك السقوط يعنى بالنسبة إليه خطر الموت.

ما أن يتم خلق الكيتزال-كواتل، الثمل بالنبيذ الذى يقدمه إليه زائروه، حتى يقع ضـحية الشـهوة الجسدية : "وقال كيتزالكواتل المنتشي: اذهبوا وأحضروا لى أختى الكبرى كيتزالبيتلاتل؛ ولنسكر كلانا معاً." ذهب غلمانه إلى نونوهوالكاتيبك، حيث كانت تعتكف للتكفير والتوبة وقالوا لها : "أيتها السيدة، يا بنيتى كيتزالبيتلاتل الصائمة، لقد جئنا لنأخذك. فالكاهن كيتزالكواتل ينتظرك. وستكونين معه." فقالت هى : "لتكن ساعة محمودة. هيا بنا أيها الجد والخادم"(٢٤).

وبعد ليلة حب مع الجميلة كيتزالبيتلاتل، قرر كيتزالكواتل هجر مملكته مثلما يرغب مغووه. ويشـار فـى الرواية الأسطورية إلى وخز الضـمـير الذى يوقظه فـيه هذا التطور للدراما الإنسانية: "عندما استيقظ، حـــزن كثيراً، ولان قلبه. ثم قـــال كيتزالكواتل : "يا لحظى العاثر". وغنى الأغنية الآسية التى نظمها ليغادر من هناك: "حساب خبيث ليوم خـارج بيتى. أثار شـفـقة الغائبين، وبلغته رغم المصـاعب والمخاطر. فليـغن من له جـسـد من تراب فـقـط: أنا لم أترعـرع فـى كـروب العـمل العـبـودى... " ثم انصـرف كيتزالكواتل على الفور. نهض واقفً استدعى كل غلمانه وبكى معهم. ثم ذهبوا إلى تليـلان تلابالان Tlillan Tlapallan ، أى موقع المحرقة. وراح يتـأمل ويتـفحص فـى كل الأنحاء؛ ولم يرقه أى مكان. وحين وعد ، إلى حيث هو ذاهب، داهمه الحزن هناك مرة أخـرى وبكى. يقـال إنه فـى تلك السنة (الأولى أكـاتيل)، ولدى الوصـول إلى الضـفـة السمـاوية للماء الإلهى:.. توقف، بكى، اخذ زينته، ووشّى رايته التى من الريش وقناعه الأخضر... وبعد أن تزين، أشعلَ ناراً وأحرق نفسه... وعندما انتهى رماده، رأوا للحال صعود قلب كيتزالكواتل. وقد ذهب، حسب ما يعلمون، إلى السماء ودخل فـى السماء. ويقول المسنون إنه تحول إلى النجم الذى يطلع فـى الفجر؛ وهو النجم الذى ظهر، كما يقولون، عندما مات كيتزالكواتل، ولهذا السبب أسموه **سيد الفجر**... ويقولون إنه عندما مات، اختفى ولم يظهر أربعة أيام فقط، لأنه ذهب حينئذ ليقيم بين الأموات؛ وأنه تزود

خلال أربعة أيام أخرى بالسهام؛ ولهذا ظهر بعد ثمانية أيام النجم العظيم الذى يسمونه كيتزالكواتل، ويضيفون أنه تتوج عندئذ سيداً"(٣٤).

إن تحول هذا العاهل إلى كوكب هو سابق منطقياً لظهور الشمس الخامسة، لأن كيتزالكواتل تدخَّل فى ميلاد هذه الشمس كإله: فنزوله القصير إلى باطن الأرض هو إشارة لزيارة مملكة الموتى، وتيوتيهواكان هو المكان الذى تجرى فيه المغامرتان، مغامرة الشمس الخامسة (التى تحدد النصوص موقعها فى أعلى هرم المدينة) تمثل نهاية كل بحث، وافتتاح العصر "الذى هو عصرنا". ومن هنا يُستنتج، فى الوقت نفسه بأن مدينة الآلهة (وهذه ترجمة اسمها)، تيوتيهواكان، يجب أن تكون تولان الأصلية التى تحول عاهلها إلى **سيد الفجر** حين ألقى بنفسه فى نار موقد مقام ليس فى قمة الهرم، وإنما فى وسطٍ ما يزال طبيعياً.

وقد اعتُقد لدى سماع تأوهات الكاهن المقدس، بأن الروح هى الوحيدة التى تعانى نتائج مغامرته. والواقع "أن جسده الذى فى الأرض" لا ينجو من أى محنة من تلك التى يسببها امتلاك ذلك الوعى، وسلوك المادة مشابه فى كل نقاطه لسلوك الروح المشارك. وهناك قبل كل شىء تعطشه الأولى إلى المعرفة، وحدسه بوجود واقع غير محتمل. فإذا كان الكاهن كيتزالكواتل يجهل إذن ما هو الجسد، فإن الحيوان الزاحف- رمز المادة - لا يقل عنه عجزاً فى تصور ما سيكتشفه فى نهاية مسعاه، فكلاهما على السواء تحركه رغبة لا تُقاوم، ولكنه أعمى فيما يتعلق بالهدف. وإذا كان لوظيفة البداية العليا أن تبدو أكبر وزناً، فمن الجيد التأكيد بأن المبادرة فى اللقاء مأخوذة من أسفل؛ ذلك أن عمل من فى الأعلى محكوم بالنداء الذى يأتى من الأرض.

وبالفعل، فالمغوى الأساسى هو تيزكاتليبوكا، **سيد المرآة المدخنة**، وهو شخصية تظهر كنقيض للملك المنذور للتوبة، وهو شفيع العبيد ومالكيهم فى الوقت نفسه، والمحرض على الحروب والشقاقات، ومتلقى الاعترافات بالخطايا الجنسية التى يشجعها ويحض عليها، إنه متناقض، متبدل، متعدد. يرمز إلى **شمس الأرض**، النجم الذى تبتلعه الظلمات. ونظراً لهذه الخصائص ولشعاره، يظهر سيد المرآة المدخنة والضبابية على أنه صورة للمادية، وإنه لأمر ذى مغزى أن يكون توالى المراحل الكونية، التى تكتشف الخليقة من خلالها الوعى، هو محصلة الصراع الذى يدور بين جوهرين متضادين.

لقد رأينا أنه ما إن انكشف العالم للك تولا فى المرآة حتى انجذب إلى امرأة. وهو ما يمثل فى رموز ناهواتيل، إلى جانب الحيوان الزاحف وعلامات الموت، الطبيعة البيولوجية، أى المادة. وحيث أن المرأة التى تتحد بكيتزالكوتل هى تائبة تقوم بالتكفير والتنسك أيضًا؛ فإن ذلك يعنى أن المادة التى اتحدت مع الملك قد هزمت كذلك العطالة.

إن دراسة للريات يثبت تفوق الطبيعة فى هذه المأثرة البطولية، وربما كان فى أسطورة هويتزيلوبوتشتلى، حيث الكرب الذى تعانيه بسبب اختيارها، والتصاقها بمبدأ يقودها إلى تجاوز حدودها، يكتسب أشد الأصداء تأثيراً. ولأهميتها الرمزية الاستثنائية، سنورد نص أسطورة "ميلاد هويتزيلولوتشتلى" كاملاً: "حسب ما قاله وما عرفه الوطنيون المحليون المسنون، عن مولد وبداية الشيطان المسمى هويتزيلوبوتشتلى، والذى يوقره المكسيكيون ويطيعونه كثيراً، أنه: هناك جبل يسمى كواتيبك إلى جوار بلدة تولا، وهناك كانت تعيش امرأة تدعى كواتليكوى Coatlicue، هى أمٌ لبعض الهنود الذين يُدعون سينتزونهويتزناهوا Centzonhuitznahua، وكانت لهم أخت تدعى كويولكساوهكوى Coyolxauhqui؛ وكانت كواتليكوى المذكورة تمارس التكفير بالكنس كل يوم فى جبل كواتيبك، وحدث فى أحد الأيام وهى تكنس أن نزلت عليها كرة صغيرة من الريش، مثل كُبّة خيوط غزل، فتناولتها ووضعتها فى حضنها قريبًا من بطنها، تحت ثيابها، وبعد أن أنهت الكنس أرادت أخذها فلم تجدها ويقال إنها حبلت منها؛ وبما أن هنود سنتزونهويزناهوا المذكورين رأوا الأم حبلى، فقد غضبوا جداً وقالوا: "من حبلّها، وكللنا بالخزى والعار؟" وقالت لهم الأخت التى تدعى كويولكساوهوى: "اخوتى، اقتلوا أمنا التى دنستنا بحبلها خلسة"".

"وحين أن علمت كواتليكوى بالأمر، حزنت كثيراً وخافت، فكلمها جنينها وواساها قائلاً : "لا تخافى، فأنا أعرف ما يتوجب على عمله." وبعد أن سمعت كواتليكوى هذه الكلمات، اطمأن قلبها وهدأ كربها؛ وبما أن هنود سنتزونهويزناهوا أولئك كانوا قد عقدوا وأنهوا اجتماعاً لقتل أمهم بسبب ذلك الخزى والعار الذى ألحقته بهم، وكانوا غاضبين كثيراً، ومعهم أختهم المدعوة كويولكساوهوى؛ وكانت تلح عليهم ليقتلوا أمهم كواتليكوى، تناول الهنود المذكورون الأسلحة وتسلحوا للقتال، وجدلوا شعورهم وربطوها كرجال شجعان.

وكان أحدهم، ويدعى كواويتليكاك، مثل خائن... فذهب ليخبر هويتزيلوبوتشتلى الذى كان ما يزال فى رحم أمه، وقال له ذلك؛ فرد عليه هويتزيلوبوتشتلى قائلاً: "آه، يا خالى ! انظر ما يفعلون واسمع جيداً ما يقولون، لأننى أعرف ما يجب على عمله." وبعد أن انتهى اجتماع قتل المدعوة كواتليكوى، ذهب هنود سنتزونهويتزناهوا المذكورون إلى حيث كانت أمهم كواتليكوى تتقدمهم أختهم كويولكساوهوى، وكانوا مسلحين بكل الأسلحة والصنوج والسهام؛ وصعد المدعو كواويتليكاك إلى الجبل ليخبر هويتزيلوبوتشلى بمجيء هنود سينتزونهويزناهوا ضده، لقتله؛ فرد عليه هذا الأخير: "انظر جيداً أين وصلوا." فقال له... إنهم يصلون إلى مكان يدعى تزومبانتيتلان؛ ثم سأله بعد ذلك... قائلاً: "إلى أين وصل هنود سينتزونهويزناهوا؟"، فقال له كواويتليكاك إنهم وصلوا إلى مكان آخر يسمى كواكسلا؛ ثم سأل المدعو هويتزيلوبوتشتلى مرة أخرى المدعو كواويتليكاك، أين وصلوا وردّ عليه... بأنهم وصلوا إلى مكان آخر يسمى ابيتلاك؛ ثم سأله... أين صاروا، فرد عليه قائلاً إنهم وصلوا منتصف الجبل؛ وسأله أيضًا... أين وصلوا؟ وقال له إنهم قد وصلوا وصاروا قريبين جداً، وأمامهم تمضى المدعوة كويولكساوهكوى. وما إن وصل هنود سنتزونهويتزناهوا أولئك حتى ولد المدعو هويتزيلوبوتشتلى مُحضراً معه ترساً يسمى تيوييولى teueuelli، مع سنان ورمح أزرق اللون، وكان وجهه كأنه مصبوغ وعلى رأسه قنزعة ريش ملتصقة، وساقه اليسرى نحيلة ومغطاة بالريش وفخذاه ملونان بالأزرق، وكذلك ذراعاه. وقال هويتزيلوبوتشتلى لأحدهم ويدعى توتشانكالكوى أن يشعل أفعى مصنوعة من قطع خشب مُشرَّب بالراتينج تسمى شيوهكواتل، فأشعلها وبها جُرحت المدعوة كويوليكساوهكوى، وماتت متحولة إلى فتات، وبقى رأسها فى ذلك الجبل المسمى كواتيبك وسقط الجسد إلى أسفل متحولاً إلى فتات؛ ونهض المدعو هويتزيلوبوتشتلى وتسلح وانقض على المدعوين سنتزونهويتزناهوا، ملاحقًا إياهم وملقياً بهم خارج ذلك الجبل المسمى كواتيبك، حتى أسفل، مقاتلاً ضدهم ومحيطاً أربع مرات ذلك الجبل، ولم يستطع هنود سينتزونهويتزناهوا الدفاع عن أنفسهم، ولا مقاومة هويتزيلوبوتشتلى المذكور، ولا عمل أى شيء ضده، وهكذا هُزموا ومات كثيرون منهم؛ وكان هنود سينتزونهويتزناهوا المذكورون يتوسلون ويتضرعون إلى الإله هويتزيلوبوتشتلى طالبين منه ألا يطاردهم وأن ينسحب من القتال، ولم يشأ المدعو هويتزيلوبوتشتلى ذلك ولم يغفر لهم، إلى أن قتلهم كلهم تقريباً وقلة منهم فروا وخرجوا هاربين من يديه..."[٣٥].

تشكل هذه القصة ما يمكن تسميته الفصل الثانى من الدراما الأسطورية : فبعد تحسرات الملك - الكاهن التى ينتهى بها القسم الأول، نشهد المعركة التى يخوضها ضميره المنكود.

لقد تبدل الديكور. فليست الروح - وقد أصبحت غير مرئية الآن - هى التى تؤدى الدور الرئيسى، وإنما الأرض التى تخفيه والتى يحاول هو بيأس أن يبعث فيها الحياة. ومع أنه قد انتقل بحزم إلى العمل، فإن ذلك لا يقلل من ارتباط موته بمشيئة الربة - الأم : فلو أن هذه صمت أذنيها عن الصوت الذى يعلو من أعماق كيانها، واستسلمت قبل أن يحين الوقت، لمات هو فى محبسه.

وربما يشير إلى هذه المرحلة نصٌ سيكون من الصعب فهم مغزاه بطريقة أخرى. فقبل أن يبدأ طريقه إلى المنفى (بعد تجسده وفصل الحب الذى تلا ذلك) ينحبس كيتزالكواتل خلال أربعة أيام فى نوع من الناؤوس : "وبعد أن غنى أتباعه، قال لهم كيتزالكواتل : "أيها الجد والتابع، يكفى. سأغادر البلدة، سأذهب. مروا بأن يُصنع صندوق حجرى." وسرعان ما صنعوا صندوقًا من الحجر. وعند الانتهاء من صنعه، سجوا فيه كيتزالكواتل. وبقى أربعة أيام فقط فى الصندوق الحجرى..."(٣٦).

وواقع أن كيتزالكواتل بقى محتجزا خلال أربعة أيام بين الأموات يعزز فرضية أن هناك فى كل حالة فترة إقامة فى الظلمات لا بد منها من أجل التوصل إلى النور.

أما بشأن كواتليكوى، وهى جزيئ طبيعة متمردة، فيبدو أن خطر الموت الذى يُثقل عليها يعنى سقوطها فى التفتت والتشتت الذى تجسده أسرتها كبيرة العدد، وكذلك الخطر الذى يهدد الطبيعة بفقدان كل إمكانية للاندماج فى الزمن، خالق الحياة، وتحللها فى العطالة والفضاء. وبسبب هذا المطلب فى التمادى، دون شك، تسمى كواتليكوى "**قلب الأرض**". "ولكى نعرف لماذا يسمونها **قلب الأرض** يقولون لأنها تستطيع أن ترجّ الأرض عندما تشاء"(٣٧).

ومعنى هذه الهزات ليس سراً غامضًا بأى حال، ذلك أن النصوص تنسب بالاجماع إلى الربة - الأم دور محارب يموت فى المعركة : إنها الكائن الذى عانى أول ميتة طقوسية. وبالفعل، على الرغم من النهاية السعيدة ظاهريا لمغامرتها، يبدو أن

كواتليكوى قد قضت نحبها بعد الولادة، إذ أن الرسوم الدينية (الايقونات) تمثلها دوماً مقطوعة الرأس، مثلما هى حال ربات الأرض الأربع اللواتى يشكلن تنويعاً لها.

ينتج عن ذلك أن الابنة الكبرى والأم هما كيان واحد وأن العدو الأكبر الذى على هذه أن تنتصر عليه يتمثل بها هى نفسها. ومن هنا المغزى المؤثر للقصة: فمن أجل ولادة الكائن النورانى الذى يسكنها، يتوجب على كواتليكوى أن تقضى نحبها. وإليها توجه خطب الإله المستقبلى الطويلة واستنهاضه لها، والغاية النهائية من ذلك هى إقناعها بأنه عليها أن تموت، وأبرز ما فى القصة هو القيمة الممنوحة لضرورة التعاون: فالمحارب السماوى لا يمكنه أن يولد دون موافقة المادة التامة.

وهناك رواية توضح الوضع عندمــــا تنسب، دون لف أو دوران، الموت إلى هويتزيلوبوتشتلى، وعندما تجعل من كويولكساوهكوى، الأم: "... هناك فى تيوتلاتشكو يأكل أخواله، ويأكلها هى، أمه، المدعوة كويولكساوهسيهواتل، التى اتخذها أمًا، ثم بدأ بها عندما قتلهــا هناك فى تيوتلاتشكو، وأكل قلبها..."(٣٨) ويجعل دوران كذلك من الربة – الأم أختًا لهوايتزيلوبوتشتلى.

يشير موت كواتليكوى إلى هيجان الطبيعة فى سعيها للتحرر: إنها الحركة التى تصبح اسماً لعصر كيتزالكواتل. وتعكس الأسطورة الكاملة سعى البدايات المتناحرة فى صراعها للانتصار على العزلة الوخيمة التى تؤثر على الروح والمادة على السواء، جاعلة من الاثنين مسؤولين عن مخاطر المعركة على أمل الاندماج بالزمن، باعتباره مُخلِّص البشر.

ومن أجل التوصل إلى الاندماج، يتوجب على هذا وذاك أن يفنيا لكى يتحقق شىء آخر. وبما أن هذا الفناء موجود فى مركز كل الأساطير، فإننا مضطرون إلى الاعتقاد بأنه يشكل أساس الفكر الناهواتلى. وبالطريقة نفسها، فإن أهمية كيتزالكواتل يجب ألا تكمن فى نوعيته كفرد، وإنما فى قيمته كنمط: إنه يمثل الانسان السيد المتحكم بقراراته. وعندما تؤخذ هذه الوظيفة بعين الاعتبار، لا يعود فهمه سراً غامضاً. أضف إلى ذلك أن صاحب أعلى مرتبة كهنية لدى الازتيك، حتى سقوط إمبراطوريتهم، كان يحمل لقب **كيتزالكواتل** ويكرر بصورة طقوسية وقائع حياة الإله، وهو ما يفسر هجر

ملوك الأزتيك المتواتر على امتداد التاريخ لمدينتهم من أجل الذهاب إلى بلاد الشمس؛ وهو تواتر يبعث البلبلة فى الوثائق السابقة لمجيء الأسبان.

على الرغم من تعقيدها وغموضها، فإن أساطير الناهوا تجد استمرارها فى التعبيرات الفنية وفى المجتمع نفسه؛ ولولا البقايا الأثرية ومعلومات كتبة الوقائع، لكانت هذه "الأساطير" اليوم بالغة التفكك وخاوية من المعنى، مثلما كانت فى نظر علماء القرن السادس عشر، إن دراسة المصادر تتيح حالياً اكتشاف مستويين تاريخيين فى هذه الحكايات؛ وعدم تمييزهما سيعادل تدمير كل البنية: فهناك من جهة، القصص التى تشير إلى خلق كوكب الزهرة والشمس الخامسة انطلاقاً من قرار أحد ملوك تولا؛ ومن جهة أخرى ميلاد هويتزيلوبوتشتلى من امرأة منذورة للتوبة. وبما أن هويتزيلوبوتشتلى كان إلها شمسياً، فإن ذلك يبين أن الكوكب الذى يتماهى معه الأزتيك له منشأ مختلف عن ذاك الذى يفتتح عصر كيتزالكواتل. ومع ذلك، فإن الأزتيك يقولون إنهم ينتمون إلى ذلك العصر، وقد رأينا التأكيد والافتخار اللذين يعلنون بهما أنهم متحدرون من البطل الذى يتكلمون لغته ويستذكرون غاياته فى كل المجالات.

وتكشف الرسوم الدينية (الأيقونات) أن طبيعة الكوكبين ليست نفسها: فهويتزيلوبوتشتلى يتجلى كتكثيف متأخر لصورة الروح؛ لجوهر لا يمثل الشمس إلا فى لحظة ميلادها وفى حركتها الصاعدة. واختيار هذه الحالة التى تعبر عن لحظة التحول من كائن بشرى إلى طاقة نورانية مضيئة، له هدف جلى هو التشديد على السعى المتواصل الذى لابد منه من أجل نجاح عملية، جرى تصورها كانتصار للروح، وانتقلت متجاوزة مستوى العصر لتُستخدم فى الحال على أنها مثالية المحارب. من الواضح إذن أنه فى الوقت نفسه الذى يوقر فيه الأزتيك الكوكب الذى ولد فى زمن آخر على قمة هرم تيوتيهواكان، صاغوا أسطورة تعكس الجو المعادى الذى عاشوا فيه، والذى ما كان يمكن إلا لإرادة سلطة ضارية أن تتيح لهم إيجاد مكان فيه.

يمكن إدخال كل التاريخ ما قبل الكولومبى فى الفترة التى تفصل الإيمان المتأجج والحماسى، لتجسيد القيم الروحية على الأرض، واستخدام ذلك الإيمان لأهداف زمنية (دنيوية). وفى سياق تلك المرحلة يجرى الانتقال من عالم قاحل إلى عالم مدينى (عمران) عالى الكثافة السكانية: لا يمكن تصوره إلا من خلال التبدلات التى طرأت

على رسومه الدينية (أيقوناته) فـي كل مرحلة من مراحله. وحيث إنه، منذ أول مظاهر الحياة الجماعية حتى تدمير الممالك على يد الأوروبيين، كان الجغوار هو النواة المشتركة للغة التي تعبر من خلالها القارة بأسرها عن نفسها، فإننا سنلقي نظرة سريعة على هذه الصورة المشتركة قبل أن نتأمل بصورة منفصلة فـي الرموز الخاصة بكل من الجزئين الشمالي والجنوبي من القارة.

فـي المكسيك، كما فـي البيرو، يحدد المختصون أول أماكن العبادة فـي حوالي السنة الألف قبل ميلاد المسيح، وبالرغم من أن هذا التحديد التاريخي ما زال خاضعًا لإعادة النظر، إلا أنه صار مؤكداً بصورة تقريبية، بسبب غياب أبنية مدنية خاصة بتلك الفترة، والمعابد فـي كل أرجاء الأراضي الأمريكية مكرسة لألوهية هِرِّية [الجغوار] ذات هيئة إنسانية، نادراً ما تكون هيئتها طبيعية، ويصل الأمر أحياناً إلى عدم احتفاظها إلا بملمح واحد من الوحش، مثل حجم الفم أو انحناءة الشفتين. وبما أن آلهة الناهواتيين (ومن بينها النمر، المرتبط بمولد الشمس الخامسة، الذي يرمز بوضوح إلى تجسد النور) تشكل جزءاً من مجموع اصطلاحي عالٍ، فإنه لا يمكن ربطها بالجغوار السلفي دون فحص دقيق لسياق أيقوناتها؛ ولهذا السبب سنهتم أولاً بالبيرو، حيث تحتفظ الرموز حتى النهاية بطابع وصفي. ففي محاولة الأركيولوجي الكبير خوليو تييو Julio Tello ، لفهم تلك الصورة كلية الحضور التي انتهى إلى مطابقتها مع الشمس، مدّ يده إلى أساطير ساكني غابات الأمازون حيث يحتل الحيوان الهري (الجغوار) مكانة مهيمنة[٣٩]، وقد تبين أن حبكة القصص التي ينقلها تييو هي على الدوام نفسها من حيث الجوهر : نمر الجغوار يلتهم امرأة كانت قد حبلت مسبقًا من الشمس أحياناً، ومن البرق أو من الألوهية العليا فـي أحيان أخرى، وينقذ التوأم الذي يولد بعد موت الام. وقبل أن يتحول هذان التوأمان إلى كوكبين، يقتلان "الأم-النمرة" التي ربتهما . من الملاحظ أن ولادة نظام كوني مكرس لاتحاد السماء مع عنصر أرضي، يستدعي هنا أيضًا، فناء أبطال الحدث، مثلما هو الحال في مغامرات هويتزيلوبوتشتلي. ولدى التهام المرأة التي تحمل نطفة إلهية وحماية التوأمين اللذين هما نتاجها، يظهر الجغوار كمسؤول عن المخلوقين المقدسين وحامٍ لهما؛ ويتحقق تمثله للطبيعة الشمسية بواقع أن الأساطير البيروية القديمة توكل إليه مهمة ابتلاع الشمس خلال الكسوفات.



(الشكل ٣) النمر المتأنسن
لافينتا ، تاباسكو
(الشكل ٤) شخص يعرض طفلاً – نمراً
لافينتا ، تاباسكو
(الشكل ٥) نقش من مذبح
الشكل السابق. طفلان وبالغان نمور
لافيتا ، تاباسكو
(الشكل ٦) فأس تمثل صورة إنسان
نمر ورأس أفعى
لافيتا ، تاباسكو
(الشكل ٧) رجل – جغوار في
زخرفة غائرة
مونتي ألبان

ويُثبت خوليو تيبو في الحال أن هذا الصياد للأجسام المضيئة هو مُنجب البشر، وبالاستناد إلى أن النظام الأمومي هو الذي كان سائداً في البيرو، يؤكد أن "النمرة-الأم"، المذكورة في كل الحكايات، هي أصل كل البشرية؛ وهذا يعني أن طبيعة الإنسان تفترض التجسد المسبق للنار السماوية في فرد تتمثل شجاعته وإقدامه في جغوار الرموز. وسنرى كيف أن الحضارة البيروية، مثلها مثل النهاواتيلية، لم تكن ممكنة، كما يُقدر، إلا بعد إنقاذ بعض الأبطال للكون من الظلمات التي خلّفه فيها الإله الخالق.

وتمثل ثقافة الأولميك في المكسيك هذه المرحلة الأصلية، وهي تُذكّر باستمرار كذلك بالقرابة بين الجغوار والمخلوق البشري، كما لو كان ظهور هذا الأخير لا ينفصل عن رمزية الوحش. وفن جنوب فيراكروث وتاباسكو (الشكل ١)، هو أكثر جلاء في هذا الاتجاه من فن منطقة تشابفين، فهو مكرس لاستحضار ميلاد هذه الظاهرة المخالفة للفطرة (الشكل ٣) ؛ ففي كل مكان يظهر شخص- يجلس أحياناً على عتبة مشكاة يمكن لها أن تمثل المغارة الأسطورية (الشكل ٤) - ويحمل بين ذراعيه أطفالاً - نموراً، متجهمين، متورمين ويحملون في أغلب الأحيان فأساً (الشكل ٥). ومنشأ هؤلاء الأطفال يُقدَّم، دون مواربة، في منحوتتين تمثلان تزاوج امرأة وجغوار(٤٠). ونلاحظ أن الفأس، رمز النار السماوية فوق الأرض، مصنوعة في الغالب من حجر ثمين، وهي مزينة بنقوش أحياناً (الشكل ٦). وهذه الفؤوس الموجودة بالعشرات والتي لها شكل الصليب، تشكل القسم الأكبر من القرابين (٤١). في ذلك العصر النائي كان الإنسان - الجغوار يسود في مونتي ألبان، المركز الاحتفالي المرتبط ببعض شعائر سواحل المحيط الهادي (الشكل ٧).

إن تحليل هذه القرائن وحده هو القادر على إعادة ما يكفي من القوة إلى تلك الرموز لكي يكون بإمكانها تحمّل الطبقات التي ستشيدها العصور التالية شيئاً فشيئاً فوقها. وبما أن الرموز التي تؤلف هذه اللغة تحتفظ فيما بينها بروابط قرابة شديدة المتانة إلى حد أن مقاربة جزئية لها ستكون ضارة أكثر مما هي مفيدة، فإنه لا يبقى أمامنا من سبيل سوى أن نتتبع، بدورنا، الطريق الطويل الذي اجتازته هي نفسها في تحققها، وحيث إن عناصر أساس البنية الهيروغليفية بقيت ظاهرة للعيان على الدوام في البيرو، فسوف نبدأ بحل رموز رسومها، وهو ما سيتكشف عن مساعدة ثمينة لفهم مظاهر التأمل الصارمة في الفكر الناهواتيلي.

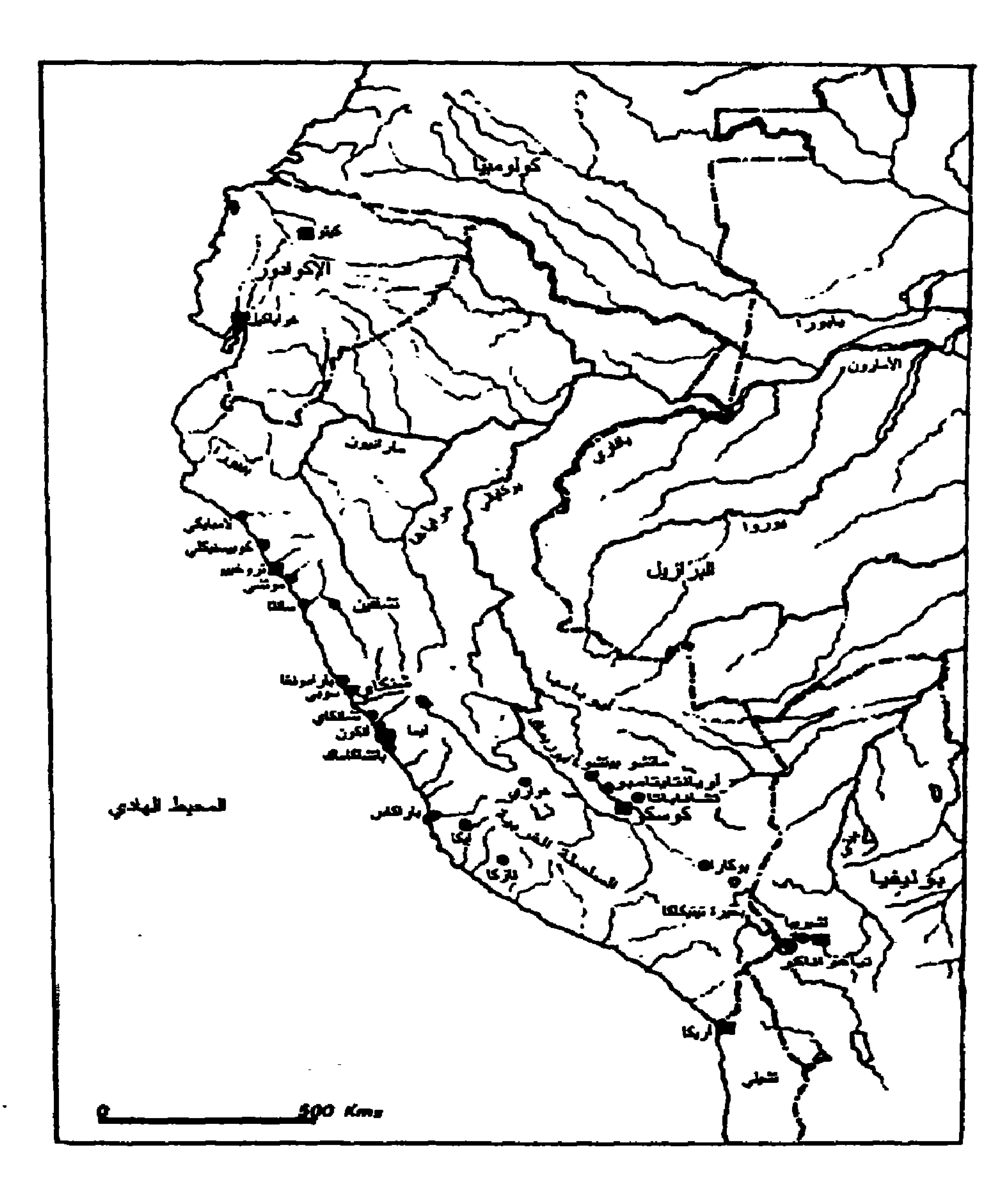
الفصل الرابع

علم الآثار يكتشف الفكر الأمريكى

١ - البيرو :

أسهمت دراسة حضارة البيرو (الشكل ٨) فى إضافة بُعد غير متوقع لعملية إعادة بناء تصور إجمالى للثقافة المندثرة : إذ إنها انتزعتنا من رؤيتنا الإقليمية من جهة، ولكنها أتاحت لنا كذلك الخوض فى لعبة تواصل جديدة. فإذا كان مجرد النظر إلى المكسيك من بعيد مفيداً لنا بحد ذاته، فإن مقارنة عناصر ثقافتها مع عناصر ثقافات مناطق أخرى أوضحت تلك الثقافة بصورة غير منتظرة، إلى حد برزت معه - بغض النظر عن الاختلافات التى كانت تحجب عن عيوننا المعانى الخاصة لكل منها - وفرضت نفسها علينا تجربة تسهم، لدى التشديد على القرابة فى الملامح والمصائر، بالرغم من تفردها، فى إضافة صورة واضحة للأمريكى الأصلى. فقد كشفت الاختلافات مرة أخرى طبيعة تتميز بقوة الإرادة وحس التعاون المتبادل، شكلت ركيزة تلك الإمبراطوريات الفسيحة والهشة، حيث لم يكن ممكناً إلا لتنظيم اجتماعى صارم، مستند إلى رعاية حكيمة ورقابة للأفراد، أن يعوض نقص وسائل الإنتاج الآلية فى عالم بلغ كثافة سكانية مثيرة للذعر.

وبينما طمست القرابين البشرية الطابعَ الإنسانى لحضارة المكسيك، مثلت البيرو فى نظر الأوروبيين بلورة وتجسيد الفضائل، والجمال، والثروات الطبيعية، ومعجزات حكومتها الرشيدة التى استثارت المخيلة منذ رسالة كريستوف كولبس الأولى، فالسخط الذى أثاره الغزو الإسبانى فى أوربا، وكبحته فى البداية "الأدلة" على وحشية الكاريبيين وأكل لحم البشر لدى المكسيكيين، ما لبث أن انفجر بعنف أكبر لدى غزو البيرو، حيث كشفت الحروب الأهلية [بين الأسبان] عن الحقيقة بصورة سافرة وفظة ،



الشكل ٨ - خريطة البيرو

فقد صار من الصعب، ليس الحديث عن دونية شعب ينعم بتطور سياسى راقٍ وحسب، وإنما كذلك عن همجية مجتمعات لم يكن بالإمكان نسبة القرابين الطقوسية إليها مطلقًا بصورة جدية، بالرغم من المحاولات العديدة فى هذا المجال؛ ثم أُضيف إلى ذلك العنف الذى لا يُصدق فى الصراعات الداخلية ما بين الأسبان أنفسهم.

وقد نشرت شهادة الموظفين القادمين لحماية مصالح التاج، على الملأ، حروب الإبادة التي يقترفها مواطنوهم فيما بينهم، وضد السكان الأصليين على السواء، مما حوّل البيرويين إلى ضحايا مثاليين، وقد دفعت عذاباتهم مونتيسكيو إلى الحكم على استيطان أمريكا بأنه "أحد أكبر الجائحات التي عانتها البشرية"[١]، وتأملت أجيال من الشعراء والمسرحيين، والمفكرين والسوسيولوجيين في ممالكهم المقوضة من أجل فهم العالم الجديد. ويؤكد المؤرخ راؤول براس بارينتشيا أن البيرو "... قدمت لكل يوتوبيي القرن الثامن عشر نموذجَ مجتمعٍ سعيد تحت نظام حكم أبوي (بطريركي) ومشاعي"[٢]. وبين نظرات التقدير العديدة التي كانت تلك البلاد هدفاً لها، نتوقف عند أحدثها، وأكثرها دقة: "إن التوتر الحتمي اللازم من أجل تثبيت بنيان ضخم على أسس ضعيفة يضفي لمحة غريبة من العظمة والجرأة على الإنجاز السياسي للإنكا، وهو دون شك الأكثر أصالة واتساعًا في القارة"[٣] ويشدد الانثروبولوجي ألفريد ميترو Alfred Metraux على المصلحة العامة عندما يفند ذلك الرأي : "أسطورة الدولة الاشتراكية العظمى لدى الإنكا تنتج عن فهم مجزوء جداً لمؤسساتهم"[٤].

هناك في النصف الشمالي من القارة، كما في النصف الجنوبي، ترسبات تاريخية مرتبطة بمراحل مختلفة: فبينما تكثر في المكسيك الوثائق المتعلقة بأصول ثقافتها، فإن أسس إمبراطورية البيرو القوية تستند إلى المجهول، بالرغم من اختلاط مغزى مؤسساتها ومعتقداتها بسياسة الخمسين سنة الأخيرة التي سبقت الفتح الإسباني. ومع ذلك، فإن التطور السياسي للأزتيك يتوافق زمنيا مع التطور السياسي للإنكا – فالأولون يستولون في العام ١٤٢٥ على العاصمة التي كانوا يقدمون لها حتى ذلك الحين الولاء، والآخرون يبدؤون مرحلة التكوينات الاجتماعية مع ملكهم الأول "باتشاكوتيك إنكا" في العام ١٤٣٨ – : هذا التقارب في التسلسل التاريخي للكتلتين يقرّ توالياً متواصلاً. فإذا ما كان هذا التوالي مجرد تركيب مصطنع، دون تماسك داخلي، فإن المقارنة لن تؤدي منطقياً إلا إلى زيادة الغموض في أفق يعاني بحد ذاته من سوء الوضوح، ولكن بما أن التسلسل التاريخي يبدو متطابقًا في جميع النقاط الأساسية، فإننا سنحاول خوض المقارنة تحت عنوان الفرضية. ومن أجل ذلك ستتفحص البقايا الأثرية البيروية المجردة من البيانات، على ضوء البقايا والكتابات

المتعلقة بإبداع ألفية التشكل المكسيكي، في الوقت الذي سنقارن فيه المجتمع الأزتيكي، الذي بقي في الظل ولم يكن مصدر إلهام لأي باحث في الإنسانيات، بسبب انتمائه إلى جماعة مكروهة، ببنية حضارة الإنكا التي لاقت الاعتراف والتقدير على نطاق واسع، ومهما تكن النتائج التي سنتوصل إليها، فإن هذا المنهج يبدو لنا صالحًا نظراً للوضوح الذي يضفيه على بعض الظواهر العصية على الفهم.

(أ) الأصول :

نحن نعلم أن الإنكا لم يعترفوا بوجود أي سلف ثقافي لهم، وأنهم ينسبون إلى أنفسهم الحضارة التي كانوا مجرد وارثين لها، وأنهم كانوا يرفعون صورة غير سارة لأسلافهم. ففي مؤلفه التدويني التاريخي، يؤكد بوراس بارينتشيا **Porras Barrenechea** أن "... الانكا لم يحفظوا أي ذكر للقبائل التي غزوها، بل استحوذوا على مكتشفاتها الثقافية، حاجبين بغلالة من الغموض والتجاهل الماضي التاريخي للشعوب ما قبل الإنكية... وقد جرى تحديد تلك العصور البعيدة في لغة الإنكا باسم "بوروباتشا" **purupacha** أي "زمن السكان القاحلين أو الهمجيين"[٥]. وتُظهر الحوليات القديمة، بالفعل، الإنكا الأول وهو يلقن بداةً رحلاً عراة وبلا قانون، مبادئ الزراعة، وزوجته الملكة، وهي تعلم النساء نسج ملابسهن، وينسبون نوعية مجتمع القرن السادس عشر الراقي إلى الملوك المتتالين الذين جاؤوا بعد ذلك الملك الأول.

ويبدي مدونو وقائع الفتح التوافق نفسه فيما يتعلق بتحديد موقع وطن الشمس: "يقولون إنهم افتقدوا الإضاءة أياماً كثيرة، وبينما هم جميعهم في الظلمات والعتمة، خرجت من جزيرة تيتيكاما **Titicama** الشمس المبهرة"[٦]. وهذه الشمس، مثلما هي **الشمس الخامسة** لدى الناهواتيل في المكسيك، تفتتح عهد الحضارة؛ ولكن، بينما يتذكر الشعراء والمؤرخون الأزتيك دون كلل تبعيتهم للثقافة السالفة التي ولدت من ذلك النور، فإن شمس تيتيكاكا **Titicaca** تنتمي إلى الإنكيين: "يقول الإنكيون إن الشمس قد وضعت ابنيها الاثنين، ذكراً وأنثى، عندما أرسلتهما إلى الأرض لكي يقدما الحكمة لبني الإنسان ويعلما الناس البرابرة الذين كانوا يقطنون تلك الأرض آنذاك"[٧]. ويعد إقامة في الكهوف، تتوافق بصورة مثيرة للفضول مع إقامة التشيتشيميكا في

كهوف المكسيك، تحوّل أحد أبناء الشمس أولئك إلى مانكو كاباك Manco Capac . ويتوجب علينا أن نعتقد حكمًا بأن النصوص تدمج مرحلتين، تفصل بينهما في الواقع قرون طويلة، نظراً لما كشفت عنه الآثار من وجود حضارة كبيرة سابقة لذلك الملك الأول. وأمام حشد الأعمال التي تشكل القاعدة الثقافية للبيرو، فإن طبقة الآثار الرقيقة للمساهمة الإنكية تثبت أن خلط أصل الإنكا بالأصول الأسطورية يزيف الواقع. وبالرغم من أن مشاطئي بحيرة تيتيكاكا البديعة، التي تتبع اليوم لبوليفيا، لا يُذكرون إلا على أنهم "بهائم" يعيشون في "غياهب الفوضى"، إلا أنهم استفادوا مع ذلك كما يبدو من الرسالة الإلهية، وكانوا مبتكري ملامح ثقافية أساسية، وقطنوا منطقة شديدة القداسة.

على ضفاف تلك البحيرة، التي تعكس السماء مثلما لا تعكسها أية بحيرة أخرى (فهي تقع على ارتفاع أربعة آلاف متر تقريباً)، تكلمت الشمس للمرة الأولى إلى البشر، وبعض الروايات تجعل من التسمية "تيتيكاكا" اسماً لأم الإنكيين[٨]. وحدث هناك أنه "... مع انتهاء الطوفان الذي لا يستطيعون أن يقدموا عنه أية معلومات أخرى سوى أنه قد حدث... ظهر رجل في تياهواناكو... وكان شديد البأس إلى حد أنه قسم العالم إلى أربعة أقسام ومنحها لأربعة رجال أسماهم ملوكًا"[٩]. وتياهواناكو Tiahuanaco، المشيدة إلى جوار البحيرة، هي مدينة فيراكوتشا Viracocha (اسم رب غير مرئي ليست الشمس إلا تجليًا له)، التي في أحشائها "خُلقت كل الأشياء". ومنها انطلق ثلاثة مبعوثين ثقافيين ملتحين[١٠]. ومن هذه المنطقة المسماة كوياو Collao تأتي معرفة البطاطس، والقلنسوة المدببة الخاصة بالإنكيين، وكذلك شعيرة (طقس) الاعتراف. ولكونها المكان الذي هبط فيه الآلهة النازلون من السماء، والموطن الذي ترجع إليه في الوقت نفسه الأرواح بعد موت الأجساد[١١]، فإنهم يعتبرون محيط البحيرة وما ينمو فيه مقدسًا : "...يأخذون بعض كيزان الذرة [في جزيرة تيتيكاكا]، ويحملونها إلى الملك كشيء مقدس، فيأخذها هو إلى معبد الشمس ويبعث منها إلى العذراوات المختارات اللواتي يُقمن في كوسكو، ويأمر بأن يؤخذ منها إلى أديرة ومعابد أخرى في أنحاء المملكة، في سنة، إلى بعضها وفي سنة أخرى، إلى بعضها الآخر، لكي ينعم الجميع بتلك الحبوب كما لو أنها آتية من السماء... ويلقون بعض الحبوب في أهراء الشمس وفي أهراء الملك وفي مخازن المجالس المحلية، من أجل أن تحفظ كشيء إلهي، وتُكَثِّر، وتُخلِّص الخبز من الفساد ليُجمع هناك من أجل أود الجميع"[١١].

ويبدو أن توقير تياهواناكو وبحيرتها مرتبط بالفكر الديني للبيرو القديمة، مثلما كانت تيوتيهواكان فـي المكسيك، مع فارق أن الطقوس التي يتكلم عنها غارثيلاسو يجب أن تكون حديثة، ذلك أن الانكيين لم يسيطروا على كوياو إلا فـي بدايات القرن الخامس عشر، وبعد انتصار باتشاكوتيك Pachacutic و "اكتشافه" لـ تياهواناكو بدأت هجرات الحج إلى المدينة الشمسية التي لن تنتهي إلا مع مجيء الأوربيين. وقد اعتبرت تياهواناكو الضخمة والغامضة، عاصمة العمالقة الذين سبقوا شعب الإنكا[١٢]؛ وإنه لأمر ذو مغزى أن يكون الأزتيك قد لجؤوا كذلك إلى العمالقة ليفسروا وجود أعمال تتجاوزهم بضخامتها.

الوظيفة الإبداعية لـ تياهواناكو تبدو مُسلَّمة لا تقبل النقاش فـي نظر الأب بيرنابيه كوبو، ويستنتج من ذلك، عندما يعمد مؤلف مثل فيرنادو دي مونتيسنوس – الوحيد الذي عرض تاريخاً ما قبل إنكيًا – إلى جعل أول الملوك يقول: "... قوانين حكومتي ستُبعث من الماضي ولن تُختلق من جديد..."[١٣]، أنه لا يمكن لهذا الماضي إلا أن يكون المركز الطقوسي الأكبر. وفضلاً عن ذلك، هناك كاتب وقائع آخر يقول إن شعب الإنكا "... خرجوا من مغارة... يرتدون ملابس من صوف ناعم منسوج مع ذهب خالص وأخرجوا منها كذلك أجربة من صوف وذهب. وخرجت النساء كذلك وهن يرتدين ثياباً فاخرة، معاطف وعباءات لها أحزمة من الذهب... ومشابك من الذهب..."[١٤] ويضيف كاتب الوقائع نفسه إلى قائمة مسمياته آنية طعام من الذهب وأشياء أخرى يُثبت وجودها أنه قبل وصول "أبناء الشمس" إلى "سرة العالم"[١٤] التي ستكون مستقرهم، كانوا ناقلي ثقافة لا يمكن لهم إلا أن يكونوا قد ورثوها فـي البلاد التي يقولون إنهم سكانها الأصليون.

سنحاول جمع المعارف التي توفرها الاركيولوجيا حول مرحلة مجهولة فـي الحوليات، تقول عنها الروايات إنها "... تبدو أقرب إلى الأحلام أو الخرافات سيئة الترتيب منها إلى الحوادث التاريخية..."[١٦].

بالنظر إلى سوابقها، وجدت أقدمية تياهواناكو مدافعين عنها دوماً، وكانت المناقشات خلال القرن التاسع عشر تتغذى أساسًا على حجج من النوع اللغوي. فحسب المؤرخ ريفا أجويرو Riva Agüero ، على سبيل المثال، كان بناة تياهواناكو

يتكلمون الكيتشوا، مثلما هو حال الإنكا الذين جاؤوا بعدهم، وكان شعب الآيمارا Aymara - الذى مازالت لغته مستخدمة فى المنطقة[١٧] - هو الذى دمرّ العاصمة الأولية. أما ماكس أوهلى Max Uhle بالمقابل، والذى يعتبره بوراس بارينيتشيا (ومنه نأخذ هذه المعلومات) "المنسق العظيم... والأب الحقيقى لعلم الآثار البيروى ومؤسسه"، فيؤكد أن الآيمارا، والتى ليست الكيتشوا إلا واحدة من لهجاتها، كانت شائعة فى البيرو بأسرها حتى سيطرة الإنكا. وكان لا بد لهذه النظرية منطقيًا من أن تعزز تفوق المركز الذى يسود فيه التكلم بهذه اللغة؛ ومع ذلك فقد أيد ماكس أوهلى أسبقية ثقافات الساحل، والتى لم تكن تياهواناكو إلا انعكاساً لها. وبهذا فإن الدور الذى حُرمت منه المدينة القديمة قد أعيد إليها بحماس طوال حياة من العمل الدؤوب، على يد الآركيولوجى أرثر بوسنانسكى Arthur Posnansky الذى، فى مؤلفه الشهير عام ١٩٤٥، "تكشف كأفضل عارف وعارض لمدينة تياهواناكو"[١٨].

أما أخطر الهجمات على أقدمية تياهواناكو فجاءت من جانب خوليو تييو Julio Tello، أعمق شخصيات الأركيولوجيا الأمريكية تضلعًا، وأكثرها جاذبية. فبحمية ونكران للذات، حطم الأطر السائدة عن طريق عمليات تركيب محفزة وأصلية ألهمته إياها اكتشافاته، فمدفوعًا بحب حقيقى للثقافات الذبيحة، ومزوداً برؤية مؤرخ وبحساسية تتيح له أن يعيش آلام جماعات اثنية أُهملت وعوملت معاملة المنبوذين، عرف خوليو تييو كيف يفند حبائل الاركيولوجيا بطريقة عجيبة، ويقلبها رأسًا على عقب. وباستخدامه تقنياتها نفسها، تجاوز فى الحال النتائج المتحصلة من عمليات التنقيب والتصنيفات ليجعل منها مجرد نقاط انطلاق لتفسير الحوليات، والأساطير، والأوابد، والرموز. وبفضل حماسته الديناميكية أكتسبت بقايا الحضارة ما قبل الكولومبية حق المواطنة؛ فشهادته المتحمسة، ودروسه الصاخبة فى جامعة سان ماركوس، ومناقشاته فى المؤتمرات الدولية تُوجت بإنشاء المتحف الذى أغنى مدينة ليما بالمجموعات الأثرية الرائعة التى كان هو نفسه مكتشفها الأساسى.

وفى معارضته لنظرية ماكس أوهلى، استبعد كون الساحل مركزاً لثقافة قديمة مستدلاً على ذلك، بين حجج أخرى، بظروف الحياة غير الإنسانية السائدة هناك (الحر، الجفاف، الحشرات الميتة)؛ ولكنه بدلاً من تياهواناكو أبرز تشافين Chavin

كمهد لكل الحضارات الأمريكية، ذلك أن تيبو، على عكس الباحث الألماني، يؤكد على أسبقية الثقافات البيروية على المكسيكية. وقبل أن نتأمل فى تطور هذه المواقف - أسبقية وتأثير الساحل على الجبل، وتشافين على تياهواناكو، والبيرو على أمريكا الوسطى -، سنحدد مكان الآثار التى مازال تسلسلها التاريخى موضع خلاف لكى نحاول بعد ذلك فهم مغزاها.

على مساحة تزيد على مليونى كيلومتر مربع، مثل مساحة المكسيك، امتدت إمبراطورية الإنكا من الاكوادور حتى تشيلى والارجنتين، وعلى امتداد سلاسل جبال الانديز الضخمة، يحدها المحيط الهادى من الغرب وغابات الأمازون من الشرق، وكانت هذه المنطقة الأخيرة على الدوام مقراً لمجتمعات أخرى، وهكذا فإن البيرو مازالت متميزة بمنطقتها الساحلية التى لا يهطل فيها المطر مطلقاً، والظاهرة التى يمثلها هذا الجفاف على شاطئ بحر مدارى حيرت جميع كتبة الوقائع (كل واحد منهم قدم نظرية لتفسير ذلك)، ولكن تفسير الظاهرة لم يكن ممكناً إلى أن تمكن عالم الطبيعيات ألكسندر دى هومبولد **Humboldt** من اكتشاف التيار البارد القادم من القطب الجنوبى الذى يحول دون تبخر المياه البحرية، ويحرم الجو من الرطوبة اللازمة لتشكل الغيوم. هذا التيار الذى يحمل اليوم اسم مكتشفه، يفرض وجود الصحراء الفسيحة (بعرض ٤٠ كيلو متراً ويطول ٢,٤٨٠) على الحدود الغربية للبيرو. هذه الامتدادات الذهبية التى يلفها ضباب أبدى، وتقطع رتابتها واحات نادرة تشكلها مصبات بعض الأنهار التى تصل إلى المحيط قبل أن تمتصها الرمال، هى مملكة حقيقية للموت. وفى الوقت الذى تحول فيه الرمال دون أدنى قدر من الحياة، تترك آثار مملكتها فى كل الجهات : تنحت الامتدادات بقطوع جميلة متحركة وتقولب جبال الأندين، التى تتحدر حتى البحر، بأحجام شبحية هائلة.

إن هذه البلاد التى تسودها الفلزات المعدنية تضم قلة قليلة من الصروح الأثرية ومركزين أركيولوجيين كبيرين فقط: معبد إلى الجنوب، قريباً من ليما، ومنطقة عمرانية (مدينية) فى الشمال، بالقرب من تروخييو. ولكنها تخفى بالمقابل كمية فلكية من القبور التى تظهر منها الأجساد والأدوات سليمة تقريباً، خارج القمرات تحت الأرضية الكبيرة التى انتهك الغزاة الإسبان حرمتها (كان هناك مرسوم ملكى يُشرِّع سلبها)

وفتحها خوليو تييو باحترام ورفق؛ تضم كمية كبيرة من المجوهرات الدقيقة المتقنة، والخزف متعدد الألوان والمنسوجات الجميلة الفاخرة.

محاطة بالرمال التى تجتاحها حتى القمة وتلاحقها بعيداً نحو الداخل، ترسم جبال الأنديز فجأة حدودَ عتبةٍ ما هو إنسانى : فالوديان الخصبة تلوذ تحت المرتفعات الداكنة لـ "**السلسلة السوداء**" (لأنها خالية من الثلج) فى الغرب؛ وبعد ذلك، فيما وراء الصدوع العميقة لوادى مارانيون **Marañón** (اسم الأمازون عند منبعه)، تبرز الجبال بمهابة من جديد، ولكنها تكون مكللة هذه المرة بالثلوج الأبدية، فى إحدى هذه المنخفضات توجد تشافين، عند سفح "**السلسلة البيضاء**" ؛ وتوجد تيوهواناكو فوق إحدى أعلى المرتفعات الجنوبية. أبنية كليهما هى كتل حجرية ضخمة، مع وفرة من النحت والحفر تضفى عليهما صرامة نبيلة.

يقدر خوليو تييو مساحة تشافين بثلاثة عشر هكتاراً، أما اليوم فلا تُرى سوى وحدة عمرانية واحدة: هيكل معقد لمعبد يمتد أمامه وعلى مستوى أكثر انخفاضاً ميدان مساحته ٤٧×٤٩ متراً ؛ وفى منتصفه يوجد مذبح. والمبنى الرئيسى الذى تبلغ مساحته ٧٢×٧٠ متراً؛ يعلو على شكل هرم مقطوع ارتفاعه نحو عشرة أمتار. ويستقر فوق المصطبة الحجرية نفسها التى تقوم عليها ملحقاته وينتهى بشرفة متوجة بقمرتين. والجدران، المشيدة من تراب وحجارة مطحونة، مغطاة من الخارج ببلاط أفقى ذى وقع تزيينى بديع، ومن الداخل بطين مصلب فى النار. وترصع الجدران من الخارج أشكال رؤوس متباعدة بمسافات منتظمة وعلى ارتفاع محدد تميز العمارة فى تشافين. وتخترق الصرح من الداخل حجرات صغيرة متعددة وممرات طويلة يتم الدخول إليها عبر أدراج تحت أرضية، وبالاستناد إلى اكتشاف بعض البقايا الأثرية وإلى الأدلة التى وفرتها معابد أخرى تنتمى إلى الأفق الثقافى نفسه، توصل تييو إلى نتيجة مؤداها أن تلك الحجرات كانت تضم رسوماً جدارية وأعمال حفر على العتبة الحجرية العليا للباب، وسلّماً حجرياً يمكنه، حسب قول مكتشفه، أن يضاهى أفضل مبانى كوسكو الإنكية. ومما تجدر ملاحظته أن اتجاه معبد تشافين يُعثر عليه مجدداً فى معابد النصف الجنوبى من القارة، بينما المألوف فى معابد أمريكا الوسطى أن تُفتح نحو الغرب.

تمتد تياهواناكو على أرض البونا المسطحة؛ وقد أُمكن قياس أبعاد مساحتها (ألف متر × أربعمئة وخمسين متراً)؛ وهي محاطة بخندق وتنتصب فيها عدة أبنية. وقد اكتشف عالم الآثار ويندل بينيت Wendell Bennett في بئر فتحها بين أنقاض معبد صغير، تمثالاً طول قامته ٧,٥٠ متر وآخر ٢,٥٥ متر، وله "لحية في نقش نافر"، توضح الأساطير المتداولة حول موطن شعب الإنكا: بأن أولئك هم العمالقة البدائيون والأبطال الثقافيون الملتحون الذين أنجبتهم التيتيكاكا el Titicaca في ليل الأزمنة. وتشمل كالاسايا Kalassasaya منطقة من ١٣٠×١٣٥ متراً، وهي محاطة بأسوار يتخلل أحجارها الأفقية، كل مترين تقريباً، نصب صخري عمودي، وتضم "بوابة الشمس" الشهيرة، مسلة حجرية ارتفاعها ثلاثة أمتار وعرضها ٣,٥٧ ، وفتحتها منحوتة في كتلتها، وتزين عتبتها العليا نقوش غائرة، وإلى جنوب شرقي الخندق المحيط بالميدان توجد بوما بونكو Puma Puncu، مملكة الأفقية، التي قدر بوسنانسكي أنها "بوابة الماء"، المكان الذي تتصل تياهواناكو عبره مع تيتيكاكا.

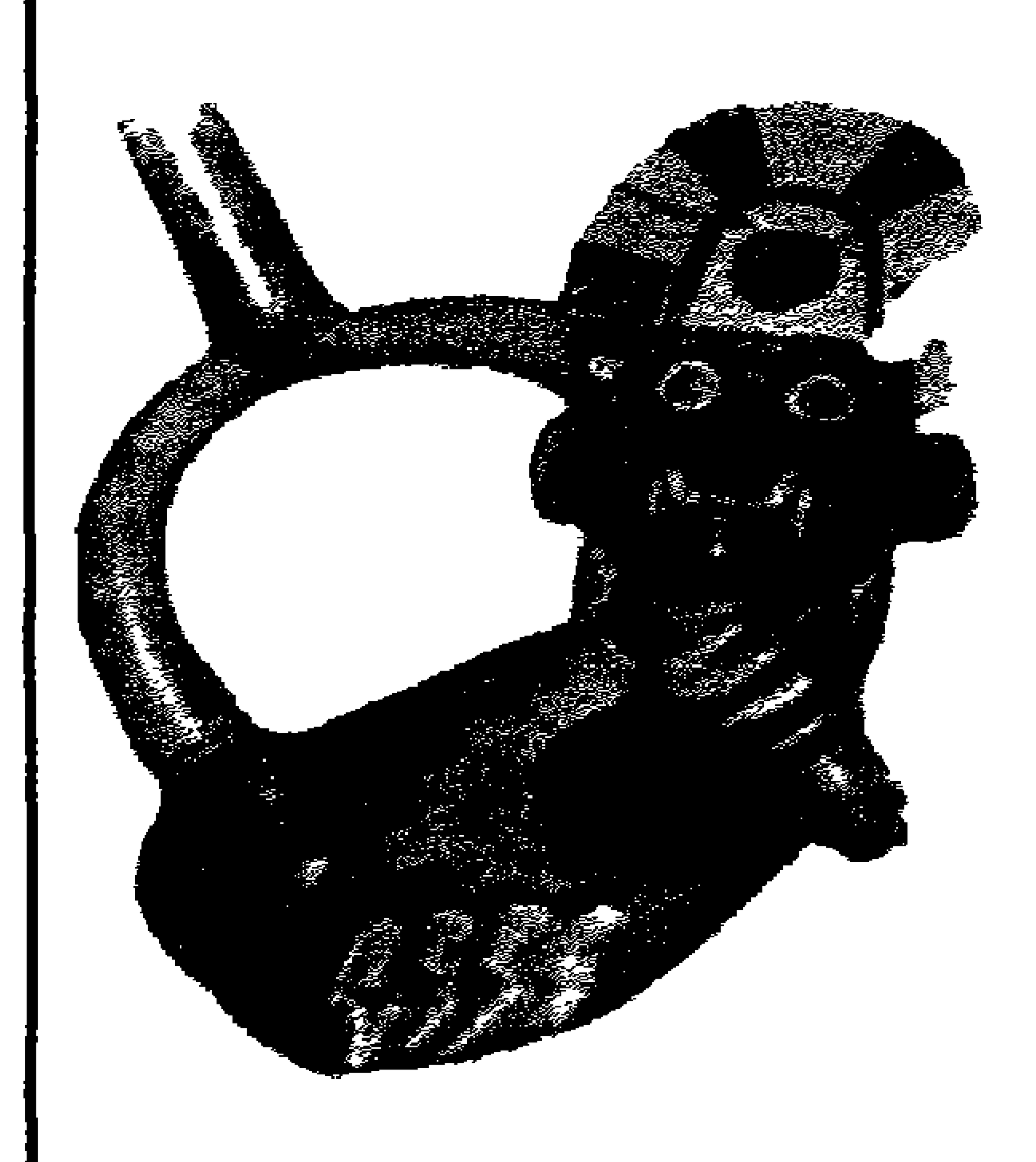


الشكل ٩ : إناءان بمقبض على شكل ركاب. ثقافة تشافين (حسب خوليو تيبو)

مقاعدها الحجرية الفسيحة المنحوتة التى تبدو وكأنها متجمدة فى انتظار مهيب، تستدعى إلى الذهن حضوراً خرافياً، فهى تصطف فوق أربع منصات من كتلة حجرية واحدة تقريباً، طول كل منصة منها ثمانية أمتار، وهناك أحجار عملاقة أخرى، فيها تجاويف لا حصر لها، ذات أبواب صغيرة لا تفضى إلى أى مكان، تُكمل المجموع الذى يُسقط تياهواناكو فى الأسطورة ربما أكثر من أى مكان آخر.

على الرغم من الطابع الخاص والمهيب الذى تتمتع به تياهواناكو من جهة وتشافين من جهة أخرى، فإن المكانين متحدان بجو أسرى لا يمكن نكرانه، ذلك أن القرابة فى بعض الملامح المعمارية - أبنية مشيدة فوق منصات حجرية ضخمة، كتل هرمية، قمرات تحت أرضية، رؤوس ترصع الجدران الخارجية - توحد اختيار الحجر كوسيلة تعبير، إضافة إلى حشد من التشابهات على الصعيد الدينى والطقوسي. وإذا ما كانت فجاجة تماثيل تياهواناكو قد أدت من جهة أخرى إلى التأكيد على أسبقيتها بالمقارنة مع فن تشافين المشغول بإتقان، إلا أن أسلوب النقوش هو نفسه من حيث الجوهر فى الموقعين. وقبل أن نتأمل فى رموز رسومها، سنلقى نظرة عميقة حول نتيجة عمليات التنقيب التى جرت فى هذين الموقعين القديمين.

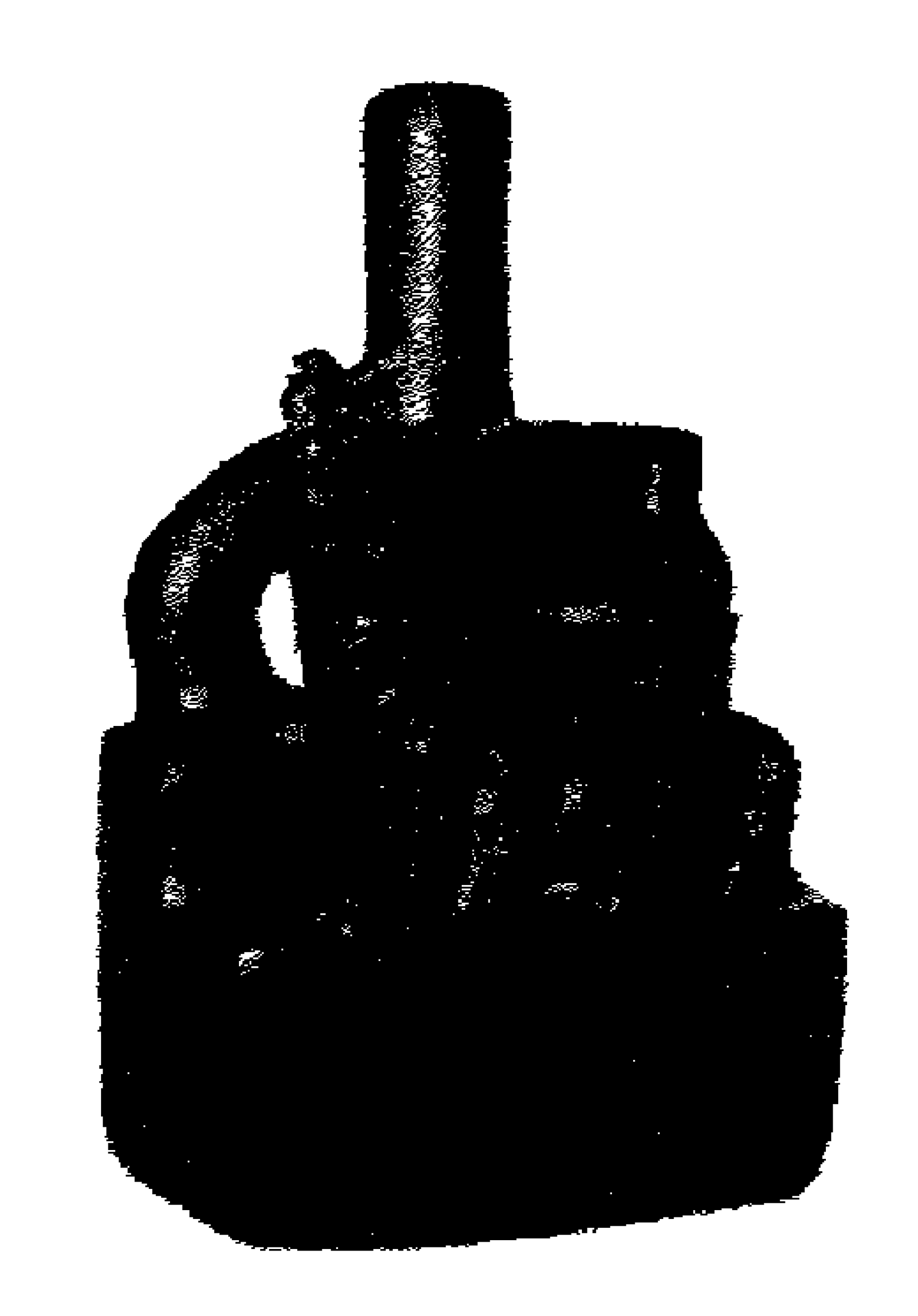
بالاستناد إلى بعض الصروح المكتشفة شمال الساحل وإلى قطعة خزف عثر عليها فى الجنوب، أقر خوليو تييو مستوى بيروى أول، نقطة إشعاعه هى تشافين. ولكن، على الرغم من أن إثبات قِدم هذه المنطقة قد أمد علم الآثار بمحور ذى رسوخ لا تقدر مساعدته بثمن، إلا أنه لم يتم التأكد من امتدادها، ذلك أن الحفريات لم تضف فى أى جهة أدلة أكثر إقناعاً من بعض العناصر المعزولة، والقابلة بالتالى للنقاش، ومن هنا جاء أن الألواح الكرونولوجية تقصر تأثير تشافين على حوض نهر مارانيون **Marañón** وأنها لا تأتى بالنسبة لبقية الأراضى، فى هذا المستوى، إلا على ذكر بعض الآثار التى لا يمكن ربطها بتلك النواة إلا بصورة غير مباشرة جداً، وبما أنه لا يمكن للعمارة هنا أن توضح مراحل تطور مختلف الأساليب، فإن الخزف وحده هو الذى يقدم بعض المساعدة. وهكذا سنحاول تقديم تركيب المعارف الحالية متغلبين على المقاومة التى نشعر بها لنغامر فى ارتياد قضية شائكة فى التعريف، لم نسهم فى إيضاحها، وهذا التركيب سيعانى بالطبع من الاستحالة التى ستواجهنا فى مقارنة المواد الأركيولوجية



(الشكل ١٠) إناء على شكل بشرى مع مـقبض على شكل ركـاب . مـوتشـيكا . (تصوير أبراهام غيين) .



(الشكل ١٢) إناء بمقـبض على شكل ركاب . تشيـمو . يمثل شـخـصًـا جـالسًـا على عرش .



(الشكل ١١) إناء بمقـبض على شكل ركــاب . ثقــافــة تشيمو .
الشكل يمثل معبداً .

مع الملاحظات والصور المأخوذة من الموقع أو مع الأوصاف المتضمنة فى تقارير المختصين التى تستند إليها. ومن الواضح أيضًا أنه يتوجب علينا أن نستبعد التلونات التى غالباً ما تُخفى أكثر مما توضح المجموع الذى نسعى لفهمه.

دون التوقف عند التسميات الممنوحة للنوع نفسه من الخزف حسب مختلف أمكنة انتشاره، سنتذكر أن المرحلة الأولى من الثقافة التى ستُنتج أعمالها دون انقطاع حتى الغزو الإسبانى هى الممثلة بخزف تشافين، التى ترجع إلى حوالى ثمانمئة سنة قبل الميلاد. وهناك ملامح مختلفة تتيح التعرف على هذا الخزف بسهولة: فهو دومًا أحادى اللون، وذو لون أسود جميل عمومًا، متجانس ومصقول؛ وتُذكِّر نقوشه بأسلوب معالجة الحجر؛ وله شكل قارورة أو دمجانة، ذات عنق مركب فوق مقبض أنبوبى يتوج القطعة الخزفية. وهذا العنصر المعروف باسم "مقبض الركاب" "asa de estribo"، يتكرر بتنويعات تختلف باختلاف المناطق فى الشمال ويميز الخزف البيروى فى أمريكا كلها (الأشكال ٩ حتى ١٣). ومع أنه لم يكن ممكنًا تحديد تاريخ هجر آثار تشافين، إلا أن صناعة الكؤوس التى تمثلها لا تتجاوز المستوى الأصلى الذى تظهر فيه مراكز أخرى شمالية، ذات إنتاج مطابق أو شديد الشبه بإنتاج تشافين : قوارير، مقابض (وهى دومًا من نوع مقابض الركاب، ومقابض الجسر)، سيطرة اللون الأسود. أما اللون التزيينى فلا يتدخل إلا بخطوط بيضاء على خلفية سوداء (وجد تييو أجزاء مفتتة مشابهة فى تشافين)، أو برسوم بألوان الطين نفسها يتم الحصول عليها بالطلاء المدعو "الطلاء السلبى" : فالزخارف محفوظة من الأتربة بطبقة من الشمع.

إن خزف تياهواناكو مختلف جداً إلى حد يبدو معه وكأنه آت من منشأ آخر: وإذا كان فى مراحله الأولى يستخدم أشكال خزف تشافين (قوارير، قاعدة على شكل حلقة، جدران مستوية، وقعر مسطح)، إلا أنه يجهل المقبض الذى يتوج الإناء ويتميز بكأس عالية، غير معروفة فى تشافين، وهو الذى جعل منه الإنكا الإنـاء المقـدس المثـالى، أى "الكيرو" "el Kero" (الشكلان ١٣ و ١٤). وهذا الخزف المذكور يختلف عن خزف الشمال بصورة خاصة بزينته؛ فتعدد الألوان الذى يميزه كله، حتى تلك القطع التى عُثر عليها قريبًا من السطح، جعلت ويندل بينيت Wendell Bennett الذى صنفها، يقول إن "... العلاقة القائمة بين تعقيد الرسوم وتعدد الألوان تشكل أبرز صفة مميزة لخزف تياهواناكو"[١٩]. ويميز بينيت خزف "تياهواناكو القديم" عن "تياهواناكو الكلاسيكى"

ببريق الطلاء ورونقه غير المعهودين؛ وفوق ذلك، لأن شكل القارورة والقاعدة المدورة تختفي في الأخير في الوقت نفسه الذى يُبتكر فيه التلوين : فلون زخارف خزف "تياهوانكو القديم" يتحول إلى لون القاعدة في الخزف الكلاسيكى، والخط المحفور الذى يحيط بزخارف المرحلة الأولى، ملون عمومًا بالأسود في المرحلة الثانية ، والرؤوس المنقوشة حفراً على مباخر خزف "تياهواناكو القديم" تستمر حتى زمن الإنكا.



(الشكل ١٢) أشكال من خزف تياهواناكو التقليدى

إن تعدد الألوان الذى يميز خزف الأنديز الجنوبى منذ مرحلة تشافين (وقد عُثر عليه في تشاناباتا، تشيريبيا، بوكارا) هو الطلاء الذى يظهر كملمح خاص بحوض تيتيكاكا، وعلى الرغم من الاختلافات التى يعرضها، يجب أن تكون تياهواناكو هى مكان منشئه، ذلك أن التأثيرات تمضى عادة من المركز البنيانى إلى المحيط، اللهم

إلا إذا ثبت العكس. ومن جهة أخرى، عثر خوليو تيبو على أصيصين من نمط تياهواناكو (نقوش سوداء محفورة على خلفية حمراء) تحت معبد تشافين[٢٠]؛ وهذه المعلومة تكفي لإقرار المعاصرة التقريبية لنوعي الخزف دون التوصل إلى معرفة مؤكدة لأيهما هو الأسبق للآخر، حجج خوليو تيبو تؤدي إلى القبول التام بالنظرية القائلة إن تشافين هي نقطة انطلاق التوسع الثقافي عبر النصف الجنوبي من القارة، ولكن من المشكوك فيه بالمقابل أن يكون ازدهار تياهواناكو تالٍ لأعمال مناطق أخرى تنتمي إلى الفترة نفسها وتشاطرها أكثر العناصر المميزة لبعض الابتكارات التي يؤدي حرمانها من مركز اجتماعي، إلى الإحساس بأنها تنتمي إلى مجموعات ظهرت بتوالد ذاتي.

لو لم يكن الأمر متعلقًا إلا بأحد مظاهر التفكك وعدم التماسك التي تضر في كل الأنحاء بعلم الآثار، لما كنا تكلفنا مشقة النقاش حول مواد لم يُتح لنا امتلاكها بين أيدينا .



(الشكل ١٤) كأس بمواصفات تياهواناكو - نازكا - واري (تصوير أبراهام غينْ)

ولكن يحدث أن إحدى تلك المجموعات التى تظهر فى الفراغ تشكل أشد ظواهر القارة غرابة؛ ونعنى بذلك العالم المبهر الدفين فى باطن صحراء مترامية الأطراف: فهناك ما لا حصر له من المنسوجات المطرزة (يبلغ طول بعضها ٢٠ متراً وعرضها ٤ أمتار، منسوجة من قطعة واحدة)، وكميات من المجوهرات اللامعة، ومن الريش، والكثير من الخزف متعدد الألوان. لقد جمع فرانثيسكو بيثارو (فاتح البيرو) ثروة طائلة من سلب تلك المدافن؛ ومازال بإمكان منقب عن الآثار أن يكتشف مئات منها فى موسم تنقيب واحد، ونظراً لكمية مجموعات الآثار الوطنية والأجنبية المتداولة، يتبين أن التجار ينهبون تلك المواقع على هواهم.

لقد اكتشف ماكس أوهلى فى صحراء نازكا Nazca، كمية معتبرة فى عام ١٩٠٢ ويعرض متحف ليما الاركيولوجى أجمل قطعة بين الخمسة آلاف قطعة التى اشتراها *هذا العالم من "الباحثين عن الكنوز". ومع أن نهب المنطقة لم يتوقف قط، إلا أن هناك* مناطق لم تمس، ذلك أن الرمال تطمس الدروب فوراً، وبفضل ذلك اكتشف خوليو تييو فى العام ١٩٢٥ مدافن "الكهوف" Las Cavernas فى باراكاس Paracas، القائمة فى قبور منحوتة فى الرخام السماقى الأحمر لجبال شبه جزيرة باراكاس تلك، وتسمية باراكاس "Paracas" تُطلق على الرياح التى تهب دون توقف على المنطقة، وهى أعاصير حقيقية كثيراً ما يتذكر الأركيولوجى اللامع عنفها وعلاقتها، ذات التأثير الحركى، بالرمال.

ذلك العمل المشغول فى الصخر، والخاص بالمراكز ما قبل الاسبانية فى الانديز، إضافة إلى نمط الخزف، ووجود مدافن متوضعة فى طبقة الترسبات الناتجة عن البشر المعاصرين لـ "الكهوف"، جعلت خوليو تييو يميل إلى اعتبار تلك القبور المنحوتة فى الرخام السماقى تالية مباشرة لتشافين. ويضعها علماء آثار هذه الأيام فى الأفق نفسه(٢١)، رافعين بهذا مبدعى ما يعتبره تييو "ثروات تفوق ثروات أى مركز أثرى بيروى آخر" إلى مرتبة الأسلاف الأوائل(٢٢).

تتألف القبور المشيدة فى شبه جزيرة باراكاس من ثلاثة مواضع متراكبة بعضها فوق بعض، وذات أبعاد مختلفة وغير مرئية من السطح. سقوفها من الأغصان وأضلاع الحيتان وجلود الفقمات. وكلها تضم أعداداً كبيرة من المومياءات: فقد تمكن تييو من

إخراج أربعين مومياء من مدفن واحد. وغلبة الجنس الأنثوى الذى لاحظه يمكنه أن يؤكد عادة كانت ما تزال شائعة لدى وصول الاسبان: فبعض الزوجات كن يلحقن بأزواجهن إلى العالم الآخر؛ ولكن ما بين الـ ٤٠٠ جسد المنتمية إلى المرحلة التالية يغلب وجود "الرجال الضخمين المسنين". وكل الجماجم مشوهة اصطناعياً حتى يصل الأمر ببعضها إلى أن تكون أسطوانية، وتبدو فى عدد كبير منها آثار ثقب فى القحف، وتسمح بعض اللقى بمعرفة الأدوات التى كان يستخدمها الجراحون: مباضع وسكاكين من حجر السَبَج ذات مقبض، ملاقط مزودة بأسنان حوت، أقراص من القطن، نسيج، أضمدة، خيوط. أما التحنيط الذى يسمح لنا بالعثور حتى على العيون، فكان يبدأ بعد انتزاع كل الأعضاء الداخلية، ويتم بتجفيف الجسد على النار - كثيراً ما يتحدث تيبو عن أجساد مدخنة - وبواسطة مواد كيميائية لم يتم تحديدها تُطلى بها الأعضاء والأقمشة. ومن خلال آثار بعض الحشرات المكتشفة فى الجلد استنتج تيبو التعايش الطويل للأموات مع الأحياء. هذا الواقع يبين أن تلك الشعوب كانت تعرف الطقوس آنذاك - وبالتالى المعتقدات الدينية - والتى لم تضمحل حتى مجيء الأغراب فى القرن السادس عشر. ولدى تدخين الجسد، يكون مطوياً على نفسه بحيث يشكل كتلة بيضوية صغيرة توضع فى سلة، أما الأقمشة، وهى فاخرة فى الغالب، فتلف كتلة الجسد المركزية التى تتحول بذلك إلى مخروط يُملأ بمجوهرات وبحاجيات شخصية صغيرة، ويصل ارتفاعها أحياناً إلى المتر، ومع تنويعات بسيطة فى الأسلوب، تواصل تراكم هذه الخزائن الثمينة والهشة خلال المراحل التالية : فكل واحد من القبور التالية يضم بضع عشرات منها، مصفوفة بعضها فوق بعض كما لو أنها حزم.

من الصعب حل المشكلة التى تطرحها هذه الصحراء ذات الأحشاء المتلألئة، ذلك أنها تقدم منذ بداياتها ثقافة شديدة التفرد، تمتلك كل المعارف ذات الصلة بفنون طب وديانة الإنكا فى نهايتها، وتتطلب، انطلاقاً من الدروب الشهيرة التى تخترق البلاد، تدجين الحيوانات، والتقنيات الزراعية وحتى وجود التنظيم الاجتماعى المتوازن والقوى الذى أثار إعجاب الأوربيين.

إن هذا التطور، حسب نظرية خوليو تيبو، هو تطور محلى (مرتبط بمركز ربما كان يأمل فى اكتشافه فى محيط المكان)، وقد أثارت هذه النظرية اعتراضات حال

موت تييو دون مواجهته لها، ففضلاً عن الأحجية التى يفرضها كل ظهور لعالم جديد – العناصر التى يمكن أن يكون قد تلقاها من تشافين لا تفسر الحضارة الراقية الموجودة فى قاعدته –، هناك صعوبة أخرى تعترضنا: كيف نصدق أنه أمكن للصحراء أن تكون مكاناً مناسباً لتحقيق إنجاز بمثل ذلك الكمال؟ ويبدو الأمر أبعد احتمالاً، بعد أن تبين أن الوديان – الواقعة على بعد عشرات الكيلومترات من المدافن – تخلو من أية مراكز سياسية أو دينية، كما أن أبحاثاً مهمة فى الجغرافية البشرية استبعدت من جهة أخرى، فرضية التبدل فى الظروف المائية للمنطقة خلال فترة أبعد من كل الاحتمالات المفترضة للزمن الذى تحققت فيه تلك الإنجازات[٢٣].

غير أن علم الآثار، بدقته الصارمة، يُثبت أن سكان ساحل المحيط الذين يُنسب إليهم إبداع أكثر العناصر تميزاً فى الثقافة البيروية، كانوا صيادى أسماك يجمعون البقايا التى تُخلّفها الطيور على الجزر المجاورة، وكانت تُستخدم سماداً منذ ذلك الحين، وكانوا يعيشون فى أكواخ دون أدنى استقرار دائم. وبالفعل، فالبقايا التى عثر عليها خوليو تييو مختلطة مع مدافن "الكهوف" كشفت عن "أكواخ مؤقتة مهجورة"، وكذلك عن تغذية تعتمد على الرخويات البحرية والسمك. وأحدث حفريات التنقيب عن المقابر الأثرية فى الامتداد الصحراوى التى قام بها فريق فنيين يقوده الفرنسى فيدريكو انجل Federico Engel أكدت على غياب العمارة وعلى المنشأ البحرى لفضلات الحياة اليومية: وهنا نرى دليلين يؤكدان الوضع الاجتماعى لسكان المنطقة. ويحدث أن بقايا مواد البناء التالية (آجر قاس مصنوع من أحجار صغيرة، وطحالب سوداء، وفتات من الخشب، وعظام حيتان و صلصال كلسى) لا تنطبق على البيوت العادية المؤلفة من "غرفة مزودة بمطبخها الخاص، وفناء وحجرة مأتمية تشكل، إذا جاز القول، الوحدة البنائية لمجمع البناء الفسيح"[٢٤]. وأخيراً، وعلى الرغم من العثور على مشاغل فخار، فإن المرحلة الثالثة – ثقافة نازكا Nazca – لا تملك كذلك قرى، والروابى الهرمية الموجودة – والمحاطة أيضاً بقمرات مأتمية – هى نادرة إلى أقصى الحدود. ولهذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى الاستنتاج بأن الساحل لم يعرف مطلقاً ساكنين آخرين سوى الصيادين الموسميين وحراس الموتى، وأنه لابد للأدوات الموجودة فى القبور من أن تكون قد صُنعت فى مكان آخر.

وإلا كيف يمكن التفكير بأن حياكة نسيج يتطلب تعقيده حياة كاملة لإنجازه، أن يتم صنعه ضمن جماعة شبه بدوية؟ وأين يمكن لهم أن يكونوا قد أقاموا مشاغل الفخار وورش تشذيب الأحجار النفيسة؟ وهل من الممكن تصور التنظيم اللازم لمثل ذلك الانتاج الفاخر بالجملة، دون وجود مبان مدنية ودينية، ودون استقرار حقيقى؟ وفى أى مستودعات حُفظ الصلصال، والطلاء، والصوف، والحرير، والريش، والمعادن، والأحجار، والأخشاب الثمينة التى لا تملكها المنطقة الساحلية المقفرة؟ وهل يمكن تصور سيرورة النضوج التى لابد منها لكى يتمكن شعب من الوصول إلى تلك الدرجة من النشاط الخلاق فى وسط طبيعى عدائى، تصعب سكناه، حتى على الصيادين؟ وكيف أمكن إعالة جموع الحرفيين والفنانين والموظفين الذين تتطلبهم الأعمال المكتشفة حتى الآن؟

لقد رأينا أن الأركيولوجيين يضعون فى الأفق الأول ثلاث بؤر ثقافية أساسية: تشافين، باراكاس، وحوض تيتيكاكا. وبينما المدافن لا تأخذ مباشرة أى ملمح من ملامح الموقع الأول، تبدو بالمقابل، أنها تتضمن كل ملامح الأخير: الأسلبات(*) الرمزية للمنسوجات، ومنهج التحنيط، ونمط الدفن، والخزف والميل إلى رسم الوجوه البشرية وفى الوقت الذى يؤكد فيه خوليو تييو بأن خزف الساحل "... يمكن أن يعتبر مرحلة وسيطة ما بين خزف تشافين، الذى ينحدر منه، وذاك... المحدد جيداً فى حوض نهر ناسكا الكبير... "[٢٥]، فإنه يقدر أن القرابين فى قبور "كهوف باراكاس" تتألف من "أعمال فخارية ومنسوجات من نمط تياهواناكو" ويفكر بأن حزم الكيبوس(**) التى وجدها فى المدافن لا بد أن تكون من "... ابتكار شعب كوللا Kolla ، وسابقة لمرحلة الإنكا..." وعلى الرغم من الاختلافات، مازال هذا النسب مقبولاً، وويندل بينيت – وكانت كل جهوده موجهة لبيان هذه المسألة الكبرى – يعلن: "... من المعروف منذ وقت طويل أن رسوم منسوجات الساحل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحفر الزخرفى فى تياهواناكو"[٢٦]. وكانت العناصر الجوهرية التى تميز المدافن معروفة بالمقابل لمشاطئى

(*) الأسلبة Estilizacion : تفسير شكل صورة بإبراز ملامحها الأساسية .

(**) كيبوس Kipus أو Quipus : حبال صوفية متعددة الألوان كان هنود البيرو يعقدونها فى عقد عديدة ويستخدمونها للعد والحساب أو لتسجيل بعض الأحداث المهمة .

البحيرة، وإذا كان تسلسلها التاريخي غير واضح، فإن حضورها ذو مغزى : فقد اكتشف بوسنانسكي قمرات تحت أرضية تضم أجساداً محنطة موضوعة في سلال، وجماجم مشوهة وتظهر فيها آثار ثقب القحف.

أما فيما يتعلق بالخزف، فإن ما تحتفظ به باراكاس من تشافين قليل جداً (النقوش مختلفة، فهو لا يتابع إلا محيط الزخارف المرسومة، وأشكال الخزف تجهل القارورة والدمجانة ذات المقبض كما هو الأسلوب الخاص بالشمال)، ولكنه يقدم بالمقابل بعض الملامح المميزة لخزف "تياهواناكو القديم" : رسوم هندسية أو تصويرية تتم بالحفر؛ وألوان شديدة الكثافة والبريق يدعوها تيبو اللَّك lacas ؛ أما خلفية النقوش فذات لون أصفر قاتم أو أسود (الشكل ١٥). ويدخل الطلاء السلبي - غير المعروف في تشافين وفي تياهواناكو على السواء - وبعض الطرائق الشكلية - قاعدة مدورة للأطباق، ومقبض بمنقار في كل طرف - ليضفي مع ذلك شيئاً من الاستقلالية على خزف "الكهوف" في باراكاس[٢٧].

تياهواناكو هي المنطقة الأركيولوجية الوحيدة التي تشترك مع باراكاس في بعض الملامح غير المعروفة في مناطق أخرى في الحقبة نفسها؛ ويبدو تطابقهما أكثر قابلية للنقاش لأن تياهواناكو شهدت، مع نهاية ازدهار منطقة المقابر، توسعًا بيرويًا يتطلب زمنًا طويلاً. هذه المرحلة من التأثير المؤكد - بقاياها تكتسح أقصى المراكز الشمالية - سُبقت بمراحل جرى خلالها اندماج بطيء لملامح الشاطئ مع الهضبة، وهي مراحل يحاول المختصون تحديدها، ولن نقدم عنها سوى ملخص سريع.

يلي خزف "الكهوف" متعدد الألوان والمزين بالنقوش خزف آخر يسميه تيبو "مقابر باراكاس"، متشابه في الشكل، ولكنه خال من اللون والرسم، ويستبدل هذا بدوره بخزف نازكا، اللامع أكثر من أي خزف آخر، والمزين بوجوه وكائنات مبهمة تطغى على الخلفية الفاتحة للأواني (الأشكال ١٦ حتى ١٩). وبالرغم من الاختلافات، فإن المراحل الثلاث متحدة فيما بينها بروابط لا يحلم أحد بالتشكيك بها؛ فالجميع يقدرون، مقتفين أثر تيبو، أن خزف نازكا ينحدر من خزف "الكهوف".



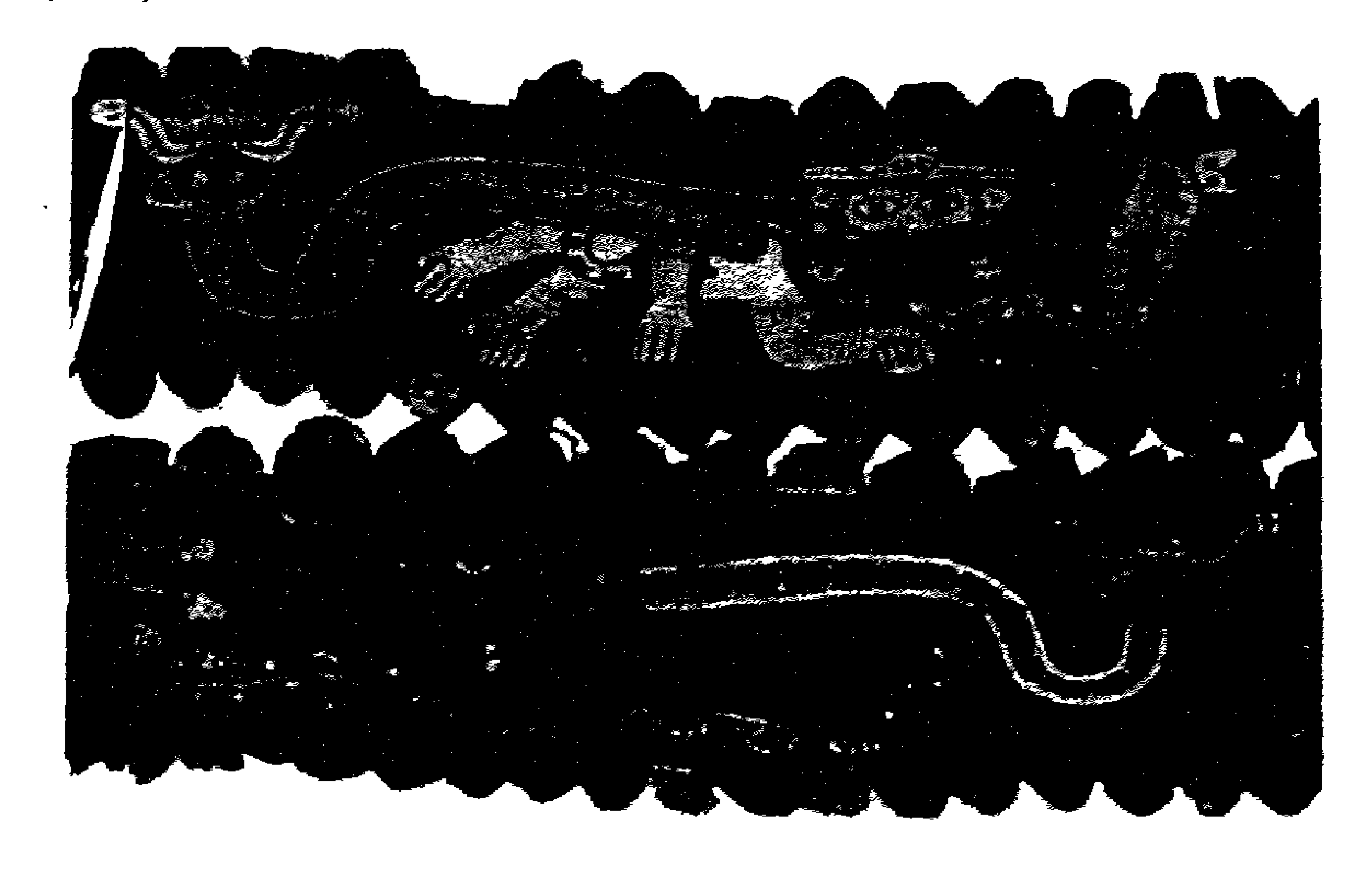
(الشكل ١٥) قطعة من خزف باراكاس
(تصوير أبراهام غيين).
(الشكل ١٦) كأس أنبوبي نازكا
(تصوير أبراهام غيين) .
(الشكل ١٧) شخصية نازكا مزين
بإكليل (تصوير أبراهام غيين) .
(الشكل ١٨) إناء نازكا
(تصوير المتحف الأركيولوجي ، ليما) .

(الشكل ١٩) إناء نازكا مزود بمقبض
(تصوير أبراهام غيين)

ومن بينها جميعًا، كان خزف نازكا هو الوحيد الذى عرف انتشارًا واسعًا، ففضلاً عن تمدده على طول ساحل المحيط الهادى (اكتشف تييو وجوده فى نحو عشرة أماكن إلى الشمال من منشئه)، وصل إلى الهضبة. هذا التداخل للساحل فى الجبل يخلق (فى الموقع المسمى وارى Wari أو هوارى Huari ، على خط عرض كوسكو نفسه تقريبًا) مركزًا، حملت تشابهاته المتعددة مع تياهواناكو، عالم الآثار ويندل بينيت إلى الاستخلاص بأنه لا يمكن تفسيرها إلا من خلال التماس المباشر. وحسب هذا الأركيولوجى، الذى أجرى دراسة تفصيلية لطبقات الأرض فى وارى، فإنه يمكن لهذا الموقع أن يكون مركزًا مدنيًا (حضريًا) شُيِّد خلال حياة تياهواناكو. ويبدو أن الخزف المعروف باسم "تياهواناكو التوسعى" يُغلق على نفسه دائرة، تتطور بالكامل فى أحشاء هذه المنطقة الجنوبية : خطوطه المباشرة تنطلق من تياهواناكو ولا تتوقف فى وارى إلا بعد التفافة طويلة عبر الباسفيكى. وليس مصادفة أن استقرار هذه المدينة واجتياحها الشمال بمنتجاتها يتوافقان مع هجر صحراء تبين أعمال التنقيب أنها تغص بالإبداعات؛ وهو هجران لا بد أن يكون، منطقيًا، قد أطلق القوى المنتجة التى احتكرها الساحل طوال قرون. وتلقى الأقمشة، أكثر من الخزف، الضوء على هذه الرحلة الفسيحة؛ فأعمال التطريز تُدخل مفاهيم وأشكالاً يصبح استمرارها جليًا لدى العثور عليها بعد ذلك فى الخزف (الأشكال ٢٠ – ٢٢). فالرموز التى ظهرت فى البدء على منسوجات "كهوف باراكاس"، ستكون قوام عالم نازكا؛ ومع النقوش المستقاة من طقوس منطقة المدافن أو المأخوذة بأمانة من نقوش تياهواناكو، رسخ خزف نازكا أسس "وارى" فى الهضبة. ومن هنا يُستنتج أن المركز السياسى الذى أقامته تياهواناكو إلى الشمال من مملكتها كان موقعًا شغلته لبعض الوقت شعوب تشاطرها ثقافتها نفسها. ومع أن هذه النتيجة تبدو لنا الوحيدة المنطقية، فإنها تقوض الفرضيات التى يحاول الأركيولوجيون من خلالها التعرف على طبيعة التيارات التى تتشابه فى الأسلوب مع وارى. ومن خلال دراسة موجزة للمواد الأركيولوجية التى أخرجها من هذا الموقع خوليو تييو – اختفت هذه المواد قبل التمكن من تحليلها –، أثبت لويس غييرمو لومبرايراس وجود شبكة من المؤثرات بين الساحل والجبل ؛ وهى شبكة غائمة جداً ورجراجة، تحاول أن تشق دروبًا لا حصر لها من أجل البحث عن حلّ حاسم.



(الشكل ٢٠) رسم شخص مطرز على كفن من باراكاس (تصوير أبراهام غيين)



(الشكل ٢١) رسم شخص طافٍ. باراكاس (تصوير أبراهام غيين)

وتتأكد الوظيفة التى تتولاها تياهواناكو حيال الساحل إذا انتقلنا من العلاقات الفنية إلى ميدان الوقائع المادية، إذ لم تكن هناك منطقة أخرى قادرة على تنظيم مهمة تحويل المواد الأولية الموجودة فى الرمال إلى أدوات مصنعة فى الجبال، ففضلاً عن السلطة الروحية، الجلية فى عظمة صروحها، تتصف تياهواناكو ببعض الظروف المادية الفريدة الإضافية : فهناك بحيرة تشكل طريق اتصال مثاليًا ؛ فضلاً عن قرب السماء من المرتفعات المكللة بالثلج الواقعة على أقرب مسافة ممكنة من البحر. ومع التمتع بوفرة الملح، وبأراض دافئة ومعتدلة، تنتج الذرة والقطن، فى موطن البطاطس، والحيوانات وفيرة اللحم والصوف، اللاما والفيكونيا، وهى حيوانات رقيقة ومتكبرة، لا تعيش إلا فى المرتفعات الشاهقة. يضاف إلى ذلك أخيراً موقعها الجغرافى، ما بين الساحل والمناطق الأمازونية، مما يجعل منها مركزاً لتجارة المواد المدارية الثمينة لفنانى ذلك العصر، ويجب ألا ننسى، فى هذا المجال، أنه بسبب عدم وجود النقد فإن هذه التجارة تفترض فائضًا من المواد المصنعة والمنتجات المخصصة للمقايضة التى يستحيل التوصل إليها دون اقتصاد منظم فى عاصمة حقيقية.



(الشكل ٢٢) رسم شخص يهوى على رأسه . باراكاس (تصوير أبراهام غيين)

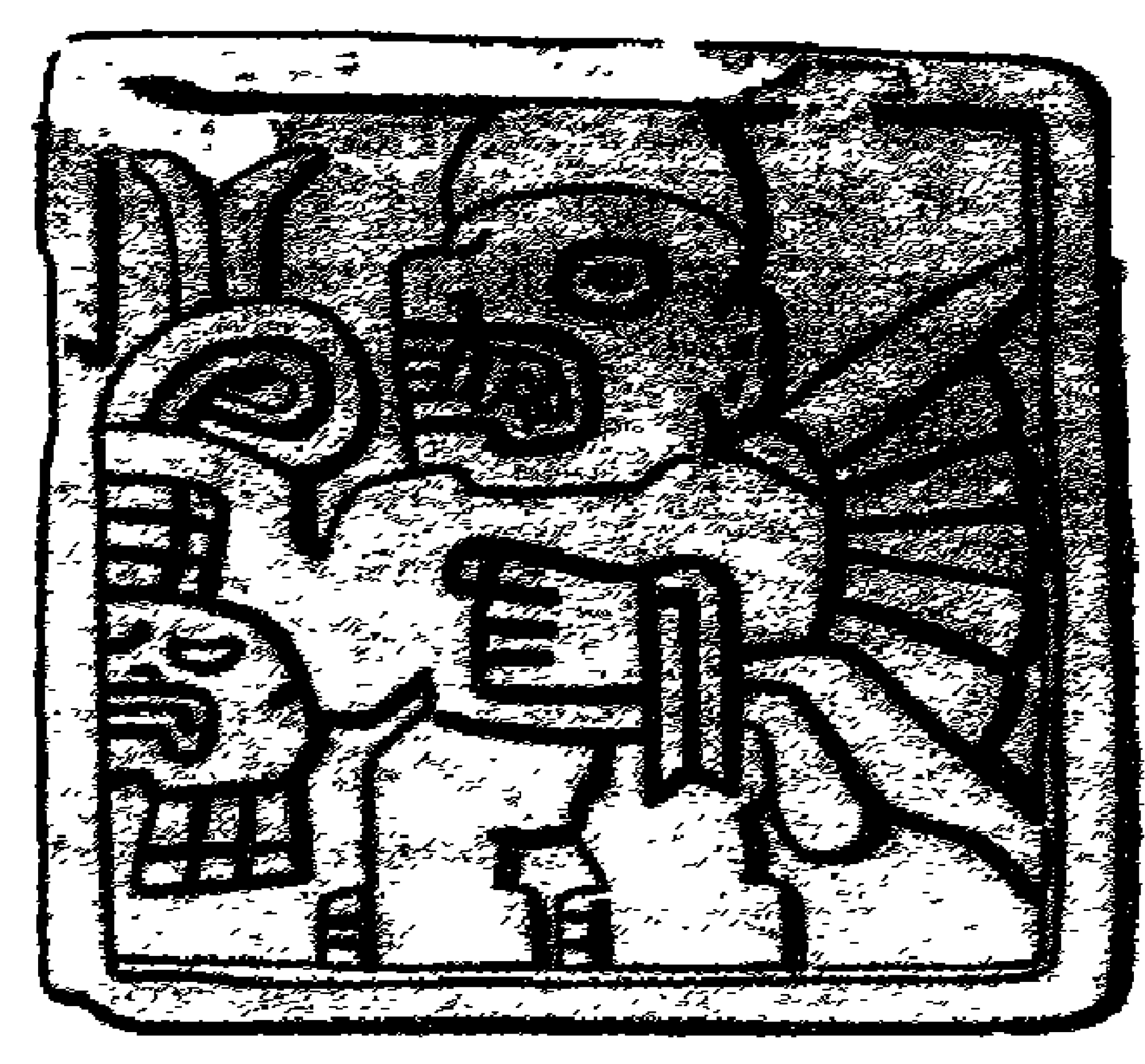
وانطلاقًا من واقع أنه لا بد لعاصمة الإنكا من أن تشكل كذلك جزءًا من هذا القطاع الجنوبي، تظهر تشافين فجأة كمجرد ثقافة محلية. ومع ذلك، وباقتران قِدمها الذى لا جدال فيه مع تطورها الفنى والدينى، فإن التأثر الحاسم الذى مارسته على أساليب كثيرة يشير إلى أنها موجودة فى أساس المشروع الضخم لتغيير هيئة الصحراء. ولا بد أن أعيانها قد بحثوا عن موقع ملائم لمدينة الأموات، مثلما بحثوا عن موقع لمدينة الأحياء، وتشهد الظروف الطبيعة المثالية للصحراء من جهة، ولتياهواناكو من جهة أخرى، على ذكاء كلا الاختيارين. فإذا كانت هذه الفرضية دقيقة، فإنه يمكن لتشافين أن تكون قد استفادت من طول عمر استثنائى (الأصيصان متعددا الألوان اللذان عُثر عليهما فى ركيزة معبدها يبينان أنها كانت ما تزال موجودة بعد تأسيس تياهواناكو) وكانت تمتلك آنذاك الثقافة التى ستتطور بعيداً عنها؛ ذلك أن الدافع الداخلى والترميز الذى تفترضه إرادة خلق عاصمة ذات أهمية قارية تستدعى وجود بنية دينية واجتماعية مماثلة لما لدى الإنكا، بيد أنه لا يمكن لهذا المركز أن يكتسب الثقل الكافى للظهور على أنه قلب المستوى البيروى الأول، المستوى التكوينى الذى سيعود للانبعاث بعد قرون فى وارى Wari ، إلا بجعل تشافين أصل تياهواناكو، ومنشأ منطقة المقابر فى الوقت نفسه.

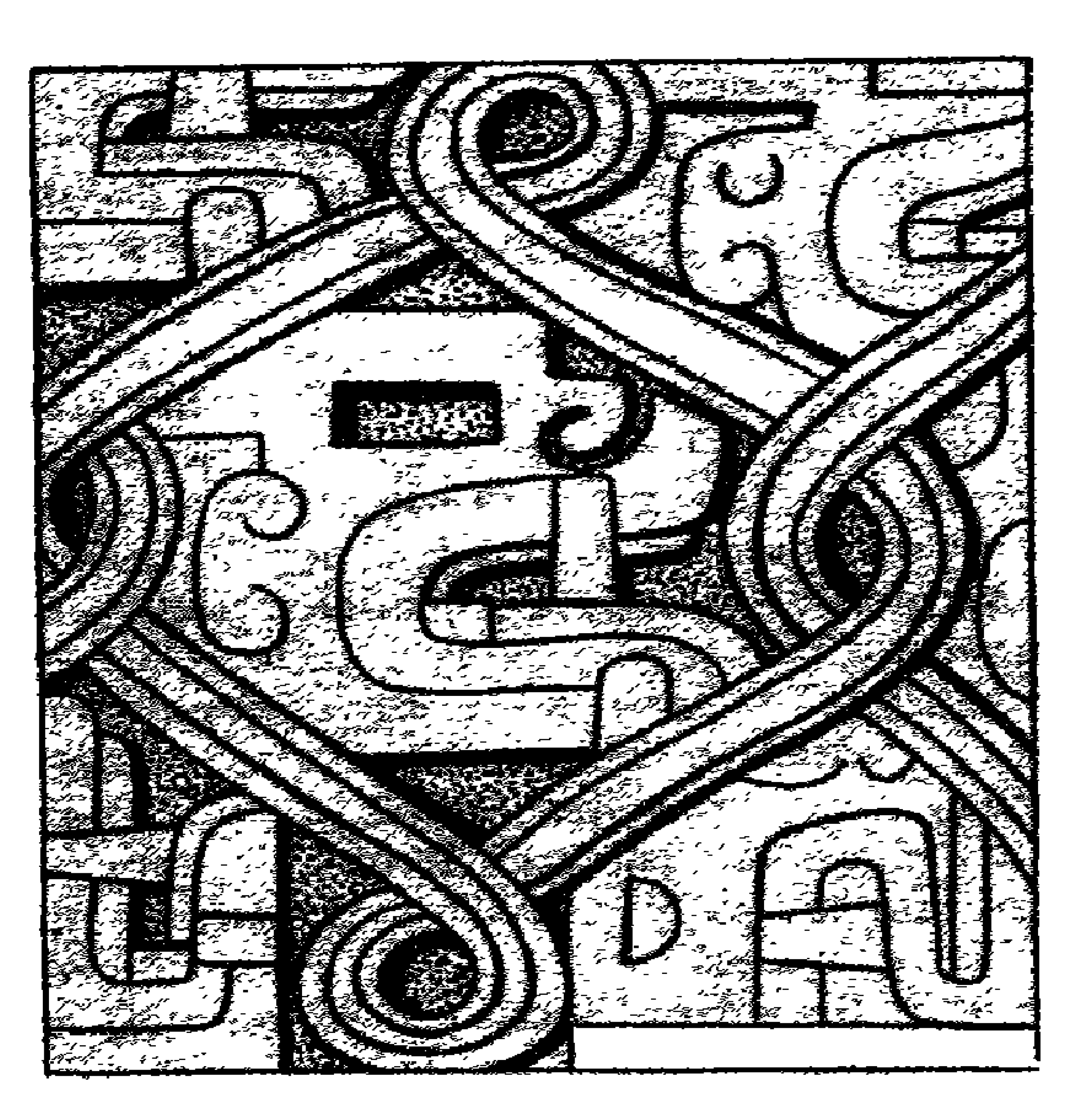
وسيكون من المثير متابعة التحولات التى عرفتها الأيقونات على امتداد هذه المرحلة الشاسعة، ولكننا سنكتفى بدراسة موجزة للصور المميزة لبقايا تلك المواقع الأصلية الثلاثة.

(ب) تشافين دى هوانتار :

إن تشافين الخالية من الرسوم والمنسوجات، لا تعبر عن نفسها إلا من خلال أعمال الحفر الزخرفى؛ أما النقش الكامل فيقتصر حصراً على المنحوتات المعمارية (الشكل ٢٣). فهى تجهل إذن التمثال البشرى، والأعمال النادرة التى تمثل هيئة الإنسان – وهى مشوهة دومًا بملامح الجغوار – تكون مسطحة (الشكل ٢٤). ويمكن الاعتقاد أن شيوع هذه المعالجة، التى لا يمكن أن تكون نتيجة خطوط عَرَضية ،









(الشكل ٢٣) رأس رجل – جغوار – أفعى مثبت على أحد جدران معبد تشافين دى هوانتار (حسب خوليو تيبو) .

(الشكل ٢٤) رجل – جغوار – طائر من نقش غائر فى تشافين (حسب خوليو تيبو) .

(الشكل ٢٥) أسلبة لرأس جغوار على إناء من الحجر فى تشافين (خوليو تيبو) .

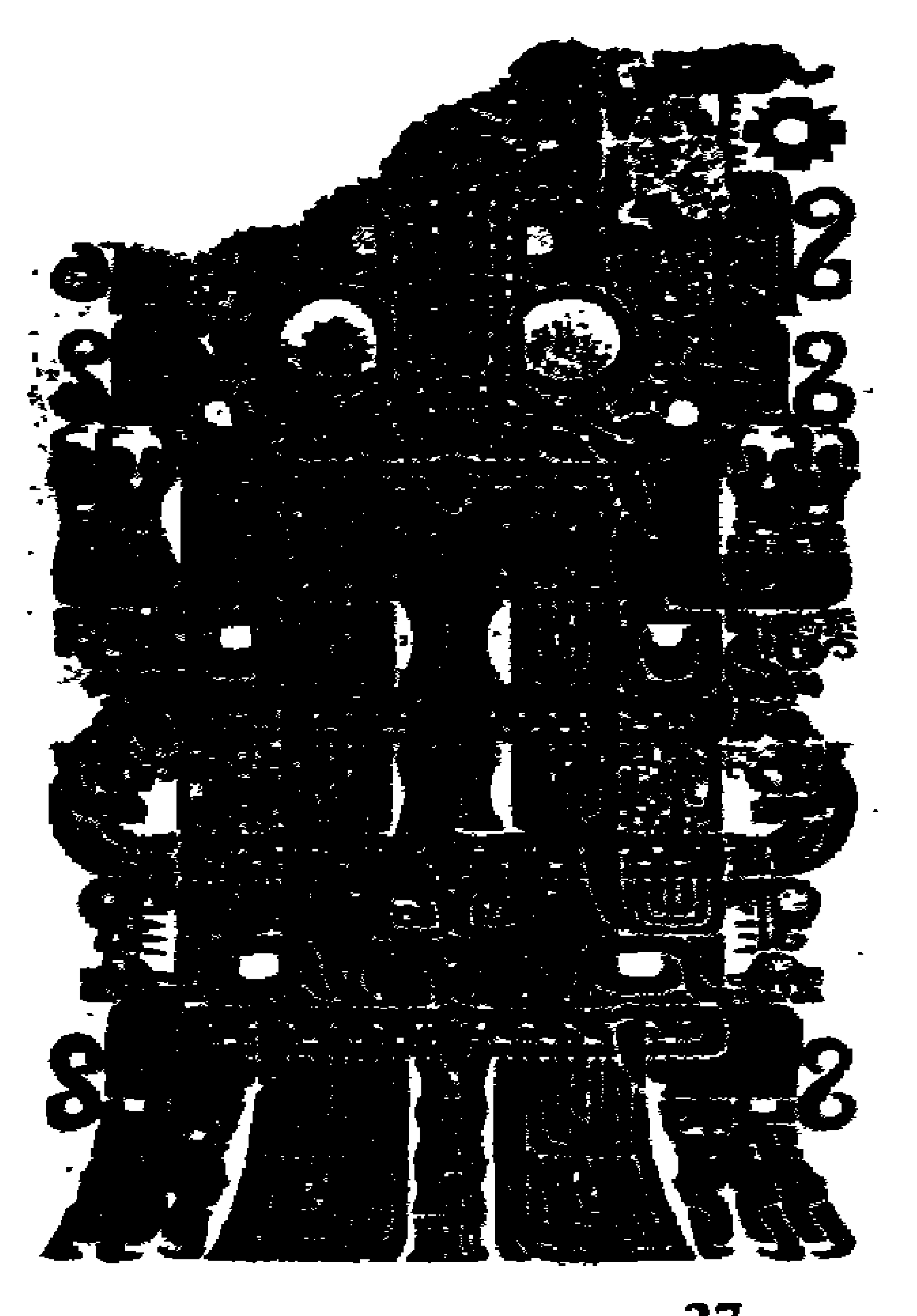
(الشكل ٢٦) نقش غائر على أثر من سيتشين . وادى كاسما (حسب خوليو تيبو) .

يستجيب لخيار مقصود، ذلك أن الخزف أيضًا يتجنب عمومًا تمثيل الوجه البشرى (الشكل ٢٥)، ونعود من جهة أخرى، لنجد غياب الزخارف فى موقع متأخر بعض الشىء عن تشافين فى التسلسل التاريخى (رابية سيتشين Sechin ، على الساحل، وعلى خط العرض نفسه)، والانكباب على نقش الأشكال البشرية على النصب، بأفواه ضخمة، ودون أنياب (الشكل ٢٦)، وجميعها تقريبًا تحمل على خدودها شريط تياهواناكو المميز.

وبرسوم حيوانات، شديدة التعقيد، يصل فن تشافين إلى درجة من الكمال والدقة غير المعهودين فى التماثيل البشرية؛ وتكشف أعمال الحفر الزخرفى عن مهارة عالية: أحجار كبيرة قاسية، مغطاة بما لا حصر له من الخطوط الرشيقة والأنيقة، تبدو وكأنها مرسومة بالريشة. بل إن هذه المهارة تطال توليفة النقوش، بحيث تُعدّ هذه الأعمال من بين الأكثر دقة وإحكامًا فى القارة. ومع ذلك، وبمساعدة الدراسات التى أجراها خوليو تييو، أُمكن رؤية أن عناصرها الأساسية هى على الدوام تقريبًا ذات طبيعة حيوانية (نادرًا ما تكون بشرية أو نباتية) ؛ معزولة عن سياقها التشريحى، توجد مركبة وفق منطق يزيف النسق الطبيعى. ولنترك جانبًا أكثرها غموضًا ولنأخذ نموذج الحيوان الهرِىّ المنتصب على قائمتيه (الشكل ٢٧) : لقد تم الحصول على الرأس من خلال مجاورة رسمين جانبيين للوجه (انظر الرسم أفقيًا، بتغطية العين والأنف الموضوعين تحت إحدى الذقنين)، والجسد مكوّن من عيون وأفواه وأنياب ورؤوس ورموز لا يجمعها أى نظام سوى التناظر. أما الذيل فهو من أرياش نسر متصلبة.

أكثر هذه التكوينات سرية يظهر على نصب حجرى على شكل خنجر، طوله ٤,٣٥ متر، رأسه مغروس فى الأرض ومقبضه يخرق السقف، كما لو أنه قد سقط لتوه ضمن الحيز الضيق الذى يشكل مركز دهليزين تحت أرضيين لهما شكل الصليب (الشكلان ٢٨ و ٣٠).

الشخصية التى تزين هذا النصب ليست منحوتة فى نقش بارز؛ ويمتد وجه الشخصية وجسدها على وجوه النصب الثلاثة بنحت وحفر وحز. هذا التكوين الغامض بصورة مثيرة للقلق، متصل مع ذلك بتكوينات أخرى (بروفيلات متجاورة، ملامح وزخارف مؤلفة من أشداق وعيون وأجساد أفاع عدوانية) وهو يكشف نواة الفكر



27



28

29

30

(الشكل ٢٧) حيوان هرّيّ في وضع منتصب : تم رسم الوجه ببروفيلين متناظرين .
(حسب خوايو تييو) .

(الشكل ٢٨) «ختنجر» تشافين (حسب خوايو تييو) .

(الشكل ٢٩) جغوار مزين برؤوس حيوان زاحف وعرف كندور . نحت غائر على حجر في تشافين
(حسب خوايو تييو) .

(الشكل ٣٠) مخطط نفق تحت أرضي في معبد تشافين . النقطة السوداء في منتصف الصليب تشير إلى موقع «الخنجر» .

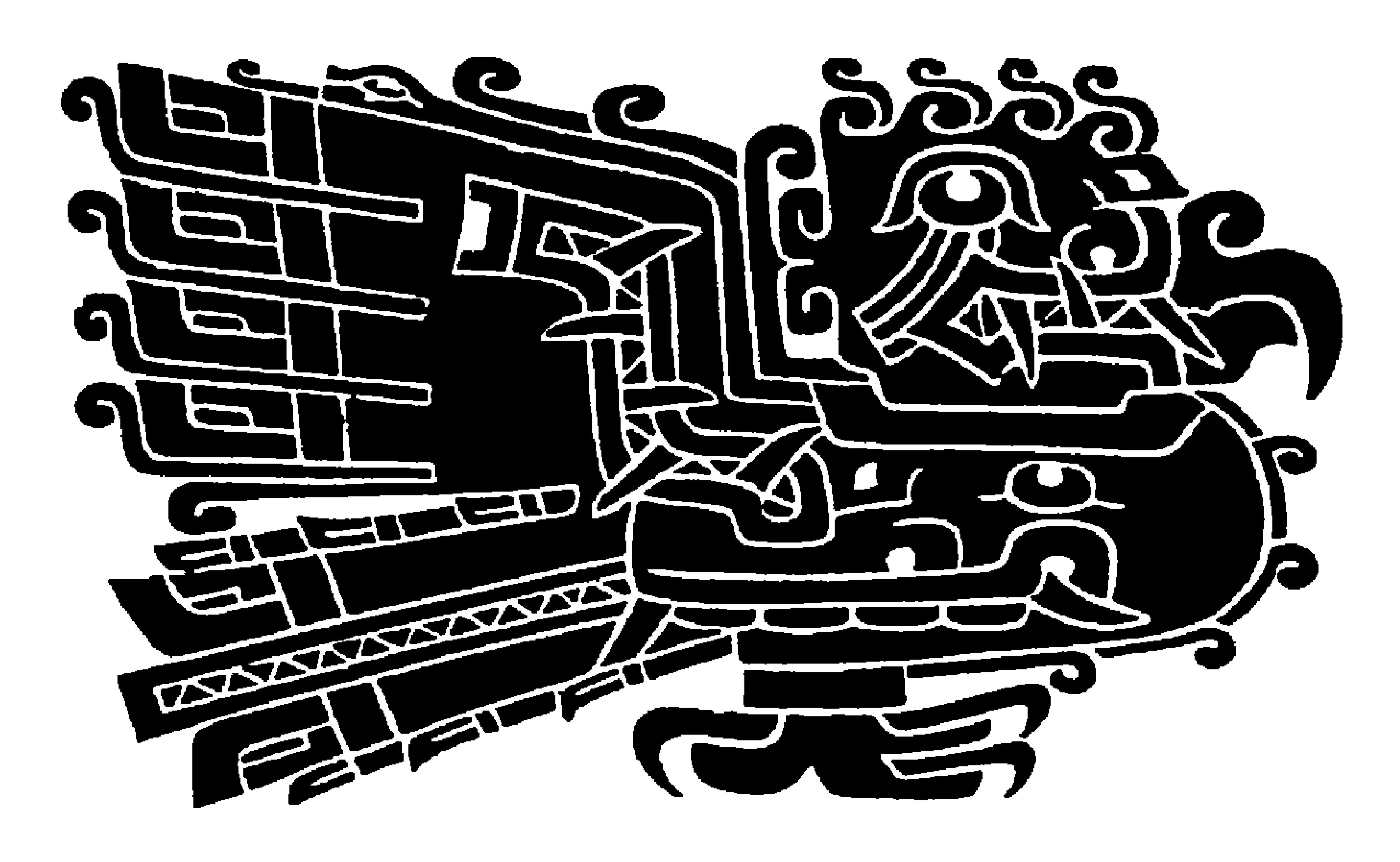
الدينى لتشافين المكونة من الحيوان الهرى والطائر والأفعى، وهذه النواة هى التعبير الرمزى الأكثر وضوحًا لتلك المقدسات التى كلما تكررت مركباتها فى صور أخرى كثيرة يسهل حلّ رموزها. والمثال على ذلك، بين أمثلة أخرى، هو الجغوارات المملوءة برؤوس أفاع منتهية بعرف ومزودة بمخالب كندور (الشكل ٢٩) وبطائر ذى عرف له أشداق جغوار تنتهى بمنقار، وعلى خده شريط، حيث تمثل الفجوات بين الريش فكوكًا بأنياب وأفاعٍ (الشكل ٣١). وعلى الرغم من وجود طيور وزواحف، إلا أن النمر هو الذى يحتل مكان الصدارة فى أيقونات تشافين: فهو يوضع فى منتصف التوليفات، وغالبا ما يكون وحيداً، كما هو الحال مثلاً فى الخزف الذى لا يكل من استنساخ رأسه وفق أسلوبهم. ويُلاحظ أخيرًا، حضور صليب مربع وعلى شكل S اكتسب بسبب كثرة تكراره قيمة هيروغليفية.

(ج) تياهواناكو:

لقد كان لأعمال المنطقة الجنوبية، منذ ظهورها، ملامح ميزتها طوال عشرات القرون: هيمنة الشكل البشرى؛ وتعميم الشريط العينى الذى يبدأ من الصدغ؛ وانتشار العلامة المتدرجة البسيطة أو المزدوجة (مشكلةً برج قلعة) أو مشكلةً شيكالكوليوهكوي؛ وتوالى مثلثات تبتلع بعضها بعضًا بصورة حلزونية؛ وأسلبة للحيوان الهرِىّ والزاحف والطائر.

بالفعل، تتميز بوكارا Pukara (وهى موقع غنى بالصلصال إلى الشمال من تياهواناكو، ومعاصر لتشافين وباراكاس) بخزف متعدد الألوان نُقشت عليه وجوه ناتئة تقريبًا وبأشرطة عينية مقطوعة. ويشير ويندل بينيت من جهة أخرى إلى وجود زخارف علىّ تماثيل ترجع إلى المراحل السابقة لتياهواناكو، تميز أسلوب بوابة الشمس: أجنحة، أو أسماك، أو كندورات تحيط بالعيون على شكل هالة.

أما بوابة الشمس الشهيرة التى تمثل الأفق الكلاسيكى، فتستنسخ تهجينات حيوانات تشافين نفسها، ولكن محورها هو الإنسان وليس الجغوار أو الكندور. بعض الرجال المجنحين يشهرون أفعى على شكل صولجان وكندورات بهيئة بشرية (الشكل ٢٣)





(الشكل ٣١) كندور مـركب من أنيـاب جغوار وحيوان زاحف . نقش غائر على جدار في تشافين . (نسخة عن الأصل) .



(الشكل ٣٢) كندور متـأنسن وانسـان - طائر مـحفور في نقش غائر على «بوابة الشمس» في تيـاهواناكـو ، بوليـفـيـا (حسب كوسيو دل بومار) .

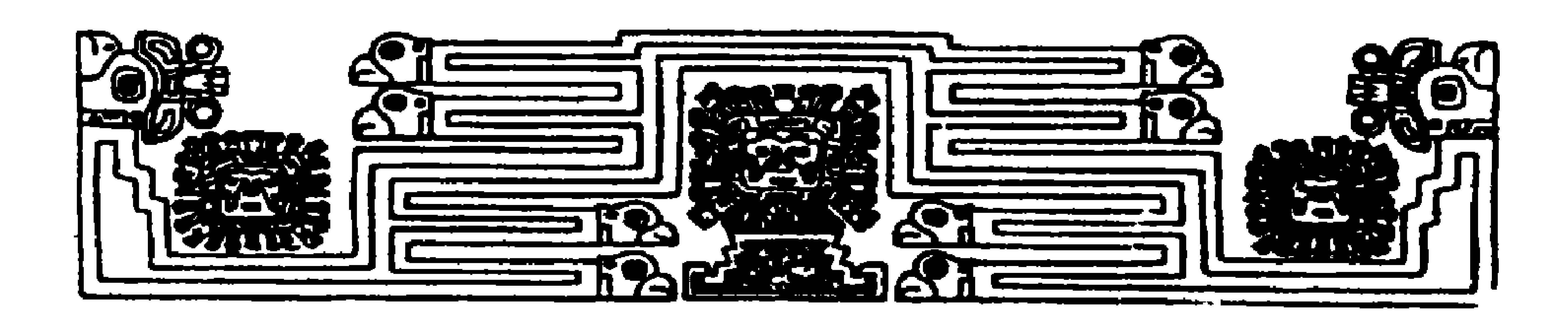
يركضون نحو شخص عابس يظهر مواجهة. رأسه مغطى بقنزعة ضخمة، مؤلفة من أجساد أفاع تنتهى برؤوس نمور ونسوركندور، ويحمل حيوانًا زاحفًا فى كل واحدة من يديه (الشكل ٣٣). فمه مزود بأنياب، ويخرج من عينيه الشريط التقليدى. ومعنى هذا الشريط، الذى لا يغيب عن الوجوه الجنوبية (كما أنه يظهر فى أقنعة مومياءات تياهواناكو، ويجده تييو كذلك فوق مومياءات باراكاس)، لم يُفسر بعد. هناك من يميل إلى أن يرى فيه دمعة - بناء على تسمية الطيور أو الآلهة "الباكين" -، وهو تخمين يبدو مؤكدًا بتصريح لفرناندو مونتيسينوس (الصفحة ٨٧) حيث يقول إن أحد مظاهر الألوهية هو «البكاء دمًا» بالتحديد.

القسم السفلى من عتبة الباب العليا (تحت ثلاثة صفوف من البشر - الطيور، والكندورات - البشر المتجهين نحو الجزء الأوسط من الباب) تشغله ثلاثة وجوه مشعة محاطة بهالة من الأفاعى لها رؤوس طيور وجغوارات، وعيون مزينة بأجنحة، تستقر، مثلما هو الشخص الأوسط، فوق قاعدة شرفة برج، تم الحصول عليها بدمج خطوط متدرجة. وهذه الرؤوس موجودة داخل "شرفة" أخرى، مفتوحة هذه المرة، وتنتهى خطوطها برؤوس كندور (الشكل ٣٤).

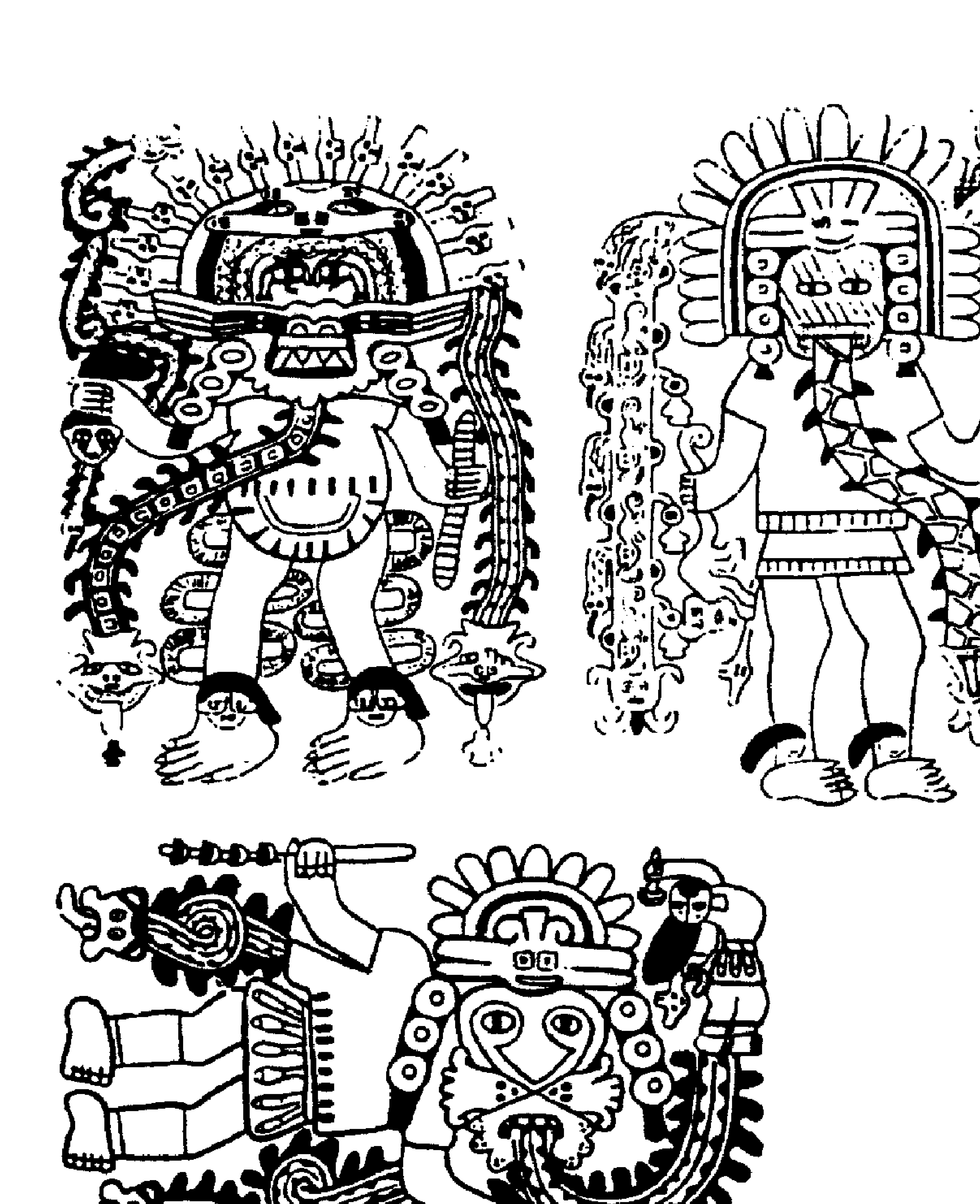
(د) المدافن (المقابر) :

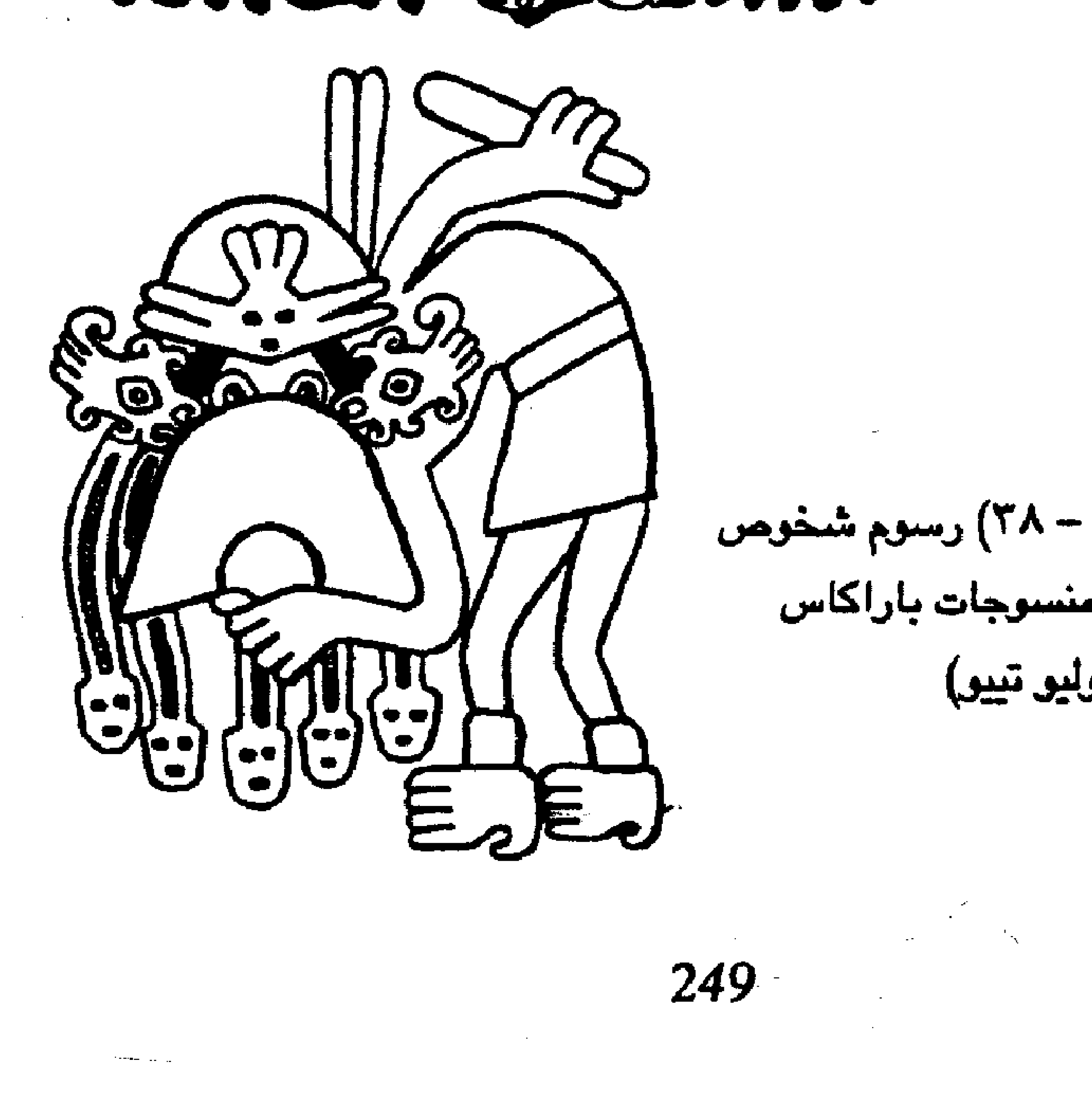
يقتصر خزف باراكاس متعدد الألوان والمزخرف على استنساخ الوجوه "الباكية" ونمور الهضبة؛ بينما تشكل المطرزات بالمقابل ينبوع ابتكار لا ينضب. وقد نُشرت الرسوم التى تستنسخها عام ١٩٥٩ على يد تلاميذ خوليو تييو الأوفياء؛ وتصفح الكتاب الذى يضمها هو تجربة منعشة مثل تأمل المنسوجات التى تغطى القاعة الفسيحة المدورة فى متحف ليما، إنه الإعصار نفسه من ألوان قوس قزح نابضة بالحركة تتحدى التفكير المنطقى والخيال على السواء؛ وهو الانقضاض العاصف نفسه، على حياتنا اليومية، لعالم يمكن القول إنه معلق فى حالة ترقب. التلوين يبدو نابضًا فى كل صورة تعرض بزهو دزينة من الأصبغة - مشكلة من زوائد طويلة متموجة تخرج من بشر متعددى الألوان مثل قوس قزح ، أجسادهم النابضة تطفو [فى الفضاء] أكثر مما تستند [إلى الأرض] : وهم يُقدَّمون بصورة دائمة تقريبًا فى وضع أفقى،

(الشكل ٣٣) الشخصية المركزية فى «بوابة الشمس»، تياهواناكو، بوليفيا.



(الشكل ٣٤) شخوص بهالات وأنماط زخارف خطية «بوابة الشمس»، تياهواناكو (حسب كوسيو دل بومار).





(الأشكال من ٣٥ – ٣٨) رسوم شخوص منقوشة على منسوجات باراكاس (خوليو تييو)

كما لو أنهم يسبحون، أو كأنهم يقذفون بأنفسهم، ورؤوسهم وأيديهم نحو الأسفل (الأشكال ٢٠ – ٢٢). تكللهم هالات، وطلاء للوجه وزينة للعينين؛ يحملون فى أيديهم رموز السلطة: صولجانات، أو صوارى مدجنة، أو رؤوسًا آدمية، أو عصى القيادة (الأشكال ٣٥ – ٣٨). وأكثر ما يهز المشاعر فى هذه الكائنات المتحررة من الجاذبية هى الزوائد التى تخرج من أفواهها، من قاماتها، من صولجاناتها، من وجوه ثانوية ومن أيدى أشكال صغيرة أخرى؛ هذه الزوائد تتشعب وتولد بدورها أزهارًا، ونمورًا، وطيورًا، وأفاعى، ورؤوسًا، ووجوهًا، ومن كل ذلك تخرج من جديد زوائد أخرى وأخرى. وكل شىء ينبض بالحيوية فى هذه الدوامة الساطعة : نتوءات الصولجانات الرجراجة، النمور الصغار ذوى النظرة الحادة، تموجات الزخارف الحلزونية، لون وتعابير الرؤوس بشعورها الطويلة السوداء، كأنها طافية فى الريح، يثبتها الشخص المركزى أو تزين كاحليه؛ والبهلوانات الأقزام الذين يحيطون بالعينين يخرجون من الجمجمة أو يحافظون على توازن صعب عند أقصى زائدة فموية.

لقد كانت عملية تحديد هوية الأجناس شاقة على المختصين، وقد صاغوا عدة نظريات فى هذا الشأن. ونحن نعتقد مع ذلك، أنه بسبب الإرادة الجلية فى تعمد الارتباك التى حكمت إبداع هذا العالم الخرافى، راحت الأشكال تتبدل وتتحول إلى شىء لا يمكن التعرف عليه. إنها تشكيلات يكتسب الصولجان فيها الحياة من خلال كل نتوءاته وينتهى برأس يُخرج لسانه، وفيها كائنات طافية تحاكى سيالات مائعة يخرج منها بهلوانات، حيث مخلوقات ذات بشرة فيروزية، أو خضراء، أو حمراء، أو صفراء تسقط فى فضاء حلزونى مترجرج، من الصعب فهمها بمقاربة طبيعية.

ومع ذلك، فإن هذا هو ما مورس دومًا مع الثقافة الهندية الأمريكية؛ فعلماء القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين الرائعون، كانوا أسرى الثقافة الغربية، مثلهم مثل كتبة وقائع الفتح: ففى الوقت الذى يلجؤون فيه إلى العقلية البدائية لكى يلقوا فيها، فى ركام مختلط، كل ما يخرج عن بعض المنطقية، يحاولون اختزال الظواهر إلى نفعيتها المادية، وحين تشكل تفسيرًا غير ناجع، يُحكم عليها بأنها بدائية. بيد أنه، إذا ما كان يمكن للمرء أن يخطئ بشأن المضمون الحقيقى لمفاهيم مثل الروح أو انبعاث الأجساد، والتى تورد الكتابات البيروية شهادات عنها، فإنه سيكون من

الصعب بالمقابل، إحداث تجريد لها عندما تعتبر واقعًا ملموسًا تمامًا ومربكًا جدًا للعقل البرغماتي، مثلما هي طبقات الأعمال البديعة في باطن أرض صحراء باراكاس ونازكا. فإذا ما فكرنا بأنه من أجل تحقيق هذه المهمة العملاقة كان لا بد من تنظيم نشاطات جزء كبير من النصف الجنوبي في كل المجالات وطوال مئات السنين، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتقاد بأن خلود الروح وانبعاث الأجساد يشكلان حقائق سيكون من عدم التهور والغفلة عدم أخذها بعين الاعتبار عند محاولتنا فهم معنى الظواهر التي تبدو وكأنها تترجمها مباشرة.

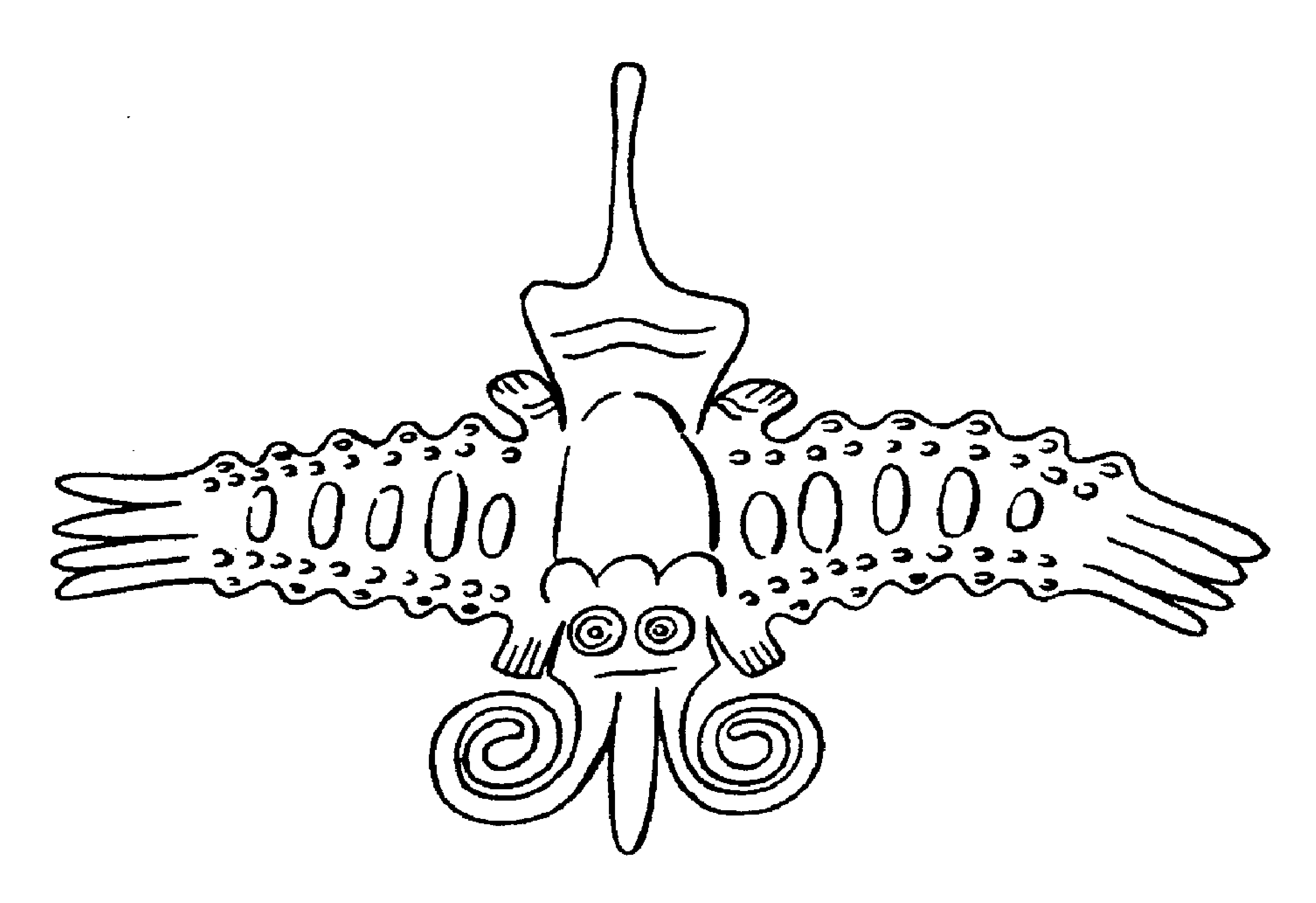
إذا ما سلمنا بأن الأعمال التي تغير أحشاء منطقة قاحلة، خالية من المساكن والعمارة المدنية، يمكن أن تكون مرتبطة بطريقة معقولة بمفهوم للقدر البشري الذي تنادي به الكتابات، فإن مطرزات باراكاس تكشف من جهتها عندئذ عن سرها. وندرك حينئذ بأن استمرار هذه الأشكال يؤكد وجود عالم قائم في مواجهة العالم الأرضي؛ وهو عالم مضيء وديناميكي (صورة تفرض نفسها بسبب وفرة الزخارف الحلزونية المتماوجة والألوان)، وهو عالم محكوم بالظرافة وتتحرر الأجساد فيه من الجاذبية. وعندما نعلم أن أمريكا ما قبل الكولومبية ترمِّز صيرورة الإنسان الروحية بواسطة الكواكب – الشمس بالطبع، ولكن من خلال كوكب الزهرة أيضاً في مرحلتيه، والذي تقدمه أساطير البيرو تحت أشكال توأمية، ذلك أن نجمة الصبح تتولى، كما في المكسيك، دور النموذج الثقافي الأصلي(٢٨) – فإن هذه الكائنات ذات الألوان القزحية والمتحركة تفرض نفسها كتجسيد لأجرام سماوية يُفترض أن يتحول إليها المستفيدون من التقنيات الصارمة الخاصة بعالم المقابر، ومن غير المستحيل أن تكون الزوائد، بسبب ديناميكيتها وألوانها، إشارة إلى إشعاعات هذه التجسدات، وأن يكون سبب الظهور الغريب للحيوانات هو أنها قد دخلت أيضًا في عالم تصبح ميزاتها القديمة فيه غير مجدية. ولهذا فإن ما هو طبيعي في تشافين وتياهواناكو يفقد صلابته، وبدلاً من مخالب الكندور الفولاذية الحادة، ومن أنياب الوحش الضاري أو رشاقته في لحظة الانقضاض، تُقدم كائنات عزلاء ومتألقة: طيور لينة متعددة الألوان، ونمور أقل عدوانية من القطط (تسمح بأن تُمسك من ذيولها)، وزواحف مشعة. والمجموع خالٍ من الخط المستقيم والمثلث، ومحاط بمجسات حلزونية، يُذكر بكتلة مائعة غير متماسكة، في حالة تمدد، فيض نور لا ينضب، وظهور ينابيع تطفح منها سيالات غير معروفة للفانين.

هناك عنصر ايقوني يدعم كما يبدو هذه الفرضية. وهذا العنصر غير الموجود فى تشافين وتياهواناكو على السواء يبدو أساسيًا أكثر عندما ينتقل - دون أن يختفى مع انحدار المنسوجات - إلى خزف نازكا، حيث يمارس هيمنة مطلقة. إنه نوع من الشريط يزداد عرضاً فى منتصفه ليشكل وجهاً بعينين وفم؛ وها هى ذى الطريقة التى زُين أحد الأشخاص به (الشكل ٣٥) : هالته مؤلفة من خمسة عشر شكلاً منها؛ وواحد آخر، أكبر حجمًا، يشكل إكليله، وواحد آخر يغطى فمه، ثم اثنان آخران، متراكبان ينهيان كل واحد من زائدتيه. وإذا كان هذا الشكل لا يظهر دائمًا بمثل هذه الكثافة، إلا أنه لا توجد صورة واحدة إلا وتعرضه، ويعود خوليو تييو للعثور عليه، من الذهب، فوق جبهة الملوك.

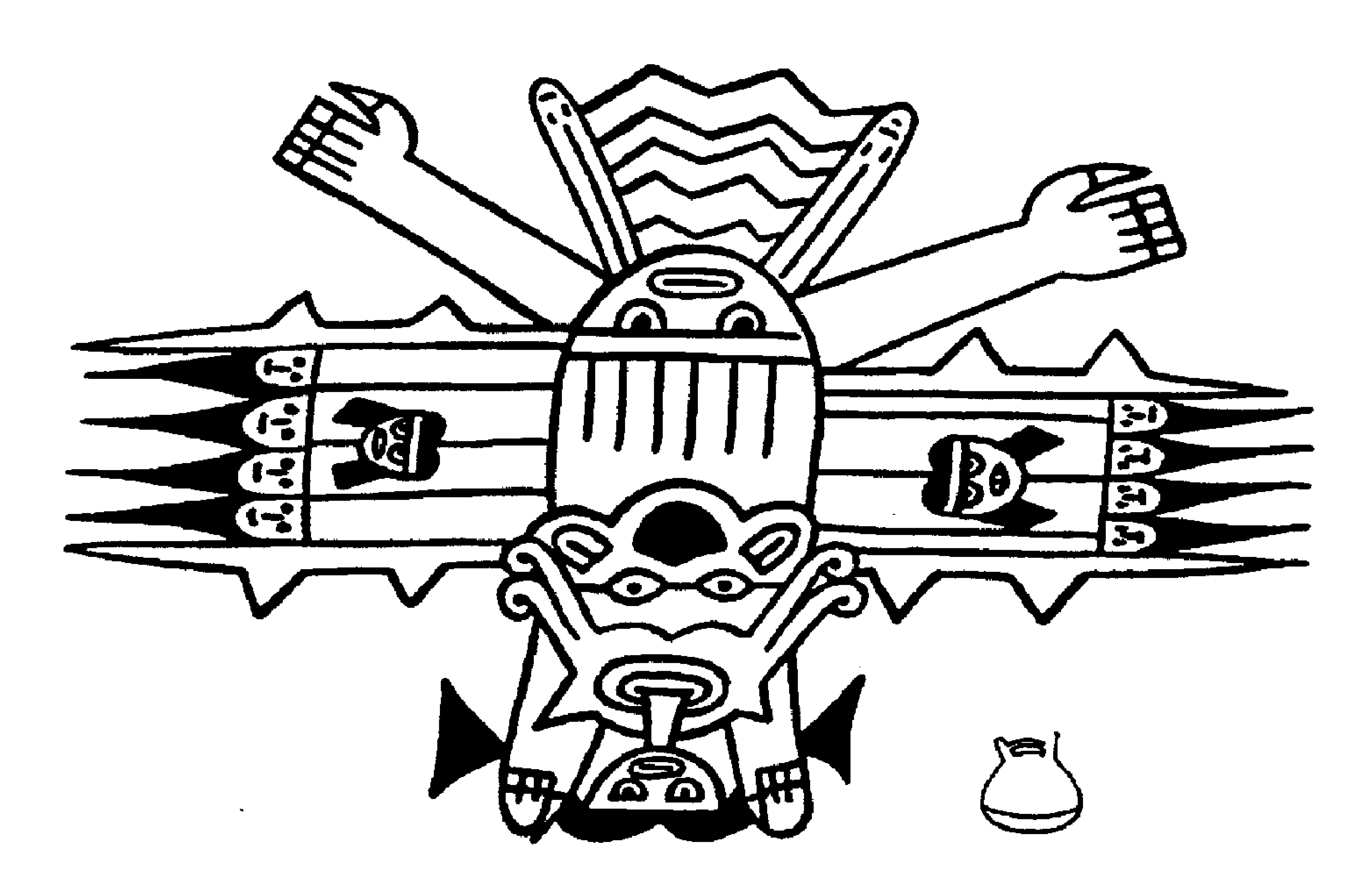
هذا العنصر، بتنويعاته نفسها، شائع الحضور فى المكسيك ابتداء من تيوتيهواناكان الأسطورية. وبفضل التفسيرات التى كتبها الوطنيون فوق كل واحد من رموز عدة مخطوطات، نعرف أنه يمثل فراشه وهذا هو فى الهيروغليفية رمز اللهب. ويبدو أن ولع خزف نازكا المفرط بهذه الصورة يعبر عن فكرة أن الإنسان نفسه يتحول إلى فراشة، ولنقتنع بذلك، سنتفحص بعض هذه الصور. فالشكل ٤٠ يستنسخ فراشة ذهبية، يسهل التعرف عليها بالرغم من تشبهها بالملامح البشرية، وإذا صرفنا النظر عن الوجوه التى تزينها، فإن تشكيل كأس نازكا (الشكل ٤٢) يتطابق مع القطعة الذهبية: أعضاء جسد بشرى يهوى، أجنحة مفتوحة، عينان مكللتان بثلاث تموجات، قرون استشعار حلزونية، فم بنتوءات، ممص إبرى. كما أن رسم الغطاس الذى على نسيج باراكاس (الشكل ٢٢) له رأس فراشه (العينان، قرون الاستشعار المعقوفة، وأربع ريشات تحمى الفم)، يغنيها إكليل يستنسخ فراشة أخرى مؤسلبة (الشريطتان الجانبيتان تخرجان من الجناحين). فإذا أخذت بعين الاعتبار اختلافات الأسلوب فى الأعمال البيروية - توسيع الوجه، إضافة إلى اختلافات أخرى - يتبين أن الرموز الهيروغلفية المكسيكية للنار (الشكل ٤١) تستنسخ عناصر الفراشة نفسها، سواء فراشة باراكاس أو نازكا. فإحدى هذه الفراشات، وهى تخرج بكاملها من موقد، تطلق حلزنات تشير إلى نوعيتها اللهيبية؛ وغالبًا ما تكون إبرة المص، فى الهيروغليفية

المكسيكية، متموضعة فى الجزء السفلى. ويتواصل التشابه فى نصفى القارة الشمالى والجنوبى حتى فى أكثر الصور تخطيطية. وهذا ما يحدث فى إكليل نازكا (الشكل ٤٢) ذى الصفيحة الذهبية فى مخطوطة ميندوثينو؛ ويمتد التشابه حتى الأسلبة الغربية (المزخرفة بافراط)، والوجه المشع فى البيرو (الشكل ٤٣) الذى يمثل فى الجوهر ملامح التشكيلات المكسيكية (الشكل ٤٤).

ومهما يكن من أمر التوازى الذى يتوجب متابعته بدقة، فإن قرابة الفراشة الذهبية البيروية مع الشخصيات النازكا توضح طبيعة العنصر الذى يغلب على منطقة المقابر. يبقى أن نعرف ما إذا كان للفراشة فى البيرو القيمة الرمزية نفسها التى لها فى المكسيك، حيث إحدى هذه الصور تمثل الشمس فى معبد تينوتشتيتلان الكبير. الأسلبة البيروية تستحضر اللهب بدقة – الحلزنات، الدوامات، الزوابع – وواقع أن هذه الصور دُفنت فى المناطق القائظة والمقفرة ليس مصادفة دون ريب، فالبيرو ترمد الأجساد أيضًا مراعاة لتحولها إلى مادة سماوية، وتروى الكتابات أن الشمس هى صورة المثل الأعلى الإنساني، والرمز الهيروغليفى للتسامى فوق الوجود المادى الذى شق الطريق إليه "الإله غير المرئى وغير الملموس". وسنرى بأى فيض عميق من العناصر الايقونية يُثبت خوليو تييو نورانية البدلاء المفترضين للكائنات البشرية فى السماء؛ وحيال صرامة التخيل التى يدعم بها تحليله اللامع، لا بد لنا من التفكير بأن عدم معرفته للآثار المكسيكية وحده هو الذى منعه من التعرف على رمز اللهب فى منسوجات باراكاس وخزف نازكا. ومع أننا لم نكتشف أى نص يخص الروح بشكل الطائر أو الفراشة، مثلما يجرى فى المكسيك فى نصوص ساهاغون، إلا أن بعض التلميحات تسمح بافتراض ذلك. ففى كتاب حول ذهب البيرو، يروى بوراس بارينتشيا بأن كولونيلاً يدعى لاروسا اكتشف خمسة آلاف فراشة من الذهب فى معبد الشمس فى موتشى Moche ، وقد اعترف ذلك الكولونيل لعالم الآثار الرحالة بأنه صهر تلك الفراشات، وإنه لأمر ذو مغزى فى نهاية المطاف، أن تكون صورة الموتى فى القبور مكونة من أسلبات للفراشة مطابقة لتلك التى فى المكسيك (الشكلان ٤٥ و ٤٦).



(الشكل ٣٩) فراشة مؤنسنة ، من الذهب ، فى وضعية نزول رأسى (مجموعة بليس)



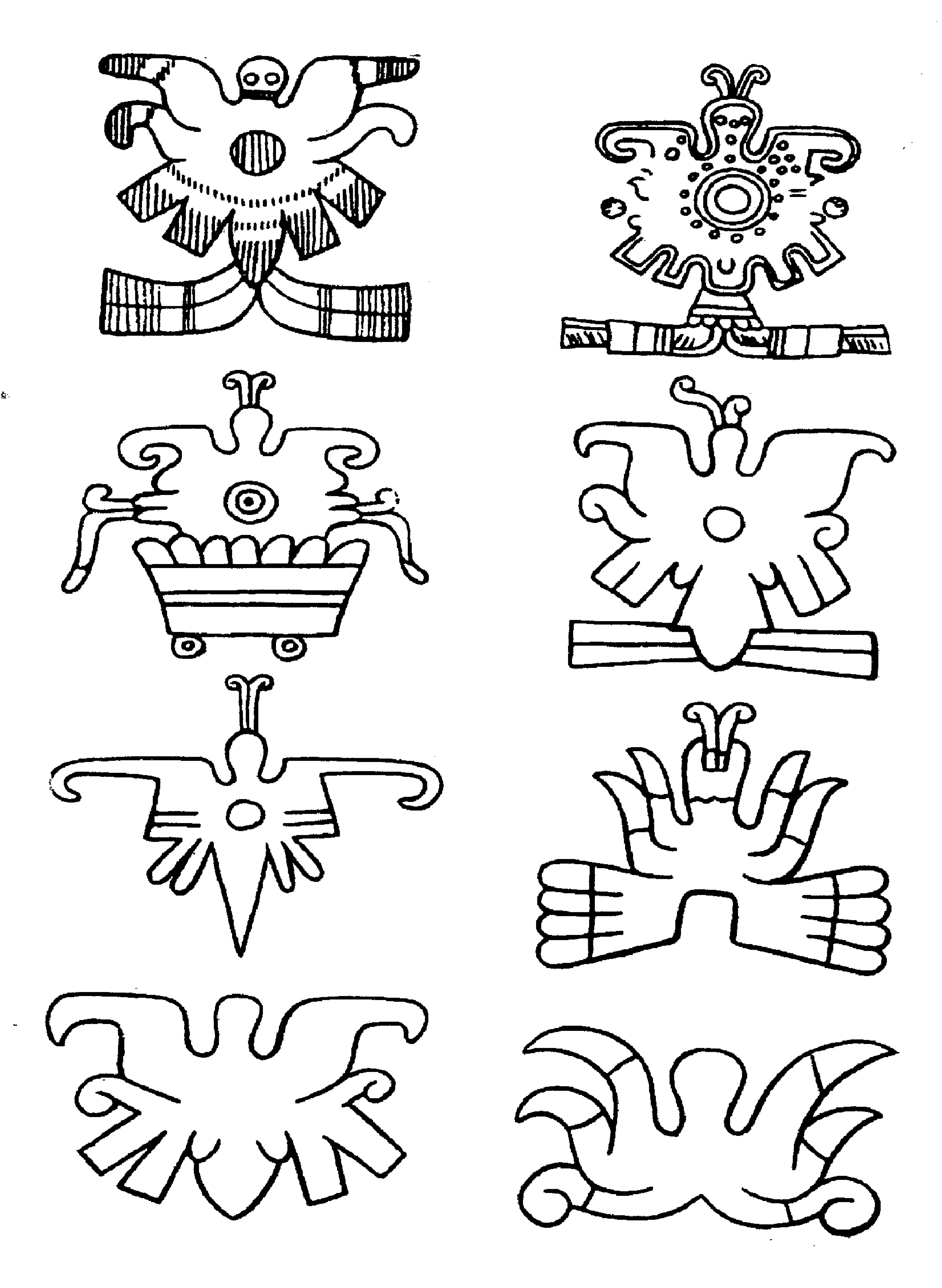
(الشكل ٤٠) فراشة مؤنسنة فى وضع هبوط ، مرسومة على كأس نازكا
المتحف الأركيولوجى ، ليما ، البيرو

(هـ) الأفق البيروى الأول :

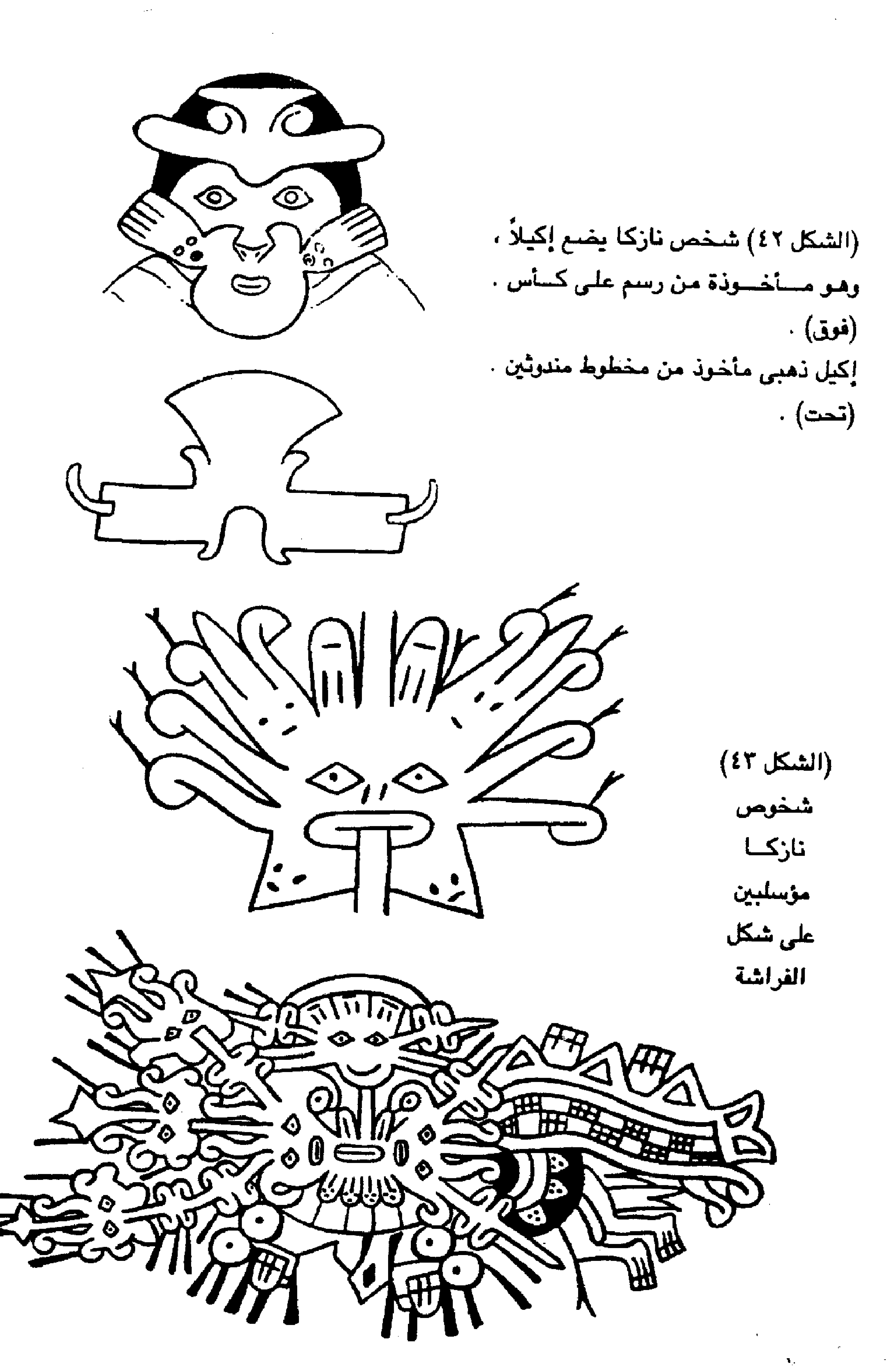
المواد الأثرية فى منطقة المقابر، التى ترجع إلى سياق لا يمكن له إلا أن يكون سياق الشطر الجنوبى من القارة بأكمله، سلطت على الثقافات المدعوة إقليمية ضوءاً، أقر بوجود تشابهات عميقة فيما بينها، فلو أننا استبعدنا التحنيط - وهو الملمح الوحيد الذى يبدو مقتصراً على المنطقة الجنوبية - ، فإن أكثر العناصر تمييزاً للثقافة البيروية، مثلما لاحظها الأوربيون لدى الإنكا، تظهر فى الساحل الشمالى فى الوقت نفسه الذى تظهر فيه فى باراكاس. فمن أقصى البلاد إلى أقصاها تُعرف، فضلاً عن صناعات أخرى، أكثر التقنيات تقدمًا فى صناعة النسيج والتطريز والسجاد؛ كما تُصنع أدوات من المعادن المطروقة (لأن صهر المعادن لم يُعرف إلا فى مرحلة تالية) وهى أدوات خاصة بهذه الحضارات، مثل التيجان، أو ملاقط الشعر، أو الدبابيس الكبيرة، أو الأقراص المخصصة لتزيين أفواه الموتى؛ كما كانت تُصنع عباءات، ومراوح، وصولجانات من الريش، وزينات للآذان والأنوف من مواد متنوعة، ومرايا من البوريتس (كبريتور الحديد) أو من الكهرمان الأسود، وكانت حيوانات الأعالى منتجة الصوف أليفة لديهم؛ وكان يجرى تناول الكوكا والتشيتشا؛ ويُمارس التشوية الجمجمى، وتُعلق كلاب فى المدافن.

استناداً إلى هذا التجانس كقاعدة، يجب أن نضيف تنوعات الخزف الذى يشكل بوصلة علم الآثار، ولكنه يميل إلى التكاثر دون ناظم مع تقدم أعمال التنقيب؛ ويمكن لتغيير بسيط فى نسيج المادة أو فى الأسلوب التزيينى أن يُحدث تلك التنوعات. وينتهى الأمر بتسمية أنواع الخزف - المشتقة من اسم المكان الذى التقط منه الفتات - إلى فرض نفسها كمؤشر على وحدات ثقافية معزولة كثيراً ما يُنظر إليها كما لو أنها مختلفة لا ترتبط فيما بينها بأية علاقة.

ومع ذلك، فإن الخزف البيروى بمجموعه يشكل وَحدة مفاجئة ويُبين موجات من التأثير تنتشر فى أراضى الإقليم كله. فإذا تأملنا فى خصائص كل مجموعة منه، نلاحظ أنه لا توحدها قرابة وثيقة وحسب، بل إنها تتوافد لتندمج فى باطن تلك المدافن. وهكذا، فإن باركاس، ابتداء من مستواها الأول، تطبق نقوش تياهواناكو متعددة

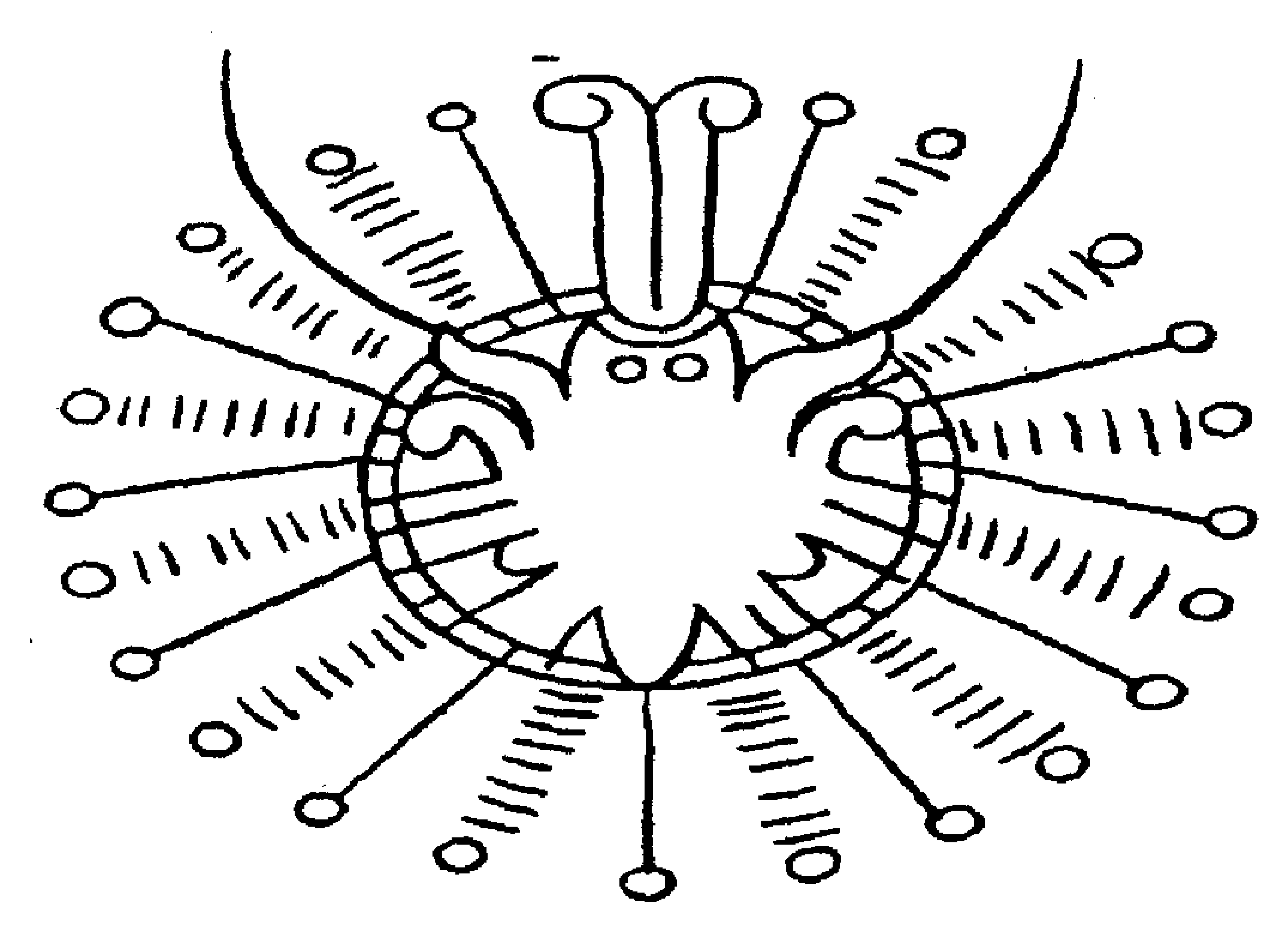


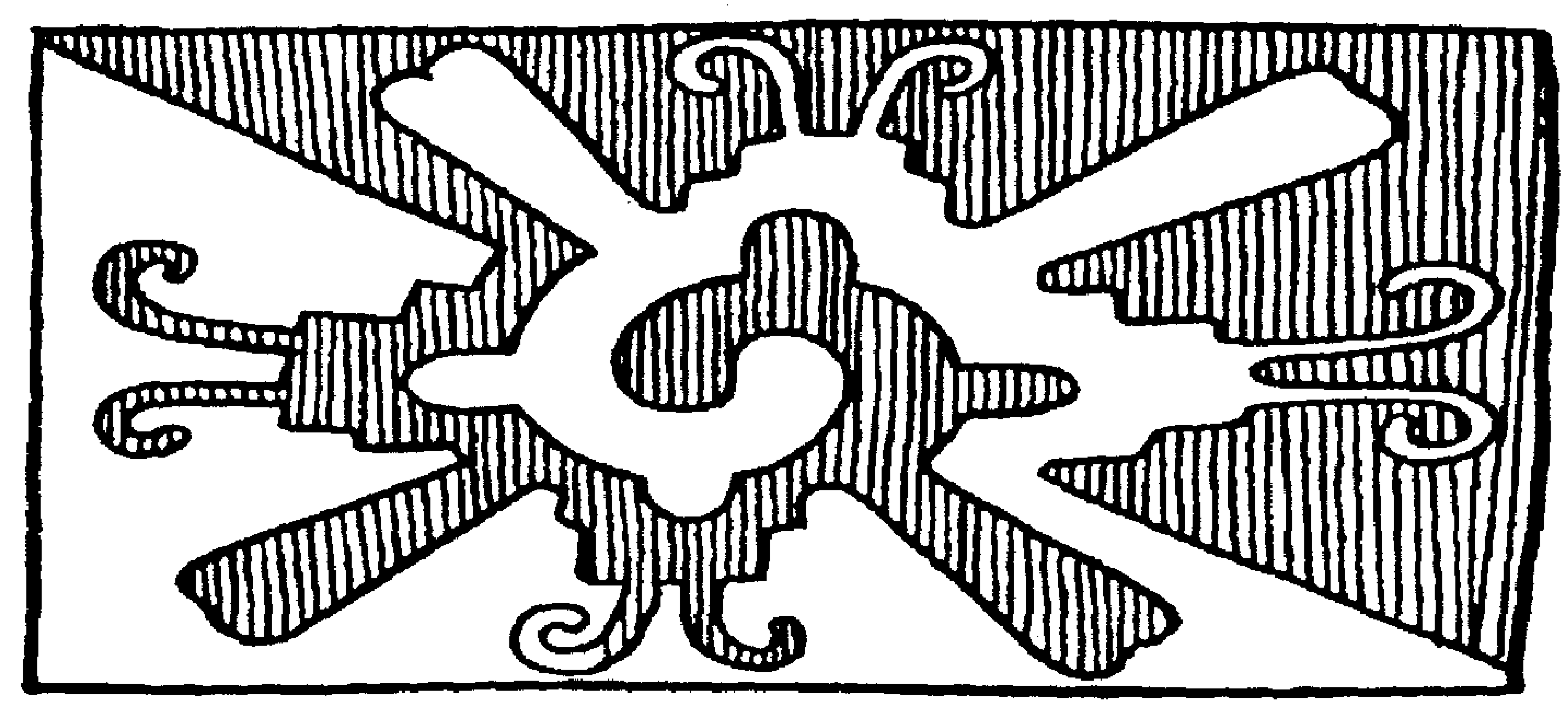
(الشكل ٤١) الفراشة فى المكسيك هى رمز للهب . أسلبات مأخوذة من مخطوطات مختلفة

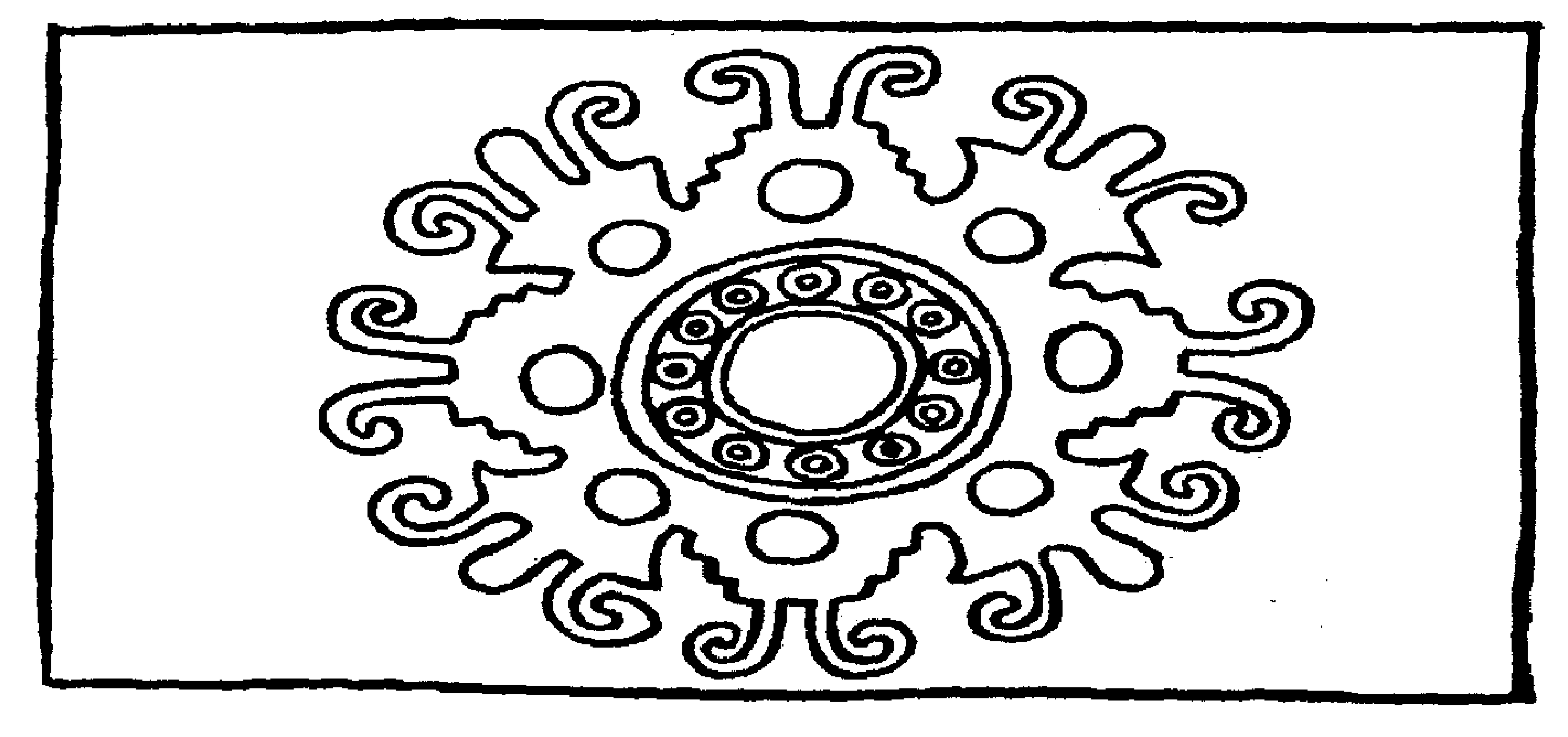


(الشكل ٤٢) شخص نازكا يضع إكيلاً ،
وهو مأخوذة من رسم على كأس .
(فوق) .
إكيل ذهبى مأخوذ من مخطوط مندوثين .
(تحت) .

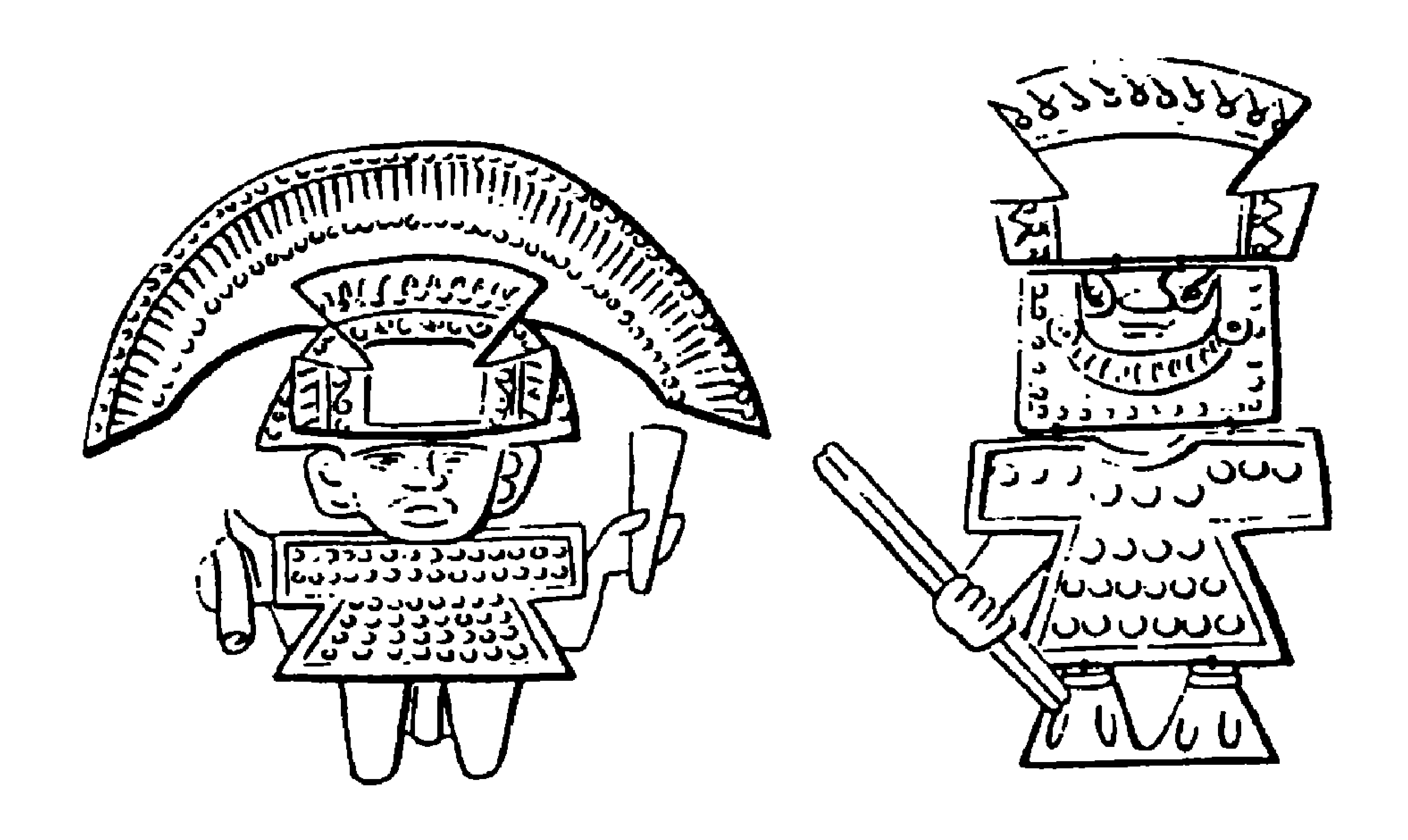
(الشكل ٤٣)
شخوص
نازكا
مؤسلبين
على شكل
الفراشة







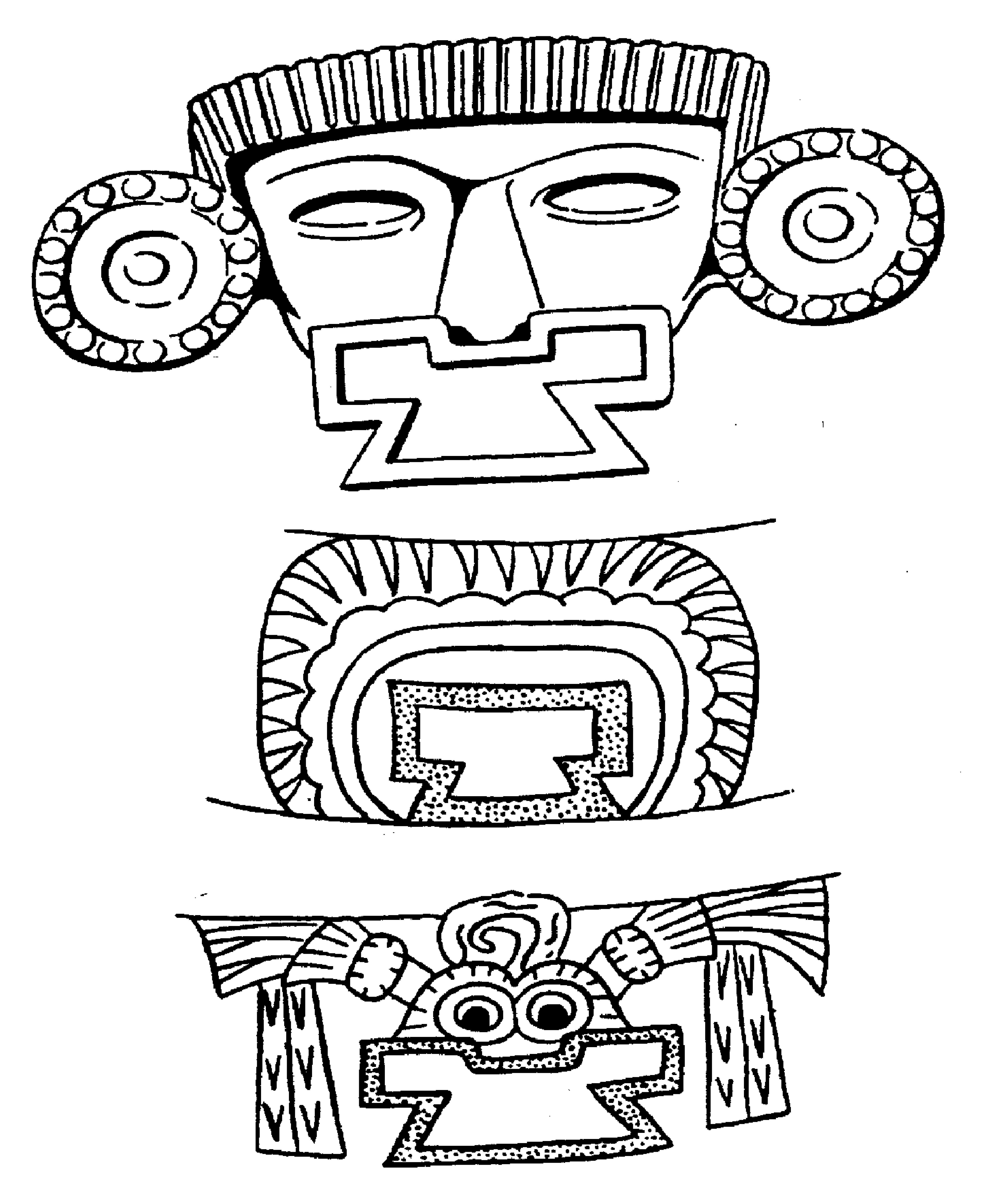
(الشكل ٤٤) تشكيلات مكونة من فراشات مؤسلبة بهذا القدر أو ذاك ،
مأخوذة من مخطوطات مكسيكية



(الشكل ٤٥) تمثالان ذهبيان من البيرو ، ملابسهما وقنزعتيهما تمثلان أسلبة للفراشة مماثلة للتى وجدت فى تيوتيهواكان

الألوان على الكؤوس الكروية ذات المقبض الخاصة بالشمال (كوبيسنيكى، وفيكوس، وتشافين)، محتفظة بأسلوب صناعة تياهواناكو: الأشكال مرسومة أو منقوشة فوق سطح أملس، والرأس وحده يكون منحوتاً أحياناً (الشكل ٧٤). ومن جهة أخرى، إذا كان أسلوب باراكاس يشبه جوهرياً أسلوب تياهواناكو (يتبنى رسم الوجه، والشريط العينى، والرمز المتدرج، الغائب عن النماذج الشمالية)، فإن تشافين تخرج بين حين وآخر بنسخة وفية لأحد جغواراتها، ولكن بالألوان.

لقد اعتبر رافائيل لاركو هويلى **Rafael Larco Hoyle** ، أن علاقة الشمال بباراكاس، تستند إلى أعمال فيكوس، المكان الذى يشير إليه هو نفسه على أنه أهم مركز لصناعة الفخار. وبسبب من فخارها ذى الأشكال المنحوتة، يرفع لاركو هويلى الكؤوس - النحتية إلى منزلة النموذج الأمثل لخزف المراحل التالية، وحيث إن زخرفتها الأساسية تعتمد التلوين السلبى، فإنه يستنتج من ذلك أن منشأها هو فيكوس. ونحن نجهل إذا ما كان التلوين السلبى قد استُخدم فى هذا المستوى فى أماكن أخرى بالوفرة نفسها (لقد رأينا أن التركيبات الأركيولوجية الأخيرة تنسبه إلى منشأ جنوبى)؛

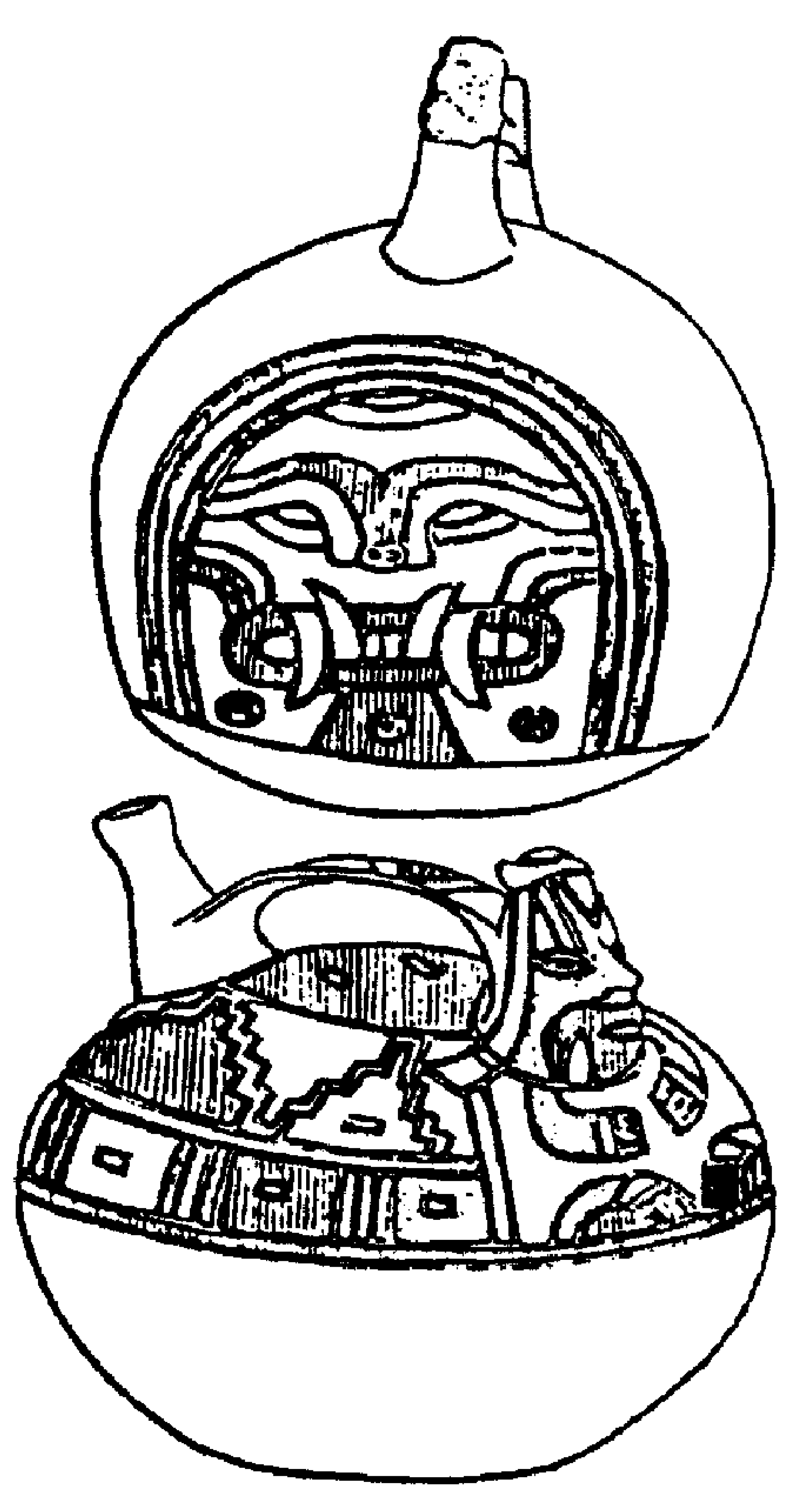


(الشكل ٤٦) أسلبة للفراشة على أقنعة وخزف تيوتيهواكان

ولكن ما هو خارج الشك حقًا أنه عرف انتشاراً، لا يتفق اتساعه مع وجود بؤر فنية معزولة، ذلك أن باراكاس تدمجه في تقنياتها المتعددة، ويستخدمه الشمال بوفرة منذ مرحلة قديمة جداً. والواقع أن تبدل أسلوب باراكاس عن أسلوب نازكا، على سبيل المثال، لا يمكن تفسيره إلا على أنه تنوع مبادلات دائمة، عبر إبداع مفتوح على كل

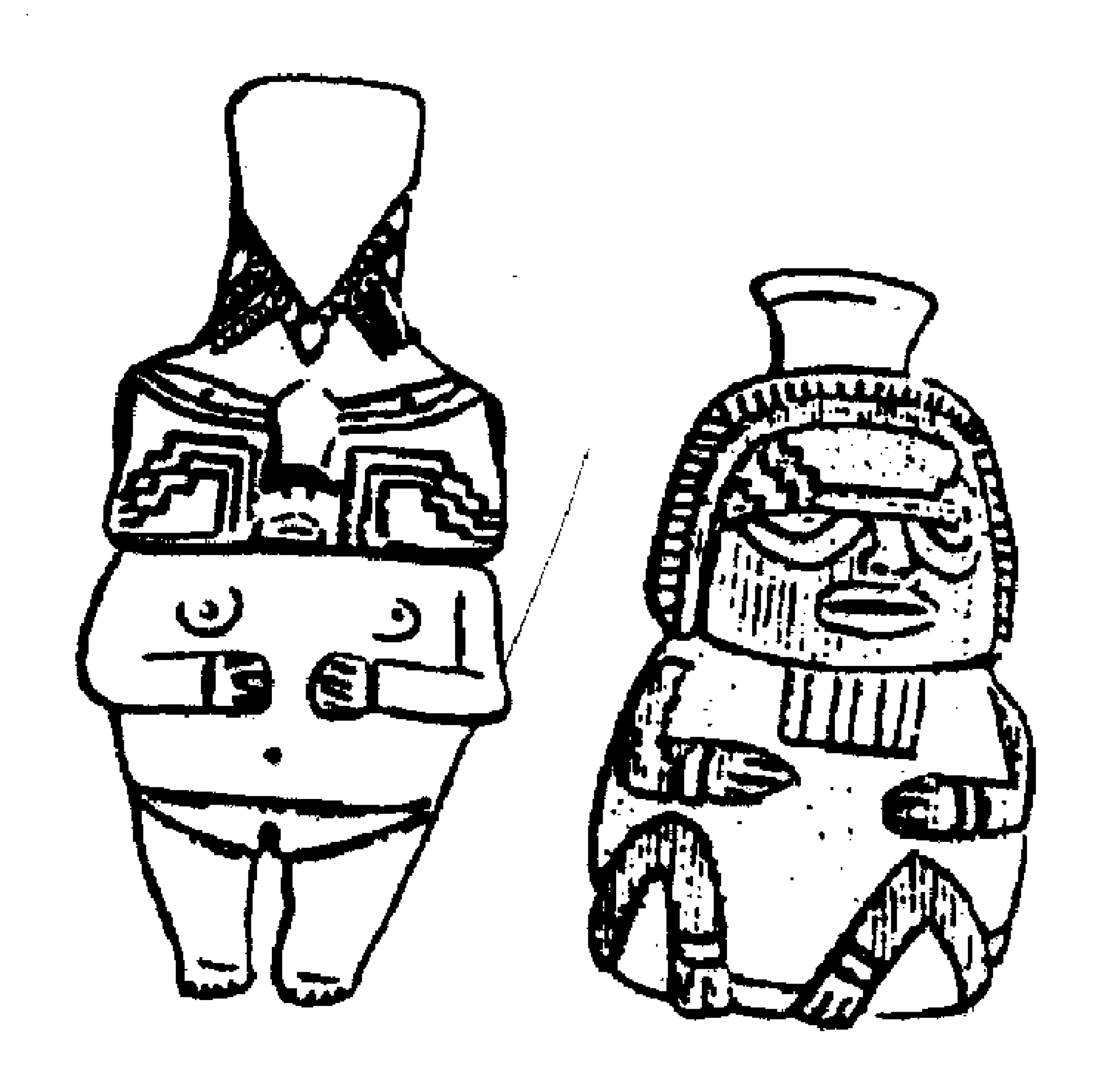
الميول والاتجاهات، وتبدو ديناميكية المبادلات أكثر ارتباطًا بمجموع الإنتاج عندما يعرفها الشمال بدوره، في لحظة معينة، إلى حد تحوله أيضاً إلى نقطة التقاء للتيارات القادمة من كل الجهات.

يمكننا بصورة عامة، وباستبعاد الاستثناءات، إقرار بعض الاختلافات بين الشمال وتياهواناكو (المركز المنظم الوحيد الذى يمكنه حتى هنا أن يمثل الجنوب) يتبدى ثباتها الملحوظ فى ملامح خاصة حقيقية. وبالتخلى عن الشكل الكروى ذى المقبض جانبًا، يحتفظ الشمال بالميل إلى الكأس - النحتى الطبيعى الذى يمثل، فى البدء، رسوم حيوانات قبل كل شىء، وبعد ذلك بشراً، أما الجنوب بالمقابل، فيميل إلى الفصل بين الأنواع : فكؤوس تياهواناكو هى آنية مفتوحة باتساع، جدرانها مستوية، وهو نوع تحافظ عليه حتى فى خزف المرحلة الأخيرة لعبادة الحيوان؛ وتقتصر قولبة الصلصال ونحته على تزيين حافة المجامر برأس (الشكل ١٣)، ويُبدع النحت تماثيل من الحجر. ومن هنا فإن التلوين، وهو تزيينى محض فى الشمال، يكوِّن صيغة التعبير الوحيدة فى خزف الجنوب. هذه الخصائص التى تتبدى شديدة القوة، ومرتبطة بمتانة بجذور لا ندرى كنهها،



(الشكل ٤٧) خزف وُجد فى مقابر باراكاس .

(الشكل ٤٨) تمثالان من الصلصال المشوى ، من باراكاس (حسب خوليو تييو) .



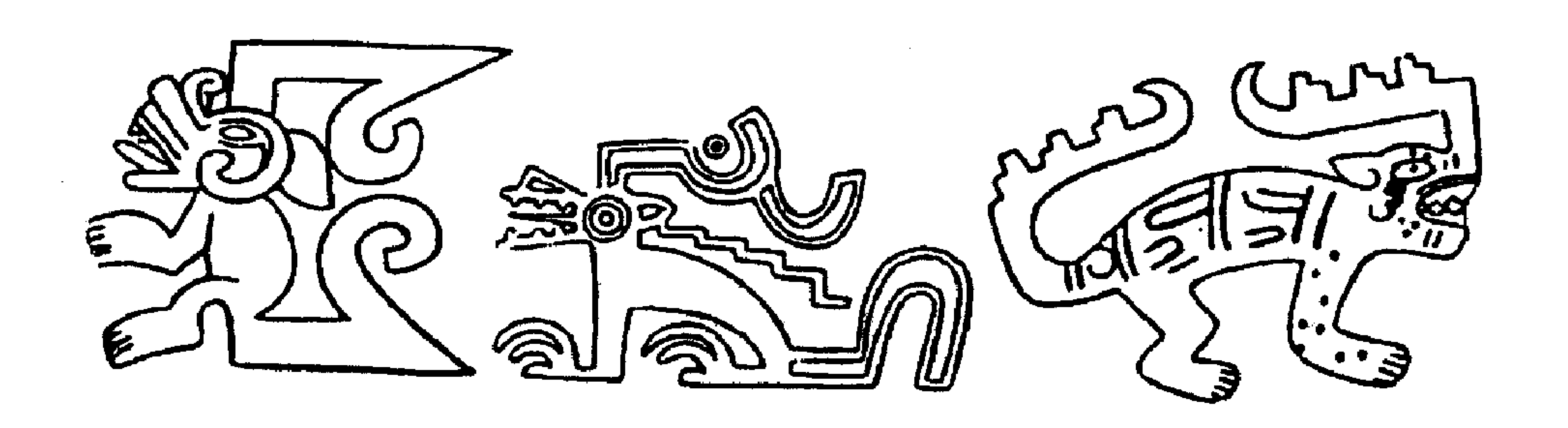
ستستمر فـي التواجد حتى فـي بوتقـة المقابر. وليس إلا كما لو أنها تنصهر شيئًا فشيئًا، مثل معادن قـاسية تتعرض لدرجات حرارة عالية، دون أن تنمحي ملامحها الخاصـة تمامًا . والأسـاليب التي تولد من هذه العمليـة البطيئـة - النازكا في الرمال الجنوبية ؛ والموتشي Moche في سواحل الشمال - يعتمد كل واحد منها على تقاليده الخاصة : فالأول يُحتفظ به ، بالفعل ، في الأواني ذات الجـدران المستوية ؛ والثاني ، نادرًا ما يغادر الأواني الكروية المغلقـة ، المزودة بمقبض ومصب .

وإذا كان خزف نازكا يُدخل الكؤوس المنحوتة التي كانت باراكاس قد ألغتها - وهي منحوتات تبقى من جهة أخرى ، تخطيطيـة حين ينقصها الطـلاء (الشكلان ١٧ و ١٩) - ، فـإن الأسلوب الشمـالي يخرج من البـوتقـة شـديدة التـحـوير التي تشكل أصل نحت موتشي البديع . فالثقافتان كلتاهما ، المتزامنتان ، أو بأقدمية ضئيلة للجنوبية منهما ، حسب رأي بعض المؤلفين ، تتطوران بدافع إبداعات حرة ، متألقة ونزوية ، لتبلغا أعلى ذروة في فن الخزف في النصف الجنوبي في خزف نازكا ، تنفجـر رموز النور فوق أشكال كلاسيكية (تظهر في الشمال وفي تياهواناكو على السواء) مختلطة ، بصورة مثيرة للفضول ، بشخوص أنثوية بديعة أو برجال بدينين تؤدي واقعيتهم إلى تناقض هزلي أحيانا. فهم ذوو رؤوس صغيرة مزركشة، ذات عيون ما أن تبدو ماكرة حتى تتحول إلى حالمة، أو خطوط تزيينية، غالبا ما تشكل عدة مناطق في قطعة الخزف نفسها. وتعتبر الأشكال الحيوانية بين أفضل قطع الفخار المنحوت، سواء رسم السمكة المتأنسنة أو الطائر المستوحى من الشكل الطبيعي.

ويواصل الفنان الموتشي أو الموتشيكي، الوفي للتقاليد الخاصة بالمناطق الشمالية، تقديم بشرَ وحيوانات، ولكنه لا يفلت من عدوى الجنوب الذي يمنحه الحرية لإبداع أشكال جديدة. وباعتباره وارثًا لتقاليد واقعية طويلة، قادت إلى كمال لا نظير له، يستمتع بتحوير الصور - خالقا بذلك كماً من الشخوص ذوي قوة تعبيرية لا تُصدق - إضافة إلى حشد من التفرد والتميُّز : أمراض، بتر أعضاء، مشاهد إيروتيكية، راصداً كل ذلك بوضوح لا تشويه شائبة. والمسافة التي يحتفظ بها الموتشيكي عن أعمال نازكا، التي يستمد منها الإلهام، تكتسب مغزى دينيًا. فاستخدام الفراشة على سبيل المثال،

يبدو محظوراً عليه؛ إضافة إلى أنه يتعامل على الدوام بطريقة واقعية مع الرمز الأرضى الأعلى، المتمثل فـى إنسان– جغوار – طائر – أفعى، مكتفياً بإغناء عناصره بخصائص تستحضر الضوء. ويثبت خوليو تييو فـى بحث رائع حول الديانة القديمة فـى بلاده البيرو، بأن غياب الضوء وحده هو الذى يميز الكائنات الأرضية عن أشكالها المثالية التى تقطن السماء. ويقوده تحليل عدد كبير من النماذج (الشكل ٤٩) إلى نتيجة مؤداها أن العينين، أو العقافات، أو الدوائر، أو النقط، أو الصلبان التى تغطيها هى كلها رموز نور؛ وهو نور يشكل اسمه فوق ذلك جذر تسمية الآلهة[٢٩]. وفـى منتصف الطريق ما بين كائنات تشافين الجامدة والمخلوقات ذات ألوان قوس قزح الزاهية فـى باراكاس ونازكا، تمد رسوم موتشى Moche جسراً بين هذين الحدين وتهيئ لألوهية الإنسان على الأرض؛ وهى الألوهية التى ستؤدى إلى الإعلان عن الطبيعة الشمسية للإنكا. هذه الإرادة للسيطرة على العالم الدنيوى تتبدى فى المعابد الأولى بأسلوب سيتواصل حتى نهاية الثقافة ما قبل الإسبانية : كتل هرمية ضخمة من التراب المصلب، أو "أحزمة" الشمس والقمر الضخمة التى هى مصدر فخر البيرو الشمالية.

يتبدى تأثير الجنوب من خلال الأهمية التى يكتسبها التلوين، للمرة الأولى، فـى الشمال: فالنحت صار يرتبط باللون – وقد فرضت ثنائية اللون نفسها – الذى تُرسم به على الدوام الملابس والزينات، بل والأجساد أحياناً ؛ وكان الرأس وحده من بين أعضاء الجسد هو الذى يُنحت نافراً، مثلما هو الحال فـى تياهواناكو وباراكاس : وقد طرأ بسبب ذلك تحول على الأساليب والزخارف. وراح صخب عالم جديد يحل بالفعل محل تشكيلات تشافين وكوبيسنيكى الرصينة: خطوط حمراء ونزقة تشكل رموزاً – الخطوط التزيينية المتدرجة، وغيرها –، أو كائنات ذات إبهام مثير للقلق يضاف إلى طبيعة حركتها وبعض أوصافها. فإذا كان تلوين الكؤوس الكروية يشكل صورة للحياة الاجتماعية، فإن ذلك لا يحول دون تقديمه لشخوص ذوى أجنحة كبيرة مفتوحة (الشكلان ٥٠ و ٥١)، أو رجال – جغوار، أو زواحف مأنسنة تظهر فـى أوج طيرانها، أو كلاب تخرج من قوقعة، أو ذات زوائد مضيئة (الشكل ٥٢).



(الشكل ٤٩) رسوم حيوانات هرّية برّاقة (خوليو تيو)



(الشكل ٥٠) رجال – طيور ملونون بالأحمر على إناء خزفي موتشيكا (حسب كوسيو دل بومار)



(الشكل ٥١) مشهد – مرسوم على إناء خزفي موتشيكا (خوليو تيو)

ويمكن لنظرة سطحية أن تتيح الاستنتاج أنه، على الرغم من وفرة الموضوعات الدنيوية، فإن الفكر الديني يبقى حاضراً من خلال توليفة الإنسان، الجغوار، الطائر، الأفعى. هذا الفكر الذى كثيراً ما يكون مبهمًا فى مختلف المشاهد، يبدو موجزاً بصورة واضحة فى أعمال الخزف المستنسخة فى كتاب رافائيل لاركو هويلي: وخصوصًا فى منحوتة من الصلصال المشوى وفى نقش غائر. الأولى منهما تمثل شخصًا بأنياب بارزة، مستقر فوق طائر يعلو أفعى ضخمة (الشكل ٥٣). والثانى يمثل العناصر نفسها بقوة أكبر (الشكل ٥٤): إذ يظهر رجلان مجنحان، لهما منقار طويل - أحدهما يحمل فى يده صولجاناً ينتهى طرفاه برأس نمر وبأفعى على التوالى -، بالقرب من مركب مشكل من أفعيين. وهذا يتيح الافتراض بأن ويرا - كوتشا **Wira-Kocha**، مثلما فى أسطورة كيتزالكواتيل، قد انطلق فى رحلته عبر المحيط على متن حيوان زاحف.

إذا ما جرت المقارنة بين مختلف التمثيلات البيروية للإنسان - النمر - الطائر - الأفعى، يتبين أنها تشير إلى مدلول فكرى، فتركيب الأشكال فى تشافين له صبغة عدوانية خالصة: إذ إن كل واحد من الرموز التى تؤلفه يعبر، بصورة معزولة، عن إرادة المجموع نفسها، وليس مستحيلاً أن يكون مصطلح "المسخ" الذى أُطلق عليه يستجيب لإرادة راسخة فى صدم الضمائر الطيبة، لإيقاظ الغم الخاص بالشرط الإنساني. وبوضع الإنسان فى المستوى الأول، تصنع تياهواناكو من هذا التركيب قطعاً مكافئاً للحرية بغض النظر عن ثقل التوازن الفردى، والفرق الذى يفصل زخارف تياهواناكو عن زخارف موتشيكا يبدو نابعًا من التآلف المكتسب فى أثناء ذلك مع فكرة الانبعاث خلال القرون المكرسة لتقنية المدافن التى أتاحت نسيان مشقة الطريق المؤدى إلى عالم الروح. وللاقتناع بذلك يكفى مقارنة توتر رجال تياهواناكو المجنحين بوداعة أمثالهم من موتشيكا؛ إذ يبدو أن الأولين يجهلون اليقين بنتيجة الجهد الذى يبديه الآخرون، ما يحاول الفنان الموتشى استنساخه هو عالم تشافين بعد أنسنته من قبل تياهواناكو، وكشف نعيم المقابر. وإنه لأمر ذو مغزى، على الرغم من ميله إلى الأجساد الأثيرية، ألا ينسى [الفنان الموتشى] شرط الجاذبية إلا فى حالات نادرة.



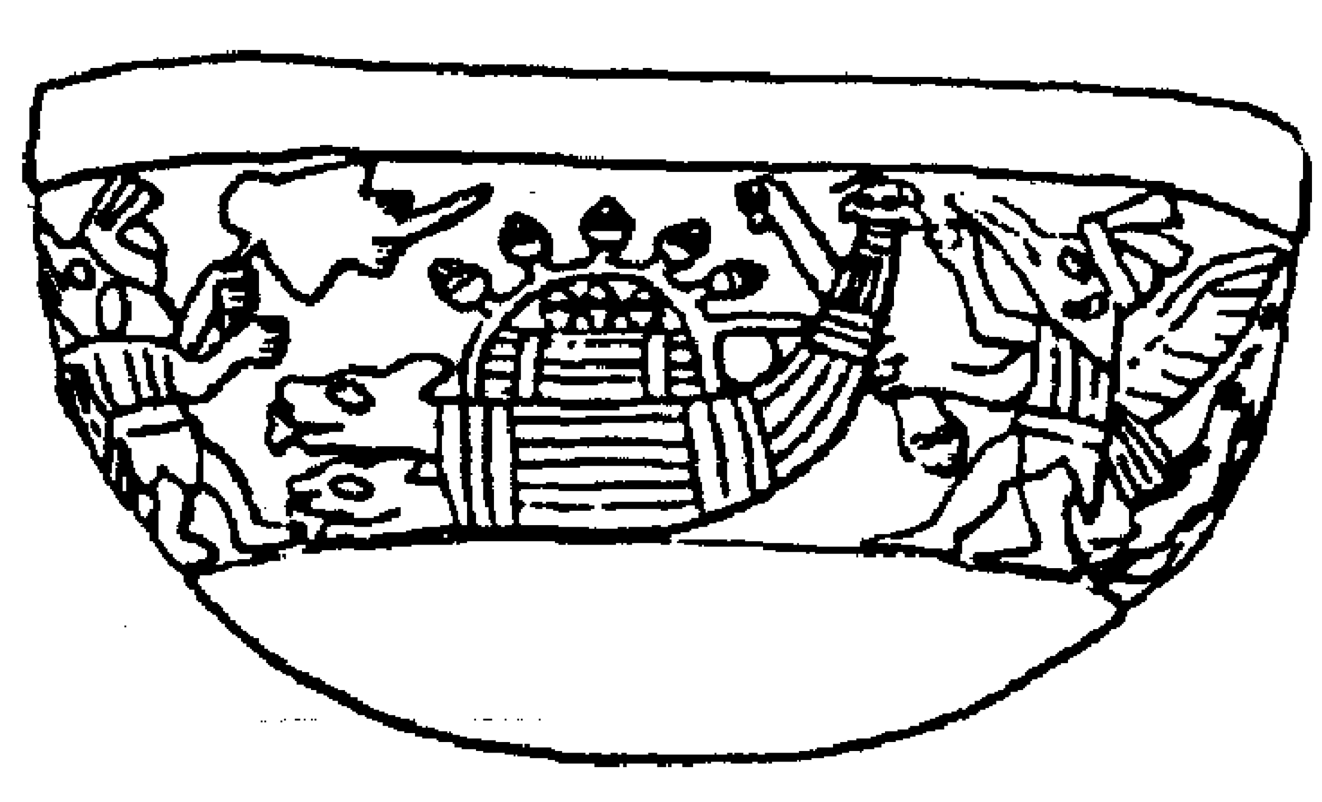


(الشكل ٥٢) تشكيلات على إناء من موتشيكا (خوليو تيبو) .

(الشكل ٥٣) رجل – جغوار يمتطي طائرًا يحلق فوق حيوان زاحف . من إناء خزفي موتشيكا (حسب لاركو هويلي) .

(الشكل ٥٤) رجلان – طائران إلى جانب مركب مصنوع من أفعيين. عن إناء خزفي موتشيكا (رافائيل لاركو هويلي) .



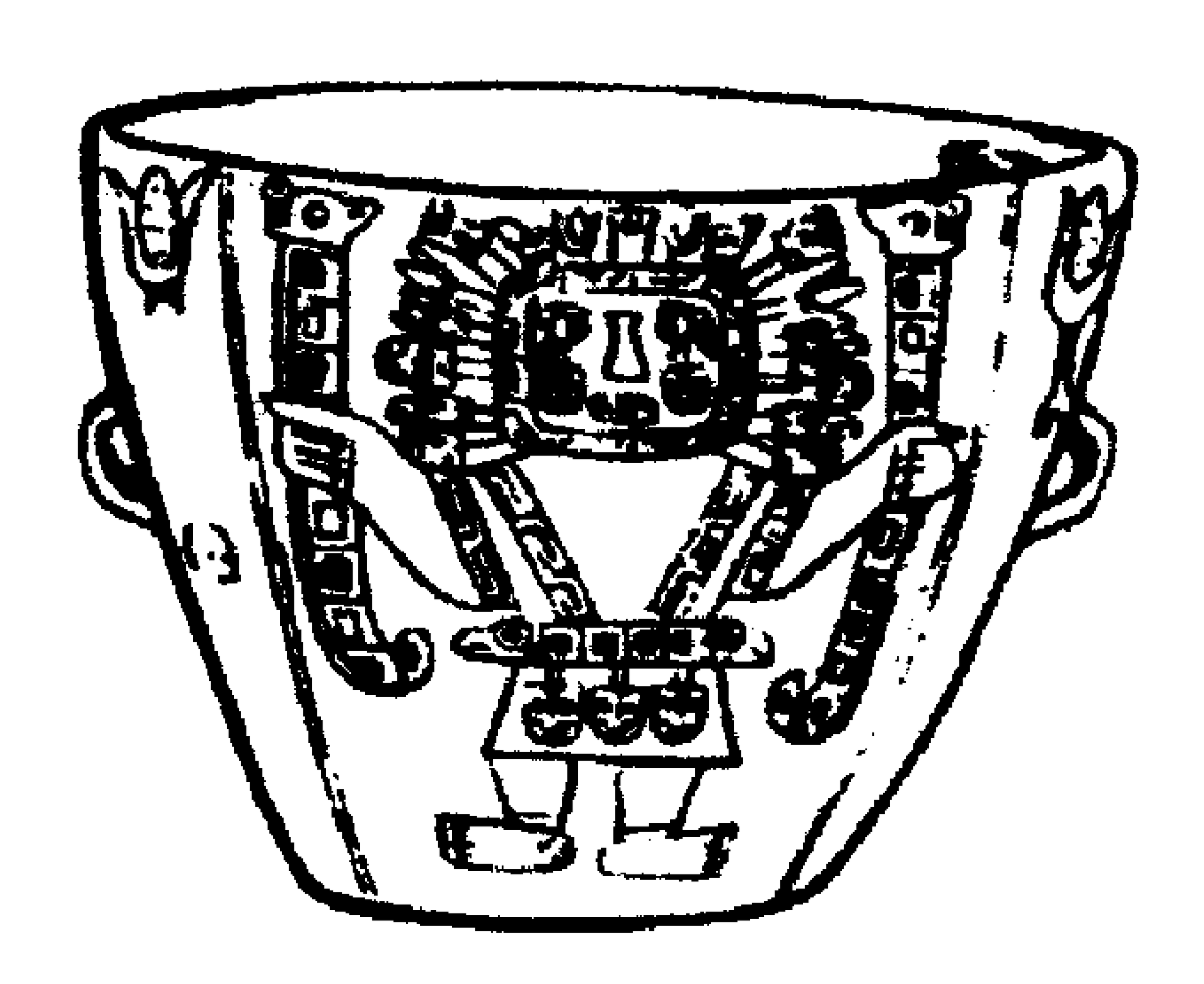


(و) الأفق البيروى الثانى :

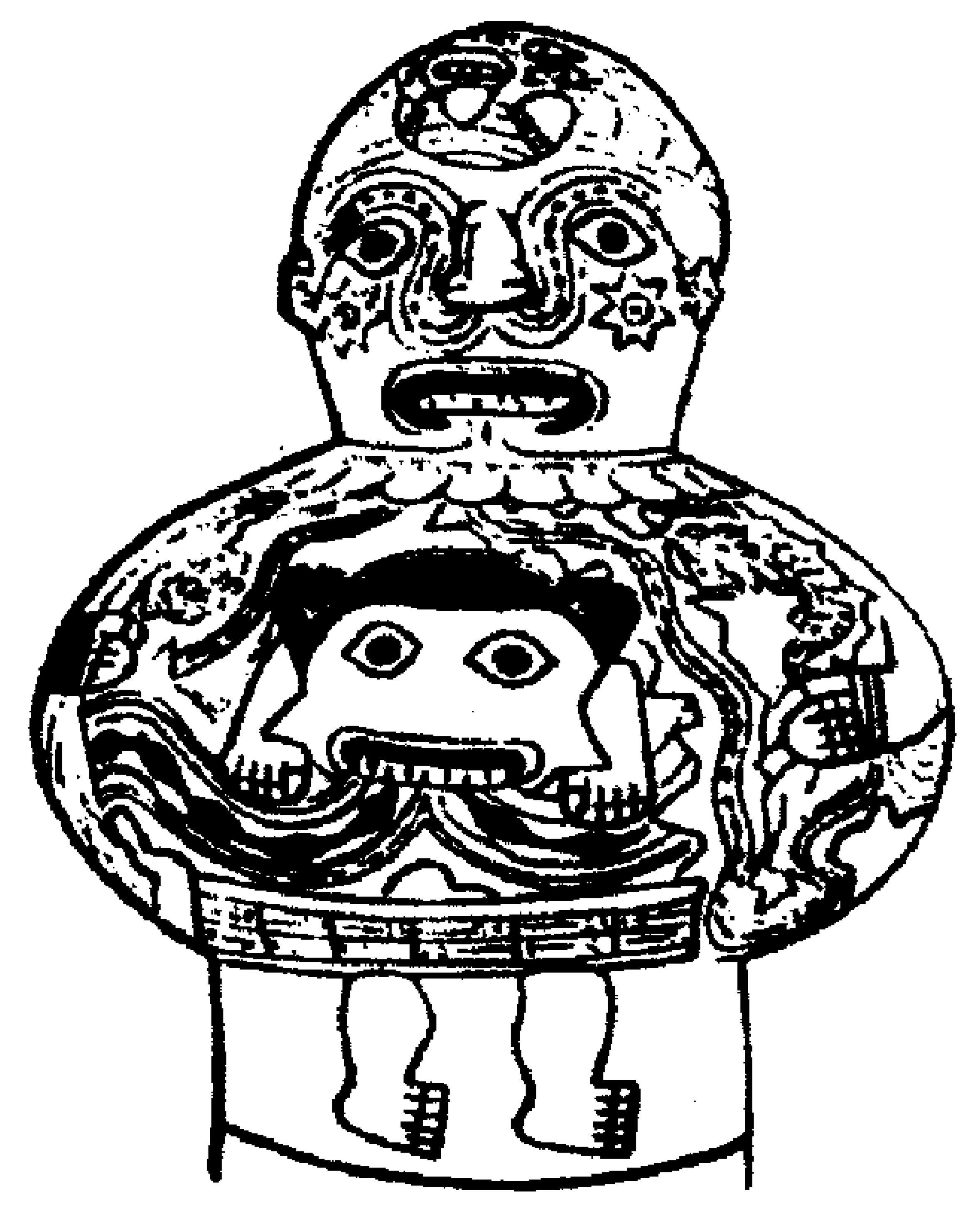
تبدو أعمال موتشيكا وكأنها الخط الواصل ما بين تيارين متعارضين : الخط الدينى، المكرس للمعابد، من جهة، والتيار الدنيوى من جهة أخرى، غير أن تأثير ما هو دينى على ما هو دنيوى يفتتح، بصورة مثيرة للفضول، المرحلة التاريخية مع علَمنة للفكر لن تؤتى ثمارها إلا بعد أن تكون الموضوعات الروحية لأفق تياهواناكو - نازكا - وارى، قد غطت المجال الاجتماعى.

ونظراً إلى أن الواقع الذى يتشكل من اللقاء المتتالى للعالمين يمجد بوضوح متزايد السلطة الزمنية، فإنه يمكن الافتراض بأن تضحية ملوك الإنكا تشكل ظاهرة راحت تنضج ببطء، ودون شك بالقدر الذى كان الإحساس فيه يتعاظم بالحاجة إلى تنظيم عالم يزداد كثافة سكانية فى كل يوم. صحيح أننا لا نعرف شيئًا عن "المسنين العظماء" الذين كانوا يُدفنون فى المقابر؛ ولكن بما أن الصورة السائدة فى معابد عصرهم تُبرز الجهد البشرى، فإنه يجوز لنا التفكير بأن تأليه الإنسان على الأرض هو أمر تالٍ لهم. وهذا احتمال ممكن - إذا ما كان الجغوار - الطائر - الأفعى يشكل شعار الإنكا - أكثر من كون أولئك الملوك الأقوياء يمثلون الشمس. ومهما يكن من أمر، فالصحيح هو أن التحول إلى جرم سماوى كان مقتصراً على الماوراء فى زمن المقابر، وأن مختلف التحولات التى تؤدى من أفق إلى الذى يليه تكشف، من جهة أخرى، تأثيراً متزايداً على ما هو دنيوى.

قبل أن يزدهر الأفق ما بعد الموتشيكا، تلقّى الشمال موجة مؤثرات جاءته من تياهواناكو عن طريق خزفيات غنية التلوين، ومزينة فى الغالب برأس بارز: تنحدر من وارى، المدينة التابعة لتياهواناكو. ويكشف هذا الخزف، أكثر من خزف موتشيكا، عن اندماج مع خزف المقابر (التى تتبنى الكأس المكورة ذات المقبض الذى لم تتقبله تياهواناكو مطلقًا فى منطقتها)، وهو اندماج يؤدى إلى تحول فى رسومها، إذ تظهر فى الوقت نفسه الذى تظهر فيه الصور المستنسخة من بوابة الشمس (الشكل ٥٥)، وصور أخرى شاعت فيها الدراما الإنسانية بصورة ملحوظة. رسوم خزف تياهواناكو-



(الشكل ٥٥) كأس نازكا من مرحلة متأخرة يزينه نقش الشخص نفسه الذى يظهر فوق منتصف «بوابة الشمس» فى تياهواناكو .



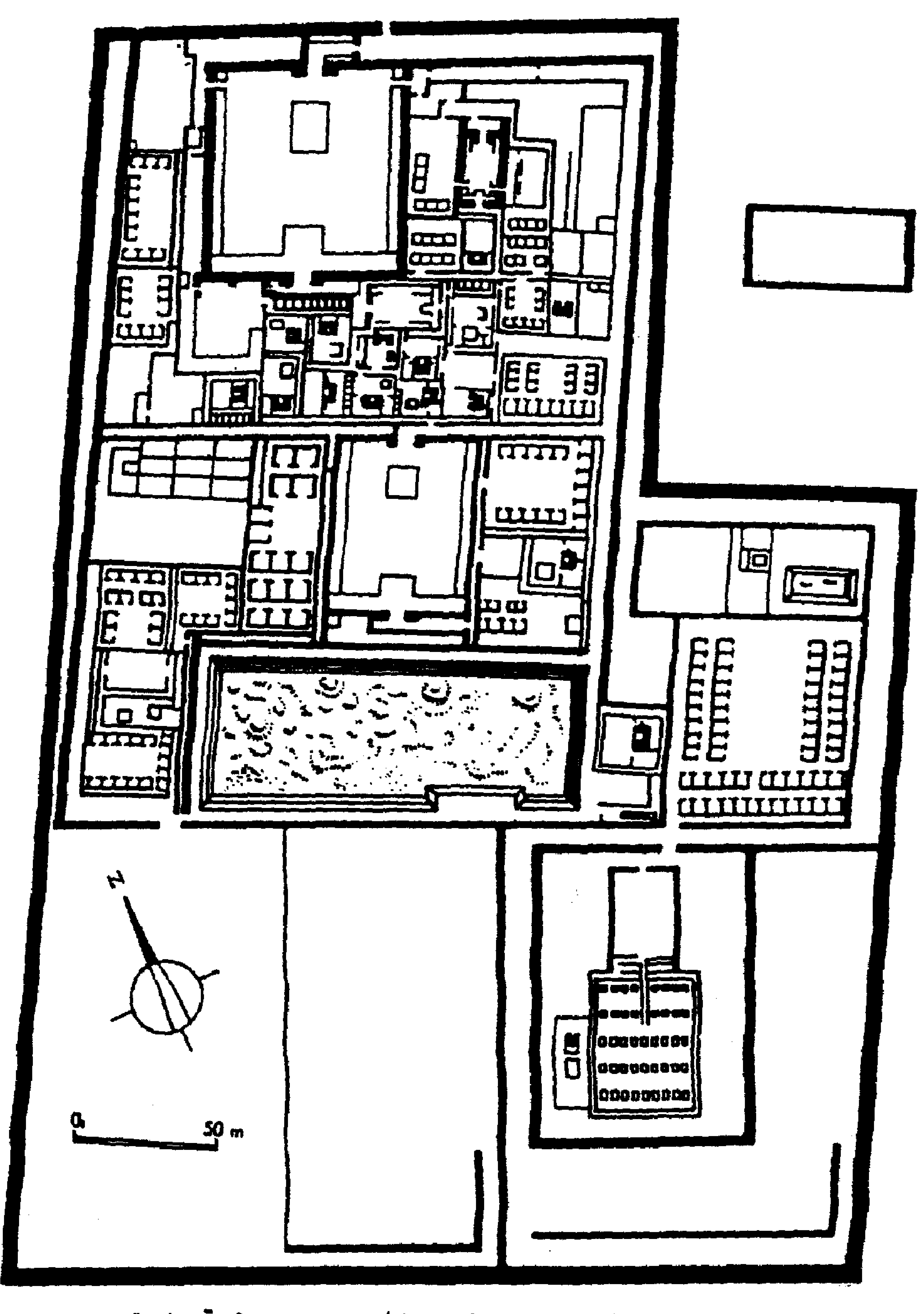
(الشكل ٥٦) إناء نازكا - تياهواناكو - وارى (حسب لاركو هويلى)

(الشكل ٥٧) باتشاكاماك : فى البعد الأول يظهر معبد الإله الذى يحمل الاسم نفسه . وفى عمق الصورة معبد الإنكا المكرس لعبادة الشمس (تصوير أبراهام غيين) .



نازكا – وارى، المزينة بأشكال مبهرة لوجوه تنبض بكل زخارفها المتماوجة، وهى تمسك النمور من أذيالها (الشكل ٥٦)، اكتسبت نورانية الآلهــة ، فالجغوار يُمَثَّل هاوياً، وبأمواج تخرج من فمه، أو متوجاً بالريش؛ ونظراً لذلك يقتنع أحدنا بأن ما يراد تمثيله ليس المسير الأرضي، وإنما النهاية المُدركة. حتى إنه يمكن القول إن البلد الشمسى، بعد أن نضج فى قلب الرمال، فاض وانفجر برموزه الصارمة والعلمانية الخاصة ، ومن هذا الاجتياح للأرض من قبل السماء تولد مدينة باتشاكاماك Pachacamac المقدسة على الساحل الأوسط، بالقرب من ليما، وهى الهيكل المقدس الفسيح الذى وقره الإنكا حتى مجىء الإسبان (الشكل ٥٧).

الفترة التى استغرقها هذا التألق ما تزال مجهولة، ولكن يبدو أنه فى كنف إنتاج تياهواناكو – نازكا – وارى اللامع، واصل البشر تعقب الحلول الاجتماعية، بوضوح متزايد، ذلك أنه فى اللحظة التى انتهت بها فى هذه المرحلة مملكة تشيمو بعد أن بلغت أوج ازدهارها، كانت تملك أرقى مركز عمرانى سابق لمدينة كوسكو فى النصف الجنوبي، والمدينة الوحيدة التى أقيمت على رمال الساحل قبل العهد الاستعماري. ومازالت آثار تشان–تشان تذكّر بتحدٍ يبعث على الفخر: فامتدادها الفسيح – أكثر من عشرين كيلومتراً مربعاً – مازال يبدو غير مفهوم حتى اليوم. فهى محاطة بأسوار يصل ارتفاعها إلى عشرة أمتار، والوحدات العمرانية التى تتشكل منها – يتراوح طول جوانبها ما بين ثلاثة أمتار وأربعمئة متر – مبنية من طوب مصنوع من طين نيئ يمكن لوابل من المطر أن يعرضه للخطر (الشكل ٥٨). فى هذه المدينة المجاورة للمحيط العظيم، المصفوعة بالرمال التى تختلط بها جدرانها المنحوتة (الشكل ٥٩)، والقائمة بعيداً عن الأراضى الخصبة والمياه العذبة، يُلاحظ وجود تنظيم اجتماعى، والمستلزمات التى تتطلبها منطقة المدافن: شرايين اتصال ضخمة: أساليب رىّ بارعة (قنوات لتحويل مجرى الأنهار، مجار مائية طويلة، محفورة فى باطن الأرض أحياناً، لالتقاط المياه الجوفية)، نظام زراعة متطور، مع الزراعات الشهيرة التى كانت تزرع على المصاطب المعلقة على أعلى ذرى جبال الأنديز؛ استغلال لذرق الطيور (الغوانو) كسماد؛ استصلاح واستغلال التربة الخصبة المتوارية تحت أمتار من الرمال.



(الشكل ٥٨) مخطط لمبان في تشان – تشان يسمى حصن «تسودى» نسبة إلى مكتشفه

إن المزايا والمعارف التى سمحت بتحويل الصحراء، وطُبقت للمرة الأولى ضمن إطار اجتماعى، خلقت فى تشان-تشان فضاءات عمرانية وأبنية، تُثبت مخططاتها أنها كانت قصوراً؛ فهى تضم حجرات متعددة ذات مداخل ضيقة (الشكل ٦٠)، ومسطحات فسيحة مكشوفة تتضمن معبداً أو عرشًا، من التراب كما بقية الأبنية (الشكل ٦١)، جدرانها معالجة من قبل المهندسين المعماريين كما لو أنها من الخزف، مغطاة بنقوش غائرة ملونة فى الأصل، وواقع أن الرموز الدينية يُعبر عنها هنا بأشكال هندسية أساسًا (الشكل ٦٢) يكشف عن أنهم لا يتقبلون تصوير الآلهة، وهو أمر لا يمكن أن يكون عابراً، ذلك أنه يميز إنتاج البيرو فى القرن السادس عشر، وعندما يلجأ الفنان التشيمو إلى التورية، مثلما يفعل فى معبد فى محيط مدينة تروخييو، فإنه يكرر دون قناعة رسم الزوائد المضيئة والكائنات المتداخلة كما فى منطقة المدافن (الشكل ٦٣). وخزف هذه المرحلة، وهو أسود ومقولب، يفتقد التحليق الجمالى لخزف موتشيكا ويُنتج سلسلة من الصور الواقعيـة لشخصيات سامية، ولبيوت أو حيوانات (الشكلان ١١ و ١٢). وفى أواسط القرن الخامس عشر، أُخضعت المملكة التى كانت تشان-تشان عاصمتها لسيطرة الإنكا الذين تشكل أعمالهم المستوى البيروى الثالث.

٢ - أمريكا الوسطى[٣٠] :

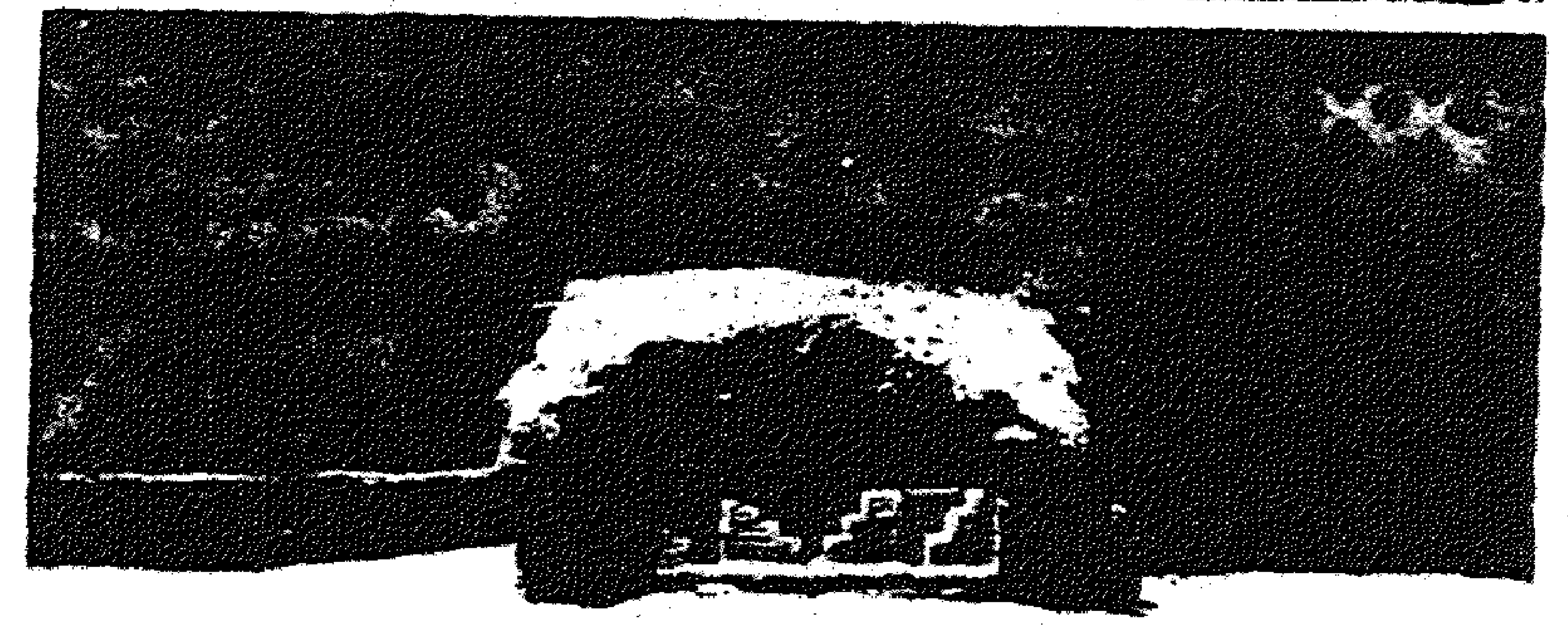
بدا بعد الفتح الإسبانى كما لو أن الثقافة المكسيكية قد ماتت إلى الأبد: فقد اعتُبر الشعب منحطًا، ووسم بحديد العبودية المحمى، وسُفِّهت ديانته إلى مستوى الشعوذة، وافترى على معتقداته ولوحقت، وغيّب النسيان فكره تمامًا. كانت كتب المكتبات قد أُحرقت فى الساحات العامة على أنها من أعمال الشيطان؛ وأُبيد الحكماء القدماء، حراس التقاليد؛ وحُطمت الأعمال الفنية، أو صُهرت أو أُغرقت، أضف إلى ذلك أنه كان من عادة الفاتحين أن يشيدوا فوق أطلال المدن المدمرة بهدف الحيلولة دون أى إمكانية فى انبعاثها، ولهذا السبب لم يعد فى هذه الأراضى الفسيحة معبد واحد أو قصر معاصر لزمن الفتح يمكننا التعرف إليه إلا من خلال الوصف الذى قدمه عنه الفاتحون.



(الشكل ٥٩) الرمـال تجـتـاح أسـوار مـدينة تشـان - تشـان (تصوير فالبير - سامبير)

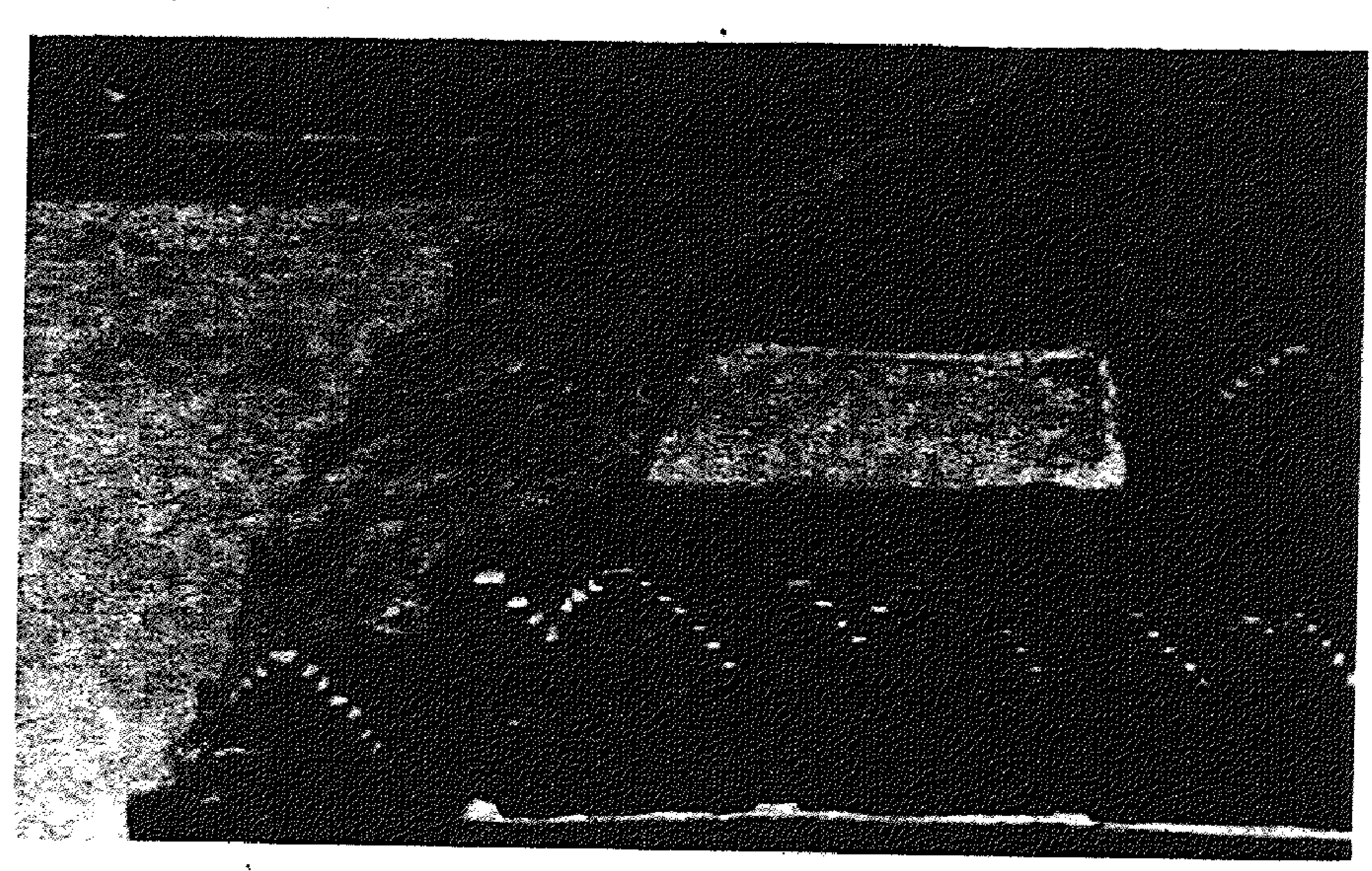
(الشكل ٦٠) أسـوار طينيّـة من مدينة تشـان - تشـان (تصـوير فالبير - سامبير)





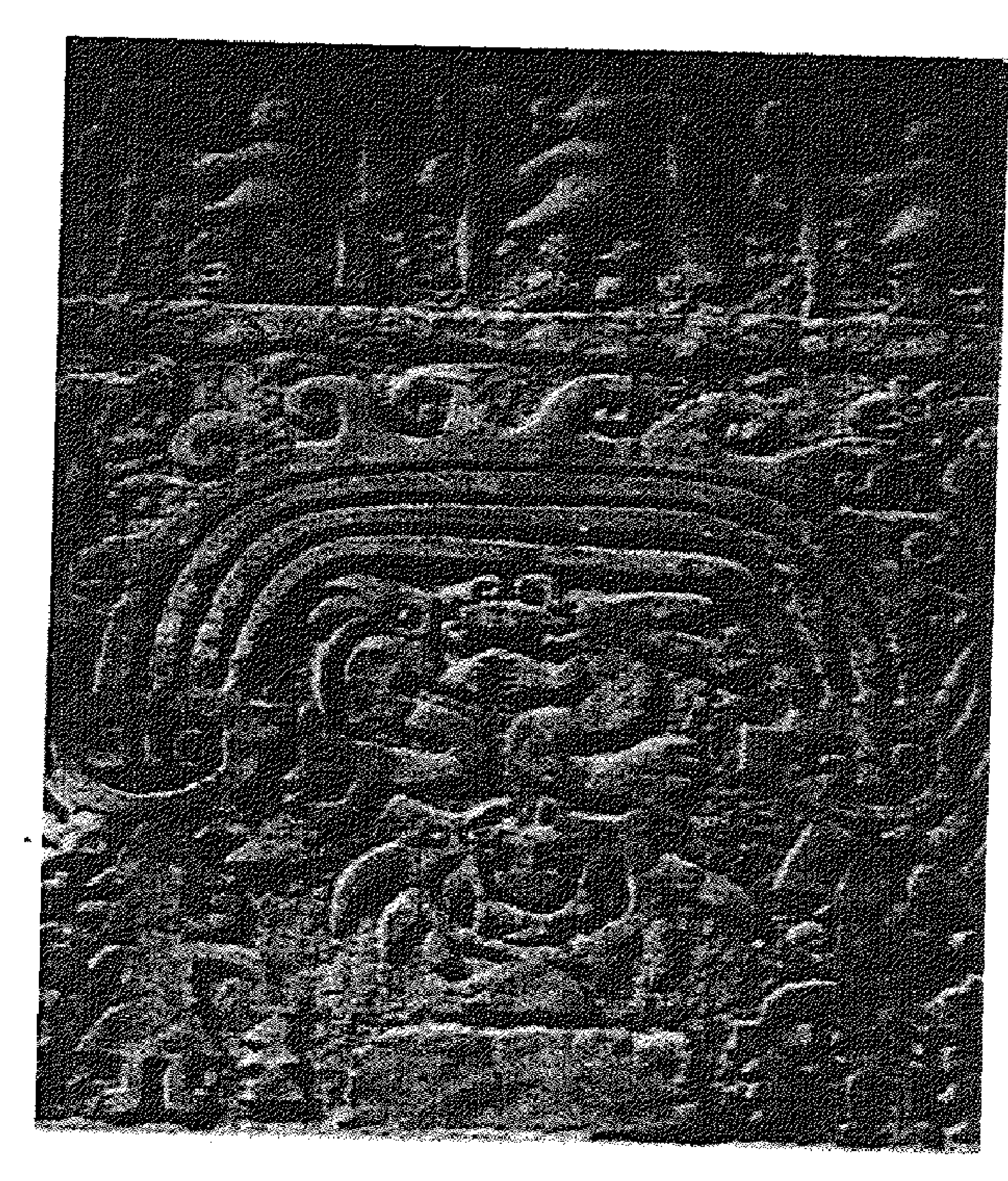
(الشكل ٦١) بقايا عرش وجدران طينيّة (تصوير فالبير - سامبير)





(الشكل ٦٢) نقوش لأشكال واقعية وهندسية فى تشان - تشان

وقد رأينا كذلك أن الوثائق المتوفرة لا تتناول إلا المرحلة التى كانت مظاهرها الثقافية قد اختفت. فالتاريخ لا يمضى إلى ما هو أبعد من القرن السابع، ويقتصر على تذكر الصروف التى أوصلت الأزتيك إلى رأس الإمبراطورية؛ والصراعات على الهيمنة



(الشكل ٦٣) نقوش على جدران تشـان – تشـان تذكّـر بنقـوش منطقة المقابر في باراكاس .
(تصوير فالير – سامبير)

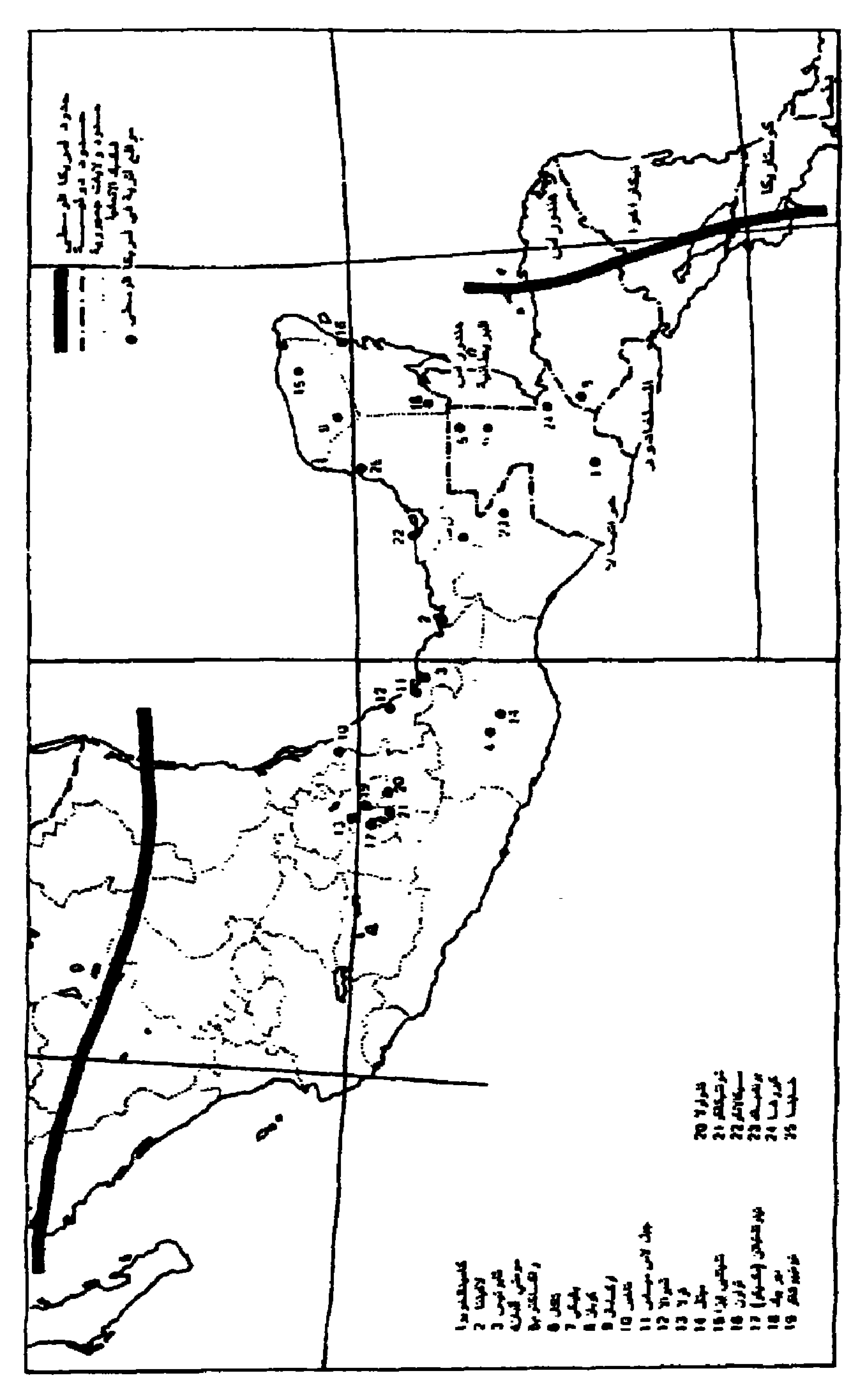
السياسية التى نشبت منذ القرن العاشر ما بين القبائل الرُحَّل وورثة حضارة الناهوا. وتمَّ التوصل إلى مرحلة الأزتيك من خلال انفلات قوى عسكرية سببت تدمير واندثار المراكز العمرانية فـى الهضبة؛ بينما تحـولت مدن الأزتيك المنتصرين بـدورها إلى أنقاض على يد الأوربيين، فأصبحت المنطقة التى عرفت ازدهاراً لامعاً للفكر خاوية من الأوابد.

وقد كان لغياب تلك الأعمال نتائج وخيمة: فالقرون الخمسة الأخيرة من الحياة ما قبل الإسبانية، المبتورة عن معطياتها المادية، اختُزلت إلى قصص عن نشاطات حربية أضـافت إلى طبائع السكان الأصليين [فـى نظر الأوربيين] ميلهم إلـى الدموية. هذا البتر الذى قد لا تكون له نتائج تذكر فـى بلاد يمكن للتعـاقب الثقـافـى فيهـا أن يقر سـريعاً التوازن ما بين ميـول عدوانيـة وميـول إبداعيـة، تحـول إلى سلاح فـى يد الفاتحين المتلهفين للظهور بمظهر ممثلى العدالة السماوية. والمرحلة التاريخية الأخيرة، التى روى أحداثها مدمروها أنفسهم، شكلت بحد ذاتها كل ماضى السكان الأصليين، ماضٍ منبثق من العدم، دون ارتباط بالمظاهر الثقافية التى أنجبته.

ومع ذلك، وبفضل الظروف التى أثبتت ضراوة الفاتحين، ترفع هذه الثقافة المحكوم عليها بالصمت صوتها اليوم أعلى فأعلى، فى انبعاث بطىء ولكنه واثق، فإذا كنا نجهل كل ما هو متعلق بالمدن التى دُمرت منذ القرن السادس عشر، إلا أننا رحنا نتآلف بالمقابل، أكثر فأكثر، مع الأماكن التى كانت قد اندثرت وصارت منسية فى ذلك الحين.

هذه الشواهد الصامتة، التى كانت معزولة فى البدء ودون روابط داخلية، راحت تنبثق من قلب الأدغال، ومن ذرى المرتفعات الجبلية، ومن أحشاء أراضى الفلاحة، لتشكل مجموعاً جرت الإشارة إلى روابط القرابة فيما بين أجزائه منذ أواخر القرن الماضى، ولم يكن تاريخ علم الآثار المكسيكى فى الأربعين سنة الأخيرة إلا اكتشافًا متواليا للعلاقات التى كانت قائمة ما بين مختلف الجماعات الاثنية منذ العصور القديمة، وشمولية فكر، تعبر عنه كل جماعة بأسلوبها الخاص، إن قراءة التواريخ التى دونها المايا، باضطراب على أنصابهم، أتاحت إقرار هذا الكم من البقايا الأثرية فى الزمن: وبهذه الطريقة أمكن تحديد أن المرحلة الخلاقة للشعب الذى سكن جنوبى المكسيك وأمريكا الوسطى تمتد من القرن الأول حتى القرن الثامن.

لقد وفرت الحفريات التى تحققت فى بلاد المايا أشياء وأدوات آتية من مناطق أخرى، وهو ما أتاح إقرار توازيات كرونولوجية لأمريكا الوسطى بأسرها. وقد أثبتت هذه التوازيات أن الفكر ما قبل الكولومبى قد حقق خلال القرون الأولى من تقويمنا [الميلادى] أقوى ازدهار له، واستقرت الأسس الثقافية التى استمرت حتى مجىء الأوربيين، ولم تعرف العصور التالية إلا "حالات نهوض" لامعة بهذا القدر أو ذاك، لدرجة أن النصوص المتعلقة بمرحلة الأزتيك يمكن لها أن تنطبق، كلمة كلمة، على أساليب الحياة فى المدن القديمة، ابتداء من العمارة والرموز الهيروغليفية وحتى التنظيم الاجتماعى، أو الألعاب، أو الملابس أو الطقوس المأتمية. وقد أتاح هذا الانتصار الذى حققه علم الآثار، أخيراً، إقرار علاقة تواصل وثيقة ما بين الكتابات والأعمال الفنية: مع الأخذ بعين الاعتبار بالطبع بأن قصيدة تشيد، على سبيل المثال، بمعركة بين فرسان-النسر وفرسان - النمر تظهر بمنظور مختلف جداً، وفقًا لمقابلتها بالقرابين الأزتيكية أو بالنزعة الحربية المسالمة لمدينة مثل تيوتيهواكان، الأقدم بحوالى أربعة عشر قرنًا، حيث كشفت الحفريات عن وجود هذا النمط من الفرسان.



(الشكل ٦٤) خريطة المكسيك وعليها تثبيت للمراكز الأثرية الرئيسية كما حددها ميقيل كوبا روبلياس

بفضل دراسات أجيال عديدة من الباحثين، تلاشت العقبة التى تفصل ما بين البقايا الأثرية والكتابات، ومع ردم الهوة الزمنية التى كانت تحول دون المصالحة بينهما، اكتسب جنسا الوثائق حيوية مفاجئة : فالأحجار القديمة، المضاءة بالأساطير، اكتسبت نبضًا فى كل رمز من رموزها، فى الوقت الذى شكلت فيه النصوص، بمساعدة الرسوم الهيروغليفية، صدى جميلاً لفكر متكامل. واللوحة التى تنطلق من هذا العمل المقارن تمتلك، منذ الآن، رسوخًا وعمقًا يفرضان نفسيهما بقوة.

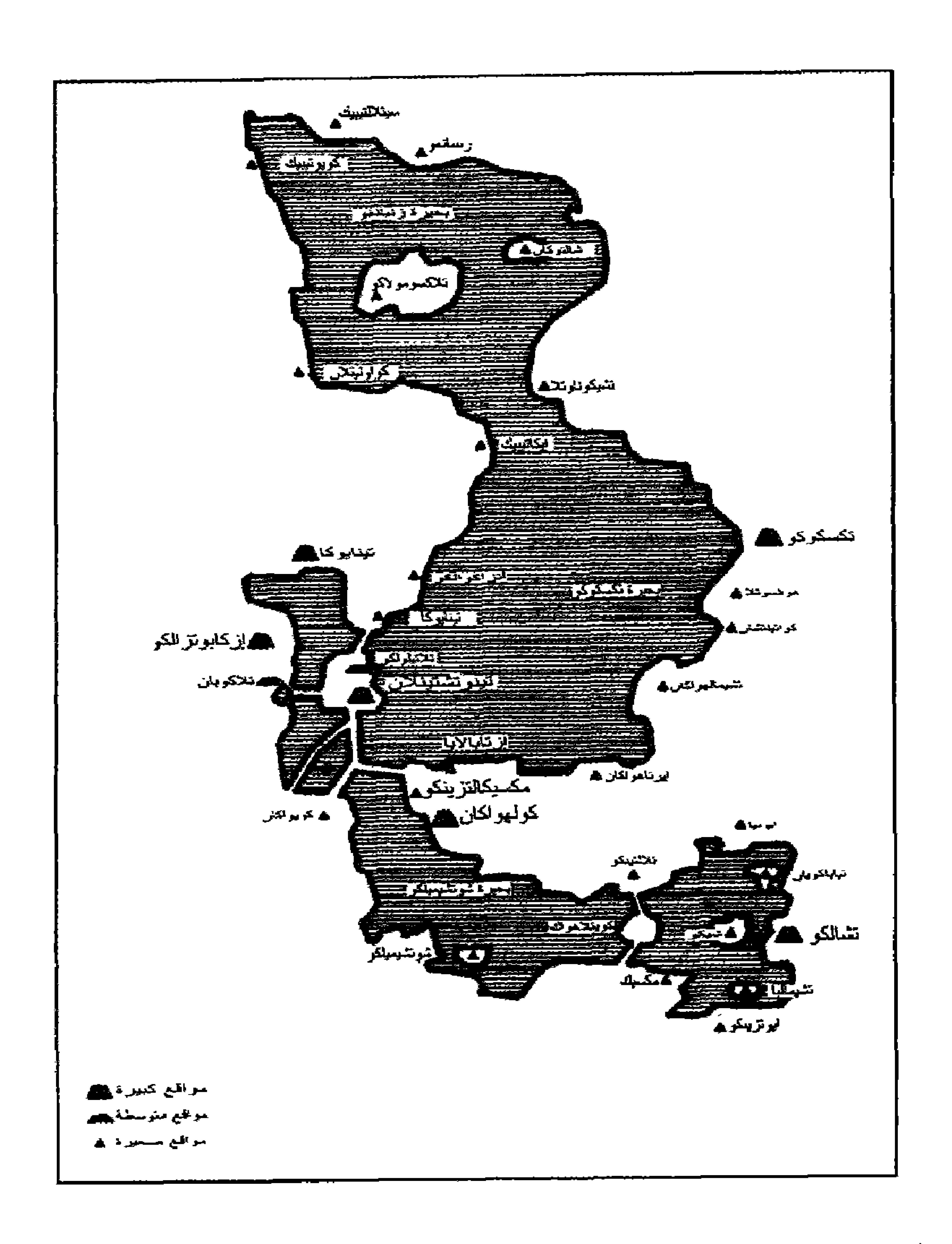
ولابد من الملاحظة على أى حال بأنه من المستحيل التوصل من خلال الأركيولوجيا وحدها إلى تركيب ذى أهمية كبرى لمعرفة الإنسان. وهذه المحدودية تنطوى على خطورة مؤكدة؛ فالمتخصص يميل، بدافع من رغبته الجديرة بالثناء فى أن يكون ذا فائدة، إلى إنكار ما يفلت منه مما هو جوهرى، وإلى النظر إلى بعض العوامل الهامشية باعتبارها عوامل حاسمة. ومن هنا ينشأ تكاثر التصنيفات والاحصائيات، والمخطوطات المرمزة، التى لا تكشف قراءتها الشاقة إلا عن لون أصيص أو شكل قِدْر : هذه الممارسات التقنية هى داء علم الآثار. ففحص مواد التنقيب بهذه الطريقة، لا يقدم لنا، بالفعل، من المعارف حول المجتمع الذى تمثله أكثر مما يقدمه للغة ركام من المصطلحات الملتقطة كيفما اتفق، ذلك أن البقايا الأثرية، مثلها مثل الكلمات، لا تكتسب أدنى معنى ما لم تكن فى سياق البنيان الذى تنتمى إليه. ونظراً لعدة أسباب، تبدو الأولى قليلة الفائدة هنا والثانية غارقة فى عدم الفهم والأحكام المسبقة. وإعادة اكتشافها غير ممكنة إلا على أساس عمل مقارن لا يعرف الكلل بين الوثائق المتوفرة: المنسوجات من جهة؛ والرموز الهيروغليفية الموجودة بكثرة فى المواد الأركيولوجية من جهة أخرى، وأخيراً المخطوطات القديمة، وهى كتب رسوم تمد جسراً بين نوعى المواد الآخرين.

لابد من إخضاع البقايا الأثرية لفحص مكثف قبل أن تظهر قيمتها. فاضطراب التسلسل التاريخى للنصوص، واختلاط الملامح التاريخية والقديمة، ووحدانية الصور والمصطلحات المتضمنة فى المخطوطات تجرد، فى أول الأمر، اللقى والآثار التى تخرج إلى النور من أى معنى. وتكون الظاهرة أكثر شمولاً حين يكون هناك ميل للبدء من أبسط الأمور، أى : تحديد العصر زمنيًا أو التقصى الاثنى لأى مركز.

لابد للمرء من أن يكون قد ناضل طويلاً ضد التناقضات، وأن يكون قد اصطدم بما لا حصر له من جدران الأزقة المسدودة، وأن يكون قد تمرد ضد الفوضى التى تقود إليها الحلول السهلة لكى يقرر البحث عن طريق آخر. ونظراً لطبيعة العقبات، فإن الوسيلة الوحيدة التى تبدو فعالة هى دراسة الرموز، وهى دراسة تتخلى عنها الأركيولوجيا عموماً لاختصاصات أخرى وتستبعدها ما إن تبدأ التحليل الفنى.

ماذا علينا أن نفعل لنقر البقايا المادية فى عصر معين، دون أن نفصل مسبقًا عن التاريخ، العناصر المثولوجية التى تشوشه؟ وما هى الوسائل المتوفرة لمعرفة اللغة التى كانت مستخدمة فى مدينة مهدمة، إذا لم نفعل ذلك من خلال معتقداتها، ومن خلال مظاهر ما زال التاريخ يحمل سماتها؟ وبما أن آثار أحداث ذلك العالم قد طُمست أو أصبحت فى حال لا يمكن معها التعرف عليها بسبب اندماجها فى طبقة تاريخية أخرى تمثلها، فهل يبقى من سبيل آخر سوى جمع مكونات الواقع الوحيد الذى يحتفظ ببعض الدلالة؟ وإذا كان من المستحيل تماماً اقتفاء الآثار المادية للسيد كيتزالكواتل الذى يرتبط به كل تاريخ المكسيك، فإننا فى ظروف تتيح لنا معرفة إذا ما كان هذا المكان أو ذاك يشير أو لا يشير إلى وجود بعض القواعد التى يستدعيها وجوده. ثمة وقائع من مستويات تاريخية متعددة يختلط بعضها ببعض فى المدن القديمة، ولكن إحداها - التى ترافق وتحسم التاريخ - تترك أحياناً، على خلاف الحوليات، بعض رموز واضحة ووفيرة بما يكفى لتمكيننا من رسم لوحة متماسكة.

بعد شكوك لا حصر لها توصلنا إلى اليقين بأن المكان الأكثر ملاءمة لامتلاك تلك المواد الضرورية لهذا النوع من التقصى هو تيوتيهواكان. فهى تقع فى الهضبة المكسيكية التى كانت، حسب رأى جميع كتبة الوقائع "مهد الثقافة" (الشكل ٦٥)، والمدينة الأكثر قِدماً، والأكثر اتساعاً وشهرة بين مدن أمريكا، موطن الشمس الخامسة والموسومة بقوة برمز كيتزالكواتل، مدينة الآلهة التى يجب أن تضم مجمل الرموز الناهواتيلية، وقد قلنا إنه ما إن يتم التعرف على تلك الرموز حتى يستقر التوالى *التاريخى من تلقاء نفسه*.



(الشكل ٦٥) بحيرة الهضبة المكسيكية حيث ولدت وتطورت واندثرت حضارة ناهواتل

بعد كشف العلاقات ما بين نوعي المصادر، وهو الأمل الوحيد لإعادة بناء الماضي، يتوجب إخضاع المواد الأثرية لفحص صارم : لا يمكن للحوليات والرموز أن توضح نفسها بنفسها إلا إذا كانت الأفعى المجنحة، بعيداً عن أن تشكل شهادة على عبادة الحيوانات التي يتحدث عنها المؤرخ أورثكو أي بارا،

هي في تيوتيهواكان صورة الملك الذي تحول إلى كوكب ، وسنرى أولاً إلى أي شيء يستند تحليل رموز هذا النظام.

تحتل بعض الأشكال ذات الطابع الرمزى فى جوهرها مكان الكتابة، وباستثناء بعض الأعمال النادرة، مثل أعمال ساهاغون على سبيل المثال، التى ضُبطت صحتها بمساعدة مخبرين معاصرين، فإن كتابات القرن السادس عشر هى ترجمات لكتب مرسومة، وبعض نماذج هذه الوثائق النفيسة فقط أفلتت من الإعدام حرقاً الذى تعرضت له حتى قبل مجىء الإسبان، ذلك أن انتصار الأزتيك على آخر مدينة كانت تحافظ على التقاليد (وكانوا تابعين لها حتى ذلك الوقت) رافقه كذلك إحراق للمكتبات. وكان الهدف من نهب ازكابوتزالكو Azcapotzalco عام ١٤٢٥، فضلاً عن الأهداف الحربية المباشرة، هو دون شك إعادة صياغة الحكمة القديمة تحت إرادة سلطة كانت تلك الحكمة تدينها بوضوح. من هذا الإخضاع للمعرفة التقليدية يتحدر الصمت حول القرون التى سبقت مجىء التشيمتشيكيين.

تلك الكتب المرسومة التى أنقذتها من الدمار عند مجىء الفتح الأوربى أيدٍ رحيمة، وعُوملت بتوقير فى السر رغم خطر التعرض للعقوبة، هى اليوم بالنسبة إلى المتخصصين فى التاريخ الأمريكى أشبه بحجر رشيد. ولولا الاهتمام الذى أولاه بعض كتبة الوقائع بترجمة رموز عدة مخطوطات، فإن اختفاء كل الأصول التى كانت مصدر الحوليات كان سيُبقى مغزى تلك الكتابة الرمزية المعقدة مغلقًا إلى الأبد. فمن خلال ملاحظات دُونت على هامش الكتابات الهيروغليفية، حول الرموز الإلهية والمشاهد الطقوسية التى تضمها تلك الكتب (وهى ملاحظات مدونة بلغة الناهواتيل أو بإسبانية الوطنيين المتنصرين)، نقل إلينا الحكماء المكسيكيون مفاتيح حل رموز اللغة الضائعة.

من بين الأربعين مخطوطًا المعروفة، هناك نحو عشرة منها فقط تتناول أحداثًا تاريخية؛ أما الأخرى فتتعرض للحياة الدينية. وقراءة المجموعة الأولى منها لم تتم إلا حديثًا. ونحن ندين بها إلى حد كبير إلى الباحث المكسيكى ألفونسو كاسو **Alfonso Caso** الذى، بعد أن أعد عدة تصنيفات جزئية للرموز والشيفرات، كان يزيدها توسعاً فى كل مرة، قدم للمتخصصين فى التاريخ الأمريكى ترجمة ما أسماه هو نفسه "أهم مسرد أنساب احتُفظ به"[٢١]. فمخطوط بودلى **Bodley** يعيد سرد تاريخ المكسيك منذ القرن الثامن حتى الفتح الإسبانى، ولدى روايته الأحداث التى جرت بوجود الإسبان سمح بإقرار تزامن تواريخ الوطنيين مع تقويمنا. وتبدو هذه الإضافة أثمن عندما تمدّ

– فـى الوقت نفسه الذى توضح فيه جزءاً من المرحلة الإبداعية التى كانت معرفتها ستقتصر على الأركيولوجيا وحدها – جسراً ما بين هذه المرحلة والعصر الحربى الذى كان من دونها سيبقى مبتوراً إلى الأبد.

ويرجع الفضل فـى كشف الجزء الأعظم من المعلومات المتعلقة بالمخطوطات الدينية إلى إدوارد سيلر Eduard Seler (١٨٤٩ – ١٩٢٢). فهذه المعلومات المستخلصة ببطء وتدرج من ملاحظات مخطوطة، كانت تُقارَن على الدوام بالبقايا الأثرية وبالأساطير، شكلت بعد حوالي خمسين سنة من العمل الدؤوب، خلاصة من المعارف ما كان بالإمكان من دونها التفكير اليوم بأى تقصٍ عميق، فلولا جهود سيلر الفريدة، وصبره المجرب، وولعه بالتفسير والتوضيح، لكنا ما نزال اليوم بعيدين جداً عن أى إمكانية لإعادة ترتيب الحوادث. وفـى رواية ابنة هذا العالم الكبير لوقائع موته، تروى أن أباها، حتى وهو يحتضر، كان مهتماً بعمله : فكان يرسم بأصابعه رموزاً هيروغليفية فـى الهواء.

إنه دليلنا الأساسي بالطبع.

(أ) الوثائق المكتوبة :

إن أدب ناهواتيل فـى الهضبة المكسيكية، المؤلف من عدة أجناس، والذى جُمعت مقتطفات منه درسها العلامة البارز الأب آنخل ماريا غاريباى Angel M. Garibay ، فـى مجلدين ضخمين، يتكشف عن غنى يفوق كل ما كان يمكن توقعه. ويؤكد المختصون فوق ذلك أن النصوص المطبوعة منه لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً مما ينتظر اهتمام المترجمين، وأنه ما يزال هناك أكثر من ذلك بكثير مخبأ فـى المكتبات.

نحن نعرف حتى الآن حوالى ثلاثين مخطوطة حوليات. معظمها مجهول المؤلف، وهى من عمل مؤلفين وطنيين كتبوا بلغتهم المحلية، أما الباقى فوضعه إما متحدرون من الأعيان المحليين – مثل إيكستليلكسوتشيتل، وتزوزوموك، وتشيمالباين – الذين كانوا يتقنون التعبير بلغة الناهواتيل، أو الإسبان الذين جاؤوا بعد وقت قصير من الفاتحين، من أمثال: ميينديتا، وأولموس، وساهاغون، ودوران، وموتولينيا.

الأيقونات :

سنبدأ بكيتزالكواتل، وهو رمز يشكل مفتاحًا للغة الرموز الناهواتيلية، محاولين التوصل إلى اكتشاف مغزاه.

يرمز الطائر إلى الشمس، وبالتالى إلى السماء. والنسر فى تيوتيهواكان أو لدى الأزتيك على السواء، هو الكوكب فى بزوغه، ويمثله طائر الكيتزال فى مدينة الآلهة، وطائر الكوليبرى فى تينوتشيتيتلان.

وترمز الأفعى إلى المادة. وارتباطها بالألوهيات الأنثوية للأرض والماء، كثير التواتر. فـ "مسخ الأرض" يُمثَّل بشدقى حيوان زاحف مفتوحين. والمادة بهذا المعنى هى مرادف للموت، للعدم: فالجماجم والهياكل العظمية تشكل، جنبًا إلى جنب مع الأفعى، مجمل الخصائص المميزة للربات (الشكل ٦٦). وعلى الرغم من وجود بعض الاستثناءات القليلة، فإن الهياكل العظمية والأفاعى تبدو محملة مع ذلك على الدوام بديناميكية تحولها، وهى التى ترمز إلى الموت، إلى قوة حياة. ومما له مغزى خاص أن الأنماط الثلاثة التى يتبدى من خلالها الحضور المهيمن للحيوان الزاحف فى جميع المواقع الأثرية الأمريكية (الزخرفة ذات الخطوط المستقيمة المتدرجة، والنقش على شكل S، والتفاف جسدين على شكل جديلة) تلتقط الحركة الواقعية لما تمثله. فـ "الحركة" المرتبطة بالحيوان الزاحف تكشف عن أنه يعبر عن المادة، ولكن ليس باعتبارها ملتهمة الحياة، وإنما فى قدرتها على التوالد.

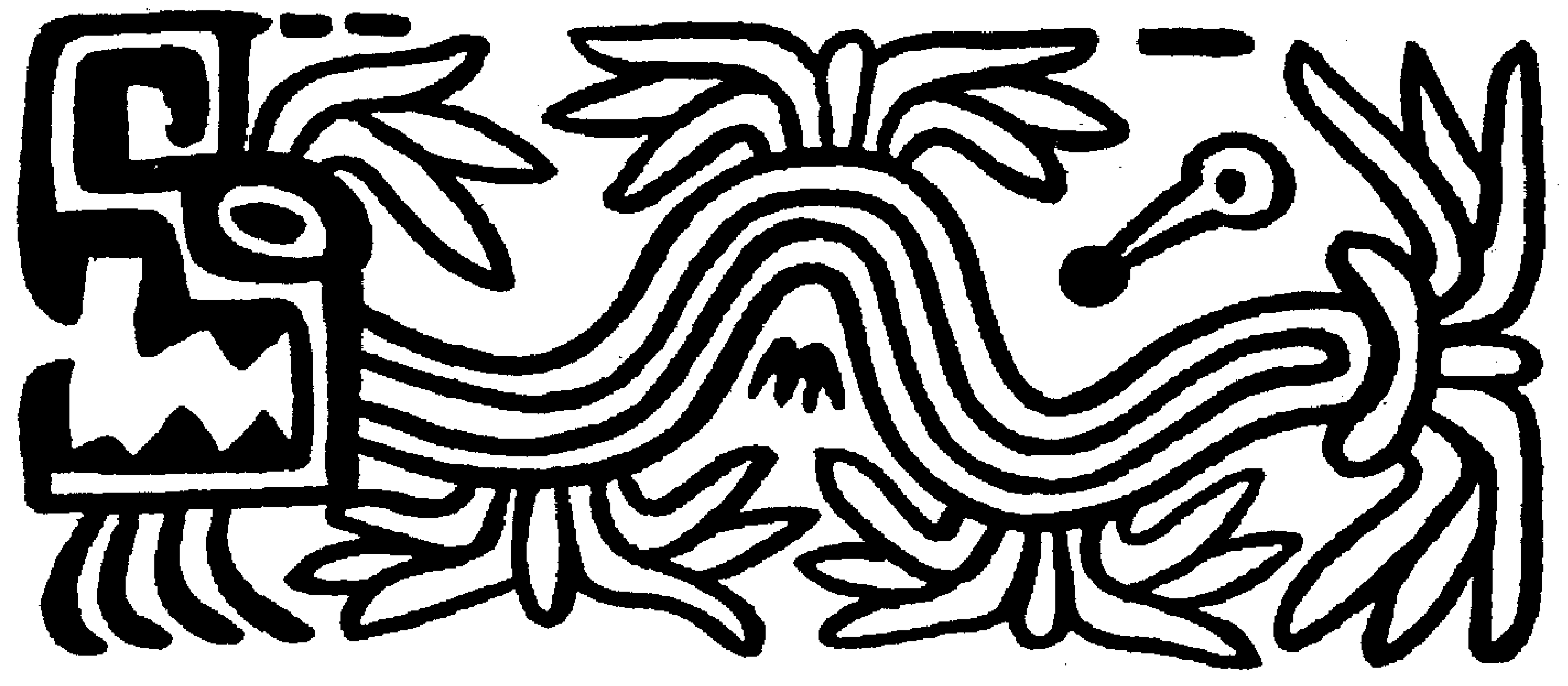
بيد أن طبيعة هذا التوالد ليست من النوع الطبيعى. فالأفعى تحت تصويرها الواقعى وبخلوها من الرموز التى تمنحها خصائص مميزة، تظهر فى أوضاع تبدل من جبريتها العضوية: فى وضع منتصب، توضح فكر بعض القصائد النهوا حول شاقولية ما هو إنسانى (الشكل ٦٧) أو فى الجسد المحترق باللهب، مثل الملك التائب (الشكل ٦٨)، فى إشارة إلى بحث المادة الدائم عن عناصر التحول.

(الشكل ٦٦) المراة ، والموت ، والأفعى هى خصائص المادة (مخطوط ورجيا) .

(الشكل ٦٧) ثعبانان منتصبان (مخطوط فيجرفارى ماير).

(الشكل ٦٨) الأفعى كأداة للحصول على النار (مخطوط لاود) .

(الشكل ٦٩) الأفعى المجنحة ، عن خاتم أزتيكى .



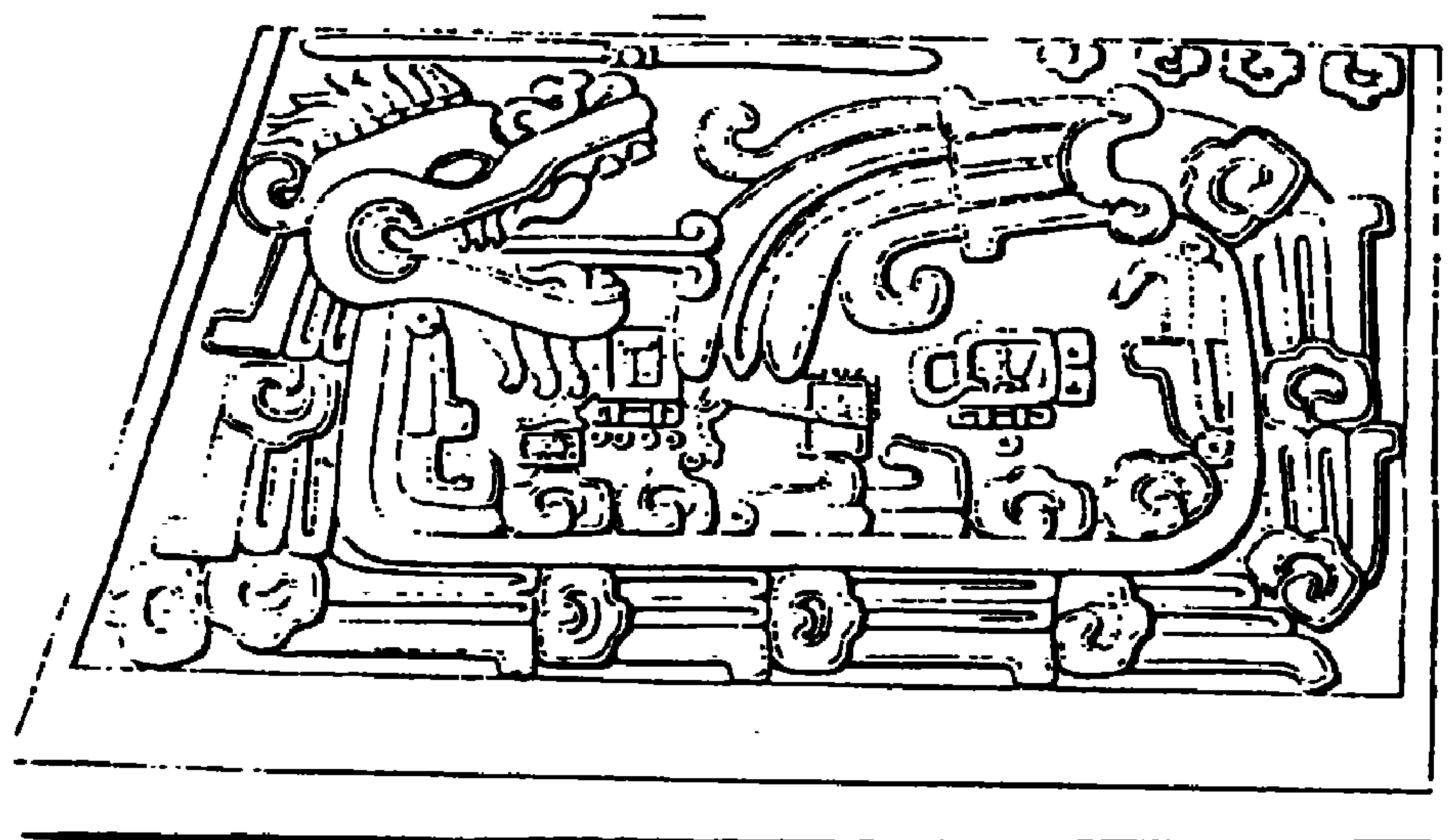
الأفعى المجنحة :

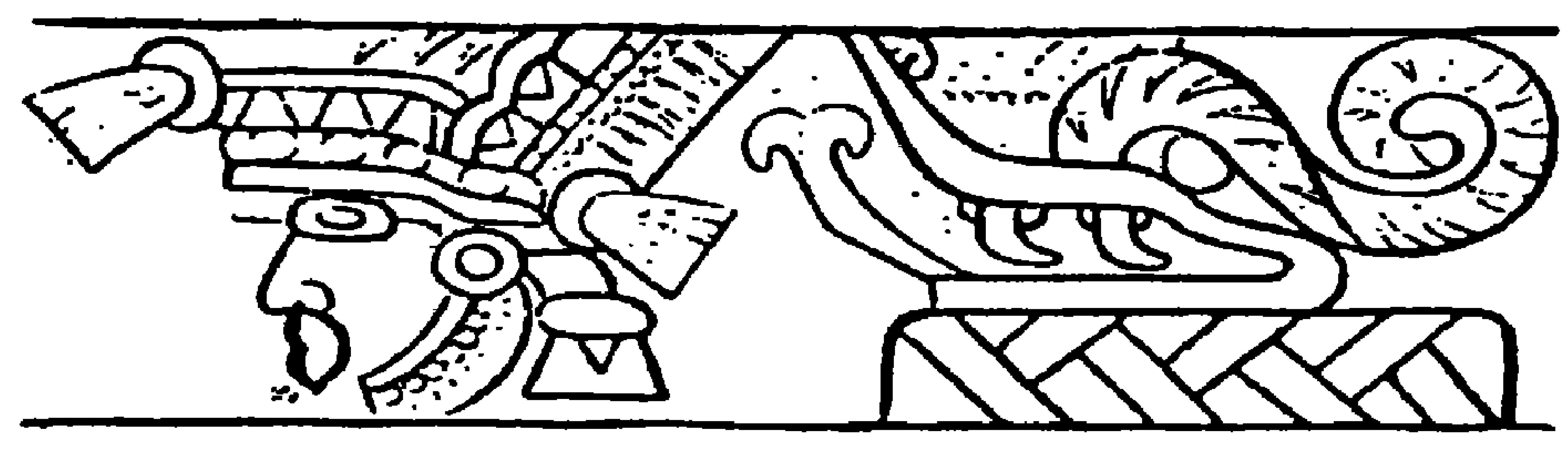
وهى تمثل تهجين جنسين لا يمكن التوفيق بينهما، إنها اتحاد المادة الزاحفة على سطح الأرض مع مادة مجنحة (الشكلان ٦٩ و ٧٠).

وإذا كان مصطلح كيتزالكواتل يُترجم عادة بـ الأفعى ذات الريش وليس بـ الطائر ذى الملامح الأفعوانية، حسب معناه الحرفى، فإن هناك نموذجين تيوتيهوانيكيين من هذا النوع الأخير : نسر بلسان مشطور إلى شقين وطائر كيتزال مختلط بملامح أفعى، وهذا يكفينا لكى نُثبت أن التركيب هو نتيجة جهد مشترك، فبينما يسعى الحيوان الزاحف إلى الصعود نحو السماء، يتطلع الطائر إلى الوصول إلى الأرض، مما يشير كما يبدو إلى أن مفهوم الحركة فى الحالة الأولى هو الصعود، وفى الحالة الثانية النزول.

السيد كيتزالكواتل ، ملك تولا :

فى لحظة الاتحاد، ينمحى الحيوان الزاحف والطائر أمام السيد كيتزالكواتل، الذى سيمثلانه منذ تلك اللحظة. الأمر يتعلق إذن بمجىء الإنسان، الكائن المزود بحس يتيح له الانطلاق فى البحث عن حقيقة غير مرئية، غائبة عن عالم الظواهر. وتقدم تيوتيهواكان أكثر العلاقات مباشرة ما بين الحيوان الزاحف – الطائر والملك الأسطورى : رأساً ملتحياً محاطاً بالرموز الهيروغليفية لاسمه (إنه رأس أفعى مجنحة موضوعة فوق حصيرة ترمز إلى السلطة). هذا هو السيد كيتزالكواتل الأول المعروف حتى اليوم، إنه السلف القديم – القرن الثانى أو الثالث من تقويمنا – السلالة التى لن تختفى حتى مجىء السيطرة الإسبانية (الشكل ٧١). وجهه يزين بقايا كأس اكتشفنا وجودها بتأثر بين فتات الخزف المستخرج من قصر زاكولا، اللحية فى المخطوطات ما قبل الكولومبية هى العلامة المميزة لملك تولا (الشكل ٧٢) والدوائر التى تزين جبهته وعنقه تمثل الأحجار الكريمة التى تشير إليه فى المخطوطات. فالنصوص تخبرنا بأن الحجر الكريم هو أحد الرموز التى لا بد منها لجوهر الكائن، وهى مدفونة فى القلب البشرى. وكان الأزتيك يضعون أحد هذه الأحجار فى فم الموتى، وقد عثرنا فى القبور فى تيوتيهواكان على أعداد كبيرة من هذه القلوب القديمة البراقة التى لم تُمس.







(الشكل ٧٠) الأفـعى المجنحـة منحـوتة على جـدار مـعـبـد شوتشيكالكو.

(الشكل ٧١) السيد كيتزالكواتل مـرسـوم على كـأس في تيوتيهواكان .

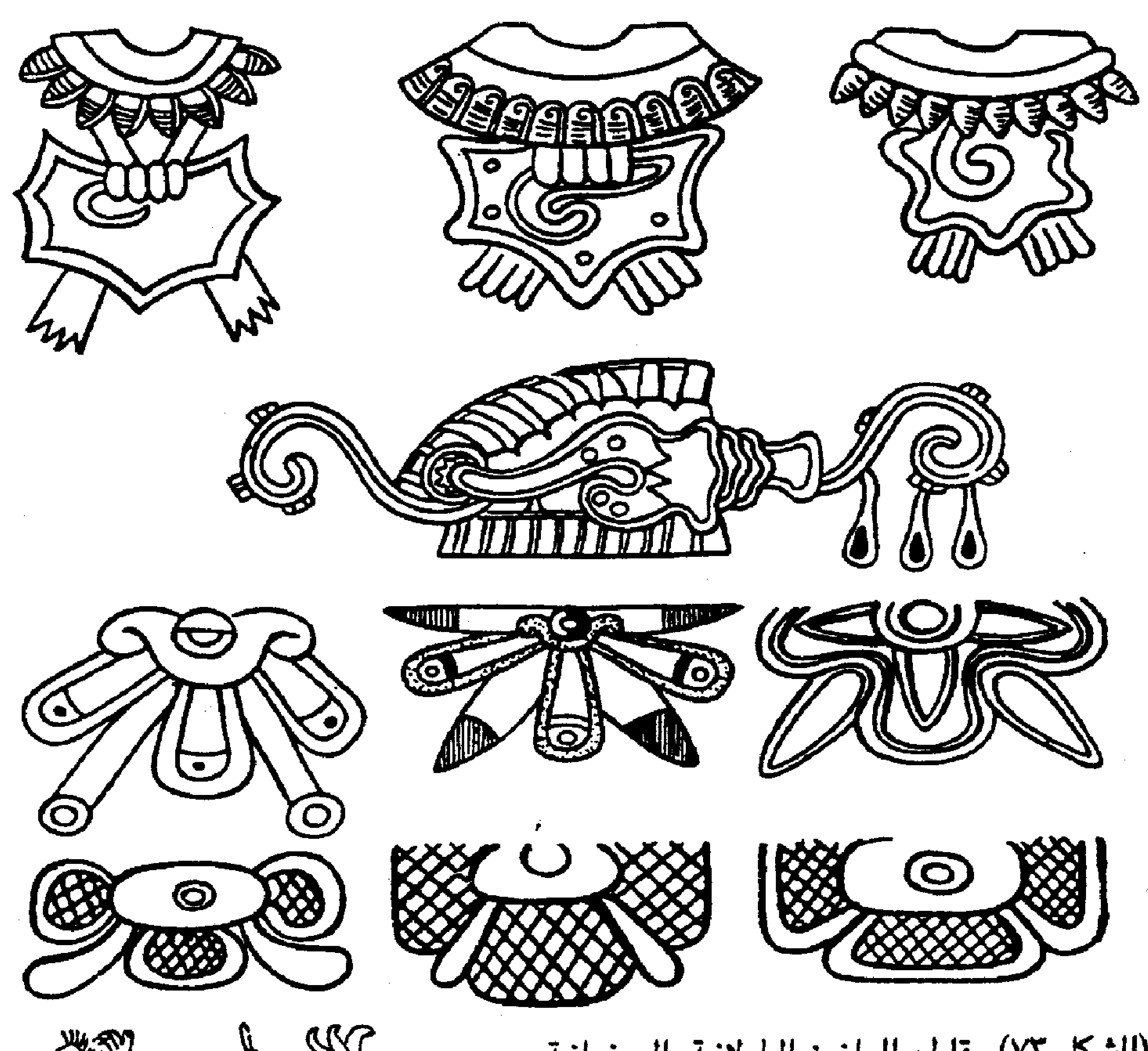
(الشكل ٧٢) السيد كيتزالكواتل في أزمنة الأزتيك (مرتفعات دوران).

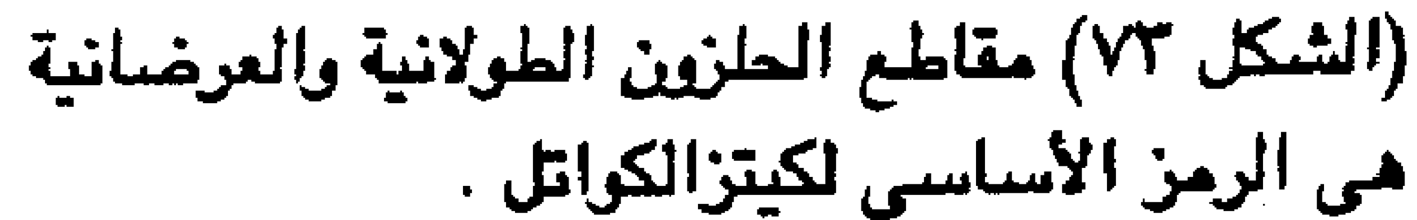
الصفة الأساسية المميزة لكيتزالكواتيل هى الحلزون (المعلق على الصدر، فى مقاطع طولانية وعرضانية [الشكل ٧٣]) وكان الحكماء القدماء يعتبرون الحلزون رمزاً للولادة، وهو تفسير يتوافق مع وظيفة مُنجب الإنسان المنسوبة إلى كيتزالكواتل. والحلزون فى هيروغليفية المايا يعنى الغاية، الاكتمال، ويشير إلى إنتهاء عصر فلكى (٣٢). وتشكل رؤية غاية مبتغاة والتوصل إليها القصة الكاملة لملك تولا؛ فالارتباط بين هذا الملك إذن ومفهوم الاكتمال هو ارتباط منطقى لأن المرحلة الوحيدة من وجوده هى بالتحديد تلك التى يمنح فيها شجاعته النموذجية لكيتزالكواتل.

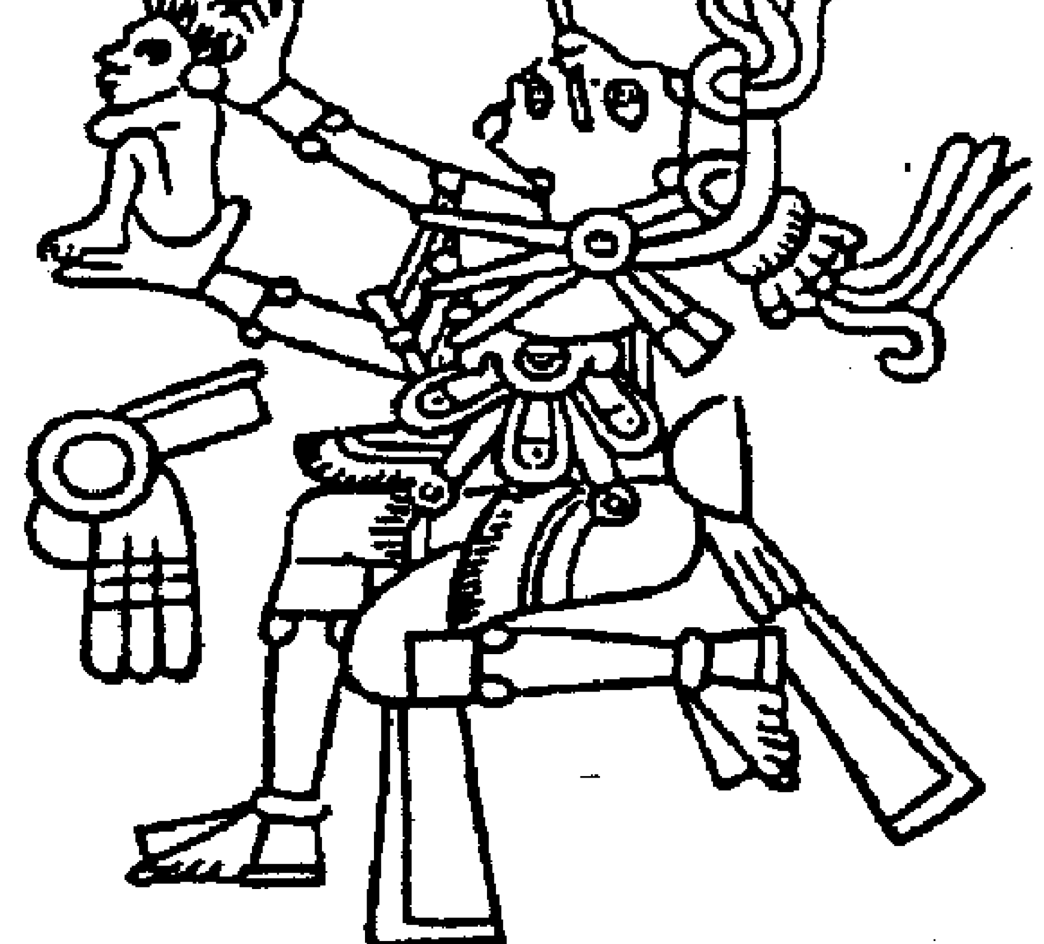
كوكب الزهرة :

يطرح كوكب الزهرة مشكلة أولوية مشابهة لتلك التى تسببها لكيتزالكواتيل مكانته الدنيوية كملك وطبيعته الإلهية: وتحت هذين المظهرين يحمل كيتزالكواتل رمز الزهرة الهيروغليفى، والملك هو ممثله على الأرض. فى أى لحظة يبدأ هذا التطابق ؟ كوكب الزهرة يولد من رماد ملك تولا، ولا يتمكن من التواجد إلا بعد هذه الخاتمة، ولكن لغة الرموز تكشف تشابهاً مطلقاً فيما بينهما خلال المغامرات السابقة للختام؛ فكيتزالكواتل يمثل الكوكب سواء حين ينزل إلى الظلمات أو أثناء مسيره تحت الأرضى بحثاً عن الضياء.

هذه المشكلة، الملازمة لكيتزالكواتل، تضطرنا إلى الاعتراف بالطبيعة الماورائية التى تنسبها الأساطير والأيقونات إلى منشئه؛ فاختيار جرم سماوى ليكون قريناً له يشير إلى أن واقعيته ليس لها بداية ولا نهاية. وبمقتضى القطع المكافئ لملك تولا، فإن المصير الإنسانى يتحقق من خلال حركة تعود إلى المصدر الذى أنجبه، وانتهاء الكوكب يتمثل، فى لغة الرموز، بالحركة التى تقود من جديد إلى بلد الشمس بعد مرور عبر المهاوى الأرضية. وسنرى كيف أن هذا العَود الأبدى يؤثر على الإنسان ككائن اجتماعى، ذلك أن الجماعة وحدها هى التى تبدو قادرة على تأبيد الوعى الفردى.





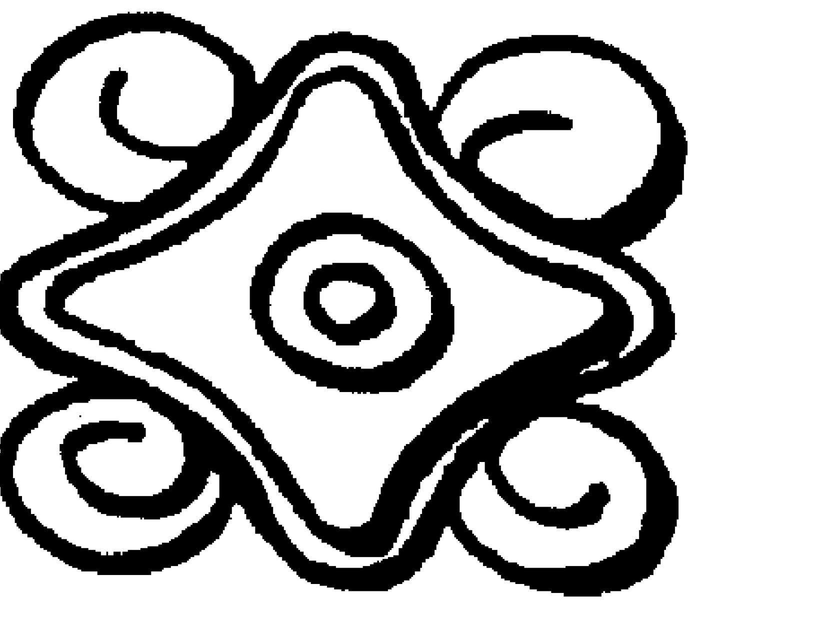


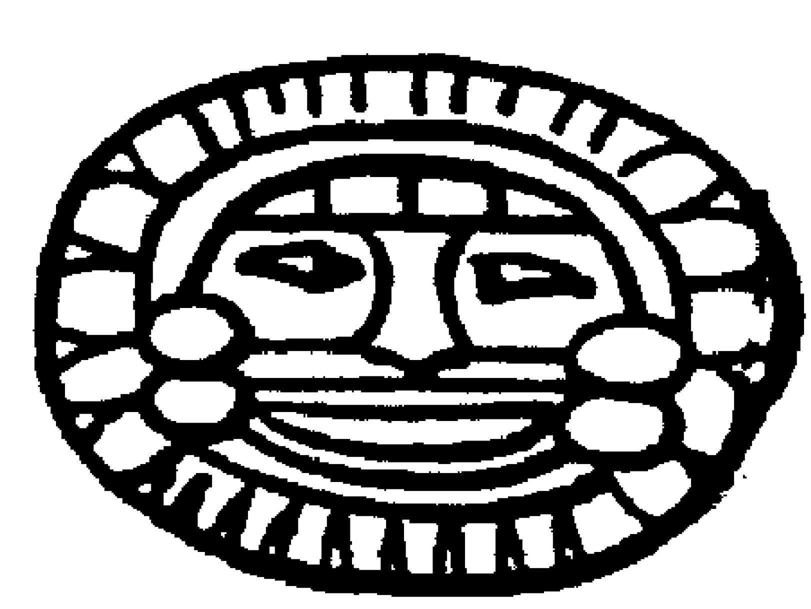
(الشكل ٧٣) مقاطع الحلزون الطولانية والعرضانية هى الرمز الأساسى لكيتزالكواتل .

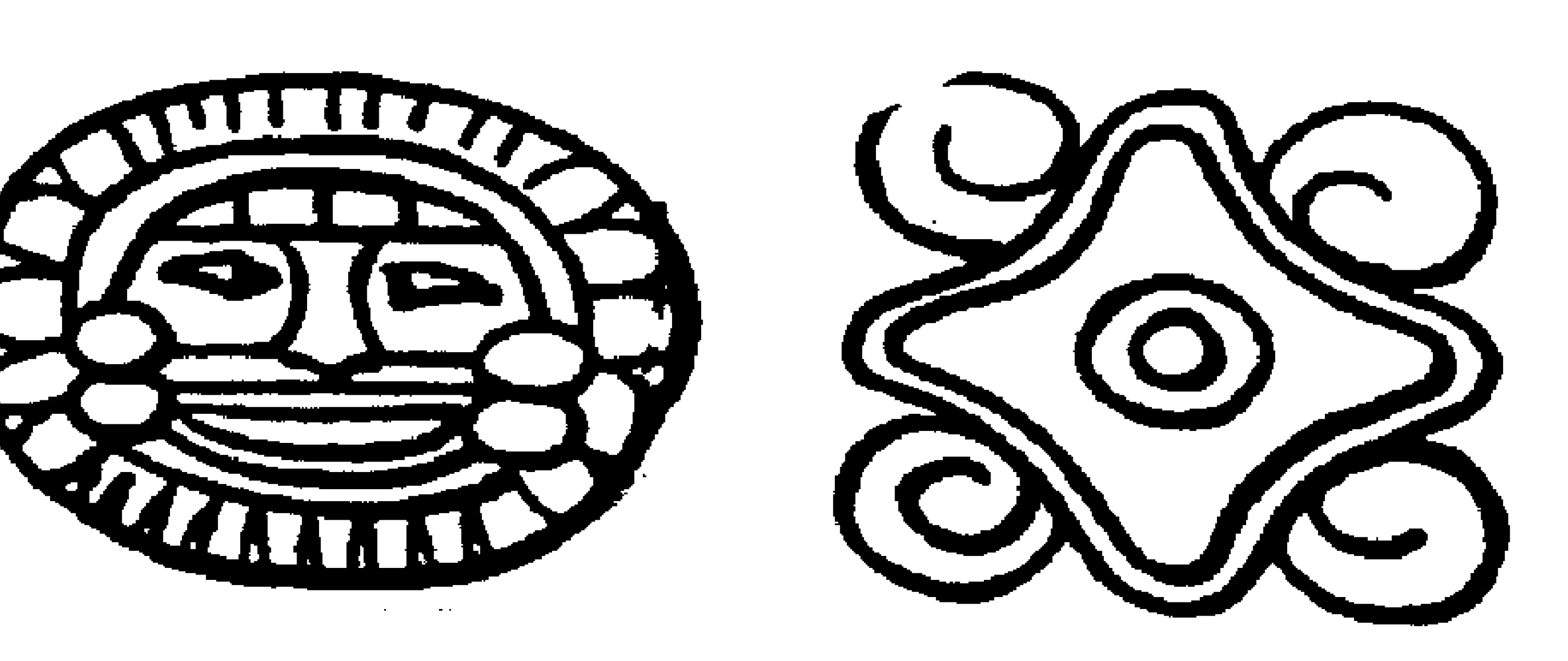
(الشكل ٧٤) الشكل ثلاثى الفصوص لدى المايا والناهواتل ، هو رمز النهاية .

(الشكل ٧٥) سيد الفجر مع الرمز ثلاثى الفصوص (فيجرفارى – ماير).

(الشكل ٧٦) رمز كوكب الزهرة والشمس يستخدمان بالتناوب رسم جدارى تيوتيهواكانى .









(الشكل ٧٨) الكلب هو قرين
كيتزالكواتل (مخطوط دريسدى)

(الشكل ٧٧) الهبوط الغسقى
لكوكب الزهرة (مخطوط دريسدى)

السنة الزهرية المؤلفة من خمسمئة وأربعة وثمانين يوماً، تمثل فترة نهارية وأخرى غسقية، تفصل بينهما الروابط المذكورة، علوية ودنيا، يختفى خلالها الكوكب ما بين الأشعة الشمسية. هذه المرحلة تُمثَّل بحسابات رياضية صارمة فى الصفحات من ٤٦ حتى ٥٠ من مخطوط المايا المحفوظ فى مكتبة دريسدى Dresde ، والتى جرى حلّ رموزها فى بدايات القرن على يد الباحث الألمانى فورسترمان Forsterman ؛ ثم عثر عليها إدوارد سيلر فيما بعد فى عدة مخطوطات من مناطق أخرى.

وقد أقر سيلر، فوق ذلك، أن تسمية الحركة الرابعة، الخاصة بحقبة كيتزالكواتل والمحددة بالوضع الفلكى الذى يسود عند ميلاد الشمس الخامسة، يشير إلى ارتباط شمسى مع كوكب الزهرة. الأهمية المعطاة لهذا الحدث السماوى تكشف أن مراحل حركة دوران الزهرة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار تبعًا لالتقاء الكوكبين، حيث إن تواليها يعنى الاندماج فى نظام أعلى، كذاك الاندماج الذى يميز مسيرة ملك تولا.

من هنا ينشأ، دون شك، أن كل الرموز الهيروغليفية للزهرة تعبر، مثلما هو الحلزون، عن مفهوم الكليّة؛ بالطريقة نفسها التى كان المايا يستخدمون فيها نقشًا ثلاثى الفصوص للإشارة إلى نهاية دورة زمنية (الشكل ٧٤) ويحمله كيتزالكواتل باعتباره سيد الفجر (الشكل ٧٥). فى تيوتيهواكان يُمثَّل هذا بيدٍ مضمومة، وهو رمز مايا آخر للكليّة. وهناك أخيراً المربع المخموس[*] الموجودة فى كل مكان، وهو رمز الآفاق الأربعة مرتبطة بمحور إلى السماء وإلى الأعماق، وهذا هو أكثر رموز الكليّة جلاء: فباقتطاعه من الواقع الفلكى، يُذكِّر بسنوات الزهرة الخمس التى يحدث فى نهايتها الاقتران الأعلى للكوكب مع الشمس. وثمة نقش جدارى تيوتيهواكانى، يتناوب فيه الوجه الشمسى بالمربع المخموس، يخلد هذا اللقاء المولد للحقبة الناهواتيلية (الشكل ٧٦).

تجسد النور :

بعد تسعين يومًا من اتحاده مع الشمس، يكون خلالها غير مرئى، يظهر كوكب الزهرة طوال مئتين وخمسين يومًا فى السماء المسائية. وبخضوعه عندئذ للجاذبية، يشده العالم السفلى إليه حتى يختفى فيه. ويستمر اختفاؤه ثمانية أيام ويتوافق مع التحامه السفلى الذى يسبق ظهوره الشرقى مجدداً. هذا الجرم السماوى المُلتَهم يُمثَّل بجسد كيتزالكواتل النازل، وفى مخطوط دريسدى يكون له فى موضع الرأس الرمز الهيروغليفى لكوكب الزهرة (الشكل ٧٧).

الكلب :

حين يلتقى الكوكب بالمادة، يُرمز له بـ شولوتل، قرين كيتزالكواتل. وشولوتل تعنى بلغة الناهواتل "كلب"، كما أنها تعنى "توأم": وسيكون علينا أن نتابع فيما يلى النور المتجسد تحت شكل كلب أو كائن عارٍ ومشوه الخلقة.

(*) الشكل التخميسى quincunce ، أو المربع المخموس : مجموعة من خمسة أشياء ، أربعة منها فى الزوايا والخامس فى وسط المربع .

يقول ساهاغون إن الكلب هو رمز النار، وتحدد الكتابات الهيروغليفية أن هذه النار من منشأ سماوى، وهكذا فإن شولوتل لا يتطابق مع الزهرة - كيتزالكواتل وحسب، وإنما يُمثِّل كذلك هاوياً من السماء وهو يحمل مشعلاً (الشكل ٧٨). إنه صورة اجتماع المادة - النار السماوية، ويطلعنا سلوكه على التأثير الذى يُفترض أن تمارسه هذه النار على الأرض.

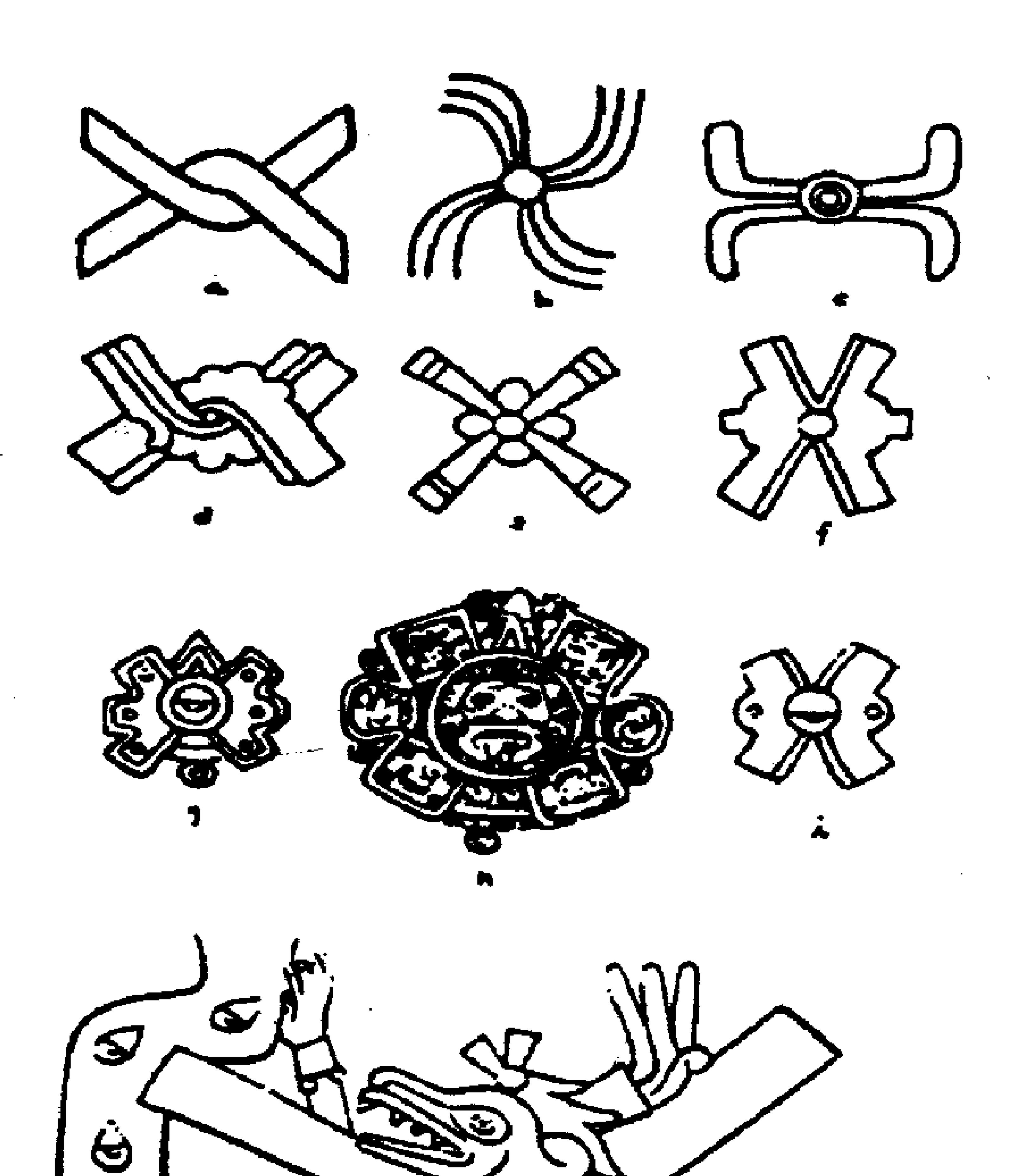
وشولوتل متحرك من حيث الجوهر: تقتصر مهمته على نقل الشرارة التى يحملها إلى حيث لا تمارس الجاذبية فعاليتها بفضل المهاوى، وإنما بفضل الأعالى : إنه يمثل الكوكب فى رحلة العودة لبلوغ الفجر؛ وحين يتوصل إلى ذلك، يُستبدل بكائنات أخرى. ولهذا فإن الخاصية الأساسية لشولوتل هى الحركة، ويرافقه رمزها الهيروغليفى على الدوام.

الجغوار :

لا يمكن ملاحقة النور المتجسد إذ قصرنا اهتمامنا على كوكب الزهرة، ذلك أن رمز الكوكب يختلط برمز الشمس فى أشد اللحظات حسماً. ولهذا سندرسه من الآن فصاعداً من خلال صور تنتمى إلى سياق آخر.

ففى أحشاء الظلمات التى تبتلعه، يتحول الكوكب إلى تلالتشيتوناتيوه Tlalchitonatiuh ، أى شمس الأرض. وقرين الشمس خلال هذه التجربة الأرضية هو الجغوار، الذى يُمثَّل، كما هو شولوتل، ساقطًا من السماء (الشكل ٨٢). ومن هنا فإن للكلب والجغوار القيمة الرمزية نفسها وكثيراً ما يجرى الخلط بينهما.

ومع ذلك فإن رحلة الجسد السماوى فى باطن الأرض، تتوضح على الدوام تقريباً من خلال النمر، فعندما يتوج كيتزالكواتل، مع انتهاء مغامراته، سيداً للفجر، فإن كل الرموز التى تذكر انتصاره على الظلمات تشير إلى الجغوار. ويبدو أن سبب هذا الاختيار هو نوع من توزيع العمل : فالعمل الليلى يُمَارس فى عدة مراحل، وإنقاذ النور يتطلب خوض معركة ضارية مع القوى الطبيعية التى لا بد من مواجهتها، وينفتح الطريق الأرضى فى لحظة معينة على هاويات لا يمكن اجتيازها ، لعدم وجود جسر،



(الشكل ٧٩) رموز هيروغليفية تمثل «الحركة» .

رمـــــــوز الصـف العلـوى من تيوتيهواكان ؛ وبقية الرموز الأخرى مــأخــوذة من مــخطوطات وآثار أزتيكية متعددة .

(الشكل ٨٠) شـــولوتل ، الكلب ، ملتحمًا برمز «الحركة .

(مخطوط فيجرفارى - ماير) .



(الشكل ٨١) شـــولوتل ورمـــز «الحــركــة» الهــيــروغــليــفى (مخـطـوط بورجيا) .

إلا بالنزول (وأحد أعمـال ملك تولا خلال رحلته هو، بالتحديد، جسر يمـده فـي مكان ما لكي يتمكن أتباعه من مواصلة السير قدمًا). فإذا لم تخذله شجاعته، فإن الحيوانات ستنتهي إلى توجيه هجومها على سماء الفجر.

لدينا إذن أربع حركات: المسير ابتداء من السقوط، والمعركة ضد القوى المعادية، والنزول إلى عوالم الجحيم، والتسليم النهائي. فإذا افتُرض أن الكائنين يمران بالتجارب نفسها، فإن شولوتل وحده هو المكرس لعـوالم الجحيم ولتسليـم الجُزَىء المضيء. أما النمر، فيوضح رحلة المسير والمعركة، وهناك رسم جدارى تيوتيهواكانى واحد فقط يُظهر الحيوانين يسيران معًا نحو مصيرهما المشترك. إن توزيع الأدوار بينهما متقن تمامًا؛ فليس هناك من مخلوق يمكنه أن يوحي بالحركة بصورة أفضل من الجغوار، وكذلك بالقوة والعناد اللازمين لتلميذ كيتزالكواتل من أجل إنقاذ الشرارة التى هو ناقلها الواعي، وهكذا يتوضح مبرر ذلك الحشد من الرجال-الجغوار الذى يكتسح أمريكا الوسطى، وإنه لأمر ذو مغزى أنه بينما تحولهم تيوتيهواكان إلى صورة للانسجام الكوني، فإن المناطق المدارية إلى الجنوب من فيراكروث، التى تجتاحها المستنقعات والأدغال، ترى فيهم رمزًا للإرادة التى لا بد منها لاقتحام ذلك الانسجام. ومن المفاجئ أن حصيلة هذه الرؤية للقَدر الإنسانى تكـون مؤثرة فـي الغـالب (الشكلان ٨٣ و ٣). طبيعة التفصيل الداخلي الذى يسمح بتحقق المعجزة، تُستذكر من خلال الفأس (رمز الصاعقة) التى يحملها الإنسان-الجغوار غالبًا (الشكل ٦).

من علاقاتهما المتبادلة يولد الفارس – النمر، وهو عضو فى نظام دينى مهمته هى خوض حرب لا يمكنها إلا السعي إلى الانتصار على المادة، وحماية النار الأصلية من إمكانية إصابتها بعدوى العطالة والجمود (الشكلان ٨٤ و ٨٥).

تيزكاتليبوكا :

من يجسد حالة الترصد والديناميكية المرموز إليها بالجغوار هو تيزكاتليبوكا، واسمه يعني "المرآة المدخنة". وهو إله دائم الشباب والتأهب، لأنه من "يمشي أكثر ويصل أولاً". يذكر بحركية الجغوار، الذى يتخذ صورته (الشكلان ٨٦ و ٨٧).



(الشكل ٨٢) الجغوار ساقطاً من السماء (مخطوط نوتال) .

(الشكل ٨٣) رجل - جغوار (حسب ميغيل كوفاروبياس) .

(الشكل ٨٤) الفارس - الجغوار في تيوتيهواكان (تمثال من الطين المشوي) .

(الشكل ٨٥) الفارس الجغوار في تيوتيهواكان .

(الشكل ٨٦) تيزكاتليبوكا ، إله «المرآة المدخنة» . رسم جداري تيوتيهواكاني .

(الشكل ٨٧) الإله الجغوار من مخطوط أزتيكي في قصر بوربون .

ومع أن تيزكاتليبوكا لا يمثل وضعًا داخليًا خاصًا، إلا أنه يمثل بالمقابل الشرط الإنساني فى أوجهه المتعددة. رمزه الهيروغليفى هو تركيب لمفهوم الناهواتل للإنسانية: مرآة ينبعث منها "دخان كالضباب أو كالظل"، وسطح قاتم ومُشوِّه، طبيعته مع ذلك هى عكس الأشياء فى حقيقتها الكاملة.

النزول إلى الجحيم :

النزول إلى الجحيم فى نصوص تُظهر كيتزالكواتل وهو يدخل إلى بلاد الأموات بهدف استرداد عظام أسلافه. والخطر الذى يفترضه اللقاء بملك الأعماق يتبدى من خلال موقف بطلنا غير الحربى. فهو يقع ضحية خوف وهلع. يركض نحو المخرج، فيسقط ويهشم العظام التى استولى عليها. يبكى بسبب عجزه فيواسيه قرينه. إن شولوتل إذن هو المخلوق الذى يعانى هذا الكرب، هذه القفزة إلى المستحيل، والسيد كيتزالكواتل لا يستطيع الاقتراب من الممالك الواقعة فيما وراء الحياة إلا تحت مظهره. ولهذا السبب بالتأكيد يكون عاريًا وقبيحًا بصورة محزنة، عيناه تخرجان من محجريهما، وأعضاؤه ملتوية وفمه يبدو مثل فم كلب (الشكل ٨٨).

غالبًا ما يُصوَّر شولوتل وهو يقوم بالعمل الذى يؤسس وجوده: التغلغل فى المادة المشخصة عن طريق رموز مختلفة، سواء أكانت أشداق أفعى مفتوحة أم فم هيكل عظمى (الشكلان ٨٩ و ٩٠). وبعد اجتيازه المادة حتى الهاويات السحيقة، يقوم شولوتل بالاتحاد الذى تستحضره الرموز الهيروغليفية من خلال المربع المخموس، والذى يتكشف أنه اتحاد خلاق بصورة رفيعة، ذلك أنه يؤدى إلى ولادة الشمس الخامسة. الرمزية متطابقة سواء بالنسبة لشولوتل أو ناناهواتزين، بدءًا من المرض الذى يفكك جسديهما، ويلتهم جلديهما ويلوى أعضاءهما : ".. يجب ملاحظة العلاقة الوثيقة القائمة ما بين شولوتل وناناهواتزين، الإله السفلسى : إذ يمكن لكل منهما أن يحل محل الآخر فى سلسلة الأيام والأسابيع، ويُخلط بين الاثنين فى الميثولوجيا. والواقع أنه ليس هناك أى مبرر للشك فى أن يكون ناناهواتزين هو مجرد تنويع لشولوتل"[٣٣].

ويظهر كيتزالكواتل بهذه الطريقة كخالق للشمس والزهرة فى الوقت نفسه. ولكن، بينما يُنجب العاهل شخصيًا نجمة الصبح (من المعروف أن ملك تولا يهيئ الموقد بيديه بالذات)، يُنتج شولوتل الشمس، وتتفق النصوص مع الايقونات حول هذه النقطة،



(الشكل ٨٨) شـولوتل ، التانب ، قرين كيتزالواتل (مخطوط بورجيا) .
(الشكل ٨٩) شـولوتل تلتـهمـه الأرض ممثلة بأشداق حيوان زاحف (مخطوط لاود) .
(الشكل ٩٠) شـولوتل يلتـهـمـه الموت (مخطوط بورجيا) .
(الشكل ٩١) التضحية بكيتزالكواتل . (مخطوط بورجيا) .

ولكن الأسطورة تضيف أنه، قبل أن يتحول قلب الملك إلى كوكب، يبقى كيتزالكواتل ثمانية أيام بين الموتى. بيد أن عالم الغيب محجوز حصراً لقرينه الذى هو، بطريقة ما، دليله الرسمى. فشولوتل هو المسؤول بالفعل عن اقتياد الأرواح عبر دروب العالم السفلى الوعرة التى لا يعرفها أحد سواه؛ إذ ليس هناك مَنْ رَجِعَ قط، باستثنائه هو، من تلك الأماكن. وتعتبر مساعدته ضرورية ولا غنى عنها، إلى حد أن الموتى يمضون ويرفقتهم كلب : يشير كتبة الوقائع إلى انتشار هذه العادة بين الأزتيك فى القرن السادس عشر، وقد أثبتتها تنقيباتنا الأثرية فى تيوتيهواكان، السابقة على أولئك بألف وخمسمئة سنة. وهكذا فإن ميلاد الكوكب يعتمد، مثلما هو ميلاد الشمس، على معاناة المحنة فى باطن الأعماق. وسنحاول أن نفهم بطريقة أفضل مغزى العملية من خلال تحليل شخصية شولوتل، مُنجب الكواكب.

إن العامل الذى يحسم النجاح بحد ذاته فى خلق الشمس الخامسة، هو التضحية. وهكذا فإن اناهواتزين - شولوتل يُمثَّل على أنه الصورة النموذجية للتائب، ذاك الذى ينجز الطقوس بإخلاص ونقاء طوية مطلقين. وقد قدَّم كتبة الوقائع وصفًا مفصلاً لقوانين التكفير والتوبة التى كانت ما تزال سارية فى المجتمع ما قبل الكولومبى عند وقوع الغزو الإسبانى، فهذه القوانين التى أقرها كيتزالكواتل، تهدف إلى استئصال الأهواء والنزوات تدريجيًا، بحيث تضاف إلى أعمال التعذيب الجسدى إجراءات مكرسة لصقل الروح، ويبدو بعض تلك الإجراءات وكأنه يذكِّر بالوضع الحدِّى الذى عاشه شولوتل: إذ يدخل التائب فى منتصف الليل، وحيداً وعاريًا، إلى أعماق الغابات الكثيفة. والتوازى ما بين هذا الغوص فى الظلمات والوحدة من جهة، والنزول إلى الجحيم من جهة أخرى، يظهر بوضوح فى رموز محددة. ويقال، على سبيل المثال، إن الكاهن - وهو التائب النموذجى - يطلى وجهه بالدم المستخرج من جسده، على شكل شريط عمودى يبدأ من العينين وينزل حتى الذقن، وما يميز شولوتل تحديداً هو شريط مماثل؛ إضافة إلى حبال تعداد الصوم التى تتحدث عنها النصوص، والتى تحيط بصورته فى المخطوطات.

هذا الاتحاد المقر بهذه الصورة ما بين ألوهية مصيرها معروف لنا، وممارسة التكفير التى تحتل مكانة بالغة الأهمية فى الديانة الناهواتيلية، يوضح معنى الرموز

الأساسية ويكتشف أن التائب، مثلما هو حال قرين كيتزالكواتل، كان مدفوعًا بالرغبة فى التحول إلى طاقة مضيئة. وهكذا تتكشف الروح الإبداعية لهذه اللغة. هل هناك يا ترى ترجمة أكبر لإرادة التحول، من ذلك الجسد الذى يُطهى فى قِدر لها شكل جمجمة موضوعة فوق لهب يخرج من أربع أفاعٍ (الشكل ٩١)؟ أو من إرادة المضى إلى ما هو أبعد من التجربة المباشرة باقتلاع عين، واختيار العمى الإرادى (الشكل ٩٢)، عندما نرى سيد الفجر يحدثه بسهامه المضيئة ؟

ويبرز ميل شولوتل الكلى والمثير كذلك من خلال اقترانه مع إله الشهوة. فبما أن قرين كيتزالكواتل يشترك مع إله الشهوة فى التونالو (وهى أربع دوائر تشكل إطاراً وترمز إلى الطاقة الشمسية) وفى اليد التى تغطى الفم، يسجل سيلر : "... يمكن لهذا أن يعنى فقط أن شولوتل هو أوياتيوتل Auiateotl ، إله الملذات، الذى يضحى بنفسه فى موقد محرقة ويتحول نتيجة تضحيته إلى شمس..."[٣٤].

نحن نختلف بالرغم من ذلك مع هذا العالم الموقر حين يفسر، وفق الطريقة الطبيعية، تلك المشاركة فى سمات كاشفة. ففى وفائه لجمود القرن الماضى الذى يرى أنه بالإمكان تفسير كل ظاهرة بشرية من خلال القوانين التى تحكم المادة، رأى سيلر فى شولوتل، الذى تعرف فيه على النموذج النمطى للتائب، رمزاً للشهوة الجنسية. إن تكرر الممارسات القصدية التى تميز الحياة المثالية لكيتزالكواتل تقود إلى استخلاص أن الديانة الناهواتيلية تستند إلى الدعوة الموجهة إلى الإنسان للتحرر من تلك القوانين الاستعبادية.

الواقع أنه جرى تصور شولوتل مبدئيًا، كما يبدو، على أنه روح. فهو تجسيد للنار السماوية، لا ينفصل عن ملك تولا إلا لينزل إلى الجحيم ويصعد إلى السموات بعد الحرق التطهيرى. إن شولوتل المسوس بحنين مناطق تجهلها العيون، والمحروق بحرارةٍ تحلل جلده، وتفكك أعضائه، وهو عار، وأعمى، وغارق فى العزلة الخاصة بالمخلوقات الغريبة فى هذا العالم، يذكّر بالصور التى أبدعها شعراء مناطق أخرى للروح.

إكستلاكوليوهكوى :

مطابقة قرين كيتزالكواتل بالجزء غير المادى للإنسان تتعزز بوجود إله يضع قناعًا أعمى وقلنسوة يخترقها سهم (الشكلان ٩٣ و ٩٤). اسمه يعنى "مدية السبج المبروم".

ويرى مفسرو الكتب المرسومة إنه إله الجليد، والعمى، والمكابرة؛ ويعتبره ساهاغون إله البرد. والمدية التى تميزه هى إحدى السمات الأساسية لـ "سيد المرآة المدخنة" (تيزكاتليبوكا)، ونظرًا لذلك يعتبر سيلر أن إزتلاكوليوهكوى هو أحد تجلياته.

وهناك مخطوط ناهواتيل مهم بعنوان "أسطورة الشموس" لمترجمها الأول فرانثيسكو دل باسو اَى ترونكوسو، يطابق إله البرد مع نجمة الفجر. وهذا التطابق راسخ جدًا إلى حد أن إيرك تومبسون **Eric Thompson** يؤكد أن إزتلاكوليوهكوى "... يظهر كمجرد تنويع لـ تلاهويزكالبانتيكوهتلى، إله نجمة الصبح، والذى هو فضلاً عن ذلك سيتل، إله البرد. وحيث إن الفجر هو أكثر أوقات النهار برودة، فمن المنطقى أن يكون إله نجمة الصبح هو أيضًا إله الجليد والبرد"(٣٥).

التناقض الذى يمثله وجود إلوهية تنتمى إلى ملكوت سيد المرآة المدخنة، وفى الوقت نفسه إلى ملكوت نجمة الصبح، يمكن ألا يكون إلا ظاهريًا. ذلك أن أسطورة الشموس تروى أنه عندما أشرق الكوكب وبقى جامدًا، رماه سيد الفجر بسهم لدفعه إلى التقدم، وحين لم يصبه : "... رشقت الشمس تلاهويزكالبانتيكوهتلى بسهامها من الريش الأحمر فغطت على الفور وجهه بالسموات التسع معًا. لأن تلاهويز كالبانتيكوهتلى هو الجليد"(٣٦).

فإذا كان صحيحًا أن إله البرد ليس إلا رمزًا لكوكب الزهرة، فإنه لا يمكن، مع ذلك، مطابقته مع نجمة الصبح (تلاهويزكالبانتيكوهتلى) ؛ لأن هذه نور ناشئ وليد، بينما النور الآخر ما يزال حبيس ظلمات "العالم السفلى". ومن هنا تأتى علاقة إزتلاكوليوهكوى مع إله المرآة المدخنة، سيد الغرب، النمر الليلى الباحث عن الفجر.

وحين يجسد شولوتل الكوكب الساقط، لا بد له منطقيًا من أن يكون على علاقة مع إزتلاكوليوهكوى. والعمى والنبالة - السهم الشمسى الذى يسبب السقوط -

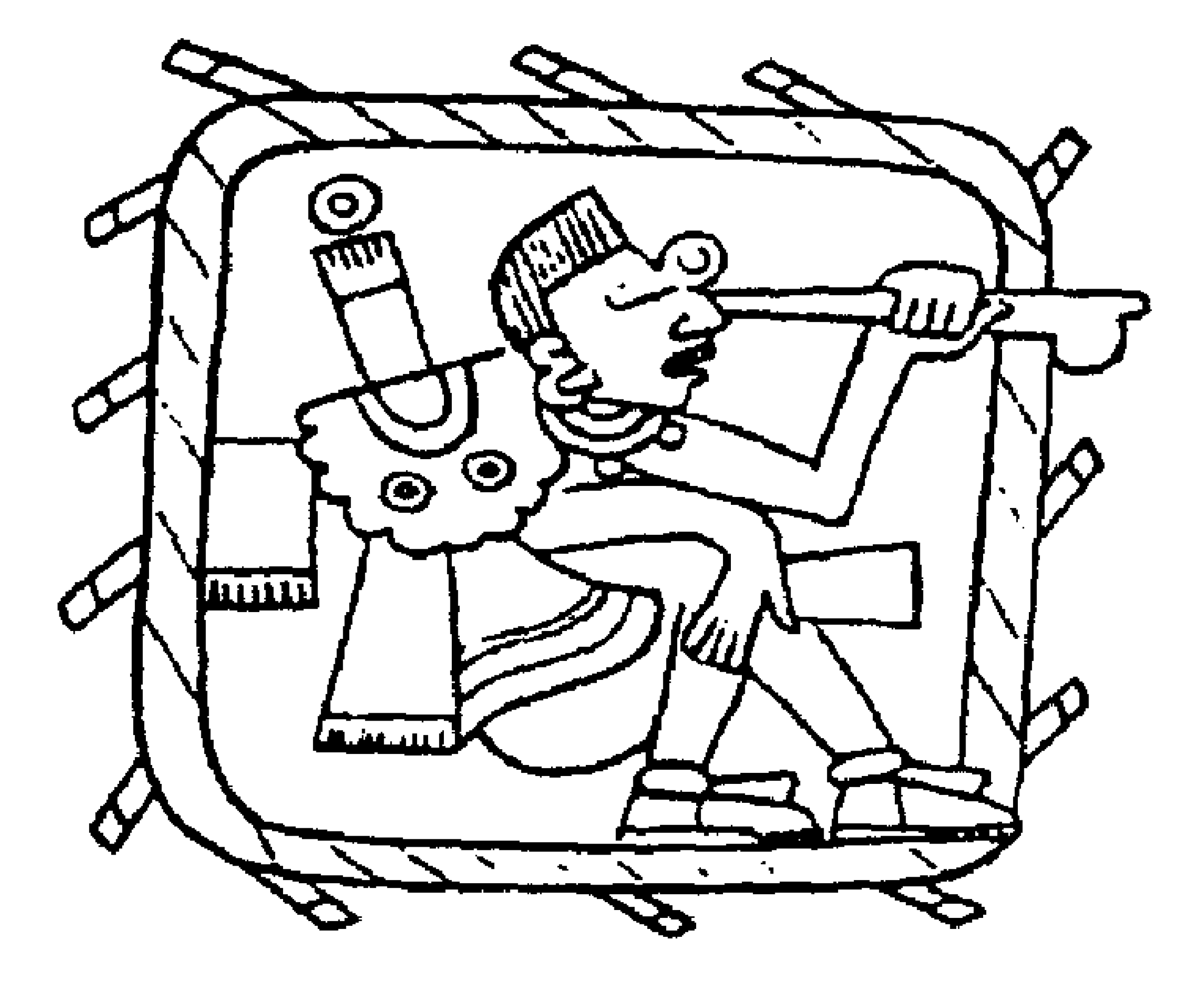
يجعلان هذه العلاقة مرئية (الشكل ٩٥)، وينتهي اشتراكهما الثابت في الظهور في الايقونات إلى كشف الرابطة التي تجمعهما : ففي بعض الصور ينفصل القرين عن إله البرد كما لو أن جسده يولد من الموت (الشكل ٩٦).

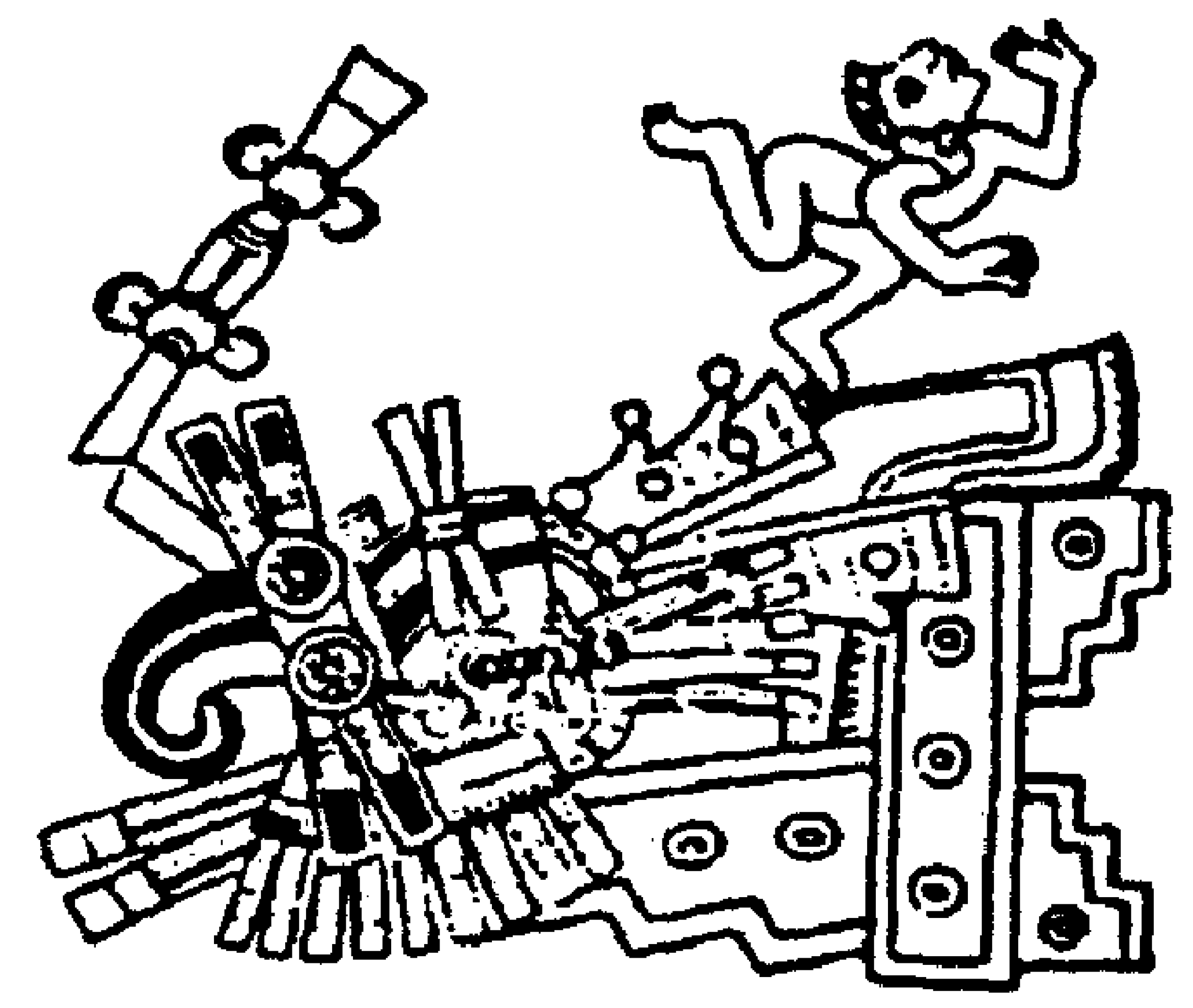
إن شولوتل هو مستكشف بلاد الموتى، العالم الذي تجهله الحواس، ولهذا فإن ارتباطه بشخص أعمى، ومحروم من الأذنين والأنف والفم، يبدو متماسكًا. وليس مستحيلاً أن يرمز إزتلاكوليوهكوى إلى نهاية الحسيَّات، وموت العالم الخارجي الذي تكتسب الروح من خلاله، أخيراً، وجوداً متكاملاً. وظهور شولوتل خارج جسده هو دليل على ذلك. وتشابه "سيد المدية الملوية" مع الموت يؤكد هذه الفرضية، إذ إن الأمر لا يقتصر على اشتراكهما في أفكار الجليد، والبرد، والبياض، والأدوات القاطعة، وإنما كذلك في أن إزتلاكوليوهكوى هو حامل السمة الأساسية المميزة لملك العالم السفلي (ميكتلانتيكوهتلي) : وهي الوردة الورقية التي يبرز منها مخروط (الشكل ٩٧). هذا الكائن الجليدي المنغلق على نفسه بضراوة، ربما يترجم توتر الفرد عند عتبة واقع تشل رؤيته الأعضاء مؤقتًا. وحيث إن شولوتل لا يملك مبرراً آخر لوجوده سوى التوغل في الأعماق، فإنه لا بد لتلك الرؤية من أن تكون مملكة الموت. وبما أن ميلاد الشمس الخامسة مرتبط بهذه المغامرة، فلا بد لنا من الاعتقاد بأن السر المنتزع من الظلمات يتعلق بطبيعته الفانية. ولدى مكابدة اختبار لا واقعية العالم الموضوعي، يصير شولوتل قادراً على إنجاب جسد سماوي.

سيد الفجر

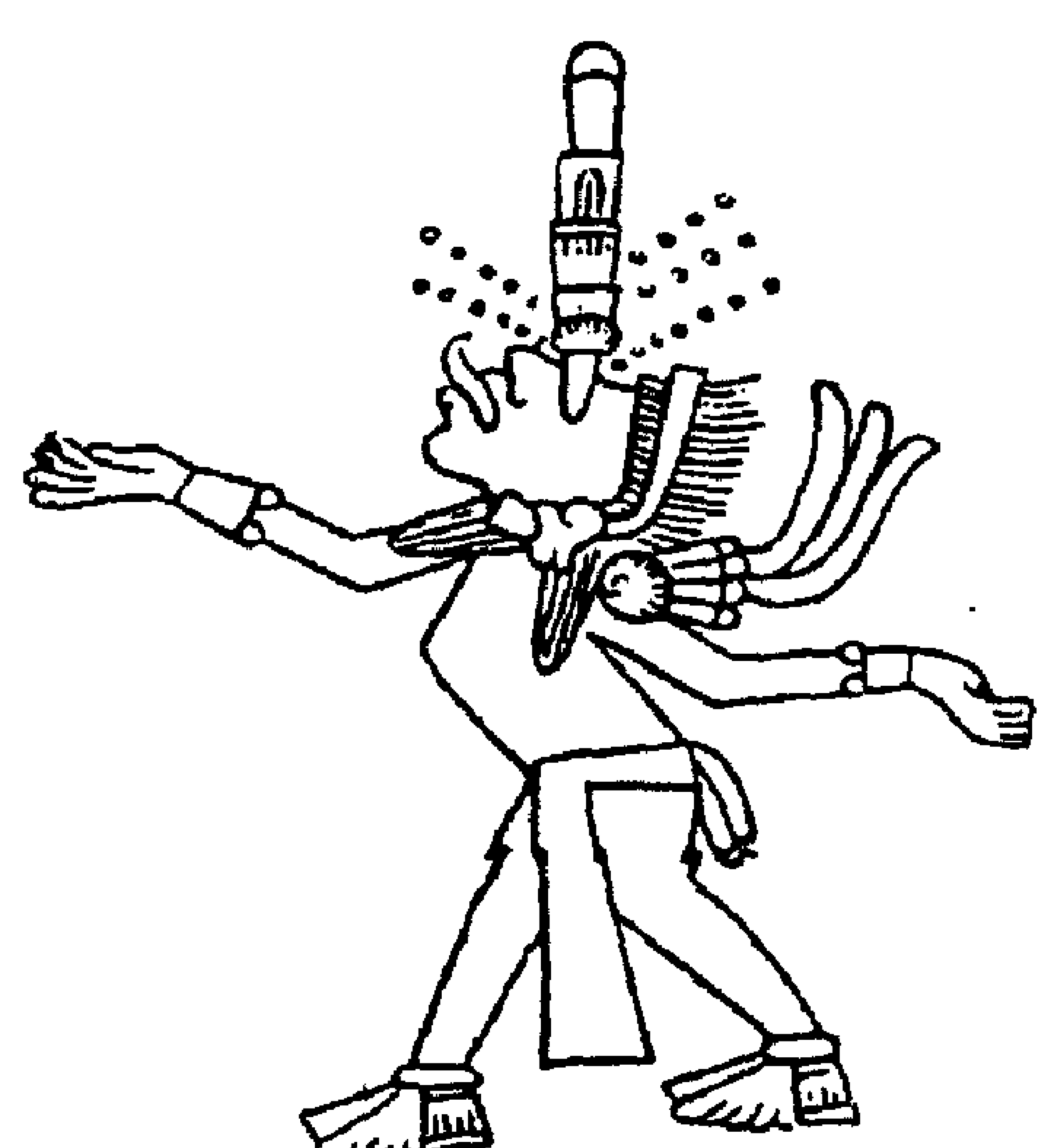
تتجلى الديناميكية الخلاقة للموت في رمزية تلاهويزكالبانتيكوهتلي، الذي يولد من سلوك شولوتل المخيف. فما أن يغادر شولوتل الأعماق، حتى يظهر في الأفق كيتزالكواتل كنجمة صبح، مسلحًا بنبال مضيئة حصل عليها خلال ثمانية الأيام التي أمضاها في الجحيم.

في تيوتيهواكان، يمر سيد الفجر بسلسلة غير متناهية من التبدلات، ضمن الأسلوب الخاص برسوم مدينة الآلهة، الصارم والمليء بالظرافة. وإضافة إلى السهم

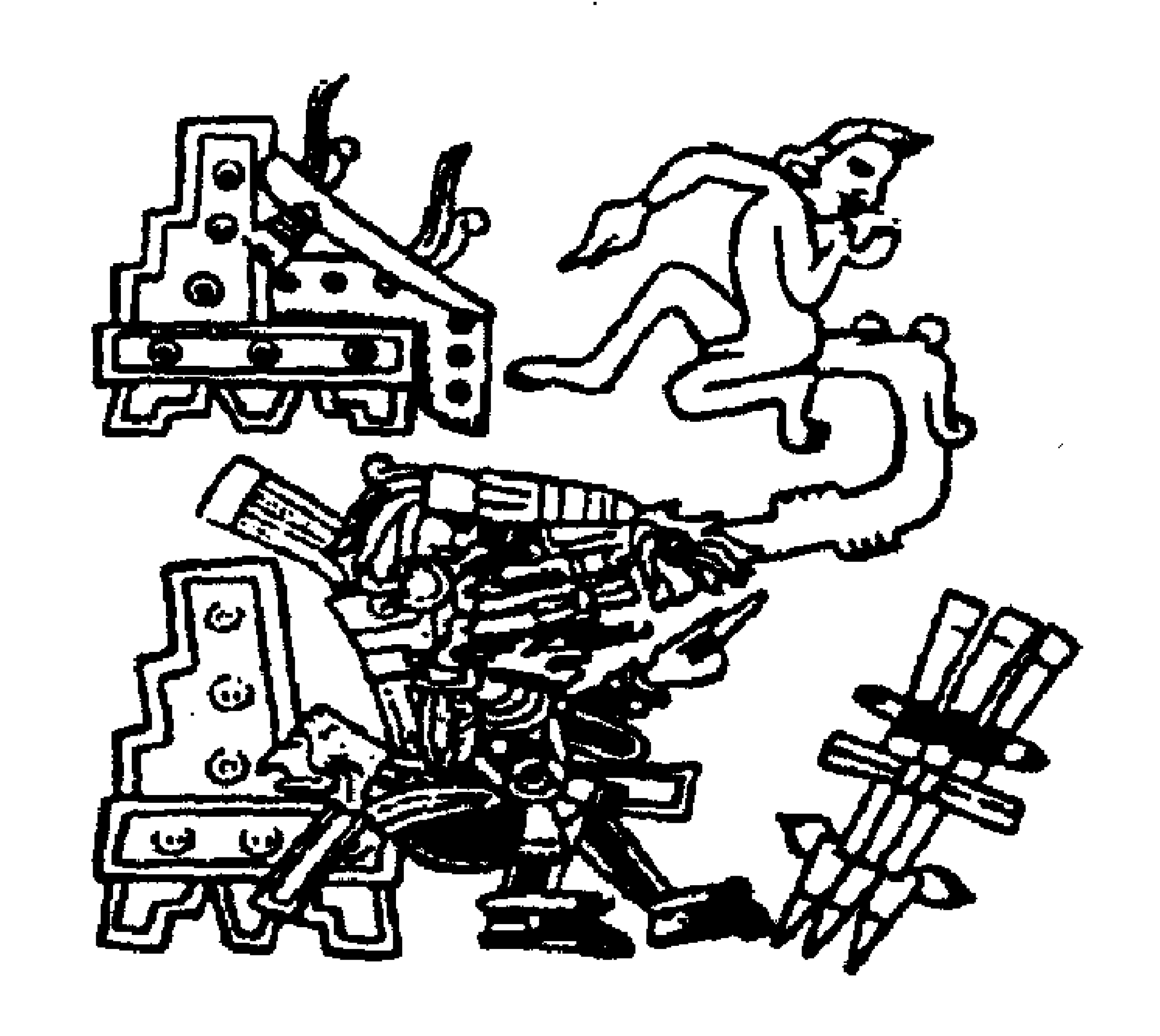








(الشكل ٩٢) نهاية التكفير هى العمى عن العالم الخارجى (مخطوط بورجيا) .
(الشكل ٩٣) سيد مدية السبج (مخطوط بوربونى) .
(الشكل ٩٤) الإله الأعمى نفسه فى مخطوط مايا فى دريسدى .
(الشكل ٩٥) شولوتل مصابًا بالشعاع الشمسى (مخطوط لاود) .
(الشكل ٩٦) شولوتل ينفصل عن إله البرد (مخطوط بورجيا) .



الذى يؤلف اسمه الهيروغليفى والذى لا يتخلى عنه مطلقًا، ترافق هذا الشخص رموز أخرى متصلة بحالته : الذئب الذى يشير إلى أنه مخلوق ليلى (الشكل ٩٨) والطائر الشمسى الذى يحرسه خلال نزوله الصباحى (الشكل ٩٩).

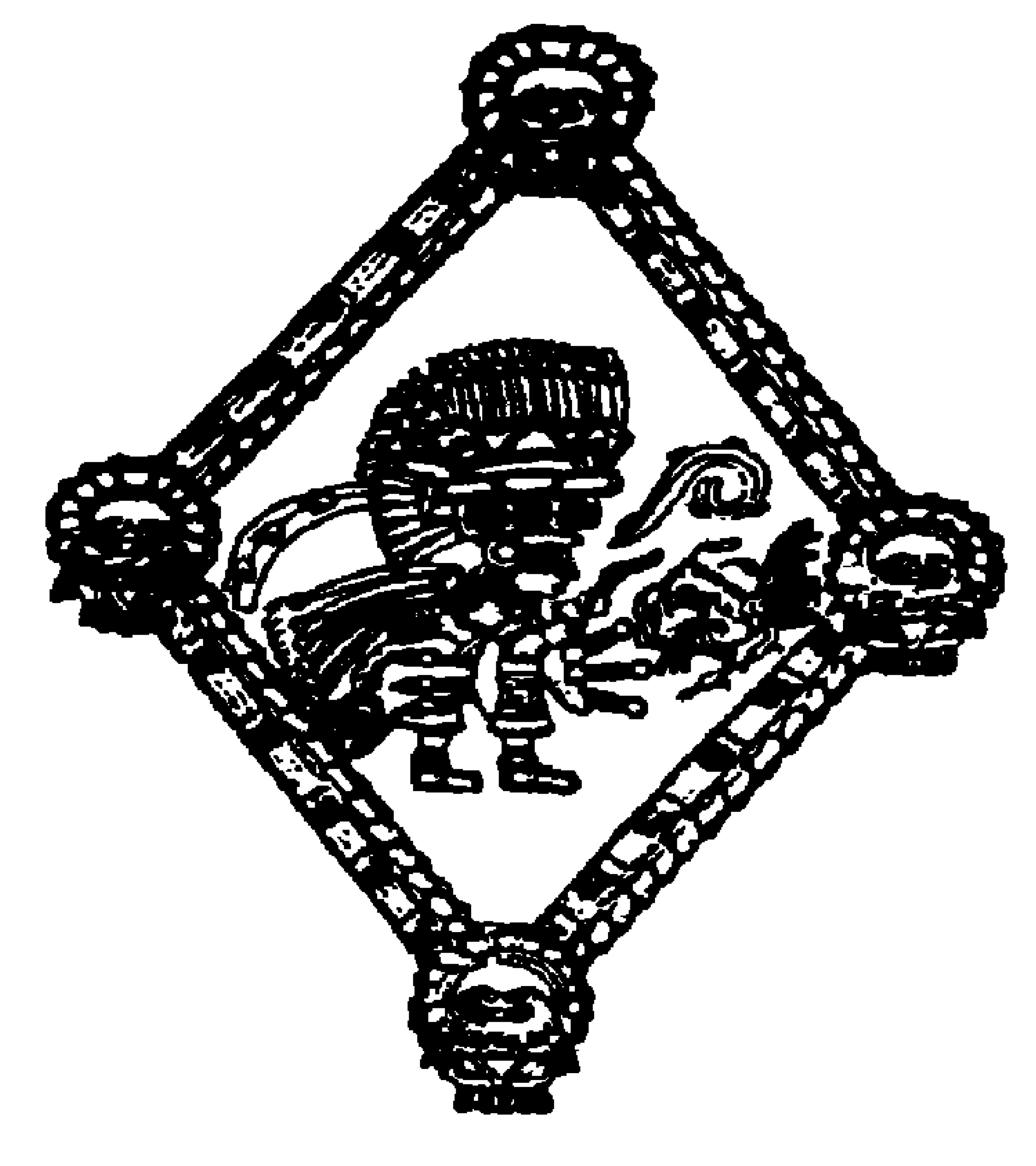
لقد قلنا من قبل إن اليد تشير لدى المايا إلى النهاية، والكلّية. وربطها مع نجمة الصبح (الشكل ١٠٠) يبين أن الواحد الذى يؤلف اسم تلاهويزكالبانتيكوهتلى (١ قصبة) لا يشكل وحدة مجردة، وإنما وحدة متحققة من اندماج عدة عناصر، مثل المربع المخموس. والدائرة المشكلة من يد واحدة أو يدين اثنتين، والمخترقة بسهم هى الطريقة التيوتيهواكانية لتمثيل السهم الأسطورى سى أكاتل، إى واحدة قصبة. والأهمية التى يمنحه إياها استخدامه، كنقش معزول، تشكل دليلاً إضافيًا. فما بين رسم طائرٍ وحيوانٍ زاحف مندمجين فى تكوين وجه سيد الفجر، يُبرز مخطوط دريسدى الشريط الذى يوحد هذا الأخير بالسيد كيتزالكواتل (الشكل ١٠١).

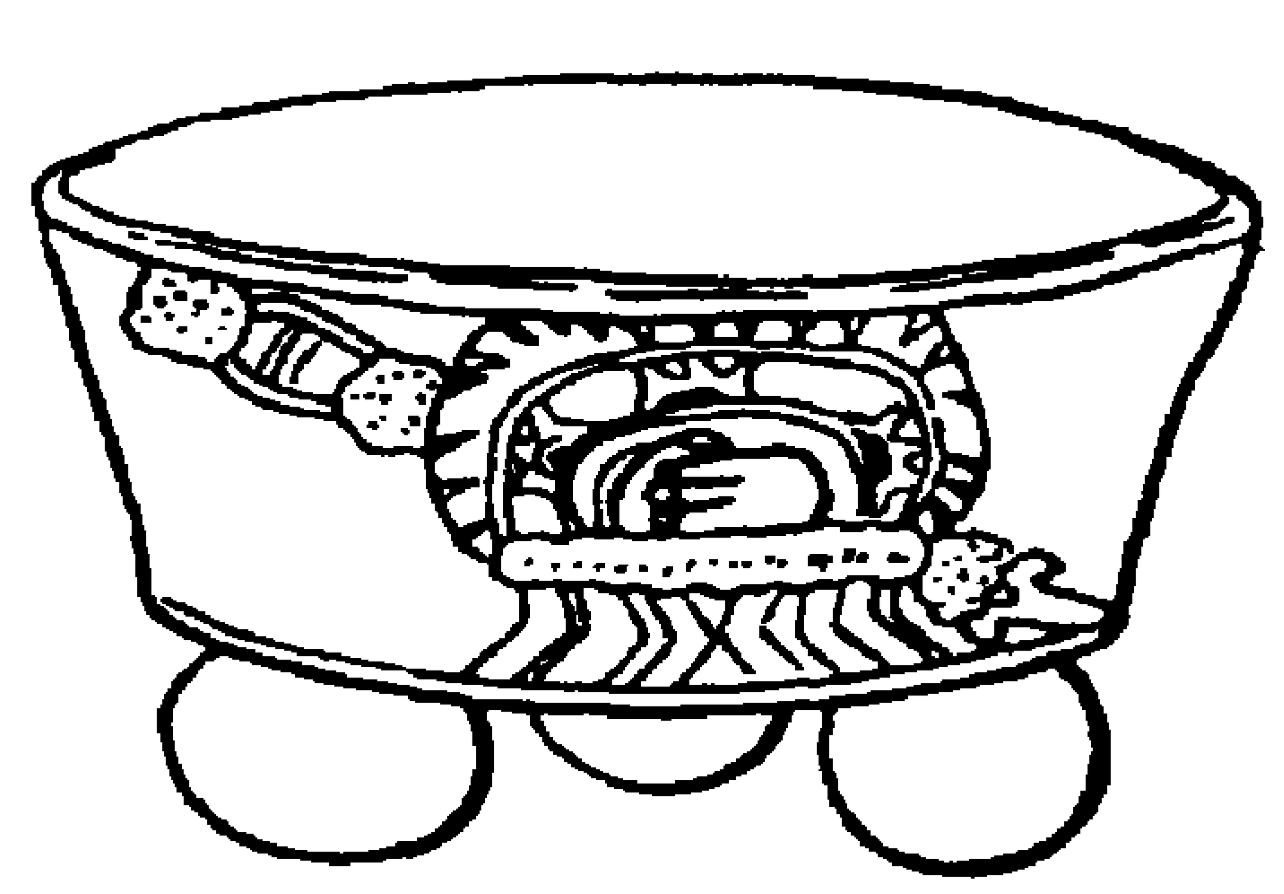
وبينما يُستحضر عنصر الليل والهلاك الذى يتطلبه ميلاد تلاهويزكالبانتيكوهتلى من خلال إشارات غير مباشرة فى تيوتيهواكان، يُدخل المايا استخدام الهيكل العظمى منذ ما قبل العصور الحربية التى ستجعل منه رسمها الزخرفى المفضل. ويمثل مخطوط دريسدى سيد الفجر من خلال صدر معروق (الشكل ١٠٢).

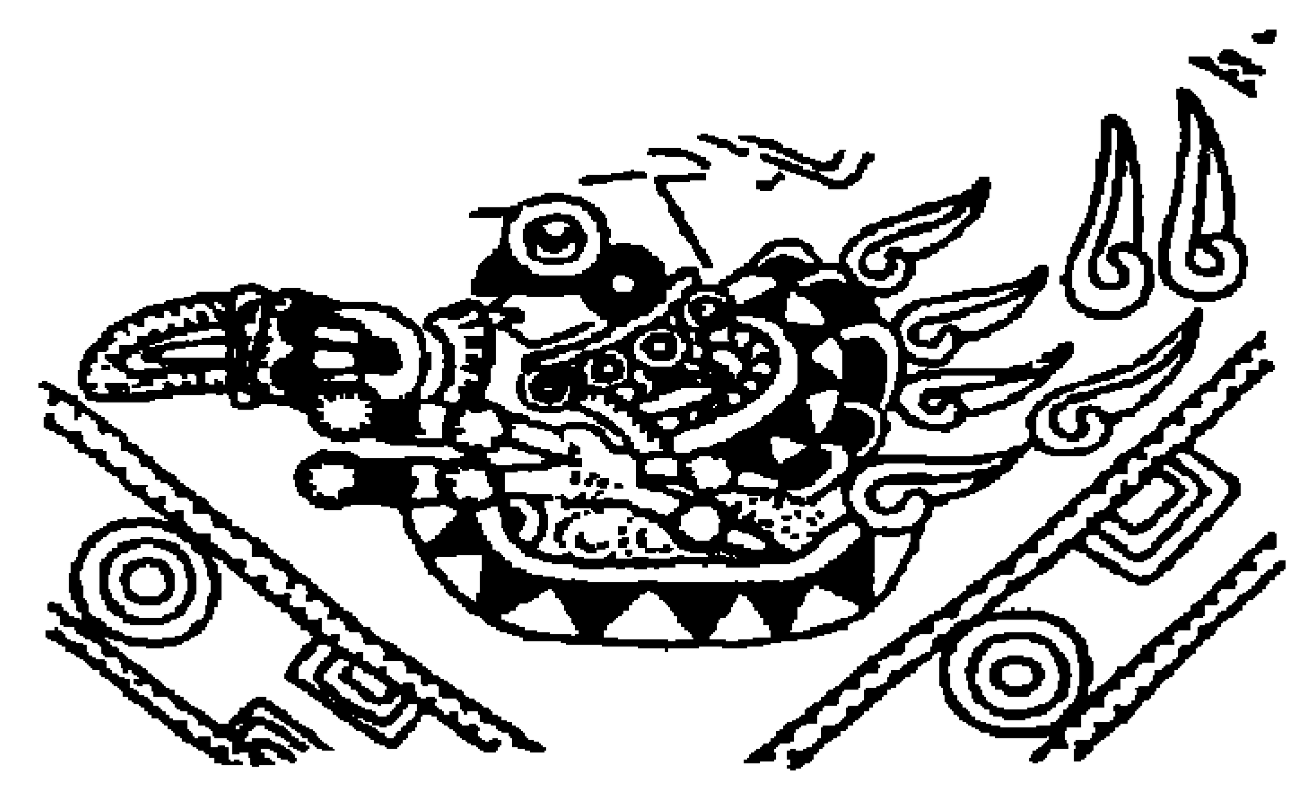
الإنسان – الجغوار – الطائر – الأفعى :

إنه شخصية أخرى تعبر، بخصائص مختلفة، عن الكمال نفسه الذى لسيد الفجر: فهو مجموعة مؤسلبة بهذا القدر أو ذاك لملامح مستقاة من الإنسان، ومن الجغوار، ومن الطائر والأفعى. وتعكس هذه الشخصية فى تيوتيهواكان القدرة التركيبية الخاصة بهذا المركز العمرانى. ومنحوتات الطين المشوى الصغيرة (لا يزيد طولها على عشرة سنتمترات) هى وحدها التى تستنسخ مختلف العناصر بأسلوب واقعى : وجه بشرى بلسان أفعى مشطور يخرج من شدقى جغوار مجنح (الشكل ١٠٣). والرسم، بصورة عامة، يتحكم بهذه المعطيات ويمزجها فى كلٍ يجمع قوة التعبير إلى القيمة الجوهرية للرموز. وسنقتصر على الصورة الأخيرة للإنسان – الجغوار – الطائر – الأفعى











(الشكل ٩٧) ملك الأموات في المخطوط البوربوني .

(الشكل ٩٨) سيد الفجر في رسم جداري تيوتيهواكاني .

(الشكل ٩٩) سيد فجر آخر مرسوم على جدار في تيوتيهواكان .

(الشكل ١٠٠) يدان يخترقهما سهم ومحاطتين بمقطع من حلزون يرمز إلى نجمة الصبح (إناء مرسوم في تيوتيهواكان).

(الشكل ١٠١) سيد الفجر ، عند المايا (مخطوط دريسدي) .

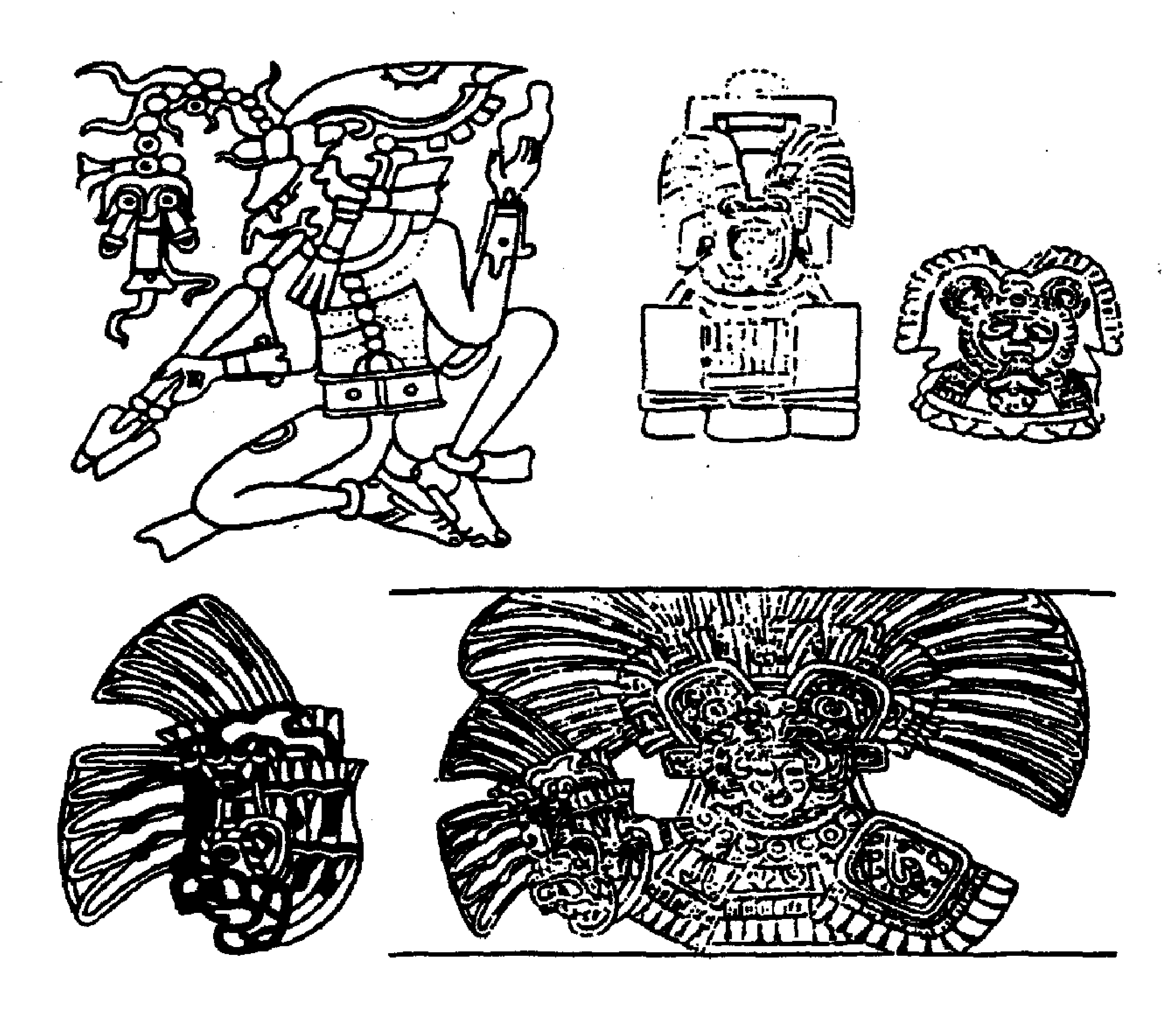
المكتشفة (الشكل ١٠٤)، وعنصر الأفعى فيها مُتَضمَن فى الصولجان المحمول فى اليد اليمنى، والذى يجمع رموز الممالك الثلاث (الشكل ١٠٥) : الجزء السفلى مكوَن من رأس الجغوار، والجزء العلوى من مخالب، وريش، وذيل الأفعى ذات الأجراس، وهى الجنس الوحيد المستخدم فى المنحوتات التى تصور كيتزالكواتل. وبدن الشخصية، مثلما هو فى المنحوتات الصغيرة، يمثل أشداق نمر مجنح.

ويبدو أن هذه الصورة المرسومة على جدران الحجرة الأخيرة فى قصر تاكوالا (يسبقها ممر رُسمت فيه أربعة أقراص شمسية كبيرة)، هى تمثيل للشمس الخامسة[٣٧]. ولدى تأمل هذا الشكل المركب، الموجود عند مستوى الأرض، يشعر المرء بأنه يشهد بروز جنس مجهول.. كائن متحرر من الجاذبية – إنها كومة من الريش الزمردى تحيط بوجه مشرق –، يرتفع فى فراغ متحول، ذى لون كثيف الحمرة ونابض مثلما هو الجسد.

(ب) الأنسنة الكيتزالكواتلية

إن البناء الشعرى الفسيح الذى يعبر عن الفكر الناهواتيلي، يكرر دون كلل مغامرة الإنسان الذى تحول إلى شمس. بيد أن هذه الديانة، حين تنادى بالمنشأ الإنسانى للإله، فإنها لا تقف على طرف نقيض لتعدد الآلهة وحسب، وإنما كذلك على طرف نقيض لأى ديانة يكون الرب فيها جوهراً مختلفًا عن خليقته. ولكنها ديانة مع ذلك: فهناك شخصية وحيدة يشع منها النظام المتكامل، ويؤمن بها الإنسان إيمانًا متأججًا؛ وهناك أنظمة صارمة ترمى إلى تحقيق الكمال الداخلى؛ وكهنوت ملتزم بأشد أشكال الزهد والتقشف صرامة؛ وطقوس تستدعى تأملات أخلاقية مثل المشاركة الشعائرية، والاعتراف بالخطايا، وإحراق الجسد وترميده لأنه سينبعث.

وسيكون كل ذلك سهلاً إذا ما كان بالإمكان إثبات الوجود الإلهى والاقتناع بأن كيتزالكواتل هو إله متجسد – مثلما هو حال مسيحنا – يرجع إلى السماء. ولكن المسألة ليست على هذا النحو، ذلك أن قيمته كمثال نموذجى تكمن فى واقع أنه أول إنسان يتحول إلى إله : فصيغة هذا الانجاز هى التى تشكل تعاليمه. وهو بالتالى ليس



(الشكل ١٠٢) سيد الفجر الذى غالبًا ما يذكر الموت الذى يسبق بزوغه .

(الشكل ١٠٣) الإنسان - الجغوار - الطائر - الأفعى ، تمثالان صغيران من الطين المشوى فى تيوتيهواكان .

(الشكل ١٠٤) الإنسان - الجغوار - الطائر - الأفعى فى تيوتيهواكان . رسم جدارى من القصر ثاكوالا .

(الشكل ١٠٥) صولجان الإنسان - الجغوار - الطائر - الأفعى مُشكَّلاً من رأس نمر ، ومخالب وريش طائر وحية ذات أجراس .

إلهًا مانحًا للمغفرة، وإنما هو بشر فان يكتشف كل البعد الإنسانى وينقل اكتشافه إلى أشباهه. وتحوله، الشخصى بصورة صارمة، لا يؤثر فى المؤمنين به من خلال سيالات ماورائية؛ وإنما هو يقين يوجه كل فرد وجوده بمقتضاه.

ويبدو أن رسالة كيتزالكواتل، بعيداً عن تضمنها تجلّيًا إلهيًا، تستوحى رؤيةً يكون فيها الإنسان روحًا ومادة فى الوقت نفسه. وبالفعل، فالفكر الناهواتلى ينظر إلى النظام الموضوعى للطبيعة انطلاقًا من المادة ويستخلص أنها، بالرغم من كونها غير

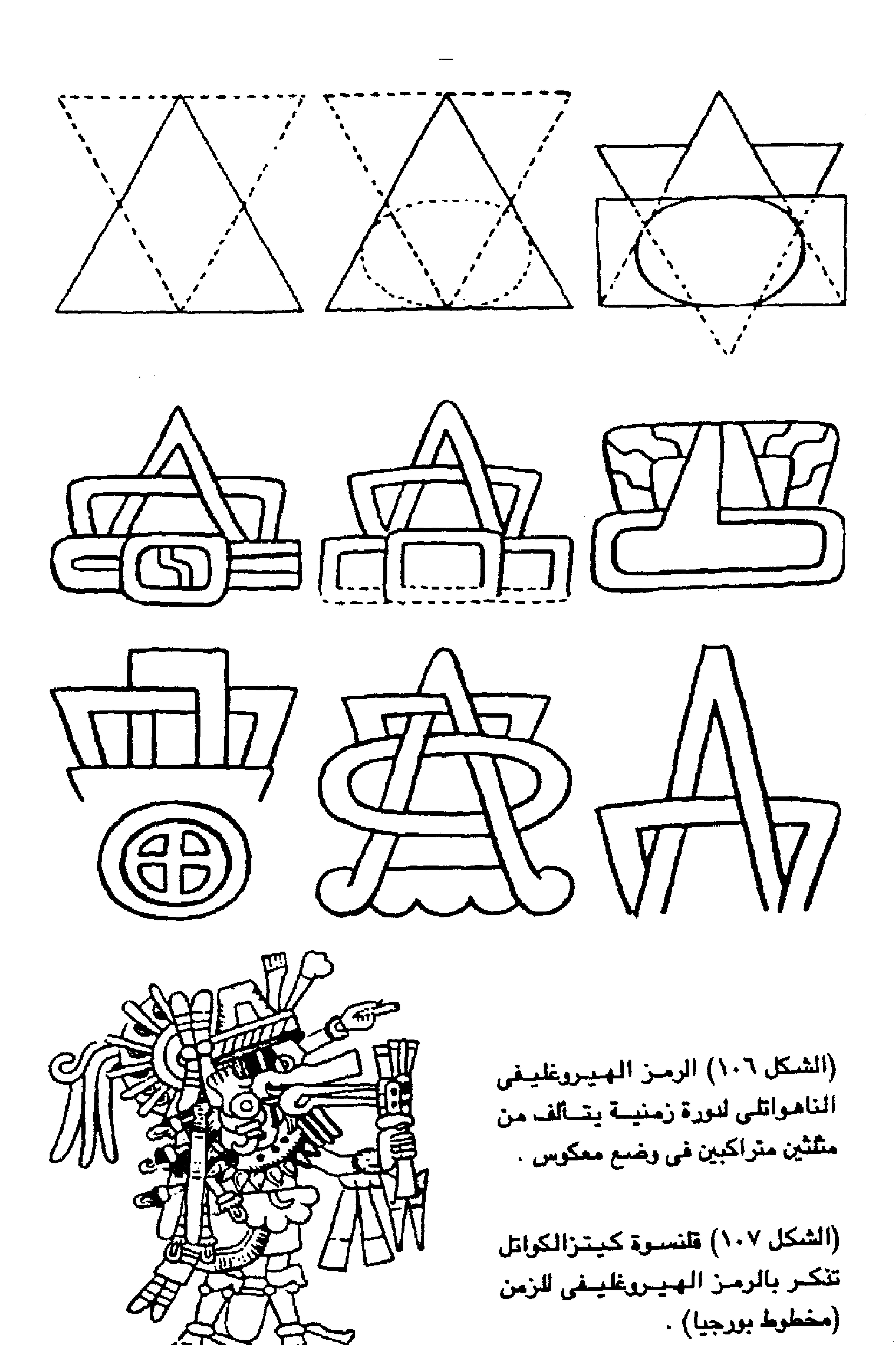
ثابتة وفانية، قادرة على الافلات من الجبرية التى تُثقل عليها، ويظهرها لنا وهى تحاول اطلاق المَلَكَة الخلاقة من أعماقها. والقطيعة مع النظام الطبيعى تُمثّل فى تهجين الحيوان الزاحف مع الطائر، وعلى الفور يظهر هدف جديد يجب بلوغه : فالقرار الأول الذى يتخذه السيد كيتزالكواتل هو بدء المسير نحو واقـــع يشعـر، متـألماً، بأنه قد فُصل عنه.

فبعد تحوله إلى نجم، وتحت صورة شولوتل العارى، يبدأ على الفور هجرة أخرى ستُمكّنه من خلق **الشمس الخامسة**. وهذه الشمس التى تولد من غوص شولوتل فى المهاوي، تكشف البنيان السرى للكون لدى الوصول إلى الروابط الداخلية التى توحد الجزيئيات بمنبع مركزى.

وتتأكد طبيعة هذا المنبع بمطابقة الرموز الهيروغليفية للشمس مع الوجه البشرى، ورمز شمس ناهواتيل – رمز حرارتها تجديداً – يتكوّن من أربع دوائر مرتبة فى مربع (**التونالو** tonallo الذى يعنى حيزاً بلا مركز) ؛ فإذا أُضيف إلى **التونالو** دائرة خامسة، يتم الحصول على المربع المخموس، والمربع المخموس، المحدد بالسنوات الخمس التى يحتاجها كوكب الزهرة للحاق بالشمس، يشير إلى الديناميكية التى تميز الكائن البشرى. وينشأ عن ذلك أن الإنسان – وهو قد يكون ممثـلاً بالوجـه أو بالعـين – غالبًا ما يشكل لُبَّ رمز الحركة.

هذه المشاركة التى يتولاها الإنسان فى قَدَر الكون، مدونة كذلك فى الرمز الهيروغليفى لدورة الزمن: وهو عبارة عن مثلثين تتحد رؤوسهما (الشكل ١٠٦). وباجتماعه مع كيزالكواتل، لا يمكن لهذا الرمز إلا أن يمثل الزمن المتاح للفرد لكى ينجز مهمته الوسيطة بين وقـائع ستبقى، من دونـه، منفصلة عن بعضها بعضاً (الشكل ١٠٧).

نحن نعرف من خلال مغامرات ملك تولا بأنه لا بد للقلب – ورمزه الهيروغليفى هو المربع المخموس – من أن يتوصل إلى تفتحه خلال هذه الدورة الحيوية. والشمس الخامسة، من جهتها، شديدة القرب من القلب إلى حد أن اسميهما مشتقان من الجذر



(الشكل ١٠٦) الرمز الهيروغليفى الناهواتلى لدورة زمنية يتألف من مثلثين متراكبين فى وضع معكوس .

(الشكل ١٠٧) قلنسوة كيتزالكواتل تذكر بالرمز الهيروغليفى للزمن (مخطوط بورجيا) .

نفسه: يولوتل، أى "قلب". وفضلاً عن كون هذه الكلمة مشتقة من أولين، "حركة"، فإن معناها الحرفى هو يـ-ولـ-وتل، أى "حركته أو مبرر حركته". فالحياة نفسها تبدو كنتيجة لهذه الحركة مُطلِقَة الطاقة المضيئة : إن كلمة "يوليليزتلا"، أى حياة، تشير بصورة مجردة إلى السيرورة الحيوية، وهى مشتقة من أولين، "حركة". وبتزودها باللاحقة ليتزتلى، الخاصة بأسماء الصفات المجردة، يصبح معنى اللفظة "حركية" الكائنات الحية. ومن المثير للاهتمام ملاحظة أن الكهنة الأوائل أدخلوا مفهوم الروح عن طريق اللفظ الناهواتيلى تى – يوليا، "منتج الحياة أو الحركة فى الناس"[٣٨].

وعلى الرغم من تعدد الرموز التى تشكل اللغة الرمزية الناهواتيلية، إلا أنه يمكن اختزالها إلى رمز واحد فقط تُشتق منه كل الرموز الأخرى : إنه المثلثان ذوا الرأس العلوى المشترك. وانطلاقًا من هذا الرمز الذى يتضمن بذرة الرسالة الكاملة للنبى الأمريكى، والبنية التى تطور ببساطة نمو الشجرة التى تخرج من البذرة، وما إن تزهر حتى تقدم كلاً يفرض نفسه على شكل جهاز حيوى.

الإنسان وأعماله :

يبرز الإنسان، وهو الأداة الوحيدة القادرة على إطلاق الذرة الديناميكية المدفونة فى المادة ، كسيد للصيرورة. وعليه يعتمد رجوع العالم إلى العدم أو انتصاره النهائى على العطالة. وتُترجم هذه المسؤولية فى تمجيد للعمل، وفى إرادةٍ لتحويل المادة حتى آخر ذرة منها، وبجهد خلاق يتحدى المخيلة، يحوِّل الناهوائيين أمريكا الوسطى إلى منجم أعمال فنية لا ينضب. ففى تيوتيهواكان، حيث لم تُضعف خمس عشرة سنة من التنقيب، من إحساسنا بالمفاجأة الذى شعرنا به فى الأيام الأولى، تخرج البقايا الأثرية من الأرض يوميًا وكأنها تنشأ عن بذور خالدة، لقد أمدتنا حفريات التنقيب فى ثلاثة مبان كاملة بأعداد لا تحصى من أجزاء منحوتات طينية، وخزفية، وزخارف جدارية.

المبانى بجدرانها المغطاة بالرسوم بالكامل، بتفاصيلها المصممة والمشذبة بحب، بسطوحها ذات الرسوم الرمزية، تشكل بحد ذاتها أوابد هائلة بديعة. وحفريات التنقيب التى بدأت، فى أرض مهجورة، دون تخطيط مسبق، متتبعة أجزاء من الخزف كانت

تظهر بصورة عشوائية، تمكنت بعد ثلاثة مواسم تنقيب من تحرير قصر مساحته أربعة آلاف متر مربع. وفى حقل يبعد مئتى متر عن السابق اكتشفنا فيما بعد موقعًا دينيًا مسورًا مساحته مماثلة للسابق، وآثار بناء ثالث نعتقد أنه كان ديرًا، وقد أصبحت جميعها الآن ظاهرة للعيان على بعد عشرات الأمتار إلى الجنوب. وتسمح مؤشرات عديدة بالتفكير فى أن مدينة الآلهة بكاملها تغص بالأبنية، وبأن أمريكا الوسطى بأسرها هى تجمع مراكز طقوسية.

إن إيماناً بمثل هذا التوهج فى استخدام العمارة لا يمكن له أن يكون مفصولاً عن إيمان الفرد : فالإنسان لا يمكنه أن يجعل من نفسه أداة مؤثرة فى الصيرورة الكونية ما لم يصغ مصيرة. ويمكن أن تكون هناك إشارة إلى هذا المفهوم فى التعريف الجميل لكيتزالكواتل الذى التقطه المؤرخ ميندييتا **Mendieta** فى القرن السادس عشر: "ويقولون عنه كذلك إنه **Moyocuyatzin ayac oqiyocux, ayac oquipic,** أى ""من لم يخلقه أو يصنعه أحد، وإنما هو من يصنع كل شىء بسلطته وإرادته"""[٣٩].

إن تحليلاً اشتقاقيًا لهذا المفهوم يقود إلى النتيجة نفسها: "فكلمة مو-يوكويا-تزين مؤلفة من الفعل يوكويا **Yucuya** (أو **yocoya** ، يختلق، ويصوغ بالفكر) ، ومن اللاحقة تزين التى تعنى «سيدنا» ، ومن السابقة مو (نفسه بنفسه) : ويجمع هذه العناصر إلى بعضها يتبين لنا أن مو - يوكويا - ت زين تعنى «السيد الذى يفكر أو يختلف نفسه بنفسه»[٤٠] .

وفى تيوتيهواكان ، يحل الوجه البشرى محل أى تمثيل آخر. فهو النموذج المفضل للنحاتين، ووجود أعداد كبيرة من الوجوه المنحوتة يدفع إلى التفكير بوجود عبادة حقيقية لما هو إنسانى، فبين عشرات آلاف أجزاء المنحوتات التى عُثر عليها فى أنقاض المبانى الثلاثة المكتشفة، لا تصل نسبة تماثيل الآلهة إلى أكثر من واحد بالمئة[٤١].

أما بقية المنحوتات فتمثل بشرًا يرتدون ملابس فاخرة أحيانًا، أو عراة فى معظم الأحيان، رؤوسهم حليقة، وأجسادهم طويلة ونحيلة، فى وضع حركى. وقد تمكنا بمساعدة الوصف الذى يقدمه كتبة الوقائع والمواد الأركيولوجية لمناطق أخرى، من

التوصل إلى أن هذه التماثيل الصغيرة تمثل ناسكين، هم أعضاء فى جمعية حجاج كانت ما تزال موجودة عند الفتح الإسبانى، وتظهر صورة إلههم على جدران قصر ثاكوالا.

ولكن الأقنعة هى ما يعبر ببلاغة أكبر عن براعة الفنانين التيوتيهواكانيين، وعن ورعهم تجاه ما هو إنسانى فى الوقت نفسه. فبصفاء يصل إلى حد تلطيف التفاصيل الجسدية، كانت الأقنعة مكرسة لتغطية وجوه الموتى عند إحراقهم وترميدهم، وربما من أجل التعبير عن الحالة الروحية اللازمة لتحقيق الانبعاث. وعندما تُنحت الأقنعة من طين بدلاً من الحجارة القاسية والجميلة، فإنها تكون فى وسط مذبح بيتى صغير. كما أن تطابقها الدائم مع هيئة ما – فراشة، زهرة، طائر – وإظهار ملامحها أنها سيد الأرواح، عزز اعتقادنا بأنه يمكن للقناع أن يكون تمثيلاً للكمال الداخلى الذى كان تلامذة كيتزالكواتل يوجهون إليه جهودهم دون كلل.

ويظهر الوجه فى النصوص الناهواتيلية كرمز لواقع يمضى إلى ما هو أبعد من النظام الجسدى. فتحليل إحدى الكلمات – الجمل التى تميز لغة الرموز تلك، يجعل المتخصص يستنتج ما يلى : "إكستلى، إن يولوتل، تعنى : وجه، قلب، شخص. وهذه إحدى ازدواجيات التعبير الناهوا المشوقة... فـ إكستلى، وجه، تشير إلى المظهر الأساسى لـ"أنا" من يكون الوجه رمزه. ويولوتل، قلب، تعنى ديناميكية الكائن البشرى الباحث والمتلهف. وازدواجية التعبير، التى عُثر عليها مرات ومرات لتميز الأشخاص، تظهر أيضًا لدى تناول المثل الأعلى التربوى الناهواتيلى : وجوه حكيمة وقلوب ثابتة، كما الحجر"[٤٢]. والتعريف التالى للحكيم يشير أيضا إلى قيمة مماثلة للوجه : "الحكيم: نور، وشعلة(*)، إنه شعلة ثخينة لا تُدخِّن... يجعل الوجوه الأخرى حكيمة، يجعل الآخرين يتخذون وجهًا .."[٤٣].

(*) تيا tea : شظية من الخشب المشرَّب بالراتينج ، تستخدم للإضاءة .

الإنسان المجتمع

تفترض صوفية العمل أسبقية ما هو اجتماعى، أى وعى الفرد بأنه تابع للجماعة ومسؤول عنها فى الوقت نفسه. والتشوق إلى طبيعة متأنسنة يبرهن على ولع حقيقى بالصيرورة التاريخية، ذلك أن الكمال الشخصى، بعيداً عن أن يشكل نهاية بحد ذاته، لا يُنظر إليه إلا على أنه الخطوة الأولى نحو العمل الكبير المشترك. وإنه لأمر ذو مغزى معرفة أن علِم الحكيم يكمن فى قدرته على تكوين أشباهه، على "منح الآخرين وجهاً".

إن وفرة المراكز العمرانية هو دليل آخر على وجود الإيمان بما يتضمنه من معنى التحضر فى العلاقات الإنسانية. لقد رأينا أن المدينة الكبرى تُميَّز باسم تولا، أى "موقع القصب". وواقع أن كل العواصم، ابتداء من تيوتيهواكان، قد شُيدت فى منطقة البحيرة التى كانت تشغل آنذاك الجزء الأوسط من الهضبة المكسيكية، يحملنا على تقبل التفسير الطبيعى [أى اشتقاق اسم المدينة من طبيعة الموقع] . ومع ذلك، فإن التقلبات الشاعرية المتواصلة التى استخدمها الفكر ما قبل الكولومبى لترجمة التوافقات والتناغمات الخفية تقلل من احتمال أن تكون تسمية الحاضرة – وهى إنجاز بشرى نموذجى – قد اشتقت من طبيعة المكان الذى تحتله، فى الوقت الذى كان الهدف منها هو الحلول محلة.

ونحن نعلم، من جهة أخرى، أن اسم كيتزالكواتل مرتبط بالقصب، لأن الرمز الهيروغليفى لـ"سيد الفجر" هو سى اكاتل، أى "١ قصب". ويُستبعد التفسير الطبيعى هنا بسبب العادة فى تسمية الأطفال حسب تاريخ ميلادهم (بالإشارة فقط إلى موقع اليوم ضمن الأسبوع : ١ ثلاثاء، ٣ أحد، على سبيل المثال)؛ وهذه الطريقة فى التسمية تشير إلى الرابطة التى كانوا يؤمنون بوجودها بين الوليد الجديد والوضع الفلكى الذى شهد مولده. وبالطريقة نفسها التى كان بها يوم ٤ حركة، الذى شهد ميلاد الشمس الخامسة، موسوماً بالاقتران بالزهرة، تُطلعنا الكتب المقدسة – وسيلر أيضًا هو الذى اكتشف ذلك – أن اليوم ١ قصبة يشير إلى تاريخ تحول ملك تولا إلى نجمة صبح. وواقع أن هذا العمل قد حددته إرادة إنسانية، يضع القصب بصورة حاسمة فى مكانة روحية ويربط بين صورته واسم العاصمة، ويكشف فى الوقت نفسه عن توافق رمزه مع

الإنسان – النموذج. فأى تفسير اكثر منطقية من أن تنسب إلى المصطلح الذى يشير إلى الجماعة تسمية الوحدة التى تتشكل تلك الجماعة انطلاقًا منها؟ ومن الكاشف أيضاً أن حضور الإنسان موسوم بالرمز الهيروغليفى للتحول إلى جسد سماوى، مما يوحى بأنه، بعيداً عن أن تكون التسمية تفسيرية وصفية ("موقع مؤلف من أفراد")، فإن اسم تولا يشير إلى عمل أشخاص تحولوا مسبقًا إلى طاقة خلاقة.

ثمة معطيات أخرى تعزز هذه الفرضية: فالقصب هو فعلاً رمز تلك الذَّرة الطبيعية المتحررة التى ترمز إلى الإنسان الكيتزالكواتلى، ذلك أن الرسوم الهيروغليفية تمثله تحت شكل النبلة. كما أن سيد الفجر يستخدم سهام القصب ليوجه بواسطتها نباله المضيئة نحو الأرض، مما يعنى أن القصب هو الرمز الهيروغليفى لملك تولا بوصفه نجمة صبح، وأنه، فضلاً عن كونه مادة مفكرة، مادة تُعزف بالنفخ – سنرى أن كيتزالكواتل هو إله الريح أيضًا –، وقد كان الناى (وهو عمومًا من القصب) الأداة الموسيقية الخاصة بأتباع كيتزالكواتل ؛ واستخدامه يميز الصناع العظام، وكل من يحقق قدراً معينًا من السمو الداخلى يُقارن بالناى. وهو ما يظهر كذلك فى إحدى التراتيل ("... تستعملونهم مثلما تستعملون ناياتكم، تتكلمون فيهم وتضعون أنفسكم فى وجوههم وآذانهم، وتفتحون أفواههم للنطق الطيب")، كما يظهر فى الخطبة التى يوجهها المسنون إلى الملك: "... وانظر أن تستقبل ببشاشة وتواضع من يأتون إليك مغمومين مكروبين؛ وعليك ألا تنطق أو تفعل شيئًا بنزق متسرع؛ أصغ بهدوء وباهتمام لشكاوى وأخبار من جاؤوا إليك، ولا تقطع قلب أو كلام من يحدثك، لأنك صورة سيدنا الإله وممثل شخصه، فهو يستريح من خلالك، ويستخدمك، كما الناي، ومنك يتكلم..."[٤٣].

يقترح كيتزالكواتل غاية محددة لتوظيف دافع لا يمكن كبحه حين يجعل وجود الحاضرة رهناً ببشر قادرين على تمجيد أنفسهم من خلال الانخراط فى مهمة تتجاوز الأنانية الفردية. وهكذا فإن تعاليمه تتوجه بصورة خاصة إلى سلوك الفرد تجاه نفسه وتجاه الآخرين؛ ويلفت الانتباه فى الوقت نفسه إلى الخطر الذى يتهدد الإنسان إذا ما اعتبر نفسه مجرد شيء خالٍ من الروح. ويمدّ كيتزالكواتل بذلك جسراً ما بين الكمال والأبدية. وبديناميكية لا تجارى، يُخرج هذه المفاهيم من التجريد ويرسخها فى

مُثل الحياة : ففى قناعته بأنه لا يمكن للجوهر أن يترسخ إلا بالتماس مع المادة، وبخشونة اللقاء المباشر الذى يلى الوعى، يعتبر أن بلوغ الروحانية هو الانتصار الوحيد على الزمان والمكان المُدَمِرَين.

وتبعًا لهذه الديناميكية، فإن التحول الذى هو لبّ رسالته، يظهر كصورة مجازية لتحقق الإنسان من خلال الجماعة، فعندما يُنظر إلى التفوق كضرورة حيوية، لا يبقى أمام الفرد من وسيلة أخرى لكسر محدوديته إلا الاشتراك مع دوافع أخرى مشابهة لدافعه، وفى الوقت نفسه الذى يترسخ فيه مغزى الحاضرة، فإن رؤية "موقع القصب" هذا كحزمة قلوب مضيئة يحول الموقد الأسطورى إلى صورة لمكان العمل حيث يكتسب الفرد الروحانية، لأن الاندماج فى المهمة المشتركة وحده هو الكفيل بتحويل الصناع العظام إلى تلك الأجسام المضيئة الحاضرة فى اسم المدينة نفسه.

الإنسان كطاقة مبدعة :

لا يمكن تفسير وجود تيوتيهواكان إلا من خلال هذا الإسقاط المتواصل لقوى داخلية دائمة التجدد. ولكن، ليس المدينة وحدها هى التى تملك أبعاداً عملاقة، وإنما باطن أرضها أيضًا يتألف من مستويات متعددة من أبنية مهدمة وفق طقس التجديد الذى يتحقق كل اثنتين وخمسين سنة. فقد كانت أنقاض المساكن والمعابد تُدفن تحت أبنية أخرى تحافظ على استمرارية أُسرية وثقافية مطلقة مع سابقتها، وكما لو البيوت كانت مغطاة بالرسوم بالكامل، فإن الجدران المهدمة المبتورة، غالبًا ما تتألق بزخارف بديعة. وأمام هذه الرسوم، التى ما تزال متألقة حتى الآن، بعد مرور ألفى سنة على دفنها، ندرك أنه لا يمكن إلا لإيمان متأجج بسلطة الروح أن يسمح بتدمير أعمال نشعر حالياً بالأسف لخرابها وكأننا نرى فيها كائنات حية.

هذا الاستهتار الظاهرى تجاه إنجازات فنية على هذا القدر من الجمال يقود إلى الاستنتاج بأن القيمة الافتدائية المنسوبة إلى العمل لا تكمن فى نوعيته بذاتها، وإنما فى سيرورة إبداعه، فى الدافع الذى يحول المادة إلى أشكال. وليست تلك الأشكال، مثلما هى الأجساد البشرية التى توجد بقاياها ما بين أجزاء الرسوم، إلا مجرد تمثيل

لبعض الحقائق التى عليها، كهدف نهائى، أن تساعد فى وصفها، دون الخلط للحظة واحدة بينها وبين الحقائق بحد ذاتها.

إن توالى العمل فى إنتاج مكثف ثم تدميره، يكشف مرة أخرى الموهبة الفريدة التى كانت تتمتع بها تلك الشعوب وهى تضع نصب عينيها على الدوام الطبيعة البشرية الحقيقية: ففى الوقت الذى ردت فيه بعنف واندفاع على تحديات العالم الخارجي، أسقطت أعمالها على زمن تتحكم به وتسيطر عليه. لأن الإنسان، وليس القوى العمياء، هو من يحدد الدورة الحيوية التى تُستبدل الأشياء فى نهايتها، بعد أن تكون قد أنجزت مهمتها فى السير نحو الكمال، بأشياء أخرى ستلقى المصير نفسه.

لقد كانت الدورة الزمنية المؤلفة من اثنتين وخمسين سنة فى ذلك العصر تساوى متوسط عمر الإنسان؛ وهكذا، فإن كل فرد يساهم شخصياً فى إبداع المواد التى تفيد فى نقل التقاليد وتوارثها، إن غياب الإفراط فى التدين والشعوذة الذى تكشف عنه هذه الديناميكية يفاجئنا أكثر مما تفاجئنا البقايا الأثرية المنتمية بثبات إلى سياق دينى محدد، ومن أجل فهم أفضل للمدى الذى بلغه هذا الوضع، يمكننا أن نتصور الاستنكار والفضيحة اللذين سيثيرهما تخريب الكنائس والصور المقدسة فى مجتمع حديث. ومع ذلك، فإن إسبان القرن السادس عشر هم الذين أدانوا تلك الثقافة بتهمة الوثنية.

الإنسان كوحدة متكاملة :

حيال واقع بهذه الأصالة، يواصل تحدى التفسيرات التوفيقية، لم يجد الفاتحون من سبيل آخر لتصنيف الرموز ما قبل الكولومبية إلا باعتبارها تمثيلاً للقوى الطبيعية. وهذا التفسير الذى أكده متأمركو القرن التاسع عشر، اتخذ طابع الحقيقة المؤكدة على الرغم من ضآلة احتمال أنه يمكن للحاجة إلى المطر، على سبيل المثال، أن تلهم بنياناً بمثل ذلك العمق. ولكى تُحصر صورة النبى الأمريكى الكبير فى إطار هذه الجبرية، فإنه لا بد من إخفاء مجموع الرموز الهيروغليفية التى تعبر عن فكرة، ولا بد من اختزال الأفعى المجنحة إلى الصورة الطبيعية لـ "حية ماء"، دون الإشارة إلى أى رابطة تربطها بالسيد كيتزالكواتل، أما تحول ملك تولا إلى كوكب سماوى، فسيكون بالنسبة إلى عقل ما قبل علمى، تفسيراً لوجود الجسد السماوى.

هذا الخلل فى صرامة تحليل الظواهر الثقافية ينتج عنه تقدير زائف لإسهامات الاركيولوجيا: فالحفريات تبين بوضوح التدمير الإرادى المتعمد للأعمال، وبما أن هذه العادة لا تتفق مع أية أفكار مسبقة، فقد تحول التعرف على هذا الأمر الجديد إلى معلومة تافهة لا تثير اهتمام أحد، ومعلومة غامضة فى الوقت نفسه، لأنها لا تقبل التفسير. ولكن، إذا ما نُظر إليها بالمقابل، انطلاقا من تفردها، فإنها تؤكد واقعًا محددًا تمامًا يجد له صدى فى نصوص المرحلة الحربية. وبالفعل، فالسمة الأساسية التى تستحق التقدير فى الملك – الشاعر نيتزاهوالكويوتل (بدايات القرن الخامس عشر) هى ذكاؤه التأملى الفكرى الذى دفعه إلى اعتبار نفسه نصيرًا لوجود بداية خلاقة غير مرئية. وقد كانت قناعته بذلك راسخة إلى حد أنه حرص طوال حياته على إبقاء معبد مدينته الكبير خاليًا من الآلهة.

نحن نعرف أن نيتزاهوالكويوتل – وهو شخصية معقدة وجذابة تشكلت فى أشد الصراعات ضراوة – يتميز بوفائه القتالى الجامح للتقاليد القديمة، المهددة آنذاك بصورة خطيرة بسبب اندماج القبائل البدائية بالحياة السياسية للهضبة. وكان يقال إنه وريث كيتزالكواتل، ومن أجل بناء عاصمته وجه نداء إلى التولتيكيين الذين كانوا قد لجؤوا إلى منطقة الميكسيتكا بعد تهديم تيوتيهواكان، ولا شك أنه بفضل أولئك الفنانين تحولت تيكسكوكو إلى المدينة المتألقة التى أسماها الإسبان أثينا المكسيكية.

هذا الدليل التاريخى على الإيمان ببداية خلاقة لا يمكن تمثيلها، يضع الرسوم التيوتيهواكانية فى إطار يوضح وظيفتها : استقلاليتها عما تمثله يجب أن يكون ناشئًا عن أن رسالتها ليست دينية متزمتة صارمة. وتقود التجربة الأركيولوجية كذلك إلى هذه النتيجة. فعندما كنا نعمل فى موقع التنقيب لاكتشاف الوحدة الأولى من مجموعة أبنية أثرية، لم يكن يحركنا سوى الرغبة فى التعرف على أحد القصور التولتيكية القديمة المزينة برسوم جدارية. ولم يكن يخطر ببالنا آنذاك الوضوح الذى ستبين به، تلك المجموعة الأثرية، وظيفة الرسوم نفسها؛ فاستمرارية الموضوع الذى تقدمه الرموز المسجلة على جدران قصر ثاكويلا هى شديدة الصرامة بالفعل، إلى حد يبدو معه المبنى أشبه بكتاب هائل مفتوح.

القاعة الأولى مزينة بصور تلالوك Tlaloc ، إله مطر النار الذى دمر بواسطة اللهب واحدة من الشموس السابقة للشمس الخامسة، والقاعة الأخيرة مملوءة بصور كيتزاتلكواتل أحمر، وهو رمز الإنسان المتحول إلى إله. إن وجوده على الوجه المقابل للجدار الذى عليه صورة تلالوك، الممسك بالبروق السماوية، يجعل من غير الممكن تأمل صورة كيتزالكواتل الأحمر إلا بعد اجتياز المبنى كله. فالحجرات التى تفصل بين هذين القسمين اللذين يقوم كل منهما فى أقصى طرفى البناء، تعيد تصوير أحداث يحيل كل واحد منها إلى الذى يليه: فبعد تلالوك يأتى رسم الفارس – النمر، فى وضع قتالى، وهو الكائن الذى جعلته قطرة من المطر النارى يعى البُعد الإنسانى، ثم يأتى بعد ذلك النسر الشمسى بلسانه المشطور، والسيد كيتزالكواتل خلال مغامرته الشهيرة: تلك التى تُظهره وهو يبحر نحو بلاد الشمس فى مركب مكوّن من أفعى مجنحة. ثم يلى ذلك ممر مزين بأربعة أقراص حمراء (رمز الشموس الأربعة) وعلى الجدار نفسه، دون أى انقطاع سوى درجةٍ واحدة ارتفاعها عشرة سنتمترات، يبرز كيتزالكواتل المتحول إلى شمس خامسة يغطى جدران القاعة الأخيرة.

هذه الأشكال تظهر على شكل رموز هيروغليفية مكبرة، وتشكل نصًا يبدأ عند مدخل القصر وينتهى فى الحجرة الأخيرة من البناء. ومن الواضح أن بعض الصور التى تُبرز عبادة الحيوانات لا تصل إلى مثل هذا التماسك الداخلى، وهى أكثر جلاء هنا، حيث معنى مجموع رسوم بداية "تقويمنا" يتطابق مع رسوم كل المخطوطات التى وجدت خلال القرون التالية. هذه القيمة التعليمية للصور تجعل مفهوماً، ليس فقط توالى الدورات الزمنية – وهو المنهج الجذرى الوحيد لتفادى تحولها إلى معبودات –، وإنما كذلك غياب تماثيل آلهة من الحجر أو الطين. فالرسوم لا تفعل شيئا سوى تكرار تعاليم التماثيل الفخارية، بلغة أكثر وضوحًا : فبلوغ الانسجام الذى يترجمه النحات من خلال صفاء الوجه أو بتخفيف المادة، يعبر عنه الرسام بطريقة يمكننا القول إنها حَرفيّة؛ فالرموز التى تكوّن كيتزالكواتل الأحمر، على سبيل المثال، تذكّر بطبيعة مهمته وبالطريق الذى قطعه ليتوصل إلى تحقيق إنجازه.

وتقدم الحجرات الجانبية فى قصر ثاكولا كذلك رسوماً توضيحية لمختلف حالات الروح. فإضافة إلى ياكاتيكوهتلى Yacatecuhtli ، إله الحجاج المرتحلين، تظهر

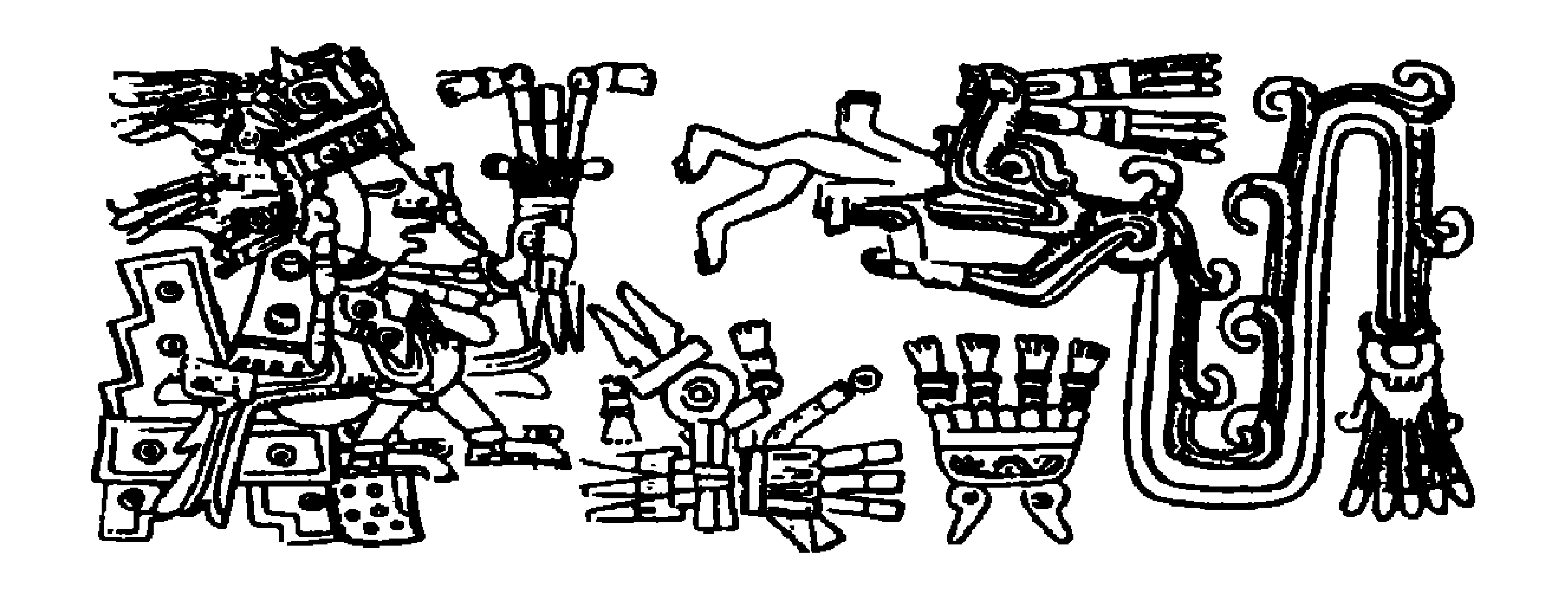
شخصيتان أخريان جديدتان : شيبي توتيك **Xipe Totec** و شوتشيبيلي **Xochipilli** الأول منهما هو "سيدنا المسلوخ"، وهو يرمز إلي التحرر من العوائق التي يفرضها العالم ما بين حقائق الفرد المختلفة. ويجري الضغط عليه، في نشيد على شرفه، لكي يكتسي بـ "الرداء الذهبي"، وهو ليس سوى الجلد البشري الذي يرمز إلى الانفصال. ويُمثِّل تحقيق هذه الرغبة في الكتب المرسومة بشخص يتواري بين أشداق أفعى مجنحة (الشكل ١٠٨). أما شوتشيبيلي، سيد الزهور، فرموزه هي الزهرة والفراشة والطائر - وهي الأشكال الثلاثة التي تأتي بها النصوص على ذكر الروح -، وهو مرسوم أيضا بجسد ووجه أحمرين، مثلما هو رسم المسلوخ.

تكشف الرسوم الجدارية أن الإنسان هو مستقر المبدأ الموحِد؛ وبدلاً من طرح مشكلة الوجود انطلاقًا مما هو طبيعي أو اجتماعي أو إلهي، يقر كيتزالكواتل قوة التكامل الكامنة التي يمتلكها الإنسان وحده، كحقيقة أولية للشرط الإنساني.

ولابد من الملاحظة أنه، كلما ضعف الدافع الداخلي، تخلي هذه التمثيلات الديناميكية المكان لرموز التدمير. وبدلاً من التأكيد على المبدأ الموجود عند المخرج، ينبغي إبراز تلاشي عالم الأشكال. ومن هنا فإن صور الهيكل العظمي، التي لا يكاد يكون لها وجود في تيوتيهواكان، تتحول إلى الموضوع المفضل بعد ذلك بخمسة عشر قرنًا.

اجتياح العالم :

ليس هناك ما يكشف بدقة أكبر عن صوفية العمل الذي كان يبث الحماس في أتباع كيتزالواتل مثل وجود مؤسسة مبشرين بالفكر الناهواتيلي. ففي القرن السادس عشر، كانت إحدى الطبقات الثلاث التي تقود المجتمع الأزتيكي هي طبقة البوتشتيكا **pochteca** ، أي التجار الجوالين، الذين كانوا يتولون أحيانًا مهام السفراء. وعلى الرغم من مادية نشاطات هذه المؤسسة، إلا أنها كانت محكومة بأنظمة أخلاقية صارمة، وتُسيَّر تحت رعاية كيتزالكواتل، وكانت مدينة تشولولا **Cholula** ، عاصمة هؤلاء الرحالة، تقوم حول معبد ضخم مكرس لذلك الإله.

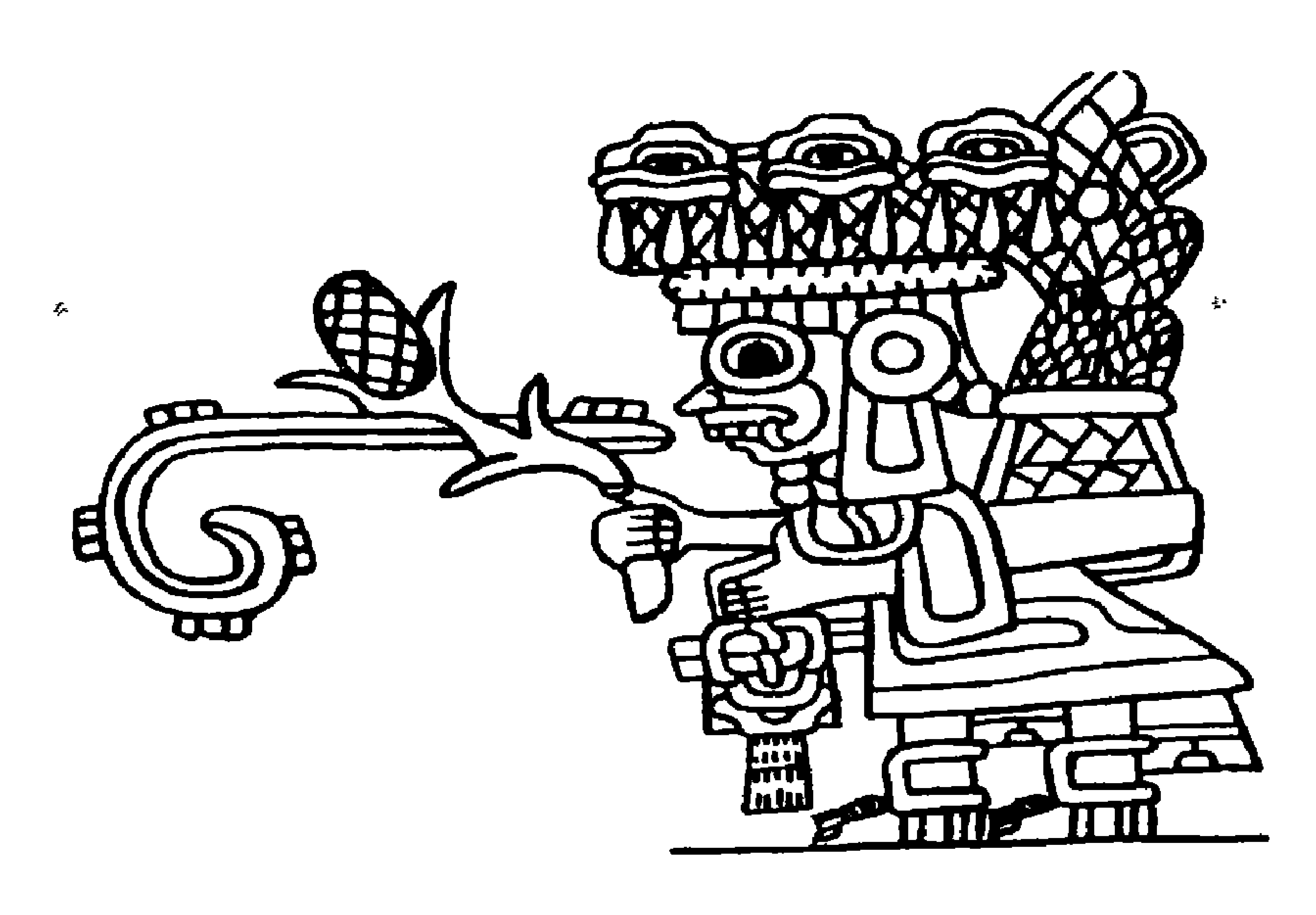


(الشكل ١٠٨) سيدنا المسلوخ ، الإله الذى يُخلِّص الغطاء الأرضى (مخطوط بورجيا)

وكانت حدود تنقل البوتشتيكا (التجار) تصل إلى السواحل الشرقية لخليج المكسيك، حيث كان يقام سوق دائم، أذهل الإسبان بتألقه البديع. إنه مكان اجتماع أناس وبضائع تأتى من كل أنحاء أميركا الوسطى، وكانت شيكالانكو **Xicalanco** تقدم لمختلف المناطق إمكانية التعارف المتبادل. وبسبب موقعها الجغرافى، يمكن ألا يكون اختيار شيكالانكو (الشكل ٦٤) – وهى نقطة التقاء مدن المايا والتوتونيكيين والناهواتيلين الكبرى – أكثر من اختيار عملي، ذلك أن الأزتيك كانوا قد تمكنوا من تحقيق الوحدة التولتيكية الواسعة التى فرضوها بقوة السلاح ، مما اضطرهم إلى فرض رقابة دائمة على البلاد التى أخضعوها .

وتكشف الأركيولوجية على كل حال ، أن وجود البوتشتيكا يعود إلى حقبة ازدهار تيوتيهواكان – رسم إلههم ياكاتيكوهتلى محملاً بحبوب الكاكاو التى كانت تستخدم كنقد – تزين أربع قاعات فى قصر ثاكوالا (الشكل ١٠٩) – أضف إلى ذلك أن الطريق الذى سلكه الأزتيك هو الطريق نفسه الذى استخدمه الناهوا، مثلما تثبت ذلك كميات البقايا الأثرية التيوتيهواكانية على امتداد محيط خليج المكسيك. وبما أن مدينة الآلهة سابقة لكل المراكز الأركيولوجية الأخرى، فإن تفسير أسباب اختيار موقع شيكالانكو، الذى كان مناسباً لعالم القرن السادس عشر المدينى، لا ينطبق على العالم القديم الذى ظهرت فيه تيوتيهواكان.

لقد ظهرت أسطورة تحوّل كيتزالكواتل إلى نجمة الصبح على سواحل الخليج؛ وعلى ضفافه أُقيمت محرقة التطهر، أو جرى الإبحار على متن حيوان زاحف. وفيما



(الشكل ٩-١٠) ياكاتيكو هتلى

بعد، صارت تلك الأماكن، فى نظر الناهوا الذين ينتمون إلى حقبتنا، أرضًا مقدسة، يتوجهون إليها بحثًا عن المصير نفسه الذى سعى إليه ملك تولا، وإنه لأمر ذو مغزى أن البلاد التى هجر من أجلها العاهل العجوز ملكه، تسمى فى منطقة الأنديز وحدها تيلان - تلابلان "أرض الأسود والأحمر"، وهو نعت يشير إلى الحكمة. "فمن خلال مقابلة هذين اللونين، الأسود والأحمر، الظلام والنور، تُستحضر فى كل الرموز والميثولوجيا الناهواتيلية فكرة الحكمة التى تتجاوز الإدراك العادى. وهكذا، يُنسب امتلاك الحكمة بوضوح إلى تلاماتينى عندما يجرى التأكيد صراحة ""ومنه يأتى اللونان الأسود والأحمر"" (تليلى وتلابالى) ثم يضاف برمزية أكبر بأنه هو نفسه ""الحبر الأسود والأحمر، الكتابة والحكمة ""(٤٤).

وهكذا فإن الأرض الموعودة ليست فى مكان البقايا الأثرية الخامدة، التى تُرضى الغرائز العمياء وحدها، وإنما هى مكان الإيمان بنظام روحانى يسعى الفرد جاهدًا للتوصل إليه. ويتحقق هذا المثل الأعلى بالديناميكية الاجتماعية التى نشرها التجار الجوالون (بوتشتيكا)، فهم، على الرغم من انشغالهم الكبير فى محاولة الوصول إلى

بلاد الضياء، لم ينسوا مطلقًا واجبهم فى تحويل العالم الذى يمرون منه إلى أفكارهم، ووجود مراكز كبرى، شكلت، منذ القرن الخامس، وحدة ثقافية واحدة تمتد على مساحة مليونى كيلومتر مربع، هو إحدى الأعاجيب الناهواتيلية، وقد تمت إقامة تلك الوحدة، حسب الوثائق المتعلقة بالألفية الأولى ما قبل الكولومبية، دون اللجوء إلى قوة السلاح: فالنصوص تنسب إلى أتباع كيتزالكواتل توجهًا سلميًا مناضلاً، كما أنه لا وجود للآثار الدالة على الحروب: فليس هناك أى أثر للأنظمة والمنشآت الدفاعية أو المعارك. ولم يجر تدمير أى واحدة من مدن ذلك العصر الكثيرة بقوة السلاح : إذ إنها كانت تُهجر ببطء إلى مراكز عمرانية جديدة، وبقيت محل توقير إلى الأبد، وتتلخص أصالة هذه المرحلة كذلك فى الحماس الإبداعى الذى يستبعد الحرب بطبيعته. فانتصار الناهوا فى أمريكا الوسطى لا يتمثل فى السيطرة على المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية القائمة، مثلما فعل بعد ذلك الأزتيك، وإنما فى غرس الوعى فى وسط ما يزال فى الحالة الطبيعية.

وليس الأمر كذلك إخضاع بالقوة، ذلك أنه ما كان للثقافات المحلية أن تتطور وتزدهر لو لم تكن تتمتع بحرية لا تتوافق مع القهر السياسى. فلو أن الناهواتليين، وبدلاً من أن يكونوا مشجعى فكر، كانوا جماعة استعمارية فظة، لما كان بمقدور الثقافات المحلية أن تزدهر؛ ونحن نعرف ذلك جيدا من خلال تاريخ الإمبراطوريات الكبرى: فالحرية الوحيدة التى تمنحها هذه الإمبراطوريات للشعوب المهزومة هى حرية الاستنساخ المذل لأساليب المنتصرين.

إن تمجيد الإنسان – الكوكب بلغات جمالية شديدة التنوع لا تُكتشف وحدتها الروحية إلا بعد مقارنات دقيقة، أضف إلى ذلك أن الأركيولوجيا قد اكتشفت فى قاعدة هذه الثقافات طبقة من البقايا التيوتيهواكانية تشير إلى مرحلة تعايش، ولابد أنه كان تعايشًا سلميًا، بسبب تمثل كلا الجماعتين العميق للرسالة الكيتزالكواتيلية : وهى رسالة نضجت ببطء، مثلما تتطلب كل ظاهرة داخلية، يتبدى ظهورها، بعد اللقاءات الأولى أحيانًا، من خلال أسلوب لم يكن معروفا حتى ذلك الحين.

إن الطبيعة السلمية للاجتياح الناهواتلى تتأكد من خلال الإجماع الذى يسود المراكز العمرانية الجديدة : فمؤابدها الأثرية لا تتادى، مثلما هو الحال فى مدينة الآلهة، إلا إلى الاتفاق على رؤية معينة للوجود، وحيال استحالة تقبل وجود قوة عسكرية قادرة على السيطرة على تلك الامتدادات الشاسعة، وغياب أسماء أبطالها لصالح حقيقة كونية، لا بد من إضافة واقع كون تيوتيهواكان هى المدينة الوحيدة التى كان يمكن للأسلحة الغازية أن تخرج منها، إذ إنها، فضلاً عن التوسع الجغرافى الذى تكشف عنه الآثار، بقيت خلال وقت طويل، المركز العمرانى الوحيد فى أمريكا الوسطى. ويتبدى الطابع الطقوسى والمقدس لمدينة الآلهة بصورة لا يمكن الشك فيها : فغياب المؤشرات العسكرية فيها يتوافق مع وفرة إبداعاتها الفنية.

نتائج

يبدو كما لو أن القليل الذى قيل عن النصف الجنوبى من القارة ، يبرر غرضنا المتعلق بإمكانية كشف الغموض عن الماضى البيروى - الخالى من الوثائق المحفوظة -، من خلال الكتابات الناهواتيلية، وقد رأينا على ضوء هذه الكتابات، بالفعل، أن المواد الأثرية البيروية والبوليفية تتكشف عن عالم روحى على قدر من الوضوح يكفى لتمييز الخطوط العريضة الرئيسية نفسها التى تكشفها الوثائق المكسيكية الوفيرة المتعلقة بكيتزالكواتل، ذلك أن الرموز الجنوبية التى تفحصناها على امتداد هذا العمل، وعلى الرغم من الاختلافات الأسلوبية، تفترض صورة للعالم مطابقة تمامًا لتلك التى ألهمت أعمال أميركا الوسطى. وسيكون من المعاكس للمنطق أن نرى فى مجموع متكامل مثلما هو الإنسان - الطائر - الأفعى، معنى آخر مختلفًا عن ذاك الذى يخصه به السياق المكسيكى المعروف على نطاق واسع، ويصبح المبرر أكبر عندما يوجد هذا المجموع فى البيرو وبوليفيا محاطًا بحشد من الرموز التى لها ما يتطابق معها تمامًا فى الرموز الناهواتيلية، إن الدراسة المقارنة للأيقونات التى نُعدّ لها تجبرنا على التأكيد، فى كل خطوة، بأن الرموز الهيروغليفية الأساسية لفكر كيتزالكواتل موجودة من أقصى القارة إلى أقصاها.

١ - ما هو مهد الثقافة الأمريكية ؟

تعود هذه الشمولية لتضع على جدول الأعمال قضية أصل الحضارة الأمريكية، ونحن نعى بأنه علينا أن نقدم، هنا على الأقل، الأسباب التى مازالت تجعل هذه المسألة القديمة غير قابلة للحل : فمن الصعب فى وضع الدراسات الراهن التوصل حتى إلى مجرد تقديم عرض للمعطيات، بالرغم من تمكن علم الآثار فى السنوات الثلاثين الأخيرة من حصر تلك المعطيات ضمن حدود يمكن رصدها؛ ولهذا سنكتفى بالإشارة السريعة إلى تلك المعطيات.

الوقت الذى كان يُثبت فيــه خوليو تييو أقدمية تشــافين، كان ماثيــو سترلينغ Mathew Sterling يكتشف، فـى المكسيك الجنوبى، المعبد الذى سيعتبره كثيرون مهد الثقافة الأمريكية الوسطى، فقد جرى بناء لافينتا، مثلما هى تشافين، حول تركيب رمزى (الجغوار المؤنسن، الذى يدخل فـى تكوينه الطائر والأفعى) يعبر عما هو جوهرى فـى فلسفـة السكان الأصليين بكل تفردها، وهو تفرد واضح بما يكفى للحيلولة دون نسبته إلى أصول مستقلة. ومع ذلك، فإن عقبات مختلفة قد حالت حتى اليوم دون إقرار أسبقية أحد هذين الموقعين، ذلك أن لافينتا تفتقر، مثلما هى تشافين كذلك، إلى أى توصيف كرنولوجي، وهى لم تقدم كذلك أية بقايا أثرية تشير إلى اتصالات مباشرة مع مناطق معروفة كرونولوجيًا بصورة أفضل، مثلما جرى فـى تشافين وعلاقتها بالخزف وبعض العناصر الأثرية الأخرى.

وحيث أن أسلوب لافينتا المعقد لم يسمح للأركيولوجيين من جهة أخرى، بالوصول إلى نتائج مرضية، فقد جرى اللجوء، بقناعة متزايدة أكثر فأكثر، إلى التأريخ الآلى (والذى نحصل عليه بقياس الإشعاعات التى ما زال يرسلها جزء من مادة عضوية). ولكن هناك أسباب عديدة تجعل من نتائج تقنية "كربون ١٤" مشكوكاً بها: فأولاً وقبل كل شيء، نادرًا ما توفر الحفريات الشروط اللازمة للتمكن من تأكيد معاصرة قطعة أثرية ثقافية لإحدى البقايا العضوية، حتى فـى حال العثور عليهما معًا فـى الموقع نفسه، أضف إلى ذلك أن هامش الخطأ الواسع الذى يحدده المختصون أنفسهم، وهو هامش يصل إلى عدة مئات من السنين، يحول منطقيًا دون أن تبدو المعطيات المستخلصة كعوامل حاسمة فـى إعادة بناء التاريخ. والشك الذى يحيط بطريقة تقنية، لا تنفع حاليا إلا كوسيلة مساعدة متواضعة، هو أكثر عمومية مما يبدو عليه، فقد رأينا باحثاً متحمساً لتقنية "كربون ١٤" يُسبِّق تاريخًا بمقدار خمسمائة سنة، خلال محاضرات ألقاها دارسون للأوابد الأوليكية سنة ١٩٦٧[٤٥]. ومهما يكن من أمر، وحتى لو كانت الطريقة الآلية فـى التأريخ دقيقة، كما يحلو للبعض الاقتناع أحيانًا، فإنها لا توضح المسألة التى تشغلنا، ذلك أن "كربون ١٤" نسبت إلى تشافين ولافينتا على السواء عمرًا يقارب الثلاثة آلاف سنة.

من المحتمل ألا يتم التوصل إلى الحل إلا عبر طريق الأركيولوجيا الطويل والمعقد، شريطة أن يقبل المتخصصون بالنزول لوقت غير محدد إلى الحفريات الموجهة نحو هذا البحث، وكذلك عبر الحسابات والمقارنات الخاصة بهذا المجال. وسنكتفى هنا بعرض أولى موجز للشواخص التى تحدد هذا الطريق.

٢ - نقاط الالتقاء بين النصفين الشمالى والجنوبى :

إلى جانب التشابهات الحميمة التى تجمع ما بين حضارتى تشافين ولافينتا، هناك نقطة اختلاف عميقة تميز بينهما. وسنقول، دون الدخول فى متاهة الاعتبارات التقنية، إن هذا الاختلاف ينشأ أساسًا من درجة التجانس الثقافى فى كل منهما، سواء إذا تناولنا هذا التجانس ضمن منطقة سيادتهما أو على مستوى القارة بأكملها، وانطلاقًا من هذه النظرة، تتمتع تشافين بشخصية تفتقر إليها لافينتا، ذلك أن هذا الموقع الأخير يبدو أشبه بركام من الميول والاتجاهات: ففى الوقت الذى يستخدم فيه النصب الضخمة فى النحت، وفى الأعمدة والأسوار البازلتية، مما يجعل من تشافين (ومن تياهواناكو) مكانًا نائيًا ولا زمانيًا، نجده يستخدم كذلك مواد هشة وحساسة وأشكالاً معمارية نهاواتيلية. ومن جهة أخرى، وعلى الرغم من الإجماع على إبراز الجغوار المتأنسن، فإن لافينتا تختلف عن تشافين حين تضع الإنسان فى مركز الرسوم المركبة التى تمثل أحيانًا الكيتزال - كواتل، والتى تُسجَّل بهذه الطريقة ضمن تيار رمزى آخر، إذ لابد من الانتباه إلى أن الكيتزال - كواتل - فى هيئة أفعى مجنحة وهيئة سيد تولا فى الوقت نفسه - هو غريب بصورة مطلقة فى الثقافات الجنوبية بحيث يبدو مَعلَمًا حقيقيًا ما بين النصفين الشمالى والجنوبى.

وهكذا، بينما تبقى تشافين منغلقة على منحوتاتها ذات الوجوه الجامدة، وعلى أسلباتها، وتشكل هندستها المعمارية وخزفها، النمط النموذجي للأعمال التى ستستمر فى الوجود حتى مجيء الأوربيين، تتردد لافينتا ما بين بنيتين أسطوريتين، ولا يكاد تأثير أسلوبها يخرج من المنطقة الجغرافية التى تخصها. ويبدو فى النتيجة أن تشافين قد ولدت هناك بالذات، من جذر وحيد، وأن لافينتا هى نتاج لقاء عناصر نضجت فى مكان آخر، ومن غير المحتمل إطلاق تسمية موطن ثقافة ما على معبد يتألف من الملامح

المميزة لحضارتين تطورتا على امتداد أكثر من ألفى سنة، دون أن تختلط عناصرهما مباشرة قط، اللهم إلا فى لافينتا، تحديداً، وفى موقعين آخرين سنلقى عليهما نظرة سريعة.

أحد هذين الموقعين هو مونتى ألبان، القائم بالقرب من مدينة أواكساكا الحالية، على السفح المطل على المحيط الهادى فى المنطقة نفسها من البرزخ، حيث تقع لافينتا. والوجود المديد لهذا المركز الثابوتيكى الباهر يعكس تغيرات كل مرحلة من المراحل التى مر بها العالم ما قبل الكولومبي، وهو يكشف فى أقدم مراحله، المدعوة مونتى ألبان الأولى، عن اتصالات مع النصف الجنوبى من القارة.

هذه الاتصالات حاضرة، بصورة أكثر مباشرة مما فى لافينتا، فى نظام العمارة (أسوار من صفائح حجرية منحوتة)، وكذلك فى تمثيل الشكل البشرى مطابق للنقوش الغائرة فى سيتشين، فى البيرو. ولكن، على الرغم من أن المواقع المسورة بالأحجار لم تكن معروفة فى أميركا الوسطى، فإن الرسوم المنقوشة على الصفائح الحجرية، المقتصرة على سيتشين، تشكل بالمقابل صورة أساسية فى الرموز الناهواتيلية : صورة المخلوق الحركى والمشوه الذى يتحول إلى شمس خامسة. إن التوافق الثابت فى فكرة الحركة، الذى تحافظ عليه شخوص سيتشين، سواء فى الأوضاع الجسدية أو فى الرموز الهيروغليفية الناهواتيلية، يوضح هذه الصلة بصورة حاسمة.

وبما أن مونتى ألبان، من جهة أخرى، تُظهر فى هذه المرحلة أيضًا اندماجًا تامًا للألوهيات الأساسية فى مجمع الآلهة الناهواتيلية، مما يعنى أننا نجد أنفسنا مجدداً حيال مزاوجة لملامح آتية من مصادر مختلفة ومكتملة التطور، مثلما هو الأمر فى لافينتا، فإن هذا المجموع يفترض هنا وجود منشأين اثنين.

المكان الثالث الذى يتضمن عناصر بيروية يوجد فى الهضبة المكسيكية، فى إحدى ضواحى العاصمة. إن غياب بقايا أبنية أثرية، وبعض خصائص تماثيلها الصغيرة تضع تلاتيلكو Tlatilco فى الحقبة القديمة، السابقة فى التعريف لظهور البنى الاجتماعية والدينية التى تفترض معابد وآلهة لافينتا ومونتى ألبان الأولى وجودها، ومع أن "كربون ١٤" يحدد، بإنصاف، تسلسلاً كرونولوجيًا متطابقًا تقريبًا

لهذين الموقعين، إلا أن تلاتيلكو تبدى روابط محددة تربطها بالمرحلة السابقة للبنائين العظام بحيث لا يمكن أن يوضع قِدمها موضع الشك. فهى المكان الوحيد الذى يكشف، على سبيل المثال، عن طبقات أثرية متتالية، حيث الطبقات التى تضم تماثيل صغيرة وخزف يعود إلى المرحلة القديمة، تظهر فجأة مغطاة بإسهامات غريبة تتمثل فى كؤوس، وفى تقنيات وزخارف تزيينية، وكذلك فى خليط من الملامح الموجودة فى الطبقات الجديدة، التى تقدم أكثر التماثيل الصغيرة ظرافة فى أميركا بأسرها.

ويُلاحظ، فى الموجة التى تحوّل تلاتيلكو، التقارب نفسه بين نصفى القارة، مع خاصية أنه يمكن هنا، خيراً من أى مكان آخر، متابعة التطورات التى يقدمها كل جانب: لأن تأثير تشافين، أولاً وقبل كل شىء، لا يُلاحظ هنا فى الأعمال المنجزة فى المكان نفسه وحسب، وإنما كذلك من خلال عمليات استيراد محتملة: فهناك أعمال خزفية بمقبض له شكل الركاب، وهى أشياء غير معروفة فى مناطق أميركا الوسطى الأخرى ؛ وكذلك حضور الأفعى المجنحة وتمثيل الجغوار بأسلوب مشابه لأسلوب تشافين، ولكنه مُنَفذ بتقنيات لم تطبقها البيرو على الخزف قط: فالرسوم الجدارية الملونة وزخارف النحت الغائر تُنَفذ على الطين المشوى. ويحدث أن الرسم الملون، وهذا النوع من النحت الغائر، والأفعى المجنحة، تشكل فى المناطق الداخلية من أميركا الوسطى التعابير الخاصة بتيوتيهواكان، المدينة الوحيدة المعروفة التى أقيمت فوق أنقاضٍ قديمة وبقيت مخلصة لها حتى نهاية مسيرتها العجيبة.

من خلال هذا العرض السريع وغير المكتمل يبرز أن :

١ – اشتراك تشافين الذى لاشك فيه مع البقايا القديمة يعزز الأسبقية التى خص بها خوليو تييو هذا المكان ؛ كما أن عدم وجود بقايا أثرية، فى ذلك المستوى، من أميركا الوسطى فى البيرو، يشير كما يبدو إلى أن هذه البلاد هى التى بدأت بإقامة اتصالات مع الشمال.

٢ – نظراً لكون تشافين قد ارتبطت بعناصر من الهضبة المكسيكية منذ الأزمنة القديمة، فإن اللغة الرمزية لنصفى القارة تبدو مشغولة جيدا فى أحدهما كما فى الآخر. ومع ذلك، إذا كانت تلاتيلكو أقرب من لافينتا إلى الأصول – لأن لافينتا تجهل

التقنية الخاصة بالخزف فى طرفى القارة، فضلاً عن أنها تدمج لغة رموزها بأسلوب جديد -، فإنه لا يمكن اعتبارها كذلك مهداً للعالم الناهواتيلي : لأن هذه التسمية لا يمكن أن تُطلق إلا على منطقة مجردة من المؤثرات الأجنبية(٤٦).

٣- ابتداء من الاتصال الذى يجرى فى تلاتيلكو، تُظهر الثقافتان كلتاهما حركة مزدوجة: فهى حركة نحو تحققهما الذاتى من جهة، ونحو الاستعارة والاندماج لخلق أشكال تركيبية فيما بعد من جهة أخرى. فى الحركة الأولى تبرز تيوتيهواكان فى الشمال، وتياهواناكو وباراكاس فى الجنوب؛ أما الحركة الثانية فتتبلور فى مونتى ألبان وفى سيتشين أولاً، ثم فى لافيتا بعد ذلك مباشرة.

٤ - النتيجة : إما أن الفكر الأمريكى قد برز بصورة مستقلة فى عدة أماكن وفى وقت واحد، أو أنه أتى من بؤرة وحيدة، عاش فيها دون مظاهر كاشفة قبل أن ينتشر عبر القارة. وهذه النتيجة تعادل قولنا إن مشكلة الأصول قد ازدادت غموضاً بدل أن تتضح.

٣ - تشخيص وتجريد :

بما أن محاولتنا لتحديد مصدر الحضارة الأمريكية من خلال المسارات المتوازية قد أخفق، فلنرَ إذا ما كانت التعارضات أكثر بياناً.

إن وفرة الأشكال والتماثيل الصغيرة التى ترافق ظهور أول الملامح الناهوا يبدو أمراً ثابتًا فى هذه الثقافة: وهى أشكال تبدو أنثوية حصراً فى تلاتيلكو، بينما تقدم رجالاً أو نساء دون تمييز فى تيوتيهواكان. هذا الميل إلى الشكل البشرى، إضافة إلى الإعجاب بالتفصيل فى تحديد الجنس وحركة الجسد، مجهول فى البيرو : فنقوش تشافين، وتماثيل تياهواناكو المصغرة، وأشكال باراكاس الصلصالية تنحدر من لغة رمزية تستبعد الإنسان إلى مرتبة أخرى. وبعيداً عن أن تكون هذه الميول وهذه السلبية ظرفية، فإنهما تبدوان محددتين بمفهوم معين للمجتمع. وبالفعل، فمع أن تلاتيلكو معروفة لدينا من خلال آثار المدافن، وكويكويلكو Cuicuilco والمجموع الذى تشكل جزءاً منه، من خلال بقايا أولى المبانى فى أميركا الوسطى، وتيوتيهواكان من خلال

الأهرامات العملاقة فقط، فإن هذه المعالم لسيرورة الاعداد الثقافى تثبت، أولاً عن طريق أشكالها، اهتمامًا بالفرد تفتقر إليه المواقع الجنوبية المعاصرة لها. والعلامة المفاجئة أكثر من سواها فى هذا الاختلاف توجد فى رؤية كل منها للحياة الاجتماعية: فبينما سعى النهواتيليون، منذ المرحلة القديمة، إلى بناء أوسع مدينة فى القارة، اكتفى سكان البيرو وبوليفيا، طوال قرون، بأماكن مكرسة للعبادة لا ترافقها أبنية مدينية أو سكنية.

إثبات هذا الأمر يقود إلى التنبه إلى اختلاف ثالث: فعلى الرغم من أن الحضارتين قد ولدتا من رؤية للعالم، وأسلوب تعبير شكلى، متشابهين عمليًا، إلا أنهما تختلفان مع ذلك، فى القيمة التى تمنحانها للصور. إذ يبدو أن البيرو لم تضع بنية أيقونات حقيقية، ويبدو أنها أخذت عن المكسيك بعض الصور المعزولة التى تكررها إلى ما لانهاية: هذه الظاهرة تفسر الصعوبة التى يصطدم بها الباحث عندما يحاول إعادة بناء فكر البيرو دون الاستناد إلى المعارف المتوفرة عن الرموز الناهواتيلية. وثمة عوامل عديدة تكشف أن هذا الافتقار إلى الايقونات يشكل إنكارا إراديًا، وموقفًا ناجمًا عن فطرة قائمة، فبينما تتألق الصور حتى النهاية على الجدران والأشياء فى المكسيك، تأخذ بالتضاؤل فى البيرو وبوليفيا إلى أن ينتهى بها الأمر إلى الاختفاء نهائيًا، إن تكاثر المنحوتات والرسوم المكسيكية، يُبرز بصورة فاقعة عرى الأوابد البيروية والبوليفية؛ ويتحدث الإسبان عن خيبة أملهم حين لم يجدوا أى معبود فى معبد باتشاكاماك، أشهر معابد النصف الجنوبى من القارة؛ وتذكر عدة مصادر أن معبد كوسكو الكبير، الذى كانت تغطى جدرانه الخارجية كلها صفائح من الذهب، لم يكن يتضمن إلا رسمًا للشمس (عبارة عن وجه محاط بأشعة)، والقمر وبعض النجوم.

هذا الغياب للتماثيل والرسوم، بالارتباط مع ملامح ثقافية أخرى، يفرض نفسه نوعيًا : فالعمارة التى يختلف بها الجنوب بقوة عن الشمال، تتميز كذلك بصمت حقيقى وبغياب الصور؛ وهكذا فإن جوانية الأشكال تقود إلى نحت للصمت والانطواء. والوقوف مباشرة أمام كتل أسوار كوسكو الحجرية الصماء، تمكننا من إدراك أن إحكامها، الحساس والديناميكي كالنقش، هو أكثر من مجرد إظهار للمهارة الفنية؛ فبعد أن يقدر المرء نعومة السطوح الملساء، والتعرجات المتناسقة ما بين الحجارة الأفقية والرأسية

التى تحول صخرة ضخمة إلى عمل نحتى لم يتجرأ فنانو اليوم الحداثيون على تجاوز جرأته التجريدية، تُلمح الإرادة التى تشكل ركيزة هذا التقشف. وهى إرادة شديدة الصلابة، تجرأت على مهاجمة جبل هائل لتصنع منه إنجازًا إنسانيًا جبارًا. هكذا تبدو بالفعل قمة ماتشو بيتشو الشاهقة، بسفوحها المنحوتة والمتحولة إلى أدراج، أو إلى جدران استنادية، أو إلى مصاطب، أو إلى صفائح ضخمة يسيل عليها الماء. أن المجموعات المعمارية التى تنتظم فى القمة تفرض نفسها كشيفرة حاسمة، تكشف مغزاها فى سيرورة بطيئة : إنها الأنسنة التدريجية للطبيعة من خلال تضامن وثيق ومُحب. فالإثراء المتبادل للإنسان والمادة خلال تلك التجربة المشتركة تصبح جلية فى مساحات منحوتة لا حصر لها، حيث نقاء الخطوط واندفاع الأشكال يتحد فجأة مع كتلة صخرية مركبة بطريقة لا يمكن لها أن تنفصل عن مجمل العمل.

كم استغرق الطريق الذى كان لا بد من اجتيازه، من باروكية تشافين وحتى العالم الهندسى المتناسق والنابض للحجارة العارية ! فالإنسان الجغوار القديم ينصهر، فى ماتشو بيتشو، فى الواقع الذى كان عليه أن يحمله هو نفسه إلى العالم، وتختفى المخالب، والأشداق، والزوائد الهذيانية أمام المهمة المنجزة باكتمال : مهمة التحويل المهيب للأنديز الأصم إلى نصب شامخ لإرادة التغيير، ولقدرة الالتحام مع الطبيعة فى سيرورة الخلق والإبداع.

هناك مؤشرات أخرى تثبت هذا الازدراء نفسه للتشخيص. فغارثيلاسو يوضح بأن الإسبان العاجزين عن فهم سلوك البيرويين تجاه الطبيعة، اعتقدوا بأنهم قد وجدوا فى توقير الجبال، أو الينابيع، أو الأشجار، أو الحيوانات، أو المحاصيل، ضربًا من الوثنية الفظة[٤٧]. ويبدو أن عادة إحراق الأشياء كقرابين تنبع كذلك من رفضهم للمظاهر: وإنه لأمر ذو مغزى ألا يجد أتاوالبا، ملك الإنكا، وسيد مملكة الذهب العجيبة، وسيلة أكثر وقارًا لتكريم الفاتح الإسبانى بيثارو، من أن يرسل إليه "حمولتين من طيور البط المسلوخة والمجففة، ليتبخر بها بعد طحنها وتحويلها إلى مسحوق..."[٤٨].

٤ - القيمة الأخلاقية للعمل :

إذا كانت الحرية تجاه ما هو خارجي تستدعي تقدمًا جوانيًا كذاك الذى يفصل أعمال تشافين عن أعمال ماتشو بيتشو، فلابد من استخلاص النتيجة بأن المكسيك لم تبلغ درجة التقدم نفسها، وأنه لابد من إقرار بدايات ثقافتها بعد بدايات البيرو. ولكن تزامن تشافين وتلاتيلكو الذى لا يمكن دحضه، ينقض هذه الفرضية، ويمكننا أن نتساءل إذا ما كان جذر الاختلافات لا يكمن فى ذلك التمجيد للفرد الذى رأيناه يتبدى منذ المرحلة القديمة.

وبما أنه لا يمكننا أن نعيد تفحص البقايا المادية، فإننا نكتفى بتذكر أن ذلك التمجيد للفرد فى خدمة ما هو اجتماعى يبدو جلياً فى الأساطير وفى قيمة العمل المتوافق عليها. فتأسيس المدن واستمراريتها، يتطلب، مثلما هو الإيمان بخلق الشمس الخامسة، جدلية الفردى والتعددى، أى العمل للتأثير على النفس وتهذيبها، والعمل للتأثير على الوسط المحيط وتغييره، إن وجود الشمس، مثلما هو وجود المدن، يعزز وظيفة الجهد البشرى، ويؤكد أن هذا الإنسان يشارك مع غيره، ومع العالم المادى، لأنه نوع من الجزىء الاجتماعى، أو جزء مكوِّن للكل البشرى. وليس صدفة أن يطلق بناة الحضارة فى أميركا الوسطى على أنفسهم اسم البنائين العظام (التولتيكيين)، ولا أن يكون الرمز الهيروغليفى لمدينة تولا، مصلحًا يشير إلى كل تجمع بشرى كبير، وأن يكون مكوّنًا من القصب، رمز النشاط التحويلى.

ولكن هذه الطروحات تقود، للأسف، إلى طريق مسدود جديد. فالإعجاب المفرط، قبل كل شىء، بالصور التى أنَّب الإسبانُ بسببها المكسيكين، ينفى دور الفرد الاجتماعى أكثر مما يؤكده. وبعد ذلك، فى زمن الفتح، يتبدى دور العمل كوظيفة قاعدية بوضوح أكبر فى السمات المميزة للبيرو: غياب "الأوثان"، واعتدال الطقوس الدينية، والتنظيم العالى للاقتصاد والمؤسسات على السواء. والحقيقة أننا إذا ما تركنا جانبًا "وثنية" الأزتيك الشهيرة، فإن مجتمعات نصفى القارة كليهما يقدمان تجانسات مفاجئة، ابتداء من مفهوم العمل كشكل من السلوك الاجتماعى : وما مدن أميركا الوسطى ونجاحات الانكيين التقنية إلا دليل على ذلك، وهو دليل ملموس مثلما هى الكنوز المدفونة فى الصحراء.

٥ - الموقف حيال الموت :

سيبدو كما لو أن التمايزات التى تتضارب فى كنف ثقافتين، تَمثَّل إنجازهما فى إقامة عالم ميسور، وديناميكى، وقادر على دمج كل أفراده بقوة؛ نشأت من النظرة الخاصة لكل منهما إلى فكرة الموت. ومع ذلك، وبالرغم من توفر مؤشرات كثيرة محددة، فإن هذه الفكرة ترتبط بسياق مخالف تماماً للسياق الذى يشكل أساس حضارتنا، بحيث أننا نشك كثيراً بقدرتنا على إدراكه بصورة مرضية، لأن أى محاولة للفهم ستقود إلى ما سيبدو أنه وقوع فى شبهة اليوتوبيا.

إن الرصانة التى واجهت بها الشعوب الأمريكية إشكالية الموت ستنقلنا، أكثر من إنجازاتها الاجتماعية ذاتها، إلى عتبةٍ يبدو لنا اجتيازها مثيراً للقلق : فما يُستنتج من الأساطير، وكذلك من الأعمال المكرسة لتغير صورة الموت، يبدو وكأنه يضعنا أمام حضارات ربما تكون قد توصلت إلى إجابات على بعض الألغاز التى بدأنا نحن الآن فى لمحها فقط، فالبقاء المؤبد الذى تصرّ عليه الجماعة، بجهد منقطع النظير، وجهًا لوجه مع الموتى، إنما يرمى إلى بعث الحيوية فى الموت تحديداً؛ ولكن ذلك البقاء وجهًا لوجه هو داخلى محض؛ لأن القبور التى تخبرنا عن هذه الممارسات كانت تبقى مجهولة من قبل من يمنحون شكلاً للأعمال المودعة فيها. غير أنه، إذا كان مبدأ الموت هو فى الواقع منبع العدوانية التدميرية التى أخرجها فرويد إلى الضوء، فسيُفهم كيف أن شعباً حَدَسَ هذه الحقيقة بالبديهة، سوف يتصور الثقافة كردّ على ذلك القدر الطبيعى المحتوم(٤٩). وما لم تُستبعد إمكانية مثل ذلك الحدس، وما لم تُعتبر ظاهرة بمثل تلك الغرابة، مجانية؛ فإنه لا يمكن قبول التفسيرات التى تتناولها عموماً؛ مثل "عبادة الموتى" الغامضة التى يقول بها الاتنولوجيون، أو فكرة "الفحش بالموتى" الجوفاء التى ينادى بها بعض السيكولوجيين، أو مقولة "التلذذ بالموت" التى تشكل عنصر التشويق اللاذع فى المقالات حول المكسيكيين، والتى تجرى من خلالها محاولة تفسير العنف والتعسف، مع أن هذا العنف والتعسف ينحدران فى خط مباشر من البنية الاستعمارية؛ وتتكشف كل تلك المقولات عن سطحية شديدة لا يمكن معها القبول بها. وهى أقل قبولاً مع ذلك لأن الإنتاج المكثف لمواد الترف المخصصة للأموات يغطى وظيفتين أخريين رئيسيتين: فهو يقود، من جهة، إلى اكتشاف موارد طبيعية تتيح إقامة نظام قادر على تلبية

حاجات المجتمع.. نظام يوازن إنتاجه وفق احتياجات النمو السكانى الذى سيصل إلى تشكيل التجمعات الاقتصادية الكبرى فى القرن السادس عشر؛ ويشجع من جهة أخرى، تطور الإنسان من خلال العمل المتواصل على تحويل الطبيعة؛ ويجنب فى الوقت نفسه من انحطاط القيم الذى يلازم تراكم الثروات، ذلك أن تصنيع المواد المكرسة للاختفاء، عاجلاً أو آجلاً، تحت الأرض، يحول دون بروز روح الميل إلى التراكم، ويفرض فى الوقت نفسه تفوقًا وسموًا حقيقيين للنشاط الإبداعى على المادة المُبدَعة.

هذا السلوك الذى يولد النظام الاجتماعى، يوضح أيضًا البنية الأسطورية الناهواتيلية التى تقدم لغتها الشاعرية الراسخة وغير المباشرة نسخة معكوسة للغة البقايا الأثرية المادية. وفى الوقت الذى تُكرَّس فيه الأسطورة لتوضيح سرّ الموت، تسعى جاهدة لتجريده من كل قدرة تدميرية، جاعلة منه مصدراً لا ينضب للوعى الذى يعتمد عليه سير الكون؛ كما أن مرتبة المنقذ التى يتسنمها الفرد فى لحظات الكوارث الكونية، ومذلة الآلهة أمامه، وعمله لإخراج النور من العدم، وواقع أن يكون مهد الشمس الخامسة مدينة، تشكل كلها أدلة أخرى غير قابلة للدحض.

وفى تناقض ظاهرى، "يتملص" الناهواتيلى من تأثير الصدمة الأصلية، ويصل إلى تجاوز الغايات، وإلى إظهار احترامه للنشاط النوعى للإنسان، بالطريقة نفسها التى تفعلها مقابر باراكاس. فهو يسعى إلى الترابط نفسه للنظام الاجتماعى والنظام الطبيعى حين يُخضع أعماله لإيقاع الوجود الإنسانى، وحين يفرض على الزمان والمكان قيمة اجتماعية. فالفرق بين الثقافتين يكمن، إذن، فى أن الزمن فى النصف الجنوبى يلتصق بمصير الجسد، بينما هو يستجيب فى النصف الشمالى لأطوار أبدعها الإنسان، هذه النقلة التى تطلق الإنتاج وتحرره من كل حتمية طبيعية – إذ لم يعد الفرد يتعايش مع المواد الجنائزية الفاخرة، وإنما مع المدن، ومع المنحوتات والبيوت مرسومة الجدران، متمتعاً بحياة مستقلة –، تقود إلى إنتاج أعمال مشابهة لعمل الطبيعة، المُتخذ نموذجًا بكل جلاء، وإلى تمجيد الشخص الاجتماعى.

إن المواءمة بين الاجتماعى والطبيعى، والسيطرة التضامنية على الطبيعة والبشر، تشكل مفتاح سلوك الوطنيين، ونقطة الاختلاف الكبرى عن السلوك الغربى، وبما أن هذا الموضوع يتطلب كتابًا مستقلاً، فسنقتصر على التأكيد بأن هذا وحده يتيح تفسير

غزو الوطنيين وتدميرهم، وكذلك تفسير الحالات الغامضة لبقاء بعضهم على قيد الحياة، حيث يُعزل الوطنى الأمريكى فى عالم محكوم بقيم غير عقلانية فى عيوننا، وهى قيم وصلت لأن تكون لاشعورية، ولكنها ذات أصل اجتماعى لا جدال فيه، تعمل ضد مسار المصالح المباشرة لمجتمعات خاضعة لأيديولوجية الأقوى الغربية.

إننا ندرك الريبة التى تثيرها هذه التأكيدات، ولكن، حيال كمية الوثائق التى تلتقى عند هذه النقطة، نتساءل عما إذا لم تكن هذه الريبة من النوع نفسه لتلك التى عرفها أناس العصر الوسيط أمام فكرة وجود جانب آخر للأرض، أترانا حيال حضارة يمكنها أن تزعزع أكثر مفاهيمنا حكمة حول التطور البشرى ؟ حيال حضارة كانت ترمى إلى كبح العدوانية التى تستند إليها القوة الغربية؛ حيال شعوب كانت الحكمة الوحيدة الصالحة لديها هى قمع الغرائز الأنانية والإجرامية ؟ ألا يكون الأزتيك – بسبب هذا التابو الملقى على الحياة البشرية – قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اللجوء إلى مبررات مقدسة لفرض بعض العادات التى ما زال علينا، كمهمة أولية، التحقق من مدى اتساعها؟(٥٠).

ألا يمكن القبول بأن تلك الحشود، أو أولئك الملوك، الذين استقبلوا بالترحاب الرجال الغرباء وهم يعرفون نواياهم الحربية، كانوا يؤمنون بفعالية الإيماءات والسلوك فى إحداث شلل جسدى يحوّل الغرباء إلى أعضاء فى الجماعة ؟ وأن إقدام الأعيان أحيانًا على تقديم بناتهم بالذات هبة للغرباء، كان استجابة ليقينهم بأن أى دافع تدميرى سيُكبح أمام أدلة سلمية بمثل ذلك الوضوح؟ ألا يكون الأمر تقليداً ثقافياً ظهر بعد التوصل إلى تحديد انعكاس من ذلك النــوع الذى يشير إليه كونراد لورينز **Konrad Lorenz** فى الذئب ؟ ثم ألا يكون فتح أميركا هو تاريخ شعوب تقدم رقابها فى إشارة سلام إلى كائنات تغرس براثنها فيها بنفحة انتصارية؟

مهما يكن من أمر، فإن الواضح أن الإجابة على هذه التساؤلات تتجاوز حدود المعرفة التاريخية. ولم يعد مستحيلاً الآن، بعد أن تم خطو الخطوة الأولى نحو إزالة الاستعمار، اللجوء إلى عدسة التكبير الضخمة التى يشكلها غزو أميركا، لكى نرى واقعنا بصورة أفضل، ونتوصل إلى إنسانية لا يمكن تصورها تتيح لنا الانتقال، أخيراً، إلى الجانب الآخر من المرآة التى نتأمل أنفسنا من خلالها منذ آلاف السنين.

الجداول والمراجع والفهارس

جدول كرونولوجى : ثقافات أمريكا الوسطى

العصر	المرحلة	وادى المكسيك	ساحل الخليج	أواكساكا	أراضى المايا: السهل		أراضى المايا: الجبل
ما بعد الكلاسيكى	1520 1450 1300 1200 1100 1000 900	II أزتيك (تينوتشتيتلان)؛ I أزتيك (تولا–مازابان)؛ تولتيكون أزتيكون	جبل الهضاب العليا	ميتلا؛ IV مونتى ألبان؛ مكسيكيون	مايا تولتيكا	الإمبراطورية الجديدة	توهيل
كلاسيكى	800 700 600 500 400 300	IV تيوتيهواكان؛ III تيوتيهواكان	جبل II الهضاب؛ أولميكون	III B مونتى ألبان؛ III A مونتى ألبان؛ ثابوتيكون	تيبو؛ تزاكول	حقبة الإزدهار (الإمبراطورية القديمة)	بامبلونا؛ إسبرانثا؛ أورورا
ما قبل كلاسيكى متأخر (التكوينى)	200 100 1 100 200 300	II تيوتيهواكان؛ I تيوتيهواكان	تاخين؛ جبل I الهضاب	II مونتى ألبان	I هولمول؛ تشيكانيل	المرحلة المبكرة	سانتا كلارا؛ أرينال
ما قبل كلاسيكى وسيط	400 500 600 800 1000	كويكولكو – تيكومان؛ ثاكاتنكو وسيط؛ تلاتيلكو	تريس ثابوتس؛ لافينتا؛ أولميكون	I مونتى ألبان	مامـوم		ميرافلورس؛ تشاراكاس
ما قبل كلاسيكى قديم (تكوينى)	1200 1500	ثاكاتنكو قديم؛ ثاكاتنكو التفرع الأول	؟				
القديم	2000 5000	كالكو		يانهويتلان			

Cuadro cronológico : Perú

جدول كرونولوجي : البيرو

العصر	المرحلة	ساحل الطرف الشمالي	الساحل الشمالي	الساحل		الجبال		
				الساحل الأوسط	الساحل الجنوبي	الجبال الشمالية	الجبال الوسطي	الجبال الجنوبية
1532 1450	الأفق المتأخر (الحقبة الإمبراطورية)	تالان	إنكا – تشيمو	إنكا – تشانكاى	إنكا – إنكا	إنكا	إنكا	إنكا
1400 1300 1200 1100 1000	الحقبة الوسيطة المتأخرة (حقبة بناء المدن)	تشيمو لامبايكى	تشيمو	تشانكاى	إيكا	كاخاماركا	إنكا القديم	
900 800 700 600	الأفق المتوسط (الحقبة التوسعية)	هوارى لامبايكى	هوارى	باتشاكاماك	هوارى	هوارى – كاخاماركا	هوارى	تياهواناكو (هوارى)
500 400 300 200 100 0 100 200 300	الحقبة المتوسطة القديمة حقبة التجريب والإزدهار	فيكوس سلبى فيكوس كلاسيكى	موتشى (موتشيكا) فيرو (غاييناثو) سالينار	ليما	نازكا	ريكواى		بوكارا
400 500 600 700 800 900 1000	الأفق القديم (الحقبة الثقافية)	تمبلاديرا تشونغويابى	كوبيسنيكى	أنكون العليا كورايكو	باراكاس	تشافين	تشاناباتا	تشيريبا
1100 1200 1300 1400 1500 1600 1700	الحقبة التكوينية		غوانيابى			كوتوش		
1800 2000	الحقبة الإبتدائية (بدون خزف)		هواكا بريتا	ريوسكو	كاسافيلاك	كاسافيلاك	لاوريكوتشا (٨٠٠٠ – ٢٠٠٠)	

الهوامش

الفصل الأول :

١ – لاس كاساس ، تاريخ بلاد الهند ، المجلد الثانى ، صفحة ٣٠ .

٢ – فيسبوتشى ، العالم الجديد ، الصفحات ٩٩ – ١٤٥ .

٣ – فيرنانديث دى أفييدو، التاريخ العام والطبيعى لبلاد الهند .

٤ – فيسبوتشى، المصدر السابق، صفحة ١١٣ .

٥ – لاس كاساس، المصدر السابق، المجلد الثانى، صفحة ٢٣٢ .

٦ – المصدر السابق، صفحة ٢٧١ .

٧ – المصدر السابق الصفحات ٤٠٦ و ٤٢١ و ٤٢٥ .

٨ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٨، الفصل السادس والفصل الثامن .

٩ – المصدر السابق، الفصل الحادى عشر .

١٠– لاس كاساس، المصدر السابق، المجلد الثالث، الصفحة ٣٧ .

١١ – فيرنانديث دى أفييدو، المصدر السابق. الكتاب ٢٩ ، الفصل التاسع .

١٢ – المصدر السابق، الفصل العاشر .

١٣ – لاس كاسلس، المصدر السابق، المجلد الثالث، الصفحة ١٠٤ .

١٤ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٩، الفصل التاسع .

١٥ – لاس كاساس، المصدر السابق، المجلد الثالث، الصفحة ٩١ .

١٦ – كورتيس، رسائل حول فتح المكسيك، الصفحة ٢٧ .

١٧ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ١٠، الفصل السابع .

١٨ – كورتيس، المصدر السابق، الصفحة ٥٩ .

١٩ – المصدر نفسه .

٢٠ – لاس كاساس، المصدر السابق، المجلد الثالث، الصفحة ٢١٠ .

٢١ – كورتيس المصدر السابق، صفحة ٣٦ .

٢٢ – دياث دل كاستييّو، التاريخ الحقيقى لفتح إسبانيا الجديدة، المجلد الثانى، الصفحات ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٣٠٤ .

٢٣ – المصدر السابق، الصفحة ٢٩٦ .

٢٤ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٣١ ، الفصل الأول .

٢٥ – لاس كاساس، المصدر السابق، المجلد الثالث، الصفحة ٣٩٧ .

٢٦ – المصدر السابق، الصفحات ٣٩٨ – ٩ .

٢٧ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٦ ، الفصل الثاني والفصل الرابع .

٢٨ – المصدر السابق، الفصل السادس .

٢٩ – المصدر السابق، الفصل الرابع .

٣٠ – المصدر السابق، الفصل الخامس عشر .

٣١ – دياث دل كاستييو، المصدر السابق، المجلد الثاني، الصفحة ٨٣ .

٣٢ – المصدر السابق، الصفحة ٨٦ .

٣٣ – المصدر السابق، الصفحة ٢٨٢ .

٣٤ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٦ ، الفصل السابع .

٣٥ – المصدر السابق، الفصلان السابع والثامن.

٣٦ – المصدر السابق، الفصل السابع .

٣٧ – إنكا غارثيلاسو دى لا بيغا، التاريخ العام للبيرو، المجلد الأول، صفحة ٧٢ .

٣٨ – محكمة راسل : جلسة استوكهول .

٣٩ – فيرنانديث دى أوفييدو ، المصدر السابق، الكتاب ٤٦ ، الفصلان الرابع عشر والثاني والعشرون .

٤٠ – المصدر السابق ، الفصل الثاني والعشرون .

٤١ – المصدر السابق ، الكتاب ٢١ ، الفصل السادس .

٤٢ – المصدر السابق ، الكتاب ٢٥ ، الفصل السادس .

٤٣ – المصدر السابق .

٤٤ – المصدر السابق ، الفصل السابع .

٤٥ – المصدر السابق، الكتاب ٢٧، الفصل الثالث .

٤٦ – خوان فريدى، فتح بلاد التشيبتشيين، الصفحة ٣٦ .

٤٧ – المصدر السابق صفحة ٦٦ .

٤٨ – المصدر السابق صفحة ٦٨ .

٤٩ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٦، الفصل السادس والعشرون وما يليه .

٥٠ – شمدل، وقائع رحلة إلى مناطق لابلاتا والباراغواى والبرازيل، الصفحة ٤٩ وما يليها .

٥١ – إنثينا، موجز تاريخ تشيلي .

٥٢ – إرثيا، ملحمة "لاأروكانا"، المجلد الثاني، صفحة ٣٧٩ .

٥٣ – بيدرو دى بالديبيا، رسائل حول اكتشاف تشيلي وفتحها، طُبع بإشراف خوسيه توريبيو ميدينا، سانتياغو دى تشيلى ١٩٥٣ ، الصفحة ٤٢ (رسالة إلى كارلوس الخامس فى ١٥ سبتمبر ١٥٤٥).

٥٤ – هيرنان كورتيس، أنظمة الحكم السليم التى أصدرها هيرنان كورتيس لقاطنى إسبانيا الجديدة فى العام ١٥٢٤ ، مدريد ١٩٦٠ ، الصفحتان ٩ – ١٠ .

٥٥ – فرانثيسكو لوبيث دى غومارا، التاريخ العام لبلاد الهند، مجلدان، برشلونة ١٩٥٤، المجلد الأول، الصفحة ٥٤ (الفصل ٣٣) .

٥٦ – فيرنانديث دى أوفييدو، مصدر سابق، الكتاب ١٦ ، الفصل الحادى عشر .

٥٧ – المصدر السابق ، الكتاب ٤٢ ، الفصل الحادى عشر .

٥٨ – كورتيس، مصدر سابق، الصفحة ١٦ .

٥٩ – كورتيس، رسائل ووثائق، مكسيكو ١٩٦٣، الصفحتان ٤٤٣ – ٤٤٤ . (رسالة إلى كارلوس الخامس في ١٥ أكتوبر ١٥٢٤) .

٦٠ – فيليبى هوامان بوما دى آيالا، الوقائع الجديدة الأولى وسلامة الحكم، بإشراف آرثر بوسنانسكى، لاباز ١٩٤٤ ، الصفحة ٣٩٥ .

٦١ – فرانثيسكو آ. انثينا، موجز تاريخ تشيلى، سنتياغو دى تشيلى ١٩٦١، الصفحة (٧) .

٦٢ – المصدر السابق، الصفحة ١٧٩ .

٦٣ – سيرخيو باغو، البنية الاجتماعية للمستعمرة، بوينس آيرس ١٩٥٢ ، الصفحة ١٣٤ .

٦٤ – كورتيس، أنظمة، الصفحة ٥٦ .

٦٥ – كورتيس، رسائل ووثائق، الصفحة ٤٣١ .

٦٦ – فيرنانديث دى أوفييدو، مصدر سابق، الكتاب ٣٣، الفصل الرابع والخمسين .

٦٧ – المصدر السابق، الكتاب ٢٩ ، الفصل الرابع والثلاثون .

٦٨ – آنخل روسينبلات، السكان الوطنيون والخلاسية فى اميركا، بوينس آيرس، ١٩٥٤ .

٦٩ – ميجيل أوتون دى مينديثابال، الأعمال الكاملة، ٦ مجلدات، مكسيكو ١٩٤٦ ، المجلد الثالث، الصفحة ٣٣٣ .

٧٠ – كورتيس، مصدر سابق، الصفحة ٤٣١ .

٧١ – المصدر السابق، الصفحة ٤٩٢ .

٧٢ – خوان خينس دى سيبولبيدا، أطروحة حول الأسباب العادلة للحرب ضد الهنود، النص اللاتينى مع ترجمة إلى الإسبانية وضعها مارثيلو مينيندث أى بيلايو، مكسيكو – بوينس آيرس ، ١٩٤٠ الصفحة ٤٩ .

٧٣ – المصدر السابق، الصفحة ٤٩ .

٧٤ – باتولومى دى لاس كاساس، رسائل، فى مجلدين، مكسيكو– بوينس آيرس، ١٩٦٥، الصفحة ٣٢٧ .

٧٥ – المصدر السابق، الصفحة ٢٢١ .

٧٦ – المصدر السابق، الصفحات ٢٢٧ – ٢٨٦ .

٧٧ – المصدر السابق، الصفحة ٨٠٧ .

٧٨ – فيرناند براودل، عالم البحر المتوسط فى عصر فيليب الثانى، باريس، ١٩٤٩ / الصفحة ٤٠٠٠ .

٧٩ – فيرنانديث دى أوفييدو، موجز التاريخ الطبيعى لبلاد الهند، طُبع بإشراف خوسيه ميراندا، مكسيكو – بوينس آيرس، ١٩٥٠ الصفحة ١٢٥ .

٨٠ – مارثيلينو مينيندث أى بيلانو، ملاحظة تمهيدية لطبعة كتاب سيبولبيدا الصادرة عام ١٨٩٢ ، وأعيدت طباعتها عام ١٩٤١ .

٨١ – إدموندو أوغورمان، مدخل إلى لاس كاساس، تاريخ دفاعي موجز، مكسيكو، ١٩٦٧ ، الصفحة ٧٨ .

٨٢ – لاس كاساس، رسائل، الصفحة ٨٦٩ .

٨٣ – المصدر السابق، الصفحات ٨٦٧ – ٨٧١ .

٨٤ – المصدر السابق، الصفحة ١٠٥٧ .

٨٥ – المصدر السابق، الصفحات ٤٥٢ – ٤٦٧ ، والصفحة ٣٨١ .

٨٦ – لاس كاساس، تاريخ بلاد الهند، المجلد الأول، الصفحة ٤٠٠ .

٨٧ – بريسكوت، فتح المكسيك والبيرو، الصفحة ٢٠٧ .

٨٨ – لاس كاساس، المصدر السابق، المجلد الثالث، الصفحة ٢٧٥ .

٨٩ – كولبير، هنود أمريكا، الصفحة ١٢٠ .

٩٠ – من أجل التعرف بصورة أفضل على الأب لاس كاساس يمكن مراجعة كتاب المؤرخ الأمريكى لويس هانك. فقد كرس له هذا العلامة كل حياته.

٩١ – إحدى أكثر الاتهامات تواتراً توجه إلى قبول لاس كاساس باستعباد الزنوج. فإذا كان قد اعتقد فعلاً فى أحد الأوقات بأنه يمكن للوفيات بين الهنود أن تتقلص بمجيء الخدم الزنوج، الذين كانوا يعيشون منذ جيل بين الإسبان، إلا أنه سرعان ما اعترف بخطئه، واعتبر نفسه مذنباً بسبب ذلك."وبعد وقت قصير ندم الكاهن على هذا الذى قاله، وحكم على نفسه بأنه مذنب بالتغافل، بعد أن رأى وتحقق، كما يبدو، من أن سبى الزنوج هو مثل سبى الهنود..." (لاس كاساس، تاريخ بلاد الهند، المجلد الثالث، الصفحة ٢٧٥).

٩٢ – أوغوران، مقدمة لكتاب فيرنانديث دى أوفييدو، أحداث وأحاديث من إسبانيا الجديدة.

٩٣ – أوغومان، فى تقديم كتاب لاس كاساس تاريخ دفاعي موجز، الصفحة ٦٥ .

٩٤ – أوغومان، فى تقديم كتاب أوفييدو،المصدر السابق، الصفحة ٢٦ .

٩٥ – أوغومان، فى تقديم كتاب لاس كاساس تاريخ دفاعي موجز، الصفحة ٦٢ .

٩٦ – المصدر السابق، الصفحات ٧٦ – ٧٩ .

٩٧ – المصدر السابق، الصفحة ٦٣ .

٩٨ – مينيندث بيدال، الأب لاس كاساس، ازدواجية شخصيته، الصفحة ٢٤١ .

٩٩ – سيبولبيدا، مصدر سابق، الصفحة ١٧١ .

١٠٠– الإيكونوميست، لندن، ١٥ مايو ١٩٦٨ .

الفصل الثانى :

١ - لوبيث دى غومارا، مصدر سابق، المجلد الأول، الصفحة ٣٧ .

٢ - كولومبس، اليوميات، الكراس ١١ .

٣ - فيسبوتشي، مصدر سابق، الصفحات ١١٥ - ١١٧ .

٤ - كولومبس، مصدر سابق، الكرس ١١ .

٥ - فيسبوتشي، مصدر سابق، الصفحات ١٠٩ - ١١١ .

٦ - فيرنانديث دى أوفييدو، التاريخ، الكتاب ٢٦ ، الفصل الثالث .

٧ - فيسبوتشي، مصدر سابق، الصفحة ١٤٩ .

٨ - لاس كاساس، تاريخ دفاعي موجز، الفصل الرابع والثلاثون .

٩ - فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٦ ، الفصل العاشر .

١٠- المصدر السابق، الكتاب ٢٥ ، الفصل الثاني والعشرون .

١١ - أنغليريا، عقود العالم الجديد، الصفحات ١٥٤ ، ٢١٥ .

١٢ - لاس كاساس، المصدر السابق، الفصل الخامس والستون .

١٣ - فيرناديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ١٣ ، الفصل التاسع .

١٤ - اكوستا، التاريخ الطبيعي والأخلاقى لبلاد الهند، الصفحة ١٨٠ .

١٥ - فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٨ ، الفصل الثلاثون .

١٦ - المصدر السابق، الكتاب ٦ ، الفصل السادس .

١٧ - لاس كاساس، المصدر السابق، الفصل الخامس والستون .

١٨ - أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٣٦٥ .

١٩ - لاس كاساس، تاريخ بلاد الهند، المجلد الثالث، الصفحة ١٣٦ .

٢٠ - فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ١٩ ، الفصل الأول .

٢١ - أنغليريا، المصدر السابق، الصفحات ٢٩٩ - ٣٠٠ .

٢٢ - فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ١٩ ، الفصل التاسع .

٢٣ - لاس كاساس، القصة الموجزة لتدمير بلاد الهند، الصفحة ٧٧ .

٢٤ - لاهوتى أثرت أطروحاته فى لاس كاساس (١٤٨٣ - ١٥٤٦). فى ليفلير، دراسة حول أميريكو فيسبوتشي ؛ وفى فيسبوتشي ، العالم الجديد .

٢٥ - سيبولبيدا، المصدر السابق، الصفحة ١١٧ و ١٣٣ .

٢٦ - المصدر السابق، الصفحة ١٢٩ و ١٢١ .

٢٧ - لاندا، قصة أحداث يوكاتان، الصفحة ١٣١ .

٢٨ - فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٥ ، الفصل الثانى . والكتاب ٤٢ ، الفصل الحادى عشر.

٢٩ – المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الحادى عشر .

٣٠ – رامون بانيه، فى كتاب نيكولا دولوير، دراسات فى الثقافات ما قبل الكولومبية، الصفحة ٥٣ .

٣١ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٥١ .

٣٢ – المصدر السابق .

٣٣ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٥ ، الفصل الثالث والفصل الأول .

٣٤ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ١٩١ .

٣٥ – لاس كاساس، تاريخ دفاعى موجز، الصفحة ٦٥٢ و ٦٥٦ .

٣٦ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٤٤ .

٣٧ – لاس كاساس، المصدر السابق، الصفحة ٦٥٧ .

٣٨ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٣٩ .

٣٩ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٧ ، الفصل الثامن والعشرون .

٤٠ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٦٤٦ .

٤١ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الثانى .

٤٢ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٤١ .

٤٣ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٧ ، الفصل الثامن، والكتاب ٤٥ ، الفصل الثالث .

٤٤ – نيكولا دولوير، المصدر السابق، الصفحة ٥٤ .

٤٥ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٥ ، الفصل التاسع .

٤٦ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٥٠ .

٤٧ – المصدر السابق، الصفحة ١٤٥ – ١٤٦ .

٤٨ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٧٠٥ .

٤٩ – فيرناديث دى أوفييدو، المصدر السابق .

٥٠ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٢٤ .

٥١ – لاس كاساس، المصدر السابق، الفصل ٢٦٥ .

٥٢ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٦٤٦ .

٥٣ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق .

٥٤ – فيرناديثدى أوفييدو، المصدر السابق، الصفحة ١٢٢ .

٥٦ – لاس كاساس، تاريخ بلاد الهند، المجلّد الثانى، الصفحة ١٦٥ .

٥٧ – لاس كاساس، تاريخ دفاعى موجز، الفصل ١٢٠ ، والفصل ١٢١ .

٥٨ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ١٩٥ .

٥٩ – فيرناديث دى أوفييدو المصدر السابق، الكتاب ٢٦ ، الفصل ٣١ ، والكتاب ٤٢ ، الفصل الثالث، والفصل الثانى .

٦٠ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ٢٠٩ .

٦١ – فيرنانديث ديأوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الرابع .

٦٢ – لاس كاساس، المصدر السابق، الفصل ١٦٧ .

٦٣ – فيرناديث دى أوفييرو، المصدر السابق، الكتاب ٢٥ ، الفصل ٢٢ ، والكتاب ٢٦، والفصل ٢٨ ، والكتاب ٤٠ ، والفصل ١١ .

٦٤ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٢٢ .

٦٥ – فيرناديث دى أوفييرو، المصدر السابق، الكتاب ٢٦ ، الفصل ٢٨ .

٦٦– المصدر السابق، الكتاب ٢٦ ، الفصل الثامن والعشرون .

٦٧ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٢٢ .

٦٨ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٦ ، الفصل الثامن والعشرون .

٦٩ – المصدر السابق، الكتاب ٦ ، الفصل الثانى .

٧٠ – نفس المصدر.

٧١ – لوغون، جمهورية غوارتى الشيوعية المسيحية، (١٦١٠ – ١٧٦٨).

٧٢ – كارفاخال، قصة الاكتشاف الجديد للنهر الكبير الشهير فى الأمازون، الصفحات ٨٧ و ٩١ و ١٠٠ و ١١٨ .

٧٣ – لاس كاساس، المصدر السابق، الفصل الخامس والخمسون .

٧٤ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٤ ، الفصل الخامس .

٧٥ – المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الثامن .

٧٦ – المصدر نفسه .

٧٧ – المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الثامن .

٧٨ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٢٥ .

٧٩ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحات ٥٧٢ و ٤٠٣ و ٤٢١ .

٨٠ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٢٥ .

٨١ – لاس كاساس، تاريخ بلاد الهند، المجلد الأول، الصفحة ٣٤٥ .

٨٢ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٧ ، الفصل الثامن؛ والكتاب ٢٦ ، الفصل العاشر، والكتاب ٢٥ ، الفصل الثانى والعشرون .

٨٣ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحتان ١٣٨ و ١٥٢ .

٨٤ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٥ ، الفصل الثالث، والكتاب ٢٩، الفصل السادس والعشرون .

٨٥ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٣٣ .

٨٦ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٩، الفصل الثامن والعشرون ، الكتاب ٤٢، الفصل الثانى عشر.

٨٧ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٣٤ .

٨٨ – ثيثا دى ليون، وقائع البيرو، الصفحة ١٧٨ .

٨٩ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الأول .

٩٠ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٥٢ .

٩١ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٣٢ .

٩٢ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٥ ، الفصل الثالث .

٩٣ – لاندا، المصدر السابق ، الصفحة ١٣٢ .

٩٤ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الرابع .

٩٥ – لاندا، المصدر السابق، الصفحتان ٣٦٥ ، ١٣٣ .

٩٦ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٤ ، الفصل الثانى عشر .

٩٧ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٢٥ .

٩٨ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢، الفصل الأول، والكتاب ٤٥ ، الفصل الثالث، والكتاب ٢٥ ، الفصل الثانى .

٩٩ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٣٤٥ .

١٠٠ – لاس كاساس، تاريخ دفاعى موجز، الفصل ١٣٩ ، والفصل ٨٥ .

١٠١ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢، الفصل الأول، والكتاب ٢٩ ، الفصل الثامن والعشرون .

١٠٢ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٩٩ .

١٠٣ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٦٨٧ – ٦٨٨ .

١٠٤ – فيرنانديث دى أفييدو، موجز التاريخ الطبيعى لبلاد الهند، الصفحة ٩١ .

١٠٥ – فيرنانديث دى أوفييدو، التاريخ العام والطبيعى لبلاد الهند، الكتاب ٥ ، الفصل الثالث، والكتاب ٢٩ ، الفصل السابع والعشرون .

١٠٦ – المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الثالث .

١٠٧ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١١٥ .

١٠٨ – ريد فيلد، يوكاتان، الصفحة ٢٥٧ .

١٠٩ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٦٥٠ .

١١٠ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ٢٠٨ .

١١١ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الثالث .

١١٢ – المصدر نفسه .

١١٣ – مورالى، حضارة المايا، الصفحة ٤٨ .

١١٤ – فيرنانديث دى أفييدو، المصدر السابق، الكتاب ١٧ ، الفصل الرابع، والكتاب ٢٤ ، الفصل الثالث .

١١٥ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٣٩ .

١١٦ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الثانى عشر .

١١٧ – المصدر نفسه .

١١٨ – المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الثاني عشر، والكتاب ٢٤ ، الفصل الثالث .

١١٩ – فيرنانديث دى أوفييدو، موجز،الصفحة ١٢١ – ١٢٢ .

١٢٠ – فيرنانديث دى أوفييدو، التاريخ العام، الكتاب ٥٠ ، الفصل الحادى والأربعون .

١٢١ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٣١٣، وأنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٣٦٣ .

١٢٢ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٩ ، الفصل السادس والعشرون .

١٢٣ – لاندا، المصدر السابق، الصفحات ١٣٥ – ١٣٧ .

١٢٤ – لاس كاساس، تاريخ بلاد الهند، المجلد الثاني، الصفحة ١٠٨ .

١٢٥ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الأول .

١٢٦ – مورلى، المصدر السابق، الصفحة ١٩٤ .

١٢٧ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الأول .

١٢٨ – مورلى، المصدر السابق، الصفحات ١٩٥ – ١٩٨ .

١٢٩ – ريدفيلد، المصدر السابق، الصفحتان ٢٩٥ – ٢٩٦ .

١٣٠ – آ. فييًا روخاس، فى كتاب ريدفيلد السابق، الفصل العاشر .

١٣١ – ريدفيلد، المصدر السابق، الصفحتان ٢٩٥ – ٢٩٦ .

١٣٢ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٦ ، الفصل الثانى والعشرون .

١٣٣ – لاس كاساس، المصدر السابق، المجلد الثاني، الصفحة ٥٠٧ .

١٣٤ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، التاب ٤٢ ، الفصل الثالث.

١٣٥ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٣٠ .

١٣٦ – ريدفيلد، المصدر السابق، الصفحة ٢٣٣ .

١٣٧ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٦ ، الفصل الثامن والعشرون .

١٣٨ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٣٩ .

١٣٩ – أنغليريًا، المصدر السابق، الصفحة ١٤١ .

١٤٠ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٩ ، الفصل الثامن والعشرون، والكتاب ٢٥، الفصل الثانى.

١٤١ – ثييثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحة ١٧٩١ .

١٤٢– فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٣ ، الفصل الأول .

١٤٣ – مورلى، المصدر السابق، الصفحة ١٩٤ .

١٤٤ – ريدفيلد، المصدر السابق، الصفحة ٢٢٤ .

١٤٥ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٠٩ .

١٤٦ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الأول .

١٤٧ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٠٩ .
١٤٨ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الأول .
١٤٩ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحتان ٤٢٥ – ٤٢٦ .
١٥٠ – لاس كاساس، تاريخ دفاعى، الفصل السادس والستون .
١٥١ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٢٩ .
١٥٢ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٥ ، الفصل الثانى عشر .
١٥٣ – فيرنانديث دى أوفييدو، الموجز، الصفحة ١١٣ .
١٥٤ – فيرنانديث دى أفييدو، التاريخ، الكتاب ٢٤ ، الفصل العاشر .
١٥٥ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٧٠٢ .
١٥٦ – فيرنانديث دى أفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢ ، الفصل الثالث .
١٥٧ – لاس كاساسن المصدر السابق، الفصل السادس والستون .
١٥٨ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٩ ، الفصل السادس والعشرون .
١٥٩ – ثييثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحة ٢١٣ .
١٦٠ – لاس كاساس، المصدر السابق، الفصل السادس والستون .
١٦١ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٢٨ .
١٦٢ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٤٣٤ .
١٦٣ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٦، الفصل الثلاثون، والكتاب ٢٩ ، الفصل السادس والعشرون.
١٦٤ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، الصفحة ١٢٣ .
١٦٥ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٧ ، الفصل السادس، والكتاب ٢٦ ، الفصل الثلاثون والفصل الحادى والثلاثون .
١٦٦ – المصدر نفسه، الكتاب ٢٩ ، الفصل السادس والعشرون .
١٦٧ – لاس كاساس، المصدر السابق، الفصل الرابع والخمسون .
١٦٨ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٩ ، الفصل الحادى والثلاثون .
١٦٩ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٣٠ .
١٧٠ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٤ ، الفصل الثانى .
١٧١ – لاندا، المصدر السابق، الصفحة ١٣٩ .
١٧٢ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٢٧ ، الفصل الثامن والفصل السابع والعشرون، والكتاب ٢٦ ، الفصل الحادى والثلاثون .
١٧٣ – ثييثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحات ٢٠٠ و ٢١٠ و ٣٠٨ .
١٧٤ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٢١٤ .
١٧٥ – ثييثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحات ٢٣٠ و ١٥٢ و ٢١١ .

١٧٦ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٢١٤ .
١٧٧ – ثييثا دى ليون، مراتب السيادة عند الإنكا، الصفحتان ٢٢٦ و ٢٢٨ .
١٧٨ – غاريتلاسو دى بيغا، الشروح الملكية، المجلد الأول، الصفحة ٥٢ .
١٧٩ – ثييثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحة ٣٢ .
١٨٠ – لوبيث دى غومورا، المصدر السابق، المجلد الثانى، الصفحة ٣٩٧ .
١٨١ – أنغليريا، المصدر السابق، الصفحة ٤٠٨ .
١٨٢ – ثييثا دى ليون، أحداث البيرو، الصفحات ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٣٥٧ ، ٢١٥ .
١٨٣ – لوبيث دى غومارا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٢١٤ .
١٨٤ – ميغيل دى إستيتى، يستشهد به فيرنانديث دى أوفييدو، فى المصدر السابق .
١٨٥ – كوفارو بياس، فنون السكان الأصليين فى المكسيك و أميركا الوسطى، الصفحات ٢٨٣ ، ٢٧٥ ، ٢٤٦ .
١٨٦ – المصدر نفسه، الصفحة ٢٣٩ ، ١٥٠ .
١٨٧ – ثييثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحة ٢٧٢ .
١٨٨ – سيجورنيه ، نجاة عالم سحرى .
١٨٩ – سيجورنيه، (الرمزية فى الطقوس الجنائزية فى مونتى ألبان) فى المجلة المكسيكية للدراسات الأنثروبولوجية، العدد السادس عشر، ١٩٦٠ .
١٩٠ – مورلى، المصدر السابق، الصفحة ٤٦ ، و الصفحتان ٤٣ – ٤٤ .
١٩١ – كولبير، المصدر السابق، الصفحة ٩٧ .
١٩٢ – باغو، المصدر السابق، الصفحة ١٩٢ ، ١٨٢ .
١٩٣ – مورلى، المصدر السابق، الصفحة ، ٤٥ .
١٩٤ – فيرنانديث دى أوفييدو، المصدر السابق، الكتاب ٤٢، الفصل الثالث .
١٩٥ – ثييثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحة ٣٩٠ .
١٩٦ – لاندا، المصدر السابق، الصفحتان ١١١ – ١١٢ .
١٩٧ – لوغون، المصدر السابق، الصفحات ٢٤ – ٢٩ .
١٩٨ – باغو، المصدر السابق، الصفحات ٢٤ – ٢٩ .

الفصل الثالث :

١ – ثييثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحة ٢٦٢ .
٢ – الأنكا غارثيلاسو دى لا بيغا، المصدر السابق، الصفحات ٥٦ ، ٣٧ ، ٣٢ ، ٣٥ .
٣ – دوران، تاريخ بلاد الهند فى إسبانيا الجديدة وجزر الأرض اليابسة، المجلد الأول، الصفحة ١٧ .
٤ – المصدر نفسه، الصفحات ٣٤ – ٣٦ .
٥ – المصدر نفسه، الصفحتان ٢١٩ – ٢٢٠ .

٦ – توركيمادا، النظام الملكى لدى الهنود، المجلد الأول، الصفحة ٧٥ .

٧ – إكستليكسوتشيتل، أعمال تاريخية، الصفحة ٣٨ – ٣٩ .

٨ – تشيمالباين، قصص أصلية من تشالكو أماكيميكان، الصفحة ٧٥ .

٩ – كلمة تيو teo بلغة الناهواتيل تعنى "إله، مقدس" .

١٠ – موتولينيا، تاريخ هنود إسبانيا الجديدة، الصفحتان ١٩٠ و ٢٥٧ .

١١ – تشيمالبان، المصدر السابق، الصفحات ١٨ – ٢٠ و ٢٥ – ٢٦ .

١٢ – سيجورنيه، آثار وادى المكسيك : ١– كولهواكان .

١٣ – ساهاغون، التاريخ العام لأشياء إسبانيا الجديدة، المجلد الثانى، الصفحة ٣١٣ .

١٤ – توركيمادا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٧٩ .

١٥ – سيجورنيه، المصدر السابق .

١٦ – إكستليكسوتشيتل، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحتان ٦٧ و ٥٨ .

١٧ – توركيمادا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٧٣ .

١٨ – حوليات كواوهتيتلان، الصفحتان ٨ و ١٧ .

١٩ – كلافيخيرو، تاريخ المكسيك القديم، الصفحة ٩٥ .

٢٠ – أوروثكو أى بيرا، التاريخ القديم للمكسيك، المجلد الثانى، الصفحتان ١٣ و ٢٩٨ .

٢١ – تشافيرو، المكسيك عبر القرون، الصفحات ٢٥٥ و ٢٥٧ – ٢٥٨ .

٢٢– تشارنى، المدن القديمة فى العالم الجديد، الصفحات ٧ – ٨ و ٦٢ .

٢٣ – بينيافييل، تيوتيهواكان، دراسة تاريخية وأركيولوجية، الصفحة ٣٨ .

٢٤ – غامبو، سكان وادى تيوتيهواكان .

٢٥ – ليهمان، فى كتاب "المكسيك القديمة"، المجلد الرابع، الصفحة ١٩٤ .

٢٦ – مينديثابال، المصدر السابق، المجلد الثانى، الصفحتان ١٠٩ – ١١٠ .

٢٧ – أسطورة الشموس، الصفحة ١٢٠ .

٢٨ – المصدر نفسه، الصفحة ١٢١ .

٢٩ – ساهاغون، المصدر نفسه، المجلد الثانى، الصفحة ١٦ .

٣٠ – أسطورة الشموس، الصفحة ١٢٢ .

٣١ – حوليات كواوهتيتلان، الصفحة ٨ .

٣٢ – المصدر نفسه، الصفحة ٩ .

٣٣ – ساهاغون، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ٢٩٨ .

٣٤ – حوليات كواوهتيتلان، الصفحة ١٠ .

٣٥ – ساهاغون، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحات ٢٨٦ – ٢٨٨ .

٣٦ – حوليات كواوهتيتلان، الصفحة ١١ .

٣٧ – دورام، المصدر السابق، المجلد الثانى، الصفحة ١٨٧ .

٣٨ – تيزوزوموك، تاريخ ميكسيكايوتل، الصفحة ٣٥ .

٣٩ – تيبو، ميرا – كوتشا .

٤٠ – ستيرلينغ، النصب الأثرية الحجرية في نهر تشيكيتو، في فيراكروث .

٤١ – دروكر، عمليات التنقيب في لافينتا .

الفصل الرابع :

١ – مونتيسكيو، روح القوانين، الكتاب الرابع، الفصل السادس .

٢ – بوراس بارينيتشيا، المصادر التاريخية البيروية، الصفحة ١٦٠ .

٣ – باغو، المصدر السابق، الصفحة ٣٢ .

٤ – ميترو، الإنكا، الصفحة ٨٥ .

٥ – بوراس بارينيتشيا، المصدر السابق، الصفحة ١٤٥ .

٦ – ثيثا دى ليون، المصدر السابق، الصفحة ٤٥٤ .

٧ – الإنكا غارثيلاسو دى لابيغا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٨١ .

٨ – كوبو، تاريخ العالم الجديد، المجلد الثالث، الصفحتان ٢٠٠ و ١٣٠ .

٩ – الإنكا غارثيلاسو دى لابيغا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٨٣ .

١٠ – كوبو، المصدر السابق، الصفحات ١٣٠ و ٢٥٩ و ١١٢ .

١١ – الإنكا غارثيلاسو دى لابيغا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة ١٨٣ .

١٢ – كوبو، المصدر السابق، المجلد الثالث، الصفحة ٢٠٠ و ١٣٠ .

١٣ – مونتيسينوس، ذكريات البيرو التاريخية والسياسية القديمة، الصفحة ٦٩ .

١٤ – بيتانثوس، الجمع والقص عند المايا، الصفحة ١٠ .

١٥ – ترجمة كلمة كوسكو، غارثيلاسو دى لابيغا، المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحتان ٨٩ و ٤٥ .

١٦ – المرجع نفسه، المجلد الأول، الصفحة ٥٤ .

١٧ – يبدو أنه ليس هناك أي لغة من لغات السكان الأصليين احتفظت بحيويتها مثل لغة الأيمارا. فالحديث يدور بها حتى في مكاتب الفنادق الكبرى في العاصمة البوليفية، وتشكل في أحيان كثيرة وسيلة التواصل الوحيدة مع عامة الشعب : فأنا شخصيًا لم استطع التفاهم مع حارسة آثار تيهواناكو إلى أن تكشف السائق الذى نقلني من العاصمة لاباث إلى هناك، عن مترجم باهر. مع العلم بأن هناك بلدانًا أخرى، ذات حضور سكاني وطني قوي، يجهل المواطن فيها اللغات الأصلية تمامًا.

١٨ – بوراس بارينتشيا، المصدر السابق، الصفحة ٧٧ .

١٩ – بينيت، أعمال التنقيب في تياهواناكو، الصفحة ٦٣ .

٢٠ – تيبو، تشافين، الصفحة ٣٤٦ .

٢١ – لومبريراس، الفضاء والثقافة فى الأنديز.

٢٢ – تيبو، باراكاس، الصفحة ٣ .

٢٣ – إنخيل، جغرافية ما قبل التاريخ البشرية والزراعة ما قبل الكولومبية .

٢٤ – تيبو، المصدر السابق، الصفحة ٥٦ .

٢٥ – المصدر نفسه، الصفحة ٥٥ .

٢٦ – بينيت، وارى، الصفحة ١١٤ .

٧٢ – الرسم السلبى والمقبض الذى على شكل جسر هما من خصائص الخزف الشمالى فى فيكوس. وانطلاقًا من استنتاجات مشوقة تعليمية، حدد رافائيل لاركو هويلى زمن هذا الأسلوب بأفق تشافين- باراكاس. ونظراً لأن هذه المواد ليست حصيلة عمليات تنقيب منهجية، فإن الاركيولوجيين الآخرين لا يتمسكون بهذا التسلسل التاريخى ويعتبرون الرسم السلبى من منشأ جنوبي، مثلما هو تعدد الألوان. (التطور الثقافى فى أميركا اللاتينية، الصفحة ٩٥) .

٢٨ – تيبو، تشافين، الصفحة ٤٠ .

٢٩ – تيبو، ويرا – كوتشا، الصفحة ١١٠ .

٣٠ – يستند هذا القسم من الكتاب إلى عشرين سنة من العمل التنقيبى العملى، سواء فى مواقع التنقيب أو فى المختبر. وقد نُشرت كل نتائج هذا العمل مع توصيف دقيق للمواد المستخرجة من الحفريات. وبدلاً من تكرار الأوصاف والاحصاءات التى يمكن للقارئ الرجوع إليها فى كتبنا ومقالاتنا المتخصصة، رأينا أن نقدم هنا ملخصًا عنها : ونأمل أن نكون قادرين على تركيب العناصر المادية التى كانت هدفًا لدراستنا فى كل عضوى متكامل .

٣١ – ألفونسو كاسو، مخطوط بودلي المصور .

٣٢ – تومبسون، عظمة المايا وانحدارهم .

٣٣ – المصدر نفسه، الصفحة ٧٩ .

٣٤ – سيلر، تعليقات على مخطوط بورجيا، المجلد الأول، الصفحة ٦٥ .

٣٥ – تومبسون، المصدر السابق، الصفحة ١٧٣ .

٣٦ – أسطورة الشمس، الصفحة ١٢٢ .

٣٧ – سيجورنيه، قصر فى مدينة الآلهة.

٣٨ – ليون بورتيا، الفلسفة الناهواتلية، الصفحة ٣٢٨ .

٣٩ – ميندييتا، التاريخ الدينى الهندى، المجلد الأول، الصفحة ٩٥ .

٤٠ – ليون بورتيا، المصدر السابق، الصفحة ١٦٧ .

٤١ – سيجورنيه، لغة الأشكال فى تيوتيهواكان .

٤٢ – ليون بورتيا، المصدر السابق، الصفحة ٣٤١ .

٤٣ – ساهاغون، المصدر السابق، الصفحات ٤٦٢ ، ٢٨٧ ، ٤٩٣ .

٤٤ – ليون بورتيا، المصدر السابق، الصفحة ٣٤١ .

Dr. Lee Parsons: «This was found together with Majadas pottery and with – ٥٤
charcoal that has a Carbon-14 date of about 1000 b.c.».
Dr. Coe: «The cache itself looks a lot like Olmec jade from Guerrero. But I refuse to accept the radiocarbon date of 1000 for Majadas pottery».
Dr. Parsons: «I agree...».
T. Proskouriakoff: «May I ask why?...».
Dr. Coe: «... there is nothing else like in this area; the whole phase is based on the cache. As for Las Charcas... I can't see it as dating much back beyond 500 b.c.» *Dumbarton Oaks Coference on the Olmec*, P. 131.

٤٦ – يمكن لمنطقة منشأ الثقافة الناهواتيلية هذه أن تكون تلك التى جرى اكتشافها مؤخرًا على مسافة خمسمئة متر من كويكويلكو، حيث تقوم الآن القرية الأولمبية المكسيكية. ويضم الموقع ثلاثة أبنية من الطراز الناهواتيلي، تشترك بخزفها القديم، وبالهيكل الدائرى لأبنية كويكويلكو. هذا المركز الدينى الفسيح مغطى بنحو عشرة أمتار من الحمم البركانية الناتجة عن فوران بركان شيتلي.

٤٧ – غاثيلاسكو دى لابيغا، الشروحات الملكية، المجلد الأول، الصفحة ٧٣ .

٤٨ – فرانثيسكو دى خيريث، فتح البيرو وإقليم كوسكو، الصفحة ٥٢ .

٤٩ – "ولا تقل أهمية أى من هذه الغرائز عن الأخرى، فمن عملها المتوافق والمتناقض على السواء تنشأ ظواهر الحياة. (إيروس [الشبق] والغرائز العدوانية أو التدميرية.) ويبدو أنه لا يكاد يكون ممكناً لنوع واحد من الغرائز أن يفعل فعله بصورة منعزلة، وإنما هو يظهر على الدوام مصحوبا – أو "مندمجاً" كما نقول نحن – بمُركَّب ما ناشئ من النوع الآخر، فيعدِّل هدفه أو يكون، فى بعض الحالات، الشرط الضرورى للتوصل إلى ذلك الهدف... والحقيقة أن صعوبة عزل نوعى الغرائز فى تجلياتهما، هى التى حالت دون معرفتنا بوجودهما لوقت طويل... ويندر تمامًا أن يكون فعلٌ ما نتيجة دافع غريزى وحيد، ولا بد لهذا الدافع الغريزى بحد ذاته، من جهة أخرى، أن يكون مركباً من ايروس وتدمير... وأود أن أتوقف لحظة أخرى عند غريزتنا التدميرية، التى لا تتناسب شعبيتها بأى حال مع أهميتها. فقد توصلنا، من خلال بعض التأمل، إلى تصور أن هذه الغريزة تعمل فى كل كائن حي، مسببة لديه الميل إلى تفكيك نفسه، واختزال الحياة إلى حالة المادة الجامدة غير الحية. ولهذا فإنها تستحق، بكل جدية، أن تسمى غريزة الموت. بينما تمثل الغرائز الايروتيكية الميل إلى الحياة. إن غريزة الموت تصبح غريزة تدميرية عندما توجه – بمساعدة أجهزة عضوية خاصة، نحو الخارج، أى نحو الموضوعات. فالكائن الحي يحمي – بطريقة ما – حياته عن طريق تدمير حياة الغير. ولكن جزءًا كبيرًا من غريزة الموت يظل فاعلاً داخل الكائن؛ وقد حاولنا تفسير عدد كبير من الظواهر السوية والمرضية عن طريق هذا الانعطاف الداخلي للغريزة التدميرية. بل إننا ارتكبنا خطيئة نسبة أصل ضميرنا الأخلاقى إلى هذا التوجيه للعدوانية... وواقع أن هذه العملية

تكتسب حجماً كبيراً جداً، هو مبرر لدفعنا إلى القلق؛ وإلى أنها ستكون مضرة مباشرة بالصحة. إذ أن توجيه القوى الغريزية المذكورة نحو التدمير في العالم الخارجي، سيهدئ الكائن الحي، وسيكون مفيداً له بالتأكيد ..." سيغموند فرويد "سبب الحرب"، مقالات حول تطبيق التحليل النفسي، الأعمال الكاملة، المجلد الثامن عشر، الصفحة ٢٥٤ ، بوينس آيرس، منشورات سنتياغو رويدا. (رسالة إلى اينشتاين في سبتمبر ١٩٣٢).

٥٠ - بعد إثبات الانتشار الواسع للكذب بين كتبة الوقائع، فإنه لما يثير القلق أن نفكر بأنه ليس هناك من رأى بأم عينه قط، القرابين البرية في المكسيك. والمصدر الوحيد المقبول في هذا الشأن هي أقوال مخبري ساهاغون، ولكن شهادتهم تكتسب قيمة مختلفة تماماً إذا ما قورنت بواقع إنساني مختلف، مثلما يظهر في المصادر التاريخية .

Bibliografía المراجع

I. DESCUBRIMIENTO Y CONQUISTA (AUTORES DE LOS SIGLOS XVI Y XVII)

Estudios generales

1. CRISTÓBAL COLÓN: *Diario. Libro de la primera navegación y descubrimiento de las Indias,* Madrid, 1962,
2. — *La carta de Colón anunciando el descubrimiento del Nuevo Mundo,* Madrid, 1956.
3. AMÉRICO VESPUCIO: *El Nuevo Mundo,* Buenos Aires, Nova, 1951.
4. BARTOLOMÉ DE LAS CASAS: *Historia de las Indias,* México, Fondo de Cultura Económica, 1951.
5. — *Tratados,* México, Fondo de Cultura Económica, 1965.
6. — *Apologética historia sumaria,* México, UNAM, 1967.
7. GONZALO FERNÁNDEZ DE OVIEDO Y VALDÉS: *Historia general y natural de las Indias,* Madrid, BAE, 1959.
8. — *Sumario de la natural historia de las Indias,* México, Fondo de Cultura Económica, 1950.
9. FRANCISCO LÓPEZ DE GÓMARA: *Historia general de las Indias,* Barcelona, Iberia, 1954.
10. JOSÉ DE ACOSTA: *Historia natural y moral de las Indias,* México, Fondo de Cultura Económica, 1960.
11. JUAN GINÉS DE SEPÚLVEDA: *Tratado sobre las justas causas de la guerra contra los indios,* México, Fondo de Cultura Económica, 1941.

12. PEDRO MÁRTIR DE ANGLERÍA: *Décadas del Nuevo Mundo,* México, José Porrúa e Hijos, 1964.

13. LUIS NICOLAU D'OLWER (comp.): *Cronistas de las culturas precolombinas,* México, Fondo de Cultura Económica, 1963.

14. MARTÍN FERNÁNDEZ DE NAVARRETE: *Colección de los viajes y descubrimientos que hicieron por mar los españikes desde fubes dek sugki XV,* Madrid, 1825-1837.

desdel siglo XV, Madrid, 1825-1837.

15. JUAN LÓPEZ DE PALACIOS RUBIOS: *De las islas del mar océano,* México, Fondo de Cultura Económica, 1954.

México

16. ALVA IXTLILXOCHITL, FERNANDO DE : *Obras históricas,* México, 1891.

17. ALVARADO TEZOZOMOC, FERNANDO: *Crónica Mexicayotl,* México, Imprenta Universitaria, 1949.

18. CÓDICE CHIMALPOPOCA: *Anales de Cuauhtitlan y Leyenda de los soles,* México, Imprenta Universitaria, 1945.

19. CORTÉS, HERNÁN: *Cartas y documentos,* México, Porrúa, 1963.

20. — *Cartas de relación de la conquista de Méjico,* Buenos Aires, Espasa-Calpe, 1945.

21. — *Ordenanzas de buen gobiemo dadas por Hernando Cortés para los vecinos y moradores de la Nueva España, 1524,* Madrid, José Porrúa Turanzas, 1960.

22. CHIMALPAIN CUAUHTLEHUANITZIN, DOMINGO FRANCISCO DE SAN ANTÓN MUÑÓN: *Relaciones originales de Chalco Amaquemecan,* México, Fondo de Cultura Económica, 1965.

23. — *Das Memorial Breve acerca de la fundación de la ciudad de Culhuacan,* Stuttgart, 1958.

24. DÍAZ DEL CASTILLO, BERNAL : *Historia verdadera de la conquista de la Nueva España,* México, Espasa-Calpe, 1950.

25. DURÁN, DIEGO: *Historia de las Indias de Nueva España y Islas de Tierra Firme,* México, Editora Nacional, 1951.

26. *Historia tolteca-chichimeca. Anales de Cuauhtinchan,* México, Antigua Librería Rolbledo, 1947.

27. LANDA, DIEGO ED: *Relación de las cosas de Yucatán,* México, Ed. Pedro Robredo, 1938.

28. MENDIETA, GERÓNIMO DE: *Historia eclesiástica indiana,* México, Ed. Salvador Chávez Hayhoe, 1945.

29. MOTOLINÍA, TORIBIO DE BENAVENTE: *Historia de los indios de la Nueva España, Barcelona,* Herederos de Juan Gili, 1914.

30. MUÑOZ CAMARGO, DIEGO: *Historia de Tlaxcala,* México, 1948.

31. POMAR, JUAN BAUTISTA: " Relación de Tezcoco", en *Relaciones de Texcoco y de la Nueva España,* México, Ed. Salvador Chávez Hayhoe, 1941.

32. SAHAGÚN, BERNARDINO DE: *Historia general de las cosas de la Nueva España,* México, Editorial Nueva España, 1946.

33. *Florentine Codex. General History of the Things of New Spain,* Salt Lake City, School of American Research and the University of Utah, 1950-1963.

34. SOLÍS, ANTONIO DE: *Historia de la conquista de México,* México, Porrúa, 1968.

35. TORQUEMADA, JUAN DE: *Monarqula indiana,* México, Ed. Salvador Chávez Hayhoe, 1943.

36. ZURITA, ALONSO: "Breve relación de los señores de la Nueva España", en *Relaciones de Texcoco y de la Nueva España,* México, Ed. Salvador Chávez Hayhoe, 1941.

Perú

37. BETANZOS, JUAN DE: *Suma y narración de los Incas,* Madrid, Imprenta de Manuel G. Hernández, 1880.
38. CIEZA DE LEÓM, PEDRO: *La crónica del Perú,* México, Editorial Nueva España, 1932.
39. — *Segunda parte de la crónica del Perú que trata del señorío de los Incas,* Madrid, Imprenta de Manuel G. Hernández, 1880.
40. COBO, BERNABÉ: *Historia del Nuevo Mundo,* Cuzco, 1956.
41. GARCILASO DE LA VEGA, INCA: *Historia general del Perú,* Buenos Aires, Emecé, 1944.
42. — *Comentarios reales de los Incas,* Buenos Aires, Emecé, 1944.
43. JEREZ, FRANCISCO DE: *Conquista del Perú y provincia del Cuzco,* México, Editorial Nueva España, s. f.
44. MONTESINO, FERNANDO: "Memorias antiguas historiales y políticas del Perú", en *Revista del Museo e Instituto Arqueológico* (Universidad Nacional del Cuzco), vol. 10-1957, núm. 16-17.
45. POMA DE AYALA, FELIPE GUAMÁN: *Primer nueva corónica y buen gobierno,* La Paz, Instituto Tiahuanaco, 1944.
46. VALERA, BLAS: *Costumbres antiguas del Perú,* México, SEP. 1956.
47. ZÁRATE, AGUSTÍN DE: *Historia del descubrimiento y conquista del Perú,* México, Editorial Nueva España, s. f.

Otros países

48. ACUÑA, CRISTÓBAL DE: *Nuevo descubrimiento del gran rio de las Amazonas,* s. l., s. f.
49. CARVAJAL, GASPAR DE: *Relación del nuevo descubrimiento del famoso río Grande de las Amazonas,* México, Fondo de Cultura Económica, 1955.

50. ERCILIA, ALONSO DE: *La Araucana,* México, UNAM, 1962.

51. SCHMIDEL, ULRICO: *Crónica del viaje a las regiones del Plata, Paraguay y Brasil,* Buenos Aires, Peuser, 1948.

52. VALDIVIA, PEDRO DE: *Cartas de Pedro de Valdivia que tratan del descubrimiento y conquista de Chile,* Santiago de Chile, 1953.

II. HISTORIA Y ANTROPOLOGIA

Estudios generales

53. BAGÚ SERGIO: *Estructura social de la Colonia. Ensayo de historia comparada de América Latina,* Buenos Aires, El Ateneo, 1952.

54. — *Economía de la sociedad coonial,* Buenos Aires, 1949.

55. BATAILLON, MARCEL: *Erasmo y España,* México, Fondo de Cultura Económica, 1950.

56. — *Études sur Bartolomé de las Casas,* Paris, 1965.

57. BRAUDEL, FERNAND: *El mundo mediterráneo en la época de Felipe II,* México, Fondo de Cultura Económica, 1953.

58. COLLIER, JOHN: *Los indios de las Américas,* México, Fondo de Cultura Económica, 1960.

59. CHAUNU, PIERRE: "Las Casas et la première crise structurelle de la colonisation spagnole", en *Revue Historique,* 229 (año 87), 1963, pp. 59-102.

60. GERBI, ANTONELLO: *La disputa del Nuevo Mundo,* México, Fondo de Cultura Económica, 1960.

61. HANKE, LEWIS: *Bartolomé de Las Casas, historiador,* en LAS CASAS: *Historia de las Indias,* México, Fondo de Cultura Económica, 1951.

62. — *La actualidad de Bartolomé de las Casas,* en LAS CASAS: *Tratados,* México, Fondo de Cultura Económica, 1965.

63. LEVILLIER, ROBERTO: *Estudio sobre Américo Vespucio,* en VESPUCIO: *El Nuevo Mundo,* Buenos Aires, Nova, 1951.

64. LLUBERE, RAFAEL ANGEL: *Galileo Galilei,* San José de Costa Rica, 1965.

65. MENÉNDEZ PIDAL, RAMÓN: *El padre Las Casas, su doble personalidad,* Madrid, Espasa-Calpe, 1963.

66. O'GORMAN, EDMUNDO: "Prólogo" a GONZALO FERNÁNDEZ DE OVIEDO: *Sucesos y diálogo de la Nueva España,* México, 1946.

67. — *La invención de América,* México, Fondo de Cultura Económica, 1958.

68. — *La Apologética historia, su génesis y elaboración, su estructura y su sentido,* en LAS CASAS: *Apologética historia sumaria,* México, UNAM, 1967.

69. OTS CAPDEQUI, J. M.: *El Estado español en las Indias,* México, Fondo de Cultura Económica, 1941.

70. PRESCOTT, WILLIAM H.: *The Conquest of Mexico and Peru,* Nueva York, Random House.

71. QUINN, DAVID B.: "État present des études sur la redécouverte de l'Amérique au XVe siècle", en *Journal de la Société des Américanistes,* vol. IV-2, 1966, pp. 343-81.

72. ROSENBLAT, ANGEL: *La población indígena y el mestizaje en América,* Buenos Aires, Nova, 1954.

73. — *La población de América en 1492,* México, El Colegio de México, 1967.

74. SAUER, CARL ORTWIN: *The Early Spanish Main,* Berkeley-Los Angeles, University of California Press, 1966.

75. ZAVALA, SILVIO: *Filosofía política en la conquista de América,* México, Fondo de Cultura Económica, 1947.

76. — *Ensayos sobre la colonización española en América,* Buenos Aires, Emecé, 1944.

77. BORAH, WOODROW: *The Aboriginal Population of Central Mexico on the Eve of the Spanish Conquest,* Berkeley-Los Angeles, University of California Press, 1963.

78. — "La despoblación del México central en el siglo XVI", en *Revista de Historia Mexicand,* 12, 1962.

79. CLAVIJERO, FRANCISCO JAVIER: *Historia antigua de México,* México, 1917.

80. COVARRUBIAS, MIGUEL: *Mexico South, the Isthmus of Tehuantepec,* Nueva York, Alfred Knopf, 1946.

81. CHARNAY, DÉSIRÉ: *Les anciennes villes du Nouveau Monde,* París, Hachette, 1885.

82. CHAVERO, ALFREDO: *México a través de los siglos,* México, 1897.

83. FUENTE, JULIO DE LA: *Educación, antropología y desarrollo de la comunidad,* México, Instituto Nacional Indigenista, 1964.

84. GAMIO, MANUEL: La *población del valle de Teotihuacan,* México, 1922.

85. GARIBAY, ANGEL MARÍA: *Historia de la titeratura náhuatl,* México, Porrúa, 1953.

86. — *Poesía náhuatl,* México, UNAM, 1964.

87. — *Veinte himnos sacros de los nahuas,* México, UNAM, 1958.

88. GIBSON, CHARLES: *Los aztecas bajo el dominio español,* México, Siglo XXI Editores, 1967.

89. LEHMANN, WALTER: "La antigüedad histórica de las culturas granmexicanas y el problema de su contacto con las culturas granperuanas", en *El México Antiguo,* vol. IV, 1936-9, pp. 179-98.

90. LEÓN PORTILLA, MIGUEL: *La filosofía náhuatl,* México, UNAM, 1959.

91. MENDIZÁBAL, MIGUEL OTHÓN DE: *Obras completas,* México, 1946.

92. OROZCO Y BERRA, MANUEL: *Historia antigua y de la conquista de México,* Porrúa, 1965.

93. PAZ, OCTAVIO: "El laberinto de la soledad", en *Cuadernos Americanos* (México), año IX, 1950, núm. 1 (enero-febrero), páginas 79-92.

94. PEÑAFIEL, ANTONIO: *Teotihuacan, estudio histórico y arqueológico,* México, 1900.

95. REDFIELD, ROBERT: *Yucatán,* México, Fondo de Cultura Económica, 1944.

96. SÉJOURNÉ LAURETTE: *Supervivencias de un mundo mágico,* México, Fondo de Cultura Económica, 1953.

97. — "El simbolismo de los rituales funerarios en Monte Albán", en *Revista Mexicana de Estudios Antropológicos,* 16, 1960.

98. SELER, EDUARD: *Comentarios al Códice Borgia,* México, Fondo de Cultura Económica, 1964.

99. WESTHEIM, PAUL: *Arte antiguo de México,* México, Fondo de Cultura Económica, 1953.

100. — *Ideas fundomentales del arte prehispánico,* México, Fondo de Cultura Económica, 1957.

101. Varios autores: *Desarrollo cultural de los mayas,* México, UNAM, 1964.

Otros países

102. CALMON, PEDRO: *Histôria do Brasil,* São Paulo, Editôra Nacional, 1951.

103. ENCINA, FRANCISCO A.: *Resumen de la historia de Chile,* Santiago de Chile, 1961.

104. FRIEDE, JUAN: *Los quimbayas bajo la dominación española,* Banco de la República de Bogotá, 1963.

105. — *Invasión del país de los chibchas,* Bogotá, Tercer Mundo, 1966.

106. LUGON, CLOVIS: *La république communiste chrétienne des guaranis, 1610-1768,* París, Les Éditions Ouvrières, 1949.

107. MEDINA, JOSÉ TORIBIO: *Los aborígenes de Chile,* Santiago de Chile, 1952.

108. MÉTRAUX, ALFRED: *Les Incas,* París, Le Seuil, 1965.

109. PORRAS BARRENECHEA: RAÚL: *Fuentes históricas peruanas,* Lima, Mejía Baca y Villanueva, 1955.

110. VIANNA, HELIO: *História do Brasil,* São Paulo, Edições Melhoramentos, 1963.

III. ARQUEOLOGIA

México y América Central

111. BENSON, ELISABETH P. (Comp.): *Dumbarton Oaks Conference on the Olmec,* 28 y 29 de octubre de 1967, Washington, 1968.

112. BERNAL, IGNACIO: *El mundo olmeca,* México, Porrúa, 1968.

113. CASO, ALFONSO: *Interpretación del Códice Bodley,* México, Sociedad Mexicana de Antropología, 1960.

114. — "Calendario y escritura de las antiguas culturas de Monte Albán", en MIGUEL O. DE MENDIZÁBAL: *Obras completas,* México, 1946.

115. — y BERNAL, IGNACIO: *Urnas de Oaxaca,* México, INAH, 1952.

116. COVARRUBIAS, MIGUEL: *Arte indígena de México y Centroamérica,* México, UNAM, 1961.

117. DRUCKER, PHILIP; HEIZER, R., y SQUIER, R.: *Excavations at La Venta,* Tabasco, 1955, Washington, Smithsonian Institution, 1959.

118. MARQUINA, IGNACIO: *Arquitectura prehispánica,* México, INAH, 1951.

119. MORLEY, SYLVANUS G.: *La civilización maya,* México, Fondo de Cultura Económica, 1947.

120. PIÑA CHAN, ROMÁN: *Tlatilco,* México, INAH, 1964.

121. PORTER, MURIEL NOÉ: *Tlatilco and the Pre-Classic cultures of the New World,* Nueva York, Viking Fund Publications in Anthropology, 1953.

122. PROSKOURIAKOFF, TATIANA: *An Album of Maya Architecture,* Washington Carnegie Institution, 1946.

123. SÉJOURNÉ, LAURETTE: *Un palacio en la ciudad de los Dioses,* México, INAH, 1959.

124. — "Los sacrificios humanos, "religión o política?", en *Cuadernos Americanos* (México), año XVII, 1958, núm. 1 (enero-febrero), pp. 127 ss.

125. — *La cerámica de Teotihuacan,* México, Fondo de Cultura Económica, 1966.

126. — *El lenguaje de las formas en Teotihuacan,* México, 1966.

127. — *Arquitectura y pintura en Teotihuacan,* México, Siglo XXI Editores, 1966.

128. — *Arqueología del valle de México: I. Culhuacán,* México, INAH, 1970.

129. SELER, EDUARD: *Comentarios al Códige Borgia,* México, Fondo de Cultura Económica, 1963.

130. STIRLING, MATTHEW: *Stone Monuments of the Río Chiquito, Veracruz,* Washington, Smithsonian Institution, 1955.

131. THOMPSON, J. ERIC S.: *Grandeza y decadencia de los mayas,* México, Fondo de Cultura Económica, 1959.

132. — *Maya Hieroglyphic Writing. Introduction,* Washington, Carnegie Institution, 1950.

133. VAILLANT, GEORGE C.: The *Aztecs of Mexico,* Harmondsworth, Penguin Books, 1956.

Perú y Bolivia

134. BENNETT, WENDELL C.: *Excavaciones en Tiahuanaco,* La Paz, Biblioteca Paceña, 1956.

135. — *Excavations at Wari, Ayacucho, Peru,* New Haven, Yale University, 1953.

136. BUSHNELL, G. H. S.: *Perú,* Londres, Thames and Hudson, 1956.

137. ENGEL, FRÉDÉRIC: *Geografía humana prehistórica y agricultura precolombina,* Lima, Universidad Agraria, 1966.

138. — *Paracas,* Lima, Mejía Baca Editor, 1966.

139. GAYTON, A. H.: *The Unle Pottery Collections from Nievería,* Berkeley, University of California Publications in American Archaellogy and Ethnology, 1927 : 21 (8), pp. 305-29.

140. KROEBER, A. L.: *The Unle Pottery Collections from Moche,* ed. cit. en [139], 1925: 21 (5), pp. 191-234.

141. — *The Uhl Pottery Collections from Supe,* ed. cit., 1925: 21 (6), pp. 235-64.

142. — *The Uhl Pottery Collections from Chancay,* ed. cit., 1926 : 21 (7), pp. 265-304.

143. — y STRONG, W. D.: *The Uhl Collections from Chincha,* ed. cit., 1924 : 21 (1), pp. 1-54.

144. — — *The Uhle Pottery Collections from Ica,* ed. cit., 1924 : 21 (3), pp. 95-133.

145. — — *The Uhle Collections from Ancón,* ed. cit., 1924 : 21 (4), pp. 135-90.

146. LARCO HOYLE, RAFAEL: *La cerámica de Vicús,* Lima, 1965.

147. — *Perú,* Londres, Nagel, 1966.

148. — *Los mochicas,* Lima, 1938-39.

149. — *Los cupisniques,* Lima, 1941.

150. LUMBRERAS, LUIS: "Esquema arqueológico de la Sierra Central del Perú", en *Revista del Museo Nacional,* 28, Lima, 1959.

151. — "Espacio y cultura en Los Andes", en *Revista del Museo Nacional,* 29, Lima, 1960.

152. MASON, J. ALDEN: *Las antiguas culturas del Perú,* México, Fondo de Cultura Económica, 1957.

153. MEGGERS, BETTY L., Y EVANS, C. (comps.): *Aboriginal Cultural Development in Latin America.* An Interpretative Review, Washington, Smithsonian Institution, 1963.

154. MUJICA GALLO, MIGUEL: *Oro en el Perú,* Lima, Librería ABC, 1967.

155. PONCE SANGINÉS, CARLOS: *Arqueología boliviana,* La Paz, Biblioteca Paceña, 1957.

156. POSNANSKY, ARTHUR: *Guía general ilustrada para la investigación de los monumentos prehistóricos de Tiahuanaco e Islas del Sol y la Luna,* La Paz, 1912.

157. — Una metrópoli prehistórica en la América del Sur, Berlín, 1914.

158. — *Tiahuanaco, The Cradle of American Man,* Nueva York, Augustin, 1946.

159. TELLO, JULIO C.: Chavín. *Cultura matriz de la civilización andina,* Lima, Universidad de San Marcos, 1960.

160. — *Arqueología del valle de Casma,* Lima, Universidad de San Marcos, 1956.

161. — *Paracas,* Lima, Empresa Gráfica T. Schauch, 1959.

162. — "Wira-Kocha", en *Inca,* Lima, 1923, pp. 93-320.

فهرس الرسوم والأشكال التوضيحية

المحتويات

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومــى للترجمــة مشــروع تنميــة ثقافيــة بالدرجـــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ – الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسي سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغني
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانغ رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	چوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ –الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث — كارلوس فوينتس — ت : أحمد حسان

١٤٦ – الورقة الحمراء — ميجيل دى ليبس — ت : على عبد الرؤوف البمبى

١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة — تانكريد دورست — ت : عبد الغفار مكاوى

١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية) — إنريكى أندرسون إمبرت — ت : على إبراهيم على منوفى

١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس — عاطف فضول — ت : أسامة إسبر

١٥٠ – التجربة الإغريقية — روبرت ج. ليتمان — ت: منيرة كروان

١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) — فرنان برودل — ت : بشير السباعى

١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى — نخبة من الكُتاب — ت : محمد محمد الخطابى

١٥٣ – غرام الفراعنة — فيولين فانويك — ت : فاطمة عبد الله محمود

١٥٤ – مدرسة فرانكفورت — فيل سليتر — ت : خليل كلفت

١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر — نخبة من الشعراء — ت : أحمد مرسى

١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى — جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو — ت : مى التلمسانى

١٥٧ – خسرو وشيرين — النظامى الكنوجى — ت : عبد العزيز بقوش

١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢) — فرنان برودل — ت : بشير السباعى

١٥٩ – الإيديولوجية — ديڤيد هوكس — ت . إبراهيم فتحى

١٦٠ – آلة الطبيعة — بول إيرليش — ت : حسين بيومى

١٦١ – من المسرح الإسبانى — اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا — ت : زيدان عبد الحليم زيدان

١٦٢ – تاريخ الكنيسة — يوحنا الآسيوى — ت : صلاح عبد العزيز محجوب

١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١ — جوردون مارشال — ت بإشراف : محمد الجوهرى

١٦٤ – شامبليون (حياة من نور) — جان لاكوتير — ت : نبيل سعد

١٦٥ – حكايات الثعلب — أ . ن أفانا سيفا — ت : سهير المصادفة

١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل — يشعياهو ليقمان — ت : محمد محمود أبو غدير

١٦٧ – فى عالم طاغور — رابندرانات طاغور — ت : شكرى محمد عياد

١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة — مجموعة من المؤلفين — ت : شكرى محمد عياد

١٦٩ – إبداعات أدبية — مجموعة من المبدعين — ت : شكرى محمد عياد

١٧٠ – الطريق — ميغيل دليبيس — ت : بسام ياسين رشيد

١٧١ – وضع حد — فرانك بيجو — ت : هدى حسين

١٧٢ – حجر الشمس — مختارات — ت : محمد محمد الخطابى

١٧٣ – معنى الجمال — ولتر ت . ستيس — ت : إمام عبد الفتاح إمام

١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء — ايليس كاشمور — ت : أحمد محمود

١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية — لورينزو فيلشس — ت : وجيه سمعان عبد المسيح

١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية — توم تيتنبرج — ت : جلال البنا

١٧٧ – أنطون تشيخوف — هنرى ترويا — ت : حصة إبراهيم منيف

١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث — نخبة من الشعراء — ت : محمد حمدى إبراهيم

١٧٩ – حكايات أيسوب — أيسوب — ت : إمام عبد الفتاح إمام

١٨٠ – قصة جاويد — إسماعيل فصيح — ت : سليم عبدالأمير حمدان

١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى — فنسنت . ب . ليتش — ت : محمد يحيى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيميتوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروجان كازانجيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد منتوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بريارا	رومولو جالاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	چان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	ديليو. إيوجين كليبناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت — مارفن شبرد — ت : سامي صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين — ستيفن جراي — ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى — نخبة — ت : علي إبراهيم علي منوفي
٣٣٣ – الإسلام في بريطانيا — نبيل مطر — ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل — آرثر س. كلارك — ت : مصطفى فهمي
٣٣٥ – عصر الشك — ناتالي ساروت — ت : فتحي العشري
٣٣٦ – متون الأهرام — نصوص قديمة — ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء — جوزايا رويس — ت : أحمد الأنصاري
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند — نخبة — ت : جلال السعيد الحفناوي
٣٣٩ – تاريخ الأدب في إيران جـ٣ — علي أصغر حكمت — ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب في الشرق الأوسط — بيرش بيربيروجلو — ت : فخري لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه — راينر ماريا رلكه — ت : حسن حلمي
٣٤٢ – سلامان وأبسال — نور الدين عبد الرحمن بن أحمد — ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازي الزائل — نادين جورديمر — ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت في الشمس — بيتر بلانجوه — ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن — بونه ندائي — ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر — رشاد رشدي — ت : جمال الجزيري
٣٤٧ – الصبية الطائشون — جان كوكتو — ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون في الأدب التركي جـ١ — محمد فؤاد كوبريلي — ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة — آرثر والدرون وآخرين — ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية — أقلام مختلفة — ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق — جوزايا رويس — ت : أحمد الأنصاري
٣٥٢ – قصائد من كفافيس — قسطنطين كفافيس — ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامي في الأندلس (هندسية) — باسيليو بابون مالدونالد — ت : علي إبراهيم علي منوفي
٣٥٤ – الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية) — باسيليو بابون مالدونالد — ت : علي إبراهيم علي منوفي
٣٥٥ – التيارات السياسية في إيران — حجت مرتضى — ت : محمود سلامة علاوي
٣٥٦ – الميراث المر — بول سالم — ت : بدر الرفاعي
٣٥٧ – متون هيرميس — نصوص قديمة — ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية — نخبة — ت : مصطفى حجازي السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس — أفلاطون — ت : حبيب الشاروني
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة — أندريه جاكوب ونويلا باركان — ت : ليلى الشربيني
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة — آلان جرينجر — ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ باينبرج — هاينرش شبورال — ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقي — ريتشارد جيبسون — ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير — إسماعيل سراج الدين — ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس — شارل بودلير — ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب — كلاريسا بنكولا — ت : مصطفى محمود محمد

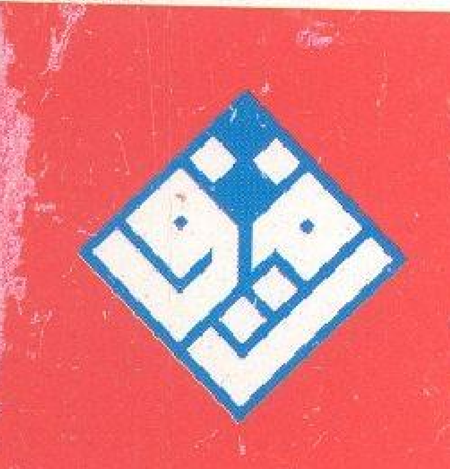
العنوان	المؤلف	المترجم
٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : نخبة
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن

٤٠٧ – الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوي
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامي عمارة
٤١٠– خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوي بغورة
٤١١ – همس من الماضي	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفي بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخاري
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوي
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبي للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلي
٤٢٠ – مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ – الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلاني
٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامي	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ – من طاووس حتى فرح	محمود طلوعي	ت : محمود سلامة علاوي
٤٢٦ – الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ – بانديراس الطاغية	باي إنكلان	ت : ثريا شلبي
٤٢٨ – الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافي
٤٢٩ – هيجل	ليود سبنسر وأندرزجي كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ – كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ – فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ – ماكيافلي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ – جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدي الجابري
٤٣٤ – الرومانسية	دونكان هيث وجودي بورهام	ت : عصام حجازي
٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجي رشوان
٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ – رحالة هندي في بلاد الشرق	شبلي النعماني	ت : جلال السعيد الحفناوي
٤٣٨ – بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ – موت المرابي	صدر الدين عيني	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ – قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوي
٤٤١ – رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتي روي	ت : فخري لبيب
٤٤٢ – حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتي
٤٤٣ – اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت : محمد الشرقاوي
٤٤٤ – أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علماني

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠١٥٨ / ٢٠٠٢





لقد كان التوغل فى عمق أراضى قارة أمريكا اللاتينية صعبًا فى كل الأنحاء؛ فاكتفى الفاتحون - خلال عشرين سنة - بحملات خاطفة انطلاقًا من الشاطئ، مخصصة أساسًا لاصطياد بشر يحلّون فى جزر الأنتيل محل مواطنيها الذين أبيدوا عن بكرة أبيهم تقريبًا فى السنوات العشر الأولى من الاحتلال؛ فكانت تلك هى مرحلة صيد البشر ومرحلة الاختصاصيين بها، وكان بيع الرقيق - التجارة التى لا تدانيها فى الربح إلا تجارات قليلة - مشروعًا حتى سنة ١٥١٧م على الأقل، وهو التاريخ الذى وصلت فيه زمرة من المغامرين إلى الأرض المكسيكية لأول مرة، بتفويض من حاكم كوبا لـ «القيام بغارات على أرض جديدة واصطياد العبيد».

وأخيرًا جاء هوس الذهب الذى أيقظته عينات من هذا الم
وحكايات عجيبة عنه؛ فوفر الدافع اللازم لشن الحملات على ال

تصميم: وائل أحمد